

المنهج النبوي للسيرة النبوية

٨

التربية الجماعية

و. منبر الغضبة

الجزء الأول

دار الوفاء

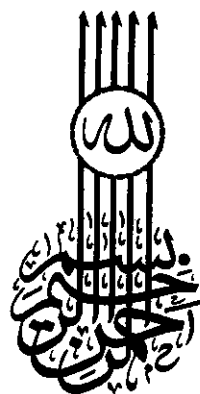
الْمَنْبَجُ التَّزْوِي
لِلنَّبِيَّةِ النَّبِيَّةِ

٨

التَّزْوِيَّةُ الْجَمَاعِيَّةُ

الجزء الأول

منبر الغضب



بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا في هذين الجزأين عن التربية الجماعية ، أو تربية (القاعدة العريضة) .

عشرون عاماً تقريباً من عمر الدعوة مضت في إعداد القيادات للأمة ، بأعلى مواصفاتها ، وأعمق أبعادها ، وكانت المرحلة الثانية من عمر الدعوة ، مرحلة الاتساع الأفقى الذى انطلق تياراً هادراً فى الأرض العربية بعد صلح الحديبية ، ثم تياراً جارفاً بعد فتح مكة ، فانتقلت الدعوة من الصفوة إلى الجماهير .

(قال أبو سعيد الخدرى : جلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً ، فذكر القضية (الحديبية) فقال : لقد دخلنى يومئذ من الشك ، وراجعت النبى ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط ، ولقد عتقت فيما دخلنى يومئذ رقاباً ، وصمت دهرًا ، وإنى لأذكر ما صنعت خاليًا فيكون أكبر همى ، ثم جعل الله عاقبة القضية خيرًا . . . فلما وقعت القضية أسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية ، وما كان فى الإسلام فتح أعظم من الحديبية)^(١) .

(كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام ، وإنما كان القتال حيث التقوا ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها ، وآمن الناس بعضهم بعضًا . فلم يكن أحد تكلم فى الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فى الإسلام ، حتى دخل فى تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأشباه لهم . وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهرًا دخل فيها مثل ما دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر ، وفشا الإسلام فى كل ناحية من نواحي العرب)^(٢) .

فقد كان الجيش الذى اتجه لفتح مكة سبعة أضعاف جيش الحديبية تقريباً .

إن من طبيعة الدعوات والأحزاب عندما تنتقل إلى مرحلة الامتداد الأفقى ، يصبح البناء هشًا ، ينهار تحت الضربة الأولى ، فإذا بالأعداد الكبيرة تتقلص وتتخلى ؛ لأنها أقدمت فى زمن العافية .

ومن أمراض الامتداد الأفقى فى الدعوات والحركات كذلك : أن ينقل الوافدون الكثيرون الجدد أمراضهم إلى الصفوة الأولى . وعوضاً عن أن ترتفع الصفوة بالجماهير إلى مستواها ، سرعان ما تتأثر الصفوة بهذه الأعداد الضخمة ، وتنتقل إليها عدوى

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٦٢٤ .

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٦٠٧ .

الطمع والشهرة والمصلحة والمنفعة . فيتحول التنظيم إلى مزرعة للمصالح بعد أن كان مزرعة للمبادئ .

ومن أمراض الامتداد الأفقى كذلك : أن يبدأ الخلاف ينشب داخل الصف الواحد ، وبعد أن كان الهم الأكبر هو تثبيت أركان الجماعة ، وتجلية مبادئها ، تشغل هذه الجماعات فى نفسها ؛ بحيث تحاول أن تحافظ على مكاسبها ، ويتحول الصراع إلى الصف الداخلى الذى يمزق البناء كله .

هذه الأمراض وغيرها ، كيف أمكن لسيد ولد آدم ﷺ أن يتحاشاها فى صفه ، وارتفع بالبناء شاهقاً قوياً متراصاً كالبيان الواحد .

إن عظمة البناء الأول فى التربية القيادية هو الذى أعطى هذه الثمرة العظيمة فى مرحلة التربية الجماعية ؛ لأن الأركان التى بناها - عليه الصلاة والسلام - والقاعدة الصلبة التى رباها ، كانت من القوة والصلابة مستعصية على الذوبان فى بحر الامتداد الجماهيرى ، بل كانت هى التى تقوم بالدور التربوى الكامل المناط بها . وكان كل فرد منها أمة بذاته ، يقوم مع قومه أو يبيته مقام قائده المصطفى عليه الصلاة والسلام فى عملية البناء ، فالف خمسمائة قائد لن يعجزهم تربية سبع أو عشر أضعافهم فى الامتداد الأفقى . إنهم ليسوا معدين فقط لتربية هذه الأعداد ، بل كان إعدادهم لتربية أمم تدخل فى الإسلام فيما بعد ، فكل فرد منهم مؤهل ليقود أمة ، ويوجه دولة ، فلا يصعب عليه تربية من حوله ، ووضعهم فى المكان المناسب ، وإمدادهم بالنور الذى استمدوه من قائدهم العظيم - عليه الصلاة والسلام .

وكان إمام المربين ﷺ يشرف الإشراف العام على عملية البناء هذه ؛ بحيث يتحقق التوازن الكامل والمطلوب ؛ وبحيث يتمكن من رعاية كل حديقة وكل فرقة ، ويرى جوانب الخلل فيها فيقومها .

ونستطيع القول : إن هذه الإمدادات الجديدة التى انضمت إلى الدعوة خلال الستين الأوليين بعد الحديبية ، سرعان ما انصهرت مع القاعدة الصلبة الأولى ، واكتسبت مواصفاتها ، وصارت قرينة وشبيهة لها ؛ لتمثل مجتمع المهاجرين والأنصار الذى بلغ عشرة آلاف مجاهد .

فإذا بالعشرة آلاف هذه تتحول كلها إلى قاعدة صلبة لتستقبل الأفواج والأمواج الجديدة ، التى بلغت فى تبوك ثلاثين ألفاً من شتى أنحاء الجزيرة العربية .

وإذا كان القادة الأول معدين لاستيعاب وتربية سبعة أضعافهم ، فهؤلاء الجدد يحملون مسؤولية تربية ثلاثة أضعافهم أو أربعة أضعافهم .

وتتحول القاعدة الصلبة من ثلاثمائة فى بدر إلى ألف وخمسمائة فى الحديبية إلى عشرة آلاف فى فتح مكة إلى ثلاثين ألفاً فى غزوة تبوك ، وعملية التربية مستمرة فردية وجماعية ؛ لترتفع الموجة الجديدة إلى أفق القواعد الأولى وتتضم معها لتستوعب الأعداد الجديدة القادمة .

إن الفارق ضئيل جداً فى البداية بين خط الارتفاع وخط الانحدار .

خط الارتفاع الذى يسمو بالوافدين الجدد على الدعوة ، ليتمثلوا صورة سابقهم ، وينصهروا بهم .

وخط الانحدار الذى يشد الصفوة إلى الأرض ، وتنتقل إليها أويئة الوافدين وتضع فى مناهاتهم .

والذين يحملون عبء قيادات العمل الإسلامى فى الأرض مدعوون إلى الوقوف ملياً لدراسة هذه الظاهرة ، ويتعلمون من مدرسة النبوة كيف يحافظون على دعواتهم وجماعاتهم قوية فنية صلبة ؛ لأنه عندما تقع عملية الانهيار فمن الصعب جداً أن تعيد البناء من جديد ، وتخفق كل محاولات الإصلاح فيه .

وسنعرض هنا لنموذج وسطى . كيف كان أمره عندما كان وافداً جديداً ، ثم أصبح فيما بعد يمثل القاعدة الصلبة .

هذا خالد رضي الله عنه على رأس سرية بعد فتح مكة ، ولم يمر على دخوله فى الإسلام أربعة أشهر ، (فكان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك ، فبلغ النبى ﷺ فقال : « مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان أحد ذهباً ، ثم أنفقت فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته ») (١) .

فخالد رضي الله عنه هنا وافد جديد ، تجاوز حده مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أحد قادة الرعيلى الأول ، وواحد من العشرة المبشرين بالجنة . فكان هذا الأمر التأديبى التربوى لخالد فى أن يحافظ على حدوده مع الجيل الأول وذكركه بيوم أحد . فيوم أحد كان خالد بن الوليد هو الذى قاد هجوم المشركين ضد المسلمين ، وهو الذى حرص على قتل رسول الله ﷺ . وكل ما نزل بالمسلمين وبرسول الله ﷺ من جراحات واستشهاد فبسيبه ، بينما كان عبد الرحمن بن عوف يذود عن رسول الله ﷺ حتى جرح عشرين جراحة . فكيف يستويان ؟

ثم يمر الزمن ، ويعيش خالد رضي الله عنه خمس سنين فى الصف الإسلامى ، ليصبح هو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣١/٢ ، وهى عند البخارى ومسلم .

رمز الإسلام فى الأرض ، فيلتقى مع قائد مقدمة جيش الروم ويجرى بينهما الحديث التالى :

(وخرج جرجة حتى كان بين الصفين ونادى : ليخرج إلى خالد . . وخرج جرجة فوافقه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دوابهما . فقال جرجة : يا خالد ، اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله - عز وجل - بعث فىنا نبيه فدعانا فنفرنا منه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فىمن كذبه وباعده وقتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين . . .) (١) .

وإذا بالقاعدة العريضة من الآلاف العشرة فى فتح مكة ، والتى مثلت مجتمع المهاجرين والأنصار - إذ لا هجرة بعد الفتح - إذ بالقاعدة العريضة هذه وخلال دورات التربية السريعة التى شهدتها مع رسول الله ﷺ ، فقد كانت دورة الفتح قرابة شهرين كاملين ، أصبحت معدة لتكون القاعدة الصلبة لاستقبال الوافدين الجدد ، حيث بلغت القاعدة العريضة فى تبوك ثلاثين ألفاً من المسلمين .

وسنشهد الدورة الجديدة الكاملة لهؤلاء الوافدين الجدد ، والتى استمرت كذلك قرابة شهرين كاملين ، حيث كان المهاجرون والأنصار هم قادة الدورة المبشرون فى صفوف هذه الآلاف المؤلفة ، وهم الذين يشرفون على هذه الدورة التربوية العظيمة بين يدى رسول الله ﷺ .

ولم تكن هذه آخر الدورات النبوية فى هذا المجتمع الربانى السعيد .

فهؤلاء الثلاثون ألفاً ، والذين يطلق عليهم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب والذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ... ﴾ [التوبة : ١٢٠] . يتحول هؤلاء من القاعدة العريضة إلى أن يأخذوا شهادة ربانية وشهادة نبوية بأنهم هم القاعدة الصلبة الجديدة ، المهية لاستقبال مائة ألف جديدة خلال عام واحد . أعلن رسول الله ﷺ عن الدورة النبوية الأخيرة فى حياته دورة حجة الوداع ، والتى شهدها مائة وثلاثون ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، هم الرعيل الأخير الذين فازوا بشرف الصحبة النبوية .

(١) تاريخ الطبرى ٣٣٧/٢ .

وبعد هذه الدورة التربوية النبوية الأخيرة قبل وفاة المصطفى ﷺ ، تحول هؤلاء كذلك فى سلم البناء التربوى إلى القاعدة الصلبة التى بدأت تنهياً لاستقبال أمم الأرض، ويقع عليهم عبء نشر الإسلام فى الأرض كلها وهم ماضون لتحقيق موعود الله . أصبح هؤلاء المائة والثلاثون ألفاً هم صحابة رسول الله الذين يتوزعون على ثغور الإسلام ، ويتبارك المسلمون بهم ممن فاتهم شرف هذه الصحبة .

(ولما رجع خالد من حجه وافاه كتاب أبى بكر بالخروج فى شطر الناس ، وأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ واستأثر بهم على المثنى . . . فقال المثنى : والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر فى استصحاب نصف الصحابة ، وبالله ما أرجوا النصر إلا بهم ، فأنى تعزبنى منهم . فلما رأى ذلك خالد منه أعاضه منهم حتى رضى) (١) .

ومضى الصحابة جميعاً قمة البشرية العليا فى التاريخ ، وكانوا القاعدة الصلبة التى قامت بها دولة الله فى الأرض .

(١) تاريخ الطبرى ٣٤٣/٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى التابعين وتابعيهم ومن والاه إلى يوم الدين . وبعد :

فهذا هو الجزء الأول من تربية القاعدة العريضة في حلقة من حلقات « المنهج التربوي للسيرة النبوية » ، حيث يبدأ انتشار الإسلام الأفقى في الأرض العربية على آثار صلح الحديبية ، وانتهاء تخوف العرب من قریش بعد هدنتها مع النبي ﷺ واعترافها به ، وانتهاء فكرة استتصاله ، واعترافها بنص الوثيقة : (وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قریش وعهدهم دخل فيه) (١) .

وانتقلت مسؤولية التربية إلى هذه القيادات الكبرى التي مثلت القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي وهم الألف والخمسمائة الذين حضروا غزوة الحديبية ومن انضم إليهم من الأشعرين والدوسيين ومهاجري الحبشة وغيرهم .

نحن في عهد جديد ، تمثل فيه انسياح الإسلام في الأرض العربية ، خاصة في الحجاز حيث نشهد خلال عامين تضاعف عدد المسلمين عشرة أضعاف ما كانوا عليه ، ولم يعد الإسلام خاصاً بمجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار ، إنما قامت المجتمعات الإسلامية في عدد من القبائل العربية الصغيرة ؛ لتتسع القاعدة الصلبة إلى اثني عشر ألف جندي بعد أن كانوا ألفاً وخمسمائة .

لقد انتقلت التربية من طور البناء الفردي إلى طور البناء الاجتماعي .

ولكن هذا لا يعنى أبداً انتهاء التربية القيادية ، فلا تزال ماضية في طريقها من خلال الذين ينضمون إلى مدرسة النبوة في جامعة المدينة - المسجد النبوي - فيحظى من رسول الله ﷺ بالعناية الخاصة ، والتربية الفائقة إذ استمرت ركائز وعمليات البناء القيادي إلى فتح مكة ، حيث يتم استقبال المهاجرين الوافدين إلى المدينة ، وتوقف هذا الانضمام بعد الهجرة بنص حديث الرسول ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإن استفترتم فانفروا » (٢) .

وسنعيش في أجواء هاتين التريبتين في هذا الجزء الذي أسميناه :

(١) شرح المواهب للزرقاني ١/ ٢٠٠ .

(٢) البخاري في كتاب الجهاد ٣/ ٢٠٠ ، ومسلم في كتاب الإمارة (١٣٥٣/ ٨٥) وغيرهما .

« جيل الفتح » وشعاره قول الله - عز وجل :

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد : ١٠] .

السنة السابعة

أولاً : غزوة ذات الرقاع^(١) (غزوة الأعاجيب)

وهى غزوة محارب وبنى ثعلبة ، وسبها : أن قادماً قدم بجلب^(٢) إلى المدينة ، فاشتره منه أهلها ، فقال للمسلمين : إن بنى أثمار بن بغيض ، وبنى سعد بن ثعلبة قد جمعوا لكم جموعاً ، وأراكم هادئين عنهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة - قال ابن إسحاق : أبو ذر الغفارى ، وقال محمد بن عمر وابن سعد وابن هشام : عثمان بن عفان - وخرج رسول الله ﷺ من المدينة ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة أو سبعمائة أو ثمانمائة ، وسلك على المضيق^(٣) . ثم أفضى إلى وادى الشقرة ، فأقام فيها يوماً ، وبث السرايا ، فرجعوا منها مع الليل ، وخبروه أنهم لم يروا أحداً ووطئوا آثاراً حديثة ، فسار رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى أتى نخلاً^(٤) ، وأتى مجالسهم ، فلم يجد فيها أحداً إلا النسوة . فأخذهن وفيهن جارية وضيفة ، وقد هربت الأعراب فى رؤوس الجبال وهم مطلون على المسلمين .

قال ابن إسحاق : فلقى رسول الله ﷺ جمعاً من غطفان ، فتقارب الناس ولم يكن بينهم قتال ، فخاف الفريقان بعضهم من بعض ، خاف المسلمون أن يغير المشركون عليهم ، وهم غارون ، وخاف المشركون ألا يبرح رسول الله حتى يستأصلهم ، ولما حانت الصلاة صلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف ، وروى البيهقى عن جابر رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ الظهر فهم به المشركون . فقالوا : دعوهم ، فإن لهم صلاة بعد هذه أحب إليهم من أبنائهم ، فتزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره ، فصلى العصر صلاة الخوف . . . وبعث بجعل بن سراقه بشيراً إلى أهل المدينة بسلامة المسلمين ، وغاب رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة .

(١) اختلف فى هذه الغزوة متى كانت ؟ فقال البخارى ومن تبعه : إنها كانت بعد خير ؛ لأن أبا موسى الأشعرى جاء من الحبشة سنة سبع بعد خير كما فى الصحيح فى باب غزوة خير ، وصح فى الصحيح أنه شهد ذات الرقاع . . . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : صليت مع رسول الله ﷺ فى غزوة نجد صلاة الخوف ، رواه البخارى تعليقاً ، وأبو داود والطحاوى وابن حبان موصولاً . . . وفى الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فى غزوة السابعة ، غزوة ذات الرقاع . سبل الهدى والرشاد للصلحى ، هامش ٢٧٦/٦ وأوردها ابن إسحاق وبقية أهل السير بعد غزوة بنى النضير فى السنة الثالثة . وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت فى المحرم سنة خمس ، وجزم أبو معشر أنها بعد بنى قريظة . (ابن هشام ٢٠٣/٢) ، وهناك احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً لغزوتين مختلفتين كما أشار إليه البيهقى . (فتح البارى ٤١٧/٧) .

(٢) جلب : ما جلب من إيل وخيل ومتاع . (٣) المضيق : قرية .

(٤) نخل : من منازل بنى ثعلبة بنجد على يمين من المدينة .

وقد وقعت في هذه الغزوة آيات كثيرة ، روى أكثرها جابر بن عبد الله رضي الله عنه :
 روى البزار والطبراني في الأوسط عنه قال : كانت غزوة ذات الرقاع تسمى غزوة
 الأعاجيب . انتهى .

منها : ما وقع عند إرادة غورث بن الحارث الفتك برسول الله ﷺ .

غورث :

روى الشيخان^(١) وغيرهما من طرق عن جابر رضي الله عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ
 قبل نجد - وفي رواية : ذات الرقاع - فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة يوماً بواد
 كثير العضاء^(٢) ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله
 تحت ظل شجرة فعلق بها سيفه ، فتمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه ، فإذا
 عنده أعرابي جالس فقال : « إن هذا اخترط سيفي^(٣) وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في
 يده صلتا^(٤) . فقال لي : من يمنحك مني ؟ قلت : الله . قال : من يمنحك مني ؟ قلت :
 الله . قال : من يمنحك مني ؟ قلت : الله - ثلاث مرات - فقام السيف^(٥) وجلس » ،
 ولم يعاقبه رسول الله ﷺ .

ومنها : قصة الصبي الذي به جنون :

روى البزار والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا مع
 رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع ، حتى إذا أتى حرة واقم ، حضرت امرأة بدوية
 بابن لها ، فقالت : يا رسول الله ، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان ، ففتح فاه فبزق
 فيه ، فقال : « اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ثلاثاً ، ثم قال : « شأنك بابنك لن
 يعود إليه شيء مما كان يصيبه » .

ومنها : قصة البيضات الثلاث :

روى محمد بن عمر وأبو نعيم عن جابر رضي الله عنه قال في غزوة ذات الرقاع : جاء عتبة
 ابن زيد الحارثي رضي الله عنه بثلاث بيضات أداحي^(٦) . فقال : يا رسول الله ، وجدت هذه
 البيضات في مفحص^(٧) نعام . فقال : « دونك يا جابر ، فاعمل هذه البيضات » فعملتهن ،
 ثم جث بهن في قصعة فجعلت أطلب خبزاً فلا أجده ، فجعل رسول الله ﷺ وأصحابه
 يأكلون بغير خبز حتى انتهى إلى حاجته ، والبيض في القصعة كما هو . ثم قام فأكمل عامة

(١) هي في فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢٦/٧ ح ٤١٣٥ ، ح (٤١٣٦) ، وعند مسلم ٤٣/٤ ح (٨٤٣) .

(٢) العضاء : شجر له شوك . (٣) اخترط السيف : سله من غمده .

(٤) صلتاً : جرده من غمده . (٥) شام السيف : أدخله في غمده .

(٦) أداحي : جمع أدحى ، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعامة وتفرخ .

(٧) المفحص : اسم الموضع الذي يحفره الطائر لبيض فيه .

ومنها : قصة الرجل الذى دعا عليه ﷺ بضرب رقبته :

روى محمد بن عمر ، والحاكم ، وأبو نعيم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى على رجل ثوباً مخروفاً فقال : « ما له غيره ؟ » فقالوا : له ثوبان جديدان فى العيبة ^(١) ، فأمره بلبسهما . فلما ولى الرجل قال : « أليس هذا أحسن ؟ ما له ضرب الله عنقه ؟ » فسمعه الرجل فقال : يا رسول الله ، فى سبيل الله تعالى . فقال رسول الله : « فى سبيل الله » فقتل الرجل فى وقعة اليمامة .

ومنها : قصة الجمل الذى شكأ إليه حاله :

روى البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم عن جابر رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة ذات الرقاع ، حتى إذا كنا بمهبط الحرة أقبل جمل يرقل ^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما قال الجمل ؟ هذا جمل يستعدينى ^(٣) على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، وأنه أراد أن ينحره . اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به » ، فقلت : لا أعرفه فقال : « إنه سيدلك عليه » ، فخرج بين يدي مقنعاً ^(٤) ، حتى وقف على صاحبه ، فجئت به فكلمه رسول الله ﷺ فى شأن الجمل .

ومنها : قصة الشجرتين ، وقصة تخفيف العذاب عن ميتين :

روى مسلم وأبو نعيم والبيهقى عن جابر رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع حتى نزلنا وادياً أفيع ^(٥) ، وذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، واتبعته بإداوة من ماء ، فنظر فلم ير شيئاً يستتر به . وإذا شجرتان بشاطئ الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحدهما ، فأخذ بغصن من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله تعالى » ، فانقادت معه كالبعير المحشوش الذى يصانع قائده ، حتى أتت الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله تعالى » ، فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمتصف فيما بينهما لأم بينهما - يعنى جمعهما - فقال : « التما على بإذن الله تعالى » فالتامتا . قال جابر : فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقدمي فيتعد ، فجلست أحدث نفسي ، فحانت منى التفاتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة فقال برأسه : « هكذا » يميناً وشمالاً ، ثم أقبل ، فلما انتهى قال : « يا جابر . هل رأيت مقامى ؟ » قلت : نعم . قال : « فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة

(٢) يرقل : يسرع .

(١) العيبة : ما تحمل فيه الثياب .

(٣) يستعدينى : يطلب منى نصره .

(٤) مقنعاً : ذليلاً .

(٥) أفيع : واسع .

منهما غصناً وأقبل بهما ، حتى إذا قمت مقامى فأرسل غصناً عن يمينك ، وغصناً عن يسارك » قال جابر : فقطعت من كل واحدة منهما غصناً ثم أقبلت أجتريهما ، حتى إذا قمت مقام رسول الله ﷺ أرسلت غصناً عن يميني وغصناً عن يساري ، ثم لحقت برسول الله ﷺ فقلت : قد فعلت يا رسول الله ، فعم ذلك ؟ قال : « إني مررت بقبرين يعذبان ، فأحببت بشفاعتي أن يرفه (١) عنهما ، ما دام القضييان رطبين » . فقال رسول الله ﷺ : « يا جابر ، ناد : الوضوء الوضوء » . فناديت : ألا وضوء ألا وضوء ؟ قال : قلت : يا رسول الله ما وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يردد لرسول الله ﷺ في أشجابه (٢) له على حمارة (٣) من جريد . فقال : « انطلق إلى فلان ابن فلان الأنصاري ، فانظر هل في أشجابه من شيء ؟ » فانطلقت إليه ، فنظرت فلم أجد فيها قطرة ماء ، إلا قطرة في عزلاء (٤) شجبت منها ، لو أني أفرغته بشربة يابسة (٥) . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته . قال : « اذهب فأتني به » فأتيت به ، فأخذ بيده ، فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ، ويغمزه (٦) بيده ، ثم أعطانيه فقال : « يا جابر ، ناد بجفنة (٧) » ، فقلت : يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا ، فبسطها في الجفنة ، ففرق بين أصابعه ، ثم وضعها في قعر الجفنة . وقال : « خذ يا جابر ، فصب على وقل : بسم الله » فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، فقارت الجفنة ، ودارت حتى امتلأت فقال : « يا جابر ، ناد من كانت له حاجة بماء » ، فأتى الناس فاستقوا حتى رروا . فقلت : هل بقي أحد له حاجة ؟ ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مملوءة .

وشكى الناس الجوع فقال : « عسى الله أن يطعمكم بسيف البحر ؟ » فأتينا سيف البحر (٨) . فالقى دابة فأورينا (٩) على شقها النار ، فشوينا وأكلنا وطبخنا ، وشبعنا .

قال جابر : فدخلت أنا وفلان وفلان حتى عد خمسة في حجاج عينيها (١٠) ما يرانا أحد حتى خرجنا ، وأخذنا ضلعاً من أضلاعها ، فقوسناه ، ثم دعونا بأعظم رجل في الركب ، وأعظم جمل فدخل تحته ما يطأطي رأسه .

ذكر قصة الطائر الذي سقط على فرخه لما صاده بعض الصحابة :

روى محمد بن عمر ، وأبو نعيم - رحمهما الله تعالى - عن جابر رضي الله عنه قال : إنا لمع

(١) يرفه : يخفف .

(٢) الأشجابه : جمع شجب ، وهو السقاء الذي خلقت ولبى .

(٣) الحمارة : أعواد يعلق عليها أسقية الماء . (٤) عزلاء : فم القرية الأسفل .

(٥) شربة يابسة : أى قليل جداً . (٦) يغمزه : يعصره .

(٧) الجفنة : إناء كالقصعة . (٨) سيف البحر : جانبته .

(٩) فأورينا : أوقدنا . (١٠) حجاج عينيها : العظم المستدير المشرف على العين .

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من أصحابه بفرخ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه - أو أحدهما - حتى طرح نفسه فى يدى الذى أخذ فرخه . فرأيت الناس يعجبون من ذلك فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا الطائر ؟ أخذتم فرخه ، فطرح نفسه رحمة بفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه » (١) .



لقد أنهت اتفاقية الحديبية الحرب بين قريش والمسلمين ، وأنهت غزوة خيبر الحرب مع اليهود ، بينما بقى العدو الثالث غطفان ، الذى خاض غزوة الخندق مع قريش واليهود ، معلناً الحرب ضد المسلمين ، وخطر غطفان هو حدودها المتصلة مع المدينة شمالاً وشرقاً ، ووجود العدو اللدود عيينة بن حصن الذى يخوض معركة فناء أو بقاء ضد المسلمين ، وتكاد تكون كل السرايا اللاحقة تمت إلى غطفان بصلة فى أحد فروعها ، أو مع أحد حلفائها ، وبنو محارب وبنو ثعلبة جزء من غطفان كانوا يعدون العدة للإغارة على المدينة ، فقاد رسول الله ﷺ الغزوة بنفسه فى عدد من المسلمين ، تراوحت أرقامه بين ٤٠٠ - ٨٠٠ جندي ، ونرجح هذا العدد الكبير ، فليس هدف الغزوة عسكرياً فقط ، وإن كانت عملية إبراز القوة النبوية ضرورية بعد عهد الحديبية ، حتى لا يتراعى إلى القبائل ضعف المسلمين ، وقبول الصلح نتيجة هذا الضعف .

دورة تدريبية :

فالهدف التربوى هدف رئيسى من الغزوة ، حيث أصبح المسجد النبوى يضيق بالمسلمين الوافدين ، فكانت الصحراء المترامية الأطراف هى الساحة الواسعة والفضاء المعين على التوجيه والتربية ، كما كانت فرصة للتدريب على المشاق ، والمهام الصعبة ، للإعداد لمعارك أضخم وأعتى فى المستقبل ، وفى وصف هذه الغزوة نستمتع لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنه يقول :

(خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن فى ستة نفر بيننا بعير نعتقه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدمائى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب به الخرق على أرجلنا . وحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك وقال : ما كنت أصنع بأن أذكره . كانه كره أن يكون شئ من عمله أفشاء) (٢) .

فهذه صورة منتزعة من المعاناة الصعبة فى هذه الصحراء ، حيث لا يملكون الأحذية ، إنما يسرون حفاة ، فتنتقب أقدامهم ، وتُشوى أرجلهم باللهيب المنبعث من الرمل ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٦٩/٥ - ٢٧٤ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤١٧/٧ ح (٤١٢٨) .

وتسقط أظفارهم ، حتى يواجهوا هذا الحر القاتل بالخرق يلفونها على أرجلهم .

وأبو موسى الأشعري القديم الجديد ^(١) رحمته ، يدخل هذه الدورة التدريبية لأول مرة ، فقد انضم للمسلمين بعد خير ، فكانت هذه أول غزوة يمضى بها مع رسول الله ﷺ فكانت غزوة حافلة بالمشاق والصعاب ، وكذلك أبو هريرة الدوسي ومن معه ، فهؤلاء الوافدون الجدد من اليمن والحيشة ودوس ، لابد أن يخوضوا هذه الدورات السريعة ليأخذوا موقعهم فى الجماعة المسلمة .

وتعنى هذه الدورة كذلك : أنه لا أحد فوق التدريب والجهاد مهما علا كعبه فى قومه وقبيلته ، فلا بد أن يلقي من التدريب والمشقة ما يحتاج إليه ؛ ليكسب شرف الانضمام إلى الصف المسلم ، فلا دين بلا جهاد .

وتدريب على الخوف كذلك :

فالمواجهة مع العدو ، والتعرض له ، أمر مقصود لذاته . ففى هذه الغزوة نرى صحيح النصوص تؤكد هذا المعنى من خلال فقرتين : الأولى : (وأخاف الناس بعضهم بعضاً) ^(٢) وفسرها ابن إسحاق بقوله : (خاف المسلمون المشركين أن يغيروا عليهم وهم غارون ، وخاف المشركون ألا يبرح رسول الله ﷺ حتى يستأصلهم) ^(٣) .

والفقرة الثانية : هى أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين صلاة الخوف فى هذه الغزوة ، كما ورد فى كتب الصحاح بروايات متعددة . ففى الرواية السابقة : (وأخاف الناس بعضهم بعضاً ، فصلى النبى ﷺ ركعتى الخوف ، وفى رواية عن صالح بن خوات عمن شهد مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف : أن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلى بالتي معه ركعة ، ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم) ^(٤) .

فالمجتمع الإسلامى كما قال عليه الصلاة والسلام عنه :

« رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » ^(٥) .

(١) هو من قدماء المهاجرين كما دثرنا من قبل ، ولكنه أقام مع قومه الأشعريين فى اليمن ، ثم عاد بعد الحديبية مع جعفر وأصحابه من الحيشة .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤١٧/٧ من ح (٤١٢٧) .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٦٨/٥ .

(٤) فتح البارى ح ٤١٢٧ .

(٥) أحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم .

فالصلاة لا بد أن تؤدي حتى في قلب المعركة وفي مواجهة العدو، فهي عمود الإسلام الذي يقوم عليه هذا الدين ، « ولا خير في دين لا صلاة فيه » (١) وقمة الإسلام التي تجعله المهيمن والحاكم ، والمسيطر باسم الله هو : الجهاد .

وما صلاة الخوف التي نشهدنا هنا ، وفي بعض الروايات : أن صلاة الخوف إنما شرعت أول ما شرعت في غزوة ذات الرقاع ؛ لتعلم هذا الصف المسلم أن قضيتي الصلاة والجهاد هما أهم قضايا الإسلام على الإطلاق ، ويدركهم جنود ذات الرقاع ، ليس إدراكاً نظرياً مجرداً ، بل ممارسة حقيقية فعلية ، وهم في قلب الخطر ، وجحيم المعركة ، والخوف جاثم من أن يهجم العدو فيبيد هؤلاء المصلين إن عجز فريق الحراسة عن صدهم، وجاءت الصلاة التي تمثل لقاء الفرد المسلم مع ربه قرينة بالصبر ، والخوف والجوع والجهاد . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧) [البقرة] .

جعيل بن سراقة (٢) :

ويظهر أمامنا هذا الاسم هنا ، بعد أن ظهر مرة واحدة في غزوة الخندق، أما هنا فقد بعثه رسول الله ﷺ بشيراً إلى أهل المدينة بسلامة المسلمين (٣) . أما صفته فكان **مُؤْتَمِرًا** (رجلاً صالحاً دميماً قبيحاً) وأسلم قديماً وشهد مع رسول الله ﷺ أحداً .

وفي أحد برزت محبته الفاتكة لرسول الله ﷺ فعبر عن خوفه قائلاً : (يا رسول الله ، إنه قيل لي : إنك تقتل غداً) ، وهو يتنفس مكروباً .

فضرب النبي ﷺ في صدره وقال : « أليس الدهر كله غداً ؟ » (٤) .

وقد مر ذكره معنا من قبل حين وجه رسول الله ﷺ الأنظار إليه ، والاهتمام به من المسلمين كافة ، بعد أن كان نكرة ، أو كاد يكون كذلك ، فغير اسمه وسماه بعد جعيل : **عَمْرًا** .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٤٠ .

وقد رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس (ثقة من السادسة) .

(٢) قال محمد بن عمر : هو جعيل بن سراقة فصفه فقيل : جعيل . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ١٨٦] .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٢٦٩ . (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٤٥ .

ولم يجد المسلمون فيما يهتفون به من أراجيز مثل أن يهتفوا بهذا الحدث السعيد لهذا المسلم الضعيف الدميم (فيرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جعيل عمراً . وكان للبائس يوماً ظهراً^(١)

ويشارك رسول الله ﷺ صحبة السعداء بهذه الحفاوة بهذا البائس الضعيف ، فكلموا وصلوا إلى عمرو ، قال معهم : عمراً وكلما وصلوا إلى ظهر ، قال معهم : ظهراً (فجعل رسول الله ﷺ لا يقول من ذلك شيئاً إلا أن يقول حتى أصبح محط معرفة المسلمين جميعاً واهتمامهم به ، وشارك هو بهذه السعادة فكان يهتف معهم : عمراً)^(٢) .

(وجعل جعيل يقول مع المسلمين : سماه من بعد جعيل عمراً ، وهو يضحك مع المسلمين فعرفوا أنه لا يبالي)^(٣) .

وبعد فتح مكة ، وحين كان الجيش الإسلامي يعج بكبار الشخصيات العربية ، ومن بينها سيد بنى تميم : الأقرع بن حابس وسيد بنى غطفان : عيينة بن حصن ، وراحت الأموال تندفق عليهم لتأليف قلوبهم فيعطيههم رسول الله ﷺ المائة من الإبل ، راع سعد ابن أبي وقاص ألا يجد شيئاً يعطى لجعيل بن سراقه ، وهو الذى يعرف مدى اهتمام رسول الله ﷺ به ، فمضى إلى قائد الحبيب - عليه الصلاة والسلام - قائلاً :

(يا رسول الله ، أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن وأشباههما مائة مائة من الإبل وتركت جعيل بن سراقه الضمري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده ، لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتكما ليسلما ، وولت جعيل بن سراقه إلى إسلامه »)^(٤) .

وكان هذا أعظم عطاء فى الوجود ناله جعيل ﷺ .

أحب إليهم من أولادهم :

لقد كان المشركون يدركون نوعية هذا الجيل الذى يحاربونه من المسلمين ، ويدركون أنه الجيل العابد فى الأرض ، والجيل الطاهر فى الوجود ، ومن أجل هذا عندما فكروا بغزوهم بعد أن فاتتهم الفرصة فى صلاة الظهر قالوا : (دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم ، فتزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره ، فصلى العصر صلاة الخوف)^(٥) .

لقد غدت الصلاة عند الجيل المسلم باعتراف أعدائهم أحب إليهم من أبنائهم ، وهذا

(٤) المصدر نفسه ٢٤٦/٤ .

(١ - ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٥/٤ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٠٩/٥ عن البيهقي .

التكوين العميق لهذا الجليل لم يكن له وجود عند الإنسان الجاهلى الذى كان يعبد ذاته ويعبد شهرته ، ولم تكن علاقته مع آلهته المدعاة أكثر من وسيلة للمحافظة على هذه الذات ، فهو يدرك بطلانها وزيفها لكنه يقول :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف] .

فهو يحافظ عليها محافظته على التراث الذى ورثه من آبائه ، عن غير قناعة بها أو إيمان بجذواها ، لكنه يعرف أن تفاعل المسلم مع هذا الدين الجديد ، وإقدامه على الصلاة قد ملأ قلبه شغفًا وحبًا ، يفوق حبه لأبنائه وولده .

ما كنت أصنع بأن أذكره :

وعودة إلى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ، الوافد الجديد إلى دنيا الإسلام فى المدينة ، والذى انضم إلى الصف المؤمن بعد خبير ، نعود إليه وقد حدثنا عن سقوط أظفاره ونقب قدميه حتى لفهما بالخرق ، يقول فى ختام حديثه : (وحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذاك ، وقال : ما كنت أصنع بأن أذكره . كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفضاه)^(١) .

فهذا جانب آخر من البناء النفسى عند جيل العقيدة هذه ، فهو يتحدث عن معاناته فى هذه الرحلة الشاقة المضنية ، راح يندم أشد الندم لذكره هذه المعاناة فهو يخاف أن يدخله الرياء أو يدخله العجب فى عمله فيحبط عمله ، وشتان شتان بين الإنسان الجاهلى الذى يديج القصائد الطوال فى الفخر الكاذب ، وفى كثير من الأمور التى لم يقع منها إلا القليل ، وبين الإنسان المسلم الذى تدمى قدماء وتسقط أظفاره ، ويضطر للحديث عن ذلك تعليمًا وحفظًا لسيرة رسول الله ﷺ وصحبه ، ثم يخشى بعدها أن يكون قد أفسى شيئًا من عمله بعد أن كان سرًا بينه وبين ربه .

هذه النماذج الجديدة التى تبنى برعاية رسول الله ﷺ فى هذه الصحراء ، تبنى عقيدة وسلوكًا وصبرًا وتضحية وإخلاصًا ؛ لتعد لقيادة البشرية فيما بعد .

المعجزات النبوية :

وتطالعنا المعجزات النبوية فى هذه الغزوة العظيمة التى أطلقوا عليها اصطلاحًا «غزوة الأعاجيب» ، حيث نشهد فى هذه المعجزات اشتراك الكون كله - إنسه وجهه وملائكته وجماداته ، وبهائمه ونباتاته - فى الإقرار بنبوة المصطفى ﷺ ، ويشهد هذا الجليل الفريد أو بعض أفراد طرقة من هذه المعجزات فيحدثوننا عنها ، كل يحدث بما رأى أو سمع .

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤١٧/٧ ح (٤١٢٨) .

وصاحبنا الفتى المؤمن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام هو الذى يروى لنا معظم هذه المعجزات .

أ- غورث الفاتك :

وهذه رواية البخارى : (عن جابر قال : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فجاء رجل من المشركين ، وسيف النبى ﷺ معلق بالشجرة ، فاخترطه فقال له : تخافنى ؟ فقال : « لا » . قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : « الله » ، فتهدده أصحاب النبى ﷺ ...) (١) .

وفى الرواية الثانية عنه (... فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتاً ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، فهذا هو ذا جالس » ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ) (٢) .

ويقدم لنا الحافظ ابن حجر رحمه الله إضافات واستنباطات فى شرحه للحديثين نقتطف منها :

(وكرر ذلك فى رواية الجهاد ثلاث مرات ، وهو استفهام إنكار أى لا يمنعك منى أحد ؛ لأن الأعرابى كان قائماً والسيف فى يده ، والنبى ﷺ جالس لا سيف معه ، ويؤخذ من مراجعة الأعرابى له فى الكلام أن الله سبحانه وتعالى منع نبيه ﷺ منه ، وإلا فما أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الخطوة عند قومه بقتله ... بل وقع فى رواية إبراهيم بن سعد فى الجهاد بعد قوله : « الله » : « فشام السيف » ، وفى رواية معمر : « فشامه » والمراد : أغمده ، وهذه الكلمة من الاضداد ، يقال : شامه إذا استله ، وشامه إذا أغمده ، قاله الخطابى وغيره ، وكأن الأعرابى لما شاهد ذلك الثبات العظيم ، وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه ، وعلم أنه لا يصل إليه فألقى السلاح وأمكن من نفسه ، ووقع فى رواية ابن إسحاق (٣) بعد قوله « قال : الله » : (فدفع جبريل فى صدره ، فوقع السيف من يده فأخذه النبى ﷺ وقال : « من يمنعك أنت منى ؟ » قال : لا أحد . قال : « قم فاذهب لشأنك » . فلما ولى ، قال : أنت خير منى) وأما قوله فى الرواية : (« فهذا هو جالس » ثم لم يعاقبه) فيجمع مع رواية ابن إسحاق بأن قوله : « فاذهب » كان بعد أن أخبر الصحابة بقصته فمن عليه لشدة رغبة النبى ﷺ فى

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤٢٦/٧ ح (٤١٣٦) .

(٢) المصدر نفسه ح (٤١٣٥) .

(٣) الرواية التى يشير إليها ابن حجر ليست موجودة فى سيرة ابن هشام ، ولعلها فى رواية ابن إسحاق عن يونس ابن بكير .

استتلاف الكفار ليدخلوا الإسلام، ولم يؤاخذه بما صنع بل عفا عنه . وقد ذكر الواقدي^(١) في نحو هذه القصة أنه أسلم ، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير . ووقع في رواية ابن إسحاق التي أشرت إليها : ثم أسلم بعد)^(٢) .

وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى هي الهدف الرئيسي للأنبياء والرسل ، فلا عجب أن يبقى رسول الله ﷺ على هذا الفاتك ، كما أبقى من قبل على سراقه بن مالك بن جعشم ، وترجيح عدم إسلامه كذلك حيث لم يرد في الروايات الصحيحة هو المعتمد ، فلو أسلم لسارع القوم جميعاً إلى تكذيبه واتهامه مباشرة بأن محمداً قد سحره ، بينما حين يمضى متحدناً عما لقيه من ثبات الرسول ﷺ وعجزه عن الفتك به ، بعد أن أصبح السيف صلتاً في يده ، ومحمد ﷺ لا سلاح معه ، ولا حارس له ، ولا صحابي بجواره، أوقع في الأثر في صفوف الأعراب، وفي تكوين أرضية لديهم أن محمداً ممنوع، وأنه ليس رجلاً عادياً وطالب مُلك ، إنما هو نبي معصوم، وتُفت في أعضادهم عن التفكير بمتابعة حربه ومواجهته ، وقد التقت الحادثتان معاً: حادثة صلاة الخوف التي أكدت للعدو أن الرسول ﷺ يوحى إليه، وحيل بينهم وبين الهجوم المباغت على المسلمين، وحادثة العفو عن غورث ، ومضيه رسولاً إلى قومه والأعراب المجاورين لقومه يحدثهم عن عظمة محمد الذي أخذ السيف منه ، وعفا عنه ، وعن ثباته وشجاعته حين لم يخش غورثاً وهو الفاتك الجريء في قومه والسيف صلت في يده ، ومحمد ﷺ أعزل من السلاح .

ولا شك أن الغزوة قد حققت أهدافها الدعوية من خلال هذين الحدين مع العدو .

ونشير كذلك إلى أن ملائكة الله تعالى ، وسيد الملائكة هو الموكل بحماية سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ، فكما في رواية ابن إسحاق : (فدفع جبريل في صدره ، فوقع السيف من يده) ، فجند الله تعالى - في الكون كله - والروح الأمين جبريل يعيشون كل حركة من حركات النبي ﷺ بأمر ربهم ؛ ليدفعوا عنه الأذى من كل أفاك ومجرم أثيم في الأرض ، ونحن لسنا إذن أمام غزوة عسكرية ، بمقدار ما نحن أمام غزوة دعوية لأرض نجد في قالب عسكري ، يتناسب مع عقلية الأعراب الذين لا بد لهم من الرهبة حتى يصيخوا إلى هذا الدين الجديد .

ب- المرأة البدوية وصبيها :

وإذا كان غورث قد مضى في صفوف الرجال يتحدث عن عظمة محمد ﷺ

(١) ذكر الواقدي قصة عن رجل آخر اسمه : دعثور ، وفي غزوة غطفان لا في غزوة ذات الرقاع ، ولعلهما حادثان لا حادث واحد .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢٦/٧ ، ٤٢٧ .

وشجاعته وحلمه ، فهذه المرأة البدوية من عرض الناس تأتى إلى هذا الرجل المبارك ومعها ابنتها فقالت : (يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان ، ففتح فاه ، فبزق فيه فقال : « احسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ثلاثاً ، ثم قال : « شأئك بابنك لن يعود إليه شيء مما كان يصيبه ») .

وإذا كان الروح الأمين جبريل هو الذى يغمز قناة غورث فيرمى السيف من يده ، فإن رسول الله ﷺ هو الذى يبصق فى فم الصبى ليخرج الشيطان منه ، ويعلمه أنه رسول الله فينطفئ ويذوب أمام نور النبوة ، والمركة فى الأرض بين جند الرحمن وجند الشيطان ، كما هى بين رسول الرحمن والشيطان الذى يخسأ أمام رسول الله ﷺ ، وتنال الرحمة المهداة هذا الصبى المصاب فيتم شفاؤه بإذن الله ببصقة المصطفى ﷺ فى فيه ، كما تنال قلب هذه الأم الكسير التى لم تدع موقعاً تداوى ابنتها إلا قصدته . وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون شفاؤه على يدى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فتمضى فى مضارب الصحراء تتحدث عن هذا الرجل المبارك الذى أنقذ ابنتها من مس الشيطان .

وينقلب غورث الفاتك والمرأة البدوية دعاء لدين الله ولرسول الله فى قلب غطفان وما جاورها كذلك .

جـ- والجمل الذى يشكو صاحبه :

وكل شيء فى هذا الوجود يحتاج إلى الرحمة المهداة للبشرية، حتى هذا الجمل الذى بلغه وصول رسول الله ﷺ إلى هذه الأرض ، يشق الجموع كلها ماضياً إلى رسول الله ﷺ حيث (أقبل يركل ، فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما قال هذا الجمل ؟ هذا جمل يستعدينى على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، وأنه أراد أن ينحره ، اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به » فقلت : لا أعرفه ، فقال : « إنه سيدلك عليه » ، فخرج بين يدى معنقاً حتى وقف على صاحبه ، فجنث به فكلمه ﷺ فى شأن الجمل (١) .

إننا نقرأ فى كتاب الله قصة سليمان عليه السلام ، والنملة التى وقفت خطيبة واعظة فى قومها: ﴿ ... يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) فَتَبَسَّمَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا ... ﴿ [النمل] .

فلا عجب أن نجد الجمل الذى يعانى هذه المعاناة من صاحبه أن يجد فرصة يلقي فيها رسول الله ﷺ ويشكو له الظلم الواقع عليه ، وليس البشر بأحق بالرحمة المهداة من الحيوانات والبهائم ، وانتصف رسول الله ﷺ لهذا الجمل ، وأنقذه من النحر ، كما

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/٩ .

فى إحدى روايات الطبرانى : (فمرَّ عليه بعير مادَّ بجرائه يرغبو ، فقال : « على بصاحب هذا » فجاء فقال : « هذا يقول : نتجت عندهم فاستعملونى حتى إذا كبرت أرادوا أن ينحرونى » ، وقال : « ما من شىء إلا يعلم أنى رسول الله إلا كفره أو فسقه الإنس والجن » (١) .

فهذا الوجود كله يسبح بحمد الله تعالى ، ويشهد لمحمد ﷺ بالرسالة ، فلا عجب أن يجد هذا الجمل الصبور الفرصة سانحة ليشكو لنبىه ﷺ ظلم صاحبه له .

د - والشجر له حق مثل الجمل :

وليست دواب الأرض بأحق بطاعة رسول الله ﷺ والسلام عليه من نباتاتها ، فكل من فى السموات والأرض يعرف رسول الله ﷺ .

لقد رأيناه وهو يصعد فى السموات العلى فيستأذن جبريل بالدخول ، فتقول ملائكة السماء فى كل سماء : ومن معك ؟ فيقول : محمد رسول الله . فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد ، فيقولون : أو قد بعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون : حياه الله من أخ وصاحب ، حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه) (٢) .

فهم يعرفونه منذ الازل وقبل أن يبعث ، وهم يؤمنون بنبوته ، إنما الجديدهم عليهم بعثه إلى الثقيلين الجن والإنس ، فالملائكة تعرفه وتقر بنبوته ، والأنبياء جميعاً أخذ عليهم ميثاق الإيمان به ، والبهايم تعرف نبوته ، والنبات والجماد يعرف نبوته ، وكل من فى السموات والأرض يعرف نبوته إلا عصاة وكفرة الإنس والجن .

وفى رواية الطبرانى مع هاتين الشجرتين عن جابر :

(ثم خرجنا فنزلنا منزلاً صحراء ديمومة (٣) ليس فيها شجرة ، فقال النبى ﷺ لجابر : « يا جابر ، انطلق فانظر لى مكاناً » - يعنى للوضوء - فانطلقت فلم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاه . فرجعت إلى النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، لم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنها اجتمعتا لسترناك ، فقال النبى ﷺ : « انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما : اجتماعاً فخرجت فقلت لهما ، فاجتمعتا كأنهما فى أصل واحد ، ثم رجعت فأخبرت النبى ﷺ فخرج حتى قضى حاجته ثم رجع فقال :

(١) قاله الطبرانى فى إحدى رواياته . انظر مجمع الزوائد ٦/٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٦/٢ . (٣) ديمومة : الصحراء الواسعة .

« اتتهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما : ارجعا كما أنتما » فرجعتا (١) .

وفى رواية : (ثم سرنا ونزلنا منزلاً فقام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيت ثم رجعت مكانها ، فلما استيقظ ذكرت له ، فقال : « هي شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها » (٢) .

وليس الحى أولى برحمته من الميت :

فرسول الله ﷺ يكلف جابر أن يأتيه بغصنين غصّين من كل شجرة ، وذلك حتى لا تحزن أية واحدة منهما أن نالت بركة رسول الله ﷺ دون الأخرى ، ويكلف جابراً أن يمضى إلى حيث موقعه الأول ، قال : « فإني مررت بقبرين يعذبان ، فأحببت بشفاعتى أن يرّفه عنهما مادام القضييان رطبين » .

فالله تعالى بعث نبيه المصطفى رحمة مهداة لكل العوالم ، وليس لعالم واحد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) [الانبياء] .

ومن هذه العوالم عوالم الاموات ، على أمل أن تنال هذين شفاعته المصطفى ﷺ .
حتى الفراخ الصغار نالتها رحمته :

إذ أعاد فرضاً صغيراً لأبويه عندما فرق بينه وبينهما أحد الصحابة ، وعلم المسلمين من هذا الشاهد العملى الحى عظمة رحمة رب العالمين بعباده .
« والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه » .

ثم كانت الرحمة بالجيش عامة :

حيث استحکم العطش الشديد بالجيش ، بهؤلاء الشامخات ، وكادت تقطع أعناقهم فى هذه الصحراء ، فجاء بقطرات موجودة فى مزادة له ﷺ عند أحد الانصار ، (فقال : « يا جابر ، ناد بجفنة » . فقلت : يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل ، فوضعت بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا ، فبسطها فى الجفنة ، ففرق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة ، وقال : « خذ يا جابر فصب علىّ وقل : بسم الله » فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ففارت الجفنة ، ودارت حتى امتلأت ، فقال : « يا جابر ، ناد من كان له حاجة بماء » فأتى الناس فاستقوا حتى رروا .

فقلت : هلبقى أحد له حاجة ؟ ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة ، وهى مملأى .

(١) مجمع الزوائد ٧/٩ . وقال الهيثمى فيه : رواه أحمد والطبرانى .

(٢) مجمع الزوائد ٦/٩ . وقال فيه : رواه أحمد بإسنادين ، والطبرانى بنحوه .

وشكا الناس الجوع فقال : « عسى الله أن يطعمكم بسيف البحر » ، فأتينا سيف البحر ، فالقى دابة ، فأورينا على شقها النار ، فشوينا واكلنا وطبخنا وشبعنا) .
فى التربية الجماعية :

لاشك أن أعداداً كبيرة فى هذا الجيش قد انضمت إليه ، ولم تعرف من الإسلام إلا الشهادتين ، ونفرت مع رسول الله ﷺ تتفقه فى الدين منه ومن أصحابه ، وحتى تتلقى هذه الأعداد دفعات إيمانية تثلج صدرها باليقين بنبو محمد ﷺ ، وترى المعجزات الربانية التى تعرف منها الطمأنينة القلبية بهذه النبوة ، كانت هذه الكرامات والأعاجيب ترى واحدة تلو الأخرى ، بشكل فردى أو أمام نفر من الجيش ، ثم الجيش كله فى تهيئة الشراب له من الماء الذى يفور من أصابع رسول الله ﷺ ، وفى الدابة التى ساقها الله تعالى لهذا الجيش ، كى يأكل ويشبع ، ويشرب ويروى ، فنشر هذه الأمور فى صفوف الجيش كله الإيمان واليقين، حيث يصعب الوقوف عند التربية الفردية لكل فرد فى الجيش.

إن انسياح الإسلام الجديد بعد الحديدية ، ويده إقبال الناس، والفتح المين بهذا الدين قد بدأت ثماره بهذه الأعداد الوافدة الجديدة ، والتى خرجت لتلقى دورتها التدريبية فى الجوع والتعب والنصب والمشقة ، وتكون معدة بهذه الصعاب لمواجهة العدو فى المعارك القادمة ، وتتلقى دورتها التدريبية كذلك بعد صبرها على اللأواء والمشقة والجوع والنصب والظما ؛ لتلقى هذه الكرامات الإلهية على يد رسول الله ﷺ ، وتشهد معجزات نبوته .

لقد استسقى موسى لقومه، فانبجس الماء من الحجر اثنتا عشرة عيناً فى هذه الصحراء :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ... ﴾ [البقرة : ٦٠] .

وها هو رسول الله ﷺ يستسقى لقومه من المؤمنين فيفور الماء من بين أصابعه ، عليه الصلاة والسلام ، ويشرب الجيش كله ، ويرتوى بعد ظمأ ، وتفور الجفنة بالماء .

وها هو عيسى - عليه الصلاة والسلام - يطلب المائدة من السماء للحواريين ، فتنزل عليهم المائدة .

وها هو رسول الله ﷺ يطلب المائدة لقومه الشامخات فتأتيهم المائدة من البحر بهذه الدابة العظيمة فتطعم الجيش كله ، وتشبعه .

ويتكفل الجيل الرائد الأول بالاهتمام بالجيل الوافد الجديد ، يغذى دققاته الإيمانية ، ويفقهه فى دين الله .

وتكون هذه الكرامات والمعجزات^(١) من المواد الرئيسية الهامة فى بناء الإنسان المسلم
عن طريق هذه التربية الجماعية .

(١) وردت هذه المعجزات والكرامات مجموعة معاً فى مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمى ، نقلها كما هى ،
وكما خرجها الحافظ رحمه الله ، وذلك للتأكد من صحتها من كتاب الحديث نفسه :
(وعن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع حتى إذا كنا بحرة واقم ،
عرضت امرأة بدوية بابن لها ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه
الشیطان فقال : « أدنيه منى » ، فأدنته منه ، قال : « افتحى فمه » ، ففتحته ، فبصق فيه رسول الله ﷺ ثم
قال : « احسأ عدو الله ، أنا رسول الله » ، قالها ثلاث مرات ، ثم قال : « شألك بابنك ليس عليه ، فلن
يعود إليه شيء مما كان يصيبه » .

ثم خرجنا فنزلنا منزلاً صحراء ديمومة ليس فيها شجرة ، فقال النبى ﷺ لجابر : « يا جابر ، انطلق فانظر
لى مكاناً » - يعنى للوضوء - فانطلقت فلم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتنا ، فرجعت إلى
النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، لم أجد إلا شجرتين متفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترنا ، فقال النبى ﷺ :
« انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما اجتماعاً » فخرجت فقلت لهما فاجتمعتا حتى كأنهما
من أصل واحد ، ثم رجعت فأخبرت النبى ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ حتى قضى حاجته ثم رجع فقال :
« اتكما فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يقول لكما ارجعا كما أنتما » فرجعتا .

فنزلنا فى واد من أودية بنى محارب ، فعرض له رجل من بنى محارب يقال له : غورث بن الحارث ،
والنبى ﷺ متقلد السيف . فقال : يا محمد ، أعطنى سيفك هذا . فسله وناولوه إياه ، فهزأ ونظر إليه ساعة ثم
أقبل على النبى ﷺ ثم قال : يا محمد ، ما يمنعك منى ؟ قال : « الله يمنعنى منك » ، فارتعدت يده حتى
سقط السيف من يده ، فتناوله النبى ﷺ ثم قال : « يا غورث ، من يمنعك منى ؟ » قال : لا أحد بأبى أنت ،
فقال النبى ﷺ : « اللهم اكفنا غورث وقومه » .

ثم أقبلنا راجعين ، فجاء رجل من أصحاب النبى ﷺ بعش طير يحمله ، فيه فراخ ، وأبواها يتبعانه
ويقعان على يد الرجل ، فأقبل النبى ﷺ على من كان معه وقال : « أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما؟! »
والذى يعشئ بالحق ، لله أرحم بعباده من هذين الطيرين بفراخهما » .

ثم أقبلنا راجعين حتى إذا كنا بحرة واقم عرضت لنا الأعرابية التى جاءت بابنتها بوطب (الزق الذى يكون
فيه لبن) من لبن وشاة فأهدته له فقال : « ما فعل ابنك ؟ هل أصابه شيء مما كان يصيبه ؟ » .
قالت : لا والذى بعثك بالحق ، ما أصابه شيء مما كان يصيبه ، وقبل هديتها .

وأقبلنا حتى إذا كنا بمهبط من الحرة أقبل جمل يرقل - يعدو - فقال : « أتدرون ما قال هذا الجمل ؟ »
قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا جمل جاءنى يستعدينى على سيده ، يزعم أنه كان يحرق عليه منذ
سنين حتى إذا أجريه وأعصفه - أهزل - وكبر سنه أراد أن ينحره ، اذهب يا جابر إلى صاحبه فائت به » فقلت :
يا رسول الله ، ما أعرف صاحبه ، قال : « إنه سيدلك عليه » ، فخرج بين يديه معقاً (مسرعاً) حتى وقف
بى فى مجلس بنى خطمة ، فقلت : أين رب هذا الجمل ؟ قالوا : هذا جمل بنى فلان بن فلان فجئته
فقلت : أجب رسول الله ﷺ ، فخرج معى حتى جاء إلى النبى ﷺ ، فقال له : « جملك يستعدى عليك ،
يزعم أنك حرثت عليه زماناً حتى أجريته وأعصفته ، وكبر سنه ثم أردت أن تنحره » ، قال : والذى بعثك
بالحق إن ذلك كذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « بعنيه ؟ » ، قال : نعم يا رسول الله ، فابتاعه منه ثم
سببه فى الشجر ، حتى نصب سناماً فكان إذا اعتل على بعض المهاجرين أو الأنصار من نواصحهم شيء
أعطاه إياه ، فمكث بذلك زماناً .

قال محمد بن طلحة : كانت غزوة ذات الرقاع تسمى غزوة الاعاجيب .

قلت : فى الصحيح بعضه (قصة غورث) - رواه الطبرانى فى الأوسط ، والبخارى باختصار كثير ، وفيه
عبد الحكيم بن سفيان ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد . وبقية رجاله ثقات .
انظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمى ٨/٩ ، ٩ .

ثانياً : السرايا

١ - سرية أبي بكر إلى نجد في شعبان سنة سبع :

حدثني حمزة بن عبد الواحد ، عن عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ، وأمره علينا ، فسينا أناساً من هوازن فقتلت يدي سبعة أهل أبيات ، وكان شعارنا : أمت ، أمت)^(١) .

وقد عنون لها الصالحى بقوله :

(الباب السابع والثلاثون فى سرية أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضي الله عنه إلى بنى كلاب^(٢) بنجد فى شعبان سنة سبع)^(٣) .

٢ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة^(٤) فى شعبان سنة سبع :

حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبى بكر بن عمر بن عبد الرحمن قال : (بعث رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه فى ثلاثين رجلاً إلى عَجَزِ هوازن^(٥) بتربة ، فخرج عمر رضي الله عنه ومعه دليل من بنى هلال ، فكانوا يسرون الليل ويكمنون النهار ، وأتى الخبر هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحداً ، وانصرف راجعاً إلى المدينة حتى سلك النجدية ، فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هل لك فى جمع آخر تركته من خثعم جاؤا سائرين قد أجذبت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرنى رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرنى أصمد لقتال هوازن بتربة فانصرف عمر راجعاً إلى المدينة)^(٦) .

٣ - سرية بشير بن سعد^(٧) إلى فدك^(٨) فى شعبان سنة سبع :

حدثني عبد الله بن الحارث بن فضيل عن أبيه قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن

(١) المغازى للواقدي ٧٢٢/٢ .

(٢) بنو كلاب بن ربيعة أحد الفرعين الكبيرين من عامر بن صعصعة ، وعامر من هوازن ، وهذه غير سرية بنى فزارة التى رواها مسلم .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٠٥/٦ .

(٤) تربة : واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها يصب فى بستان بنى عامر ، وبه بلدة تحمل اسمه على قرابة ٢٠٠ كم من الطائف .

(٥) عجز هوازن : هم بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبنو جشم بن بكر بن هوازن .

(٦) المغازى للواقدي ٧٢٣/٢ .

(٧) بشير بن سعد والد النعمان استشهد بعين التمر .

(٨) فدك : قرية شرقى خيبر ، وقد صالح أهلها رسول الله ﷺ بعد خيبر ، فقبل منهم ذلك ، وكانت خالصة لرسول الله ﷺ .

سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة^(١) بفدك، فخرج فلقى رعاء الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم في بواديهم ، والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء .

فاستاق النعم والشاء وعاد منحدرًا إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدهم^(٢) منهم عند الليل، فباتوا يرامونهم بالنبل حتى فئيت نبل أصحاب بشير ، وأصبحوا وحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ضرب كعبه ، وقيل : قد مات ، ورجعوا بنعمهم وشائهم ، وكان أول من قدم بخير السرية ومصابها علبة بن زيد الحارثي^(٣) ، وأمهل بشير بن سعد وهو في القتلى، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك ، فأقام عند يهودى بفدك أياماً حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة^(٤) .

٤ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة في رمضان سنة سبع :

حدثني عبد الله بن جعفر ، عن ابن عون ، عن يعقوب بن عتبة قال : لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الكدر أقام أياماً ما شاء الله له أن يقيم ، فقال له يسار مولاه : يا رسول الله ، إني قد علمت غرة من بني عبد بن ثعلبة^(٥) ، فأرسل معي إليهم ، فأرسل معه النبي ﷺ غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين رجلاً .

خرج بهم يسار ، فظعن بهم في غير الطريق حتى فئيت أزوادهم وجهدوا ، واقتسموا التمر عدداً ، فبينما القوم ذات ليلة بعد ما ساء ظنهم بيسار - وظن القوم أن إسلامه لم يصح - قد انتهوا إلى مكان قد فحصه^(٦) السيل ، فلما رآه يسار كبر قال : والله قد ظفرتم بحاجتكم ، اسلكوا في هذا الفحص حتى ينقطع بكم ، فسار القوم فيه ساعة بحس خفى لا يتكلمون إلا همساً ، حتى انتهوا إلى ضرس^(٧) من الحرة فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجل شديد الصوت لأسمع القوم ، فارتؤوا رأيكم ، قال غالب : انطلق بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كميناً ، ففعلاً ، فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين ، سمعنا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فأنتهيا إلى أصحابهما ، فأقبلوا جميعاً حتى إذا كانوا من الحى قريباً ، وقد وعظهم أميرهم غالب ، ورغبهم في

(١) بنو مرة : فرع من غطفان ورأسهم الحارث بن عوف المرى سيد غطفان الثاني .

(٢) الدهم : العلد الكبير وجمعه الدهوم .

(٣) علبة بن زيد الحارثي : هو المتصدق بعرضه في غزوة تبوك حين لم يملك مالا ، فقال : اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك .

(٤) المغازي للواقدي ٧٢٣/٢ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٦٤/٣ .

(٥) بنو عبد بن ثعلبة وبنو عوال يتميان إلى غطفان .

(٦) فحص : حفر .

(٧) الضرس : الأكمة .

الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان فى الطلب ، وألف بينهم وقال : إذا كَبُرْتُ فكبروا ، فكَبُرُوا وكَبُرُوا جميعاً معه ووقفوا وسط محالهم فاستاقوا إبلاً وشاء ، وقتلوا من أشرف لهم ، وصادفوه تلك الليلة على ماء يقال له (الميعة) ، قال : واستاقوا النعم فحدروه إلى المدينة ، و لم يسمع أنهم جاؤوا بأسرى (١) .

وقال ابن سعد بسنده : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله إلى بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة ، وهم بالمبيعة ، وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد ، وبينها وبين المدينة ثمانية برد ... (٢) .

٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى مصاب بشير بن سعد :

(... وهى رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « سر حتى تنتهى إلى مصاب أصحاب بشير ، فإن ظفرك الله بهم فلا تبق فيهم ، وهىأ معه مائتى رجل ، وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد أظفره الله عليهم ، فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : « اجلس » ، وبعث غالب بن عبد الله فى مائتى رجل ، فخرج أسامة ابن زيد فى السرية حتى انتهى إلى مصاب بشير وأصحابه ، وخرج معه علبة بن زيد .

حدثنى أفلح بن سعيد عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : كان مع غالب عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وكعب بن عجرة ، وأسامة بن زيد ، وعلبة بن زيد ، فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع ، فبعث علبة بن زيد فى عشرة ينظر إلى جماعة محالهم ، حتى أوفى على جماعة منهم ، ثم رجع إلى غالب فأخبره ، فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد احتلبوا وعطّنوا (٣) وهدؤوا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تعصونى ، ولا تخالفوا لى أمراً ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع ، ثم ألف بينهم فقال : يا فلان أنت وفلان ، يا فلان أنت وفلان ، لا يفارق كل رجل زميله ، وإياكم أن يرجع إلى أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك ؟ فيقول : لا أدرى ، وإذا كَبُرْتُ فكبروا ، قال : فكَبُرُوا وكَبُرُوا وأخرجوا السيوف ، فأحطنا بالحاضر ، وفى الحاضر نعم ، وقد عطّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال ، فقاتلوا ساعة فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا أمت أمت ، وخرج أسامة بن زيد فى إثر رجل يقال له : نهيك ابن مرداس فأبعد ، وحوينا على الحاضر ، وقتلنا من قتلنا ، ومعنا النساء والماشية ، فقال أميرنا أين أسامة بن زيد ؟ فجاء بعد ساعة من الليل ، فلامه أميرنا لاثمة شديدة ، وقال :

(١) المغازى للواقدي ٧٢٦/٢ ، ٧٢٧ . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٩/٢ .

(٣) عطّنوا الإبل : أى سقوا الإبل ، ثم أئانخوا وحبسوها عند الماء .

ألم تر إلى ما عهدت إليك ، فقال : إني خرجت في إثر رجل جعل يتهكم بي ، حتى إذا دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله إلا الله ، فقال أميرنا : أَعَمَدْتَ سيفك ، قال : لا والله ما فعلت حتى أوردته شعوب ، قال : والله بشس ما فعلت ، وما جئت به ، تقتل امرأ يقول : لا إله إلا الله ، فندم وسقط في يديه ، قال : واستقنا النعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعة كل رجل ، أو عدلها من الغنم ، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم .

وحدثني شبل بن العلاء ، عن إبراهيم بن حويصة ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد قال : كان أميرنا أخى بينى وبين أبى سعيد الخدرى ، قال أسامة : فلما أصبته ، وجدت في نفسى من ذلك موجدة شديدة ، حتى رأيتنى وما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقبلنى ، واعتنقنى ، واعتنقته ، ثم قال لى : « يا أسامة ، خبرنى عن غزاتك » قال : فجعل أسامة يخبره الخبر حتى انتهى إلى صاحبه الذى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « قتلته يا أسامة وقد قال لا إله إلا الله ؟ » فجعلت أقول : يا رسول الله ، إنما قالها تَعَوُّداً من القتل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا شققت قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » قال أسامة : لا أقتل أحداً يقول : لا إله إلا الله ، قال أسامة : وتمنيت أن لم أكن أسلمت يومئذ (١) .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني شيخ من أسلم عن رجال من قومه قالوا : (بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي - كلب ليث - إلى أرض بنى مرة فأصاب بها مرداس بن نهيك حليف لهم من الحُرَّة فقتله أسامة ، فحدثني محمد بن أسامة بن محمد بن أسامة عن أبيه عن جده أسامة بن زيد قال : أدركته - يعنى مرداساً - أنا ورجل من الأنصار ، فلما شهرنا عليه السيف قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فلم ننزع حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره فقال : « يا أسامة ، من لك بلا إله إلا الله » فوالذى بعثه بالحق ما زال يرددها علىّ حتى لوددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن ، وأنى أسلمت يومئذ ولم أقتله (٢) .

وقال هشيم : نا حصين بن عبد الرحمن ، ثنا أبو ظبيان ، سمعت أسامة بن زيد يحدث فقال : (أتينا الحرة من جهينة ، قال : فصباحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، قال : فكف عنه الأنصارى ، فطعنته أنا برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ ذلك فقال : « أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ » ، ثلاث مرات ، قلت : يا رسول الله ، إنما كان متعوّداً ،

(٢) المغازى للذهبي ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(١) المغازى للواقدي ٧٢٣/٢ - ٧٢٥ .

قال : فما زال يكررها حتى غنيت أنى لم أكن أسلمت قبل يومئذ (١) .

(وقال البغوى فى شرح السنة : ثم إن رسول الله ﷺ استغفر لأسامة ثلاث مرات ، وقال له : « اعتق رقبة ») (٢) .

٦ - سرية بشير بن سعد إلى الجنب سنة سبع :

حدثنى يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : قدم رجل من أشجع يقال له : حسيل بن نويرة ، وقد كان دليل النبى ﷺ إلى خير فقال له رسول الله ﷺ : « من أين يا حسيل ؟ » قال : قدمت من الجنب ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وراءك ؟ » قال : تركت جمعاً من غطفان قد بعث إليهم عينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم ، فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعاً ، وهم يريدونك أو بعض أطرافك . قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فذكر لهما ذلك ، فقالا جميعاً ، ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً فعد له لواءً ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار ، حتى أتوا أسفل خير فزلوا بسلاح (٣) ، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثلثا نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمتهم وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخير ، وإن أحببتم سرنا جميعاً ، قالوا : بل نقدّمك ، فقدّموه فغاب عنهم ساعة ثم كرّ عليهم فقال : هذا أوائل سرحهم ، فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبى ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرنا الرجال والعطن ، وقال آخرون : نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم ، فشجعوا على النعم ، فأصابوا نعمة كثيراً ملؤوا ما بين أيديهم ، وتفرّق الرعاء وخرجوا سراعاً ، ثم حذروا الجمع فتفرّق الجمع وحذروا ، ثم لقوا جمع عينة ، وعينة لا يشعر بهم فناوشهم ، ثم انكشف جمع عينة وتبعهم أصحاب النبى ﷺ ، فأصاب منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً ، فقدموا بهم على النبى ﷺ فأسلما ، فأرسلهما .

قالوا : وكان الحارث بن عوف المزنى حليفاً لعينة ولقيه منهزماً على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً ، فاستوقفه الحارث فقال : لا ، ما أقدر ، الطلب خلفى ، أصحاب محمد ، وهو يركض ، قال الحارث : أما آن لك بعد أن تبصر ما أنت عليه ، إن محمداً قد وطئ البلاد وأنت موضع فى غير شيء ، قال الحارث : فتنحيت عن سنن خيل محمد حيث

(١) متفق عليه ، البخارى ٨٨/٥ ، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان .

(٢) المغازى للذهبي هامش ٤٤٩ (الحقق) .

(٣) سلاح : موضع أسفل خير .

أراهم ولا يروني ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ، وما أرى أحداً وما طلبوه إلا الرعب الذى دخله ، قال : فلقيته بعد ذلك فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ، ما رأيت من طلب ، قال عيينة : هو ذاك ، خفت الإسار ، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى غير موطن ، قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً يبتأ فى بنى النضير ، ويوم الخندق وقريظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفى خير ، إنهم كانوا أعز يهود ، الحجار كله يقرون لهم بالشجاعة والسخاء ، وهم أهل حصون منيعة ونخل ، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم ، لقد سادت حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان ، فامتنعوا بهم من الناس ، ثم قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة ، وكيف أدبل عليهم ، فقال عيينة : هو والله ذاك ، ولكن نفسى لا تقرنى ، قال الحارث : فادخل مع محمد ، قال : أصير تابعاً ، قد سبق القوم إليهم فهم يزرون بمن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدرًا وغيرها ، فقال الحارث : وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكنا من عليه أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادة ، هو موقع بهم وقعة ما وطئ له الأمر ، فقال عيينة : أرى والله .

واتعدا يريدان الهجرة والقُدوم على النبى ﷺ إلى أن مر بهما فروة (١) بن هبيرة القشيري يريد العمرة ، وهما يتقاوان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، فقال فروة : لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه فى هذه المدة التى هم فيها وآتيكم بخبرهم ، فأخروا القُدوم على رسول الله ﷺ ، ومضى فروة حتى قدم مكة فتحس من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النبى ﷺ لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً ، فخبّرهم بما أوقع محمد بأهل خيابر ، قال فروة : وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمحمد ، قالت قريش : فما رأى فأنت سيد أهل الوبر ؟ قال : نقضى هذه المدة التى بينكم وبينه ونستجلب العرب ، ثم نغزوه فى عقر داره ، وأقام أياماً يعجول فى مجالس قريش ، ويسمع به نوفل بن معاوية الديلى ، فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش ، فقال نوفل : إذا لأجد عندكم شيئاً ، قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ، ولنا عدو قريب داره ، وهم عيبة نصح محمد لا يغيّبون عنه حرفاً من أمورنا ، قال : من هم ؟ قال : خزاعة ، قال : قُبِحت خزاعة ، قعدت بها يمينها ، قال فروة : فماذا ؟ قال : استنصر قريشاً أن يعينونا عليهم ، قال فروة : فأنا أكفيكمهم ، فلقى رؤساءهم صفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمرو فقال : ألا ترون ما نزل بكم ، إنكم رضيتم أن تدافعوا محمداً بالراح ، قالوا : فماذا نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزونا محمد فيما لا قبل لنا به فيوطئنا غلبَةً ، وننزل على

(١) هو تصحيف ، واسمه فورة بن هبيرة كما فى جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٢٨١ .

حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا . فلقى نوفل بن معاوية فقال : ليس عند القوم شىء ، فرجع فلقى عيينة والحارث ، فأخبرهم وقال : رأيت قومه قد أيقنوا عليه ، فقاربوا الرجل ، وتدبروا الأمر ، فقدموا رجلاً وأخروا أخرى (١) .



أعظم شخصيتين على رأس سريتين :

لقد كانت هذه السرايا استطلاعية أكثر منها سرايا حربية ، وإعلامية أكثر منها عسكرية ، وهدفها مباغته العدو وإشعاره بالقوة الإسلامية والوجود على الساحة ، ومن أجل هذا اختير لنا شخصيات تاريخية ، طارت شهرتها فى الآفاق العربية ، فالصديق رضي الله عنه هو أشهر وأكبر شخصيات هذه الدولة بعد رسول الله ﷺ ، وهو الوزير الأول عنده ، ومع ذلك بعثه على رأس هذه السرية ممعناً فى أرض نجد ، حيث وصل ضربة من أرض بنى هوازن ، كما وصل الشخص الثانى فى الدولة المسلمة عمر بن الخطاب إلى تربة مع هوازن كذلك ، أو فرع منها .

وليس بين رسول الله ﷺ وهوازن ثأر ، إلا ما كان من عامر بن الطفيل سيد بنى عامر بن صعصعة ، والذي فتك بسبعين من القراء فى بئر معونة ، وعامر بن صعصعة من هوازن ، وتكاد تكون السرايا فى نجد بعد الحديبية معظمها مع غطفان ، فهى العدو الوحيد الذى بقى متربصاً على الساحة بعد سقوط اليهود فى خيبر والهدنة مع قريش ، وكل ما لدينا من معلومات عن سرية الصديق رضي الله عنه ما حدثنا عنه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه البطل الجريء ، الذى شهدناه يواجه كتيبة وحده فى غزوة ذات قرد ، يحدثنا عن أنه قتل بيده سبعة أهل أبيات من هوازن ، وهذا يعنى أنه قد تم اصطدام بين الفريقين ، وهُزِمَ المشركون فى المعركة ، والجانب الإعلامى فيها هو الرعب الذى يحل بالقبائل المجاورة ، بأن سلطان محمد ﷺ قد تجاوز الحجاز إلى نجد ، وأن القبائل العربية الكبرى ستعيد حساباتها فى تقويم أمر محمد ﷺ .

وإن كانت الروايات تشير إلى أن سرية أبى بكر الصديق رضي الله عنه إنما كانت إلى بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فى ضربة ، فعامر بن الطفيل هو من كلاب بن ربيعة ، وهو الذى أوقع بالمسلمين أكبر محنة بعد أحد بغدرة ولؤمه ، فكان لابد أن تصله كتائب محمد ﷺ بقيادة أشهر شخصية إسلامية هى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، كما أن المصادر لم تشر إلى عدد أفراد هذه السرية والظاهر أنه عدد قليل ؛ لأن نوعية السرايا

(١) المغازى للواقدي ٧٢٧/٢ - ٧٣١ .

الاستطلاعية والإعلامية التي ستحدث عنها كانت فى أعداد قليلة دون المائة أو دون الخمسين فى أحيان أخرى .

وإنها لمغامرة فذة يقدم عليها المصطفى ﷺ فيقدم أعظم شخصية عنده مع هذا النفر القليل يضربون فى الصحراء معنيين فيها وفى قلب البادية العربية ، وتشبهها المغامرة نفسها فى إرسال الشخصية الثانية فى الأمة ، عمر بن الخطاب بحدود ثلاثين راكباً إلى تربة ، وهوازن فيها ، وإن كان فرع هوازن فى تربة هم بنو نصر ، وهم الذين قادوا فيما بعد حرب المواجهة فى حنين بقيادة سيدهم مالك بن عوف النصرى .

والملاحظ أن السريتين تحركتا فى شهر واحد هو شهر شعبان ، ولعل هذا التحرك فى هذا الموعد هو للحيلولة دون أن يمد أحدهما الآخر وهما ينتميان إلى أصل واحد وهو هوازن .

وأما ضربة فقد ذكرت عند القسطلانى كما فى شرح المواهب :

الثانية (ثم سرية أبى بكر الصديق) أفضل الصحب بلا نزاع كما قام عليه من أهل السنة الإجماع وغيرهم محجوجون بما صح عن على كرم الله وجهه أنه خير منه (ﷺ) إلى بنى كلاب) بكسر الكاف وخفة اللام قبيلة (بنجد بناحية ضربة) يقال : إنه اسم امرأة سُمى به الموضع ، قال فى الصحاح : قرية لبنى كلاب على طريق البصرة إلى مكة أقرب (فى شعبان سنة سبع) (١) .

والجانب التربوى الذى برز لنا فى هاتين السريتين : هو ما ذكر فى سرية عمر ﷺ :

(فلما كان بالجدرا قال الهلالى لعمر بن الخطاب ﷺ : هل لك فى جمع آخر تركته من خثعم ، جاؤوا سائرين ، قد أجذبت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرنى رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرنى أصمد لقتال هوازن بتربة ، فانصرف عمر راجعاً إلى المدينة) .

فقد كان مبدأ الغزو هو الذى يسود العرب قبل الإسلام ، وتاريخهم وأيامهم كلها يقوم على الفخر بهذه الأمجاد من حيث الشجاعة والبطولة والجرأة ، ومن هذا المنطلق عرض الدليل الهلالى (بنى هلال من عامر بن صعصعة) فكرة غزو قبيلة خثعم ، حيث يمكن أن تعود السرية بالغنائم الكبيرة والقتل للعديد من رجال هذه القبيلة ، فرفض الفاروق ﷺ الأمر من جذوره ، وأكد أنه جندى ينفذ أوامر قائده محمد عليه الصلاة والسلام حيث وجهه إلى تربة ، وبالذات إلى عجز بنى هوازن ، وخثعم لا علاقة لها بهوازن إلا قرب الجوار ، فأى معنى يكمن فى غزوها وسلبها وسبى أطفالها ونسائها .

(١) شرح المواهب للزرقانى ، ص ٢٤٩ .

إن هذا الجيل يتربى على حرمة الدم ، وحرمة المال ، وحرمة العرض ، وليس القتال والسلب والنهب هو الهدف ، إنما الهدف هو حماية الدعوة من أعدائها ، وحماية الدولة المسلمة من خصومها ، وليست المهمة الاعتداء دون سلوك الخط الأول الذى يقوم على أساس تبليغ دعوة الله تعالى إلى القبائل .

ونشير هنا إلى أن هذا العهد الجديد ، إنما ابتداء بدعوة حكام الأرض إلى الإسلام ، فى أقصى الأرض .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى هذا العهد، عن انتشار الإسلام، أما دعوة القبائل إلى الإسلام ومن خلال سرايا تتحرك من المدينة، فلم تبتدئ هذه الخطوات بعد؛ ولهذا قرر عمر رضي الله عنه عدم المواجهة مع بنى خثعم ، وفتح جبهة معهم ، وعاد إلى المدينة حين فرت هوازن من المواجهة ، ولم يلق منهم أحداً فى موقعه ، وإشارة أخيرة تعطى العجب لفرار هوازن من سرية قوامها ثلاثون رجلاً ، بينما يزول العجب حين نذكر أن عمر رضي الله عنه ذا السمعة الضخمة ، والصيت البعيد لقوته وبأسه كان له الدور الفعال فى ذلك .

بشير بن سعد وسريته إلى فذك :

قائد جديد يبرز لأول مرة من كبار الانصار وكرامهم هو بشير بن سعد بن ثعلبة بن ... الحارث بن الخزرج ، وهو من الخيرية الثالثة فى الانصار نسباً .

« إن خير دور الانصار دار بنى النجار ، ثم دار بنى عبد الأشهل ، ثم دار بنى عبد الحارث بن الخزرج ، ثم دار بنى ساعدة ، وفى كل دور الانصار خير » (١) .

ومن حيث الماضى العريق له فقد حاز أفخر الأمجاد ، إذ حضر بيعة العقبة الثانية ، وحضر بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، كما كان عريق المجد فى الجاهلية ، وكما يقول عنه ابن سعد :

(وكان بشير يكتب بالعربية فى الجاهلية ، وكانت الكتابة فى العرب قليلاً ، وشهد بشير العقبة مع السبعين من الانصار فى روايتهم جميعاً ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ) (٢) .

واختاره الرسول ﷺ لأول مرة فى مهمة قيادية إلى بنى مرة من غطفان فى فذك (حدثنى عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن

(١) مسلم ١٧٨٥/٤ من ح (١٣٩٢) وذكر فى الهامش : هكذا هو فى النسخ بنى عبد الحارث ، وكذا نقله القاضى قال : وهو خطأ من الرواة وصوابه بنى الحارث بحذف لفظة عبد .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٣١ .

سعد فى ثلاثين رجلاً إلى بنى مرة بفدك ، فخرج فلقى رعاء الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم فى بواديهم ، والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء ، فاستاق النعم والشاء وعاد منحدرًا إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدهم منهم عند الليل ، فباتوا يرامونهم بالنبل حتى فئت نبل أصحاب بشير ، وأصبحوا وحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتلاً شديداً حتى ضرب كعبه وقيل قد مات ، ورجعوا بنعمهم وشائهم ، وكان أول من قدم بخبر السرية ومصابها علبة ابن زيد الحارثى ، وأمهل بشير بن سعد وهو فى القتلى ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام عند يهودى بفدك أياماً حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة (١) .

لقد كانت سرية بشير رضي الله عنه فى الشهر نفسه الذى كانت فيه سرية أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وذلك فى خطة شاملة لاختبار الأرض العربية ، وكان أفراد سرية بشير كأفراد سرية عمر رضي الله عنه من حيث العدد ، وكانت البدايات واحدة حيث استاق بشير النعم والشاء ومضى منحدرًا إلى المدينة ، لكن بنى مرة كانوا غير هوازن ، فقد جاء الصريخ إليهم ولحقوا بالمسلمين ، وأحاطوا بهم وبقائدهم بشير رضي الله عنه ، وجاهد المسلمون أعظم جهاد فى نبلهم حتى فنى ، ثم حمل المريون عليهم حين نفذ سلاحهم ، فقتلوهم إلا من تمكن من الفرار ، وارتث بشير من بين القتلى ، وأعيدت ظاهرة شهداء بئر معونة من جديد ، ولكن بشيراً رضي الله عنه تمكن من مغالبة جراحه بعد أن مضى العدو ، وأقام عند يهودى ذمى ريثما عالج هذه الجراح ، وعاد إلى رسول الله ﷺ ، وكان أول من نقل أخبار المحنة لرسول الله ﷺ علبة بن زيد الحارثى - من قوم بشير - وكانت المفاجأة وصول بشير رضي الله عنه المدينة بعد أن كان محسوباً من القتلى .

سرية غالب بن عبد الله الليثي :

وأن تحمل الركبان خبر مقتل أصحاب النبى ﷺ دون ثار لهم ، هو من الخطورة بمكان ، وهو يضعف سمعة محمد ﷺ القوية فى الجزيرة ، وتغرى بقية القبائل بالنبل من المسلمين والهجوم عليهم ، فكان الرد العسكرى الحاسم ، كما ذكر الواقدى :

(وهياً رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « سر حتى تنتهى إلى مصاب أصحاب بشير ، فإن ظفرك الله بهم فلا تُبقَ فيهم » ، وهياً معه مائتى رجل ، وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد أظفره الله عليهم فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : « اجلس » وبعث غالب بن عبد الله فى مائتى رجل) .

(١) مغارى الواقدى ٧٢٣/٢ .

إن المحافظة على السمعة العسكرية القوية للجيش الإسلامى هى عنصر أصيل من عناصر التربية فى هذه المرحلة ، فليس الهدف هو القوة ذاتها ، ولكن الهدف هو إرهاب العدو ، بحيث لا يطمع أو يجترئ على الحمى الإسلامى ، ويعرف أن هذا الطريق خطر وميؤوس منه ، والحل هو الحوار الفكرى والعقلى ومحاولة فهم الإسلام ، ومن أجل هذا التوازن كانت السرعة الكبيرة فى بعث غالب .

وغالب رضي الله عنه قد ظفر فى سريته السابقة ، أثبت الكفاءة المطلوبة ، وذلك فى سريته إلى الميعة فى رمضان ومع غطفان بالذات . . . ويريد رسول الله ﷺ أن يحاصرهم من كل جانب ، وهم بالمقابل يحاولون ذلك إذ كانوا يعدون العدة للهجوم ، فباغتهم عليه الصلاة والسلام بغالب ، حيث بعث معه مائة وثلاثين رجلاً .

وكان دليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ ، وهو نفسه الذى أسر فى غطفان فى موقعة الكدر ، فهو ابن المنطقة وأحد الرعاة فيها ، وحين أخلص لله تعالى وصلى لله ، اختاره رسول الله ﷺ من خاصته ، فأعتقه وغدا مولى له ، وحيث تتسم القيادة النبوية العظيمة باستغلال كل الطاقات مهما كان نوعها ، وتفتح الآفاق أمامها لتأخذ مداها الأرحب ، فقد وجدنا يسار رضي الله عنه هو الذى يبادر ابتداءً ويتابع آخر بنى ثعلبة الذين كان عبدًا عندهم ، ويبلغه عن تجمعاتهم لغزو المدينة ، فيتقدم لرسول الله ﷺ قائلاً له : (يا رسول الله ، إنى قد علمت غرة من بنى عبد بن ثعلبة ، فأرسل معى إليهم) .

وحيث غدا موضع الثقة الكاملة من نبيه المصطفى ﷺ ، أخذ رسول الله هذا الخبر مأخذ الجد ، وأعطاه ما يستحقه من اهتمام ، وأرسل معه مائة وثلاثين رجلاً كان هو دليلهم الهادى فى هذه البيد المهلكة .

ورغم عدم توفر الإمكانات المادية لتحرك السرية ، فليس عندهم إلا التمر ، وهو الزاد الرئيسى بالنسبة إليهم لم يحل هذا دون المبادرة السريعة لضرب هذا العدو المتربص ، فالمعركة مستمرة لا يهدأ لها أوار بين غطفان والمسلمين ، وانضمام هذه الطاقة التى هى هذا العبد إلى المسلمين ، يعنى الاستفادة من خبرته فى الطريق ومعلوماته عن العدو ، (فظعن بهم فى غير الطريق حتى فנית أزوادهم وجهدوا واقتسموا التمر عدداً) .

وبدأ الشك يساور قائد السرية غالباً وإخوانه بمصداقية يسار ، الذى ترك الطريق المأهول إلى طريق آخر غير مطروق ، وظنوا به الظن أنه قاصد إبادتهم جوعاً وعطشاً فى هذه الصحراء (فبينما القوم ذات ليلة بعد ما ساء ظنهم بيسار ، وظن القوم أن إسلامه لم يصح وقد انتهوا إلى مكان قد فحسه السيل ، فلما رآه يسار كبر وقال : والله قد ظفرتكم بحاجتكم ، اسلكوا فى هذا الفحص حتى ينقطع بكم) .

فسار القوم بحس خفى لا يتكلمون إلا همساً حتى انتهوا إلى ضرس من الحرة ، فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجل شديد الصوت لسمع القوم) .

لقد نجحت مهمة يسار نجاحاً كاملاً ، ولعله قبل أن يرى المكان الذى فحصه قد توقع أنه تاه عن الطريق فبقى صامتاً ، ورأى النظرات قد تغيرت عليه فزاد ألمه إلى أن أنقذه الله تعالى بهذا المعلم من مفحص السيل ، واهتدى إلى السبيل ، وهدى الجيش معه ، وحيث إن القيادة الحكيمة لغالب قد ضبطت الأمر ، واعتبار معلومات يسار موثقة ، طالب المسير بحس خفى وهمس جديد لإخفاء كل معالم التحرك نحو العدو ، إلى أن انتهوا إلى الأكمة .

ووراء الأكمة ما وراءها ، إن وراءها الهدف الرئيسى : العدو نفسه كما حدد موقعه يسار ، لو صاح رجل شديد الصوت لسمع القوم فارتقوا رأيكم .

وانتهى دور يسار الرائد ، ليأتى دور غالب القائد ، والعدو على مرمى قريب منه ، قال غالب : انطلق بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كميئاً .

إنها خطة جريئة : أن يعرض القائد نفسه للخطر ، فيمضى وحيداً مع يسار ، وهذا يعنى أن ثقة غالب بيسار غدت ثقة مطلقة ، وإلا لما عرض نفسه للخطر ، ومع هذا فهو القائد الماهر الحاذق الذى يريد أن يستوثق مائة بالمائة من هدفه ، فقدم نفسه مع يسار للموت ليحفظ جيشه إن كان هناك موت .

(فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين ، سمعنا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فأنتهيا إلى أصحابهما) (١) .

لقد أشرف القائد بنفسه على ساحة المعركة ، وخبرها قبل الدخول فيها ، وخبر أعداد العدو ، وعاد إلى جيشه (فأقبلوا جميعاً حتى إذا كانوا من الحى قريباً) ابتدأت المرحلة الثانية من دور القيادة .

(وقد وعظهم أميرهم غالب ، ورغبهم فى الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان فى الطلب ، وألف بينهم وقال : إذا كبرت فكبروا) .

لقد حددَّ الخطة ابتداء بعد أن أدى الدور المعنوى المطلوب ، ورغبهم فى الجهاد ، ووعظهم وذكرهم بالله عز وجل ، كانت الخطة مرتبطة بإيقاف أى تحرك حتى يسمعوا

(١) فى الأصل خطأ ، والصحيح حسب تسلسل الرواية : (فخرجنا حتى إذا كنا من القوم بمنظر العين سمعنا حس الناس والرعاء والحلب ، فرجعا سريعين فأنتهيا إلى أصحابهما ...) . المغازى ٧٢٧/٢ .

تكبير أميرهم ، وتكون مرحلة الهجوم مع انطلاقة التكبير من الأمير ، ثم الجند خلفه ، أما المحظور فى هذه المعركة ، فهو الإيغال فى الصحراء وراء العدو والإمعان فى الطلب ؛ لأن احتمالات خطة التراجع المصطنعة لتوريط الجيش إلى كمين فى هذه الصحراء (فكبراً وكبراً جميعاً معه ، ووقفوا وسط محالهم ، فاستاقوا نعماً وشاءً ، وقتلوا من أشرف لهم وصادفهم فى تلك الليلة على ماء يقال له : الميفعة ، قال : واستاقوا النعم فحذروه إلى المدينة ولم يسمع أنهم جاؤوا بأسرى) .

هذه العودة المظفرة لغالب بن عبد الله الليثى بالنعم والشاء ، وقتل من قُتل من العدو ، صادف وصولها وصول بشير بن سعد رضي الله عنه إلى المدينة .

وليبقى رسول الله ﷺ هذه الطاقات فى توهجها وإبداعها ، أعاد الزبير رضي الله عنه إلى موقعه ، وطلب من غالب أن يقود هذه السرية الجديدة بمائتى مقاتل^(١) ، على ضوء الانتصارات التى تحققت بالسرية الأولى ، وإلى غطفان نفسها ولكن فى موقع آخر ، وحماية معاكسة ، وأصبح اسم غالب الليثى اسماً متداولاً ومعروفاً فى الصحراء ، فلا بد من استعمال وهج هذا الاسم ثانية إلى مصاب بشير بن سعد وقومه .

ومن ذكر خروجهم فى هذه السرية رجلين اثنين :

الأول : علبة بن زيد : وهو الذى قطع الصحراء كلها حتى وصل إلى رسول الله ﷺ ، ونقل له خبر السرية ، فليكن هو الدليل إذن لهذه السرية ، وقد نجح فى أن يقطع الصحراء وحده ، وكسب الخبرة ، فلتراكم الخبرات إذن ، وليكن هو دليل الجيش الإسلامى إلى مصاب سعد ، بمن خبر الطريق ومهر .

الثانى : أسامة بن زيد : الذى بلغ مبلغ الشباب هذا العام ، فأصبح عمره خمسة عشر عاماً ، وهو حب رسول الله ﷺ وابن حبه زيد ، ورسول الله ﷺ يرعاه شبراً فشبراً ، وذراعاً فذراعاً ، حتى بلغ اليوم مبلغ الرجال ، وليرم به فى قلب الموت ، وفى أتون الجهاد ، فهنا مصانع الرجال ، ولا مصنع أبدع وأضخم من هذا المصنع ، فانضم أسامة رضي الله عنه لهذه السرية وهو يتوقد شوقاً ، ويتحرق أملاً أن يجاهد فى سبيل الله ، ولم يكن أسعد منه يوم أن انضم إلى هذه السرية وبلغ مبلغ الرجال .

وقد توضحت لنا من خلال السرية السابقة الخطة العسكرية التى يتهجها غالب ، فهى لم تختلف عن سرية الميفعة ، لكنه كان هو الطليعة فى السرية السابقة ، أما هذه

(١) ذكر علماء السير هذه السرية فى صفر سنة ثمان ، بينما أوردها الواقدى فى سنة سبع ، وأخذنا برأيه ؛ لأن غالباً قد مضى فى سرية إلى الكديد فى صفر سنة ثمان ، ولا يعقل أن يجمع بين السريتين فى شهر واحد ، ووافق الواقدى الذهبى .

(فقد بعث علبة بن زيد فى عشرة ، ينظر إلى جماعة محالهم) .

وعلبة هو الخبير الرئيسى ، فهو جندى السرية السابقة سرية بشير ، وهو خبير المحنة نفسها (حتى أوفى على جماعة منهم ثم رجع إلى غالب فأخبره ، فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد احتلبوا وعطّنوا وهدّؤوا) .

وإذا كانت خطبة غالب لم تنقل لنا فى السرية السابقة إنما قيل : (فوعظهم ورجبهم فى الجهاد) ، فهنا ينقل لنا الرواة هذه الخطبة القصيرة البليغة :

(أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعونى ولا تعصونى، ولا تخالفوا لى أمراً فإنه لا رأى لمن لا يطاع) .

وإذا نقل لنا عن السرية السابقة أنه ألف بينهم فهنا يقول :

(يا فلان أنت وفلان ، يا فلان أنت وفلان : لا يفارق كل رجل زميله ، وإياكم أن يرجع إلى أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك ؟ فيقول : لا أدرى) .

فهذه التثنية فى التوزيع ، تعطى المجال الرحب ليعين الأخ أخاه ، أو ينقل الخبر عنه إن استشهد .

والخطوة الثالثة فى الخطبة كما عهدناها تماماً فى السرية السابقة: (وإذا كبرت فكبروا).

(قال : فكبر وكبروا وأخرجوا السيوف ، قال : فأحطنا بالحاضر ، وفى الحاضر نعم وقد عطّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال ، فقاتلوا ساعة ، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ، ونحن نصيح بشعارنا : أمّت ، أمّت) .

وأدرك المسلمون ثأرهم من المريين الذين قتلوا المسلمين فى السرية السابقة :

(... وحوينا على الحاضر ، وقتلنا من قتلنا ، ومعنا النساء والماشية ... واستقنا النعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعرة كل رجل ، أو عدلها من الغنم ، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم) .

لقد كان فى السرية رجлан من السابقين ، وهما المسؤولان عن تربية وتوجيه هذه السرية ، وهذه الطاقات الجديدة، وهما : عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وهو من أهل بدر، وكعب بن عُجرة ، وهو من أهل بيعة الرضوان ، وهو الذى كان يتناثر القمل على وجهه وآذاه هوام رأسه ، فأفاته رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه ويفدى فى عمرة الحديبية ، وكان فى قمة الفقر، فها هو يعود اليوم بثروة طيبة من الغزوة، عشرة أبعرة أو عدلها من الغنم ، وهذه بداية طيبة إلى جانب ما جاءه من غنائم خبير من الأرض ، فأصبح فرداً منتجاً فى

المجتمع الإسلامى بعد أن كان عالة عليه ، وذاق مرارة الفقر كما حدثنا بقوله :

(أتيت النبى ﷺ يوماً فرأيتُه متغيّراً ، قلت : بأبى أنت وأمى ، مالى أراك متغيّراً ؟ قال : « ما دخل جوفى شىء منذ ثلاث » فذهبت فإذا يهودى يسقى إبلأً له ، فسقيت له على كل دلوٍ بتمرة فجمعت تمرًا ، فأتيته به ، فقال : « اتجنّبى يا كعب ؟ » قلت : بأبى أنت : نعم . قال : « إن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى معادنه ، وإنه سيصيبك بعدى بلاء فأعد له تحفّافاً » (١) .

فكعب إذن أعدّ نفسه للفقر ، كما وعده رسول الله ﷺ ثمن حبه للحبيب المصطفى صلوات الله عليه .

ولعل هذه الأبعرة العشرة تعينه على كسب قوته ، وتغنيه عن الناس ، وبقيت لذة ذلك العمل الشاق ترافقه طيلة عمره ، يوم استقى لليهودى كل دلو بتمرة ؛ ليطعم حبيبه الذى ما ذاق شيئاً منذ ثلاث . ويتعلم الدرس الخالد : أن الفقر رفيقه ، ويا مرحباً بهذا الفقر مع الحب النبوى الخالص .

ولنعد إلى فتانا الناشئ أسامة بن زيد ، ما قصته فى هذه السرية ؟ وهل اكتفى بأمجاده فيها أن ذهب وعاد وصار مع المجاهدين ؟

قال الذهبى عنه : (كان شديد السواد ، خفيف الروح ، شاطرًا ، شجاعًا ، رباه النبى ﷺ ، وأحبه كثيرًا) (٢) ، فهو لا يملأ العين والذى لا يعرفه يزدريه .

(فقد ذكر ابن سعد عن ... هشام بن عروة عن أبيه قال : إن النبى ﷺ أخرّ الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره ، فجاء غلام أسود أفتس ، فقال أهل اليمن : إنما جلسنا لهذا ، فلذلك ارتدوا ، يعنى أيام الردة) (٣) .

وهذه رواية الواقدى عن بطولة أسامة وخطيبته فى هذه السرية :

(وخرج أسامة بن زيد فى إثر رجل منهم يقال له : نهيك بن مرداس فأبعد ... فقال أميرنا : أين أسامة بن زيد ؟ فجاء بعد ساعة ، فلامه أميرنا لائمة شديدة ، وقال : ألم تر إلى ما عهدتُ إليك ؟ فقال : إنى خرجت فى إثر رجل جعل يتهم بى ، حتى إذا

(١) رواه الطبرانى ، وقال المحقق فيه : أخرجه ابن عساكر ٢٧٩/١٤ ، وقال فى آخر الحديث : قال الطبرانى : لم يرو هذا الحديث عن كعب بن عجرة إلا موسى بن وردان ، تفرد به ضمام ، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ١٩١/٤ ، ١٩٢ ، ونقل عن شيخه الحافظ أبى الحسن قوله : إسناده جيد . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٤/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٩٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٥٠٠/٢ وقال فيه المحقق: رجاله ثقات ، وأخرجه البخارى فى التاريخ الكبير عن أسامة بن زيد .

دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله إلا الله ، فقال أميرنا : أغمدت سيفك ؟ قال : لا والله ما فعلت حتى أوردته شعوب ، قال : قلنا : والله بنس ما فعلت وما جئت به ، تقتل امراً يقول : لا إله إلا الله ، فندم وسقط في يديه) .

وعن أسامة بن زيد قال : إن أميرنا آخى بيني وبين أبي سعيد الخدري ، قال أسامة : فلما أصبته وجدت في نفسي من ذلك موجدة شديدة حتى رأيتني وما أقدر على أكل الطعام حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقبلني ، واعتنقني ، واعتنقته ، ثم قال لي : « يا أسامة ، خبرني عن غزائك » ، قال : فجعل أسامة يخبره الخبر حتى انتهى إلى صاحبه الذي قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « قتلته يا أسامة وقد قال : لا إله إلا الله ؟ » ، فجعلت أقول : إنما قالها تعوداً من القتل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » قال أسامة : لا أقتل أحداً يقول : لا إله إلا الله ، قال أسامة : وغنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

لقد كان أسامة محط استصغار هذا البطل نهيك بن مرداس للونه وفطاسته وقصره ، وكان مثار ضحكه ، وأراد أسامة هذا أن يلحق هذا البطل درساً لا ينساه طيلة حياته ، فهجم عليه وهو الشاب الصغير ، فدبّ الذعر في قلب ذلك البطل ، وفر أمام هذا الفتى أسامة ، فهل يكتفى أسامة بالمجد أن يقول : فر البطل من أمامي وانتهى الأمر .

وتذكر أمر أميره ، لكنه يريد أن يخط أول خط من خطوط المجد في حياته ، أيدع رجلاً يستهزئ به ويمضى ولا يقضى عليه ، فتجاوز أمر قائده ، ولاحق ذلك البطل ، والبطل يجري أمامه حتى أدركه ، ورأى البطل المرى الموت الزوام بين عينيه ، وهو يعلم أن شعار لا إله إلا الله ينجيه ، فقال : لا إله إلا الله ، لعل هذا الفتى يرجع ، فقد أرغم أنفه بالذل أن فر أمامه وهو الأسود الأفطس القصير الصغير الذي كان مثار هزئه وسخريته .

ولكن أسامة الواعي لن تنطلي عليه الأعيب هذا البطل ، ولعلها تمة التهمك السابق إذ يضحك عليه ويعتبره ساذجاً فيرجع عن قتله بقول : لا إله إلا الله ، وكان أسامة رضي الله عنه يرى أنه لابد من عمل جليل حاسم في هذه المعركة يرفع صفحته عالياً عند حبيبه المصطفى ، فيثبت كفاءته القتالية العالية ، ولا يكون مجال تندر القوم ، ودلالهم بصفته حب رسول الله ﷺ ، فطعنه برمحه وأرداه قتيلاً ، وشفى واشتفى ، وعاد مظفراً منصوراً قاهراً للبطل الهمام في المعركة .

يدلنا على بطولة القتيل ما تلقاه في رواية مسلم للحادثة :

(عن جندب بن عبد الله البجلي . . . أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وأنهم التقوا ، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل

من المسلمين قصد له فقتله ، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته - قال : وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد - فلما رفع عليه السيف قال : لا إله إلا الله فقتله ، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره ، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع ، فدعاه فسأله ، فقال : « لم قتلته ؟ » قال : يا رسول الله ، أوجع في المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً ، وسمى له نفراً ، وإنى حملت عليه ، فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : « أقتلته ؟ » قال : نعم ، قال : « فكيف تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : يا رسول الله ، استغفر لى ، قال : « وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » (١) .

فبطولة الرجل وقتله في المسلمين قتلاً ذريعاً هي الدافع الآخر لدى أسامة ، بل لعله الدافع الأول لصحة رواية مسلم على غيرها في قتله هذا الرجل .

إن صانعى المجد حين يَقَوِّمون عمل أسامة ، يضعونه في مصاف الأبطال ، فهو ابن الخامسة عشر من عمره ، يقتل بطلاً فاتكاً ، ويضعونه في مصاف العباقرة على هذا السن ، إذ لم تفت عليه لعبة البطل أن يستغل لا إله إلا الله لينقذ نفسه من القتل ، ويسطرون له أروع الأمجاد ، ولو كانت هذه الحادثة في أيام العرب في الجاهلية ، لرفعت هذه الحادثة وحدها إلى مصاف القادة السادة في قومه .

أما عند صانعى الإيمان ، وحملة العقيدة ، فتختلف القضية - كما يقولون - مائة وثمانين درجة .

إن القتل ليس هدفاً أبداً بحد ذاته ، كما هو الحال عند هواة المجد ، إن القتل وسيلة لدفع الكفر أو عقوبة على الكفر ذاته ، أما وقد قال : لا إله إلا الله ، فيصبح القتل جريمة يعاقب عليها القاتل ؛ لأن الهدف من الجهاد كله هو أن تلعو كلمة لا إله إلا الله ، وقد علت ، فلا تُخَفَض بالقتل ، ولا يقضى عليها حين يعرف العدو أنها لا تعصم من القتل .

ومن أجل ذلك كانت التربية قاسية وشديدة وعنيفة لأسامة في أول تجربة يخوضها في حياته من حبيب المصطفى ﷺ ، فلم تبرق أساريه ، ولم يزغرد عليه الصلاة والسلام ، وقد غدا حبه ابن الخامسة عشرة قاتلاً للبطل الفاتك ، إنما راح يؤنبه ثانية وثالثة ، ورابعة : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » .

وما أحوج الحركات الإسلامية التي تبنت المواجهة المسلحة إلى أن تصغى إلى هذا

(١) مسلم ٩٦/١ ، ٩٧ ، ح (١٦٠) .

الدرس ، وقد تلقاه أحب الناس إلى رسول الله من رسول الله ﷺ الحب ابن الحب ، ولم يشفع له سنه الصغير ، ولم يشفع له حبه ، ولم تشفع له بطولته من هذا التقرير والتأنيب ؛ لانه قتل من يقول : لا إله إلا الله الذى قتل العديد من المسلمين ، والذى تهكم بأسامة وآذاه واستخف به ، كل هذه لم تشفع أمام لا إله إلا الله التى قالها ، فعصمته من القتل .

حتى إن أسامة قبل أن يتلقى تأنيب نبيه ، تلقى تأنيب أميره :

والله بشس ما فعلت وما جئت به ، تقتل امرأ يقول : لا إله إلا الله .

ولم يمنع موقع أسامة وحب رسول الله ﷺ أن يوجه له هذا التأنيب القارع ، والله بشس ما فعلت وما جئت به ، فالوساطة والدلال ، والمحابة لن تكون على حساب العقيدة ، خاصة وقد خالف الامر الأول فأمعن فى الطلب ، وترك زميله وحده ، والاصل ألا يتركا بعضهما أبداً .

ولم يتناول الفتى المدلل المحبوب على أميره ، ويرد له الكلام الصاع صاعين ، فهو تربية بيت النبوة ، وتربية هذه العقيدة الشامخة إنما (ندم ، وسقط فى يديه) .

وفى الرواية الثانية عنه : (فلما أصبته وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى رأيتنى وما أقدر على أكل الطعام) .

وتجمع الروايات كلها على مستوى الندم الذى أصابه بعد تقرير رسول الله ﷺ على قوله : « وتمنيت ألا أكون أسلمت إلا يومئذ » .

أى تمنى أن تكون صفحته فى الإسلام بيضاء ليس فيها هذا الذنب العظيم الذى يلوثها .

ورواية البخارى :

(بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة ^(١) ، فصباحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الانصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الانصارى ، فطعته برمحي حتى قتلت ، فلما قدمنا ، بلغ النبى ﷺ فقال : « يا أسامة ، أقتلت بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟ » قلت : كان متعوذاً ، فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت

(١) اختلفت الروايات فى السرية التى تم فيها القتل ، فقد عنون البخارى لها : باب بعث النبى ﷺ إلى الحُرقات من جهينة ، ويوحى هذا العنوان أنه كان أمير السرية ، بينما ذكر أهل المغازى أن هذا القتل كان فى سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميعة فى رمضان ، أى فى السرية السابقة على هذه السرية . ورأى الواقدي أن هذا فى هذه السرية - إلى بنى مرة بفدك ، حيث كان مصاب بشير بن سعد وكما يقول ابن حجر : (فإن =

قبل ذلك اليوم) (١) .

وحتى تتضح أبعاد القتل بعد لا إله إلا الله ، نعرض لحديث المقداد بن الأسود الذى رواه مسلم - رحمه الله : (عن عبيد الله بن عدى بن الخيار عن المقداد بن الأسود ، أنه أخبره أنه قال :

يا رسول الله ، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلنى فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ، ثم لاذ منى بشجرة فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا تقتله » قال : فقلت : يا رسول الله ، إنه قطع يدى ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله ﷺ :

« لا تقتله ، فإن قتلته ، فإنه بمنزلة قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلة قبل أن يقول كلمته التى قال » (٢) .

عودة بشير بن سعد إلى الساحة :

لقد كانت هذه السرايا مشتبكة مع بعضها البعض وخلال ثلاثة أشهر هى شعبان ورمضان وشوال ، بل شهد شهر شعبان ثلاث سرايا منها ، وإذا كان نجم غالب بن عبد الله اللبشى قد سطع ، فهل يمكن أن تكون نهاية بشير بن سعد ؓ هذه النهاية المأساوية ؟ مع أنه استبسل وقاتل حتى آخر رمق ، وكان المعد لسريته أن تكون مثل سرية الصديق وسرية عمر بن الخطاب اللتين اتجهتا إلى تربة وضرية من عجز هوازن وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، حيث اتجه هو فى الشهر نفسه إلى بنى مرة الغطفانيين فى فذك ، وكان عدد السرايا الثلاثة متقارباً ، حيث حققت السريتان هدفهما وأصبحت الثالثة ، وأراد رسول الله ﷺ أن يرتفع قيادياً لمصاف القادة العظام مثل أبى بكر وعمر .

وما أحوجنا إلى أن نفقه هذا الدرس العظيم فى السرية الجديدة التى أوكلت قيادتها لبشير بن سعد بعد أن تمائل إلى الشفاء ، وهو صاحب الماضى العريق فى الجاهلية والإسلام . (أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال :

= ثبت أن أسامة كان أمير الجيش فالذى صنعه البخارى هو الصواب ؛ لأنه ما أمّر إلا بعد قتل أبيه بغزوة مؤتة وذلك فى رجب سنة ثمان ، وإن لم يثبت أنه كان أميرها رجح ما قال أهل المغازى (فتح البارى ٥١٨/٧ . ويمكن الجمع بين الروايات من خلال ما ذكر أهل المغازى أنه كان فى السرية التى اتجهت إلى بنى مرة قرب فذك ، ومواقعهم قريبة من جهينة ، وأن نهيك بن مرداس الذى قتله أسامة هو حليف لبنى مرة من الحرقات من جهينة ، كما فى رواية ابن إسحاق عن يونس بن بكير التى رواها الذهبي فى مغازيه ، ص ٤٤٩) (بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي كلب ليث إلى أرض بنى مرة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليف لهم من الحرة فقتله أسامة ...) .

(٢) مسلم ٩٥/١ ح (١٥٥) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥١٧/٧ ح (٤٢٦٩) .

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد سرية في ثلاثين رجلاً إلى بنى مرة بفدك في شعبان سنة سبع ، فلقبهم المريون فقاتلوا قتالاً شديداً فأصابوا أصحاب بشير ، وولى منهم من ولى ، وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ضرب كعبه ، وقيل : قد مات ، فلما أمسى تحامل إلى فدك فأقام عند يهودى بها أياماً ثم رجع إلى المدينة .

أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا يحيى بن عبد العزيز عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في سرية في ثلاثمائة إلى يمن وجبار بين فدك ووادي القرى ، وكان بها ناس من غطفان قد تجمعوا مع عيينة بن حصن الفزاري، فلقبهم بشير ففض جمعهم وظفر بهم وقتل وسبى وغنم، وهرب عيينة وأصحابه في كل وجه ، وكانت هذه السرية في شوال سنة سبع (١) .

فقد أعاد رسول الله ﷺ بشير بن سعد إلى الساحة نفسها التي أصيب فيها إلى ما بين فدك ووادي القرى ، وإلى العدو نفسه غطفان التي أصيب معها ومع أخطر عدو وأكبر قائد للعدو ، مع عيينة بن حصن الفزاري ، ولكن كتيبة اليوم هي ثلاثمائة عوضاً عن ثلاثين .

وحيث إن ابن سعد نقل لنا عن الواقدي بعض أنباء هذه السرية ، فنعود إلى الواقدي نشهد إضاءات جديدة عليها :

(حدثني يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد قال : قدم رجل من أشجع يقال له حُسيل : بن نُيرة وقد كان دليل النبي ﷺ إلى خيبر ، فقال له رسول الله ﷺ : « من أين يا حُسيل ؟ » قال : قدمت من الجَناب ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وراءك ؟ » قال : تركت جمعاً من غطفان بالجَناب قد بعث إليهم عيينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم ، فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعاً ، وهم يريدونك أو بعض أطرافك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فذكر لهما ذلك ، فقالا جميعاً : ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً ابن سعد ، وعقد له لواءً وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا بالنهار ، وخرج معهم حُسيل بن نُيرة دليلاً . . .) .

وفي كل مكان لرسول الله ﷺ عيون تنقل له أنباء تحركات العدو ، وحُسيل بن نُيرة ، هو القادم اليوم من الجَناب حيث يتجمع العدو ويعبئ قوته، فكيف صار حُسيل في الصف المسلم وانضم إليه ؟

يروى لنا رضي الله عنه ذلك فيقول :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٣١ ، ٥٣٢ .

(قدمت المدينة في جلب أبيه فأتى بي رسول الله ﷺ فقال :

« يا حسيل، هل لك أن أعطيك عشرين صاع تمر ، على أن تدل أصحابي على طريق خيبر ؟ » ففعلت فأعطاني - فذكر القصة - فقال : فأسلمت ... (١) .

فقد اختاره رسول الله ﷺ ابتداءً ليكون دليله إلى خيبر ، وأعطاه عشرين صاعاً من تمر ، وصاحب الجيش وهو مشرك ، ونتيجة لهذه المعاشاة أشرك قلبه بالإسلام ، وبقي في قومه أشجع .

وحين رأى هذا الجمع من العدو مضى مسرعاً إلى المدينة ليخبر حبيبه المصطفى بذلك .

ولخطورة الأمر فقد استدعى رسول الله ﷺ الشيخين أبي بكر وعمر يستشيرهما ، وهما أكبر مستشاريه ، فكان رأيهما مواجهة العدو بسرية مناسبة ، واختاراً لها بشير بن سعد رضي الله عنه ، فهو زميلهما الثالث في سرايا شعبان ، وهو المؤهل للمواجهة واستعادة الثقة بقيادته وكفاءته ، وكان ذلك .

وكل ما أعطاه رسول الله ﷺ من الخطة هو أن يسير بالليل ويكمن بالنهار ، وبعث معه حسيل بن نويرة دليلاً وهو الماهر الخريت في الطريق ، فهو المجرب في خيبر ، وهو القادم من الجنباب موقع تجمعات العدو .

وهذه صورة المعركة كما وصفها لنا رواة الواقدي :

(فساروا الليل وكنموا النهار حتى أتوا أسفل خيبر فزلوا بسلاح (٢) ، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم ، فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثلث نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمتهم ، وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر وإن أحببتم سرنا جميعاً ، قالوا : بل نقدمك ، فقدموه ، فغاب عنهم ساعة ثم كرّ عليهم فقال : هذه أوائل سرحهم فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبي ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرنا الرجال والعطّن ، وقال آخرون : نغتم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم ، فشجعوا على النّعم ، فأصابوا نَعَمًا كثيرًا ملؤوا منه أيديهم ، وتفرّق الرعاء وخرجوا سراعاً ، ثم حذروا الجمع فتفرق الجمع وحذروا ، ولحقوا بعلياء بلادهم ، فخرج بشير حتى أتى محالهم فيجدها وليس بها أحد ، فرجعوا بالنعم ، حتى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عيناً لعينة فقتلوه ، ثم لقوا جمع عينة ، وعينة لا يشعر بهم فناوشوهم ثم انكشف جمع عينة وتبعهم

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١٤/٢/١ ت (١٧١٦) .

(٢) سلاح : موقع أسفل من خيبر .

أصحاب النبي ﷺ ، فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً ، فقدموا بهما على النبي ﷺ فأسلما ، فأرسلهما النبي ﷺ (١) .

وها هو بشير بن سعد يعود الآن إلى المدينة مظفراً منصوراً ميمون النقية ، وليس غارقاً بجراحه كما عاد من قبل ، ويأتي ومعه الغنائم الكبيرة من النعم والشاء ، ولكن أضخم هذه الغنائم هو هذين الأسيرين من غطفان .

وبدل أن يقتلها رسول الله ﷺ ، دعاهما إلى الإسلام فأسلما فأرسلهما ، فكانا بذلك أول نواة للإسلام في غطفان ، ويستطيع عليه الصلاة والسلام أن يعلم منهما أسرار هذا العدو كله ، لكن ماذا يحقق بهما لو قتلها بعد الأسر ؟ إن الهدف الحيوى يبقى ماثلاً في ذهن القائد المصطفى ﷺ ، والقتل هو الحل الأخير عنده وليس الحل الأول . إن إحياء هذه النفوس بالإسلام ، والأخذ بحجزها عن النار هو رسالة الرسول ﷺ إلى الخلق كافة ، وإشراق هذه القلوب بالإسلام يعنى أنها أصبحت كالغيث أصاب أرضاً نقية ، فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وما أحوج رسول الله ﷺ إلى عين له داخل غطفان يعطيه أولاً بأول كل تحركات هذا العدو الشديد الماكر .

عيينة بن حصن على وشك السقوط :

ونتابع مع الواقدي أخبار عيينة الذى رأيناه قد فر من المواجهة عندما انكشف جمعه ، فيلقاه حليفه وصديق الامس وشريكه فى الخندق الحارث بن عوف المرى ، والذى سبق أن تحدثنا عن أصالة معدنه ، وحرصه على إنهاء الحرب مع رسول الله ﷺ ، لكنه يريد أن يوحد موقف غطفان كلها بهذا الاتجاه ، وعيينة هو رأس الحية التى لا تهدأ ليل نهار فى إشعال أوار هذه الحرب .

(وكان الحارث بن عوف المرى حليفاً لعيينة ولقيه منهزماً على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً ، فاستوقفه الحارث فقال : لا ، ما أقدر ، الطلب خلفى ، أصحاب محمد ، وهو يركض ، قال الحارث بن عوف : أما لك بعد أن تبصر ما أنت عليه ؟ إن محمداً قد وطئ البلاد ، وأنت موضع فى غير شيء .

قال الحارث : فتنتحيت عن سنن خيل محمد حتى أراهم ولا يرونى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ، ما أرى أحداً ، وما طلبوه إلا الرعب الذى دحله ، قال : فلقيته بعد ذلك ، فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ما رأيت من طلب ، قال عيينة : هو ذاك ، إنى خفت الإسار ، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى كل موطن .

(١) المغارى للواقدي ٧٢٨/٢ .

قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيتاً في بنى النضير ، ويوم الخندق ، وقرىظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفي خيبر إنهم كانوا أعز يهود ، الحجاز كله ، يقرُّون لهم بالشجاعة والسخاء ، وهم أهل حصون منيعة ، وأهل نخل ، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم ، لقد سادت حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من الناس ، ثم رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أدبل عليهم .

فقال عيينة : هو والله ذاك ، ولكن نفسي لا تقرنى .

قال الحارث : فادخل مع محمد ، قال : أصير تابعاً ، قد سبق إليه قوم فهم يزرون^(١) بمن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدرًا وغيرها ، قال الحارث : وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكننا من علية أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادة وهو موقع بهم وقعة ما وطئ له الأمر .

قال عيينة : أرى والله .

فاتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبي ﷺ .

ونجح الحارث فى مهمته بعد حوار عميق مع عيينة ، حيث أدرك أعماق نفسه ، ووضعه فى صورة الحجاز تمامًا ، وأنه لا يستطيع وحده أن يناوئ محمدًا ، وهو قد فرَّ منه الآن ، مذعورًا خائفًا الأسر ، فقد جاءه فى ذلك الوضع النفسى المتأزم ، وكل الذى يخشاه عيينة أن يصير تابعًا بعد هذه الزعامة الكبرى على غطفان ، فزحزح الحارث هذه القناعة عند عيينة بأن الانضمام إليه الآن يجعله من علية أصحابه ، وكلما تأخر الزمن كلما فانت الفرصة ، وإذا كانت قريش قد وادعته ، وخيبر قد وطئها بسنابك خيله ، فماذا يفيد العناد ؟ كان من الممكن أن يمضى الزعيمان الغطفانيان ، ويعلنا إسلامهما لولا قدوم سيد بنى عامر قرة بن هبيرة القشيرى عليهما ، وهو من أكبر حلفائهما فى نجد .

(إلى أن مر بهما قرة^(٢) بن هبيرة القشيرى يريد العمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، قال قرة : لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه فى هذه المدة التى هم فيها وآتيكم بخبرهم .

فهذه القبائل الكبرى تريد أن تعيد الحرب جذعة من جديد ، ولن يصاول محمدًا

(١) يزرون : يستصغرون .

(٢) المذكور فى النص : « فرة » ، وهذا خطأ وهو محرف عن قرة . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ،

مثل قومه ، فحال قرة دون مسير سيدى غطفان إلى المدينة ، ومضى قرة حتى قدم مكة فتحسب من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النبی ﷺ لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً) .

وأراد قرة أن يشكل حلفاً جديداً ينضم فيه بنو عامر بن صعصعة إلى قريش وغطفان من جديد ؛ لإحياء المواجهة السابقة (قال قرة : وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمحمد ، قالت قريش : فما رأى فأنت سيد أهل الوبر ؟ قال : نقضى^(١) هذه المدة التى بينكم وبينه ، ونستجلب العرب) .

وتحرك العدو اللدود الرابع سيد بنى بكر نوفل بن معاوية الديلى ، عندما سمع بوصول قرة إلى مكة (ويسمع به نوفل بن معاوية الديلى فنزل من ياديته فأخبره بما قال لقريش ، فقال نوفل : إذا لأجد عندكم شيئاً : قدمت الآن لمقدمك حيث بلغنى ، ولنا عدو قريب داره ، وهم عيبة نصح محمد لا يفيؤون عنه حرماً من أمورنا ، قال : من هم ؟ قال : خزاعة قال : قبحت خزاعة ، قعدت بها يمينها ، قال قرة : فماذا ؟ قال : استنصر قريشاً أن يعينونا عليهم ، قال قرة : فأنا أكفيكمهم ، فلقى رؤساءهم : صفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وسهيل بن عمرو فقال : ألا ترون ما نزل بكم ، إنكم رضيتم أن تدافعوا محمداً بالراح ، قالوا : فماذا نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزونا محمد فى ما لا قبل لنا به ، فيوطننا غلبة ، وننزل على حكمه ، ونحن الآن فى مدة وعلى ديننا ، فلقى نوفل بن معاوية فقال : ليس عند القوم شئ) .

ولن ينجح الحلف ما لم تكن قريش العنصر الرئيسى فيه ، وقد نجحت محاولة نوفل الماكرة بعد عام كامل من هذا العرض ؛ حيث استطاع أن يقنع بعض قيادات قريش بمعاونته فى الغدر بخزاعة ، ووقع ما توقعته هذه القيادات ، أن غزاهم محمد بما لا قبل لهم به ، ووطنهم غلبة ، ونزلوا على حكمه ، ورأى قرة الطريق مسدوداً أمامه ؛ لخوف قريش المهزومة نفسياً قبل أن تهزم عسكرياً فى حربها مع رسول الله ﷺ (ورجع فلقى عيينة والحارث ، فأخبرهم وقال : رأيت قومه قد أيقنوا عليه ، فقاربوا الرجل ، وتدبروا الامر ، فقدموا رجلاً وأخروا أخرى) ، وبقي عيينة بن حصن فى صراع نفسى ، لم يلق عصا المقاومة ، وهو يعرف أنه مأخوذ ، فقد فرّ مذعوراً من كتائب محمد ﷺ ، ولم ينجح إلا فرسه السبوح .

(١) المرجح أن : « نقضى » محرفة عن نقطع ؛ لأنه لا يعقل أن يعرض عليهم المكوث عشر سنين ، ليتهى عن الحديبية ، ثم يدعو إلى الحرب ، ولكنه يدعو إلى نقض العهد وقطع المدة المقررة للهدنة .

التربية الجماعية فى عمرة القضية

١ - (قال ابن إسحاق : خرج النبى ﷺ فى ذى القعدة - مثل الشهر الذى صده فيه المشركون - معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها) (١) ، وكذلك ذكر موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وأبو الأسود عن عروة ، وسليمان التيمى جميعاً فى مغازيهم أنه ﷺ خرج إلى عمرة القضاء فى ذى القعدة ، وروى يعقوب بن سفيان فى تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال :

(كانت عمرة القضية فى ذى القعدة سنة سبع) ، وفى مغازى سليمان التيمى : (لما رجع من خيبر بث سراياه ، وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة فنادى فى الناس أن تجهزوا للعمرة) ، وقال ابن إسحاق : خرج معه من كان صدّ فى تلك العمرة إلا من مات أو استشهد ، وقال الحاكم فى الإكليل : (تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان ، قال : وتسمى أيضاً عمرة الصلح ، قلت : فتحصل من أسمائها أربعة : القضاء والقضية والقصاص والصلح) (٢) .

٢ - (وروى وكيع وابن عيينة وابن سعيد ومنصور وعبد بن حميد والبخارى والبيهقى فى سننه عن حذيفة . . . وابن جرير عن عكرمة ، ووكيع عن مجاهد - رحمهما الله تعالى - قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] : إن التهلكة ترك النفقة فى سبيل الله ، ليس التهلكة أن يُقتل الرجل فى سبيل الله ، ولكن الإمساك فى سبيل الله ، أنفق ولو مشقصاً (٣)) (٤) .

(فقال رجال من حاضرى المدينة من العرب : يا رسول الله ، والله ما لنا من زاد ، وما لنا أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله تعالى وأن يتصدقوا ، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا ، فقالوا : يا رسول الله ، بم نصدق وأحدنا لا يجد شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بما كان ولو بشق تمر ») (٥) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٢٦/٢ . تحقيق الدكتور سهيل زكار .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥٠٠/٧ .

(٣) المشقص : نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض .

(٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢٨٨/٥ ، ٢٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ٢٨٨/٥ .

٣- (قال محمد بن عمر، وابن سعد: واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة أبا رهم . . . الغفاري رضى الله عنه ، وقال ابن هشام : واستعمل عوف - ويقال فيه عويث - ابن الأضبط رضى الله عنه) .

(وقال البلاذري : استعمل أبا ذر الغفاري ، ويقال : عوف بن الأضبط - والله أعلم) (١) .

٤- (قال الواقدي : وحدثني ابن موهب عن محمد بن إبراهيم بن الحارث قال : ساق رسول الله ﷺ في القضية ستين بدنة) .

(وحدثني غانم بن أبي غانم عن عبد الله بن دينار قال : جعل رسول الله ﷺ ناجية ابن جندب الأسلمي على هديه يسير بالهدى أمامه يطلب الرعى في الشجر ، معه أربعة فتيان من أسلم) (٢) .

(وحدثني يونس بن محمد عن شعبة مولى ابن عباس قال : قلّد رسول الله ﷺ هديه بيده) (٣) .

(وحدثني معاذ بن محمد، عن عاصم بن عمر قال : حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيض ، والدروع ، والرماح ، وقاد مائة فرس ، فلما انتهى إلى ذى الحليفة ، قدم الخيل أمامه ، وهي مائة فرس عليها محمد بن مسلمة ، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد ، فقيل : يا رسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لا ندخلها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا » قيل : يا رسول الله ، تخاف قريباً على ذلك ؟ فأسكت رسول الله ﷺ وقدم البدن (٤) .

٥- (وحدثني ابن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : سلطنا في عمرة القضية على الفرع ، وقد أحرم أصحابي غيري ، فرأيت حماراً وحشياً ، فشددت عليه فعقرته ، فأتيت أصحابي فمنهم الأكل والتارك ، فسألت النبي ﷺ فقال : « كل » .

قال أبو قتادة : ثم حج حجة الوداع ، فأحرم من البيداء ، وهذه العمرة من المسجد؛ لأن طريقه ليس على البيداء ، قال ابن واقد : فسار رسول الله ﷺ يلبى ، والمسلمون يلبون، ومضى محمد بن مسلمة بالخيول إلى مر الظهران، فيجد فيها نفرًا من قريش فسألوا

(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٧٣٢ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٨٩ .

(٣، ٤) المصدر نفسه ٢/ ٧٣٣ .

محمد بن مسلمة فقال : هذا رسول الله يصبح هذا المنزل غداً - إن شاء الله - فرأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً ، فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، ونحن على كتابنا ومدتنا ، فقيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران ، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، وبعثت قريش مكرز بن حفص بن الاحنف فى نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح ، قد تلاحقوا ، فقالوا : يا محمد ، والله ما عرفت كبيراً ولا صغيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح الحرم على قومك وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب ، فقال رسول الله ﷺ : « لا ندخلها إلا كذلك » ، ثم رجع سريعاً بأصحابه إلى مكة فقال : إن محمداً لا يدخلها بسلاح وهو على الشرط الذى شرط لكم (١) .

٦ - روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال : لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران من عمرته بلغ أصحابه أن قريشاً تقول : ما يتباحثون من العجف (٢) ، فقال أصحابه : لو انتحرننا من ظهرنا (٣) فاكلنا من لحمه ، وحسونا (٤) من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة (٥) ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعلوا ، ولكن اجمعوا إلى من أزوادكم » .

فجمعوا له وبسطوا الانطاع فاكلوا حتى تركوا ، وحشا كل واحد فى جرابه (٦) .

٧ - (قال ابن عباس رضيهما الله عنهما : قدم رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذى الحجة ، ولما جاء مكرز قريشاً بخبر رسول الله ﷺ ، استنكف رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً ، وحنقاً (٧) ، ونفاسة (٨) ، وأمر رسول الله ﷺ بالهدى أمامه حتى حبس بذى طوى ، ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به ، قد توشحوا السيوف يلبون ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طوى (٩) ، وقف على راحلته والمسلمون حوله ، ثم دخل الثنية التى تطلعه على الحجون (١٠) .

٨ - وروى البخارى - تعليقاً - وعبد الرزاق ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان عن أنس رضيه الله عنه ، وابن عقبة عن الزهرى ، وابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر بن

(٢) العَجَف : الضعف .

(٤) حسونا : شربنا .

(٦) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٠٥ .

(٨) النفاسة : الحسد .

(١٠) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩١ .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٣٣ ، ٧٣٤ .

(٣) من ظهرنا : من دوابنا التى نركبها .

(٥) الجمامة : البقية من القوة .

(٧) الحنق : الغيظ .

(٩) ذى طوى : واد قرب مكة .

عمرو بن حزم : (أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام القضية على ناقته ، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمامها ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
نحن ضربناكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام^(١) عن مقلبه^(٢)
ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقلبه^(٣)
إنى رأيت الحق فى قبوله

فقال عمر بن الخطاب : يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تعالى تقول الشعر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خلّ عنه يا عمر ، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل » ، وفى رواية : « يا عمر ، إنى أسمع » ، فأسكت عمر ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بن رواحة ، قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . فقالها الناس كما قالها (٤) .

٩- روى الإمام أحمد والشيخان وابن إسحاق عن ابن عباس رضيهما الله عن رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم^(٥) حمى يثرب ، فقال المشركون : إنه يقدم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا فيها شدة ، فجلسوا على قعيقعان^(٦) مما يلى الحجر ، فاطلع الله تعالى نبيه على ما قالوا : فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع^(٧) بردائه ، وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » وفى رواية : « أروهم ما يكرهون » وأمرهم أن يرملوا^(٨) ثلاثة أشواط^(٩) ، ويمشوا بين الركبتين ، ليرى المشركون جلددهم^(١٠) ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول وأصحابه ، حتى إذا وراه البيت منهم ، واستلم الركن (اليمنى) مشى حتى استلم الركن (الأسود) ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط ، ومشى سائرهما ، قال ابن عباس : ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم ، فقال المشركون : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقزون^(١١) نقز الطبقى ، وكان رسول الله ﷺ

(١) الهام : جمع هامة وهى الرأس هنا .
(٢) مقلبه : هنا عنقه ، مستعارة من القائلة .
(٣) بقله : بقوله .
(٤) سبل الهدى والرشد ٥/ ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٥) وهنتهم : أضعفتهم .
(٦) قعيقعان : جبل بمكة .
(٧) اضطبع : جعل وسط الثوب تحت الإبط اليمنى .
(٨) رمل : هرول .
(٩) الأشواط : الجرى إلى الغاية .
(١٠) جلددهم : قوتهم وصبرهم .
(١١) نقز : وثب .

يكأيدهم كلما استطاع (١) .

وروى الحميدى والبخارى والإسماعيلى ، عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه قال : (لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ، (وفى رواية) : من السفهاء والصبيان مخافة أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، وروى يونس بن بكير - رحمه الله تعالى - عن زيد بن أسلم - رحمهما الله تعالى - أن رسول الله ﷺ دخل عام القضية مكة ، فطاف على ناقته ، واستلم الركن بمحجنه ، قال ابن هشام وابن سعد : من غير علة ، والمسلمون يشتدون حول رسول الله ﷺ وابن رواحة يقول الرجز السابق (٢) .

١٠ - وحدثنى إبراهيم بن إسماعيل ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : (طاف رسول الله ﷺ بالبيت ، وبين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند المروة عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة فقال رسول الله ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحرا » ، فنحر عند المروة ، وقال ابن واقد : وكان قد اعتمر مع النبى ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا ، فأما من كان شهد الحديبية ، وخرج فى القضية ، فإنهم شركوا فى الهدى (٣) .

حدثنى يعقوب بن محمد ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صعصعة ، عن الحارث بن عبد الله ، عن أم عُمارة قالت : (لم يتخلف عن رسول الله ﷺ أحد من أهل الحديبية إلا اعتمر عمرة القضية ، إلا من مات أو قتل ، فخرجت ونسوة معى فى الحديبية ، فلم نصل إلى البيت ، فقصرن من أشعارهن بالحديبية ، ثم اعتمرن مع النبى ﷺ قضاء لعمرتهن ، ونحر رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة ، وكان ممن شهد الحديبية وقتل بخير ولم يشهد القضية : ربيعة بن أكثم ، ورفاعة بن مسروح ، وثقف بن عمرو ، وعبد الله بن أبى أمية بن وهب الأسدى ، وأبو صياح ، والحارث بن حاطب ، وعدى ابن مرارة بن سراقه ، وأوس بن حبيب ، وأنيف بن وائل ، ومسعود بن سعد الزرقى ، وبشر بن البراء ، وعامر بن الأكوع (٤) .

(حدثنى حزام بن هشام عن أبيه أن خراش بن أمية حلق رأس رسول الله ﷺ عند المروة) (٥) .

١١ - حدثنى إبراهيم بن إسماعيل ، عن داود بن الحصين قال : لم يدخل رسول الله ﷺ الكعبة فى القضية فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ فأبوا وقالوا : لم يكن من

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥٠٨/٧ ح (٤٢٥٦) ، والسيرة لابن هشام ٨٢٦/٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢٩٣/٥ . (٣) المغازى ٧٣٦/٢ .

(٤، ٥) المغازى للواقدي ٧٣٧/٢ .

شرطك ، وأمر بلالاً فأذن فوق الكعبة يومئذ مرة ولم يعد بعده ، وهو الثبت (١) .

(وروى البخارى عن إسماعيل بن أبى خالد أن رجلاً سأل ابن أبى أوفى : كان رسول الله ﷺ دخل فى القضية الكعبة ؟ قال : لا) (٢) .

١٢ - فى الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه (أن الأجل لما مضى أتى المشركون علياً رضي الله عنه فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل (٣) ، فذكر ذلك على رضي الله عنه لرسول الله ، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل ، وقال : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » ، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف وتنام الناس ، وخلف رسول الله ﷺ أبا رافع ليحمل له زوجته ميمونة حين يمسي ، فأقام أبو رافع حتى أمسى ، فخرج بميمونة ومن معها ، ولقيت من سفهاء مكة عناءً (٤) .

حدثنى عبد الله بن محمد قال : فلما كان عند الظهر يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ورسول الله ﷺ فى مجلس من مجالس الانصار يتحدث معه سعد بن عبادة فقال : قد انقضى أجلك فاخرج عنا ، فقال النبى ﷺ : « وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً ؟ » فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، نشدك الله يا محمد ، والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ، فهذه الثلاث قد مضت ، وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتاً ، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح ، فكان هناك حتى خرج منها ، لم يدخل تحت سقف بيت من بيوتها ، فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبى ﷺ ، فقال لسهيل : كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها ، إلا طائئماً راضياً ، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « يا سعد ، لا تؤذ قومًا زارونا فى رحالنا » ، قال : وأسكت الرجلان عن سعد ، ثم أمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل ، وقال : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » ، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل سرف ، وتنام الناس ، وخلف أبا رافع ليحمل إليه زوجته حين يمسي ، وأقام أبو رافع حتى أمسى ، فخرج بميمونة ومن معها ، فلقوا عناءً من سفهاء المشركين ، آذوا بالسبهم النبى ﷺ ، وقال لها أبو رافع - وانتظر أن يبطش أحد منهم فيستخلى به فلم يفعلوا : ألا إني قد قلت لهم : (ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح بيطن يأجج ، وإذا الخيل قد قربت فوقفت لنا هنالك والسلاح ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت أن يذهبوا إلى أصحابهم بيطن يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضوا

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢٩٤/٥ .

(١) المغارى للواقدي ٧٣٨/٢ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٢٩٥/٥ ، ٢٩٦ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤٩٩ ح (٤٢٥١) .

نسكهم ، ففعلوا ، فلما انتهينا إلى بطن يأجج ساروا معنا ، فلم نأت سرف حتى ذهب عامة الليل ، ثم أتينا سرف ، فبنى بها رسول الله ﷺ ، ثم أدلج حتى قدم المدينة (١) .

١٣ - روى الشيخان عن البراء بن عازب ، والإمام أحمد (٢) عن علي ، ومحمد بن عمر ، عن ابن عباس ؓ قال ابن عباس : (إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب - وقيل : اسمها أمانة ، قال الحافظ : وهو المشهور - وأمها سلمى بنت عميس ، كانت بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، كلّم علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهرائي المشركين ، فلم ينهه رسول الله ﷺ فخرج بها .

وقال البراء : إن رسول الله ﷺ لما خرج تبعته ابنة حمزة تنادى : يا عمى ، يا عمى ، فتناولها علي فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة ؓ : « دونك ابنة عمك » ، فاختصم فيها زيد وعلي وجعفر - أى بعد أن قدموا المدينة كما سيأتى - وكان زيد وصى حمزة ، وكان رسول الله ﷺ قد واخى بينهما حين آخى بين المهاجرين ، فقال علي : أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين ، وقال جعفر : بنت عمى وخالتها أسماء بنت عميس تحتى ، وقال زيد : بنت أخى ، ففضى بها رسول الله ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » ، وقال لعلى : « أنت منى وأنا منك » ، وفى حديث ابن عباس ؓ : « أما أنت يا علي فأخى وصاحبى » ، وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقي » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، وفى حديث ابن عباس : « أنت مولى الله ورسوله » .

قال محمد بن عمر : فلما قضى بها رسول الله ﷺ ، قام جعفر فحجل حول رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جعفر ؟ » قال : يا رسول الله ، كان النجاشى إذا أرضى أحداً قام فحجل) .



١ - عاد المسلمون من الحديدية بنفوس منكسرة ، وقلوب مكلومة ، أن صدوا عن المسجد الحرام ، وحيل بينهم وبين العمرة إلى بيت الله الحرام ، وعلى طريق العودة تنزل وحى الله تعالى بهذا الفتح المبين رغم عودتهم خائئين ، لكنهم عاشوا مع موعود الله - عز وجل - لهم .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ

(١) المغازى للواقدي ٧٣٨/٢ .

(٢) فتح الباري ٤٩٩/٧ من ح (٤٢٥١) ، ومسند أحمد ١ / ٩٨ ، ١٠٨ .

رءُوسُكُمْ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴿[الفتح] .

وشهدوا الفتح القريب فى خير والمغانم الكثيرة التى أخذوها ، وراحوا ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتى العام القابل الذى يفتح فيه المشركون أبواب مكة على مصراعها لدخول المسلمين ، ووعد الله تعالى لهم أنهم سيدخلون آمنين لا يخافون ، وأصبحت مكة تعيش فى قلوبهم وأرواحهم صباح مساء ، فى انتظار انسلاخ العام حتى يكحلوا أعينهم برؤية بيت الله الحرام ، فقد رأوه فى المنام كثيراً ، وهم يطمحون اليوم أن يروه بعين اليقظة .

وأهل هلال ذى القعدة ، وصدرت الأوامر النبوية إلى رجال الحديبية ونسائها جميعاً أن يتأهبوا للعودة جميعاً ، ففى أعناقهم قضاء تلك العمرة التى فاتتهم العام الماضى .

لكن الذى يلفت النظر هو هذا العدد الضخم الذى أضيف للمسلمين خلال هذا العام ، فبعد أن كان العدد فى الحديبية ألفاً وأربعمائة أو تزيد قليلاً ، نجد عدد الجيش الإسلامى اليوم يبلغ الألفين أو يزيد ، وهذا يعنى انضمام ستمائة مسلم جديد إلى الصف الإسلامى الذى كانت حصيلته خلال قرابة عشرين عاماً ألفاً وأربعمائة ، بينما يتجاوز فى عام واحد ثلث المسلمين أو يزيد .

وهكذا نرى آثار صلح الحديبية فى فتح القلوب للإسلام ، وتبدد مشاعر الخوف من مخالفة المسلمين أو الانضمام لهذا الدين الجديد .

فمن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيها ، وهذا هو الهدف الرئيسى من الرسالة النبوية إلى الخلق ، أن تفتح القلوب الغلف ، والأعين العمى ، والأذان البكم إلى هذا الدين ، ويغمر نوره الآفاق والأبعاد .

ولعل أكبر أحداث هذا العام على الإطلاق هو هذه الإضافة الجديدة إلى الرصيد الإسلامى المذخور بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بينما نجد بالمقابل أعداد قريش تتناقص ، وشهدنا كيف أن قريشاً رجت رسول الله ﷺ أن يقبل المستضعفين عنده بعد أن حظرت عليهم ذلك بنص ميثاق الحديبية ، وذلك حين استطاع أبو بصير رضي الله عنه وأبو جندل والمسلمون معهم أن ينتزعوا هذا الاعتراف من مكة بقوة السلاح ، بعد أن أصبحت تجارة مكة مهددة بالبوار عن طريق الساحل .

٢ - والدرس الجديد الذى تعلمه المسلمون من الحديبية هو أن يأخذوا أهبتهم بسلحهم الكامل ، فقد كادت تفرض عليهم معركة فى الحديبية ، وبايعوا على الموت ،

وهم لا يملكون إلا سيوفهم، وتبقى السيوف سلاح المسافر فقط . لكنها ليست وحدها آلة الحرب، ومن أجل ذلك صدرت أوامر القائد الأعظم ﷺ أن يتجهز المسلمون بسلاحهم كاملاً ، كما ذكر عاصم بن عمر قال : (حمل رسول الله ﷺ السلاح ، والبيض ، والدروع ، والرماح ، وقاد مائة فرس) .

وكان قائد سلاح الفرسان محمد بن مسلمة ، ومسؤول التسليح بشير بن سعد ، فقد وزعت المسؤوليات بين قائدين من الأوس والخزرج ، وهما من هما خبرة ودراية وقدرة حربية ، وبشير بن سعد شهدنا كيف استعاد اعتباره فى سرية الجنب ، وأوقع بعينة بن حصن ، وفر منه مذعوراً ، وهو العدو المتربص الذى يحرك غطفان كلها ضد المسلمين ، فقد كان وجود بشير على السلاح كله ، إعلماً للجيش الإسلامى كله باستعادة بشير بن سعد لاعتباره بعد محنته التى وقعت به مع بنى مرة .

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ قد اختار أن يقدم الفرسان والسلاح أمامه لا أن يخرج الجيش كله مدججاً فى السلاح، فحين يرى العرب أن هؤلاء المعتمرين قد أعدوا سلاحهم، وأخذوا أهبتهم سرعان ما يتبادر إلى الذهن أن رسول الله ﷺ قد نقض العهد .

والترية النبوية للأمة كلها مشركها ومسلمها تقوم على أساس مراعاة العهود والمواثيق، وحفظ الذمم ، والعرب لا تغفر لمحمد ﷺ نقضه للعهد ، ولو فعل ذلك فقد تراجع كثير من القبائل عن الإقدام على العهود معه ، خوفاً من أن يغدر بها ، ولا بد أن تتعرف العرب على أن هذا النموذج الجديد فى الساحة العربية ، نموذج يحمل القوة ، ويحمل الوعى ، ويحمل الأمانة .

يحمل القوة حين قدم سلاحه وفرسانه أمامه ، فلا يجزؤ أحد على مهاجمته .

ويحمل الوعى ، فلا يعرض نفسه للغدر ، ولا يعرض نفسه للمواجهة وهو بدون سلاح ، وليس مغفلاً بحيث يستدرج إلى معركة بدون سلاح .

ويحمل الأمانة ، فهو لم يغدر ولم ينكث ، ولم يجعل المعتمرين مقاتلين بأهبتهم الكاملة .

والعرب على استعداد أن تنقض فى أى لحظة على محمد ﷺ وهو الذى يحارب عقائدها ، ويسفّه أصنامها ، ويذكر آلهتها بسوء .

إنها التربية المتوازنة التى تجمع بين العبقرية الحربية ، وعظمة العقيدة والالتزام بها ، ولا تدع الجيش الإسلامى نهية للموت فى هذه الصحراء المترامية ، وهذه القبائل التى يمر عليها الرسول ﷺ هى القبائل المؤهلة للانضمام إلى الإسلام ، فهى تقدس البطولة ،

وتقدس المروءة ، وإن كانت لا تنقيد فيها فى كثير من الأحيان .

وعلى تقدير أبى سفيان قائد جيش العدو ، أن أكبر طعنة استطاع أن ينفذ فيها إلى النيل من محمد ﷺ عند قيصر هى قوله : (ونحن معه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها) ، قال : (ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة) (١) ، ولم يستطع أبو سفيان أن يمسك على محمد ﷺ خلال عشرين عاماً مثلبة واحدة ينال بها منه ، إلا محاولة التشكيك هذه به بين يدى قيصر .

إن الجانب الخلقى للجيش المسلم أهم بكثير من الجانب الحربى ، ولم تعهد البشرية عامة ، ولا العرب خاصة مثل هذه النماذج الربانية التى لا تعرف الحياة سلباً ونهباً فحسب ، بل تعرفها قيماً وأخلاقاً ، وبطولة ، واستقامة .

وشهدنا أبعاد حمل السلاح هذا فى الساحة العربية فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول :

هو التربية التى تربي عليها الجيش المسلم كله ، حيث تربي على الوفاء بالعهود والمواثيق سلوكاً وفكراً ، إذ القرآن الكريم يريهم على هذه المعانى منذ المرحلة المكية ، ومنذ ولادة الدعوة ، فهذا جعفر بن أبى طالب ؓ يعرف الإسلام للنجاشى بقوله :

(أيها الملك ، كنا قومًا على الشرك نعبد الأوثان ، ونأكل الميتة ، ونسئ الجوار ، ونستحل المحارم بعضنا من بعض فى سفك الدماء وغيرها ، لا نحل شيئاً ولا نحرمه ، فبعث الله إلينا نبياً نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونصل الرحم ، ونحسن الجوار ، ونصلى ونصوم ولا نعبد غيره) (٢) .

وعلى ضوء هذه التربية لم يسكت المسلمون حين رأوا رسول الله ﷺ يحمل السلاح (فليل : يا رسول الله ، حملت السلاح ، وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ؛ السيوف فى القرب) (٣) .

فهم أمناء على دعوتهم ، وهم حملة رسالة الله تعالى إلى العالمين ، فلا يمكن أن يكفوا عن السؤال وهم يعلمون الشرط الذى بينهم وبين قریش ، فهى قمة الوعى لهذا الجيل الفريد فى التاريخ .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنا لا ندخلها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريباً منا ،

(١) البخارى ٥/١/٦ ، ٦ .

(٢) السيرة لابن إسحاق ، تحقيق محمد حميد الله ، ص ١٩٥ .

(٣) المغازى للواقدي ٧٣٣/٢ .

فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا « (١) :

واستمرت التربية النبوية الخالدة بهذا المنحى نفسه ، فالشرط سيكون الوفاء به كاملاً ، لكن القيادة الواعية هي التي تحسب لكل أمر أهفته ، وتتوقع كل الاحتمالات الممكنة ، وتتصرف على ضوء هذه الاحتمالات ، فما الذى يمنع قريشاً أن تبيّت خطة غدر للمسلمين وهم عزل من السلاح ، فى تواطؤ مع جيرانها من العرب ؟!

وأدرك المسلمون أبعاد النظرة النبوية فقالوا: يا رسول الله ، تخاف قريشاً على ذلك؟ فأسكت رسول الله ﷺ وقدم البدن .

والخطة النبوية واحدة، فلم يرض أن يركب الخيل ويسوق البدن ؛ لأن ركوب الخيل تعنى عند العرب الاستعداد للحرب والمواجهة ، وهذا ما لحظه عليه الصلاة والسلام فى أحد حين بعث علياً - رضوان الله عليه - أثر قريش ليتعرف على خطتهم بعد الانسحاب من أحد .

قال - عليه الصلاة والسلام : « اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتنطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن إليهم فيها ، ثم لاناجزنهم » (٢) .

الموقف الثانى :

هو نزول محمد بن مسلمة بالخيـل فى مر الظهران ، ونزول السلاح هناك كذلك ، وهو يبعد عن مكة قرابة اثنين وعشرين كيلو متراً (فيجد بها نفراً من قريش فسألوا محمد ابن مسلمة فقال: هذا رسول الله، يصبح هذا المنزل غداً - إن شاء الله - فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، ونحن على كتابنا ومدتنا ، فقيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران ، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم) (٣) .

وبطن يأجج على عشرة كيلو مترات من المسجد الحرام ، لكنه فى الحل ، وهو أقرب إلى مكة من مر الظهران .

وقد تحقق الهدف المقصود من حمل السلاح وهو فزع قريش ، وإلقاء الرعب فى

(١) المغازى للواقدي ٧٣٣/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢ ، تحقيق مصطفى السقا ورملائه .

(٣) المغازى للواقدي ٧٣٤/٢ .

صفها ، بحيث لا تسوّل لها نفسها المواجهة مع محمد وأصحابه ، ولم يتكلم محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، ويشير بن سعد شيئاً حين رأوا ذلك النفر من قريش ، أنهم لن يدخلوا الحرم بسلاحهم وهم يعرفون ذلك ، كل ما قالوه أن مرّ الظهران هذا حيث الخيل والسلاح للمسلمين ، سوف يكون غداً منزل رسول الله ﷺ .

الموقف الثالث :

وهي المحاولة السلمية من قريش لصد النبي عن مكة بسلاحه (وبعثت قريش مكرز ابن حفص بن الأحنف في نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج ، ورسول الله ﷺ في أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحقوا فقالوا : يا محمد ، والله ما عرفت كبيراً ولا صغيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح الحرم على قومك وقد شرطت أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر !؟) .

فقد حددوا طبيعة نقض العهد ، وهو دخول مكة بهذه الأسلحة ، وهم قد قدموا شهادة غالية جداً بين يدي هذا الفرع : ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر .

وحافظ الرسول ﷺ على هذا المستوى العظيم من الوفاء ، وعلى هذا المستوى العظيم من الوعي كذلك ، فأجابهم بكلمة حاسمة : « لا ندخلها إلا كذلك » .

ثم رجع سريعاً إلى أصحابه بمكة فقال : إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشرط الذي شرط لكم .

وحافظت مكة بذلك على هيبتها وسمعتها عند العرب بأنها منعت محمداً أن يدخل مكة بسلاح ، حين شرطت عليه ذلك قبل عام ، وها هو ينفذ هذا الشرط ، فلا يدخلها إلا بسلاح السيوف ، ولم تشك مكة لحظة واحدة في صدق محمد ﷺ ، واطمأنت بعد فرج ، وعبرت عن شديد حقدها من جهته ، وشديد أمنها من جهة ثانية حين غادرت قيادات مكة مكة إلى رؤوس الجبال .

ودخلوا مكة ، وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

٣- وهي هي الحرب النفسية بين الفريقين ، ومكة تريد أن تشعر محمداً ﷺ أنها لا تعباً به ، فلم تتجمع لمواجهته بعد أن اطمأنت إلى أنه لن يدخل الحرم بالسلاح ، وهو مثل بقية العرب الذين يأوون إلى البيت فيؤدون نسكهم ويمضون ، لكن مخبرات النبي ﷺ ، وعميق نظرته ، تدرك ما وراء هذه المظاهر . صحيح أن قريشاً لم تتجمع حول البيت ، وتحذق بمحمد عليه الصلاة والسلام لكن نظرة إلى الأفق ، تبين أن قريشاً قد تجمعت في رؤوس الجبال تؤد أن تشهد هؤلاء الوافدين الجدد على أرض العرب ، وكيف

يكبر عددهم ، ويضخم تجمعهم ، وتزداد قوتهم وشكيمتهم ، وقد أدرك المسلمون جميعاً بحسهم الأمنى العالى أن قريشاً سوف لا تأبه بهم بحجة حمى يثرب التى أوهنتهم وأضعفتهم ، ومن أجل ذلك مرت هذه العملية فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

وهم على الطريق ، وسواء ذلك للعرب جميعاً أو لقريش خاصة (لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران فى عمرته بلغ أصحابه أن قريشاً تقول : ما يتباعثون من العجف) .

فكيف بلغ هذا الأمر رسول الله ﷺ ؟ لا شك أنه قد بلغه من عيونه المباشرة فى قريش ، تسمع منهم ما يدور فى مجالسهم ، وانتشر هذا الخبر فى الجيش الإسلامى (فقال أصحابه : لو انتحرنّا من ظهرنا فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة) .

إنه الجيش الذى مرّ عليه قرابة عشرة أيام وهو ماضٍ فى هذه الصحراء المحرقة ، يتوق إلى وجبة دسمة من اللحم والشحم يتناولها ؛ ليكون أقوى له على مواجهة العدو ، ولكن الإبل التى معه محدودة وموزعة بين الهدى الذى يسوقونه إلى الحرم للذبح ، وبين الإبل المعدة للركوب فى الذهاب والإياب ، وحيث لا يجوز ذبح الهدى قبل أداء النسك ، فالأمر الطبيعى إذن أن يُنحر من الظهر ليتقوى بها الجيش ، وهذا ليس أمراً سهلاً ، فحتى يتم إطعام هذا الجيش وليوم واحد لا بد من ذبح قرابة عشرين بدنة لتطعم هؤلاء الألفين وجبة واحدة ، وذلك قياساً على ما قدره رسول الله ﷺ من عدد المشركين فى بدر . (قال : « كم القوم ؟ » قالوا : كثير ، قال : « ما عدتهم ؟ » قالوا : لا ندرى ، قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالوا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم بين التسعمائة والألف ») (١) .

وحين تبعث شهوات البطون على اللحم والشحم ، فما هو الذى يصدّها عنه ؟ وقد لا تألف بعدها زاد التمر ، والسويق وغيره .

ولو أصبح الطعام اليومى هو الإبل ، فهذا يعنى أن الظهر سوف يفتنى ، ويعجز كثير من المسلمين عن العودة إلى المدينة ، حين فقدوا دواب ركوبهم ، والتخطيط الحربى لا يتناسب معه أبداً أن يبطر الجيش فى البداية ، ثم لا يجد بعدها قوتاً يأكله ، ولا ظهراً يركبه ، ولا بد للحرب من اقتصاد يناسبها ، ولهذا رفض رسول الله ﷺ هذا الحل مع قناعته بضرورة قوة المسلمين أمام عدوهم ، قال : (« لا تفعلوا ولكن اجمعوا إلى من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٨/٢ .

أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الانطاع فأكلوا حتى تركوا ، وحشا كل واحد فى جرابه (١) .

وكانت بركة النبى ﷺ بهذا الزاد الذى فاض ، وتزود منه كل مسلم بما يملأ جرابه ، وهى واحدة من المعجزات التى كانت ترافق النبى ﷺ ، والمسلمون معه ؛ ليشهدوا معية الله معهم فى كل لحظة ، وأنهم مسندون بعون الله ورعايته ، وأنهم فئة خاصة من دون الناس ذات صلة وثيقة بالله عز وجل ، وكأنما يعيشون معه ليل نهار ، ولا يغيب عن قلوبهم لحظة واحدة .

المرحلة الثانية :

وذلك حين تحرك الجيش قاصداً مكة ، فقد اختار رسول الله ﷺ أن يدخل مكة راكباً على ناقته القصواء ، والمسلمون محدقون به ، وقد توشحوا سيوفهم ، لكن هذا المنظر لا يكفى لاستجاشة أهل مكة جميعاً ، فلا يبلغهم إلا صوت مشى الإبل ، ولا قعقة فى السلاح ، وقد لا يلتفت لوصولهم أحد : وحين أطل رسول الله ﷺ على مكة ، حبس الهدى فى ذى طوى ، ثم مضى إلى الثنية التى تطلعه على الحجون ، ارتفع هدير عبد الله بن رواحة ، وهو آخذ بزمام القصواء ناقة النبى ﷺ ، وهو يقول :

خلوا بنو الكفار عن سبيله نحن ضربناكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فلا بد أن تسمع قریش لهجة الحرب من الفدائيين المسلمين ، يدعونهم إلى فتح الطريق أمام كتائب الإيمان التى سبق وجربها الأعداء من الكفار ، حين كان النزال فى الحرب ، وما يوم بدر منهم ببعيد ، كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الانفال] .

لكن هذا القتال كله ليس من أجل القتال والسيطرة وإظهار القوة ، إنه قتال المستضعفين فى الأرض الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، قتال الأسود التى تود أن تسترد عرينها الذى اغتصب منها ، وهى الآن تدخل هذا العرين بعد أن أدت الثمن غالباً من الأرواح والدماء والجراح ، وعلى الكفار أن يخلوا سبيل المؤمنين أمام بيت الله الحرام ، وبلد الله الحرام ، والهدف بعد هذا كله هو سيادة كتاب الله تعالى ، وسيادة شريعته ، فما كان القتل ابتداءً إلا فى سبيل الله :

(١) مسند أحمد ٣٠٥/١ .

قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأن خير القتل فى سبيله

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله^(١)

وها هو يدعوهم بعد تلك المعارك الضارية إلى الله ورسوله :

قد أنزل الرحمن فى تنزيله فى صحف تتلى على رسوله

يا رب إنى مؤمن بقبيله إنى رأيت الحق فى قبوله

وعمر رضي الله عنه يرى الشعر فى الحرم وهو مكان العبادة والتنسك ، وكاد القوم أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، فقال لابن رواحة : (يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله ﷺ ، وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبى ﷺ : « خل عنه يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل »)^(٢) .

فهى الحرب النفسية التى تفوق الحرب العسكرية ، وما هذا الشعر الذى يرمى به ابن رواحة المشركين إلا أشد من النبل عليهم كما قال عليه الصلاة والسلام ، حتى ولو كان الشعر فى حرم الله تعالى ، وبين يدى رسول الله ﷺ ، فهو عند العرب أشد مضاءً من السيف وآلم وقعاً من النبل .

ثم كان النشيد الجماعى بعد ذلك تجاوبت به أرجاء مكة وجنابتها :

(« يا بن رواحة، قل: لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ») ، فقالها الناس كما قالها ، وهى تعيد إلى الأذهان هزيمة الأحزاب فى الخندق ، وكيف نصر الله عبده محمداً ﷺ بقوة من عنده وحده عز وجل ، لا بقوة المؤمنين ، ولا بسلاحهم .

فهو عرض حى لتاريخ دام بين الفريقين ، انتهى بأن آوت مكة إلى بيوتها تاركة الزحف الإسلامى تحت راية التوحيد يخترق مكة فى بيوتها وأزقتها وشعابها ، هو تحديد مرحلة جديدة من التعامل بين الفريقين ، وانتصار حاسم لعقيدة التوحيد فى قلب مكة ، حيث تفتح أبواب الحرم أمامها ، دون أى اعتراض .

المرحلة الثالثة :

وكانت فى قلب هذه الحرب النفسية فى داخل المسجد الحرام وحول الكعبة المشرفة ، والمشركون على رؤوس الجبال ، وكلهم يتلمظ حقداً على هؤلاء المسلمين ، ويمنى نفسه

(١) كما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى ، فتح البارى ٥٠١/٧ .

(٢) أخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

الامانى أنهم ضعاف مهازيل لا بد أن يتتوها فى يوم من الأيام ، وبحركة عظيمة نبوية ، غزا هذه القلوب الواجفة وحطمها للمرة الثالثة ، بعد رجز ابن رواحة ، وبعد توحيد الجيش كله .

(فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » ، وفى رواية : « أروهم ما يكرهون » ، وأمرهم أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا بين الركنين ، ليرى المشركون جلدتهم ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول وأصحابه معه) .

فالمشركون وقد تجمعوا على جبل قُعَيْقَعَان ، فلا يرون من طرف الركنين أحداً ، إنما يرون من جهة الحجر ، ولهذا كان الرمل قائماً فى جميع الجهات إلا جهة الركنين ، حيث يمشون مطمئنين هناك .

وتحقق الهدف كاملاً من التنفيذ الدقيق للمهمة (وخرج يهرول وأصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الركن الأسود ثم هروا كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرهما) .

قال ابن عباس : (ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم) .
فلو فعل ذلك لسقط بعضهم إعياءً وفاتت المصلحة من ذلك ، وكان أثر هذه العملية الاستعراضية أمام المشركين أن راحوا يهزؤون من أنفسهم قائلين وقد أكل قلبهم الحقد : (هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقزوا نقر الطبى) .
(وكان رسول الله ﷺ يكأيدهم ما استطاع) .

حتى فى العبادة، وفى مواجهة المشركين ، وفيما يتقرب به الناسك إلى ربه ، لا بد من إشعار العدو بعزة المسلم وقوته واستعلائه ، وليس هذا من باب الرياء فى شيء ، فهو يريد عليه الصلاة والسلام لهذا العدو أن يستسلم لله عز وجل ، ولا يستعلى بقوته وبطشه وكبريائه ، وينضم للإسلام دون إراقة دم ، فهو الرحمة المهداة للبشرية كلها والعالمين بأسرهم .

٤ - وكان بعد الطواف السعى بين الصفا والمروة إنه أول نسك للعمرة فى الإسلام يقوم به محمد ﷺ ، والمسلمون يتعلمون منه مناسكهم ، وكل الشعائر معرضة لإعادة النظر بعد أن تخللها كثير من الشراكيات فأفسدتها ، وخاصة السعى كما نرى ذلك من تفسير قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة] .

فعن هشام بن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : قلت لعائشة زوج النبي ﷺ ، وأنا يومئذ حديث السن : رأيت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا... ﴾ [البقرة : ١٥٨] . فما أرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما ، فقالت عائشة : كلا لو كانت كما تقول كانت : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار ، كانوا يهلون لمناة ، وكانت مناة حذو قديد ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا... ﴾ (١) .

وعن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ... ﴾ (٢) .

وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكان بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

وقال الشعبي : كان إساف على الصفا ، ونائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما .

قلت : ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين ، فزنيا داخل الكعبة فمسحاً حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبداً ، ثم حوّلوا إلى الصفا والمروة ... (٣) .

وإذا كانت أركان العمرة العملية هي الطواف والسعى ، فالطواف لم يكن موطن شك ، وأزيل الشك بالنسبة للصفا والمروة ، ومع نهاية السعى . (وقد وقف الهدى عند المروة ، فلما كان الطواف السابع عند المروة قال رسول الله ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » ، فنحر عند المروة) (٤) .

(قال محمد بن عمر : وقد كان اعتمر مع رسول الله ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية ، فلم ينحروا ، وأما من شهداها وخرج في القضية فإنهم اشتركوا في الهدى) (٥) .

٥ - وفي وداع هذا النسك العظيم ، لا يفوت إمام المربين - عليه الصلاة والسلام -

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٠ .

(٤ ، ٥) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٤ .

(١) البخاري ٢/ ٢٨١ / كتاب التفسير .

(٣) تفسير القرطبي ، تفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

تَوَقُّ الكُتَيْبَةُ المَكْلُفَةُ بِحِمَايَةِ السِّلَاحِ بِيْطَنٍ يَأْجِجُ لَتُوْدَى هَذَا النِّسْكَ العَظِيْمُ ، فَكُلُ مُؤْمِنٍ لَهْ دَوْرُهُ فِى قَلْبِ المِصْطَفَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

ف (أَمْرُ رَسُوْلِ اللّهِ ﷺ مَاتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ حِيْنَ طَافُوا بِالْبَيْتِ وَسَعَوْا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى أَصْحَابِهِ بِيْطَنٍ يَأْجِجُ فَيَقِيْمُونَ عَلَى السِّلَاحِ ، وَيَأْتِى الْآخَرُونَ فَيَقْضُوا نِسْكَهُمْ فَفَعَلُوا) (١) .

٦ - وَبَعْدَ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ الْجَمَاعِيَةِ الَّتِي ثَمَّتْ لِكُتَاتِبِ الْإِيْمَانِ كُلِّهَا وَالَّتِي تَوَجَّهَتْ إِلَى عَمْرَةِ الْحَدِيْبِيَّةِ ، جَاءَ دَوْرُ تَرْبِيَةِ الْأَعْدَاءِ ، تَرْبِيَةِ قِيَادَاتِ مَكَّةَ ، الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ وَأَيْدِيَهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنْ يَمْكُثَ مُحَمَّدٌ ﷺ فِى مَكَّةَ ، وَسِلَاحُهُ وَفِرْسَانُهُ عَلَى أَبْوَابِهَا ، وَيَسْتَعْمَلُ سِيَاسَةَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، خَاصَّةً وَمَكَّةَ بِلَدِهِ وَأَرْضَهُ هُجْرَ مِنْهَا ، فَمَا الَّذِى يَدْعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ ، وَكَانَ رَعْبُ مَكَّةَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ أَكْبَرَ مِنْ رَعْبِهَا مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ بِالسِّلَاحِ ، فَلَمَّا انْتَهَى الْيَوْمُ الثَّلَاثُ (فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الظَّهْرِ يَوْمَ الرَّابِعِ أَتَى سَهِيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَحَوِيْطُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى ، وَرَسُوْلُ اللّهِ ﷺ فِى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ - أَيْ سَهِيْلُ بْنُ عَمْرٍو : قَدْ انْقَضَى أَجْلُكَ فَاخْرُجْ عَنَّا) ، وَذَلِكَ فِى جَفَاءٍ بَالِغٍ وَاسْتِعْلَاءٍ حَاقِدٍ ، فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ أَنْ يَلِيْنَ هَذِهِ الْقُلُوبَ الْجَاسِيَةَ ، وَيفْتَتِكَ تِلْكَ الْأَحْقَادَ فِى قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ قَائِلًا لَهُمْ :

« وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِى فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا ؟ » .

وَالْأَصْلُ فِى الْعَرَبِيِّ ذِى الْمُرُوَّةِ أَنْ يَتَزَلْزَلَ لِمِثْلِ هَذَا الْأَسْلُوبِ وَيَلِيْنَ ، لَكِنْ الْحَقْدُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ كَانَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِى طَعَامِكَ ، اخْرُجْ عَنَّا !!

إِنَّهُ رَدٌّ لِلْحَسَنَةِ بِالسَّيِّئَةِ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ فِى أَعْمَاقِهِمْ أَنَّ هَذَا الرَّدَّ نَقِيصَةٌ فِى عَالَمِ الرِّجَالِ ، لَكِنَّهُمَا بِمَا يَعَانِيَانِ مِنْ خَوْفٍ مِنْ اِحْتِلَالِ مَكَّةَ ، أَصْرَا عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ الْغَلِيْظِ الْجَافِى وَتَابَعَا كَلَامَهُمَا الْمَمْتَرِجَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْإِصْرَارِ :

(نَنْشُدُكَ اللّهُ يَا مُحَمَّدُ ، وَالْعَهْدَ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا ، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ مَضَتْ) .

وَرَأَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ صِلَفَ قُرَيْشٍ وَكِبْرِيَاءَهَا لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ الْمَشْحُونُ بِالْغَيْظِ مِنْهَا .

(فَغَضِبَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَمَّا رَأَى مِنْ غِلْظَةِ كَلَامِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِسَهِيْلٍ : كَذَبْتَ لَا أُمَّ لَكَ ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا بِأَرْضِ أَبِيكَ ، وَاللّهِ لَا يَبْرَحُ مِنْ هُنَا إِلَّا طَائِعًا رَاضِيًا) .

وَتَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ سَيِّدِ الْخُرْجِ لَدَى سَهِيْلٍ وَحَوِيْطُ الْمَعْنَى الْكَبِيرِ الَّذِى يَخَافَانِهِ ،

(١) سَبِيْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ ٢٩٤/٥ ، وَمَغَارِى الْوَاقِدِى ٧٣٦/٢ .

وكاد يسقط فى أيديهما أن المؤامرة قد وقعت ، واحتلت مكة ، وخسرا الجولة . . . لكن النبى المصطفى ﷺ الذى كان يريد أن يربى الأمم ، ويربى الأعداء ، ليس همه انتصاراً عاجلاً ، وهزيمة ساحقة لعدو ، إنما همه أن يربح قلب هذا العدو ، ويربى أمته عملياً على الوفاء بالعهد ، حين يكون الوفاء قمة الخسارة المادية الظاهرة ، وحين يكون الوفاء بالعهد يلتزم التخلّى عن أقدس أرض للمسلمين ، وأحب أرض لله ، وأحب أرض إليهم ، والمعارك أمامهم قادمة ، والأرض سوف تفتح كلها أمامهم ، ومثل هذا الموقف هو الذى سيكون القدوة فيما بعد للأجيال ، وبامتداد الآماد واتساع الآفاق .

وتبقى قضية العقيدة وقضية هذا الدين هى المحور ، وليس الاعتداد بالقوة ، والثناء على البطولة ، وتحقيق الانتصارات هو الهدف ، إن الجيل الذى رنت إليه البشرية لابد أن يكون صياغة جديدة أعلى وأرقى من صياغة البشرية كلها فى تاريخها السابق واللاحق بهذا الجيل ، وفى كلمة واحدة ، ربى بها سعد بن عباد صاحب الحدة المعروف ، وأكبر أنصاره فى الجيش ، وربى بها سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى أسلوب حكيم عظيم ، راعى به مشاعر سعد ، وعلم هذين السيدين الجاهليين أصول التعامل ، وأصول التخاطب ، وأصول الحياة كلها ، وقال : « يا سعد ، لا تؤذ قومًا زارونا فى رحالنا » ، وأسكت الرجلان عن سعد ، فماذا يتكلمان بعد كلام رسول الله ﷺ ، ولو لم يكن سعد بن عباد عريقاً فى تربيته ، وفى تكوينه وجنديته ، لانشق بأكبر أنصاره عن رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن أبى قبله ، وحارب الإسلام وأهله ، وصمم على احتلال مكة ، وسبى نساءها وقتل رجالها بعد أن أفنت مكة زهرة شباب يثرب ، وأعظم رجالاتها .

وشعر سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، أنهما صغيران صغيران أمام قمة البشرية محمد ﷺ ، حين راح يتألفهما أن يتزوج فى مكة ، ويدعو كبار أهلها إلى وليمته ، وتقع الألفة محل البغضاء والفرقة ، وكيف كان الجفاء والغلظة عندهما ، وكان بإمكان سعد بن عباد أن يحرق بهما مكة ، ويقيم فيها مجزرة يتحدث بها التاريخ ، وكيف كف النبى ﷺ هذا الأسد عن هذه المهمة ونادى معلناً فى جيشه : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » .

ولم يكد سهيل وحويطب يصدقان فعلاً أن محمداً وقومه سوف يخرجون من مكة ، وقلوبهم متحرقة شوقاً إليها ومجبول حبها بدمائهم ونفوسهم ، ولكنها العقيدة ، فوق عاطفة الأهل ، وعاطفة الوطن ، وعاطفة المصلحة ، وكل عواطف الدنيا تخضع لمبادئ العقيدة ، وحدودها .

٧- وعودة إلى تربية النماذج في عمرة القضية ، إلى فقه بعض الحوادث الفردية ،
والتربية فيها بعد الحديث المستفيض عن التربية الجماعية .

لقد كانت عظمة المصطفى ﷺ أن يرفع شأن كل فرد من أمته ، كأنما ليس هم إلا هو ، وذاك صاحبه من الرعيل الأول أبو رهم بن عبد العزى يموت ، فيخلف ميمونة بنت الحارث أرملة عند العباس بن عبد المطلب زوج أختها ، وتبقى ميمونة في ذاكرته ﷺ ، كما بقيت أرملة أبي سلمة - أم سلمة - وأرملة عبيد الله بن جحش - أم حبيبة - وأرملة عبدة بن الحارث - زينب بنت خزيمة - وقد وقاهم جميعاً حقهم ، وكان لابد أن يوفى حق صاحبه أبي رهم بن عبد العزى ، الذى مات على الإسلام وفى الإسلام ، وكانت المناسبة لذلك هو وفود رسول الله ﷺ إلى مكة ، فخطبها النبي ﷺ كما قال ابن سعد عن علي ابن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : (لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى مكة عام القضية ، بعث أوس بن خولى وأبا رافع إلى العباس ، فزوجه ميمونة فأضلا بغيرهما فأقاما أياماً يبطن رابع حتى أدركهما رسول الله ﷺ بقُديد ، وقد ضما بغيرهما ، فسارا معه حتى قدما مكة ، فأرسل إلى العباس فذكر ذلك له ، وجعلت ميمونة أمرها إلى النبي ﷺ (١) - كذا قال - وصوابه : إلى العباس ، فخطبها إلى النبي ﷺ فزوجها إياه) (٢) .

قال ابن هشام : (وكانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، وكانت أم الفضل تحت العباس ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس فزوجها رسول الله ﷺ بمكة ، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمئة درهم) (٣) .

(فخرج رسول الله ﷺ وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة ، حتى أتاه بها بسرف (٤) ، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة (٥) .
إنها وافد جديد ينضم إلى بيت النبوة بعد الوافدين الجديدين قبل عام ونيف ، أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وصفيّة بنت حيى .

ولكن رسول الله ﷺ يرفع حق صاحبه من جهة ، ويصاهر بنى هلال بن عامر بن صعصعة أكبر فروع قبيلة بنى عامر فى محاولة لتأليف قلوبهم على الإسلام ، ويجبر هذا الخاطر الكسير المقيم فى مكة ، دون أن يكون له بيت يؤويه إلا الضيافة عند أختها أم

(١) تشير بعض الروايات إلى أن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كما فى رواية ابن أبى حاتم : (تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ... وامرأتين من بنى هلال بن عامر ، ميمونة بنت الحارث وهى التى وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين ...) انظر : تفسير ابن كثير فى سورة الاحزاب ٤٨٢/٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣٨/٢ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٢/٣/٢ .

(٤) سرف : موقع على بضعة أميال من مكة . (٥) السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٢/٣/٢ .

الفضل بنت الحارث رضي الله عنها ، وبذلك يشمل فضل النبوة ، هذا البيت ، وهذه العشيرة ، وهذا القلب المتجه لله أن يفرج كربته ، لكن هذا الحلم كان أكبر بكثير من أحلامها رضي الله عنها أن تكون زوجاً لسيد هذا الوجود - عليه الصلاة والسلام - سيد ولد آدم ، ويكرمها حيث يقيم الجيش ، فيبنى بها ويمضى بها إلى المدينة ، إنها إحدى الأخوات الأربع المؤمنات التي قال عنهن رسول الله ﷺ : « الأخوات الأربع مؤمنات ؛ أم الفضل بنت الحارث ، وميمونة بنت الحارث ، وأسماء بنت عميس ، وسلمى بنت عميس » (١) .

٨ - وإذا كانت ميمونة رضي الله عنها قد أقرت عينها بصحبة المصطفى ﷺ وزواجها منه ، فإن ابنة أختها سلمى بنت عميس ، وهى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، لم تطق أبداً أن تبقى أسيرة فى مكة ... بعد أن رأت الحبيب المصطفى ﷺ يخرج منها .

(فخرج النبي ﷺ ، فتبعته ابنة حمزة تنادى ، يا عم ، يا عم ، فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : « دونك ابنة عمك فاحملها ») (٢) .

والرواية الثانية تؤكد استئذان على ﷺ النبي ﷺ فى أخذها معه كما روى ابن عباس رضي الله عنهما : « إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : اسمها أمامة ، وأمها سلمى بنت عميس كانت بمكة فقدم رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين ، فلم ينه رسول الله ﷺ فخرج بها » (٣) .

وابنة الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، لا عجب أن يتخاصم فى رعايتها سادة المسلمين وقادتهم ، زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأخوه جعفر بن أبى طالب رضي الله عنهم ، وأدلى كل واحد من هؤلاء السادة العظام بحجته .

(قال على : أنا أخذتها وهى ابنة عمى) فهو الذى اهتم بها ، واستأذن من أجلها ، وجاء بها إلى مكة ، فمن أين أتته هذه المنافسة من هذين الحبيين على رعايتها . (وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى) . فإذا استوى جعفر وعلى رضي الله عنهما فى القرابة من ابنة حمزة ، وفاق على - رضوان الله عليه - جعفرًا فى إحضارها ، فقد فاق جعفرًا أخاه عليًا فى أن خالة عمارة أسماء بنت عميس هى زوج جعفر ، فهذا أرفق بقلبها ، وأهدأ لنفسها أن تترى وتنمو فى بيت خالتها ، ثم أدلى زيد رضي الله عنه بدلوه قائلاً (وقال زيد : ابنة أخى) . إذ أخى رسول الله ﷺ بين زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب ﷺ ، وانطلاقاً من هذا الحب وهذا الوفاء ، كان لابد من حكم يفصل بينهم ، فاخترأوا رسول الله ﷺ ليفض هذه المنازعة العجيبة فى التاريخ ، المنازعة على الرعاية والتربية لابنة

(١) رواه ابن سعد بسند صحيح كما ذكر ابن حجر فى الإصابة فى ترجمة ميمونة رضي الله عنها ١٩٢/٨/٤ .

(٢) المغارى للواقدي ٨٣٧/٢ .

(٣) البخارى ١٨٠/٥/٢ .

الشهيد حمزة. وقبل أن يحكم رسول الله ﷺ لأحد هؤلاء الثلاثة العظام وجدها فرصة سانحة أن يعرف الجيل المؤمن بهؤلاء القادة الكبار الثلاثة ، خاصة وقد جاء وافدون جدد أربوا على الخمسمائة، وكانوا فى الجيش الإسلامى لا يعرفون الفضل السابق لهؤلاء القادة، وحتى تطيب نفوس هؤلاء القادة العظام رضاً بالحكم قال - عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بينكم ، أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله ، وأما أنت يا على فأخى وصاحبى ، وأما أنت يا جعفر فتشبه خلقى وخلقى ، وأنت يا جعفر أحق بها تحتك خالتها، ولا تنكح المرأة على خالتها وعلى عمتها ». وفى رواية البخارى: ففضى بها النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » (١) .

إنها مناسبة رأها رسول الله ﷺ ليعرف هؤلاء الثلاثة بفضلهم، ويعرف الأمة بفضلهم كذلك ، وتعرف الاجيال اللاحقة فيما بعد فضلهم ، وإلا فالحكم لا يحتاج إلى مثل هذا القول ، ودعوة هؤلاء القادة ، أن يعرف كل واحد منهم فضل أخيه وصاحبه .

ونعود لابنة حمزة عليها السلام وقد وطئت ثرى المدينة ، لقد كان لها هم عظيم ، وهى تعرف أنها بنت أسد الله ورسوله، تريد أن تعرف قبر أبيها وتزوره، ويكفيها شعوراً بعظمة أبيها ، ما كانت تحسه من حقد عليه فى صفوف المشركين .

ومضت إلى قبر أبيها العظيم ، وعرف شاعر الإسلام العظيم أن عمارة بنت حمزة جاءت تبحث عن قبر أبيها حمزة ، وهو الذى كان يوم أحد كأنما هو الشهيد الوحيد للمسلمين ، فلقد بكت الانصار عليه جميعاً قبل بكائها على قتلاها ولعل ذاكرة عمارة (أو أمانة) تعى شيئاً من هذا، فطفقت أمامة حين قدمت المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه فبلغ ذلك حسناً فقال يرثى حمزة :

تسائل عن قوم هجان سميدع	لدى الناس مغوار الصباح جسور
فقلت لها : إن الشهادة راحة	ورضوان رب يا أمام غفور
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوة	إلى جنة فيها رضا وسرور
فإن أباك الخير حمزة فاعلمى	وزير رسول الله خير وزير
أخى ثقة يهتز للعرف والندى	بعيد المدى فى النائبات صبور (٢)

(١) البخارى مع الفتح ٧/ ٤٩٩ حديث (٤٢٥١) .

(٢) الإصابة ٨/ ١٣ ، وديوان حسان بن ثابت ١/ ١٣٢ .

لقد وجدها فرصة سانحة ليعيد ذكرى حمزة الشهيد ﷺ بمناسبة سؤال ابنة حمزة عن قبر أبيها ، حيث رأت عظيم مقامه فى المدينة ، من خلال تفاعل أهلها وسرورهم ببنت الشهيد العظيم ، وينظر على ﷺ إلى ابنة عمه الشهيد العظيم ، فلا يرى أهلاً لزواجها إلا من سيد الخلق محمد - عليه الصلاة والسلام ، (فقال على : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟ قال : « إنها ابنة أخى من الرضاعة ») .

فهل كانت بنت حمزة ﷺ تدرك ذلك ، فنادته : يا عم ، يا عم ، ولم تناد : يابن عم ، أو أنه هو أدب الصغار مع الكبار حيث ينادونهم بالعمومة ، أو الخؤولة بغض النظر عن طبيعة القرابة - الله أعلم بذلك .

وهكذا انضم وافدان جديدان إلى المجتمع الإسلامى الجديد الذى قلَّ انتساب النساء إليه ، فأصبحن نماذج معدودة أمثال اللاتي هاجرن بدينهن هرباً من مكة ومن الفتنة فيها ، وكان هذان الوافدان الجديدان هما : ميمونة بنت الحارث زوج النبی ﷺ ، وابنة أختها عمارة ، أو أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب وبنت سلمى بنت عميس زوجة .

٩ - بقى علينا أن نشير إلى نقطتين تعرضان نفسية المشركين تجاه رسول الله ﷺ ، وتدلان على الوعى واليقظة فى الصف الإسلامى :

الأولى : هى حرص القاعدة الصلبة على قائدها ألا يمسه أذى أو سوء من سفهاء القوم ، وكما يقول ابن أبى أوفى : (لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ) (١) .

فكانوا حوله جداراً بشرياً صلباً ، يحول دون أى هجوم مباغت .

الثانية : أنهم فعلوا ذلك حين رأوا ثغرة ضعف حيث أراد أبو رافع أن يخرج بميمونة زوج النبی ﷺ ، (فخرج بميمونة ومن معها فلقوا عناءً من سفهاء المشركين ، آذوا بالسب والشتم النبی ﷺ ، فعرف أبو رافع كيف يقابلهم بالإرهاب المناسب قائلاً : هذا والله الخيل والسلاح ببطن يأجج ، وإذا الخيل قد قربت ، فوقفت لنا هنالك السلاح) ، فقد تعلم من المدرسة النبوية كيف يواجه الأحداث المفاجئة ، ويريه من نفسه قوة ، تدفعهم إلى الكف عن الأذى ، فكان التلميذ الأمين فى هذه المدرسة ، وهو المولى الذى ضربه أبو لهب من قبل حتى كاد أن يقضى عليه بعد بدر ، وهو اليوم يتحدى طواغيت مكة ويخرج بميمونة ومن معها من مكة ، مهدداً بالسلاح والخيل تغزوها .

(١) البخارى ١٨١/٥/٢ .

سرية الدعوة إلى بنى سليم

حدثني محمد عن الزهري قال : (لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء سنة سبع - رجع في ذى الحجة سنة سبع - بعث ابن أبي العوجاء السلمى في خمسين رجلاً ، فخرج إلى بنى سليم ، وكان عين لبنى سليم معه ، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذّروهم وأخبرهم ، فجمعوا جمعاً كثيراً ، وجاءهم ابن أبي العوجاء والقوم معدون له ، فلما رأهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأوا جمعهم دَعَوْهم إلى الإسلام ، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم ، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتهم إليه ، فراموهم ساعة ، وجعلت الأعداء تأتي حتى أهدقوا بهم من كل ناحية ، فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قُتلَ عامتهم ، وأصيب صاحبهم ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ) (١) .

نحن في تطور جديد للدعوة بعد عمرة القضية ، والأصل أن سليماً وهى من القبائل المجاورة للمدينة ، الأصل فيها أن يلين جاسيها للإسلام بعد أن شهدت استسلام قريش ودخول محمد ﷺ مكة ، منيعا بقومه وأصحابه ، ولكون هذه القبيلة ذات وزن معنوى ومادى ، وهى من حلفاء قريش ابتداء ، وبين يدي رسول الله ﷺ صحابى ومسلم جديد من بنى سليم هو الآخرم بن أبى العوجاء ؓ فأراد أن يغزو بنى سليم بهذا الدين وأن يكون ابن سليم ابن أبى العوجاء ، الخبير بالأرض والقوم والناس ، وبُعث معه خمسون من المسلمين ليفتحوا هذا الباب المغلق ، فى محاولة لنشر الإسلام فى هذا الصقع .

وتشير رواية الواقدي إلى أنهم أدوا المهمة بنجاح تام ، ووصلوا إلى سليم ، ودعواهم إلى الله عز وجل وهذه هى المهمة الدعوية للسرية ، غير أن عيناً لسليم كان فى الصف الإسلامى ، ومضى عائداً إلى قومه فحذّروهم ووقعت المجزرة الجديدة التى تشير رواية خليفة بن خياط إلى أنهم قتلوا جميعاً (أن ابن أبى العوجاء السلمى أصيب هو وأصحابه وقتلوا جميعاً) (٢) وعادت إلينا ثانية روائح بثر معونة التى قُتلت فيها سليم من المسلمين سبعين شهيداً ، وهم سرية القراء ، وهؤلاء خمسون ينضمون إلى قافلة الشهداء ، وما جرى لشهداء بثر معونة لم يشن رسول الله ﷺ عن الدعوة فى هؤلاء القوم ، ولا

(١) المغازى للواقدي ٧٣٨/٢ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ٤٨/١ . وقد رجع اللواء الركن محمود شيت خطاب الرواية الثانية لانقطاع أخبار ابن أبى العوجاء نهائياً بعد هذه السرية .

يجوز أن تتوقف الدعوة خوفاً من الاستشهاد ، وحين تحين الظروف المناسبة لابد من الاستفادة منها ؛ لأن الدعوة إلى الله تعالى هي المهمة الاصيلة للمسلمين في الأرض ، وليس القتل والضرب إلا وسيلة للتحرير وفتح الآفاق أمام دعوة الله تعالى في الأرض ، وكانت هذه السنة السابعة للهجرة ، وقد حملت في ثناياها خمسين شهيداً من شهداء الدعوة ، بعد استضافة خمسمائة شخصية إسلامية جديدة ، وهذه هي طبيعة الدعوات . (ينال منا وننال منه) والعاقبة للمتقين ، وسنشهد بعد هذا الثمن العظيم الذي قدمه ابن أبى العوجاء وأصحابه ما هو النصر الضخم الهائل الذي تحقق بدماء هؤلاء الشهداء فيما بعد .

السنة الثامنة

أفلاذ أكباد مكة مسلمون فى المدينة

تركنا عمرو بن العاص فى الحبشة وقد أسلم على يدى النجاشى قبل السنة الثامنة ، وبعد وصول عمرو بن أمية الضمرى إلى الحبشة يطلب عودة المسلمين إلى المدينة ، ونتابع الخطا مع خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث يقص علينا قصة إسلامه مع البدايات الأولى التى هيأت له هذا الإسلام .

(حدثنا محمد بن عمر الواقدى قال : فحدثنى يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : سمعت أبى يحدث يقول : قال خالد بن الوليد :

لما أراد الله بى الخير ما أراد قذف فى قلبى حبَّ الإسلام ، وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعُسفان ، فقممت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا فهمنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطَّلَعَ على ما فى أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً وقلت : الرجل ممنوع ! واقتربنا ، وعدل عن سننِ خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعت قريش بالراح قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين المذهب إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ فانا على ذلك إذا دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضية ، فتغييت فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى فى عمرة القضية ، فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىَّ كتاباً فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك . فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتى الله به ، فقال : « ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة) .

(فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام وسرنى مقالة رسول الله ﷺ ، قال خالد : وأرى فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدية ، فخرجت إلى بلد

أنخضر واسع ، فقلت : إن هذه لرؤيا . فلما قدمت المدينة ، قلت : لاذكرنها إلى أبى بكر ، قال : فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك الله للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه هو الشرك ، فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصحاب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقلت : صفوان بن أمية ، فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس^(١) ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً ، فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً^(٢) ، قد قُتل أخوه وأبوه فى بدر ، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطو ما ذكرتُ لك ، قال : لا أذكره ، وخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحتلى تخرج إلى ، فخرجت بها إلى أنلقى عثمان بن طلحة فقلت : إن هذا لى صديق ولو ذكرت له ما أريد ، ثم ذكرت من قُتل من آبائه ، فكرهت أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر ، لو صبَّ عليه ذنوب^(٣) من ماء لخرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفتح^(٤) مناخة ، قال : فاتعدت أنا وهو يياج^(٥) إن سبقتنى أقام ، وإن سبقتة أقمت عليه ، قال : فادلجنا سحراً ، فلم يطلع الفجر علينا حتى انتهينا إلى الهدّة . . .)

ونقف هنا قبل متابعة الخطوات مع خالد ، لنعود إلى عمرو بن العاص وهو فى الحبشة ففسير معه فى خطواته تلك التى ابتدأت قبل خطوات خالد ﷺ ، ثم التقيا معاً فى الهدّة .

(حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : قال عمرو بن العاص . . . قلت : أيها الملك ، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ، فرفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره ، وابتدر مناخارى ، فجعلت أتلقي الدم بثيابى ، وأصابنى من الدل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره ما فعلتُ ما سألتك ، قال : واستحيا وقال : يا عمرو ؛ تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله ، من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله ؟! قال

(١) أكلة رأس : أى قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) الوتر : الثار .

(٣) الذنوب : الدلو العظيمة . (٤) فح : واد بمكة .

(٥) يياج : واد من أودية مكة على عشرة أكيال من المسجد الحرام .

عمرو : وَغَيَّرَ اللهُ قَلْبِي عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : عَرَفَ هَذَا الْحَقَّ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ وَتَخَالَفَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : أَتَشْهَدُ أَيُّهَا الْمَلِكُ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . أَشْهَدُ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ يَا عَمْرُو ، فَاطْعَنِي وَاتَّبِعْهُ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ ، وَلِيُظْهِرَنَّ عَلَى كُلِّ دِينٍ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ . قُلْتُ : أَتُبَايِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَدَعَا لِي بِطُسْتٍ ، فَغَسَلَ عَنِّي الدَّمَ ، وَكَسَانِي ثِيَابًا . . . وَكَانَتْ ثِيَابِي قَدْ امْتَلَأَتْ مِنَ الدَّمِ فَالْقَيْتُهَا ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي ، فَلَمَّا رَأَوْا كِسْوَةَ الْمَلِكِ سَرَوْا بِذَلِكَ وَقَالُوا : هَلْ أَدْرَكَتْ مِنْ صَاحِبِكَ مَا أَرَدْتَ ؟ فَقُلْتُ لَهُمْ : كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِمَهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَقُلْتُ : أَعُودُ إِلَيْهِ ، قَالُوا : الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ ، وَفَارَقْتَهُمْ كَأَنِّي أَعْمَدُ لِحَاجَةٍ فَعَمَدْتُ إِلَى مَوْضِعِ السَّفِينِ ، فَاجِدُ سَفِينَةً قَدْ شَحَنْتْ تَدْفِعُ فِرْكَبَتِمْ مَعَهُمْ فَدَفَعُوهَا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الشَّعْبِيَّةِ ، وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّعْبِيَّةِ وَمَعِيَ نَفْقَةٌ ، فَابْتَعْتُ بَعِيرًا ، وَخَرَجْتُ أُرِيدُ الْمَدِينَةَ حَتَّى خَرَجْتُ عَلَى مَرِّ الظُّهْرَانِ ، ثُمَّ مَضَيْتُ حَتَّى كُنْتُ بِالْهَدَّةِ ، إِذَا رَجُلَانِ قَدْ سَبَقَانِي بِغَيْرِ كَثِيرٍ يَرِيدَانِ مَنَزَلًا ، وَاحِدُهُمَا دَاخِلٌ فِي خِيْمَةٍ ، وَالْآخَرُ قَائِمٌ يُمْسِكُ الرَّاحِلَتَيْنِ ، فَانْظُرْتُ وَإِذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَقُلْتُ : أَبَا سَلِيمَانَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أَيْنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : مُحَمَّدًا ، دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ بِهِ طَمَعٌ ، وَاللَّهِ لَوْ أَقْمَنَّا لِأَخَذِ بَرَقَابِنَا كَمَا يُؤْخَذُ بِرَقَبَةِ الضَّبْعِ فِي مَغَارَتِهَا ، قُلْتُ : وَأَنَا وَاللَّهِ قَدْ أَرَدْتُ مُحَمَّدًا وَأَرَدْتُ الْإِسْلَامَ ، وَخَرَجَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ فَرَحَّبَ بِي ، فَتَزَلْنَا جَمِيعًا فِي الْمَنْزِلِ) .

وهكذا نعود لنسير مع القادة الثلاثة في رحلتهم إلى منبع النور كما يرويها لنا خالد بن الوليد :

(فغدونا حتى انتهينا إلى الهدّة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم ، فقلنا : وبك ، قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ ، قال : وذلك الذي أقدمني ، قال : فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسرّ بنا ، فلبست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخى فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسرّ بقدمك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى فطلعت عليه ، فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير ، قلت : يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق ، فادع

الله أن يغفرها لى ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يجب ما كان قبله » ، فقال خالد : يا رسول الله ، على ذلك ؟ فقال : « اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك » ، قال خالد : وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت ليعدل بى أحداً من أصحابه إذا حزبه أمر (١) .

ونتابعها كذلك مع عمرو بن العاص :

(ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة ، فما أنسى قول رجل لقيناه يبشر أبى عتبة يصيح : يا رباح ، يا رباح ، ففداء لنا بقوله وسراً ، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين ، فظننت أنه يعينى وخالد بن الوليد ، ثم ولى مدبراً إلى المسجد سريعاً ، فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا فكان كما ظننت ، وأنخنا بالخرة ، ولبسنا من صالح ثيابنا ، ونودى بالعصر ، فانطلقنا جميعاً حتى طلعنا عليه - صلوات الله عليه - وإن لوجهه تهلاًلاً ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا ، فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت ، فوالله ما إن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع إليه طرفى حياءً منه ، فبايعته أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال : إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها ، قال : فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعائب (٢) .



نحن مع عملاقين من عمالقة التاريخ فى العالم ، لم يكن لهما أن يأخذا دورهما فيه لولا هذا الإسلام العظيم الذى وضعهما على احتكاك مع قادة الأرض آنذاك بمختلف شعوبهم وأوطانهم ، وحققوا انتصارات باهرة لا نظير لها فى العالم ؛ لأنها كانت مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً ، وها نحن نشهد عملية انتقالهما من الظلمات إلى النور ، وإن كنا تحدثنا عن إسلام عمرو بن العاص على يدى النجاشى فى السابق ، لكن هذا لا يمنع من عرضه ضمن خط التوازى مع خالد بن الوليد ﷺ .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٤٨ ، ٧٤٩ .

(٢) المغازى للواقدي ٢/ ٧٤١ - ٧٤٥ .

يقول عمرو بن العاص : (كنت للإسلام مجانباً معانداً ، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدًا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فقلت فى نفسى : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) ، وتؤكد رواية الإمام أحمد هذا المعنى (عن حبيب بن أوس قال : حدثنى عمرو بن العاص من فيه ، قال : لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكانى ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو علواً كبيراً منكرًا ، وإنى قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟ قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عُرِفَ فلن يأتينا منهم إلا خير ...) (١) .

ويقول خالد بن الوليد : (لما أراد الله بى من الخير ما أراد قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأرى فى نفسى أنى موضع بغير شىء ، وأن محمداً سيظهر) (٢) .

لقد التقى القائدان فى نقطة الانطلاق ، فبعد كل غزوة كانا يدركان أن حرب محمد ﷺ لا جدوى من ورائها ، فقد قال خالد : (فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء) .

وقال عمرو : (فقلت فى نفسى : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) . ولاشك أن أحدًا واحدة من هذه المواطن ، ورغم ما حقق فيها من انتصارات لم يفردها برأى ، ولم تغير الخط البيانى لقناعته أنه موضع فى غير شىء .

وعمر بن العاص يعرض هذه القناعة بأسلوب آخر : (كنت للإسلام مجانباً معانداً ، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدًا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت) (٣) .

فهو يرى أنه العناد ولا شىء غيره هو الذى يدفعه لمواجهة محمد ﷺ ، وإذا كان عمرو وخالد فى بدر ليسا فى مواقع الزعامة والقيادة حيث كان الجيل الذى قبلهما هو الذى يتصدر هذه الزعامة ، فقد اختلف الأمر فى أحد ، بعد أن قتل أربعة وعشرون زعيمًا فى بدر ، فألت القيادة إلى الرعيل الثانى فى مكة : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ،

(١) مسند أحمد ١٩٨/٤ .

(٢) المغازى للواقدي ٧٤٦/٢ .

(٣) المغازى للواقدي ٧٤١/٢ .

وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وإن كانوا قد دانوا جميعاً لقيادة أبى سفيان ، ولم يكن أبو سفيان يمثل القيادة التسلطية بل كان يهيئ المجال لبروز مثل هذه القيادات ، وممارسة طاقاتها وكفاءاتها .

ولا ندرى شيئاً عما يدور من أحداث مسبقة بين القائدين عمرو وخالد ، لكننا نعلم أن مهامهما مشتركة ، وكل ينطلق في أعماقه من دراسة فاحصة للساحة العربية ، وكانت الخندق هى المعركة الفاصلة عند الرجلين والتي أنهت من أذهانهما نهائياً إمكانية تحقيق انتصار على محمد بن عبد الله .

سار كل قائد من أعماقه ، يحمل نفس قناعة الآخر ، دون أن يتصارحاً بذلك ، وجمعت الخندق بينهما فى المهمة الأخيرة ، وفى اللحظات التاريخية التى تقلب الموازين ، وتغير المواقف .

وقف أبو سفيان القائد العام خطيباً يعلن الانسحاب من المعركة : (إنكم والله لستم بدار مقام ، لقد هلك الخف والكراع وأجذب الجنب ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، وقد لقينا من الريح ما ترون ، والله ما يثبت لنا بناء ، ولا تطمئن لنا قدر ، فارتحلوا فإنى مرتحل . وقام أبو سفيان ، وجلس على بعيره وهو معقول ، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام) .

وكاد الانسحاب أن يكون عشوائياً ، لولا تدخل عكرمة بن أبى جهل (فناداه عكرمة ابن أبى جهل : إنك رأس القوم وقائدهم تقشع وتترك الناس ، فاستحيا أبو سفيان ، فأناخ جملة ونزل عنه ، وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا ، قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خف العسكر) .

وبعد هذه الخطيئة الفادحة من أبى سفيان ، عاد فتدارك الأمر ، وأبرز إمكانياته العسكرية بعد أن حقق هدفه فى الانسحاب ، (فقال لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، لا بد لى ولك أن نقيم فى جريدة من خيل يإزاء محمد وأصحابه ، فإننا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر ، فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال : أنا أيضاً أقيم ، فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل) (١) .

لقد بقى القائدان عمرو وخالد بعد الخندق على رأس كتائب الفرسان ، خوفاً من هجوم مفاجئ ، ولا يبعد أن يكونا قد تسامرا ، وظهر لهما فشل حملتهما التى تحطمت

(١) المغارى للواقدي ٢ / ٤٩٠ .

كل آمالهما بعدها ، لقد جاؤا بعشرة آلاف مقاتل ، وعادوا بخفي حنين ، فمتى يستطيعون تعبئة مثل هذه القبائل والأحلاف مرة ثانية ؟

وحول هذين القائدين يذكر لنا الواقدي - ثانية - في الخندق هذه المقالة :

(حدثني عبد الله بن جعفر عن عثمان - يعني ابن محمد الأحنسي - قال : لما أنصرف عمرو بن العاص قال : قد علم كل ذي عقل أن محمداً لم يكذب ، فقال عكرمة بن أبي جهل : أنت أحق الناس ألا يقول هذا ، قال عمرو : لم ؟ قال : لأنه نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك ، ويقال : الذي تكلم به خالد بن الوليد ، ولا ندرى لعلهما تكلمتا بذلك جميعاً . قال خالد بن الوليد : قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط ، قال أبو سفيان بن حرب : إن أحق الناس ألا يقول هذا أنت ، قال : ولم ؟ قال : نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك أبا جهل (١) .

وبغض النظر عن صحة الرواية فواقع الحال بالنسبة للقائدين أن الخندق كانت هي المعركة الحاسمة التي هزتها نفسيًا واقتنعا ألا جدوى من المواجهة مع محمد ﷺ ، لقد ابتدأت القناعة ضعيفة مع كل موقعة ، وكان محمد ﷺ يغزوها نفسيًا بعظمة خلقه ، وعظمة تصرفه عقب انتصاره ، وعظمة تصرفه عقب امتحانه ، والأخلاقية العليا معهم في المواجهة ، فلقد قُتل في بدر سبعون قتيلًا - وهم مشركون - فقام بمواراتهم في قلب بدر ، وانتصرت قريش في أحد ، فراحت تمثل في القتلى فتبقر البطون ، وتجذع الأذان والأنوف ، وتتقمم من المسلمين شر انتقام . كان القائدان يريان كيف يكون قتال الشرف ، وكيف تكون حرب الشرف ، وكان هذا من التربية النبوية لهما قبل الخندق .

والقائد البصير هو الذي يستشف المستقبل ، ويقدر الصورة الأقرب إلى الواقع ، وليس هو القائد الذي يعيش أزمة ساعته هزيمة ، أو نشوة ساعته انتصارًا ، وبمقياس الأرقام أدرك القائدان هذه النتيجة .

(ثم حضرت الخندق فقلت في نفسي : كم أنا أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) .

(فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى نفسي أنى موضع في غير شيء) .

الموقف الحاسم :

وانطلق القائدان بناءً على هذه النتيجة إلى اتخاذ الموقف الحاسم المناسب لهذه القناعة .

أما عمرو بن العاص ، فقد كان لصداقته الوثيقة مع النجاشي ، ما يدفعه إلى اختيار

(١) المغازي للواقدي ص ٤٩١ .

(فخلَّفت مالى بالوهط ، وأفلتت - يعنى من الناس - فلم أحضر الحديبية ولا صلحها ، وانصرف رسول الله ﷺ بالصلح ، ورجعت قريش إلى مكة ، فجعلت أقول : يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه : ما مكة بمنزل ولا الطائف ، وما من شيء خير من الخروج ، وأنا بعد ناء عن الإسلام ، أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة فجمعت رجالاً من قومي كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ويقدمونني فيما نابهم ، فقلت لهم : كيف أنا فيكم ؟ قالوا : ذو رأينا ومدرهنا ، مع يمن نفس وبركة أمر ، قال : قلت : تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنى قد رأيت رأياً ، قالوا : ما هو ؟ قال : نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن كان يظهر محمد ، كنا عند النجاشي ، فنكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تظهر قريش ، فنحن من قد عرفوا ، قال : هذا هو الرأي ، قال : فاجمعوا ما تهدونه إليه ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، قال : فجمعنا له آدمًا كثيرًا ، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي ...) .

وستان بين خروج عمرو بن العاص اليوم ، وخروجه قبل عشر سنين أو تزيد حين مضى ليقض الأرض تحت الجالية الإسلامية هناك ، وقريش فى عنفوانها وقوتها ، أما اليوم فهو مهاجر بدينه وقومه إلى النجاشي مثل هجرة المسلمين آنذاك ، هاجر باحثاً عن الأمن ، خوفاً من أن يقع بيد محمد ، وهو يكره الإسلام ، ولا يأتى به على بال ، فلو أسلم الناس جميعاً ما أسلم ، وهو بعد هذا زعيم فى قومه فلم يكتف وحده بالذهاب إلى الحبشة ، إنما أقنع بذلك مجموعة من أهل مكة ممن يدينون له بالزعامة ، ويعترفون له بالفضل والقيادة ، فهو يريد أن يحافظ على زعامته حتى فى الحبشة ، ولا يريد أن يكون نكرة لا سند لها ولا ظهر ، لكنه ما اتخذ هذا القرار إلا بعد صلح الحديبية ، حيث نظر إلى الأفق فرأى بعينه مصيره الأسود وهو يُجرّ إلى محمد لِيُسَلِّمَ إن كان بمكة أو كان بالطائف ، ولا شيء أصعب وأشق على النفس من ذل القائد العسكرى ، أن يساق صاغراً إلى خصمه فيحكم فيه ما يشاء ، ويوقع وثيقة الاستسلام والصغار ، وقد رضى ابتداء بعد الخندق أن يقيم فى ماله بالوهط قرب الطائف ، أما بعد صلح الحديبية ، فالخطر داهم ، ومحمد قادم ، فلن تسعه أرض ولا سماء ، ولیمض إلى الحبشة مهاجراً بشركه كما مضى المؤمنون الأولون مهاجرين بإسلامهم ، ولا يدرى ، فقد تصل رسل محمد إلى النجاشي تطالب به ، كما مضى ذات يوم إلى النجاشي يطالب بجعفر وأصحابه ليعيدهم صاغرين إلى مكة .

ونجد الخطوات نفسها يمضى بها قائدنا الثانى خالد بن الوليد ، حيث توحدت النظرة

بينهما نحو المستقبل المشؤوم، وإذا كان عمرو قد أدرك بعد الحديبية أن أمر قريش قد انتهى، فقد أدرك خالد قبيل الحديبية ومن خلال التجربة هذه النتيجة المأساوية .

(فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ بعُسفان ، فقامت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا ، فهمنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطَّلَعَ على ما في نفوسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر ، صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً وقلت : الرجل ممنوع ، وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين) .

ونقطة الافتراق بين الرجلين كانت واضحة ، فعمرو يغلب قلبه كره الإسلام وأهله ، والقضية عنده قضية هزيمة عسكرية فحسب، أما خالد فقد بدأ قلبه يميل للإسلام - كما قال :
(لما أراد الله بى الخير قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى ...) .

هذه القضية ، وهذا الحب لهذا النور لم يتسلل إلى قلب عمرو ، والذى زاد مساحة حب الإسلام فى قلب خالد هو تجربته الشعورية فى صلح الحديبية ، حين هم بالانقضاض على المسلمين فى صلاة العصر .

وفى رواية ابن أبى شيبه : (فقال خالد بن الوليد : قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم ... فحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف) (١) ، والرواية السابقة (فاطَّلَعَ على ما فى نفوسنا من الهموم ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوع ، وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين) وهذه الكلمة من الضخامة بحيث أقنعت خالداً أن محمداً يوحى إليه ، (فاطَّلَعَ على ما فى نفوسنا) فزادت هذه القضية فسحة الإسلام فى قلبه .

كما يفترق القائدان فى نقطة ثانية ، وذلك بعد الحديبية ، حين اختار عمرو المضى إلى الحبشة ، كانت آفاق خالد أبعد وأرحب من عمرو ، (قلت فى نفسى : أى شئ بقى ، أين المذهب ؟ إلى النجاشى ، فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده ...) فقد أدرك خالد بثاقب نظره أن الحبشة أرض إسلامية وتحت سلطان محمد ، طالما أن صاحبها تابع محمداً على دينه ، لكن اعتماد عمرو على صداقته دفعت به إلى النجاشى ، بينما أوقفت معلومات خالد ﷺ عن المسير إليها .

وافترق الرجلان - كما قلنا - كذلك بحب خالد للإسلام ، وكرهية عمرو له ، لكن

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦٣/٥ .

الإعداد للمستقبل واحد عند الرجلين ، ويمضى خالد فى حساباته : (... فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ؟ فأقيم مع عجم تابعاً ؟ أو أقيم فى دارى فيمن بقى) ، ورفض خالد كل هذه الحلول المطروحة لما لها من عقابيل أسوأ من مقامه فى مكة ، فإن يعيش فى بلاد العجم نكرة لا يعرفه أحد ، ويدخل النصرانية أو اليهودية ، فالإسلام أولى إن كان ولا بد أن يغير دينه ، وفى قلب هذه الاضطرابات والحيرة كانت عمرة القضية .

الصاعق الكهربي عند عمرو :

(فدخلت على النجاشى فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحباً بصديقى ، أهديت لى من بلادك شيئاً ؟ فقلت : نعم أيها الملك ، أهديت إليك أدماً كثيراً ، ثم قربته إليه ، فأعجبه ، وفرق منه أشياء بين بطارقه ، وأمر بسائره فأدخل فى موضع ، وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأيت طيب نفسه قلت :

أيها الملك : إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدو لنا ، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا ، فأعطينيه فأقتله ، فرفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره^(١) ، وابتدر منخارى ، فجعلت أتلقى الدم فى ثيابى ، وأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك ، قال : واستحيا ، وقال : يا عمرو ، تسألنى أن أعطيك رسول رسول الله من يأتى الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ابن مريم لتقتله) .

لقد كانت ضربة مفاجأة لم تكن بالحسبان ، هزت كيان عمرو كله ، ولم تتل فقط من أنفه ، وعبر عن هذا المعنى بقوله : (وأصابنى من الذل ما لو انشقت الأرض دخلت فيها فرقاً منه) .

لقد ذهبت عزة الجاهلية وكبرياؤها كلها من قلبه ، ورأى نفسه صغيراً ذليلاً أمام الملك الغاضب ، وانكسر الران الذى أحاط بقلبه ، فأصبحت النوافذ فى القلب جاهزة للتلقى ، وتحطمت السدود والقيود والحدود مع هذه الضربة .

وجاءت الكلمة البلمس التى أضاءت النور فى قلبه إضاءة عجيبة مذهلة : (تسألنى أن

(١) رواية الإمام أحمد تشير إلى أن الملك ضرب أنفه ولم يضرب أنف عمرو (فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقاً منه) وهذا لا يغير من الموضوع شيئاً ، إذ العامل النفسى الذى حل بعمر هو نفسه على الروايين . ح (١٧١٠٩) .

أعطيك رسول رسول الله من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى ، والذى كان يأتي عيسى ابن مريم لتقتله؟) ، وكما سمع هذا الكلام عمرو من قبل ، ولم يلق له بالا أو يصيخ له أذنًا خلال عشرين عامًا خلت .

لقد كانت عزة الجاهلية تمحز بين الإسلام وبين قلبه ، ولا تتسلل الكلمات من أى موقع ، والحروب التى خاضها ، والهزائم التى نالها خلال هذه الأعوام العشرين هيأته ليعترف بالهزيمة لا ليدخل فى الإسلام ، فلا يزال محمد عنده خصمًا يحاربه ويتصر عليه ، أما الآن ، وبعد دفقات الدم العجيبة التى انهمرت منه ، أخرجت معها ذلك الغلو الأسود من قلبه وكما قال : (وغير الله قلبى عما كنت عليه ، وقلت فى نفسى : عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت !) ، ووقع التغيير المطلوب ليس التغيير البطيء الذى يزيل جزءًا من الحاجز النفسى وجزءًا من العزة الجاهلية ، وجزءًا من العصية المكابرة ، إنما تحطم كل هذا الجدار السميكة .

(قلت : أتشهد أيها الملك بهذا ؟ قال : نعم ، أشهد به عند الله يا عمرو) ، واتصلت أسلاك الكهرباء مباشرة بالمولد الجديد النجاشى ، قلب عمرو ، ثم جاءت الشحنة الثانية : (والله إنه لعلى الحق ، وليظهرون على كل دين خالفه) . وكانت هذه الشحنة الثانية الأقوى ، فتوهج قلب عمرو بالإسلام ، ولم ينطق به بعد (كما ظهر موسى على فرعون وجنوده) وكانت هذه الجملة الأخيرة هى التى ولدت الطاقة الهائلة الإيمانية عند عمرو (فقلت : أتبايعنى على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام) .

وهنا ندرك سر حديث رسول الله ﷺ : (عن عقبه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ») (١) .

وولد عمرو إنسانًا جديدًا بعد هذه الضربة وهذا الحوار ، ولبس ثيابه الجديدة التى أعطاه إياها النجاشى ، ومضى يقطع الفيافى والقفار ماضيًا إلى رسول الله ﷺ ليسلم .
الصاعق الكهربي عند خالد :

كما سبق وذكرنا أن الجدار الذى ران على قلب خالد قد بدأت تهشم بعض جوانبه ، ونفذت منه ثغرة زحزحت شيئًا من غلاظة الكفر ، لتتهى المجال لدخول الإسلام فيه .
(وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى عمرة القضية ، فطلبنى فلم

(١) سير أعلام النبلاء ٥٤/٣ ، وقال فيه المحقق : إسناده حسن ، وهو فى المسند ١٥٥/٤ ، وأخرجه الترمذى . (٣٨٤٤) .

يجدنى فكتب إلى كتاباً فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك ، فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتي الله به ، فقال : « ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » ، فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواقع صالحة .

وإذا كان الصاعق عند عمرو ضربة ، فالصاعق عند خالد رسالة .

والقسم الأول من هذه الرسالة يحمل عتاباً شديداً لتأخره عن الإسلام ، وحيث إن هناك ثغرة تنفذ إلى قلب خالد ، فقد كان لهذا العتاب دوره . (فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟) ، وأساس قبول هذا الكلام عند خالد هو أنه لا يحمل صيغة التبكيت والتوبيخ ، بمقدار ما يحمل صيغة الثناء والإكبار للإسلام الذى يناسب العقل النير الحصيف وللعقل الكبير الذى يفقه هذا الدين ويتجاوب معه ، ولعل هذه الكلمات فقط لو كانت هى الرسالة تصل بخالد إلى الإسلام ، لكنها تيار ضعيف ، يمكن أن يتردد ويتذبذب ويتقطع ، فلا يزال فى قلبه جبال الماضى البعيد من الحرب والحقد بينه وبين نبي هذا الإسلام ، أليس هو الذى حاربه فى كل موقع ، وهو الذى أفقده سبعين من خيرة أصحابه ، وهو الذى شارك فى حصاره قبل عام بهدف استتصاله ، فلو أنه اقتنع بالإسلام فما الذى يهدم هذا الحقد ؟ وخالد أليس هو ابن الوليد بن المغيرة الذى مثل عزة بنى مخزوم وحرىها ضد بنى عبد مناف ، حتى نزل القرآن يهجوهم لمواقفه ؟ فهل يبيع مجد بنى مخزوم بمثل هذه البساطة ليكون جندياً ذليلاً عند محمد ، ينتقم منه شر انتقام ؟ ألم يكن ابن عمه أبو جهل بن هشام هو قائد قريش كلها ضد محمد ﷺ ، وعباً العرب ، وسقط قتيلاً فى بدر للمحافظة على شرف قبيلته ؟ فهل ينتهى هو لبيع شرف هذه القبيلة على يديه ؟ كل هذه التساؤلات كان يمكن أن تثور لو أن الرسالة انتهت عند هذا الحد ، وقد يحتاج مشروع الإسلام إلى سنين ليتأكد من زوال هذه الرواسب وآثارها عند محمد بن عبد الله .

ولكن جاءت القبلة الموقوتة فى الرسالة ، والتى دكت قلعة الشرك كله ، وقلعة العصية كلها ، فانهارت القلعة تماماً وغدت ركاماً ، واحترق هذا الركام ، بفعل هذه القبلة الصاعقة .

(وقد سألني رسول الله ﷺ عنك ، فقلت : يأتي الله به) وهو هذا الفتيل قبل الانفجار ، فأن يبلغ من شأن خالد بن الوليد عند محمد المنتصر الذى دخل مكة رغم أنف قريش أن يسأل عنه محمد ﷺ ، فهو الأمر الذى يصب فى قلب المشكلة .

فقال : (« ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ») ، ثلاث جمل ، بل قل : ثلاث قطع ، كل قطعة حملت تياراً مزق وأحرق الران في القلب ، فخالد في ذهن محمد ﷺ عظيم من عظماء الأمة ، وسيد من ساداتها ، ولا يحق لمثله أن يجهل الإسلام ، والقطعة الثانية : (« ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ») فهو اعتراف بعبقريته وتفوقه ، وطاقاته وإبداعه في المجال العسكري ، ويمكن أن يضع كل هذه الطاقات والعبقرية في خدمة الإسلام كما كان يضعها في خدمة الجاهلية ، إن خالداً ليس نكرة من جهة ، ولن يتم تجاهله في هذا الموقع الجديد ، وليس جندياً مغموراً لا يعرفه أحد ، وكانت القطعة الأخيرة التي رفدت الشحنات السابقة فأجهزت على كل عناصر التردد والخوف ، والشك ، والحقد ، والكبر ، والعصية في نفسه (« ولقدمناه على غيره ») ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ مدى الثقة بمحمد ﷺ ومصادقته ، هذه ليست ذات شك أبداً عنده ، فتجربته العملية خلال عقدين من الأعوام ، ووفاءه بالعهد تجعله رمزاً للعرب كلهم في الوفاء والأمانة والبعد عن الغدر .

وهكذا أسلم خالد وهو يقرأ آخر حرف في الرسالة إسلاماً أضاء قلبه وغمر فؤاده ، وأصبح قادراً أن يكون هو التيار المولد بعد الآن ، وهو الطاقة العجيبة ، وهو موطن الإشعاع والإنارة ، من أجل هذا راح - رضوان الله عليه - قبل أن يلفظ بكلمة الإسلام يستعرض كل القادة من رفاقه ، لعله يزيل هذا الركام من قلوبهم ، ويمضى بهم معه إلى محمد ﷺ .

خالد الداعية :

نعم ، خالد الداعية إلى الإسلام ، ولم ينطق بعد بلفظ الإسلام ، فقد أسلم قلبه لله رب العالمين ، ولساعته ، فقد أصبح صاحب قضية ، ورجل هدف ، وتحول تركيبه كله من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الظلمات إلى النور . وساعد على اتخاذ هذا الموقف ، تلك الرؤيا التي رآها (وأرى في النوم كأنى في بلاد ضيقة جدية فخرجت إلى بلد أخضر واسع) فعليه أن يمضى إذن إلى هذا البلد الأخضر ، إلى المدينة المنورة .

(فلما أجمعت الخروج فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، إنما نحن أكلة رأس) .

فإن عليه - وقد سلك طريق الدعوة - أن يسلك بها طريق الحكمة ، فلا بد أن يوضح لزميله القائد الوضع الذي آلت إليه مكة بعد عمرة القضية ، وبعد دخول محمد لها ، فلم تعد مكة تذكر في انتصارات محمد في الأرض ، (وقد ظهر محمد على العرب والعجم) ، وهذه قضية يدركها صفوان بن أمية بما لديه من كفاءات عسكرية أهله للزعامة في عشيرته .

(فلو قدمنا على محمد فاتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف) ، وهذا هو لب القضية ، فالذهاب إلى محمد ليس ذهاباً إلى محكمة ميدانية تحاكم مجرمي الحرب ، إنما هو ذهاب إلى زعيم يقود العرب بقومه وبأمثال هؤلاء القادة، فشرف محمد هو شرف لكل قرشي ، (فأبى أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيره من قریش ما اتبعته أبداً) .

وحيث إن خالدًا رضي الله عنه أضاع قلبه بمشكاة الإيمان، أصبحت الإضاعة لديه واضحة ، ليكشف من يعيش في الظلام الدامس ، فوضع الإنارة الكافية ، وسلطها على موقف صفوان ، فبدت أمامه عوامل الصراع النفسي لدى صفوان فقلت : (هذا رجل موتور يطلب وترًا قد قتل أخوه وأبوه بيدر) وهذا هو كل ما عند القيادة القرشية .

وبالإضاعة نفسها ، وبالكاشف نفسه ، رأى عكرمة بن أبي جهل ابن عمه (فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل الذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان) ، وكاد أن يمضى دون أن يسلم كاشفه على عثمان بن طلحة، لكنه لا يضيره أن يكون داعية لأعنى من صفوان وعكرمة ، وما أعنى منهما غير عثمان ، فقد سقط أهل عثمان كلهم قتلى في أحد، لكن لم يدر بخلده أن عثمان بن طلحة قد تعرض لتحويل كبير مثله ، لا ندري نحن طبيعته وكيف غزاه وأثار قلبه ، إنما رأينا نتائجه فقال : (فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحتي بفخ مناخة . . . فأدبنا سحرًا فلم يطلع علينا الفجر حتى التقينا بياجيج فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم ، فقلنا : وبك ، قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟) ، ولابد من هنا أن تتحرك نفسية الداعية إلى الإسلام والذي لم ينطق بعد بالشهادتين، فهذا عمرو بن العاص زعيم كذلك من زعماء مكة ، فلم لا يعرض عليه المشاركة في المسيرة إلى محمد، وبمقدار ما بدت شخصية عمرو الداهية، المخططة ، حيث رفض أن يتحدث عن مسيره ، بمقدار ما برزت شخصية خالد الواضحة المبصرة فقال له : (الدخول في الإسلام ، واتباع محمد ﷺ) وفي رواية الإمام أحمد : (فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان؟ قال : والله لقد استقام المنسم^(١) ، وإن الرجل لنبي ، أذهب والله أسلم ، حتى متى) ، فلينل عمرو من دعوته كما نال من قبل عكرمة وصفوان وعثمان .

ومتكم مكة بأفلاذ أكبادها :

وانطلق الركب الثلاثة ميممين صوب المدينة ، وهم سادة مكة بلا منازع إلا أبا سفيان فالذين تركوهم بمكة : عكرمة ، وصفوان ، وسهيل لا يبلغون شأو خالد في العبقرية

(١) المنسم : الأثر والعلامة ، والمراد تبين وظهور الطريق .

الحربية ، ولا يبلغون شأو عمرو بن العاص في الدهاء ونصاعة الرأي ، ولا يبلغون شأو عثمان في الموقع ، فعثمان بن طلحة سادن الكعبة ، الكعبة التي قدست مكة من أجلها ، والتي يعترف العرب بفضل قريش لوجودهم حولها فهم سدنة البيت وهم أهلها ، يبرز عثمان بن طلحة على رأس هؤلاء جميعاً، فقد انتهت حجابة البيت إليه من بنى عبد الدار، ويحمل عثمان بن طلحة مجداً آخر هو صاحب اللواء ، فاللواء في قريش كان في بنى عبد الدار ، وعثمان بن طلحة سيد بنى عبد الدار بلا منازع ، وأما عمرو بن العاص ، فصحيح أنه لا يبلغ في عراقاة المجد القبلى ما يبلغه عكرمة بن أبى جهل ، وإن كان يتساوى مع صفوان فهما من مستوى واحد سهم وجمع ، وسهيل بن عمرو وصل إلى موقع القيادة برجاجة رأيه لا بعراقاة نسبه ، فهو في المرتبة الثانية في النسب ؛ لأنه من بنى عامر بن لؤى وليس من بنى كعب بن لؤى ، وكعب هو صريح ولد إسماعيل ، وأوسط نسباً من عامر، وفي المجال العسكري والقيادة الحربية لا يتفوق على خالد بن الوليد أحد؛ لأنه هو الوحيد الذى استطاع خلال هذه السنين الثمانية أن يحقق نصراً يذكر في تاريخ قريش يوم أحد ، وهو النصر الوحيد كذلك ، ومعنى مضى هؤلاء الثلاثة ليسلموا هو أن مكة قد ألفت المقادة بعد هذين الرجلين ، كما ذكر الذى رأهما قادمين للإسلام .

لقد استسلمت مكة عسكرياً وسياسياً بانضمام هؤلاء القادة الثلاثة إلى الإسلام ، وكما ورد في بعض الروايات عن رسول الله ﷺ قوله حين بلغه وصول عمرو وخالد وعثمان : « لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » .

اللقاء السعيد :

وكان رسول الله ﷺ سعيداً فرحاً بأعلى هدايا مكة له ، هؤلاء القادة الكبار ، وهذه الكنوز الخالدة ، وكما قال الوليد بن الوليد لآخيه : (أسرع، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدمك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم حتى وقفت عليه) .

وذاك عمرو بن العاص يصف هذا اللقاء السعيد بقوله: (وإن لوجهه تهلاًلً والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا) . لقد جاء هذا اللقاء بعد حرب ضروس بين هؤلاء القادة ومحمد ﷺ والمسلمين معهم استمر ثمانى سنين لا يهدأ لها أوار ، عبثت له كل الطاقات العربية المجاورة ، وها هم الآن يأتون مسلمين لله ولرسوله ، ولقد كانت قضية واحدة تقلق القائدين عمراً وخالداً ، هذه القضية هى مسح ذلك الماضى الذى ينز دماً وحقداً على الإسلام والمسلمين .

يقول خالد بن الوليد (يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً الحق ، فادع الله أن يغفرها لى ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يجب ما كان قبله ») .

ومع ذلك ، وبعد أن التقى خالد ببؤرة النور ، واتصل بالمصدر الاساسى فى الأرض لهذا النور : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة] ، فيود أن ينال شرف هذا التضرع من رسول رب العالمين لرب العالمين فى المغفرة لخالد فعاد يكرر : (قلت : يا رسول الله ، على ذلك ؟ فقال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك ») .

وأما عمرو بن لوحي فيعطينا إضاءة أخرى عن نفسه ، وقد ترك زميليه يتقدمانه إلى البيعة لشدة حيائه من رسول الله ﷺ (فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى إليه حياء منه ، فبايعته على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال : « إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها ») فقد كان شعور الحياء من ذلك الماضى الآسن هو الذى يسيطر عليه ، وما يستطيع أن يجيل طرفه بوجه رسول الله ﷺ ، ولا يضع عينه بعينه .

ومثل هذا الدخول فى الإسلام من القادة الاعداء ، لو كان فى غير مدرسة النبوة ، لكان عليهم أن يوضعوا تحت التجربة سنوات قبل الاطمئنان إليهم ، ومراقبتهم ، والحذر منهم ، وتحذير المسلمين من الاتصال بهم ، أما فى مدرسة النبوة ، فمئذ اللحظات الأولى للإسلام ، يتقدم هذا العدو لياخذ موقعه المناسب مع كفاءاته وإمكاناته وخبراته ، وكأنما هو من أهل دار الأرقم ، أو من الرعييل الأول من المهاجرين .

يقول عمرو : (فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ ، وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى أمر حربه منذ أسلمنا) ، لقد احتلوا الموقع الأول من الصدارة فى المسؤولية والمواجهة العسكرية منذ لحظات إسلامهما ، إلى أن توفى الله تعالى نبيه ، (ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة ، وكان عمر على خالد كالعاتب) .

درس إلى الدعاة :

ونذكر الدعاة فى الأرض أن يقفوا على أعتاب هذه المدرسة النبوية ويتعلموا من إمام المرين والدعاة فقه الدعوة إلى الله - عز وجل - وهم يحسبون أن الكم الكبير الذى يحفظونه من النصوص ، والخطب ، والأشرطة ، والكتب ، والحشد الضخم الذى

يسوقونه من الحجج هو الطريقة الوحيدة فى الدعوة ، وحين يجدون استقصاء أو توقفاً عن الاستجابة أو إدباراً من الناس، فيفضحون هؤلاء الناس، ويتهمونهم بدينهم وبعقيدتهم وبتقواهم، دون أن يرجعوا إلى أنفسهم ويراجعوا طريقة دعوتهم، والقرآن الكريم عندما تحدث عن الدعوة إنما ساق وسيلة الدعوة من خلال العمل والسلوك والقدوة ، ولم يتحدث عنها من خلال الوعظ والإرشاد كما يقول عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٢) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) [فصلت] .

فالميزان الحساس فى نجاح الدعوة هو : أن تجعل الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وأسلوب ذلك هو : أن تدفع السيئة بالتي هى أحسن، ليس بالسيئة وليس بالحسنة ، ولكن بالتي هى أحسن ، وما يتأتى هذا الذى هو أحسن إلا بمراجعة العديد من الحسن ، ليختار الأحسن منهما، ولا يكفى أن يكون حسناً فقط ، وتبرز أمامنا ظاهرة إسلام خالد وأسميناها ظاهرة ؛ لأنها تتكرر فى المدرسة النبوية مع الكثير من القادة والسادة والزعماء الذى حملوا راية حرب الإسلام أعواماً طويلة، وحملوا من الحقد على الإسلام وأهله ما كان أن يوزع على أهل الأرض، واستطاع سيد الدعاة ﷺ أن يستل تلك الجبال من الحقد والغيط والكراهية للإسلام باستعمال: التى هى أحسن، بحيث لا يكون فوقها حسن.

وحين نقف أمام هذه الكلمات القليلة التى سطرها الوليد بن الوليد فى رسالته لآخيه خالد ، والتى لم تتجاوز السطرين ولم تتجاوز خمس عشرة كلمة ، كان لها مفعول أطنان الكتب والمقالات والخطب والمواظع والأشرطة المرئية والمسموعة من التأثير فى نفس خالد العظيم ، لقد أدرك - عليه الصلاة والسلام - أن حب الشرف والسيادة هو مفتاح شخصية خالد التى تملك مقومات البطولة والعبقرية العسكرية ما لا يكاد يدانيها أحد ، وكلما سرت فى مواجهة هذا الشرف والنيل منه ، والخط منه ، وتصغير صاحبه ، كلما أبعدت المسافة ، وأبعدت النجعة بينك وبين المدعو ، وهو على استعداد أن يقاتل عشرين سنة أخرى ، ولا يساوم على كرامته ، أو يعطى يده لذل ، أو تهان شخصيته ، وكلما أمعنت فى رفع هذا الشرف ، والتعامل معه ، كلما قربت المسافة بينك وبين هذا العدو ، وضيق الهوة بينك وبينه .

وكل الذى كان يدفع خالداً ﷺ إلى التفكير بالسفر إلى الحبشة أو كسرى أو قيصر، إنما هو خوفه من تحقيره أو إذلاله من سيد الخلق محمد ﷺ أو تعبيره أو إهانته

بعد هذه الحرب العدائية الضروس ، وجاءت هذه الكلمات القليلة فى الموقع المناسب ، كأنها تلك اللبنة التى يكمل بها البناء لا زيادة ولا نقصاناً جاءت كلمات المصطفى ﷺ : « ما مثل خالد يجهل الإسلام » ؛ لتؤكد لخالد أنه معترف بشرفه وفضله وعقله عند عدوه اللدود محمد ﷺ و(« لو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين ضد المشركين لكان خيراً له ») فهو بإمكانه أن يطوى صفحة الماضى بما ينال من تقدير عظيم عند محمد ﷺ ، ويكون جندياً فى الصف الإسلامى منذ اللحظات الأولى (« ولقدمناه على غيره ») هكذا دون تحديد ، فهو إذن القائد فى الإسلام ، مثل ما هو القائد فى الجاهلية وليس حبس السجن ، أو الإقامة الجبرية ، أو تكسير رتبه العسكرية كلها ، ليكون جندياً عادياً ، بل «لقدمناه على غيره» .

فإذن ما الذى يحول بينه وبين الإسلام ؟ هل هو عدم القناعة بالإسلام ؟ بالتأكيد لا ؛ لأنه وضح له أن الرجل ممنوع ، ووضح له أنه يوضع فى غير شيء ، وأنه إنما يغالب الله رب العالمين ، لكن العزة التى يخاف من فقدانها والشرف الذى يخاف من النيل منه ، والكرامة التى يتحسب من تمرغها بالوحد ، هى التى تحول بينه وبين الإسلام ، فإذا توفرت العزة والكرامة والقيادة فى الصف الإسلامى ، فأى مبرربقى له فى صف مفكك منهار ، آيل للهزيمة والسقوط ، هذا المفتاح الذى تعامل رسول الله ﷺ بحيث كان فى أسنانه متطابقاً مائة فى المائة مع القفل القائم على قلب خالد بن الوليد ، ومنذ أن دخل هذا المفتاح فى قفل قلب خالد ، وتحرك فيه ، سرعان ما فتح القفل ، وكسر الران، وحطم القيد ، وأطلق سراح العملاق من عقاله ، وكانت الابتسامة التى لم تفارق وجه النبى ﷺ ، وهو يستقبل خالد بن الوليد ، وهو يدعو إلى ربه كذلك أن يغفر له ما كان له من مواقف صد عن سبيل الله ، فخرج من عنده مضيئاً بنور الإسلام ، وغدا هو نفسه مصدراً للنور والإشعاع فى الأرض ينير للآخرين دربهم ، فقاد معه عثمان بن طلحة، وعمر بن العاص ، وانضموا إلى الدين الجديد (وما عدل رسول الله ﷺ بخالد ولا بعمر أحدًا إذا حزبه أمر حتى توفاه الله تعالى إلى جواره) .

ويفقه الدعاة إذن درس إسلام خالد ، ودور خمس عشرة كلمة فى تحويل العدو اللدود إلى الصديق الحميم والولى الحميم ، وحين تحدث القرآن الكريم عن أساليب الدعوة قدم الحكمة قبل الموعظة ، والحكمة التى تعبر عن رحلة استعمال « التى هى أحسن » من بين مجموعة من الحسنات ، واختيار أحسن شيء فيها هى الحكمة ، ويأتى بعدها دور الموعظة ، والموعظة نفسها يجب أن تكون حسنة كذلك بحيث لا تعتمد الإكثار والإملال ، وإضاعة المعانى بضخامتها .

فكانت الوسيلة الأولى سابقة على الثانية وكلاهما يدور بين التى هى أحسن والحسنة .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] :

والعجيب أن تكون الدعوة فى كلمات رسالة ، وليست مواجهة أو حديثاً مباشراً أو مكاملة بواسطة ، إنما كانت كلمات وضعت فى رسالة الوليد التى استطاع فيها الداعية الوليد بحكمته كذلك أن يضعها فى إطارها المناسب وفى جوها المناسب ، (أما بعد : فإننى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألتى رسول الله ﷺ عنك) ، ثم وضع نص الحديث مع النبى ﷺ وختم الرسالة بقوله : (فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة) ، ثم نشهد بعدها خالد الداعية ﷺ ، وقد تعلم من المدرسة النبوية فن الدعوة ، فمضى إلى صفوان ، ليحرك جانب الشرف فيه ، ويربط الإسلام بالشرف (يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، إنما نحن أكلة رأس وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف) ، وعندما أبى ، وكان الحقد عنده أكبر من الإسلام نفسه ، ولم تكن تلك الثغرة التى تسللت إلى نفس خالد قد وجدت عنده ، وكان الران لا يزال مسيطراً على قلبه ، ولم تكن أسنان مفتاح خالد متطابقة تماماً مع قفل قلب صفوان فلم يفتح القفل ، وحاول ذلك مع عكرمة ، وكانت النتيجة نفسها ، ثم كانت كلمته مع عثمان بن طلحة ﷺ ، وأضاف سنّاً جديداً لمفتاحه بقوله : (إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب ماء لخرج ، وقلت له نحواً عما قلت لصاحبيه) ، وكان قد فتح قفله قبل خالد ، وما ندرى كيف فتح ، فمضى معه إلى المدينة ، ونجده يتابع الدعوة حتى مع عمرو بن العاص ﷺ عندما قال له : (قلت : أبا سليمان ! قال : نعم . قلت : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع ، والله لو أقمنا لآخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها) ، وفى رواية الإمام أحمد : (والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبى ، أذهب والله فأسلم ، حتى متى . .) وكان قفل عمرو قد فتح منذ ضربة النجاشى ، وهكذا شهدنا خالدًا داعية إلى الله تعالى من أثر ونور كلمات النبوة التى سطرت له ، قبل أن يعلن كلمة التوحيد بين يدى قائده ونبيه محمد - عليه الصلاة والسلام .

صفحتان :

ويعرض لنا عمرو بن العاص صفحتين متقابلتين تمثلانه فى الظلمات وفى النور ،

يقول :

(إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار) ، وكم من الملائكة من قرئش كان على مثل ما كان عليه عمرو ، ومات على حالته على هذا الطبق ، فكان من أهل النار ، وكان أبوه العاص بن وائل السهمي على رأس هؤلاء ، ولولا الرسالة ، لطوتهم هؤلاء جميعاً الدنيا ولم تحفل بهم ، أما الطبق الثاني (فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ ، فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه ، فقبضت يدي ، قال : « مالك يا عمرو » ، قلت : أردت أن أشتري ، قال : « تشترط بماذا ؟ » قلت : أن يغفر الله لي ، قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ ») .

ودخل في الإسلام ، فما هو التحول العجيب الذي حل به وقلبه ؟

يقول : (وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ) ، هذا الحب الذي كان بغضاً كله ، يتحول حباً كله ، هذا عن الحب فماذا عن الإجلال ؟

(... ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني إجلالاً منه ، ولو شئت أن أصفه ما أطق ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه) .

وهذا أوضح جلاء للصورة القرآنية :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) [فصلت] .

ما كان شيء أحب إليه من قتله ، ثم ما كان يطيق أن يملأ عينيه إجلالاً له ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يصفه .

(ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة) (١) .

ونرجو الله تعالى له أن يكون من أهل الجنة ؛ فقد « أسلم الناس وآمن عمرو ابن العاص » (٢) .

(١) الحديث في مسلم ، ح (١٧٣) ، كتاب الإيمان .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٣ .

سرايا نصر ومحن مع بداية العام الثامن

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد في صفر سنة ثمان :

(روى ابن إسحاق^(١) ، والإمام أحمد^(٢) ، وأبو داود من طريق محمد بن عمر وابن سعد رحمهم الله تعالى عن جندب بن مكيث الجهني رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي ، ليث كلب بن عوف في سرية كنت فيهم ، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوح بالكديد^(٣) ، وهم من بني ليث ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه فقال : إنما جئت أريد الإسلام ، وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : لن يضررك رباط يوم وليلة إن كنت تريد الإسلام ، وإن يكن غير ذلك فنستوثق منك ، قال : فشددناه وثاقاً ، وخلقنا عليه رويجلاً منا أسود ، يقال له : سويد بن منحر ، وقلنا : إن نازعك فاحتز رأسه ، ثم سرنا حتى آتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكمنا في ناحية الوادي .

وبعثني أصحابي ربيعة^(٤) لهم فخرجت حتى آتيت تلاً مشرقاً على الحاضر^(٥) يطلعي عليهم ، حتى إذا أسندت فيه^(٦) وعلوت رأسه انبطحت - وفي رواية : فاضطجعت على بطني - قال : فوالله إنني لأنظر إذ خرج رجل من خباء له ، فقال لامراته : إنني أرى على هذا التل سواداً ما رأيته عليه صدر يومى هذا ، فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرّت منها شيئاً ، قال : فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتي شيئاً ، فقال لامراته : ناوليني قوسى ونبلى ، فناولته قوسه وسهمين معها ، فأرسل سهماً فوالله ما أخطأ به جنبي - ولفظ ابن إسحاق وابن سعد : بين عيني - قال : فانتزعت وثبت مكاني ، ثم رمانى الآخر فخالطني به - ولفظ ابن إسحاق وابن سعد : فوضعه في منكبي - فانتزعت فوضعت وثبت في مكاني ، فقال لامراته : والله لو كان ربيعة ، لقد تحرك بعد ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٣٠ بشرح الوزير المغربي .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، وقد ذكر ابن حجر في الإصابة أنه بسند حسن ٣/ ١٨٦/٥ .

(٣) كديد : في القاموس : بين الحرمين ، وفي شرح المواهب : إلى مكة أقرب على اثنين وأربعين ميلاً ، وفي الصحيح ماء بين عسفان وقديد .

(٤) ربيعة : طليعة .

(٥) الحاضر : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه .

(٦) أسندت فيه : صعدت .

لقد خالطه سهمى - لا أبالك - فإذا أصبحت فابتغيهما لا تمضيهما الكلاب ، قال : ثم دخل الخباء ، وراحت ماشية الحى من إيلهم وأغنامهم .

فلما احتلبوا وعطنوا (١) واطمأنوا فناموا شتتا عليهم الغارة ، فقتلنا المقاتلة ، وسيينا الذرية ، واستقنا النعم ، والشاء ، فخرجنا نحدرها قبل المدينة حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملناه واحتملنا أصحابنا ، وخرج صريخ القوم فى قومهم فجاءنا ما لا قبل لنا به فجاءنا القوم حتى نظروا إلينا ؟ ما بيننا وبينهم إلا الوادى وهم موجهون إلينا ؛ إذ جاء الله تعالى بالوادى من حيث شاء بماء يملأ جنبتيه ، وإيم الله ما رأينا قبل ذلك سحاباً ولا مطراً ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه (٢) ، فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا ، وقد أسندناها فى المشلل (٣) نحدرها - وفى لفظ : فى المسيل - وفُتْناهم فوتاً لا يقدرون على طلبنا ، ثم قدمنا المدينة .

وروى محمد بن عمر عن حمزة بن عمرو الأسلمى قال : كنت معهم وكنا بضعة عشر رجلاً ، وكان شعارنا : أُمِّ أُمِّ (٤) .

سرية شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه إلى بنى عامر بالسى (٥) فى ربيع الأول سنة ثمان :

(حدثنى الواقدى قال : حدثنى ابن أبى سبرة عن إسحاق بن عبد الله عن عمرو بن الحكم قال : بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى فى أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن بالسى ، وأمره أن يُغير عليهم ، فخرج فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غارون ، وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك ألا يمعنوا فى الطلب فأصابوا نِعْماً كثيراً وشاء ، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة ، وكانت سهامهم خمسة عشر بغيراً كل رجل ، وعدلوا البعير بعشرة من الغنم ، وغابت السرية خمس عشرة ليلة .

قال ابن أبى سبرة : فحدثت بهذا الحديث محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان فقال : كانوا قد أصابوا فى الحاضر نسوة فاستاقوهن ، وكانت فيهن جارية وضيئة فقدموا

(١) عطنوا : أسقوا الإبل وأرووها .

(٢) المشلل : ثنية مشرفة على قديد .

(٣) المشلل : ثنية مشرفة على قديد .

(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٧٥٢ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٥) السى : بكسر أوله وتشديد ثانيه بلا همز ، وهو ماء على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة ، وخمس إلى المدينة .

بها المدينة ، ثم قدم وفدهم مسلمين ، فلما قدموا كلموا رسول الله ﷺ فى السبى ، فكلّم النبي ﷺ شجاعاً وأصحابه فى ردهنّ فسلموهنّ وردوهن إلى أصحابهن ، قال ابن أبى سبرة : فأخبرت شيخاً من الأنصار بذلك فقال : أما الجارية الوضيئة فكان شجاع بن وهب قد أخذها لنفسه بثمن فأصابها فلما قدم الوفد خيرها ، فاخترت المقام عند شجاع ابن وهب ، فلقد قتل يوم اليمامة وهى عنده ، ولم يكن له منها ولد (١) .

سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاق فى شهر ربيع الأول سنة ثمان :

قال الواقدي : حدثنا محمد بن عبد الله عن الزهرى قال : (بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفارى فى خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاق من أرض الشام ، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً ، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل ، فلما رأى ذلك أصحاب النبي ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا فأقلت منهم رجل جريح فى القتلى ، فلما يرد عليهم الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم) .

حدثنى ابن أبى سبرة عن الحارث بن فضيل قال : (كان كعب يكمن النهار ويسير الليل حتى دنا منهم ، فرآه عين لهم فأخبرهم بقله أصحاب النبي ﷺ ، فجأؤوا على الخيول فقتلوهم) (٢) .

فى صفر الخير سنة ثمان ، وفى الشهر الذى أسلمت فيه قيادات مكة ، كان بعث غالب بن عبد الله الكنانى الليثى إلى بنى الملوح بالكديد ، ونشير إلى أن هذا القائد هو من قبيلة بنى الملوح ؛ إذ يتتهون جميعاً إلى عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ، لكن غالباً من فرع كلب بن عوف ، أما بنو الملوح فمن فرع المشراخ بن عوف ، ولهذا أوكل إليه قيادة هذه السرية ، فهو أعرف بقومه وأدرى بهم وبأرضهم ، وسبق لغالب سرايا وفق فيها وحقق انتصارات عظيمة ، وقد نقل لنا خبر السرية عن جندب بن مكيث الجهنى رضي الله عنه .

ونشير إلى أن بنى ليث بن كنانة هم فرع من بكر التى حالفت قريشاً ضد رسول الله ﷺ ، وليس بين يدينا ما يشير إلى سبب هذه الغزوة ، لكن الذى عندنا هو تفصيلات المعركة

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٥٣، ٧٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٥٢ ، ٧٥٣ .

كما نقلها جندب رضي الله عنه خاصة فى المهمة التى كلف بها وهو أن يكون طليعة القوم ، حيث اختار المكان المناسب فى رأس الجبل الذى يطل على الحاضر، ويشهد كل تحركات العدو ، وكيف كان جندياً فى قمة الانضباط وقمة الخبرة، فقد انبطح على بطنه بحيث يستطيع أن يرى كل شيء ولا يرى ، وكانت المفاجأة التى واجهته هو ذلك الاعرابى الذى رأى سواده ولم يتأكد من شخصه هل هو إنسان أم دابة أم شيء ما وقع على الجبل ، وينقل لنا الحديث مفصلاً بين الاعرابى وزوجته ، إذ توقعه ابتداءً أن يكون كلباً، فطلب من زوجته أن تتأكد من أمتعتها ألا تكون الكلاب قد أخذت شيئاً منها، ولا شك أنه كان رامياً ماهراً، كما وصفه جندب فقد رمى السهم الأول ، وأصاب بين عيني جندب ، وراح الدم ينزف نهراً ، لكنه خشى إن تحرك أن يكشف فتفشل مهمته التى جاء من أجلها وهى تعرفه على وضع القوم وعودته إلى الجيش يمدد بما لديه من معلومات ، واكتفى أن ينتزع السهم من جبينه أو من جنبه، ثم كان السهم الثانى الذى غرز فى منكبه، واكتفى بأن رماه، وترك الدم يتدفق منه وهو منبطح على الأرض لا يبدى حراكاً بحيث أوهم العدو أنه لا طلب له، ولا عدو، وعرض نفسه للموت ، حفاظاً على نجاح مهمته، حيث يحدثنا بعدها ، عن الانقضاض على العدو ، وأخذ الغنائم وقتل من قُتل منهم .

وكان درساً تربوياً عظيماً فى الفداء والتفانى لحسن تنفيذ المهمة ، وحسن أدائها لكل جندي يكلف بمهمة الاستطلاع المناسب بحيث يخفى مهمته عن العدو بأكبر قدر من السرية والكتمان ويحقق أكبر قدر من المعلومات عن العدو تقدم لقيادة الجيش المسلم .

ونلاحظ أن الجيش قد يباد كله نتيجة فشل المهمة الاستطلاعية ، فسرية كعب بن عمير الغفارى رضي الله عنه قد استشهد جميع أفرادها ، لوجود عين من العدو كشفت تحركاتهم، فدفعت العدو للانقضاض عليهم حيث قاتلوا أشد القتال ، واستبسلا أشد الاستبسال ، وخاصة عندما تكون المهمة فى قلب أرض العدو ، وبأعداد قليلة لا تثير الانتباه ، وتكون مكلفة بتنفيذ عملية داخل أرض العدو .

ولو أن جندباً رضي الله عنه تحرك ، وتملأ من الألم الشديد ، أو وقف أو هرب لانكشف أمره ، وأمر الجيش من ورائه ، ولا ننفى دور القائد العظيم فى التوجيهات المناسبة لجنده فغالب رضي الله عنه خبير الأرض والقوم وصاحب الكفاءة القتالية، يضع الخططة كاملة ، ويلاحق كل فرد بعينه عند تحديد مهمته المطلوبة ، وترك المجال لعرض هذه الكفاءة العسكرية للفريق الركن محمود شيت خطاب ، حيث يصف غالباً رضي الله عنه فى هذه السرية بقوله :

(لقد استطاع غالب بحذره ويقظته واستطلاع الحضور على المعلومات الكافية عن

عدوه ، فباغتهم بالهجوم الليلي مباغته كاملة بالأسلوب ؛ إذ لم يكن المشركون يتوقعون هجوماً ليلياً عليهم ، كما باغتهم بالزمان إذ لم يكن المشركون يتوقعون الهجوم عليهم ليلاً ، بل اطمأنوا وأمنوا ، كما استطاع غالب بسرعة الحركة من الابتعاد عن المشركين ، والخلاص من مطاردتهم له ، فأدى غالب واجبه في هذه السرية أداءً رائعاً حقاً ، وحقق أهدافه كافة منها (١) .

ويخلص بعد هذا العرض في هذه السرية وسراياه السابقة واللاحقة إلى القول :

(أما السمات القيادية لغالب فواضحة كل الوضوح ؛ لأنه قاد ثلاث سرايا من سرايا النبي ﷺ في حياته المباركة ، كما قاد مقدمة المسلمين في فتح مكة ، فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى استمر على نشاطه في الجهاد ، فكان من أصحاب الأيام في حرب العراق وفارس .

ولعل من تلك السمات الحذر واليقظة ، فلم يصدق الأسير الذي ادعى الإسلام ، وأنه في طريقه إلى النبي ﷺ لإعلان إسلامه ، بل شد وثاقه وجعل عليه حارساً مزوداً بأوامر وأضحة جلية أن يحز رأسه إذا حاول الهروب من الأسر ؛ حتى يحول دون اتصال هذا الأسير بقومه ، وكشف نيات المسلمين مبكراً مما يؤدي إلى استعداد المشركين للقاء المسلمين .

وكان الأسير من بنى ليث - غالب من بنى ليث أيضاً - ولكنه لم يراع ابن عمه كما كان يفعل في أيام الجاهلية بل عامله كأى عدو آخر بصرف النظر عن قرابته ، مما يدل على تغلغل تعاليم الإسلام من جهة ، واجتثاث عنعنات الجاهلية وتقاليدها من جذورها من جهة أخرى .

ومن دلائل يقظته وحذره إرساله الربايا الاستطلاعية ليستطيع إعداد خطته على هدى وبينة ، وبشكل يؤدي إلى النصر .

وكان يحث رجاله على القتال ، ويحثهم على الجهاد ويؤاخي بين أصحابه ؛ ليكون التعاون وثيقاً بينهم قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها ، كما يأمر بالطاعة المطلقة بأمر بتنفيذ أوامره نصاً وروحاً ، والابتعاد عن الخلاف والفتنة إذ لا نصر مع الخلاف ، ولا هزيمة مع الطاعة .

وقد كان قائداً تعرضياً ، يطبق مبدأ المباغته بالزمان ، فيتعرض بوقت لا يتوقعه العدو ، والمكان باتجاه لا يتوقعه العدو ، وبالأسلوب في التعرض السريع الخاطف ، والانسحاب

(١) قادة النبي ﷺ : محمود شيت خطاب ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

السريع الخاطف قبل أن يعود للعدو رشده الذى فقدته جراء المباغثة .

ويبدو أن من سماته القيادية سرعة الحركة : التقدم بسرعة إلى ساحة المعركة ، والانسحاب بسرعة مع الغنائم ، فكان أحد رواد الحرب الخاطفة التى بحاجة إلى قابلية الحركة وسرعتها .

وكان من القادة الذين يطبقون مبدأ : إدامة المعنويات ، فكان من أهدافه رفع معنويات رجاله من جهة ، وهدم معنويات أعدائه من جهة أخرى .

وكان سريع القرار وصائبه يثق برجاله ويثقون به ، ويبادلهم حبا بحب، ويعرف مزايا أصحابه وخواصهم ، ويكلف كل واحد منهم ما يناسب كفايته من واجبات، له شخصية قوية نافذة ، يتحمل المسؤولية كاملة ولا يتهرب منها ، ولا يلقيها على عواتق الآخرين ، يتمتع بمزية سبق النظر ، ويحسب لكل أمر حسابه، ويُعد له ما ينبغي لمعالجته وحسمه بسرعة قبل فوات الأوان ، له قابلية بدنية جيدة ، وماض ناصع مجيد .

ولعل من أبرز سماته القيادية : شجاعته الشخصية الفائقة ، فلما أصيبت سرية بشير ابن سعد أعد النبي ﷺ الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وهو من هو شجاعة وإقدامًا لتأديب بنى مرة الذين أصابوا تلك السرية ، وألحقوا بها أفدح الأضرار بالأرواح ، ولكن النبي ﷺ أثر غالب بن عبد الله للقيام بمهمة تأديب بنى مرة ، وهذا دليل على أنه كان له فى ميزان الشجاعة والإقدام وزن ثقيل .

لقد كان غالب من قادة النبي ﷺ المتميزين (١) .

بقى أن ندرك جانبًا ذا مغزى تربوى فى هذه السرايا ، هو استشهاد سرية كعب بن عمير الغفارى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ونجاة سرية غالب ، فكلتاها متقاربتان فى العدد ، وكان بالإمكان أن يستشهد رجال سرية غالب جميعًا لولا أن بعث الله السيل من حيث لا يحتسبون ، فيحول بين سرية غالب والموت ، بينما لم يهيا ذلك لغزوة كعب .

(وخرج صريخ القوم فى قومهم فجاء ما لا قبل لنا به ، ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادى ، وهم موجهون إلينا ، فجاء الله الوادى من حيث شاء بماء ملاً جنبتيه ، وايم الله ما رأينا قبل ذلك سحابًا ولا مطرًا ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا وقد أسندنا فى المشلل ، وفُتَّناهم فهم لا يقدرون على طلبنا) .

(١) قادة النبي ﷺ : محمود شيت خطاب ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

وساق الله الشهادة لسرية كعب ، وساق الله الماء لسرية غالب ، وكلاهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكليهما إحدى الحسينين النصر أو الشهادة .

شجاع بن وهب : السفير القائد :

ونجى الله تعالى سرية شجاع بن وهب الأسدى حيث أغاروا على هوازن فى السّىّ ناحية ركة ، ونفذوا التعليمات الموجهة إليهم فى كمون النهار ومسير الليل ، ولم يفجأهم عين يراهم فيبلغ عامر هناك بعددهم ، فاستطاعوا أن يستاقوا النعم والشاء ، وقدموا المدينة ، ولم يمعنوا فى الطلب .

وهذه السرايا الثلاث ليست مهمتها المواجهة والحرب بمقدار ما كانت مهمتها بث الرعب والخوف فى قلب العدو أن يد محمد ﷺ تصل إلى الشمال فى ذات أطلّاح ، وإلى الشرق فى السّىّ والركبة، وإلى الجنوب فى الكديد، وأن المنطقة كلها منطقة حرب، تدعو القبائل إلى أن تراجع موقفها ، وتسالم المسلمين .

إن إشعار العدو بالقوة هو الذى يجعله يراجع موقفه ، ويتعامل من جديد مع الساحة ، وصحيح أن النصوص لا تنقل لنا تسارع هذه القبائل للإسلام ، لكن ما نفاجأ به من الأعداد فى الجيوش الإسلامية تبين لنا ذلك ، فإذا كان العدد قد ارتفع إلى ألفين فى عمرة القضية خلال العام السابع ، بعد أن كان جنود الحديبية ألفاً وخمسمائة ، فها نحن نفاجأ بسرية مؤتة، وذلك بعد مضى أربعة أشهر من السنة الثامنة فى ارتفاع العدد إلى ثلاثة آلاف مقاتل، فمن أين جاءت هذه الألف الجديدة ، وخلال النصف الأول من السنة الثامنة، فلقد زاد العدد ضعفين فى ستة أشهر ، عن زيادة الخمسمائة فى عام واحد ، وهذا يعنى أن هذه السرايا قد أعطت مفعولها، وأن مهمتها أن تلفت النظر إلى القوة الإسلامية، كما أن من مهمتها الدعوة ، وقد شهدنا سريتين فقدت كل منهما أفرادها وهم يدعون إلى الإسلام ، سرية ابن أبى العوجاء السلمى فى بنى سليم والتي تربو على خمسين شهيداً ، وسرية كعب بن عمير الغفارى والتي تربو على خمسة عشر شهيداً ، وقد دعوا القوم إلى الإسلام فأبوا ثم قتلوا أفراد السرية جميعاً .

ونقف قليلاً عند قيادة شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه ، فهو من المهاجرين الأولين ومن حلفاء بنى أمية مع عبد الله بن جحش رضي الله عنه وغيره ، ولأول مرة يقود هذه السرية إلى ديار بنى عامر ، وكان أحد الرسل الستة الذين بعثهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء قبل تكليفه بهذه المهمة ، فقد أرسله رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر

الغسانى أو إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر كما فى رواية الطبرانى ، وأدى المهمة بنجاح ، وعاد إلى المدينة ، كما أدى مهمته بنجاح فى ديار بنى عامر وعاد إلى المدينة ، وسنرى بعد قليل أثر هذه السرية من خلال تحرك أكبر زعماء بنى عامر للإسلام على أثر هذه السرية ، وهو علقمة بن علاثة ، والذى كان يترقب الأحداث ليتخذ الموقف المناسب ، كما سنرى أثر سرية الشهداء فى بنى سليم كذلك حيث تكون الأشهر القادمة من الأشهر الحاسمة فى التاريخ الإسلامى ، من حيث إقبال الناس على الإسلام .

من غزو بنى عامر إلى إسلام سيد بنى عامر

١ - لقد حرّك رسول الله ﷺ بعد الحديبية أكثر من سرية لبنى عامر بن صعصعة ، على رأس بعضها أبو بكر الصديق إلى بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فى شعبان سنة سبع ، بالإضافة إلى سرية عمر بن الخطاب لهوازن بترية ، وبنو عامر منهم ومن جيرانهم إضافة إلى سرية شجاع بن وهب الأسدى التى تحدّثنا آنفاً عنها ، وكانت زعامة بنى عامر قد انتهت إلى عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وكلاهما من بنى كلاب ابن ربيعة وذلك بعد أن أصبح أبو براء ملاعب الأسنة عامر بن مالك شيخاً طاعناً فى السن ، وراح هذان الزعيمان يصولان ويجولان لكسب مواقعهما وإثبات زعامتهما فى القبيلة ، أما نسبهما فهما :

- عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة .

- وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة .

٢ - وقد روى ابن عساكر بإسناد له إلى الشافعى حدثنى غير واحد أن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة تنافرا فقال علقمة : لا أنافرك على الفروسية أبداً أنت أشد بأساً منى ، فقال عامر : لا أنافرك على الكرم ، أنت رجل سخى ، فقال علقمة : لكنى موف وأنت غادر ، وعفيف وأنت عاهر ، والد وأنت عاقر (١) .

٣ - ونقف عند غدر عامر بن الطفيل قليلاً ، فهو الغادر الأول بالمسلمين فى قصة سرية بئر معونة ، فقد أجار عمه أبو البراء عامر بن مالك المسلمين ، كى يعضوا دعاة فى بنى عامر (قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/٤/٢٦٤ (ت ٥٦٦٩) .

الإسلام، وقال : يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد تدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخشى عليهم أهل نجد » ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو وأخا بني ساعدة^(١) المعنق ليموت في أربعين^(٢) رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ، وعروة بن أسماء ، ونافع بن بديل بن ورقاء ، وعامر بن فهيرة في رجال من المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب . . . فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عَصِيَّة ورعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله . . .) (٣) .

وقد فضح حسان بن ثابت غدر عامر بن الطفيل وإخفار ذمة عمه أبي براء ملاعب الأسته، وراح يحرض أبناء عامر بن مالك على ابن عمهم عامر بن الطفيل بن مالك بقوله:

بنى أم البنين ألم يرُعمكم	وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براء	ليخفزه وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي	فما أحدثت في الحدثن بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء	وخالك ماجد حكم بن سعد ^(٤)

صحيح أن عامر بن الطفيل انتصر وقتل سبعين من المسلمين ، فتاريخه ملطخ بالدم والغدر بالمسلمين ، وحق قول علقمة فيه الذى أصبح عامر يوصم به : ولكنى موفٍ وأنت غادر ، وعفيف وأنت عامر .

وكان علقمة بن علاثة ، بعيداً عن حرب المسلمين ، أما عامر بن الطفيل ، فكان قلبه يتر حقدًا على المسلمين ، فقد ساق البخارى فى صحيحه نبأ قدومه المدينة قال فيما

(١) وهو نقيهم يوم بيعة العقبة .

(٢) وفى الصحيح أنهم سبعون كما فى فتح البارى ح (٤٠٩١) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام بشرح الورير المغربى ٢ / ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٦٧٩ .

رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه :

(وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خير من ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السهل ، ولئى أهل المدر ؛ أو أكون خليفتك ، أو أغزوك) (١) .

ويوضح هذه الرواية رواية البيهقى :

(أتى عامر بن الطفيل النبى ﷺ فقال له : « يا عامر ، أسلم » قال : أسلم على أن لئى الوبر ولك المدر ، قال : « لا » ، ثم قال : « يا عامر ، أسلم » ، قال : أسلم على أن الوبر لئى ولك المدر ، قال : « لا » .

قال : فولى وهو يقول : والله يا محمد لاملأنها عليك خيلاً جرذاً ، ورجالاً مرداً ، أو لاربطن بكل نخلة فرساً ، فقال النبى ﷺ : « اللهم اكفنى عامراً واهد قومه » (٢) .

فتاريخ عامر بن الطفيل تاريخ يقطر بالعداء للإسلام وأهله ، وكان يود أن يأخذ تفويضاً من رسول الله ﷺ أن يعطيه زعامة البادية ، وتكون زعامة الحضرة له فلم يحصل على ذلك .

٤ - والظاهر أن الأمر قد تطور بين عامر وعلقمة ، فبعد أن تراجعاً عن المنافرة بينهما ، عادا فتحركت صراعات الزعامة بينهما فراحا إلى قبائل العرب ، كل واحد يريد أن يفوق صاحبه .

(وكان علقمة بن علاثة تنافر مع عامر بن الطفيل ، فخرج مع عامر لبيد والأعشى ومع علقمة الحطيئة فحكماً أبا سفيان بن حرب ، فأبى أن يحكم بينهما ، فأتيا عيينة بن حصن فأبى ، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى ، فردهما إلى هرم بن قطبة الفزارى ، فلما نزلا به قال : لا قضين بينكما ولكن فى العام المقبل ، فأنصرفا ، ثم قدما فبعث إلى عامر سرّاً فقال : أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ، فكيف تكون أنت خيراً منه ؟ فقال : أنشدك الله أن تفضله على ، وهذه ناصيتى جزها واحكم بما لئى بما شئت أو فسو بينى وبينه .

ثم بعث إلى علقمة سرّاً فقال : كيف تفاخر رجلاً هو ابن عمك وأبوك أبوه وهو أعظم قومك غناء ؟ فقال له كما قال لعامر ، فأرسل هرم إلى بنيه : إننى قاتل مقالة فإذا فرغت منها فلينحر أحدكم عن علقمة عشراً ، ولينحر آخر عن عامر عشراً ، وفرقوا بين الناس ، فلما أصبح قال لهما جهاراً :

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣٢١/٥ .

(١) فتح البارى ٧ / ٣٨٦ ، ح (٤٠٩١) .

لقد تحاكمتما إلى وأنتما كركبتى البعير يقعان معاً، وكلاكما سيد كريم، ولم يفضل^(١).

٥ - وتفرق الناس دون أن يحكم أحد لواحد منهما على الآخر ، غير أن الشعراء يتبعون حيث يلتقط الحب ، وحيث إن الأعشى وليد كانا مع عامر ، فراح الأعشى يفضل عامراً على علقمة فيقول :

(سُدَّتْ بَنَى الْأَحْوَصَ لَمْ تَعْدَهُم وَعَامِرٌ سَادَ بَنَى عَامِرٍ

وذلك فى قصيدة طويلة انتشرت بين العرب انتشار النار فى الهشيم ، فنذر علقمة دم الأعشى ، فاتفق أن ظفر به فأنشد قصيدة نقض بها الأولى يقول فيها :

علقم يا خير بنى عامر للضيف والصاحب والزائر

وقال له : لئن مننت علىّ لأمدحك بكل بيت هجوتك به قصيدة ، فأطلقه^(٢) .

ومرّ الزمن ، وبلغ علقمة بن علاثة أن أبا عامر الراهب توفى عند قيصر ، فمضى يطلب ميراثه هناك .

وذلك فى فترة الحديبية تقريباً ، والعرب تتناقل الأخبار كلها فديوان شعرهم سجل حياتهم .

(وروى أبو عوانة فى صحيحه من طريق ابن أبى حنرد الأسلمى قال : قال محمد ابن سلمة : كنا يوماً عند رسول الله ﷺ فقال : « يا حسان، أنشدنى من شعر الجاهلية » فأنشده قصيدة الأعشى التى هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل ، فقال : « يا حسان ، لا تعد تشدنى هذه القصيدة » فقال :

يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك يقيم عند قيصر ، فقال :

« إن قيصر سأل أبا سفيان عنى فتناول منى، وسأل علقمة فأحسن القول ، فإن أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى » ، ورأيت نحو ذلك مروياً عن ابن عباس بنحو هذا السياق .

وذكر البلاذرى أن سبب قدوم علقمة على قيصر أنه بلغه موت أبى عامر الراهب ، فقدم هو وكنانة بن عبد ياليل فى طلب ميراثه ، فأعطاه لكنانة ؛ لكونه من أهل المدر ولم يعطه لعلقمة .

٦ - ويعود علقمة بن علاثة، ولا يذكر له رسول الله إلا خيراً، بينما كان تاريخ عامر

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٤٢٦٥ (ت ٥٦٦٩) .

ملطخاً بالدم ، والغدر ، ولعل بعض هذه الكلمات الندية النبوية بلغت علقمة بن علاثة في الثناء عليه ، فإذا به يقدم إلى المدينة ويعلن إسلامه ، ومعه زعيمان من قومه هما ابنا هوزة خالد وحرملة ، ولفرح رسول الله ﷺ بإسلامهم بعث يبشر خزاعة بهذا الإسلام .

خزاعة على طريق التربية الجماعية

(قال أبو عبد الله : سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبي متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه ؟ فقال : أخبرني أبي عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم في جمادى الآخرة سنة ثمان) (١) .

ونقدر إذن إذا كانت الكتابة في جمادى الآخرة أن يكون إسلام علقمة وابني هوزة في جمادى الأولى ، وبانضمام هؤلاء القادة من عامر بن صعصعة يعني أن عامر بن الطفيل قد انكسر جناحه ، وتوزعت عامر بينهما ، ونقدر أن إسلام علقمة بن علاثة وابني هوزة لا يقل أثراً في العرب والبيئة العربية عن إسلام عمرو وخالد من قريش ، وكان هذا الإسلام للقيادات إيذاناً بفتح جديد في الأرض نشهده في تمة حديث قبيصة بن ذؤيب رضي الله عنه .

(... فقال : أخبرني أبي عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم في جمادى الآخرة سنة ثمان ، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير ، ومنهم من هو بعد مقيم على شركه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدق بمحمد ، قد أتوا بالإسلام وهو فيمن حوله قليل ، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوزة وهاجروا) (٢) .

فتشير الرواية إلى أن عدد الإسلام قليل فيمن حول خزاعة ، حتى أسلم علقمة وابنا هوزة سادة بني عامر بن صعصعة ، ولأهمية الحدث وما رافقه من دخول جماعى في الإسلام بعد دخول خزاعة ككيان جماعى قبلى نشهده لأول مرة بعد الانصار في المدينة ، وهذا هو نص الرسالة .

(حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوزة وهاجروا فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى بُدِيل وبشر ، وسروات بنى عمرو : سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإنى لم آثم بآلئكم ، ولم أضع فى جنبكم ، وإن أكرم تهامة على أنتم ، وأقربهم رحماً أنتم ومن تبعكم من المطيين ، فإنى قد أخذت لمن قد هاجر منكم مثل

(١ ، ٢) المغازى للواقدي ٧٤٩/٢ .

ما أخذت لنفسى ، ولو هاجر بأرضه غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً ، وإنى لم أضع فيكم إذ سألت وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصورين .

أما بعد ، فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة ، وابنا هوزة ، وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة ، أخذت لمن تبعنى منكم ما آخذ لنفسى ، وإن بعضنا من بعض أبداً فى الحِلِّ والحرم ، وإننى والله ما كذبتكم وليحيكم ريكم » (١) .

حدثنى عبد الله بن بديل ، عن أبيه ، عن جده ، عن عبد الله بن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن عبد الله بن مسلمة مثل ذلك .

لقد بدت الظاهرة تحتل الساحة بوفود الأعداد الكبرى من أفناء العرب مهاجرة إلى المدينة ، لكن خزاعة وهى التى حالفت رسول الله ﷺ علناً ضد قريش ، ها هى تعلن إسلامها كلها ، وتود أن تهجر إلى المدينة لإعلان ذلك الولاء ، إنه أول كيان قبلى ينضم إلى الإسلام ، وفى كتاب رسول الله ﷺ لهم ما يشى بمدى سروره بإسلامهم ، ومدى تمسكه بحلفهم « الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، وإن أكرم تهامة على أنتم ، وأقربهم رحماً أنتم ومن تبعكم من المطيين » ، ولمعالجة قضية الهجرة حيث بدأت المدينة تضيق بالأعداد الضخمة الوافدة إليها ، تدخل دورات سريعة تربوية فى المسجد النبوى وبين أعظم القادة المربين فى الأرض ، الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار ، فقد اعتبرهم رسول الله ﷺ مهاجرين وهم فى أرضهم وديارهم من خزاعة ، وليس هناك ضرورة لقدومهم جميعاً إلى المدينة ، والشرط الوحيد ألا يكون مقيماً فى مكة مع قريش « ولو هاجر بأرضه غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً » ، والذى يقدم لأيام قلائل أو كثيرة ، إنما يأتى ليشارك فى دورات هذه الجامعة العالمية التى على رأسها سيد ولد آدم محمد ﷺ ، فيقبس من نوره ، ويقبس من نور صحبه ؛ ليضىء لقومه وللعالين .

(١) المغازى للواقدي ، وقد نقلها ابن سعد فى الطبقات فى ترجمة خالد وحرمله ابنا هوزة ، الطبقة الرابعة من الصحابة (ت ١٦١٥) ص ٦٠٢ ، وقد أشار المحقق إلى تخريجه بقوله : أخرجه ابن سعد فى الطبقات بدون إسناد ، كما أخرجه أبو عبيد من طريقين أحدهما عن إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي ، وهؤلاء من رجال الصحيحين ، وانظر الطبقات (الطبقة الرابعة من الصحابة - الجزء الثانى تحقيق الدكتور عبد العزيز السلووى ٦٠٢ ، ٦٠٣) .

احتكاك مع الإمبراطوريتين

بين جمادى الأولى عام سبع للهجرة وجمادى الأولى عام ثمان للهجرة كان الاحتكاك مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وذلك عقب رسائل الملوك التى بعثها ﷺ إلى كل جبار فى الأرض يدعوهُ إلى الله - عز وجل - وخاصة الرسائل الأولى الستة ، لقيصر ، وكسرى ، والنجاشى ، والمقوقس ، وهوذة بن على الحنفى ، والحارث بن أبى شمر الغسانى .

ولم يكن هناك خلاف إلا فى موفد كسرى هل هو عبد الله بن حذافة السهمى أم شجاع بن وهب الأسدى ؟

فرواية ابن سعد ، تتحدث بتفصيل أكثر ، عن هذه الحادثة ، وتقدّم الرسول بأنه عبد الله بن حذافة السهمى : (قالوا : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى ، وهو أحد الستة إلى كسرى يدعوهُ إلى الإسلام وكتب معه كتاباً ، قال عبد الله : فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرئ عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « اللهم مزق ملكه » ، وكتب بها كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جلددين إلى هذا الرجل الذى بالحجاز فليأتينى بخبره ، فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر ، وكتب معهما كتاباً ، وقدا المدينة ، فدفعا كتاب باذان إلى النبى ﷺ ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ودعاهما إلى الإسلام ، وفرائصهما ترعد ، وقال : « ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد » ، فأخبركما بما أريد « فجاءاه من الغد ، فقال لهما : « أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها » وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع ، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والابناء الذين فى اليمن) (١) .

وحين نقف ملياً مع هذه الحادثة نلاحظ أن رسول الله ﷺ قد بعث ستة نفر فى يوم واحد إلى عظماء الأرض وذلك مرجعه من الحديبية ، قالوا : (إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ، فقيل : يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرؤن كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر : محمد

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٠ .

رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم^(١) .

وقد شهدنا فى الجزء السابق تفصيلاً للقاء رسولى قيصر والنجاشى ، وها نحن نشهد هذا التفصيل للقاء كسرى ، فلقد قرر كسرى أن ينهى الإسلام ورسول الإسلام ، وبعث إلى عامله باليمن كى يأتى بمحمد إليه أو يشن عليه الحرب من عنده ، وإلا فسيناله غضبه وعقابه .

والدولة الإسلامية بعد الحديبية أى قبل عام ونصف من تاريخ بحثنا الآن ، كانت تملك جيشاً قوامه ألفاً وخمسمائة مقاتل هو الرصيد المذخور عندها ، وهذا الرصيد قد يواجه قريشاً ، لكنه لن يواجه اليمن ، ولن يواجه الفرس ، وليس بإمكانية هذه الدولة الفتية أن تواجه هذه الإمبراطوريات ، وجاء الرجلان رسولا باذان يطلبان من محمد ﷺ أن يمضى معهما إلى سيدهما باذان ، أو يتحمل تبعة عصيانه .

وحين أراد طاغية الأرض أن يتحدى إله السموات والأرض ، ليقتل رسوله ، ويثد شريعته ، ولم تكن هذه العصبة المؤمنة الفتية معدة لمثل هذه المواجهة الضخمة ، تكفل الله تعالى بأعظم انقلاب عسكري عالمى انتهى بمقتل طاغية الأرض كسرى على يد ابنه شيرويه ، وانصراف رغبة كسرى الابن عن تحدى رسول الله ﷺ .

وحيث كانت ملائكة السماء فى خدمة رسول الرحمن ، فقد جاء مقتل طاغية الأرض بعد ساعات من وصول رسوله إلى محمد بن عبد الله ليحضره مخفوراً إليه ، وتكفل سيد الملائكة جبريل أن ينقل خبر هذا الانقلاب إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ عقب القتل مباشرة، وأجاب رسول الله ﷺ الرسولين: « إن ربى قد قتل ربكما الليلة » ، قتله بيد ابنه شيرويه ، وتكفل الله تعالى عن جنده الأقلة الضعاف ؛ ليحفظ لهم دماءهم مذكورة لمعركة مكافئة ، ولو شاءت المدينة ، والعرب جميعاً أن يواجهوا كسرى لما استطاعوا ذلك ، فكيف بخير أهل الأرض ، هل يُقتلون جميعاً ، فى مواجهة مع كسرى الفرس ؟ الله تعالى هو الذى يحفظ جنده، ويرعى حربه حتى يكون قادراً على المواجهة، وعوضاً عن أن يقود باذان الجيوش لاحتلال المدينة ، وإبادة أهلها ، وحين وصل رسوله إليه يخبرانه عن جليلة الأمر ، وجاء الأمر من المدائن بصحة الخبر تماماً ، وتحديد الوقت الذى قتل فيه ، عرف به رسول الله ﷺ قبل أن يعرف به أحد ، عوضاً عن أن يبعث الكتاب والجيوش لقتل رسول الإسلام وجيش الإسلام ، بعث بإسلامه إلى رسول الله ﷺ ، فكان أول إشراقة النور فى اليمن على يد نائب كسرى فيها باذان ، وكان هذا فى جمادى الأولى فى السنة السابعة .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٥٨/١ .

إنها الرعاية الربانية لهذه الامة ، وإنها السنن الربانية كذلك ، فى ألا تقوم العصبة المسلمة فى مواجهة غير متكافئة مع عدو مدجج بالسلاح والعدد ، اعتماداً على نصر الله عز وجل للفتنة القليلة ، والله تعالى هو الذى يهلك عدوها حين يريد استئصالها ، ولا تملك القدرة على مواجهته .

﴿ قَالُوا أَوْدِيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٩) [الاعراف] .

وفى الوقت الذى ألهم الله تعالى طاغية الأرض الثانى قيصر أن يهادن دولة الإسلام ويبعث إليها يطلب ودها والاعتراف برسالتها ، يقتل الطاغية الفارسى المتجبر ، ويحل ابنه مكانه ليقوم بالمهادنة نفسها .

ولنتابع بقية الرسائل الثلاثة الأخرى ، وهم بقية الستة الذين مضوا إلى حكام الأرض آنذاك .

(وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، وهو أحد الستة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه وقال له خيراً ، وأخذ الكتاب وجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جاريته ، وكتب إلى النبى ﷺ ، قد علمتُ أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت إليك كسوة وبغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن فى العرب يومئذ غيرها وهى دُلْدُلُ ، وقال رسول الله ﷺ : « ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه » ، قال حاطب : كان لى مكرماً فى الضيافة ، وقلة اللبث ببابه ، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام) (١) .

أما الرسول الخامس فإلى زعيم نجد هوزة بن على الحنفى .

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوزة ابن على الحنفى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً ، فقدم عليه ، وأنزله وحياه ، وقرأ كتاب النبى ﷺ ورداً ردّاً دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليط بن عمرو بجائزة ، وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٠ ، ٢٦١ .

ﷺ ، وأخبره عنه بما قال ، وقرأ كتابه وقال : « لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه » ، فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات (١) .
وانتهى الأمر دون حرب .

أما سادس الستة فهو صاحبنا شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه ، وقد أرسل إلى حاكم الشام الحارث بن أبي شمر الغساني .

قالوا : (وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي ، وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعو إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، قال شجاع : فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والالطاف لقيصر ، وهو جاء من حمص إلى إيلياء ، فأقمت على بابيه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله ﷺ إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه وكان روميًا اسمه مري يسألني عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ ، وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : إني قرأت الإنجيل ، فأجد صفة هذا النبي ﷺ بعينه ، وأنا أومن به وأصدقّه ، وأخاف من الحارث أن يقتلني ، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي ، وخرج الحارث يوماً فجلس ، ووضع التاج على رأسه ، فأذن لي عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ثم رمى به ، وقال : من يتزع مني ملكي ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جتته ، على الناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تتعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : ألا تسير إليه ، واله عنه ، ووافني بإيلياء ، فلما جاءه كتاب قيصر دعاني فقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غداً ، فأمر لي بمائة مثقال ذهباً ووصلني مري ، وأمر لي بنفقة وكسوة ، وقال : أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام ، فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته بما قال : فقال رسول الله ﷺ : « باد ملكه » ، وأقرأته من مري السلام ، وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق » ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح (٢) .

لقد كان الستة من المهاجرين الأولين ومن الرعيل الأول من المهاجرين ، إلا ما كان من دحية بن خليفة الكلبي الذي أسلم بعد بدر ، وكان الخمسة الآخرون من قريش أو حلفائهم . . . أما مواقف هؤلاء التابع الذين كانوا يحكمون بسلطان غيرهم وسيفه مثل الغساسنة في دمشق ، فقد كانوا على الجاهزية التامة لحرب أهلهم وقومهم إرضاء لسادتهم من الروم أو الفرس ، وحسب الحارث بن أبي شمر أنه سيتقرب إلى قيصر بحرب محمد

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٢ . سيابة : بعض ماء سائب .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٦١ .

ﷺ ، واعتبر بروز رجل عربى ولو فى مكان بعيد تهديداً للملكه ، فقال : من ينتزع منى ملكى ، فقصارى أحلامه أن يحافظ على ملكه بالشام فى ظل قيصر الروم ورضائه ، بينما كان حاجبه يشرق النور فى قلبه بما قرأ فى الإنجيل عن وصف محمد ﷺ ، والحارث حين يجهز الجيوش لغزو المدينة ، يعلم أنه يغزو أهله وعشيرته ، فالأنصار من المدينة تجمعهم إلى غسان أرومة واحدة وأصل واحد ، ومع هذا فهذا كله لا يفيد ، إنما يضيره ألا يرى قيصر غاضباً عليه إطلاقاً ، وعندما أخذ الضوء الأخضر من سيده القيصر بكف يده عن محمد ﷺ ، عاد فسارع ليهادنه ويصالحه ويبعث رسوله مائة مثقال ذهباً ترضية وهدية .

وعودة إلى شجاع بن وهب :

لقد شهدنا شجاع بعد مهمته تلك على رأس سريره إلى السى من أرض عامر ، وشهدنا عراقته فى الإسلام وفى الثقة النبوية ، حيث اختاره رسول الله ﷺ أحد ستة ليلغوا رسائله إلى ملوك الأرض . بقى علينا أن نعلم هذه اللبنة ، ما هو دورها فى البناء الإسلامى ، وما هى كفاءتها العسكرية التى يحدثنا عنها ذو الاختصاص الرائد فى هذا المجال محمود شيت خطاب بقوله :

(على الرغم من تفوق بنى هوازن بالعدد والعُدَّة على سرية شجاع تفوقاً ساحقاً إلا أن شجاعاً استطاع مباغته عدوه بالزمان الذى لم يكونوا يتوقعون أن يهاجموا فيه ، وبالأسلوب الذى كان سريعاً صاعقاً ، فشل بذلك إرادة العدو على القتال ، وشلَّ بذلك تفكيره الصائب ، وتركه يتخبط فى فوضى الارتباك والتردد ، وبذلك استطاع أن يكبِّده خسائر فادحة بالأرواح والأموال والسبى ، وفى وقت خاطف قصير جداً ، والمباغته ، أهم مبدأ من مبادئ الحرب كما هو معروف .

ولم يقتصر شجاع على تطبيق مبدأ المباغته ، بل طبق أكثر مبادئ الحرب الأخرى وأهمها ، فقد طبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، وكان مقصده حسب نص أمر النبى ﷺ الذى أصدره إليه هو : الغارة على بنى هوازن ، فنفذ شجاع هذا المقصد الواضح الجلى ، وأمر رجاله ألا يطاردوا العدو ، حتى لا يتورط رجاله فى مواقف ليست بالحسبان وليست فى صالحهم .

كما طبق مبدأ التعرض ، وكان قائداً تعرضياً من الدرجة الأولى ، بعيداً عن اتخاذ أسلوب الدفاع فى عملياته القتالية ، وقد طبق مبدأ الأمن ، فلم يستطع العدو أن يباغت سريره قبل القتال وفى أثنائه وبعده ، واستطاع هو أن يباغت عدوه فى الزمان والأسلوب كما ذكرنا .

وطبق مبدأ : الاقتصاد بالمجهود ، فأمر بعدم مطاردة العدو حتى لا يبذر فى قواته ،
أو يتكبد خسائر فى الأرواح دون مسوغ .

وطبق مبدأ الأمور الإدارية ، فأمر لرجاله كل ما يحتاجون إليه من مواد إدارية :
بموجب خطة إدارية بسيطة مرنة ، قابلة للتطبيق بسهولة ويسر لخلوها من التعقيد ، وطبق
مبدأ إدامة المعنويات تطبيقاً رائعاً حقاً ، وما كان الهدف من سريره إلا لإدامة معنويات
رجاله بخاصة والمسلمين بعامه ، وإضعاف معنويات بنى هوازن بخاصة والمشركون بعامه .

وكان صاحب قرار سريع صحيح وذا شخصية نادرة ، وإرادة قوية نافذة ، ونفسية لا
تبدل فى حالتى النصر والاندحار ، وكان يعرف نفسيات رجاله ومزاياهم وقابلياتهم يثق
بهم ، ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، وكان موضع ثقة النبى ﷺ وتقديره واعتزازه ، وكان
ذا شخصية قوية مهيمنة ، وقابلة بدنية جيدة لأنه كان شاباً ، وكان من ذوى الماضى
المجيد ، لقد كان شجاع قائداً متميزاً حقاً (١) .

أما صاحب بصرى :

فقد اختاره رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الستة ، يدعو إلى الإسلام وهو أقرب مواقع
الشام إلى المدينة ، فعن عمرو بن الحكم قال : (بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير
الأزدى ثم أحد بنى لهب إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤنة عرض له شرحبيل بن
عمرو الغسانى فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ،
أنا رسول رسول الله ، فأمر به فأوثق رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه صبراً ، ولم يقتل
لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فبلغ رسول ﷺ الخبر فشق عليه ، وندب الناس ، وأخبرهم
بمقتل الحارث ومن قتله ، فأسرع الناس وعسكروا بالجرف .

فشرحبيل بن عمرو الغسانى ، لم يكتف كما فعل ابن أبى شمر بالتهديد بالغزو ،
ولكنه أسرع مباشرة فقتل رسول رسول الله ﷺ ، وهذا القتل يعنى أن قبائل الشمال
العربى سوف تنهار سمعة محمد فيها ، وسوف تفكر بغزو المدينة ، ما لم يتخذ إجراء حاسم
أمام هذا الاعتداء الأثم ، لقد وصل الرسل أرض كسرى فى المدائن ومثلوا عند قيصر ،
وعند النجاشى وفى مصر والشام ، ولم يتعرض أحد لهم بأذى ، بينما يقتل رسول هنا ،
فكان الحل هو الثأر لهذا الرسول ، لقد أخذ رسول الله ﷺ بيعة الرضوان بيعة الموت من
أصحابه فى الحديبية حين بلغه أن رسوله عثمان قد قُتل ، ولو لم يعد عثمان لاشتعلت
حرب أكلت الأخضر واليابس فى مكة ، بعد أن بايع المسلمون على الموت ، ثأراً للرسول
القتيل عثمان ، وليست القضية نوع الشخص الذى تشعل الحرب من أجله هل هو من

(١) قادة النبى : محمود شيت خطاب ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

خواص المهاجرين أم هو رجل عادى من عامة المسلمين ؟ إنما القضية هي جرأة العدو على رسول الله ﷺ بالقتل ، وهذه هي قيمة الإنسان في الإسلام ، يمكن أن يتعرض المسلمون جميعاً للموت إذا قتل واحد منهم ، فالمسلمون « كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ولا بد أن يتداعى الجسد كله لهذا الشهيد ، بينما نجد الأشخاص عند الطغاة مجرد أرقام ، يشعلون حرباً يفنون فيها مئات الآلاف لأجسادهم الشخصية ومطامعهم الذاتية ، أما هنا فالفرد العادى لابد أن يثار له من الجيش كله ، كما أننا نضع بالحسبان مرور عام على احتكاك الفرس ، فعندما جاء رسول باذان إلى رسول الله ﷺ ، كان هذا في جمادى الأولى سنة سبع ، والمسلمون خارجون من حرب مضنية أكلت شبابهم ، وأجهزت على قوتهم حتى حققوا نصر خبير العظيم ، ولن يغامر المصطفى ﷺ بمواجهة إمبراطورية الفرس ، أما اليوم فقد مر عام كامل بعد ذلك التحدى ، وارتفع عدد المسلمين إلى الضعف وأكثر خلال هذا العام ، فإذا كان أعداد الجيش بعد خبير حوالى ١٥٠٠ ، فالجيش الإسلامى اليوم ها هو يجند ثلاثة آلاف مقاتل قبل مؤتة ، وذلك حين دعا رسول الله ﷺ إلى النفير بعد مقتل الحارث الأزدى في جمادى الثانية سنة ثمان ، ولا بد أن تعرف القبائل العربية أن جناب محمد لا يضام ، وحليفه لا يقهر ، ورسوله لا يقتل ، وذلك حين يكون قادراً على ذلك ، واحتمالات امتداد المواجهة مع دولة الروم قائمة ؛ لأن الغساسنة حلفاء الروم في الشمال ، ومع ذلك لم يرض رسول الله ﷺ أن يصبر على هلاك رسول له بمؤتة في أقصى الشام ، وكان الاستعداد قائماً ، حتى ولو لمواجهة الإمبراطورية الرومية ، وكانت غزوة مؤتة على أعقاب هذا الغدر ، وكانت أبعاد هذا التقدم والإيغال للجيش الإسلامى خارج الجزيرة العربية واضحة في ذهن القائد العظيم سيد ولد آدم ، وأنه مقدم على مرحلة جديدة كل الجدة عن سابقتها في طبيعة المواجهة خارج الجزيرة العربية ، وأن انتشار هذا الدين لابد أن يكسر الحدود والقيود ، ويمضى في أرض الله ، فبعد إرسال الرسل إلى الملوك ، لابد من الانطلاق إلى الشعوب في تبليغها الدعوة .

روى محمد بن عمر عن خالد بن يزيد رحمه الله تعالى ، قال : خرج رسول الله ﷺ مشيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف ووقفوا حوله فقال : « اغزوا بسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تعرّضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانيأ ، لا تفرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بيتاً » (١) .

(١) المغازى للواقدي ٧٥٨/٢ .

إنها آداب الحرب المسلمة حيث يأمن الشجر والنخل والبيت ، ويأمن الطفل والمرأة والكبير الفاني ، ويأمن الذى وقف نفسه لعبادة الله ، إنما يقاتل الكافر المقاتل فقط .
وفى الرواية الثانية التى رواها الواقدي نجد نصها فى صحيح الإمام مسلم ، كما رواها .

عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته ، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال :
« اغزوا فى سبيل الله باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله » .

فهذه الوصية قد ابتدأت بهذا الاتجاه منذ مؤنة ، ولم نسمع بها قبل ذلك ، والواقدي ربطها منذ هذا الوقت ، ورسول الله ﷺ يشيخ المسلمين عند ثنية الوداع ، فهو قتال فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وباسم الله ليس باسم قبيلة ، ولا طاغية ، ولا أمة ، ولا مصلحة والقتال لمن كفر بالله .

« اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » فإن من آداب الحرب الإسلامية كذلك أن لا غدر ، ولا غل ، ولا تمثيل بالعدو ، ولا قتل للطفل الوليد، وما هى أهداف الحرب إذن ؟ يعلنها رسول الله ﷺ لصحبه : « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » .

فالإسلام هو الهدف الرئيس من الحرب، ومن يستجب للإسلام فقد عصم دمه وماله ، وليس الهدف قتله والتشفى منه « ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين » ، إنه بعد الإسلام لا بد من تأدية ضريبة هذا الإسلام ، وهو الانضمام إلى المهاجرين والمجتمع الإسلامى ، ودولة الإسلام التى يقودها رسول الله ﷺ : « وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم : « أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين » .

فالمراحل ثلاثة: الإسلام ، والجهاد ، والهجرة ، وأعلها من جميع هؤلاء : الهجرة؛ لأنها تضم الإسلام والجهاد .

« فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم » .

فإن لم يكن الإسلام ومستلزماته ، فالجزية وبيقون على دينهم ، فإن لم يكن الإسلام ولا الجزية فالسيف « فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » ، فهو القتال لمن يكفر بالله ولا يرضى الجزية والإسلام .

إنها مرحلة جديدة كل الجدة ، أطلقت المسلمين فى الأرض مع جمادى الأولى سنة ثمان ، حيث يمضى المسلمون متجاوزين تبوك إلى أرض الشام ، إلى ملك الفساسنة إلى حلفاء الروم ، وهو يدعو قائد الجيش الإسلامى أن يجعل لمن يعاهده ذمة لا ذمة الله ورسوله « وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذمتكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا » (١) .

وقد ورد بالضبط كما هو عند الواقدي ، فبعد حرب خيبر ، ومصالحة اليهود فى أرض العرب ، جاء دور التصارى فى حربهم للمسلمين ومواجهتهم للرسالة ، ووضعت كل احتمالات المواجهة ، وأعلنت الحرب ضد المشركين كل المشركين ، فى سبيل الله من كفر بالله ، باسم الله ، ووضعت البدائل للإسلام بالجزية فقط ، أما الإصرار على الكفر ، فالقتال له هو الحل ، ولتكن الذمم ذمة القائد ، والحكم حكم القائد ، فلا يدرى هل أصاب حكم الله أم لا ؟ وبرزت المحظورات كلها من قطع الشجر وهدم البيت وإغراق النخل ، ومن قتل الصبى والوليد والشيخ الفانى ، ومن قتل الرهبان فى أديرتهم وقد اعتزلوا الطواغيت ، وعاشوا بعيدين عن ظلمهم ، وسلطانهم .

وموضوع الهجرة لا محيد عنه إن كان المسلم الجديد يود أن ينال حقوق المهاجرين ، وإلا فهو من أعراب المسلمين ، فلا بد من رفق المدينة بنماذج من كل قبائل العرب تترى فى محضن النبوة ، وتمتخ من النور الربانى الذى بعثه الله تعالى لخلق ، لكننا لاحظنا أن رسول الله ﷺ قَبِلَ قَبْلَ قليل من خزاعة حلفائه أن يبقوا فى أرضهم ولهم حقوق المهاجرين حتى لا تنتزع القبيلة كلها من مواقعها .

وفد مزينة :

وبعد التمهيص الدقيق نلاحظ أن خزاعة ليست هى أول من أعطى هذه الميزة : « أنتم مهاجرون حيث أنتم » وليست خزاعة أول عاصمة للإسلام بعد المدينة ، إنما سبقها إلى ذلك مزينة ، ولئن جاءت خزاعة فأسلمت فى جمادى الأولى سنة ثمان فى هذا الشهر ، فقد سبقت مزينة ثلاث سنوات ، كما روى ابن سعد فى طبقاته عن كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال :

كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى

رجب سنة خمس (أى قبل غزوة الخندق) فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم ، وقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم ، فرجعوا إلى بلادهم » (١) .

فنحن إذن أمام العاصمة الأولى للإسلام بعد المدينة هى مزينة ، وقد سبقت كل القبائل العربية لذلك ، وجاء أعظم وفد عربى إلى المدينة منها بأربعمائة مسلم ، ففى الرواية الثانية ، عن أبى مسكين ، وعبد الرحمن العجلانى إضاءة لهذا الوفد قالا : قدم على رسول الله ﷺ نفر من مزينة ، منهم خزاعى بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم : بلال بن الحارث ، والنعمان بن مقرن ، وأبو أسماء وأسامة ، وعبيد الله بن بردة ، وعبيد بن درة ، وبشر بن المحتر .

قال محمد بن سعد : وقال غير هشام : ثم إن خزاعياً خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله حسان بن ثابت فقال : اذكر خزاعياً ولا تهجه ، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ خزاعياً رسولا	بأن الذم يغسله الوفاء
وأنت خير عثمان بن عمرو	وأستأها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكان خيراً	إلى خير وأذاك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه	من الأشياء لا تعجز عداً

قال : وعداء هو بطنه الذى هو منه قال : فقام خزاعى فقال : يا قوم ، قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

قالوا : فإننا لا ننبو عليك ، قال : وأسلموا ووفدوا على النبى ﷺ ، ورفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل وهو أخو المغفل أبى عبد الله ابن المغفل وأخو عبد الله ذى البجادين (٢) .

إن هذا المعقل الإسلامى الأول بعد مدينة المصطفى ﷺ حين طلب منه المدد ، وحيث قبلت هجرتهم فى بيوتهم قدم ألف بطل إلى الجيش الإسلامى ، أما المعقل الثانى الذى سبق وتحدثنا عنه من قبل هو معقل خزاعة ، والذى أمد الجيش الإسلامى يوم الفتح بخمسمائة بطل كذلك .

إن المدينة الآن تتأهب للمواجهة بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدى ، وكانت تلك المعازل من مزينة وخزاعة تبعث العشرات والمئات من شبابها إلى جانب شباب المدينة من

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩١/١ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للمحافظ ابن حجر ٩٨/٤/٢ (ت ٤٧٩٥) ، والبيجاد : هو البساط الذى يجلس عليه .

المهاجرين والانصار ، فأمكن تفسير استنفار ثلاثة آلاف من المسلمين فى نداء واحد ، وتضاعف الجيش الإسلامى خلال عام ونصف فى سرية ليس فيها رسول الله ﷺ ، فكم بلغ عدد المسلمين إذن داخل المدينة ، إضافة إلى سرية مؤتة التى بلغت ثلاثة آلاف تجوب الأرض العربية المتاخمة للروم .

لقد كان شهر جمادى الأولى سنة ثمان شهراً فاصلاً فى الحركة النبوية ، فى تحديد الاتجاه ، وفى نوعية الاتجاه ، وبتحديد الأهداف أوضح وأوضح ، والانتقال من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى الانطلاق منها نحو العرب للدعوة إلى الله عز وجل ، « قاتلوا فى سبيل الله بسم الله من كفر بالله » .

أول طلائع المزيين :

ولعل أول طليعة من المزيين كان عبد الله ذو البجادين ، وكان هذا قبل أحد (كان عبد الله رجلاً من مزينة وهو ذو البجادين يتيماً فى حجر عمه ، وكان محسناً له فبلغ عمه أنه أسلم فتزع منه كل شيء أعطاه حتى جرّده من ثوبه ، فأتى أمه ، فقطعت له بجاداً لها باثنتين ، فاتزر نصفاً وارتنى نصفاً ، ثم أصبح فقال له رسول الله ﷺ : « أنت عبد الله ذو البجادين فالتزم بابى » ، فلزم بابه وكان يرفع صوته بالذكر فقال عمر : أمراء هو ؟ قال : « بل هو أحد الأواهين » ، قال التيمي : وكان ابن مسعود يحدث قال : قمت فى جوف الليل فى غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا ذو البجادين قد مات ، فإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ فى حفرته ، فلما دفناه قال : « اللهم إنى أمسيت عنه راضياً فأرض عنه » رواه البغوى من هذا الوجه ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً . . . وروى عمر بن شبة قال : لم ينزل رسول الله ﷺ فى قبر أحد إلا خمسة منهم : عبد الله المزنى ذو البجادين قال : وكان رسول الله ﷺ لما هاجر وعزفت عليه الطريق فأبصره ذو البجادين فقال لأبيه : دعنى أدله على الطريق ، فأبى ونزع ثيابه عنه وتركه عرياناً ، فاتخذ بجاداً من شعر وجعله على عورته ثم لحقهم ، فأخذ بزمام ناقة النبى ﷺ وأخذ يرتجز .

هذا أبو القاسم فاستقيمى تعرضى مدارجاً وسومى

تعرض الجوزاء فى النجوم (١)

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للمحافظ ابن حجر ٩٨/٤/٢ (ت ٤٧٩٥) والبجاد : هو البساط الذى يجلس عليه .

غزوة مؤتة جهاد وتربية

قبل المعركة :

١ - (عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر ، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة) (١) .

٢ - (حدثنا الواقدي قال : حدثنا ربيعة بن عثمان عن عمرو بن الحكم قال : ... فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابه ، وجاء النعمان بن فنحص اليهودي ، فوقف على رسول الله ﷺ مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة ، فليرتض المسلمون رجلاً فليجعلوه عليهم » ، فقال النعمان ابن فنحص : أبا القاسم ، إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً ، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا : إن أصيب فلان ، فلو سمى مائة أصيبوا جميعاً ، ثم جعل اليهودي يقول لزيد : اعهد ، فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً ، فقال زيد : فأشهد أنه نبي صادق بار) .

٣ - (وعقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعينوا بالله تعالى عليهم وقتلوه) (٢) .

وروى الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء ، وقال : « عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » ، قال : فوثب جعفر رضي الله عنه ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيداً ، فقال رسول الله ﷺ : « امض فإنك لا تدري أي ذلك خير » (٣) .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : بعث النبي ﷺ بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال النبي ﷺ : « إن تطعنوا في إمارته ،

(٢) المغازي للواقدي ١٥٦/٢ .

(١) البخاري ١٨٢/٥/٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٢٢٩ ، وهي في مسند أحمد ٥ / ٣٠٠ .

فقد كنتم تطمنون في إمارة أبيه من قبل ، وإيم الله إن كان خليقاً بالإمارة ، وإن كان من أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ من بعده « (١) .

٤ - (قال عروة بن الزبير : فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ، ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، فلما ودّع عبد الله ابن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم ؛ ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) [مريم] ، فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورد (٢) ، فقال المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردّكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي	يا أرشد الله من غار وقد رشدا (٣)

٥ - (قال ابن إسحاق : ثم إن القوم تهيؤوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودّعه ثم قال :

فثبت الله ما آتاك من حسن	تثيت موسى ونصرّا كالذى نصروا
إنى تفرّست فيك الخيل نافلة	الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله	والوجه منك فقد أزرى به القدر

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيع و خليل (٤)

٦ - (وروى الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ بعث إلى مؤتة فاستعمل زيداً ، وذكر الحديث وفيه ، فتخلف ابن رواحة ، فجمع مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ رآه ، فقال : « ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ » قال : أردت أن أصلى معك الجمعة ثم ألحقهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم » ، وفى لفظ : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير

(١) البخارى ٢ / ٢٩ / ٥ ، مناقب زيد بن حارثة .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٢٣٠ ، والسيرة لابن هشام ٢ / ٨٢٩ .

(٣ ، ٤) المصدر نفسه ، ٢ / ٨٢٩ ، ٨٣٠ .

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : (ثم مضى الناس ، قال محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن زيد بن أرقم قال : كنت يتيمًا في حجر عبد الله بن رواحة ، فلم أر وليَّ يتيم كان خيرًا منه ، فخرجنا إلى مؤتة ، وصَّب بى وصبيت به ، فكان يردفنى خلف رحله ، فقال ذات ليلة - وهو على راحلته بين شعبتى الرحل ، وهو يتمثل أبيات شعر :

إذا بلغتني وحملت رحلى	مسيرة أربع بعد الحساء (٢)
فزادك أنعم (٣) وخلاك ذم	ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وآب المسلمون وغادرونى	بأرض الشام مشهور الشواء
هنالك لا أبأ لى طلع نخلى	ولا بعلى (٤) أسافلها رواء (٥)

فلما سمعت هذه الآيات بكيت ، فخفقتى بيده وقال : ما يضرك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة فاستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وأحزانها وأحداثها ، ويرجع بين شعبتى الرحل (٦) ، ثم نزل نزلة من الليل فصلى ركعتين وعاقبهما دعاء طويلاً ثم قال لى : يا غلام ، فقلت : لبيك ، قال : هـى إن شاء الله الشهادة (٧) .

٧- (ومضى المسلمون من المدينة ، فسمع العدو بمسيرهم إليهم قبل أن يتنهبوا إلى مقتل الحارث بن عمير ، فلما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا الجموع ، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف ، وقدم الطلائع أمامه ، فلما نزل المسلمون وادى القرى بعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين من المشركين فاقتتلوا وانكشف أصحاب سدوس ، وقد قتل ، فشخص أخوه ، ومضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام ، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلى عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له : مالك بن رافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا : نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بكثرة عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له ، فشجع

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٢/٦ ، ومسند أحمد ٢٢٤/١ ، والترمذى ح (٥٢٧) .

(٢) الحساء : جمع حسى وهو ماء يغور فى الرمل وإذا بحث عنه وجد .

(٣) أنعم : جمع نعمة وهى الإحسان . (٤) البعل : الذى يشرب بعروقه من الأرض .

(٥) أسافلها رواء : ممتعة من الماء . (٦) شعبتى الرحل : طرفاه المقدم والمؤخر .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣١/٢ ، والمغازى للواقدي ٧٥٩ / ٢ .

الناس عبد الله بن رواحة فقال : (يا قوم ، والله إن التى تكروهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا عدة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة ، وليست بشر المنزلتين ، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة ، فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مشارف ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعباً لهم المسلمون ، وروى أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم ، ومحمد بن القراب فى تاريخه عن بردع بن زيد ، قال : قدم علينا وفد رسول الله ﷺ إلى مؤتة ، وعليهم زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وخرج معهم منا عشرة إلى مؤتة يقاتلون معهم ، قد كان رسول الله ﷺ نهاهم أن يأتوا مؤتة ، فركبت القوم ضباباً ، فلم يبصروا حتى أصبحوا على مؤتة .

وروى محمد بن عمر عن أبى هريرة قال : شهدت مؤتة فلما دنا العدو منا رأينا ما لا قبل لنا به من العَدَد والعدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم ، قال : إنك لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم نُصِر بالكثرة ، قال ابن إسحاق : وتعباً للمسلمون للمشركين ، فجعلوا على ميمتهم رجلاً من عُدرة اسمه قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له : عباة بن مالك (قال ابن هشام : عباة بن مالك)^(١) .

* * *

١ - لأول مرة يحدد رسول الله ﷺ ثلاثة أمراء لسرية من سراياه ، فمن قبل كان يحدد أمير السرية فقط ، ولأول مرة تجتمع هذه الآلاف المؤلفة من المسلمين فى مثل هذا الجيش ، إنه أكبر من أى جيش قاده رسول الله ﷺ .

والملاحظ كذلك أن جنوده ومعظمهم من الشباب الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً ، فلم يُذكر به من قادة المهاجرين والأنصار أحد ، والأعلام المعروفون فيه هم قاداته الثلاثة ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنه الذى لم يبلغ العشرين من العمر بعد ، وثابت بن أقرم البدرى الذى سلّم الراية لخالد بن الوليد ، وخالد بن الوليد الذى مرّ على إسلامه قرابة ثلاثة أشهر ، حتى أن البطليّن اللذين كانا على ميمنة المسلمين وميسرتهم ، لم تعرف عنهم كتب التراجم إلا أنهما كانا يقودان ميمنة المسلمين وميسرتهم ، وأبو هريرة الدوسى الذى انضم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٣/٦ - ٢٣٥ .

إلى الإسلام منذ خير أى منذ سنة ونيف ، ولو تابعنا كل جزئيات المعركة وتفصيلها لم يبرز بين أعيننا إلا هذه الأسماء ، ويمكن القول : إن جيش مؤتة جيش من شباب الإسلام الذى دخل جديداً فى هذا الدين ، وهذه ظاهرة كذلك لم تكن معروفة من قبل ، بل كان شيوخ المهاجرين والأنصار وشبابهم يشاركون فيها ، ولو كانت السرية لمئات عدة لا لثلاثة آلاف .

لكننا حين نراجع سجل الشهداء فى مؤتة ، وكانوا اثنى عشر شهيداً ، نجد ثمانية منهم من أهل بدر على الأخذ بكل الروايات وهم :

- وهب بن سعد بن أبى سرح .
- عباد بن قيس .
- الحارث بن النعمان .
- سراقه بن عمرو .
- سويد بن عمرو .
- زيد بن عبيد .
- عبد الله بن الربيع .
- معاذ بن ماعص .

وجميعهم من الأنصار أو حلفائهم إلا أولهم وهب بن سعد بن أبى سرح الفهري القرشى ، وبإضافة خزيمه بن ثابت والأمراء الثلاثة ، يرتفع الرعيل الأول الذى حفظنا أسماءهم فى مؤتة إلى اثنى عشر، استشهد منهم أحد عشر ، وادخر الله تعالى خزيمه فيما بعد ، ولو بحثنا عنهم فى كتب التراجم لم نشهد أكثر من أنهم شهدوا بدرًا واستشهدوا بمؤتة^(١).

هذه النماذج الصامته من الرعيل الأول التى ذُكِرَتْ ؛ لأنها استشهدت وعُرفت بشهادتها قد يكون لها أمثال حضرت مؤتة ، ولم تُعرف ، أصبحت تمثل مجتمع القادة بالنسبة للجيل الجديد ، وغدا هذا الجيل بآلافه ، غنياً بالنماذج القيادية التى تربيته فى المعركة وخارج المعركة، تعلمه الإسلام، وتعلمه الثبات، وتعلمه الخلق الإسلامى العظيم، وانتقلت مهمة التربية بعد هذا التضخم فى العدد إلى خريجي مدرسة النبوة فى كل مكان، وفى كل ساحة ، وفى كل قبيلة ، مثل الأعلام الخالدة التى يرنو إليها الجيل الجديد بالتعظيم والاقتداء والتأسى .

٢- ووقفه مع القادة الثلاثة ، الذين اختارهم رسول الله ﷺ أمراء لهذه السرايا :

فهذا زيد بن حارثة رضي الله عنه قائد الجيوش ، وقائد السرايا التسعة الذى جاب الأرض العربية كلها شرقها ومغربها ، ها هو الآن يعد للمهمة الجديدة ، لقيادة هذه السرية خارج

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٤٤/٦ ، ٢٤٥ ، أما الذين لم يستشهدوا وذكروا من أهل بدر فهم : ثابت بن أقرم ، وخزيمة بن ثابت ، وأبى اليسر الأنصارى .

الجزيرة ، وقد يلقي الروم إضافة إلى العرب خارج الجزيرة ، وهو حبيب رسول الله ﷺ ، وقرّة عينه الذي رباه منذ صغره ، وأخذ من رحيق النبوة ما أخذ خلال ثلاثين عاماً أو تزيد قبل البعثة وبعد البعثة .

وتشرف - قبل إلغاء التبنّي في الإسلام - أن يكون زيد بن محمد ﷺ ، ولرفع حالة القداسة عن كل إنسان ، ينظر الناس إليه بعدها أنه ابن سيد ولد آدم ، جاء إلغاء التبنّي فيما جاء من أسباب أخرى ، كما يقول عز وجل : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾ [الأحزاب] ، وما ألغيت هذه المأثرة حتى فاز بأنه الصحابي الوحيد الذي ذكر باسمه في القرآن الكريم ، وبقي يحمل لقب مولى رسول الله ﷺ وحجّه ، وأعلن رسول الله ﷺ صلاحيته للإمرة بقوله : « وإيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلى ... » ، فماذا نتحدث عنه بعد أن زكاه سيد الخلق هذه التزكية .

إنه القائد الصامت الذي لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه رجل المهمات الصعبة ، حتى أن جعفر بن أبي طالب ؓ ابن عم رسول الله ﷺ ، والذي عاش أميراً طيلة حياته في الحبشة وهو أشبه الناس خلقاً وخلُقاً برسول الله ﷺ جعله رسول الله القائد الثاني بعد زيد بن حارثة ، حتى لم يتمالك نفسه أن قال حين أعلنت الإمرة : (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما كنت أهرب أن تستعمل عليّ زيداً) وهو الهاشمي المطلبى وأميره مولى رسول الله ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام - كما ورد في الصحيح : « امض فإنك لا تدري أى ذلك خير » .

وجعفر ؓ يستلم الإمرة ولم يخض حرباً واحدة طيلة حياته ، لقد أمضى عمره داعية إلى الله عز وجل في الحبشة ، وحضر بعد فتح خيبر ، ولم نقرأ أنه كُلف بقيادة سرية معينة أو شارك في حرب ، وكل الذي نعرفه أنه كان مع رسول الله ﷺ في عمرة القضية حين اختلف مع أميره زيد وأخيه عليّ ؓ في رعاية عمارة بنت حمزة ؓ ، وفاز بأعلى لقب عنده : « أما جعفر فيشبه خلقى وخلقى » ، وهذا اللقب لا بد له من ثمن ، وثمن فادح ، هو أن يكون القائد الشهيد في المعركة في تخوم اللقاء ، من أقصى الجنوب في الحبشة داعية إلى الله إلى أقصى الشمال في الشام مجاهداً في سبيل الله .

لقد اختار رسول الله ﷺ قرّة عينه زيداً وجعفرًا لهذه المعركة الهائلة لقيادة ثلاثة آلاف من المسلمين ، وهما اللذان تربيا على عينه ، وليس لهما ثالثاً إلا على ؓ الذي لم يدع معركة إلا شارك في شرف حضورها ، وأصبح علماً في المعارك لا يشق له غبار .

وجعفر عليه السلام أكبر من على بعشر سنين ، وبلغ من حب رسول الله ﷺ وسروره به أنه وجد رؤيته تعادل فتح خيبر : « واللّه ما أدري بأيهما أنا أسر بقدم جعفر أم بفتح خيبر » ، ومع كل هذا الحب وهذا السرور فلم يحتفظ بجعفر عنده من عيون الحساد ، ويبقى ينظر إليه بكرة وعشياً ، إنما يبعثه لاخطر حرب يمكن أن يخوضها المسلمون إلى اليوم .

وثالث القادة عبد الله بن رواحة ، فهو ثالث شعراء الرسول ﷺ ، ولم تغف هذه المهمة الإعلامية الخطيرة من مهمته في الإمرة الصعبة إلى الشام ، وهو أحد النقباء الاثني عشر ، ولم تغف هذه المسؤولية السياسية من قيادة جيش مؤتة ، وهو الذي حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

وسنمضي مع كل خفقات قلبه ووجيب فؤاده فيما بعد ، لكننا نقف مع هذا اليهودي نعمان بن فنحص الذي حضر هذا التكليف :

« أمير القوم زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون رجلاً منهم فليجعلوه عليهم » (١) .

لقد أكد هذا اليهودي - حسب علمه - في الكتاب أن هؤلاء الثلاثة يستشهدون فيما يعلمه من سنة الأنبياء من قبل ، وقد عرض الأمر بصورة فيها شيء من الوقاحة ، (إن كنت نبياً) ، ورسول الله ﷺ لم يطرده من المجلس ، وسمع الأمراء الثلاثة قوله ، وصمت رسول الله ﷺ ، ولو كان كذباً لسفّه رسول الله ﷺ رأيه ، وأدرك الأمراء أنهم ماضون لمصارعهم ، فما غير هذا من قلوبهم حتى أن زيداً عليه السلام يقول :

(فأشهد أنه رسول صادق بار) .

وراح المسلمون يودعون الأمراء قائلين : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين .

فكان جواب ابن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة	بحرية تقذف الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي	يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

فهو لا يشارك في رغبتهم بعودته إليهم غائماً ، بل يحلم بالشهادة في مسيره هذا ، من خلال ضربة واسعة يسيل دمه كالزبد ، أو طعنة برمح تلهب الأحشاء وتجهز عليه ، تقذف الأحشاء والكبد ، حتى يعلم الجليل اللاحق ما فعله الجليل السابق ، وما قدمه من

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٢٨/٦ .

تضحيات ودماء لنصر هذا الدين ، ويعلمون أن الرشد الحقيقي هو فى تقديم الأرواح والمهج فى سبيل الله .

وحين جرت دموعه على خديه تراءى لمن حوله انفعاله من الغربة ، ولوعة الفراق للأهل والزوج والولد الحبيب ، فكان لابد أن يبين فى مثل هذه اللحظات المؤثرة أسباب تأثره وبكائه على فراق الأحبة ، لينقلنا إلى دنيا غير دنيانا ، وعالم غير عالمنا ، هو عالم اليوم الآخر الذى يعيشه ابن راحة رضي الله عنه .

والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم ؛ ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يتلو آية من كتاب الله : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) [مريم] ، فكيف لى بالصدر بعد الورود .

إنه وهو الأمير لهذه الأمة لابد أن يرقى بمشاعرها إلى مستوى الحلم بالشهادة ، وإلى مستوى الإشفاق من لقاء الله ، والخوف من عذابه .

لكن أين نشهد عواطفه التى تختلج بين ضلوعه؟ نشهدها فى فراق الحبيب المصطفى ﷺ ، وكيف سيمضى بعيداً عنه ؟ وكيف سيمضى شهيداً إلى ربه ؟ فيفوته متابعة الجهاد مع المصطفى الحبيب - صلوات الله عليه - فراح ينشد :

فثبت الله ما آتاك من حسن	تثبت موسى ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرست فىك الخير نافلة	فراصة خالفت فىك الذى نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله	والوجه منى فقد أزرى به القدر

لقد تركها كلمة لنا للأجيال القادمة والقرون المتلاحقة ، وقد ظمئت قلوبنا إلى رؤيا الحبيب المصطفى ؛ ولكننا لم نحرم نوافله وعطاياه التى نعيش إلى اليوم فى نعيمها ، وما هذا الحديث عن مؤنة وشهادتها وأمرائها إلا من هذه النوافل والعطايا ، وما هذا الإسلام الذى نحيا له ونموت من أجله ، وهذه السيرة الزكية الطاهرة إلا من نوافله ﷺ ، وإن نحن حرمانا رؤية وجهه فى الدنيا فترجوا الله تعالى أن لا نحرمها فى الآخرة ، والكافرون الذين حرّموا نوافله ، وحرّموا وجهه ، قد أزرى بهم القدر ، فهم أصغر وأحقّر شأنًا فى هذه الحياة من الذباب ، وإذا كان تفاعلنا مع هذه الآيات بعد خمسة عشر قرناً بهذا التفاعل ، فكيف بذلك الجيل الظامئ للشهادة ، وهو يسمع هذه الأناشيد الخالدة تعبئ قوته ، وتمده بالذخيرة الحية فى قلبه .

وها هو عبد الله بن راحة بين الأخذ والعطاء ، إنه يعطى ، وهو يفجر مشاعره الحرى نحو حبيبه - عليه الصلاة والسلام - وهو يأخذ مدداً يكفيه ، فيتخلف عن الجيش

المكلف بقيادته من أجل صلاة الجمعة يجمعها مع رسول الله ﷺ ، وكان درسًا من أسمى الدروس في حياته التي بقي منها أيام يتلقاها ، فالجيش الذي نفَّذ المهمة ، ومضى للمعركة ، خير منه ، وقد جلس يحضر الجمعة مع رسول الله ﷺ ، وإن كان لا شيء أعظم من الاقتداء بالمصطفى في صلاة الجمعة ، وسماع خطبه ومواظبه ؛ لكن هذا لغير المكلفين بالجهاد ، أما الذين اختاروا الجهاد ، وسبقوا ابن رواحة بغدوة واحدة ، فقد جاءه الجواب بعد قوله :

- أردت أن أصلى معك الجمعة ثم ألحقهم ؟ وهيئات هيئات فقد سبق .

- « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم » .

فقد فاتته اللحاق بهذه الغدوة التي سُبِق فيها ، وتخلف عن أجورهم .

و« لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

ولغدوة في سبيل الله خير من رؤية رسول الله ﷺ ، والصلاة خلفه ، والاقتداء به ، ولا مقارنة ، فهي خير من الدنيا كل الدنيا وما فيها ، ولو كان فيها مسجد المصطفى والصلاة خلفه ، واستماع مواظبه ، فالغدوة أو الروحة تفوق هذا كله .

ومضى ليلحق جسدًا بجيشه الذي اختير أميرًا له ، وينقل لهذا الجيش هذا الحديث ، فيشعر القوم أن ما هم عليه أفضل من كل شيء ، وأفضل من التخلف لسماع الموعظة ، والجمعة مع رسول الله ﷺ ، وأنهم سبقوا أميرهم بأجورهم بعد أن فاتته غدوة معهم .

إنه النور ينطلق فيغمر هذا الركب ويضيء له دربه في تيه الصحراء التي سيقطعها متحرقة أقدامه ، مصهورة أجساده ، لا ليقطع كيلاً أو كيلين ، بل ليقطع تحت هذا اللظى ، وفي قلب هذا اللهب ما ينوف عن ألف وخمسمائة كيلو متر ، مجاهدًا في سبيل الله .

إنها السرية الأشق ، السرية الأبعد مدى ، السرية الأضخم مواجهة ، السرية الأكثر هولاً وخطرًا وتضحية - إلى مؤتة ، لماذا ؟ للثأر لمصرع الحارث بن عمير الأزدي ، نقطع هذه الفيافي والقفار ، لقد قطعناها بالسيارات المكيفة والماء المبرد ، وطعام اللحم والدسم ، واحتجنا أن نستجم أيامًا من وعثائها ، فكيف بهذا الجيش يقطعها في شهر أو أكثر ، ماشيًا على أقدامه زاده التمر ، وتكيفه الشمس المحرقة ، وظله النار المتوهجة ، لكن في قلبه العامر بالإيمان الماضي إلى هدفه ، ما ينسيه كل مشاق حياته .

ولئن غنى ابن رواحة للمسلمين بحلم الضربة ذات الفراغ ، والطعنة المجهزة بيدي حران ، فلا بد أن تعود ظلال الشهادة ثانية إلى أحلامه ، فيخاطب ربيبه زيد بن أرقم ، حيث لا ثالث لهما في نجوى الحبيب إلى الحبيب .

إذا أدبنتى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاكِ ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى

فكل هذه النعم ، والخلو من الذم منوط بالشهادة كذلك ، حيث لا رجوع بعدها إلى الأهل ، فلا بد أن يبيل ثرى الشام من اليوم النجيع الطاهر من يثرب ، وتبقى العلامة العلامة : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦) [النحل] .

وجاء المؤمنون وغادرونى بأرض الشام مُشْتَهَى الثواء
وانقطعت الأنساب كلها إلا نسب الرحمن ، وثيق العرى الذى يربط أحباب الله تعالى بخالقهم وقد تقطعت الأغيار ، وزالت الحجب :

وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
فهؤلاء هم الشهداء الذين اختارهم الله تعالى من خلقه عندها لا هم ، ولا وصب ، ولا عمل بحرث ولا زرع ولا ضرع ، إنما الخلود مع الله تعالى فى جناته ، وتنتهى هموم الدنيا وأوصابها وغمومها .

هنالك لا أبألى طلع بعلى ولا نخل أسافلها رواء
وكان الأمر عند زيد قد تجسد أمامه واقفاً حياً ، فلم يحس إلا بدموعه وقد طفرت من عينيه ، فقد عاد بين شعبتى الرحل وحيداً دون ابن رواحة الذى يعيش فى كنفه ، وجاءه الجواب مع انهماك دموعه .

(ما عليك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة ، فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وترجع بين شعبتى الرحل) .

وآن الاوان ليعرُسَ الركب ، وترتاح الإبل من جهدها العنيف فتاداه شاعرنا الشهيد :

يا زيد زيد اليعملات الذبلى تطاول الليل هديت فانزل

ومن الأحلام الوردية إلى الواقع الرهيب فما هم فى مشارف ، وعند حدود مؤتة ، ويا لهول ما يرون ، انتهى التغنى بالأحلام أمام الكتائب مثل الجبال من العرب والروم تجمعت لإفناء هذه الآلاف الثلاثة .

وأيّن جمع الأحزاب وقريظة من هذا الجمع ؟ فما الأحزاب وقريظة إلا قطرة فى بحر هذا العدو ، وإذا كان جمع الأحزاب وقريظة قال الله تعالى عنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ

الْأَنْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾ [الاحزاب] .

وهذا العدو الذى امامهم ليس عشرة آلاف ، إنما عشرين ضعفاً لذلك الجيش إنه مائتى ألف مقاتل من العرب والروم يقابلها ثلاثة آلاف أغلبهم من الشباب الجديد حديثى الإسلام ، فعلام يعتمد هؤلاء ، وأمامهم تلك المئات المؤلفة .

وخلا القادة لبعضهم ، أيقتلون ها هنا جميعاً ، ويدفنون بحيث لا يدرى بهم أحد ، أم يتجنبوا المعركة ريثما يتمكنوا من التغلب من قبضة هذا العدو ، أم يدعون الأمر لرسول الله ﷺ يحدد لهم المسار المطلوب ، لقد خاضوا حرباً قبل هذه ، ولم يلقوا مثل يوم الاحزاب ويوم بنى قريظة ، وأما الآن ، فعلام يقيسون هذا اللقاء ؟ على أى حرب ، وأى غزوة ، وأية سرية ؟

(وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لحم وجذام وقبائل قضاة من بلقين وبهراء وبلى ، ومن لهؤلاء ، لقد عاينوهم الآن ، وليس الخبر كالخبر .

القادة الثلاثة مع أمثالهم من أولى الرؤى عليهم أن يتخذوا القرار المصيرى لهذه الآلاف الثلاثة ، لقد تبيلبل أمرهم حتى ليمضوا الليلتين يفكرون فى أمرهم ، والبصير بالعواقب لابد أن يعد للأمر عدته ، ووقف الليل الغريد عبد الله بن رواحة الذى غنى للشهادة والجهاد ما غنى طيلة حياته ، والذى أبى أن يعيش إلى حلمه ، وأبى أن يتعامل مع واقعه ، إنه فى الأرض وجناحه يرفرفان فى الجنة ، فقال نثراً هز المشاعر والعقول معاً :

(يا قوم ، والله إن التى تكرهون ، للتى خرجتم تطلبون الشهادة) ، فإذا تحققت الاحلام تهربون منها .

(وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به) .

فهم شهداء هذا الدين أحياء وميتين .

(فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسين ، النصر أو الشهادة ، وليست بشر المتزلتين) .

ورجح رأى الشاعر الحالم على رأى البصير القائم ، واندفعت هذه الجموع كلها ، وقد رأت الشهادة فى عينها وما بينها وبين الجنة إلا أن يقتلهم هؤلاء ، وطفى حماس الشباب على لغة العقل ، ومن ورائه من يؤجج لهيبه ، ويغذى وقوده ، عبد الله بن رواحة ، أحد الأمراء الثلاثة ، ولم يعد مجال للنقاش ، فقد مضى السيل بالناس إلى الشهادة .

إن فى القوم خالد بن الوليد ، وهل يجزئ على الكلام بين يدي من هو أسبق سابقة ،

وأعرق فضلاً منه ، وهو يستحى أن يفوه بكلمة واحدة قد تفسر بأنها تخذيل للقوم عن المواجهة ، وهو ابن الحرب وجزيلها المحكك وعشيقها المرجب ، فالصراع مع العدو مهته ، وهذا جعفر بجواره ، ماذا يقول ولم يخض من قبل حرباً واحدة مع رسول الله ﷺ ؟ أيتكلم ، والمهاجرون والأنصار والسابقون يقرون برأى ابن رواحة ، وزيد بن حارثة صاحب القرار المصيرى مثل خالد بن الوليد عراقة فى الحرب وحنكته فى المواجهة لا يرى خطأ فى رأى مثل هذه المواجهة ، فهو فى النهاية صاحب القرار الاول وليس الاخير ؟ فالشهادة هى أقرب متناول ، ولم يبعث بهم رسول الله ﷺ إلا وهو عارف بمن يواجهون ومن يصارعون ، ولا ندرى إن اختلفت الآراء ، لكن جيش الشباب الذى طفى عليه الحماس ، وجد فى رأى ابن رواحة ما يغذى شهوته للقتال ، وصبوته فى الموت ولقاء الكفار، وهذه فرصة خالد بن الوليد أن يكفر عن كل صده عن سبيل الله بالشهادة ، فهذا أول لقاء له مع أعداء الله .

ومضى الناس يقولون : القول ما قال ابن رواحة ، والملاحظ أن هذه الروح قد سادت لدى الجيش كله ، ففى رواية الواقدي عن أبى هريرة قال : شهدت مؤتة فلما دنا العدو منا رأينا ما لا قبل لأحد به من العدد والعُد والسلاح والكراع والديباج والحزير المذهب، فبرق بصرى فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعاً كثيرة !؟ قلت : نعم ، قال : إنك لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم نُنصر بالكثرة ، وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشهد أول معركة مع المسلمين، فقد حضر بعد خيبر إلى المدينة ، ولم يرد اسمه فى سرية من السرايا التى كانت بعد خيبر، وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال، وثابت بن أقرم شهد بدرًا والمشاهد كلها وشهد مؤتة، فهو ربيب الحرب وابنها فقدّم خبرته لأبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوافد الجديد بأن المسلمين لا يقاتلوا عدوهم بالعدد والكثرة ، ولم يُنصروا مرة لأنهم أكثر من عدوهم ، وبدر شاهد على ذلك ، لكن فى المنطق البشرى ، لا يعقل أن تتم هذه المواجهة بين جيشين بهذه الأعداد ، ويخرج أحد سالمًا من المسلمين ، وقد شهدنا بعض السرايا كسرية كعب بن عمير الغفارى وسرية ابن أبى العوجاء الاسلمى ، وسرية بثر معونة ، وسرية الرجيع أن المسلمين قتلوا جميعاً واستشهدوا ، وهذا شرف كبير لهم ، إذ أنهم قاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم .

لكن العناية الربانية مع هذه السرية ، التى تريد لها كما أرادت لبدر ، أن توقع على يديها نصراً مؤزراً يرهب العدو الذى يطمع فى غزو المدينة كل لحظة ، وكما كانت بدر أول لقاء مع المشركين العرب ، فقد كانت مؤتة أول لقاء مع الروم ، وكما أن اللقاء مع العدو ، كان قدراً ربانيًا ، فإن اللقاء مع الروم كان قدراً ربانيًا كذلك ، ولاشك أن هناك معجزة لرسول ﷺ فيها كان المسلمون ستارًا لقدر الله عز وجل ، فلم يحدث أن نُقلت

المعركة وأرضها لرسول الله ﷺ فى سرية من سراياه إلا هذه المعركة ، ولهذا كثيراً ما يعنون المؤرخون لمؤتة بـ : غزوة مؤتة علماً أن رسول الله ﷺ لم يحضرها ، لكن رفعها له كأنما حضرها ، وتسمية خالد بن الوليد بسيف الله فى هذه المعركة لم ترد لأحد إلا له ، وسيف الله تعالى لا يقهر ، ولكن الحديد مع هذه العصبة المسلمة هو أن هذا النصر تحقق بالجهد البشرى دون بروز جند الله من الملائكة أو الريح أو شىء آخر ، اللهم إلا إذا كان إلقاء الرعب فى قلب العدو من الله تعالى هو الإضافة الجديدة .

فى المعركة

قال ابن عتبة وابن إسحاق^(١) ومحمد بن عمر^(٢) : ثم التقى الناس واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها ثم قاتل القوم حتى قُتل فكان جعفر أول رجل من المسلمين عرقب فرساً له فى سبيل الله .

(وروى ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : حدثنى أبى الذى أرضعنى ، وكان أحد بنى مرة بن عوف ، وكان فى غزوة مؤتة قال : والله لكأنى أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ، ثم قاتل حتى قُتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها)^(٣)

وهذا الحديث رواه أبو داود من طريق ابن إسحاق ولم يذكر الشعر ، وفى حديث أبى عامر رضي الله عنه عند ابن سعد أن جعفرًا رضي الله عنه لبس السلاح ثم حمل على القوم حتى إذا هم أن يخالطهم رجع فَوَحَّشَ بالسلاح ، ثم حمل على العدو وطاعن حتى قتل ، قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء ، ويقال : (إن

(٢) مغازى الواقدي ٢/ ٧٦١ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٢ .

رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين (١) .

وأخرج البخاري (عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره ، يعنى في ظهره) (٢) .

وفي رواية أخرى له قال : (كنت في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية) (٣) .

قال ابن إسحاق : (وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : حدثني أبي الذي أَرْضَعَنِي ، وكان أحد بني مرة بن عوف قال : فلما قُتِلَ جعفر أخذ ابن رواحة الراية ، ثم تقدّم بها وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه	لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه	مالي أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه	هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلنى فعلهما هديت

يريد صاحبيه زيداً وجعفرًا : ثم نزل ، فلما نزل أتاه ابن عم بعرق من لحم فقال : شدُّ بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة (٤) في ناحية الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ، ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتِلَ (٥) .

(ووقع اللواء من يده فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم بعض الناس فجعل قطبة بن عامر يصيح يا قوم يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً ، قال سعيد بن أبي هلال : وبلغني أن زيداً وجعفرًا وعبد الله بن رواحة دفنوا في حفرة واحدة) (٦)

(١) وذكر السهيلي عن عقر جعفر الفرس قال : وأما عقر جعفر فرسه ، ولم يعب ذلك عليه أحد فدلَّ ذلك على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو ، فيقاتل عليها المسلمين ، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم ، وقتلها عبثاً . (الروض الأنف للسهيلي ٨٠ / ٤ / ٢) .

(٢) البخاري ١٨٣ / ٥ / ٢ .

(٣) البخاري ١٨٣ / ٥ / ٢ ، وسبب ذلك الخلاف أن الرواية الأولى تشير إلى ما في صدره ، بينما تشير الرواية الثانية إلى ما في جسده حين اكتنفه القوم من كل جانب .

(٤) الحطمة : صوت رحام الناس وحطم بعضهم بعضاً بالسيوف .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٩ / ٢ . سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٣٧ / ٦ .

وفى حديث أبى عامر رضي الله عنه عند ابن سعد (أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما قتل انهزم الناس أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعاً ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال : إلى أيها الناس ، فاجتمع إليه الناس حتى كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، فقال له خالد : لا آخذه منك أنت أحق به فقال الأنصارى : ما أخذته إلا لك (١) .

تأثير خالد :

(قال ابن إسحاق : ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بنى العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد (٢) .

وروى الطبراني عن أبى اليسر الأنصارى رضي الله عنه قال : (أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد الله بن رواحة فدفعت إلى خالد وقال له ثابت بن أقرم : أنت أعلم بالقتال مني (٣) .

(فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس (٤) .

هكذا ذكر ابن إسحاق أنه لم يكن له إلا المحاشاة والتخلص من أيدي الروم الذين كانوا مع من انضم إليهم أكثر من مائتي ألف والمسلمون ثلاثة آلاف ، ووافق ابن إسحاق على ذلك شذمة ، وعلى هذا سمي نصرًا وفتحًا باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو وتراكمهم ، وتكاثرهم عليهم ، وكان مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية وهو محتمل لكنه بخلاف الظاهر من قوله رضي الله عنه : « حتى فتح الله عليهم » ، والاكثرون على أن خالدًا ومن معه رضي الله عنه قاتلوا المشركين حتى هزمهم (٥) ففى حديث أبى عامر عند ابن سعد (أن خالدًا لما أخذ اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا (٦) .

(وروى الطبراني رجال ثقات عن موسى بن عقبة قال : ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومي فهزم الله تعالى العدو وأظهر المسلمين (٧) ، وروى محمد بن عمر الأسلمى عن عطاء بن خالد : (لما قتل ابن رواحة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٢٩/٢ ، ١٣٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٧/٦ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٨/٦ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٨/٦ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٣/٢ .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٣/٢ .

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٠/٢ .

مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا قد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيتهم ، قالوا : وقد جاءهم مدد فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، قال : فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم (١) ، وذكر ابن عائد في مغازيه نحوه .

(وروى محمد بن عمر عن الحارث بن الفضيل رحمه الله تعالى : لما أخذ الراية خالد بن الوليد قال رسول الله ﷺ : « الآن حمى الوطيس » (٢) ، وروى القراب في تاريخه عن بردع بن زيد رضى الله عنه قال : اقتتل المسلمون مع المشركين سبعة أيام ، وروى الحاكم في المستدرک عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما وهذا الذى ذكره أبو عامر والزهرى وعروة وابن عقبة وعطاف بن خالد وابن عائد هو ظاهر قول رسول الله ﷺ فى حديث أنس : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » (٣) ، وفى حديث أبى قتادة رضى الله عنه مرفوعاً كما سيأتى ثم أخذ خالد بن الوليد اللواء ولم يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، ثم رفع رسول الله ﷺ أصبعه ثم قال : « اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره ، فمن يومئذ سعى خالد بن الوليد سيف الله » (٤) رواه الإمام أحمد برجال ثقات ، ويزيده قوة ويشهد له بالصحة ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والبرقاني عن عوف بن مالك الأشجعي رضى الله عنه قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة رضى الله عنه فى غزوة مؤتة ورافقتى مددى من المسلمين فى اليمن ليس معه غير سيفه ، فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددى طائفة من جلد ، فأعطاه إياه فاتخذته كهية الدرقه ، ومضينا ولقينا جموع الروم فيهم رجل على فرس له أشقر ، عليه سرج مذهب ، وسلاح مذهب ، فجعل الرومى يغزو المسلمين ، فقعده المددى خلف صخرة ، فمر به الرومى فعرقب فرسه بسيفه ، وخر الرومى فعلاه بسيفه ، فقتله وحاز سلاحه وفرسه ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد ، فأخذ منه بعض السلب ، قال عوف : فأتيت خالداً وقلت له : أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكنى استكثرته ، فقلت : لتردنه أو لاعرّفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يرد عليه ، قال عوف : فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ ، فقصصت عليه قصة المددى وما فعل خالد فقال رسول الله : « ما صنعت ؟ » قال : استكثرته ، قال : « رد عليه ما أخذت منه » قال عوف : دونكها يا خالد ألم أف لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ » فأخبرته ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « يا خالد لا ترد عليه ، هل أنتم تاركون أمرائى لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره » (٥) .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٦٤ .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٩٩ .

(٣) البخارى ٢/ ١٨٣ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٣٩ .

وفى رواية مسلم: (فمر خالد بعوف فجر رداءه ، ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ ، فاستغضب ، فقال : « لا تعطه ، يا خالد لا تعطه يا خالد هل أنتم تاركون لى أمرائى ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها ، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه ، فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم)^(١) .

ذكر بعض مغامر المسلمين فى مؤتة :

روى محمد بن عمر والحاكم فى الإكليل عن جابر رضي الله عنه قال : أصيب بمؤتة ناس من المسلمين ، وغنم المسلمون بعض أمتعة المشركين ، وكان فيما غنموا خاتم جاء به رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : قتلت صاحبه يومئذ فنفلني رسول الله ﷺ ، وتقدم حديث عوف بن مالك رضي الله عنه وروى محمد بن عمر عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قال : (حضرت مؤتة فبارزنى رجل منهم يومئذ فأصبته ، وعليه بيضة له فيها ياقوتة ، فلم تكن همتى إلا الياقوتة فأخذتها ، فلما رجعنا إلى المدينة أتيت بها رسول الله ﷺ فنفلنيها ، فبعتها زمن عثمان بمائة دينار فاشترت بها حديقة نخل)^(٢) ، قال فى البداية : (وهذا يقتضى أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشrafهم وقتلوا من أمرائهم) وروى البخارى عن خالد رضي الله عنه قال : (لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وما ثبت فى يدى إلا صحيفة يمانية) وهذا يعنى أنهم أثخنوا فيهم قتلاً ولو لم يكن ذلك لما قدروا على التخلص منهم ، إذ كان المسلمون ثلاثة آلاف والمشركون أكثر من مائتى ألف ، وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم)^(٣) .

قال ابن إسحاق : (وقد كان قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين قد حمل على مالك بن رافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :

طعنت ابن رافلة بن الإراشى	برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة	فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمه	غداة رقوقين سوق النعم) ^(٤)

وهذا ما يؤيد ما نحن فيه لأن من عادة أمير الجيش إذا قتل أن يفر أصحابه ، ثم إنه صرح فى شعره بأنهم سبوا من نسائهم وهذا واضح فيما ذكرناه .

وقال فى البداية بعد أن ذكر جميع من قتل بمؤتة من المسلمين^(٥) : (فالجموع على

(٢) المغازى للواقدي ٧٦٩/٢ .

(١) مسلم ١٣٧٣/٣ ، كتاب الجهاد والسير (١٧٥٣) .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٥/٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٤٠/٦ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٤١/٦ .

القولين اثنا عشر رجلاً ، وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل؛ من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا لا يقتل من المسلمين سوى اثني عشر رجلاً ، وقتل من المشركين خلق كثير هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف وما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية . فماذا يا ترى قتل في هذه الأسياف كلها ؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن وهذا مما يدخل في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِیْنِ الثَّقَاتِ فَمَا تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٢) ﴾ [آل عمران] (١) .

خبر السرية على لسان رسول الله ﷺ :

روى الإمام أحمد وابن ماجه عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال : « اتينى بينى جعفر » فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه ، فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ما ييكك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : « نعم أصيبوا هذا اليوم » . قالت : فقممت أصيح ، واجتمع إلى النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » (٢) .

وروى البيهقي والبخارى (٣) عن أنس رضي الله عنه قال : نعى رسول الله ﷺ وهو على المنبر زيداً وجعفرًا وابن رواحة للناس يوم أصيبوا قبل أن يأتيه خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليهم » .

وروى النسائي والبيهقي (عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء ، فانطلقوا ، فلبثوا ما شاء الله فصعد رسول الله ﷺ المنبر فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إلى رسول الله ﷺ فقال : « أخبركم عن جيشكم هذا ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيداً » فاستغفر له ، « ثم أخذ اللواء جعفر فشده على القوم حتى قُتل شهيداً » فاستغفر له ، « ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قُتل شهيداً » فاستغفر له ، « ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء ، وهو أمر نفسه ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه سيف من سيوفك فانت تنصره ،

(٢) مستد أحمد ٦ / ٣٧٠ .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٢٥٩ .

(٣) البخارى ٥ / ١٨٣ .

فمن يومئذ سمى خالد سيف الله (١) .

وروى البيهقي : (عن ابن عقبة - رحمه الله تعالى - قال : قدم يعلى بن أمية رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن شئت أخبرتك ، وإن شئت أخبرتك بخبرهم ؟ » قال : بل أخبرني يا رسول الله ، فأخبره رسول الله ﷺ خبرهم كله فقال : والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره وإن أمرهم كما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم ، ورأيتهم فى المنام على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا ، وتردد بعض التردد ثم مضى » (٢) .

قال ابن إسحاق : (لما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً » قال : ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً » ، ثم قال : « لقد رفعوا لى فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه ، فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ، ثم مضى » (٣) .

قال ابن إسحاق : (عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبى طالب عن جدتها أسماء بنت عميس قالت : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين مناً ، قال ابن هشام : ويروى أربعين منية ، وعجنت عجيني ، وغسلت بنى ودهنتهم ونظفتهم ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « اثنتى بنى جعفر » ، قالت : فأتيته بهم فتشمتهم وذرفت عيناه ، فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ما ييكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم ، أصيبوا هذا اليوم ... » (٤) .

وروى ابن سعد : (عن أبى عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغه مصاب أصحابه شق ذلك عليه فصلى الظهر ثم دخل وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين ثم أقبل بوجهه على القوم ، فشق ذلك على الناس ، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك ، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك ، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك ، حتى إذا كانت صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم ، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلى

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٣٦٨ .

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤ / ٣٦٧ .

(٣، ٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨٣٤ .

الغداة ، فقال له القوم حين تبسم : يا نبي الله بأنفسنا أنت لا تعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذي رأينا قال رسول الله ﷺ : « كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي ، حتى رأيتهم في الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، ورأيت في بعضهم إعراضاً كأنه كره السيف ، ورأيت جعفر ملكاً ذا جناحين مضرجاً بالدماء مصبوغ القوادم » (١) .

قال محمد بن عمر : (حدثني محمد بن مسلم عن يحيى بن أبي يعلى قال : سمعت عبد الله بن جعفر يقول : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمي فنعى لها أبي ، فانظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي ، وعيناه تهراقان الدموع حتى تقطر لحيته ثم قال : « اللهم إن جعفرًا قد قدم إلى أحسن الثواب ، فأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدًا من عبادك في ذريته » ، ثم قال : « يا أسماء ، ألا أبشرك ؟ » قالت : بلى ، بأبي أنت وأمي ! قال : « فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة ! قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فأعلم الناس ذلك ! فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدي ، يمسح بيده رأسي حتى رقى على المنبر ، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى ، والحزن يعرف في وجهه ، فتكلم فقال : « إن المرء كثير بأخيه وابن عمه ، ألا إن جعفرًا قد استشهد ، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة » ، ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلني وأمر بطعام فصنع لاهلي ، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده والله غداء طيبًا مباركًا ، عمدت سلمى خادمتي إلى شعير فطحته ، ثم نسفته ، ثم أنضجته وأدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلًا فتغديت أنا وأخي معه ، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ، ندور معه كلما صار في إحدى بيوت نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا ، فأتى رسول الله ﷺ ، وأنا أساوم بشاة أخ لي فقال : « اللهم بارك في صفقتي » ، قال عبد الله : فما بعث شيئًا ولا اشتريت إلا بورك فيه (٢) .

وأخرج البخاري (عن عمرة قالت : سمعت عائشة رضيا تقول : لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضيهم جلس رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الحزن ، قالت عائشة : وأنا أطلع من صائر الباب - تعني من شق الباب - فأتاه رجل فقال : أي رسول الله ، إن نساء جعفر ، قال : وذكر بكاءهن فأمرهن أن ينهأهن ، قال : فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن وذكر أنه لم يُطعنه ، قال : فأمر أيضًا ثم أتى وقال : والله لقد غلبتنا ، فزعمت أن رسول الله ﷺ قال : « فاحث في أفواههن من التراب » ، قالت عائشة : أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء (٣) .

وعن عامر قال : (كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال : « السلام عليك يابن ذا الجناحين ») (٤) .

(٢) المغازي للواقدي ٧٦٨/٢ .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٠/٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٨٣/٥ .

(٣) البخاري ١٨٢/٥ .

وفى رواية للواقدي : (فدخل على رسول الله ﷺ فقال : « يا أسماء ، أين بنو جعفر ؟ » فبحث إليهم فضعهم وشمهم ثم ذرفت عيناه فبكى فقلت: أى رسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ؟ قال : « نعم ، قُتل اليوم » ، قالت : فقامت أصيح ، واجتمع إلى النساء ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا أسماء لا تقولى هجرًا ، ولا تضربى صدرًا » ، قالت : فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهى تقول : واعماه ، فقال رسول الله ﷺ : « على مثل جعفر فلتبك الباكية » ثم قال رسول الله ﷺ : « اصنعوا لآل جعفر طعامًا ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم » (١) .

عودة الجيش إلى المدينة

روى الإمام أحمد (٢) وأبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضيهما الله عنهما قال : (كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس وكنت فيمن حاص) ، وفى رواية : (فلما لقينا العدو فى أول غادية فأردنا أن نركب البحر ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة قتلنا ، فقدمنا المدينة فى نفر ليلاً فاخترقنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فاعتذرنا إليه ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ » قلنا : نحن الفرارون قال : « بل أنتم العكارون وأنا فتكم » أو قال : « وأنا فئة كل مسلم » قال : فقبلنا يده (٣) .

وروى ابن إسحاق عن أم سلمة زوج النبی ﷺ أنها قالت لامرأة : سلمة بن هشام ابن العاص بن المغيرة : ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج إلى الصلاة صاح به الناس : يا فرار ، فررتم من سبيل الله ، حتى قعد فى بيته فما يخرج ، وكان فى غزوة مؤتة (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : (أقبل خالد بن الوليد بالناس منهزمًا ، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجُرف ، فجعل الناس يحثون فى وجوههم التراب ويقولون : يا فرار ، أفررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بفرار ، ولكنهم كرار إن شاء الله » (٥) .

وعن أبى هريرة رضيه الله عنه قال : (كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس ، لقد كان بينى وبين ابن عم لى كلام فقال : إلا فرارك يوم مؤتة ، فما دريت أى شيء أقول له (٦) .

(٢) مسند أحمد ١١١/٢ .

(١) المغازى للواقدي ٧٦٦/٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٦/٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١٤٦/٦ .

(٥ ، ٦) المغازى للواقدي ٧٦٥/٢ .

وعن أبى بكر بن عبد الله بن عتبة يقول: (ما لقى جيش بعثوا معنا ما لقى أصحاب مؤتة فى المدينة ، لقيهم أهل المدينة بالشر حتى إن الرجل لينصرف إلى أهله وبيته ، فيدق عليهم الباب ، فيأبون أن يفتحوا له ، يقولون : ألا تقدمت مع أصحابك ؟ فأما من كان كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ فجلس فى بيته استحياءً حتى جعل النبي ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً يقول : « أنتم الكرار فى سبيل الله » (١) .

قال ابن إسحاق : (فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال : لما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، قال : ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال : « خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر » ، فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه قال : وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ، قال : فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار - إن شاء الله تعالى » ، ويقول : « أنا فتكم » (٢) .

* * *

استشهاد القادة الثلاثة :

قال ابن إسحاق : (ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم) .

إنه زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ ، وأكبر قواده ، والذى قاد تسع معارك قبل مؤتة ، ولم يعرف فى تاريخ الصحابة من أوكل له مثل هذه الإمرة غيره ، وها هو الآن بين يدى مائتى ألف من الروم والعرب يحمل الراية المحمدية ، ويقاتل بيد ، ويحمل الراية فى يد ، وليس بين أيدينا شيء عن هذا القتال ، فكلما ذكر عنه أنه شاط فى رماح القوم ، إنه بمثابة ابن المصطفى ﷺ ، يسقط شهيداً فى أرض الشام ويبارك ثرى مؤتة بدمه الزكى .

ثم جاء دور جعفر بن أبى طالب ، شبيه رسول الله ﷺ خُلُقًا وَخُلُقًا ، وهو الذى لم يخض معركة قط ، ومع هذا فهو يقاتل ببسالة منقطعة النظير ، وهو يقاتل على فرسه ، لم يشته مقتل أخيه زيد أو يلن من قناته ، ورأى أن القتال على الفرس لا يشفى صدره ، ولا يروى غليله ، وإذا ترك فرسه ، فقد يأخذها العدو ويقاتل عليها ، إنه وهو يتقبل الطعنات فى صدره وظهره مشغول عنها مشغول بالوسيلة التى يلتحم فيها مع العدو أكثر ، والتمعت

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٥ ، ٨٣٦ .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٦٥ .

الفكرة فى ذهنه، وسرعان ما نفذها ، اقتحم عن فرسه ، وعقر فرسه حتى لا يستفيد منها العدو ، فيصبح الهدف الرئيس لأبطال الروم والعرب ، يريدون أن يجهزوا عليه لتسقط الراية ، ويتفرق المسلمون ، وهو ماض فى شوق عارم إلى الجنة ، لا يكاد يصدق متى يرى أجله فيرى عرس أمانيه ، ضربات السيف وطعنات الرماح لا تكاد ترتفع الأولى إلا والثانية تنفض عليه بجوارها ، وهو يقاتل ويذود عن الراية ، ويزغرد :

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها على إذ لاقيتها ضرابها

إنه واثق بقدر الله ، ولو كانت الأسنة والسيوف تحتوشه من كل جانب بأن الروم قد دنا عذابها ، كما دنت الجنة إليه فصارت قاب قوسين أو أدنى فما هو إلا أن يسلم الروح ، لكن عليه قبل أن يسلمها أن يحيا كل لحظة فى سبيل الله فهو حامل راية الإسلام فى قلب بلاد الكفر ، فقطعت يمينه ، فتناول الراية بشماله يحافظ عليها ، ولا يضيره الرماح التى تغرز فى صدره والسيوف التى تنهش من جسده ، هذا لا يعنيه بمقدار ما يعنيه أن يحافظ على راية حبه محمد ﷺ الذى ائتمنه عليها ، فهذا هو مفهوم الإمرة فى الإسلام ، ليست الإمرة الأريكة الوثيرة ، والقصر المنيف والخدم والحشم ، فالإمرة عند المصطفى ﷺ تعنى إمرة التسابق إلى الموت ، والقيادة إلى الجنة ، وتقطع يده الثانية والدم يشخب من كل جزء من جسده ، فهل يسقط الراية ؟ أبداً ، فينقلها إلى عضديه ، ويسلم جسمه ساحة رمى وطعن يتسلى بها العدو ، فالذى يعنيه هو أن يحتضن الراية لآخر قطرة من دمه ، ولآخر لحظة من روحه ، ويكاد يجن العدو من هذا الأمير الذى اقتحم عن فرسه ليرمى نفسه فى أتون الخطر ، ويشارك عشرات الأبطال فى الثأر من هذا الرمز الخالد حتى يسقط مضرجاً بدمه وقد أوفى الذمة ورعى العهد، وكما تقول بعض الروايات : إن الحقد عليه بلغ أن شقَّ نصفين وهو يضرب ويطعن حتى بعد استشهاده ، وتصبح جثته بين الأرجل المتشابكة ، فيسرع المسلمون إلى أميرهم المفدى ، شبيه رسول الله ﷺ ، يأخذون جثته بعيداً عن ساحة المعركة وملحمة الموت ، ولا ينسى عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن ينقل إلى أجيال التاريخ كلها صورة هذا البطل ، فيأتى ليعدّ الطعن والرمى فى جسده ، ويقول كلمته التى حفظها وعاء الزمن فنقلها لنا عنه نافع أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر وهو قتيل (فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء فى دبره ، يعنى ظهره) .

ولم يكتف ابن عمر بذلك ، وخشى أن يسائله التاريخ عن إتمام شهادته ، فمضى إلى ظهره يعد طعنات العدو فيه وهو بين طعن القنا وخفق البنود، فيتمم لنا شهادته قائلاً :

(كنت فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا فى جسده بضعاً وتسعين بين طعنة ورمية) .

ويبرز الأمير الثالث عبد الله بن رواحة ، الذى كان يتغنى بالموت فى سبيل الله إلى ساحة الموت ، ويأخذ الراية ، وهذه هى سدة الإمارة التى يعتليها ، إنها نجيع أحمر زكى طاهر ، جرح يتفجر ، ويد تقطع ، ورأس يجز ، وهذا هو أوان الطعنة التى حلم بها فى المدينة :

أو طعنة ييذى حران مجهزة أو ضربة ذات قرع تقذف الزيدا

فله الآن أكبر من أحلامه بكثير ، له طعنات وضربات تتناوب سراعاً فلا يكاد يقدر على عدهن .

إن الكفر كله قد برز للإيمان كله ، ولن تحل القضية بطعنة واحدة وانتهى الأمر ، أو بضربة واحدة وانتهى الأمر . قد يكون هذا لغير الأمير ، أما أمير القوم ، أما حامل الراية فهو الهدف من الأبطال جميعاً ؛ لأن إسقاط الراية يعنى إنهاء المعركة .

والحديث عن الموت شئ ، ومعانيته شئ آخر ، كما قال الله تعالى للمؤمنين فى أحد :

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران] .

وها هو يقدم على فرسه ، ويرى الموت الزؤام فى منظره الرعب أمامه ، فتحجم به فرسه ، فيطلق لها العنان دون أن يجبرها على الاقتحام ، ويحتد الصراع فى داخله بين نداء الجنة تهتف به ، والخور العين يدعونه ، وبين الحياة وطعمها ولذتها تدعوه أن يحجم ، وهو الشاعر المبدع ، فيحاور ذلك النداء من أعماقه الذى يدعوه إلى البقاء حرصاً على الحياة قائلاً :

أقسمت يا نفس لتنزلني طائفة أو لتكرهني
إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنه

إنه يخرج عن ذاته ويتحدث عن نفسه بموضوعية كاملة ، ويتهمها بالكذب ، فكيف تدعى من قبل حب الجنة ، وهى اليوم تكرهها وتخافها ، إن خوف الموت هو خوف عقابه ، وإن كراهية الموت الذى فطر الله النفس عليها .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

شَيْئًا وَهُوَ شَرُّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴿البقرة﴾ .

ومن أنت أيتها النفس ؟

ما أنت إلا نطفة من شئ

قد طال ما قد كنت مطمئنة

وهو يقسم عليها أن تنزل للنزال والصراع والموت ، ويقا تل ، ويستعر أوار المعركة ، وهو فى قلبها ترى هل كان مخطئًا يوم دفع الجيش كله للشهادة فى سبيل الله ، وقال لهم : (والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون) ، وعليه الآن وهو القائد المسؤول عن أرواح إخوانه جميعًا أن يجنب الجيش الإسلامى مصرعه على يد العدو .

هل هذا هو الحل الأمثل ، لكن رفيقى دربه قد استشهدا أمامه ، فلن يكون هو صاحب الرأى الأصوب ، إنه يعلم أنها حيلة بارعة من نفسه عليه لتهرب من الموت ، فسدَّ عليها المهرب قائلاً :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد لقيت
إن تفعلى فعلهما هديت أو تعرضى عنهم فقد شقيت

فقد حسم الأمر معها ، وأعلمها أن طريقة سلفيه زيد وجعفر هى الحل الأمثل وهو القتل فى سبيل الله ، فالهداية فى اتباع أمرهما ، والشقاوة فى الإعراض عن سبيلهما ، وهذه هى الشهادة قد سبقت له وما تمتت فقد أعطيت .

وبينا كان يأخذ عرقًا من لحم يشد به صلبه سمع صوتًا فسأل عنه فقبل له : صوت الحطمة ، ارتطام السيوف ببعضها فقال : وأنت فى الدنيا ، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل . وصدق ما عاهد الله عليه ، فقد كان أحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا يوم العقبة ، ونفذ المقولة المشهورة : فما لنا يا رسول الله ، إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل .

لقد كان هؤلاء الأمراء الثلاثة من الرعيل الأول الذى تلقى التربية النبوية منذ فجر الإسلام ، وتقدم أمام الجيش الإسلامى نحو الموت ببسالة منقطعة النظير ، لكن استشهاد القادة الثلاثة وسقوط الراية من يد عبد الله بن رواحة تعنى نهاية المعركة .

(ووقع اللواء من يده فاختلط المسلمون والمشركون وانهزم بعض الناس) .

وفى رواية أبى عامر عند ابن سعد : (أن عبد الله بن رواحة لما قتل انهزم الناس أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى لم أر اثنين جميعًا) ، وكان يمكن أن يباد الجيش كله إلا ما نيلوذ بالفرار ، لكن الرجال الأبطال فى ساعات المحن هم الذين يغيرون وجه التاريخ ،

فتقدم أحد أبناء الرعيل الأول ثابت بن أقرم البلوى حليف الأنصار من الصفوة المختارة من بدر، تقدم إلى اللواء ، وهو يعلم أنه يأتى لينقذ أمة .

(ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ، ثم قال : إلى أيها الناس) .

لقد برز قائد جديد ، وحمل الراية بعد ابن رواحة ، وهو من هو سابقة وفضلاً وبعد أن بلغت الهزيمة حداً أن لم يعد يرى أبو عامر اثنين قط مع بعضهما إذ عاد الناس فاستجابوا للنداء .

(فاجتمع إليه الناس حتى كثروا) .

وفى رواية أخرى أن بدرياً أنصارياً آخر هو الذى سعى باللواء ودفعه إلى ثابت بن أقرم كما روى الطبرانى عن أبى اليسر قال : أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد الله بن رواحة .

هذان البدريان ومعهما آخر الشهداء عبد الله بن رواحة لا تزال روح بدر تسرى فى دمائهم ، وهم يحضون الناس على الصبر والثبات والجهاد ، فأبو اليسر هو الذى أسر العباس ، وقال له رسول الله ﷺ : أعانك عليه ملك كريم ، وأبو اليسر قصير القامة ، لكن عزمه عزم الأسود .

وثابت بن أقرم هو الذى نظر إلى أبى هريرة رضي الله عنه وهو يردد من الخوف أمام هذه المئات من الآلاف فقال له :

(يا أبا هريرة ، كأنك ترى جموعاً كثيرة ، قلت : نعم ، قال : إنك لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم ننصر بالكثرة) ولكن ثبات ثابت وبطولته لا يغنى هذا أكثر من أن يقتل الجيش كله مقبلاً غير مدبر ، والامر يحتاج إلى قائد عسكري فذ ، يضع الخطة المناسبة لإنقاذ الجيش ، ويغير الواقع الاليم الذى كاد يقضى عليه .

كان هناك عين ترنو إلى هذه الراية ، عين مسلم لم يمر على إسلامه أربعة أشهر بعد ، لكنه غارق فى همومه ، فهو يقاتل ببسالة يود أن يمسخ صفحة عمره التى أمضاها فى الصد عن سبيل الله ، وهو يعلم أن الإسلام يجب ما قبله ، لكن يود أن يبدأ صفحة ناصعة مجلية فى الجهاد فى سبيل الله ، وهذه أول أيامه فيها ، هذه أول معركة يخوضها فى سبيل الله بعد إسلامه ، وهى من أعنف المعارك وأشدّها هولاً مع أعداء من العرب والروم لم تشهد أمة العرب مثيلاً لها من قبل ، وهو سعيد أنه يقاتل بصمت بعيداً عن الانتظار ، وسعيد كذلك أن رأى ثابت بن أقرم يحمل الراية من جديد ، ويجدد العزيمة ،

ويعيد الانضباط إلى الجيش بعد أن تبعث حتى لم يعد اثنين مع بعضهما ، إنه سعيد بهذه المبادرة ، وعاد إلى ذاكرته يوم أحد الذي كان شبيهاً بهذا اليوم ، حيث كان فاراً مع جيشه حين التفت فرأى جبل الرماة قد فرغ من الحماة ، وتذكر يوم سقطت راية قريش ، وفرعتها علقمة الحارثية ليتجمع الناس حولها من جديد ، بعد أن فر الناس وأصبح النساء رهن الأسر لا يوجد دون أخذهن قليل ولا كثير ، وتذكر كيف التف حول الجيش المسلم من ظهره ، وأوقع به ضربته الهائلة ، وغير مصير المعركة .

لكنه يكاد يشرق من الألم ، أهنك كانت البطولة في قتال محمد وصحبه الذين يقاتل اليوم معهم تحت راية الإسلام ، ثم يعيد نظره بالقائد الجديد ، وما هي إلا لحظات حتى يرى الراية تندفع إليه مع صوت صارخ ، خذها يا خالد ، كانت مفاجأة صاعقة ، إنه آخر الركب إسلاماً ، أهنك يستلم اللواء ، فيصبح بمصاف زيد وجعفر وابن رواحة ، قال : لا أخذه منك أنت أحق به .

قال الأنصاري : ما أخذته إلا لك .

وكرر خالد : أنت أفضل مني .

قال ثابت : أنت أعلم بالقتال مني .

وارتفعت صيحات من كل جانب : خذها يا خالد ، خذها يا خالد .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد .

هكذا وصاهم رسول الله ﷺ إذا قتل الأمراء الثلاثة فليصطلحوا على رجل منهم ، والجميع يشهدون بكفاءة خالد العالية في القتال ، وهو الذي أذاقهم من قبل مرارة المحنة ، وهو اليوم أحدهم ، فلتكن الراية له ، وهكذا وجد نفسه في لحظة مسؤولاً عن الإسلام كله ، وعن جيش الإسلام في هذه الأرض النائية في أرض الشام ، وأمام جحافل الشرك من العرب والروم .

وانتهى وقت الأخذ والرد ، والأمر . أمر لحظات حاسمة تغير مجرى التاريخ ، والمطلوب منه اليوم أن يغير هذا المجرى مجرى ألف عام وأكثر ، والعرب على قتال الروم . تأتي جيوشهم أو جيوش الفرس لتتصر قبيلة على أخرى ، وتحكم أرضاً وتقيم دولة ، والعرب الغساسنة عملاء وأجراء الروم بلباس الملوك يصارعون اللخمين المناذرة عملاء وأجراء الفرس بثياب الملوك ، المطلوب من خالد اليوم أن يغير مجرى التاريخ كله ، بهذا اللواء الذي حملة لواء الإسلام .

وكان خالد أهلاً لذلك كله ، هذه الطاقات الكامنة التي جاء دور تفجير عبقريتها في مواجهة العدو .

وكانت عين الله ترعى هذا القائد الجديد ، وكان قلب رسول الله ﷺ على أحر من الجمر ، يود أن يسمع أخبار هذه المعركة الضخمة الفاصلة ، فأكبر جيش إسلامى قبل اليوم كان ألقى شخص ، والمسلمون اليوم فى الصراع مع الروم أربعة آلاف من الروافد الجديدة للإسلام .

واقرب الليل وهذا الجو، وتفرغ خالد بن الوليد لوضع خطة الهجوم المعاكسة بعد أن صبر وثبت أمام عنف الهجوم الكافر ، وعلى قول عطاف بن خالد :

(ولما قتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأذكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم وقالوا : قد جاءهم مدد ، فربعوا وانكشفوا) .

لقد كانت هذه هى الخطة الأولى لتغيير مسار المعركة ، وحققت الخطة أهدافها مباشرة، لكن استغلال الظروف ذو أهمية بالغة ، فقد رافق هذا التغيير قتال على أعلى مستوى من الكفاءة قاده الأمير الجديد خالد بن الوليد ، فقد أبرز عبقريته التخطيطية وكفاءته التنفيذية ، حدثنا عنها بقوله :

(لقد انقطعت فى يدي تسعة أسياف فما بقى فى يدي إلا صفيحة يمانية)

وماذا كان يفعل فى هذه الأسياف التى تقطع فى يده ، كم قط فيها من الرقاب ، وكم بتر فيها من السواعد والأرجل ، وكم طعن فيها من الصدور والأجساد ؟ والرواية للبخارى وكما يقول الصالحى (فماذا يا ترى قد قتل فى هذه الأسياف كلها ؟! دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن) .

فهو قتال ضار عبر عنه القراب فى تاريخه عن بردع بن زيد قال : اقتتل المسلمون مع المشركين سبعة أيام ، فمهما فر من العدو ، فالعدو عدده يملأ السهل والجبل .

وكانت الخطوة الجبارة الثانية ، هى خطة قتل قائد المشركين .

فقد ذكر ابن إسحاق أن قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين حمل على مالك بن رافلة وهو أمير أعراب النصارى فقتله وقال قطبة يفتخر بذلك :

طعنت ابن رافلة بن الإراشى	برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة	فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بنى عمه	غداة رقوقين سوق الغنم

وكما فعل مقتل ابن رواحة فى الصف الإسلامى ، حيث لم يبق اثنان مع بعضهما، كذلك فعل مقتل قائد جيش العدو مالك بن رافلة ، فهزموا شر هزيمة قط ، وانتهت

الهزيمة بأن ساقوا نساء بنى عمه سبائا إلى المدينة، وكما فى رواية موسى بن عقبة فى سند رجاله ثقات فى قوله: (فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، قال : فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم) وفى رواية أبى عامر عند ابن سعد (أن خالدًا لما حمل اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شأوا) (١) .

جانب الإعجاز فى المعركة :

وما لنا وأقوال الصحابة إذا كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم والذى أقر ربه عينه بأن أشهده المعركة يصفها لنا ﷺ بقوله :

« ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه » .

ولسنا بحاجة بعد كلام رسول الله ﷺ لكلام أحد قط ، فقد كانت الدعوة النبوية الخالصة الضارعة إلى الله تعالى : « اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره » كما فى البخارى . واستجاب الله تعالى دعوة نبيه : (ففتح الله على يديه) .

وكانت الكرامة لأولياء الله ، والمعجزة لرسول الله ﷺ .

فهو سيف الله ، ومن يقف لسيف الله فى الأرض ! وحقق الله تعالى معجزته بهذا السيف، فقد أطلق الذى لا ينطق عن الهوى هذا اللقب على خالد بن الوليد، ولا عجب لو تجمعت قوى الأرض كلها أن تقف فى وجهه لهزمها ، إن عصا موسى المعجزة لقت ما يأنك الكفار كله ، وأراد الله تعالى أن يحقق نصره بعدد من عباده الذى كان أشدهم حربًا على الله ورسوله ليأخذ بعد أربعة أشهر أرفع أوسمة التاريخ من رسول رب العالمين .

« سيف من سيوف الله » « اللهم إنه سيف من سيوفك » .

حتى أصبحت هذه الكلمة مثار رعب فى الأرض كلها ، حتى ليسأل جرجة قائد الروم خالد بعد سبعة أعوام فى ساحة المعركة : (يا خالد ، اصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاه فلا تسله على قوم إلا هزمهم ؟ قال : لا ، قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله بعث فىنا نبيه ﷺ فدعانا ، فنصرنا عنه ، ونأينا عنه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذَّبه ، فكنتم فيمن كذَّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين) (٢) .

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة كما أخرجه أبو زرعة الدمشقى ٩٩/٢/١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٣٩٩/٣ .

وعندما عقد له الصديق ﷺ على قتال أهل الردة قال :

(إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ») .

إن العقل لا يستوعب حسب السنن البشرية أن يتمكن ثلاثة آلاف من الانتصار على مائتي ألف إلا أن تكون معجزة ربانية، والإعجاز قد وقع كما في الصحيح عن النبي ﷺ ، بل وقع الإعجاز قبل هذا أن رفع الله تعالى ساحة المعركة لعبده ورسوله ﷺ كأنما ينظر إليها ، وأخبر المسلمين عنها قبل وصول أخبارها كما في الروايات الصحيحة المتعددة ، وأهمها ما في البخارى عن أنس ﷺ (أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ») .

وعند محمد بن عمر :

(لما التقى الناس بمؤتة جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وكشف له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى معتركهم فقال رسول الله ﷺ : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ، وحبب إليه الدنيا فقال : الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إلى الدنيا ، فمضى قُدماً حتى استشهد ، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال : استغفروا له ، فقد دخل الجنة وهو يسعى ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمناه الحياة وكره إليه الموت ، ومناه الدنيا ، فقال : الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنى الدنيا ، ثم مضى قُدماً حتى استشهد ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودعا له ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة فهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء في الجنة ، ثم أخذ الراية بعده عبد الله ابن رواحة ، فاستشهد ودخل الجنة معترضاً فسق ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « أصابه الجراح » ، قيل : يا رسول الله ما اعتراضه ؟ قال : « لما أصابه الجراح نكل ، فعاتب نفسه فشجع ، فاستشهد فدخل الجنة ، فسرى عن قومه » (١) .

ونشهد هنا الأمراء الثلاثة ، حيث دخل أحدهم الجنة سعيًا ، وثانيهم طيرًا ، وثالثهم معترضًا ، كما أطلعنا هذه الرواية على أن تباطؤ ابن رواحة إنما كان عندما أئختته الجراح ، وكان لهذا التلكؤ أثر في أن يكون سريره في الجنة أدنى من سرير صاحبيه أو أن في سريره ازورارًا عن سرير صاحبيه ، فالشهادة كتبت لهم جميعًا ، لكن المستوى النفسى لهم كانت الدرجات على ضوئه .

(١) المغارى للواقدي ٧٦٢/٢ .

ويبدو جانب الإعجاز الرباني كذلك في رواية البيهقي عن ابن عتبة - رحمه الله تعالى - قال :

(قدم يعلى بن أمية رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن شئت أخبرني ، وإن شئت أخبرك بخبرهم » فقال : بل أخبرني يا رسول الله ، فأخبره رسول الله ﷺ خبرهم كله فقال : والذي بعثك بالحق ما تركت حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره ، وإن أمرهم لكما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم ، ورأيتهم في المنام على سرر من ذهب ... » (١) .

كما نشهد جانب الإعجاز في عدد الشهداء في هذه المعركة الرهيبة ، ففي بدر وقد كان عدد المشركين ألفاً وعدد المؤمنين ثلاثمائة ونيف استشهد اثنا عشر شهيداً ، وهنا بين ثلاثة آلاف من المسلمين ومائتي ألف من المشركين لم تذكر الرواية أسماء شهداء إلا اثني عشر شهيداً على أقل تقدير وعشرين شهيداً على أكبر تقدير ، وهذا ما حدا بالحافظ ابن كثير - رحمه الله - أن يقول :

فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلاً ، وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل ، من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين خلق كثير ، هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف ، وما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية ، فماذا يا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها ؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن وقد تحكموا في عبدة الصلبان - عليهم لعائن الرحمن - في ذلك الزمان وفي كل أوان ، وهذا مما يدخل في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّفْتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ [آل عمران] (٢) .

في أدب التعامل مع القائد :

لقد رأينا الأدب العالي الأول لدى ثابت بن أقرم البدرى الانصارى الذى سلم الراية لخالد بن الوليد قائلاً له : (خذ الراية يا أبا سليمان ، فقال : لا أخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدرًا ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك) (٣) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣٦٥/٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٩/٤ ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة .

(٣) المغازي للواقدي ٧٦٣/٢ .

والتزم المسلمون على جميع مستوياتهم السمع والطاعة للمسلم ابن الثلاثة شهور في إسلامه لعراقته وخبرته القتالية العظيمة ، ونشهد صورة أخرى ينقلها لنا عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه وهو مثل خالد جديده العهد بالإسلام ، إذ أسلم في خير ، فعراقته في الإسلام لا تزيد سنة على خالد ، وروعة الحادثة أن يرويها عوف وهو المتهم فيها ، لكنه يعلم أن الأمانة لا بد أن تؤدي لتتعلم الأجيال كلها من ذلك الجيل الفريد في التاريخ .

يحدثنا عوف ابتداءً عن بعض النماذج الفردية التي جاءت من اليمن لتتصر دين الله :

(خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة مؤتة ، ورافقني مددي من المسلمين من اليمن ، ليس معه غير سيفه ، فتحرج رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددي طائفة من جلد ، فأعطاه إياه ، فاتخذته كهيئة الدرقه ، ومضيئنا ولقيينا جموع الروم فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب ، فجعل الرومي يغزو المسلمين ، ففقد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعربق فرسه بسيفه وخر الرومي ، فعلاه بسيفه فقتله وحاز سلاحه وفرسه) .

هذه هي الجولة الأولى للمسلم اليمني الذي جاء من اليمن لا يملك إلا سيفه ، وكان ترسه قطعة جلد من أخرق ، وهذه حياته وثروته التي يملكها في هذه الدنيا ، وينظر إلى ذلك الفارسي الذي تبرق الدنيا عنده بسلاحه المذهب ، وسرجه المذهب ، وهو يغزو المسلمين ويفتك بهم ، ويصفه الواقدي في روايته : (فجعل رجل من الروم يسلم على المسلمين ويفرى بهم على فرس له أشقر) (١) ، كما نشهد الوصف الطريف لصناعة ترسه الجلدي (إذ نحر رجل من القوم جزوراً فسأله المددي طائفة من جلده ، فوهب له ، فبسطة في الشمس ، وأوتد على أطرافه أوتاداً ، فلما جف اتخذ منه مقبضاً وجعله درقة) (٢) ، وتقدم لنا رواية الواقدي الوصف الثالث الأخير لمشهد قتل البطل الرومي (فلما مر به خرج عليه فعربق فرسه ، ففقد الفرس على رجله ، وخر عنه العليج وشد عليه فعلاه بسيفه فقتله) (٣) .

وتأتي الجولة الثانية التي يرويها لنا عوف رضي الله عنه :

(فلما فتح الله تعالى على المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذه منه بعض السلب ، قال عوف : فأتيت خالدًا وقلت له : أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكني استكثرت ، فقلت : لتردنه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يرد عليه .

قال عوف : فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصنا عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال رسول الله ﷺ : « ما صنعت ؟ » قال : استكثرت ، قال : « رد عليه ما أخذت

منه « إلى هنا والأمر طبيعي فقد أخطأ خالد للقائد العام ﷺ في أخذ شيء من سلب المقتول ولو كان سرجاً من ذهب وسلاحاً من ذهب ، فهو حق محفوظ للأبطال الذين يجندلون أبطال المشركين كما يقول - عليه الصلاة والسلام : « من قتل قتيلاً له عليه بيعة فله سلبه » (١) ، وقام خالد لتنفيذ الأمر النبوي .

عنصر جديد دخل على الساحة وهو عنصر نفسى يحمل الرغبة فى التشفى والاستعلاء ، يحدثنا عنه عوف ﷺ ، قال عوف : (دونكها يا خالد ، ألم أف لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ » فأخبرته ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « يا خالد ، لا ترد عليه .. ») .

وفى رواية مسلم : فمر خالد بعوف فجر برذائه ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت ذلك من رسول الله ﷺ ، فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب ، فقال : « لا تعطه يا خالد ، لا تعطه يا خالد .. » (٢) .

وعندما غدا الأمر تحدياً وتشفيًا رفض رسول الله ﷺ إعادة بقية السلب للقاتل ، أو إعادته كله كما فى رواية مسلم ؛ لأن هذه الروح لا تتفق وجو الحب العبق الندى فى الصف الإسلامى ، إن فكرة التحدى للقائد ولو كانت بالحق يرفضها الإسلام كما رأينا بغضب رسول الله ﷺ لذلك ، وأسلوب إحقاق الحق عن طريق الإذلال والتشفى والتصغير أسلوب يأباه الإسلام ورسول الإسلام ، فلقد تقرر الحق قبل إعلان الاستعلاء النفسى ، والمربى الأعظم ﷺ رأى أن هذا الاستعلاء على القائد المسلم ولو بالحق ثغرة يمكن أن تضيع هبة السلطان ، والهدف الذى كان السلطان من أجله .

وأردف - عليه الصلاة والسلام - الحكم العام الخالد :

« هل أنتم تاركون لى أمرائى ، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلًا أو غنمًا فرعاها ، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه ، فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم » .

لقد حدد الرسول ﷺ مهمة القائد هو أن يحقق الهناء والرغد لرعيته ، يخطط لتحقيق هذا الرغد مثل ذلك الراعى الذى رعى إبله وتحين سقيها ، وليست مهمة القائد فى الإسلام أن ييطر ويرغد ويميت شعبه ، وتأتى هذه الإبل فتشرب الصفو الطيب ، وتدع الكدر القدر .

« فصفوه لكم وكدره عليهم » ، فالتعاب الناشئة عن هذه السقاية يسأل عنها

(٢) مسلم ٣/ ١٣٧٣ ح (١٧٥٣) .

(١) مسلم ٣/ ١٣٧١ ح (١٧٥١) .

الأمراء ، وهو نوع من الرحمة العالية بالذين يقومون بتنفيذ شريعة الله ، ويسهرون على هذه الرعاية ، فالمعاناة التي يعانونها صعبة جداً ، وقد لا يصلون إلى الحق ويصيبونه ، فيذكرون برفق ، وينصحون بصدق .

أما التشهير مع الحاكم المسلم الصادق فمرفوض ، وقد أوقف - عليه الصلاة والسلام - هذا الحق^(١) ؛ لأنه رافقه تحدٍ وجرح رداء وتشفٍ يأباه الإسلام مع أنه لا ذنب لمن حُرِم هذا الحق إلا تحدى غيره لقائده .

إنه درس عظيم بليغ نضعه بين يدي شبابنا المتحمس المندفع الذي يريد أن يذل الأمير لتحقيق مطالب مشروعة ، وهو يحاسب على الصغير والقطمير دون أن يعذر مسؤولاً أو يقبل عشرة أمير ، مع أن الذي يقوم بتطبيق الشريعة يجد أمامه الصعوبات الجمة العظيمة ، والحديث عن الإسلام شيء ، والقيام على تطبيقه شيء آخر ، فلا بد أن تسود روح الأخوة بين الحاكم والمحكوم ، وروح التفاهم والود بين الفريقين ، ويتعاونوا على هذا التطبيق كما رأينا من خلال هذا النص العظيم .

وهذا الحق في السلب ثابت ، والمنع طارئ ، وهذه الرغبة في الحصول عليه لا تتنافى وطهر الإيمان والزهد في الدنيا ؛ لأن الذي يعرض نفسه للموت والقتل حين يقدم على مبارزة أبطال المشركين وآسادهم لا يعتبر طمعاً منه أن يحرص على سلبه ، وهذا خزيمة بن ثابت رضي الله عنه البدرى العظيم يحدثنا عن نفسه قائلاً : (حضرت مؤتة وبرز لي رجل منهم فأصبته وعليه بيضة فيها ياقوتة ، فلم يكن همي إلا الياقوتة فأخذتها ، فلما انكشفنا رجعنا إلى المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فنقلنيها فبعتها زمن عثمان بمائة دينار ، فاشتريت بها حديقة نخل) (٢) .

إن التعامل مع النفس البشرية تعامل واقعي ، ويجب ألا نتصور أن هذه النفوس ملائكة لا تحب ولا تكره ولا ترغب ولا تأنف ؛ إنها بشر من البشر تقاتل وترغب الثواب وترغب بالغنيمة ، ولم يعتبر الإسلام هذه الرغبة منقصة أو مثلبة في الرجل ، إنه يقاتل في سبيل الله ، ويعرض نفسه للموت في سبيل الله ، لكنه قد أوقف حياته على هذا الجهاد ، فكيف تستقيم حياته ، وينشئ أسرته إذا لم يأخذ حقه من الغنيمة ، ولمعرفة رسول الله

(١) يقول النووي - رحمه الله : وهذا الحديث قد يستشكل من حيث إن القاتل قد استحق السلب ، فكيف منعه إياه ؟ ويجاب عنه بوجهين ، أحدهما : لعله أعطاه بعد ذلك للقاتل ، وإنما أخره تعذيراً له ولعوف ؛ لكونهما أطلقا ألسنتهما في خالد رضي الله عنه ، وانتهاكا حرمة الوالي ومن ولاء ، الثاني : لعله استطاب قلب صاحبه فتركه صاحبه باختياره وجعله للمسلمين ، وكان المقصود بذلك استطابة قلب خالد رضي الله عنه للمصلحة في إكرام الأمراء (مسلم / ١٧٧٣ ، هامش) .

(٢) دلائل النبوة لليبهي ٣٧٤/٤ .

ﷺ بالنفس البشرية جَعَلَ السلب للقاتل تشجيعاً للمجاهدين كي يكسروا شوكة أعدائهم ،
ويفلوا بأسهم ، لكن أن تكون الغنيمة هي الغاية ، والقتال للغنيمة فهو المرفوض .

(...) الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن
فى سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل
الله » (١) .

وقد ربط رسول الله ﷺ بين الجهاد فى سبيل الله وبين نيل الأجر والغنيمة فى
أحاديث عدة منها ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرج منه من بيته إلا جهاد فى سبيله وتصديق
كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو
غنيمة » (٢) .

وحتى نرى أثر الغنيمة فى الحياة الواقعية نجد أن هذه الياقوتة قد باعها خزيمه بن عمار
زمن عثمان فاشترى بها حديقة نخل ، وبهذه الحديقة يكسب ويعف نفسه ، ويعف ولده ،
ويكرم ضيفه ، ويجعل ورثته أغنياء خيراً من أن يسألوا الناس ويتكففهم أعطوهم أو
منعواهم .

ولا ننسى أن خزيمه بن ثابت هو الذى انفرد من بين هذه الأمة كلها بلقب ذى
الشهادتين . فشهادته بشهادة رجلين . وهو من أصدق الصحابة على الإطلاق .

استقبال الجيش فى المدينة :

عما لاشك فيه أن فريقاً من الجيش الإسلامى فى مؤتة قد فر عائداً إلى المدينة قبل
انتهاء الحرب . ومن هؤلاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذى وصف جو المدينة المعبأ بالعزيمة
أطفالاً وشبيهاً وشباباً من خلال هذا النص الذى رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن
عمر قال : (كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص (٣) الناس وكنت فيمن
حاص . وفى رواية : فلما لقينا العدو فى أول غادية فأردنا أن نركب البحر . فقلنا :
كيف نصنع وقد فررنا من الزحف . ثم قلنا لو دخلنا المدينة قُتلنا . فقدمنا المدينة فى نفر
ليلاً فاخترقنا) .

ألا ما أردع هذه البيئة التى تتأجج حماساً وحيوية . حيث يقدر عبد الله بن عمر رضي الله عنه
وقد كان من هؤلاء الصبيان قبل خمس سنين ، يقابل المنهزمين بالحجارة ، وقد تصل

(٢) مسلم ١٤٩٦/٣ ح (١٨٧٦) .

(١) مسلم ١٥١٢/٣ ح (١٩٠٤) .

(٣) حاص الناس : جالوا جولة يريدون الفرار .

العملية إلى مقتله ومن معه، ولفظ عبد الله بن عمر يوحى أنه فرقة ضئيلة من الجيش . حيث فكرت بركوب البحر . والبحر لا يتسع آنذاك لأكثر من بضعة عشر رجلاً ، ومع ذلك فهو يخاف أن يقتل من جماهير وأطفال الأمة . فما كان منه إلا أن اختبأ مع إخوانه فى بيوتهم حتى لا يقفوا فى وجه هذه العاصفة .

(ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فاعتذرنا إليه . فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا . فاتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ » : قلنا : نحن الفرارون . قال : « بل أنتم العكارون ، وأنا فتتكم » أو قال « أنا فئة كل مسلم » قال : فقبلنا يده .)

إن الفرار من الزحف لا يكفى أنه من الكبائر فى الآخرة ، وإنما فى الدنيا قد يقود إلى القتل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِكْهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [الأنفال] .

والمنفذ الوحيد لتبرير الفرار أو قبوله هو التحيز لفئة أو التحرف لقتال ، فكان رسول الله ﷺ هو فتتهم . ونئة كل مسلم .

وقد نقلت لنا هذه الحادثة المستوى العالى للأمة التى أصبحت ترفض فكرة الفرار من الزحف إلى حد القتل وهى الصورة التى نقلها لنا سلمة بن هشام بن المغيرة من طرف آخر .

(وروى ابن إسحاق عن أم سلمة رضي الله عنها (زوج النبى ﷺ) أنها قالت لامرأة سلمة ابن هشام بن العاص بن المغيرة : ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج . كلما خرج صاح به الناس . يا فرار . فررتم من سبيل الله ، حتى قعد فى بيته فما يخرج وكان فى غزوة مؤتة .)

لقد اختبأ عبد الله بن عمرو ومن معه . كما اختبأ سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة . وسلمة ابن عم خالد ، والأصل أن يبقى بجوار قائده خالد رضي الله عنه . ولكنه فى ظاهر الأمر قد فرّ منذ الجولة الأولى وبعد استشهاد عبد الله بن رواحة ، حيث لم يكن رجلاً قد بقيا مع بعضهما البعض . هذه المرة . وكان هذا قبل استلام الراية من ثابت ثم خالد رضي الله عنه ، وعمر ببطولته لا يتمكن من حماية ابنه عبد الله بن عمر من القتل لفراره ، وسلمة بن العاص بن هشام المخزومى لا تحميه قبيلته من ألسنة الناس . خاصة وقد تركوا إخوانهم فى مؤتة .

والجانب العظيم الذى نشهده من هذه الحادثة هو هذه الأسرة التى تسمى المدينة .
فأم سلمة رضي الله عنها تعرف تخلف سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة عن صلاة الجماعة ،
وتسأل زوجها عن سبب تخلفه . ورغم اتساع المدينة والزيادة الهائلة فى سكانها الذين
يفدون إليها من أصقاع الجزيرة العربية تلاحظ أم سلمة هذه الملاحظة فى تخلف واحد من
الآلاف التى تقصد المسجد المبارك ، ولكن الإشكال الذى بقى عندنا هو رواية ابن إسحاق
عن عروة قال :

لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قال : وجعل الناس
يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله . قال : فيقول
رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار - إن شاء الله تعالى » (١) .

فإذا كان الناس قد سمعوا رسول الله ﷺ يتحدث عن الفتح الذى تم على يدي
خالد كما فى صحيح البخارى ، فكيف يسمونهم بالفرار . لكن لعل الفئة الأولى التى
قدمت وتحدثت عن المتى ألف من العرب والروم تقابل ثلاثة آلاف من المسلمين لم
يتصوروا أن يعود أحد منهم حيا أو أن يتصرفوا على هذه الجموع الهائلة . فكانت
عودتهم سالمين ، وقد قتل قادتهم . جعلت هذا الجو المكفهر ضدهم حتى ليحثوا الناس
التراب عليهم يعيرونهم بالفرار . وجواب رسول الله ﷺ لهم : « بل هم الكرارون إن
شاء الله تعالى » .

ويمكن القول أن المعركة مرت بثلاث مراحل ، ليتمكن الجمع فيها بين الأقوال المتعددة .

المرحلة الأولى : وهى التى قاتل فيها المسلمون ببسالة حتى سقط عبد الله بن رواحة
رضي الله عنه شهيداً ، وأصبح المسلمون بلا قائد ، وفر أكثرهم حتى لا تجد اثنين مع بعضهما ،
وبلغ بعضهم المدينة فى فراه ، والذى كان منهم ابن عمر رضي الله عنهما .

المرحلة الثانية : حيث أعاد قادة المسلمين النداء ، فعادوا والتقوا ، وسلموا القيادة
واللواء لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، وقام بخطة المبتكرة العبقرية فى تبديل مواقع الجيش حتى
خاض مع الصباح حرباً عنيفة استمرت أياماً على بعض الروايات وثبت المسلمون فيها
وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وانكسرت بيد خالد تسعة أسياف ، وقُتل قائد جيش العدو
مالك بن رافلة ، فراجع القوم وهزموا شر هزيمة بعد سقوط قائدهم قتيلاً فى المعركة ،
وأخذ المسلمون سبايا وغنائم بعد هذه الجولة .

المرحلة الثالثة : وجد خالد رضي الله عنه الفرصة سانحة لإنهاء المواجهة بعد هذه الهزيمة ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٥ .

فلم يتبع أثر القوم ، ولم ينتظر حتى يعيد الصدام ثانية ، بل مضى بالمسلمين إلى المدينة وقد خلفوا وراءهم اثني عشر شهيداً فقط ، وهو الذي قد ذكره ابن إسحاق عن عروة بقوله :

(فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحازوا فحيز عنه حتى انصرف بالناس) (١) .

وحديث الفتح وهزيمة المشركين إنما كانت بعد التحام القتال الثاني ، وثبات المسلمين وصبرهم حتى انكسرت بيد خالد الأسياف التسعة ، وحاز المسلمون الغنائم ، وقتلوا الأبطال ، وقتلوا كبش الكتبية عندهم مالك بن رافلة ، وانهزم الجيش شر هزيمة .

وابن إسحاق نفسه يسوق نصاً يتحدث به عن أثر الرعب في صف المشركين يقول فيه :

(وقد كانت كاهنة من حَدَسَ حين سمعت بجيش رسول الله ﷺ مقبلاً قد قالت - لقومها من حَدَسَ . وقومها من بطن يقال لهم بنو غُثَمَ : (أنذركم قوما خزرا ، ينظرون شزرا ، ويقودون الخيل تترى ، ويهريقون دمًا عكرا) فأخذوا بقولها واعتزلوا من بين لحم ! فلم تزل بعد أترى حَدَسَ ، وكان الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة - بطن من حدس - فلم يزالوا قليلا بعد ، فلما انصرف خالد بالناس أقبل بهم قافلاً) (٢) .

وينقل ابن هشام عن الزهري قوله : فأما الزهري فقال فيما بلغنا عنه : (أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى قفل إلى النبي ﷺ) (٣) .

جعفر الطيار :

قبل وصول الجيش إلى المدينة كانت آثار المحنة ظاهرة في بيت النبوة ، كما روى أبو عامر عند ابن سعد : (أن رسول الله ﷺ لما بلغه مصاب أصحابه شقاً ذلك عليه فصلى الظهر ثم دخل ، وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين ، ثم أقبل بوجهه على القوم ، فشق ذلك على الناس ، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك ، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك ، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك ، حتى إذا كانت صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم ، وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلى الغداة ، فقال له القوم حين تبسم : يا نبي الله بأنفسنا أنت لا تعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ

(٢) المصدر نفسه ٨٣٥/٢ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٨٣٧/٢ .

رأينا منك الذى رأينا ، قال رسول الله ﷺ :

« كان الذى رأيتم منى أنه أحنزنى قتل أصحابى حتى رأيتم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين ورأيت فى بعضهم إعراضًا كأنه كره السيف ، ورأيت جعفرًا ملكًا ذا جناحين مضرجًا بالدماء مصبوغ القوام » (١) .

فقد بقى عليه الصلاة والسلام طيلة النهار والليل كله ، وقد انتابه الحزن ، فلا يستطيع أن يتكلم مع أصحابه حين جاءه نبأ استشهادهم ، لكن سُرئ عنه عندما رآهم فى الجنة إخوانًا على سرر متقابلين ، فاطمأن إلى أنهم لم يثثنوا ولم يتخاذلوا ، وأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقضوا نحبهم فى هذه السرية ، لقد تحول الحزن ابتسامًا ، وابتسمت المدينة كلها لبسمته ﷺ ، فقد غدا شخصه محور حياة المسلمين فى المدينة ، أحب إليهم من أبكارهم وأولادهم ونسائهم وأنفسهم وكما قالوا عندما وجدوا حزنه ، ولا يجرؤون على سؤاله ما لم يفاتحهم :

(بأنفسنا أنت لا تعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد منذ رأينا منك الذى رأينا) .

وعندما افترَّ ثغر النبى ﷺ عن بسمه حانية وجبت قلوب المؤمنين فرحًا فسألوه عن سبب حزنه وسبب ابتسامته فأجابهم .

ويبقى لجعفر عند رسول الله ﷺ خطوة خاصة ، فقلبه يتقد شوقًا إليه وحزنًا عليه .

لقد أمضى فى الغربة قرابة خمسة عشر عامًا بعيدًا عن أهله وعشيرته ، مهاجرًا فى سبيل الله يقود الجالية الإسلامية هناك ، ويهزم عمرو بن العاص أمام النجاشى ، ويكون نائب الرسول ﷺ فى هذه العاصمة الثانية ، وعندما جاء بأمر رسول الله ﷺ بعد هذه الاعوام الطويلة لقيه فى خير وقد فتحها الله عليه .

فبلغ من سروره بلفاته ما بلغ من سروره بفتح خير على المسلمين :

« والله ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خير ، أم بقدم جعفر » .

وكان مما يزيد حب جعفر فى قلب النبى ﷺ أنه كان صورته وظله خلقتا وخلقتا أشبهت خلقتى وخلقتى .

وسنة واحدة فى المدينة فقط ليكون بعدها على رأس الجيش نحو الشام ، من الحبشة إلى الشام ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ولم يكن يضيره أن يقتل جعفر بمقدار

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٣٠ .

ما كان يضيره أن يطمئن عليه وعلى إخوانه الأمراء والجيش المجاهد فى سبيل الله على ثغور الشام ، وأقر الله تعالى عين نبيه بأحبابه الثلاثة ، فأراه إياهم فى الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، ورأى حبيبه جعفر طياراً فى الجنة مصبوغ القوام فى الدم أبدله الله تعالى بيديه اللتين قطعتا فى سبيل الله ، بجناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء ، ومع الفجر كان رسول الله ﷺ يدخل على بيت جعفر ، ويرى بنيه الصغار ، ويرى زوجة أسماء رضيها وقد أنهت عجبتها ، ونظفت أولادها ، وطيبتهم ودهنتهم ، وتصف لنا أسماء تلك الزيارة قائلة : (دخل على رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال : « اتينى بنى جعفر » فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه ، فقلت : بأبى أنت وأمى ما ييكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : « نعم ، أصيبوا هذا اليوم » ، قالت : فقامت أصبح واجتمع إلى النساء ، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

أما عبد الله بن جعفر الصبى اليتيم ، فيلقى لنا ظلالاً جديدة على تلك الزيارة نشدها بقوله :

(أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسخ عن رأسى ورأس أخى ، وعيناه تُهراقان الدموع ، حتى تقطر لحيته ، ثم قال : « اللهم إن جعفرًا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب ، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك فى ذريته » .

هذا النبى الباكي ، الذى يعيش هموم هؤلاء اليتامى البائسين ، وهذه الأرملة المفجوعة لا ينسى أن يقول لها كما يحدثنا ابنها عبد الله : ثم قال : « يا أسماء ألا أبشرك » ؟ قالت : بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قال : « إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة » .

وأشرقت نفس أسماء بالنور ورجت الحبيب المصطفى قائلة : فأعلم الناس ذلك ، وقام عليه الصلاة والسلام إلى المنبر ومعه عبد الله بن جعفر الذى يتابع حديثه لنا قائلاً :

(فأخذ بيدي يمسخ بيده رأسى حتى رقى على المنبر ، وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى والحزن يعرف عليه ، فتكلم فقال : « إن المرء كثير بأخيه وابن عمه ، ألا إن جعفرًا قد استشهد وقد جعل له جناحان يطير بهما فى الجنة » .

وطيب نفس أسماء بذلك ، أن غدت زوجة الطيار الشهيد جعفر بشهادة رسول الله ﷺ ، وينقل لنا العبرى اليتيم تمة الصورة كأنما نحياها هناك :

(ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلني معه ، فأمر بطعام فصنع لأهلي ، وأرسل إلى أختي ، فتغدينا عنده والله غداءً طيباً مباركاً ، عمدت سلمى خادمتي إلى شعير فطحته ، ثم نسفته ، ثم أنضجته وأدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلاً فتغديت أنا وأختي معه ، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا فأتانا رسول الله ﷺ وأنا أساوم شاة أخ لي ، فقال : « اللهم بارك له في صفقته » ، قال عبد الله : فما بعت شيئاً ولا اشتريت شيئاً إلا بورك لي فيه) .

هذا يوم نُعي له الأمراء الثلاثة ، أما يوم جاء الجيش ، واشتد الصبيان يستقبلون آباءهم وإخوانهم ، كان رسول الله ﷺ يبحث عن ولدي جعفر (لما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون قال : ولقيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة ، فقال : « خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر » ، فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار فررتم في سبيل الله ، قال : فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى ») .

وتحولت المدينة كلها إلى آل جعفر بن أبي طالب ، كما تحولت يوم أحد إلى آل حمزة ، ولم يعد بين يدي رسول الله ﷺ بعد عبيدة وحمزة وجعفر إلا على بن أبي طالب .

وها هم شعراء الإسلام العظام يتحدثون عن سرية مؤتة وعن الأمراء الثلاثة :

يقول ابن إسحاق : وكان مما بكى به أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله ﷺ قول حسان بن ثابت شاعر دين الإسلام يرثي جعفرًا :

تأويني ليل بيثرب أعسر	وهم إذا ما نؤم الناس مُسهر
لذكرى حبيب هيَّجت لي عبرة	سفوحاً وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية	وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المسلمين تواردوا	شعوباً وخلقاً بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا	بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا	جميعاً وأسباب المنية تخطر

وإذا كانت هذه الأبيات تتحدث عن الأمراء الثلاثة . فضعف هذه الأبيات هو لجعفر رضي الله عنه وبنو هاشم رهط النبي ﷺ . والأنصار ينسون أنفسهم وأهليهم أمام حبيبتهم ، فعبد الله بن رواحة لم يعرض له حسان إلا في بيت واحد وهو رهطه وأهله ، أما ماذا عن جعفر ؟

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقية^(١) أزهري^(٢)
أغرّ كضوء الشمس من آل هاشم أبي^(٣) إذا سيم الظلامة مجسر^(٤)
فطاعن حتى مال غير موسد لمعترك^(٥) فيه قنًا متكسر
فصار مع المستهدين ثوابه جنان وملثف المدايق أخضر

ولم يكن جعفر عند المسلمين إلا صورة من صور النبي الحبيب :

وكنا نرى في جعفر من محمد وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمر
فما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عزٍ لا يزلن ومفخر
وهؤلاء الأطواد العظام من آل هاشم هم دعائم هذا الدين :

همُ جبل الإسلام والناس حولهم رضام^(٦) إلى طود^(٧) يروق ويقهر
بهايل^(٨) منهم جعفر وابن أمه على^(٩) ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهم عقيل وماء العود من حيث يعصر
وهم رغم وجود بعضهم في مكة كالعباس وعقيل :

بهم تفرج اللاواء^(٩) في كل مأزمة عماس^(١٠) إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذو الكتاب المطهر^(١١)

وإذا كان حسان بن ثابت قد أوقف شعره على جعفر رضي الله عنه فلم لا يوقفه كعب بن مالك كذلك .

وقال كعب بن مالك :

نام العيون ودمع عينك يهمل^(١٢) سحًا^(١٣) كما وكف^(١٤) الطباب^(١٥) المخضل^(١٦)

(١) ميمون النقية : مسعود الجند .

(٢) أزهري : أبيض .

(٣) أبي : عزيز الجاتب .

(٤) للمجسر : للمقدام الجسور .

(٥) المعترك : موضع الحرب .

(٦) الرضام : جمع رضم وهي الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض .

(٧) الطود : الجبل .

(٨) البهايل : السيد الوضوء الوجه .

(٩) اللاواء : الشدة .

(١٠) عماس : مظلم .

(١١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٧/٢ ، ٨٣٨ .

(١٢) يهمل : يسيل .

(١٣) سحًا : صبا .

(١٤) وكف : قطر .

(١٥) الطباب : جمع طبابة : وهي سير بين خريزتين في المزايدة فإذا كان غير محكم وكف منه الماء .

(١٦) المخضل : السائل الندي .

فى ليلة وردت على همومها طوراً أحياناً وتارة أتململ
واعتادنى حزن فبت كأننى بينات نعش والسماك (١) موكل
وكأنما بين الجوانح والحشى مما تاوبنى شهاب مُدخِل

كل هذا الحزن ، وهذا الألم ، وهذا الأرق . لماذا ؟

وجداً على النفر الذين تابَعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم يُنقلوا
صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل (٢)
صبروا (٣) بمؤتة للإله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم فُتق (٤) عليهن الحديد المرقل (٥)

ولا داعى لذكر أسمائهم ، فيكفى ذكر إمامهم جعفر بن أبى طالب عليه السلام :

إذ يهتدون بجعفر ولوائه قدّام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر حيث التقى وعث (٦) الصفوف مجدّل
فتغير القمر المنير لفقده والشمس قد كسفت وكادت تأفل

وهو سيد عظيم من منبت عظيم من بنى هاشم

قرم (٧) علا بنيانه من هاشم فرعاً أشمّ وسودداً ما ينقل
قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة وتكرماً وتغمدت (٨) أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاة حُباهم (٩) ويرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان المحل (١٠)
وبهديهم رضى الإله لخلقه ويجدّهم نُصر النبى المرسل (١١)

ونبحث عند كعب بن مالك عن رثائه لعبد الله بن رواحة ، فلا نجد ، لقد اكتفوا
بالإمام جعفر بن أبى طالب ، رمزاً لمؤتة كلها ، ولا عجب فقد قطعت يداه ، ووجد به

(١) بنات نعش والسماك : هى نجوم .

(٢) المسبل : المطر .

(٣) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون .

(٤) الفُتق : الفحول من الإبل .

(٥) المرقل : الذى تجر أطرافه على الأرض .

(٦) وعث الصفوف : التحامها حتى يصعب الخلاص منها .

(٧) القرم : السيد .

(٨) تغمدت من يجهل : سترتهم .

(٩) لا يطلقون حباهم : كناية عن سكوتهم عن السفية تكرماً .

(١٠) المحل : شديد القحط .

(١١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣٨ - ٨٣٩ .

فى مؤتة ما لا يقل عن تسعين طعنة برمى وضربة بسيف ، وقيل : شقَّ نصفين ، فقد كان أعظم رمز للفداء والتضحية ، احتفلت السموات والأرض به ، وهو سليل بنى هاشم ، وشبيهه النبى ﷺ خلقاً وخلُقاً .

ولم يكتف حسان بذلك الرثاء الذى ابتدأ بالثلاثة وانتهى بجعفر ، فها هو يخص جعفرًا ﷺ بهذه المراثية الخالدة :

ولقد بكيت وعزَّ مهلك جعفر	حبَّ النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقُلْتُ حين نُعت لى	من للجلاد لدى العقاب ^(١) وظلها
بالبيض حين تسَلُّ من أغمادها	ضرباً وإنهال ^(٢) الرماح وعَلَّها ^(٣)
بعد ابن فاطمة ^(٤) المبارك جعفر	خير البرية كلها وأجلها
رزءاً وأكرمها جميعاً محتداً ^(٥)	وأعزها مظلماً وأذلها
للحق حين ينوب غير تنحل ^(٦)	كذباً وأندها يدا وأقلها
فحشاً وأكثرها إذا ما يجتدى ^(٧)	فضلاً وأبذلها ندى وأبلها
بالعرف - غير محمد - لا مثله	حى من أحياء البرية كلها ^(٨)

فقد جعله الشخصية الأولى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، كل هذا وفاء للحبيب الاعظم محمد ﷺ ، لقد قال عليه الصلاة والسلام : « أما حمزة فلا يواكى له » ، فبكته المدينة كلها ، وقال : « على مثل جعفر فلتبك البواكى » ، فبكته المدينة كلها ، وأوقفت شعرها عليه ، وهو لذلك أهل ، ولم يكن يدخر ليقتل غيره ، بل كان هو المضحى به فى أنون الحرب وفى أقصى الشمال ، فى بلاد الشام ، لكن رجلاً واحداً فى هذه الأسرة الإسلامية العالمية لم يكن مشغولاً بالمشاركة فى هذه الفجعية بمقدار ما كان مشغولاً بتجاوز الحدود فى بكاء نساء جعفر ﷺ ، تنقل لنا عائشة رضيها قصته ، وقد آذاها عدم مشاركته فى هذا الجو ، تقول :

(لما قُتل ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة رضيهم جلس رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الحزن ، قالت عائشة : وأنا أطلع من صائر الباب - تعنى من شق الباب - فأتاه رجل فقال : أى رسول الله إن نساء جعفر ، قال : وذكر بكاءهن ، فأمره أن ينهائهن ، قال : فذهب الرجل ثم أتى ، فقال : قد نهيتهن ، وذكر أنه لم يطعنه ،

(١) العقاب : اسم لراية الرسول ﷺ . (٢) الإنهال : الشرب الأول .

(٣) الإعلال : الشرب الثانى يريد الطعن بعد الطعن . (٤) فاطمة : هى فاطمة بنت أسد أم جعفر وعلى رضيهما .

(٥) للمحتد : الأصل . (٦) التنحل : الكذب .

(٧) الاجتداء : طلب الجدوى . (٨) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣٩/٢ .

قال : فأمر أيضاً ، فذهب ثم أتى ، فقال : والله لقد غلبتنا ، فرعمت أن رسول الله ﷺ قال : فاحث في أفواههن التراب ، قالت عائشة فقلت : أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء (١) .

بينما كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تجهش بالبكاء على عمها قائلة : (واعماه فقال رسول الله ﷺ : « على مثل جعفر فلتبك الباكية ») (٢) ، أما أسماء فتحدثنا في رواية أخرى (...) قالت : فقامت أصبح : واجتمع إلى النساء ، قالت فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا أسماء : لا تقولى هجراً ولا تضربى صدرًا » (٣) .

شوق الحبيب إلى الحبيب :

ونبحث عن زيد بن حارثة الأسد الهصور ، فينقذنا الذهبي بخبر واحد عنه في هذه المناسبة بعد استشهاده ، يرويه بسنده عن خالد بن سلمة المخزومي قال : لما جاء مصاب زيد وأصحابه أتى رسول الله ﷺ منزله بعد ذلك ، فلقيته بنت زيد ، فأجهشت بالبكاء في وجهه فلما رآها رسول الله ﷺ ، بكى حتى انتحب ، فقيل : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « شوق الحبيب إلى الحبيب » (٤) .

وزيد رضي الله عنه من خاصة المصطفى ﷺ ، وبفقدانه فقد ركناً من أركانه ، وأحب الناس إليه لا يقل عن جعفر حباً وثقة ، تصف لنا عائشة اثنان من مواقفه ، ويصف ابن عمر الصورة الثالثة :

١ - عن عروة عن عائشة ، قالت : (أنا زيد بن حارثة ، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه فقبل وجهه ، وكانت أم قرفة قد جهزت أربعين راکباً من ولدها وولد ولدها إلى رسول الله ﷺ ليقاتلوه ، فأرسل إليهم زيداً فقتلهم وقتلها ، وأرسل بدرعها إلى النبي ﷺ ، فنصبه بالمدينة بين رمحين) (٥) .

٢ - وائل بن داود عن البهي عن عائشة : (ما بعث رسول الله ﷺ زيداً قط في جيش إلا أمره عليهم ولو بقى بعده لاستخلفه . أخرجه النسائي) (٦) .

فلم يذكر تاريخ السيرة رجلاً قائداً كلف بقيادة السرايا كما ذكر ذلك عن زيد رضي الله عنه ،

(١) البخارى ١٨٥/٣ . (٢) المغارى ٧٦٦/٢ .

(٣) المغارى ٧٦٦/٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣٠/١ ، وقال المحقق : رجاله ثقات ولكنه منقطع .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي ، وقال فيه : رواه المحاملى عن عبد الله بن شبيب عنه ، وروى عنه الترمذى عن البخارى عن إبراهيم هذا وحسنه .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي ، وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وإسناده حسن .

لكن الأهم من ذلك رأى عائشة رضي الله عنها أنه لو بقى حياً لاستخلفه ، ودلّ هذا على مقامه عند الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله الذى يجهش فى البكاء عليه ويقول : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب » .

٣- وعرف المسلمون قدر زيد عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، ينقل لنا هذا العرض عبد الله ابن عمر رضي الله عنه قال : فرض عمر لاسامة بن زيد أكثر مما فرض لى ، فكلمته فى ذلك فقال :

(إنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله منك ، وإن أباه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أيك) (١) .

وفى الحديث المرسل الذى رواه أبو ميسرة قال : (لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله قتل زيد وجعفر وابن رواحة قام صلى الله عليه وآله فذكر شأنهم ، فبدأ بزيد فقال : اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، ثلاثاً ، اللهم اغفر لجعفر وعبد الله بن رواحة) (٢) .

أما عبد الله بن رواحة النقيب الأنصارى العظيم ، فقد خاض معركتين فى آن واحد : المعركة الأولى ، معركة الشعر حيث حدث رسول الله صلى الله عليه وآله عن انتصاره فيها ، قائلاً لعمر : (« خل يا عمر ، فهو أسرع فيهم من نضح النبل » ، وفى لفظ : « فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل » ورواه معمر عن الزهرى عن أنس) (٣) .

ثم خاض معركة السيف حتى دخل الجنة معترضاً ، وبقي شعره مدداً للأجيال كلها فى التشويق إلى الجنة والتحبب بالشهادة .

هؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذى اصطفاهم الله تعالى شهداء إليه ، بينما كان القدر يُعد خالداً للمستقبل القادم ، فقد كانت هذه هى الصفحة الأولى فى تاريخه الذى حدثنا عنه فيما بعد :

(قاتلت الروم ، وقاتلت العرب ، وقاتلت الفرس ، فلم أجد أشد من قتال الفرس ...) .

لكن ذكرى مؤتة الصفحة الأولى بقيت خالدة فى ذهنه ، لم ينسها أبداً ، إذ أتم حديثه بقوله :

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢٩/١ وقال المحقق فيه : ذكره الحافظ فى الإصابة وقال : صحيح .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٩ وقال المحقق فيه : رجاله ثقات إلا أنه مرسل .

(٣) المصدر نفسه ٢٣٥ وقال المحقق فيه : إسناده قوى ، وأخرجه الترمذى فى الادب (٢٨٥١) وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(... وكسرت فى يدى تسعة أسياف فى مؤتة ولم تثبت إلا صفيحة يمانية) .

لكن الجزيرة العربية كلها كانت تتماوج بأخبار هذا الجيش ، والقيادات العربية التى تربص بالإسلام كان الحديث عنه شغله الشاغل ، فكيف يلتقى جيش محمد بثلاثة آلاف مقاتل أمام بحر خضم من جيوش الشرك بما تسمى ألف مقاتل ، فيقتل قائد جيش العدو ، ويسوق النساء سبايا ، ولا يخسر إلا اثنى عشر شهيداً فقط ، وعلى رأسه خالد بن الوليد الذى كان قبل أشهر أعظم القادة ضد محمد ﷺ .

وبغض النظر عن قناعات رجال الجزيرة العربية بالنجاح أو الإخفاق أو الفتح ، لكن عظمة التحدى ، ومقارعة الروم فى أرضهم ثاراً لشهيد سقط على يد أحد أمراء الغساسنة ، وعودة الجيش كله سالماً ، واستعداد أعظم القادة فيه للموت ، أمر حقق أكبر نصر معنوى للإسلام حتى هذا اليوم ، وكانت هذه المعركة توطئة لفتح مكة ، وتمهيداً لرفع هؤلاء الآلاف الثلاثة إلى عشرة آلاف مقاتل بعد ثلاثة أشهر من تاريخه ، أى إلى ارتفاع عدد الجيش الإسلامى إثر هذه المعركة إلى ثلاثة أضعاف ونيف عنه فى مؤتة .

لقد عاد هؤلاء الآلاف الثلاثة ، وانبثوا فى قبائلهم يتحدثون فيها عن قصص البطولة والنصر وعن مقارعة ومنازلة بنى الأصفر ، وعن هز كيانه ملوك العرب الغساسنة ، وعن اقتحام هؤلاء القادة الثلاثة ساحة الموت غير عابئين بالحياة، وراحت أشعار ابن رواحة رضي الله عنه وشوقه للجنة ، وشوقه للشهادة والموت ، ودفعه الجيش كله لذلك ، حين تلكأ الجيش قليلاً ليناقد الموقف .

لقد سمع أبطال العرب وقادته عن معارك كثيرة ، وأيام مشهورة ، ولكن فيما بينهم ، وكانت وقعة ذى قار بينهم وبين فصائل من جيوش الفرس ، وكانوا يتغنون ببطولاتهم فيها وانتصاراتهم فيها ، لكن مؤتة اليوم قد أنست كل الأيام، وكل الأبطال، وكل الأمجاد .

أولا يكفى أن يكون هذا القائد الضخم خالد بن الوليد هو هو العدو الاول ، هو الذى أصبح اسمه منذ هذه المعركة سيف الله ، وهو الذى عاد بالجيش باثنى عشر شهيداً فقط ، وقد زلزل كيانه الروم وغزاهم فى عقر دارهم .

والتربية الجماعية :

التي تمت فى هذه الدورة التدريبية السريعة ، دورة المبتدئين ، كانت أعنف دورات التاريخ الإسلامى ، فإلى الصدام المباشر مع الروم ، والحرب المستعرة مع العرب ، والحرص الهائل على الموت ، فلا بد إذن لهذه الجزيرة أن تعلن استسلامها أمام القائد الجديد سيد البشرية محمد ﷺ ، وانتهى عهد الخوف من جلاد بنى الأصفر ، أو الخوف

من سيوفهم ، والهجوم منهم على ثغور الإسلام .

كما يفعل الجندى الواحد فى قبيلته أو بطنه أو فخذة وهو يتحدث عن انتصارات الإسلام عمومًا ، وانتصاراته خاصة فى مؤتة ، لقد كان قصارى أحلام العربى فى البادية العربية أن يفد على قيصر أو كسرى ويتحدث عن مرثياته هناك ، وينال بعض الهدايا منه ، إلى وقت يفض جموع جيوشه ، ويقتل أكبر قواده ، ويسوق سبايا منه ، إنها نقلة هائلة ضخمة ، وتطور كبير جداً على الساحة العربية ، وتعبئة معنوية ضخمة لاستقبال الإسلام ، والتهيؤ للدخول فيه ، بدأت التطورات الهامة السريعة تتجاوز المرحلة الفردية ، وتتجاوز مرحلة الأشخاص لتنقل القبائل برمتها إلى المواقع الإسلامية .

وهكذا نشهد فى هذا العام ارتفاع الأعداد من المئات إلى الألوف ، على رأسهم هذا الرعيل الأول من جيل بدر والحديبية، يمضى فى عملية التربية ، والإعداد السريع للمعركة والمعارك القادمة الفاصلة ، بحيث تفتح مكة أبوابها للقادم الإسلامى دون قتال .

غزوة ذات السلاسل ، والقائد المظفر الثاني

(ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين ، فظننت أنه يعينني وخالد بن الوليد) .

فإسلام خالد وعمرو يعنى استسلام مكة ، وقد شهدنا خالدًا فى الفصل السابق ، وقد أخذ أعلى وسام حربى من رسول الله ﷺ ، (سيف الله) ، فماذا عن عمرو بن العاص ؟ رفيق دربه ، وشريكه فى إسلامه ، وقد عاد جيش مؤتة ، وخالد بن الوليد فى كل فم وعلى كل لسان .

١ - ويحدثنا عمرو بن العاص رضي الله عنه فيقول :

قال لى رسول الله ﷺ : « يا عمرو اشد عليك سلاحك وثيابك واثنى » ، ففعلت فجبته وهو يتوضأ ، فصعد فى البصر وصوبه وقال :

« يا عمرو إني أريد أن أبعثك وجهًا فيسلمك الله ، ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة » ، قال : قلت : يا رسول الله ! إني لم أسلم رغبة فى المال ، إنما أسلمت رغبة فى الجهاد والكيونة معك . قال : « يا عمرو نعلمًا بالمال الصالح للرجل الصالح »^(١).

٢ - محمد بن عمر عن رواه :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من بلى وقضاة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى سراة المهاجرين والأنصار ، فى ثلاثمائة ، عامر بن ربيعة ، وصهيب بن سنان ، وأبو الأعور سعيد بن زيد ، وسعد بن أبى وقاص ، ومن الأنصار ، أسيد بن حضير ، وعبد بن بشر ، وسلمة بن سلامة ، وسعد بن عباد ، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من العرب ، وهى بلاد بلى وعذرة وبلقين ، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم ، كانت أم العاص بن وائل بلوية ، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألفهم بعمرو .

٣ - قال ابن عقبة وابن إسحاق ، وابن سعد ، ومحمد بن عمر - رحمهم الله تعالى : واللفظ له : (بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من قضاة قد تجمعوا يريدون أن

(١) مسند الإمام أحمد / مسند الشاميين ح (١٧١٣٤) .

يدنوا إلى أطراف مدينة رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله عمرو بن العاص بعد إسلامه بسنة (١) (٢) .

٤ - عن ابن إسحاق قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي عن غزوة ذات السلاسل أرض بلى وعذرة قال :

(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله ﷺ يستألفهم بذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال لها السلاسل ، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل ، فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده ، وبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا » ، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو : إنما جئت مدداً إلى ، فقال أبو عبيدة : لا ، ولكني أمير على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه ، وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال : « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني أطعك ، فقال له عمرو : فإني أمير عليك وإنما أنت مدد لي ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس (٣) .

(قال : وحدثنا يونس عن أبي معشر عن بعض مشيختهم أن رسول الله ﷺ قال : «إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب» (٤) .

٥ - وروى الإمام أحمد مرسلأً عن الشعبي قال : (انطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال : إن رسول الله استعملك علينا ، وإن ابن فلان قد ارتبع أمر القوم فليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاول ، فانا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو) (٥) .

٦ - وروى ابن حبان والطبراني برجال الصحيح عن عمرو بن العاص رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ بعثه في غزوة ذات السلاسل فسأله أصحابه أن يوقدوا ناراً فمنعهم ، فكلموا أبا بكر رضى الله عنه ، فكلمه فقال : لا يوقد أحد منهم ناراً إلا قذفه بها) (٦) .

٧ - وروى الحاكم عن بريدة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٧٧٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٢٦٢ ، والمقصود بعد إسلامه بسنة - والله أعلم - إسلامه على يد النجاشي ، أما إسلامه في المدينة فلم ير عليه أكثر من أربعة أشهر .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٤ / ٣٩٩ ، ٤٠٠ . (٤) رواه البيهقي عن أبي معشر عن بعض شيوخه .

(٥) مسند أحمد ١ / ١٩٦ . (٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٢٦٤ .

فى سرية فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا يوقدوا ناراً ، فغضب عمر بن الخطاب ، وهم أن يأتيه ، فنهاه أبو بكر وأخبره أن رسول الله ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب ، فهذا عنه ، فسار عمرو بالليل ، وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ، ودوخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا ، فسار حتى انتهى إلى أقصى بلادهم ، ولقى في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير ، فاقتتلوا ساعة ، وحمل المسلمون عليهم فهزموهم وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما كان هنالك ، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والغنم ، فكانوا ينحرون ويأكلون ولم يكن أكثر من ذلك ، لم يكن فى ذلك غنائم تقسم ، كذا قال جماعة (١) .

قال البلاذرى : فلقى العدو من قضاة وعامله ، ولخم ، وجذام ، وكانوا مجتمعين ففضّهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم ، وروى ابن حبان والطبرانى عن عمرو أنهم لقوا العدو ، فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم ، وبعث عمرو عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بقولهم وسلامتهم وما كان من غزاتهم (٢) .

٨- احتلام عمرو بن العاص : روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قال :

(احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيمنت ، ثم صليت بأصحابى الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إني سمعت الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢٩) [النساء] ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً (٣) .

وفى رواية لأبى داود عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان على سرية . وذكر الحديث نحوه فقال : (فغسل مغابنه (٤) وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم ، فذكر نحوه ولم يذكر التيمم) (٥) . قال أبو داود : (وروى هذه القصة عن الأوزاعى عن حسان بن عطية قال فيه فتيتم) (٦) .

٩- وروى ابن حبان والطبرانى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ منى لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو ، فقلت : يا رسول الله إني كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم ، فحمد رسول الله ﷺ أمره .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٢٦٤ ، وعند الحاكم ٣/ ٤٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسند الشاميين ١٧١٤٤ ، ٤/ ٣٠١ وأخرجه أبو داود فى ك الطهارة ح (٣٣٥) .

(٤) المغابن : بواطن الافخاذ والآباط . (٥) أبو داود / ك الطهارة ح (٣٣٥) .

١٠ - روى البخارى عن أبى عثمان النهدى - رحمه الله تعالى - موقوفاً عليه ،
ومسلم والإسماعيلي والبيهقي عنه قال: (سمعت عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: بعثنى
رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وفى القوم أبو بكر وعمر ، فحدثت نفسى إنه
لم يبعثنى على أبى بكر وعمر إلا لمتزلة عنده ، قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه وقلت :
يا رسول الله من أحب الناس إليك قال : عائشة . قلت : إنى لست أسألك عن أهلك .
قال: فأبوها . قلت: ثم من ؟ قال : عمر . قلت : ثم من ؟ حتى عد رهطاً . قلت فى
نفسى : لا أعود أسأل عن هذا ، وفى رواية الشيخين : فسكت مخافة أن يجعلنى فى
آخرهم (١) .

١١ - وصية أبى بكر لرافع بن أبى رافع : (روى ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن
رافع رضي الله عنه قال : كنت امرأة نصرانياً ، وسميت سرجس ، فكنت أول الناس ، وأهدها
بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء فى بيض النعام بنواحي الرمل ، فى الجاهلية ، ثم أغير على
إيل الناس ، فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبنى فيه ، حتى أمر
بذلك الماء الذى خبأت فى بيض النعام ، فأستخرجه فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت
فى تلك الغزوة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل .

قال : فقلت : والله لا اختارن لنفسى صاحباً ، قال : فصحبت أبا بكر رضي الله عنه ،
فكنت معه فى رحله وكانت عليه عباءة فدكية^(٢) فكان إذا نزل بسطها ، وإذا ركبنا لبسها
ثم شكها عليه ، بخلال^(٣) له ، وذلك الذى يقوله أهل نجد - حين ارتدوا كفاراً - نحن
نبائع ذا العباءة .

قال : فلما دنونا قافلين من المدينة قلت : يا أبا بكر رحمك الله ، إنما صحبتك
لينفعنى الله تعالى بك ، فانصحنى وعلمنى ، قال : لو لم تسألنى ذلك لفعلت ، أمرك
أن توحد الله تعالى ولا تشرك به شيئاً ، وأن تقيم الصلاة ، وأن تؤتى الزكاة ، وتصوم
رمضان ، وتحج البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولا تتأمرن على رجلين من المسلمين أبداً .
قال : أما ما أمرتنى به من توحيد الله عز وجل فإنى والله لا أشرك به أحداً أبداً ، وأما
الصلاة فلن أتركها أبداً إن شاء الله تعالى ، وأما الزكاة فإن يكن لى مال أؤدها إن شاء
الله تعالى ، وأما رمضان فلن أتركه أبداً إن شاء الله تعالى ، وأما الحج فإن أستطع أحج إن
شاء الله تعالى ، وأما الجنابة فساغتسل منها إن شاء الله تعالى ، وأما الإمارة فإنى رأيت
الناس يا أبا بكر لا يصيبون هذا الشرف وهذه المنزلة عند الناس إلا بها فلم تنهانى عنها ؟

قال : إنك استنصحتنى فجهدت لك نفسى ، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله تعالى :

(١) سبل الهدى والرشاد للصلحى ٦/٢٦٨ وهى عند البخارى ك المناقب ح (٣٣٨٩) ، ومسلم ح (٤٣٩٦) .

(٢) فدكية : صنع فذك .

(٣) الخلال : العود يخلل به الثوب والاسنان .

إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين ، فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعاً وكرهاً فلما دخلوا فيه أجارهم الله من الظلم ، فهم عواذ الله وجيرانه وفي ذمته وأمانته ، فلإياك أن تخفر ذمة الله في جيرانه ، فيتبعك الله تعالى في خفرته ، فإن أحدكم يُخفر في جاره فيظل ناتئاً (١) عضله (٢) غضباً لجاره أن أصيب له شاة أو بعير ، فالله تعالى أشد غضباً لجاره ، وفي لفظ ، فالله من وراء جاره .

قال : ففارقته على ذلك ، فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ ، واستخلف أبو بكر على الناس قَدِمْتُ عليه فقلت له : يا أبا بكر ألم تكن نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، فقلت له : فما حملك على أن تلي أمر الناس ؟ قال : اختلف الناس ، وخشيت عليهم الهلاك ، وفي رواية : الفرقة ودعوا إلى فلم أجد بداً من ذلك (٣) .

١٢ - عوف بن مالك والجزور : (روى البيهقي عن طريق ابن إسحاق قال : كنت في الغزاة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، هي غزوة ذات السلاسل ، فصحبت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فمررت بقوم وهم على جزور قد نحروها ، وهم لا يقدرون على أن يبعضوها ، وكنت امرأةً لبقاً جازراً ، فقلت لهم : أتعطوني منها عشيراً على أن أقسمها بينكم ، قالوا : نعم ، فأخذت الشفرة فجزأتها مكاني ، وأخذت جزءاً فحملته إلى أصحابي ، فأطبخناه وأكلناه ، فقال لي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، أنى لك هذا اللحم يا عوف ؟ فأخبرتتهما ، فقالا : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا ، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما منه .

فلما قفلا من ذلك السفر ، كنت أول قادم على رسول الله ﷺ فجئته وهو يصلى في بيته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : « أعوف بن مالك ؟ » فقلت : نعم ، بأبى أنت وأمى ، فقال : « أصحاب الجزور ؟ » ولم يزدني على ذلك شيئاً ، زاد محمد بن عمر ثم قال رسول الله ﷺ « أخبرني » ، فأخبرته بما كان من سيرنا وما كان من أبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ومطاوعة أبى عبيدة ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح » (٤) .

* * *

(٢) عضله : جمع عضلة .

(١) ناتئاً : متفخفاً مرتفعاً .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢٦٥/٦ - ٢٦٦ . وهو عند ابن هشام فى السيرة ١٠٤٣/٢ وعند الواقدي ٧٧١/٢ - ٧٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ٦ / ٢٦٨ .

١ - المال الصالح للرجل الصالح :

لقد كان عليه الصلاة والسلام يبنى الرجال ، وأنشأ الجيل الأول على يديه ، أما عمرو فقد جاء فى صياغة كاملة ، وبلغ مرحلة القيادة فى الجاهلية ، ويود ﷺ أن يسخر هذه الطاقات كلها لتعمل فى سبيل الله ، فكانت الإشارة النبوية :

يا عمرو : اشدد عليك سلاحك واتنى .

وكم شد عمرو سلاحه وثيابه ، وتهيأ لحرب الإسلام والمسلمين ، أما الآن فإنه للمرة الأولى يشد ثياب الحرب عليه ويعد سلاحه بأمر رسول الله ﷺ ، فهو يمضى إلى المجهول ، لكنه فى قمة السعادة فقد آن الأوان ليمضى مجاهداً فى سبيل الله ، وإذا كان خالد بن الوليد وهو الأبرع والأكفأ فى الحرب منه لم يوله القيادة عليه الصلاة والسلام فى مؤتة ، إنما تركه يمضى جندياً مغموراً فى هذه الآلاف الثلاثة ، فعمرو إذن سيكون مثل خالد فى خطواته الجهادية الأولى .

وها هو النبى ﷺ يصعد فيه النظر ويصوبه ، وفى ذهنه هذا المعدن النفيس الذى يتلأأ رجولة وشهامة فقال له .

يا عمرو إنى أريد أن أبعثك بعثاً فيسلمك الله ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، وكان قلب عمرو يخفق وهو يسمع هذا التكليف النبوى العظيم ، ولا يكاد يجزؤ أن يرفع بصره برسول الله ﷺ ، لكنه وهو يسمع هذا الأمر المحبب إليه ، دار بذهنه صورة قائمة مع هذا الأمر ، فرسول الله ﷺ يعده بالسلامة والغنيمة ، ويحب له أن تكون غنيمة وافرة فى هذا البعث ، ترى هل هان فى عين المصطفى ﷺ بحيث راح يعامله لتأليف قلبه بالمال ، وهو قد آمن الإيمان الذى أصبح يضارع الجبال ، والإخلاص لله وحده ، والتخلى عن زينة الدنيا من المال والولد ، هو الذى ربى عليه النبى ﷺ أحبابه والخُلص لديه .

كان لابد أن يزيل هذا القلق الذى ارتسم على وجهه بعد أن نهب قلبه .

قال : يا رسول الله : إنى لم أسلم رغبة فى المال ، إنما أسلمت رغبة فى الجهاد والكينونة معك فقد صغرت الدنيا كلها فى عينيه منذ تلك اللطمة التجاشية فى الحبشة له ، والتي أعادت تركيبه وصياغته من جديد ، وبائع التجاشى ابتداءً على الإسلام ، ثم أتى وبائع رسول الله ﷺ عليه .

إنه يريد أن يجاهد فى سبيل الله ، خالصاً له وحده ، بعد أن أفنى عمره مخلصاً للصد عن سبيل الله ، وما كان المال مطمعه فى الجاهلية فى هذه الحرب ، إنما نصرَ

عقيدته التي ورثها عن آبائه وأجداده ، وهو إذن صغير جداً لعيني نبيه عندما يود أن يتألفه بالمال ، وأعظم الرجال يبقى المال عندهم وسيلة لا غاية ، فالمال سلم المجد عندهم ، وصغار النفوس هم الذين يعبدون المال ، أما في الإسلام ، فالمال والمجد والشهرة أدوات لطاعة لله تعالى ، فكان جواب السيد العظيم :

يا رسول الله : إنني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكيونة معك وبإله من تعبير رائع ، والكيونة معك ، فقد ربط نفسه بقائده وحببه ورسوله حتى الموت ، وأدرك عليه الصلاة والسلام ما كان يعتمل في نفس عمرو ، وأزال تلك الغشاوة الثقيلة التي جثت على قلب جنديه الحبيب عمرو ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يعلم أن عَمْرًا يقبل الدنية ، ويعشق المال لقطمه عن ذلك ، ولم يرغب به ، وحذر منه ، لكنه عليه الصلاة والسلام يعرف خلق قلب عمرو منه ، وأن المال في الجاهلية والإسلام إنما كان وسيلة عنده ، ليس رغبة وهدفاً في حد ذاته ، فأعلمه إنما يقبل ذلك به له ، لانه رجل صالح ونعماً المال الصالح للرجل الصالح .

والطريق طويل أمام عمرو ، أما زيد وجعفر وابن رواحة ، فقد كانت خاتمة الطريق عندهم ، وهو يضعهم على رأس القيادة .

« ... فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليصطحب المسلمون على أمير » .

لقد أدى القادة الثلاثة ما عليهم ومضوا إلى ربهم في عمر جليل كان كله لله .

أما عمرو فهذه أول خطواته الجهادية في سبيل الله بعد عمر مثقل بالصد عن سبيل الله ، ولهذا قال له عليه الصلاة والسلام : « فيسلمك ويغنمك » .

٢- إلى بلى وقضاعة ولخم وجذام :

إلى الخط نفسه الذي مضى إليه سلفه خالد بن الوليد ، إلى تلك القبائل العربية الضاربة شمالاً ، والتي صحت بعد هول الصدمة الفاجعة التي تلقتها من خالد ، ولم تكذبصدق هل أنها خسرت المعركة من ثلاثة آلاف مقاتل ، وهل ستبقى تحمل هذا العار إلى الأبد ، ولم لا تغسل المدينة كلها من المسلمين حتى تغسل العار الذي لحقها من ذلك .

لقد رأينا العرب الذين قادهم مالك بن رافلة الأراشي ، المائة ألف أنهم كانوا : (مائة ألف من الروم وانضم إليهم مائة ألف من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلى عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له مالك بن رافلة) (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٣٤ / ٦ .

هذا فى مؤتة ، وفى ذات السلاسل (قال البلاذرى فلقى العدو من قضاة وعاملة ولخم وجذام وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة) (١) .

ولكن عمرو بن العاص لم يكن اختياره اعتباطيا ، بل كان ضمن هدف محدد ، فإن كانت الآلاف الثلاثة الأولى قد مضت لتثار لمقتل رسول الله ﷺ الذى قتله شرحبيل الغساني ، وعمرو بن العاص هو ولد قضاة عامة وولد بلى خاصة إن أم العاص ابن وائل من بلى ، ولا يبعد أن يكون عمرو قد مضى فى طفولته لزيارة أخواله من بلى ، فقد مضى رسول الله ﷺ فى طفولته لزيارة أخواله من بنى النجار وهم أخوال جده عبد المطلب ، وتعلم العوم فى طفولته عندهم ، فهل هناك غرابة أن يكون عمرو قد مضى مع أبيه العاص لزيارة أخوال أبيه من بلى .

ومن أجل هذا وجدنا أن ما ذكر عن هذه الغزوة هو هدف مزدوج :

الهدف الأول الذى رجحته الروايات ، والذى يشير إلى أن جموع قضاة ولخم وجذام تنأهب لغزو المدينة ، ثارا لما نزل بهم فى مؤتة .

الهدف الثانى الذى ذكرته رواية واحدة لابن إسحاق أوردها البيهقى فى دلائله :

(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله ﷺ يستألفهم لذلك) (٢) .

فالمهمة إذن مهمة دعوية ومهمة قتالية قادها بطل الحرب المجرب ، عمرو بن العاص ، والداعية الجديد لدين الله ، وللجمع بين المهمتين نشهد ذلك فى رواية ثالثة تقول : (وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب ، من بلى وعذرة وبلقين ، وذلك أن عمرا كان ذا رحم فيهم) (٣) .

يقول الصالحى : (فإن عمرا كان أحد دهاة العرب ، وكون العرب الذين أمر رسول الله ﷺ أن يستعين بهم أخوال أبيه كما ذكر فى القصة ، فهم أقرب إليه إجابة من غيره) (٤) .

وعظمة شخصية عمرو فى أن يستعمل دهاة فى تحقيق الأهداف الثلاثة معا : حرب المحاربين ، وتعبئة المسلمين معه ضدهم ، والدعوة إلى الإسلام ، مهمة تحتاج عبقرى وكان عمرو هو ذلك الرجل .

٣- ومعه سراة المهاجرين والأنصار :

ونلاحظ أن عدد السرية المتجهة إلى شمال الجزيرة هو عشر عدد سرية مؤتة ، فليست

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢٣ .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٧٠ .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٤ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٢ .

المهمة مواجهة مباشرة ، بمقدار ما هى مهمة حرب عصابات ، ومهمة دعوة لدين الله ، فكان معه ﷺ كبار المهاجرين والأنصار ، لقد كانت السرية ثلاثمائة ووجد فى جنودها من سراة المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين بالجنة ، وهما سعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص ، ووجد فيها أعظم قيادات الأنصار لم يتخلف من هؤلاء الأعاظم أحد ، فسادة الأوس هم كما تقول عائشة ﷺ : (وثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً كلهم من بنى عبد الأشهل ، سعد بن معاذ ، وعبد بن بشر ، وأسيد بن حضير) (١) .

أما اثنان منهم فكانا تحت إمرة عمرو فى ذات السلاسل ، وهما عبد بن بشر ، وأسيد بن حضير وثالث الثلاثة سعد بن معاذ ﷺ كان قد مضى شهيداً إلى ربه عز وجل واهتز له العرش .

أما سيد الخزرج بلا منازع ، وأطلق عليه كثير أسيد الأنصار ، فهو سعد بن عبادة ، وكان جندياً فى سرية عمرو بن العاص ، فقد وضع تحت إمرته ﷺ - وهو ابن الأشهر الخمسة فى الإسلام - خيرة خلق الله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وذلك ليوطن هذا الجيل نفسه فيما بعد كى يستفيد من هذه العبقريّة النادرة، ويسمع لها ويطيع فى مجال الحرب والمواجهة .

وهى تجربة كذلك لعمرو بن العاص ليرى نفسه فى لحظة من اللحظات فوق المسلمين جميعاً وأميراً عليهم ولما يفقه الإسلام بعد ، وأمثاله فى عالمنا المعاصر يكونون تحت المراقبة والحراسة .

٤ - مدد جديد بخيار أهل الأرض :

ومضى عمرو بن العاص ﷺ : فى هذه الصجراء حتى وصل إلى أرض العدو ، فبلغه أن جمعاً كبيراً قد استعد لمواجهته (حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - ويقال : السلسل - وبذلك سميت الغزوة ذات السلاسل ، بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، فبعث عمرو رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يخبره أن لهم جمعاً كثيراً ويستمدّه ، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ﷺ ، وعقد له لواء ، وبعث معه سراة المهاجرين كأبى بكر وعمر بن الخطاب وعدة من الأنصار ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص ، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا ، وكان أبو عبيدة فى مائتى رجل) (٢) .

يكاد يظهر أن مثل هذا الجمع من زعماء الأمة ، لم يلتق أبداً وبهذه الكثافة تحت راية أحد وقيادته إلا تحت راية رسول الله ﷺ فى الغزوات التى كان يقودها ، وهما نحن

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

نجده الآن يمضى مدداً إلى عمرو بن العاص ، ووصل المدد من العظماء إلى عمرو ، ولا ننسى أن نشير إلى حسن اختيار عمرو لرسوله . فرافع بن مكيث جهنى ، وهذه ديار جذام مجاورة لديار جهينة ، وطريقها واحد إلى المدينة ، فخبرته فى الصحراء لا تبارى ولذلك استطاع أن يذهب ويعود بالمدد بسرعة فائقة لأنه خبير الصحراء وابنها الذى تربى فيها ، وكان اللقاء المثير الغريب بين القائدين عمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح .

لم يكن يشك أحد من هذه القيادات أن عمرو بن العاص - ابن الخمسة أشهر - سوف يدع القيادة لأمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح ثالث الثلاثة ، صديق الأمة وفاروق الأمة ، أما عمرو فلم يملك بعد أى لقب أو أية رتبة عسكرية أو سياسية ، وأن يكون الجميع تحت راية أبى عبيدة بن الجراح هو الأصل الطبيعى ، لكن المفاجأة كانت مذهلة فعمر بن العاص يرفض أن يكون تبعاً لأبى عبيدة ، وقد أمره رسول الله ﷺ على الجيش .

الأزمة الأولى :

وتبقى هذه المفاجأة فى الحدود المعقولة ، فلا غرابة أن يصبر عمرو على قيادته للثلاثمائة الذين كان عليهم أميراً من قبل ، وإن كان هذا لم يكن مصدر راحة لكبار المسلمين فى الجيش .

لكن طموح عمرو كان أبعد من ذلك بكثير ، إنه يريد أن يكون أمير الجيشين معاً ، ولم يعرض هذا الأمر بتحرج أو حياء ، إنما عرضه بقناعة كاملة ، ومن خلال خبرته الحربية السابقة .

(فلما قدموا أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو : إنما قدمت على مدداً لى وليس لك أن تؤمنى وأنا الأمير .

وعمر بن لا يقبل إمامة أبى عبيدة ولا يرضى إلا إمرته على الجميع .

وأخذ الأمر فى صفوف المسلمين وقيادتهم حيزاً واسعاً واهتماماً كبيراً ، فلم يعهدوا فى تاريخهم كله مثل هذه الجرأة على الرعيل الأول ، ولم يشهدوا مثل هذا الإصرار على الإمارة ، فالأصل أن يتقاذفوها لا أن يتنازعوها ، وتفادياً لتصدع خطير فى الجيش .

(قال المهاجرون : كلا . بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه) .

ولم يكن هناك شك أبداً أن عمرو سيقبل هذا الواقع ، فكلاهما له من رسول الله ﷺ إمرة يتمسك بها ، فليبق كل أمير على أصحابه .

ورفض عمرو هذا رأى ، من خلال خبرته وتجربته فى الحرب ، فلا يمكن لجيش أن يكون بأمرين فى وقت واحد . وأن يكون التشاور مستمراً ، فإذا اختلفا ، فأى رأى

يمكن أن ينفذ .

أصرَّ عمرو على رأيه قائلاً : لا ، أنتم مدد لنا .

وفي الوقت الذي كان عمرو بن العاص ينافح ويكافح لتبقى له القيادة كلها ، ها هو يتلقى درساً عظيماً في التربية من الرعيل الأول من أبى عبيدة بن الجراح .

وألقي أبو عبيدة درسه النظرى ابتداءً فقال :

يا عمرو : إن رسول الله ﷺ قال : « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني أطعتك ، ومضى عمرو يغذى طموحه بعد أن رأى ذلك اللين والذلة بين المؤمنين من أمين الأمة ، الذى تمثلت به مواصفات الجليل الخالد : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فقد بلغ من شدته على الكفار ، وألا تأخذه فى الله لومة لائم ، أن قتل أباه فى غزوة بدر حتى ضربه الله تعالى مثلاً حياً لحزب الله .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة] ، ولن تجد فى الدنيا كلها أعظم بطولة ، وأشد رجولة ممن يقتل أباه فى سبيل الله ، فهذا هو حزب الله ، ومن هو فى هذه البطولة وفى هذه الشدة ، وفى هذه العظمة ، هو هو نفسه الذى يلين لإخوانه ويلين لهذا الوافد الجديد ، ليربيه على مفهوم الطاعة ، ويربيه على مفهوم الإيثار ، ويربيه على مفهوم الذل للمؤمنين أن يقول له ولئن عصيتنى لأطيعنك ، وقال عمرو : فإنى أمير عليك وإنما أنت مدد لى ، قال أبو عبيدة : فدونك ، ثم نفَّذَ الدرس العملى مباشرة ، وعلى الملا .

(فصلى عمرو بالناس) .

وها عمرو بن العاص ، وخلال خمسة أشهر يصبح أميراً على قادة الدنيا وسادة أهل الأرض ، يصبح أميراً على جيش فيه عظماء الأمة الثلاثة ، الصديق والفاروق والأمين ، وفيه سادة الانصار سعد بن عباد ، وأسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، ويتقدم ليصلى بهؤلاء جميعاً ، يسمعون له ويطيعون وجاء المغيرة بن شعبة خريج الدورة الخامسة دورة الحديبية إلى أميره أبى عبيدة قائلاً له : (إن رسول الله استعملك علينا ، وإن ابن فلان قد اتبع أمر القوم ، فليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة : وهو خريج الدورات كلها والجامعات كلها :

العهد السرى ، دار الأرقم ، الهجرة ، بدر ، الحديبية ، خريج هذه الدورات جميعاً

يعود لتربية أخيه المغيرة بن شعبة قائلاً :

(إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطوع ، فإنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو)

هذا الهدف العظيم والدرس الخالد الذى قدّمه أبو عبيدة ليس لعمرو فقط ، وليس للمغيرة فقط ، وإنما لجميع المسلمين استقاءه من قول المصطفى ﷺ : لا تختلفا ، فلا يجوز أن يكون اختلاف فى القيادة ، والمسؤول عن تحقيق هذا الهدف أبو عبيدة وليس عمرو بن العاص المسؤول عن التنفيذ هو الذى يملك من الإيمان ، واليقين ، والإخلاص له ما يستطيع أن يخوض عباب هذا البحر حلماً وصبراً وأناة وليناً ، ويتنازل هو حتى لا يقع الخلاف ، وتتصدع الأمة ، ويتمزق الشمل ، إنه ما ذبح الأمة إلا الخلافات فيها ، كان هذا الدرس العملى الذى تنازل فيه أبو عبيدة رضي الله عنه عن القيادة لأخيه عمرو بن العاص ، ويحسم الأمر ، ويدعه يصلى بالمسلمين ويقف وراءه كما يقف بجواره أبو بكر وعمر وسعد وأسيد والمسلمون جميعاً خلفهم .

الأزمة الثانية :

وجاء الدرس العظيم الثانى من الصديق :

لقد كانت حركة الجيش فى موسم البرد ، ووصف بردها عمرو نفسه بقوله :
فى (. . . ليلة باردة كأشد ما يكون البرد) وراح يتحدث عنها أمام نبيه - عليه الصلاة والسلام - والذى بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله .

وفى مثل هذه الأجواء وحين يجلس الجيش للنوم يحس بلسعة البرد أكثر ، ولن يتمكن أحد من النوم فيه ، فراحوا يجمعون الحطب ليقودوا النار ، وإذا لفظ بدأ يتشرب فى الجيش كله ، إن الأمير ينهاكم أن توقدوا ناراً ، وليست لحظة ، وليست ساعة إنها الليل كله ، فكيف إذن يفعلون فى هذا البرد القارس ، وراحوا يلجؤون لكبار الصحابة يرجونهم أن يراجعوا الأمير، لعله يغير رأيه، فقد كادوا يقتلون من البرد، وتعلمل الجيش ، وتذمر الجيش ، وحاول بعضهم أن يوقد النار ، فجاء الجواب على لسان الأمير عمرو: إن الأمير ينهاكم أن توقدوا ناراً، ويحث المسلمون عن أفضلهم وأحبهم إلى رسول الله ﷺ .
ففيهم رئيس الوزراء أبو بكر الصديق ، جاؤوا إليه يستشفعون ، عند عمرو ابن العاص ، لعله يغير أمره فكل لحظة تمر على المسلمين كأنها سنة، ولا صبر على هذا البرد القارس ، ورضى أبو بكر رضي الله عنه أن يكون شقيقاً عند عمرو بن العاص ، ولا شفاعاً فوق شفاعته ، فقال عمرو للصديق :

(لا يوقد أحد منهم ناراً إلا قذفته فيها) .

وخرج الصديق ذو القلب الرحيم يكاد يكون داعم العينين لهذا الجواب الفج الغليظ، فلا يعظم الأمير أحد ، ولا يقبل شفاعته أحد ، وخرج أبو بكر للناس ، وقرؤوا الجواب بين عينيه ، فالأمير مصر على موقفه ، وهم يطلبون الإشارة منه أو من عمر أو من أبي عبيدة ، حتى ينفذوا ما يريدون بتوجيههم ولعله اعتمل في قلوب الكثيرين من المسلمين ، أن عمرو بن العاص لا يزال على جاهليته ، وقد تظاهر بالإسلام وهو يريد أن ينتقم من المسلمين ويعذبهم ويقتلهم برداً في هذا الليل فهل يسكت عنه ، ولا يمكن أن يكشف هذا الأمر ، ويقدم على مواجهته إلا عمر رضي الله عنه ، وجاؤوا إليه يوغرونه على عمرو وليس بحاجة إلى أن يوغر صدره أحد ، لكن لا يريد أن ينفرد برأى عن أميره الحقيقي ، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قال له ولأبي بكر : « لو اجتمعنا على رأى ما خالفناكما » .

فإذا اجتمعنا على أمر فلا خيار لعمرو في مخالفتها ، لأن رسول الله ﷺ لا يخالفهما، ومضى متوتر الأعصاب غاضباً إلى الصديق ؛ ليتخذ رأياً واحداً يواجهان به عمرو بن العاص ، أو يدعه يتصرف مع الأمير بما يراه في هذا الموقف .

(فغضب عمر بن الخطاب ، وهم أن يأتيه فنهاه أبو بكر) لقد تشاجر عوف بن مالك الأشجعي مع خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وتوعده عند رسول الله ﷺ ، ولو أن المسلمين رأوا عمر بن الخطاب يأتي ابن العاص ويناقشه أمام الملأ ، لاسقط في يد عمر ، وعمر نفسه يتساءل بنفسه ولا يكاد يصدق ، هل يسمع له ويطيع كل هذه القيادات ، أفصبح قيادات المسلمين كلها تحت إمرته، وهو يطلب منها الآن ما هو أشق ما يكون على نفسها ، أن تعاني من آلام البرد وشدته في هذه الصحراء التي لا مأوى فيها ولا بيت ولا ظل يقي منه ، والخطب متوافر ، يمكن أن يوقد النار ، ويبعث الدفء في كل جسد ، وها هو الآن يتوقع في كل لحظة تمرداً وثورة ، وكل ما يخشاه هو أن يشارك فيها أحد القادة الثلاثة ، وجاءه أبو بكر فردّه ، وعمر شديد وقاس ، فهل يتم الأمر دون أزمة عنيفة بينهما ؟ لكن أبا بكر رضي الله عنه أحكم الموقف وأقنع عمرًا بقوله :

« إن عمرًا لم يستعمله رسول الله ﷺ علينا إلا لعلمه بالحرب » ، وطاعة أولى الخبرة واجبة ، وليس أبو بكر وعمر بأقل خبرة بالحرب من عمرو ، ولكنه الآن هو الأمير وأثبت هذا الجيش أعظم مستوى من الانضباط والطاعة رغم الهياج الضخم والغضب الشديد من عدم إيقاد النار ونفذ عمرو مخططة كاملاً ليبدأ بهجومه مع الفجر ، ولم توقد نار واحدة ، ولم تسجل مخالفة واحدة ؛ لأن المشرف على الأمة ساداتها يربونها على السمع والطاعة للأمير مهما كانت المشقة فيها .

الأزمة الثالثة :

فقد صدرت الأوامر ألا يتبع أحد جندياً من جنود الأعداء إن فر منه ، ولا يثبت النصر إلا بملاحقة الجندي الفار وقتله وأخذ سلبه ، ولم يُبين عمرو رضي الله عنه سبب هذا المنع وغدا الجيش كله يتحمل من شدة أوامره ، والغنيمة التي يطمع بها المقاتل في سلب العدو كثيرة ، حين يقتل عدوه .

أزمات نفسية تواجه المسلمين من هذه القيادة ، ويذكرون أن رسول الله ﷺ هو الذي أمره فيصمتون طاعة لله ولرسوله ، لكن القيادة للمعركة برزت في اليوم الثاني ، وبرزت العبقرية في هذه القيادة ، فهؤلاء الخمسمائة (سار الليل وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ودوخها كلها ، حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع ففرقوا ، فسار حتى إذا انتهى إلى أقصى بلادهم ، ولقى في آخر ذلك جمعاً ليسوا بالكثير فاقتتلوا ساعة وحمل عليهم المسلمون فهزموهم ، وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هنالك وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويأكلون ، ولم يكن أكثر من ذلك ، لم يكن في ذلك غنائم تقسم ، كذا قال جماعة (١) .

فقد أصبح اسم المسلمين يثير الرعب في صفوف هذه القبائل ، ولا يكاد جمع يهجم بالهجوم إلا ويرى المسلمين قد انقضوا عليه فينفض الجمع نفسه وينشر الرعب والخوف في صفوف جيرانه ، والمسلمون في أرض أعدائهم كأكلة جزور ، ولم يضربوا ويهربوا وانتهى الأمر ، بل يهجمون ويتحدون ، ويتشرون ويلاحقون ، وصاروا سادة الساحة كلها ، وقفل عمرو رضي الله عنه عائداً بجيشه المظفر ، وهو متاهب للمواجهة في طريق العودة كذلك ، وفي طريق العودة كانت .

الأزمة الرابعة :

التي أعادت ثانية جو الريبة والتحمل من القائد ، فقد أصبح عمرو رضي الله عنه جنباً ، وسأل المسلمين ، وكلهم فقهاء في دين الله فأعلموه الغسل من الجنابة أنه هو الحل ، وكيف يتم الغسل في هذه الصحراء المهلكة والبرد قد جمّد النبات فكيف بالإنسان ، ورأى عمرو رضي الله عنه خطورة الاغتسال في هذه الليلة الباردة ، فغسل مغابته وتوضأ ، وأن الألوان لصلاة الفجر فتقدّم وصلى بالناس ، وانتشر الخبر في الجيش كله ، صلى بالناس وهو جنب ، ولا شك أن الناقمين عليه كانوا يزيدون في نشر هذا الخبر ، فهو يمنع عنهم النار ويدعهم يعانون من شدة القر ، وها هو الآن يخاف القر ، ولا يغتسل ويصلى بالناس

(١) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٦٤ .

وهو على جنابة ، ولا ترتفع الجنابة إلا بغسل ، ويكاد يسود فى صف بعضهم الشك فى إسلامه ، وضعف دينه ، فهم قد غضبوا منه ابتداء حين رأوه يصر على التراس وحب السيادة ولا يتنازل عن الإمارة لسادة الدنيا أمثال : أبى عبيدة وأبى بكر وعمر ، اجتمعت هذه العوامل كلها فشككت تياراً كبيراً ضده ، ومع وصول عمر رضي الله عنه إلى المدينة ، ومع وصول الاخبار السارة عن النصر ، ورغم كل النقد حوله ، فلم يتمكن أحد أن ينال من عبقرية قيادته للمعارك التى خاضها ، والتخطيط الجيد لها ، لكن رفعت عليه ثلاث دعاوى أمام رسول الله ﷺ ، وانعقدت .

المحاكمة الميدانية :

التي كان رسول الله ﷺ هو القاضى فيها ، وكان عمرو بن العاص هو الأمير المتهم فيها ، وهذه هى وقائع المحاكمة المثيرة العظيمة التى انتهت فى دقائق حيث وصل لنا ملف الدفاع كاملاً كما رواه الحافظان الطبرانى وابن حبان .

الدعوى الأولى والثانية : أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ منى لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو .

الدفاع : يا رسول الله : إني كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم .
الحكم : فحمد رسول الله ﷺ أمره .

وخرج من المحاكمة بريئاً من التهم مشهوداً له بالعبقرية الحربية حيث حمد له رسول الله ﷺ فعله .

أما الدعوى الثالثة : ونأخذها من مذكراته رضي الله عنه كما رواها أبو داود وأحمد رحمهما الله :

(احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح) (١) .

الدعوى : فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ .

رسول الله : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟

المتهم : فأخبرته بالذى منى من الاغتسال وقلت : إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢٩) ﴿ [النساء] .

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الحكم : فضحك رسول الله ﷺ .

وانفضت المحكمة بالبراءة .

أبو بكر رضي الله عنه ورافع :

هذا رافع قبل الإسلام كما يحدثنا عن نفسه :

(كنت امرأة نصرانياً ، وسميت سرجس ، فكنت أدل الناس وأهداه بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه ، حتى أمر بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام ، فأستخرجه فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (١) .

هو رافع بن أبي رافع بن عميرة الطائي ، وطئ قد دخلتها النصرانية ، وكان عدى ابن حاتم سيد طيئ نصرانياً ، وهو الذي وفد على رسول الله ﷺ فيما بعد ، وهو مغامر بطل صعلوك من صعاليك العرب الذي كان يعيش على الإغارة على القبائل ، واختارها طريقاً لشهرته في الحياة ، وحدثنا كيف كان يدفن الماء في بيض النعام بالرمل ، ثم يسرق الإبل إلى هذا الرمل ، فيأس الناس منه ، وفي هذه الصحراء العريضة التي تصهر الإنسان وتصهر الأشياء يخرج مدفونه من الماء فيحیی .

وشاء الله تعالى أن يسلم في هذه السنة الثامنة وقبيل ذات السلاسل ، وانضم جندياً مع المدد الذي بعثه أبو عبيدة لعمرو ، ويذكر ابن إسحاق في المغازي فيما رواه عنه ابن حجر في الإصابة ؛ (أنه هو الذي كلمه الذئب فيما يزعم طيئ ، وكان في ضأن يرهاها فقال في ذلك :

فلما أن سمعت الذئب نادى يبشرني بأحمد من قريب
فألفيت النبي يقول قولاً صدوقاً ليس بالقول الكذوب (٢)

ولا يبعد أن تكون الرواية صحيحة ، فما الذي يدفعه إلى الإسلام ، ولم تسلم قبيلته بعد ، وهو معن في هذه الصحراء ، ويعيش وراء فتكه ولصوصيته ، والواقدي هو الذي حدثنا عن خروجه مع المدد (وكان رافع بن أبي رافع الطائي يقول : كنت فيمن نفر مع أبي عبيدة بن الجراح ، وكنت رجلاً أغير في الجاهلية على أموال الناس) .

وكانت أول رحلاته مع هذا الجيش ، وندع الحديث له بعد ذلك :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٢٦٥ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١٨٨/٢/١ ت (٢٥٣٤) .

(فلما نفرت فى ذلك البعث قلت : والله لا اختارن لنفسى صاحباً ينفعنى الله به ،
فاخترت أبا بكر الصديق ، فصحبته ، وكان له عباءة فذكية ، فإذا ركب خلها عليه
بخلال ، وإذا نزل بسطها ، فلما قفلنا قلت : يا أبا بكر : رحمك الله ، علمنى شيئاً ينفعنى
الله به . . .) .

وإن كان الواقدى لا ينقل لنا عن صحبته شيئاً مع أبى بكر إلا قصة العباءة ، فقد
روى ابن خزيمة عن طريق ابنه طارق بن رافع ، إضافات ممتعة وهى بلسان أبيه :
(قلت : لا اختارن لنفسى رفيقاً صالحاً ، فوفق لى أبو بكر ، فكان ينمنى على فراشه ،
يلبسنى كساءً له من أكسية فذك) (١) .

وبهذه الإضافة تتجلى عظمة الحديث عن العباءة الفذكية ، فقد كان الصديق رضي الله عنه
أمة وحده ، فها هو يؤثر صاحبه ، فينميه على فراشه ، ويلبسه كساءه ، فيبقى بلا كساء ،
لا يلبس على جسده إلا العباءة الفذكية التى يشلها بالأعواد حتى تستر صدره وظهره ،
فإذا نزل بسطها للجلوس عليها ، وهو سيد المسلمين بلا منازع ، وخير هذه الأمة بعد
رسول الله ﷺ ، وعاش إذن فى رحلته هذه يشهد إثثار سيد المسلمين له فى منامه وملبسه
ومنزله ، فملأت هذه المعاملة حياته ، وكانت التربية التى تلقاها تربية عملية ، ولم يكتف
بذلك فقال : (فلما دنونا من المدينة قافلين قلت : يا أبا بكر إنما صحبتك لينفعنى الله
بك ، فانصحنى وعلمنى ، قال : لو لم تسألنى ذلك لفعلت ، أملك أن توحده الله تعالى
ولا تشرك به شيئاً ، وأن تقيم الصلاة ، وأن تؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج
البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولا تتأمرن على رجلين من المسلمين أبداً ، قال :

قلت : أما ما أمرتنى به من توحيد الله عز وجل فإنى والله لا أشرك به أحداً أبداً ،
وأما الصلاة فلن أتركها أبداً إن شاء الله تعالى ، وأما الزكاة فإن يكن لى مال أؤدها إن
شاء الله تعالى ، وأما رمضان فلن أتركه أبداً إن شاء الله تعالى ، وأما الحج فإن أستطع
أحج إن شاء الله تعالى ، وأما الجنابة فساغتسل منها إن شاء الله تعالى ، وأما الإمارة
فإنى رأيت الناس يا أبا بكر لا يصيبون هذا الشرف ، وهذه المنزلة عند الناس إلا بها فلم
تنهانى عنها ؟) .

لقد ذكر الصديق لرافع أركان الإسلام الخمسة التى لا يقوم الإسلام إلا بها الشهاداتتان
والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وهذه الأمور من الفروض التى يتزلزل إيمان المسلم ما
لم يأت بها ، وإنما يهدم ركناً من أركان دينه لو تخلى عنها ، والاغتسال من الجنابة مفتاح
الصلاة التى لا تتم الصلاة إلا به ، لكن ما بال الإمارة ، وما دورها فى رفقة هذه

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ١٨٨/٢/١ ت (٢٥٣٤) .

الأركان حتى لينهاه عنها كما ينهاء عن الشرك بالله تعالى ، وليست أية إمارة إنما لو كانت على اثنين فلا ينصح بها ، فكيف إذا كانت على أكثر ، والبون شاسع جداً بين تصور رافع وتصور الصديق ، فرافع يرى أن طريق الحياة والشهرة والمجد إنما يتم عن طريق الإمرة والسيادة ، فلم يستوقفه من هذه الوصية شيء كما استوقفته منها هذه الفقرة .

وفى رواية ابن هشام فى السيرة :

(وأما الإمارة فإني رأيت الناس لا يشرفون عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها فلم تنهني عنها ؟) (١) .

قال : إنك استنصحتني فجهدت لك نفسى ، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله : إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعاً وكرهاً ، فلما دخلوا فيه أجارهم الله من الظلم ، فهم عواذ الله وجيرانه ، وفى ذمته وأمانته ، فإياك أن تخفر ذمة الله فى جيرانه فيتبعك الله تعالى فى خفرتة ، فإن أحدكم يخفر فى جاره ، فيظل ناتئاً عضله غضباً لجاره أن أصيب له شاة أو بعير ، فالله أشد غضباً لجاره ، (وفى لفظ : فالله من وراء جاره) .

ونخلص هنا ونحن نتلقى عن سيد المسلمين أبى بكر إلى أهمية العدل فى الإسلام ، وأنه ركن من أركان هذا الدين ، وأول ثمرة من ثماره ، فدخل الناس فى دين الله ، هو دخول فى جواره ، وأجارهم الله تعالى بهذا الدخول من الظلم ، ومهمة الأمير والحاكم المسلم أن يحقق العدل الذى قامت به السموات والأرض فى أى حكم يصدره ، وليس الأمر من السهولة واليسر أن يتمكن أى إنسان .

إن الحكم والإمارة لهما طريقان وخطان متميزان :

الطريق الأول : وهو الذى كان يتصوره رافع بن أبى رافع رضي الله عنه هو طريق الشهرة عند الناس وحب الذكر والصيت ، والرغبة الجارفة فى الزعامة ؛ ليصبح الزعيم حديث الناس ومركز تفكيرهم ، وصاحب السيطرة على قلوبهم وأجسادهم وأموالهم ، وهو طريق الجاهلية ، حتى ولو كان لشهرة عند رسول الله ﷺ .

الطريق الثانى : وهو الذى صحح فيه الصديق هذا الفهم الخاطئ ، وهو أن الحكم والإمارة هى طريق إقامة العدل بين الناس ؛ لأن الحاكم مهمته أن ينفذ إرادة الله تعالى فى إجارة عبيده من الظلم ، فلو أخل بهذا التنفيذ فإن هذا يعنى أنه صار مخاصماً لله ، محارباً لله تعالى ، محل غضب الله وسخطه ، والله تعالى هو خصمه ؛ لأنه آذى الله تعالى فى جيرانه من خلقه الذين أجارهم من الظلم بدخولهم بهذا الدين . إن مهمة الإسلام

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠٤٣ .

الأولى إذن فى البشرية بعد توحيد الله تعالى والدينونة له بالعبودية والطاعة هى إقامة العدل فى الأرض ، والإجارة من الظلم ، فإذا كان الأمير لا يعرف فى نفسه القدرة على تحقيق هذا العدل ، فليتعد عن ذلك حتى لا يصبح خصم الله وعدو الله الذى يطلبه الله تعالى فى خفرتة .

ولعل هذا المعنى يدركه أول ما يطالب بإدراكه الدعاة والعاملون لهذا الدين فى الأرض ، والمجاهدون لإقامة شريعة الله فيها ، وهم أمناء الله تعالى على دينه ، فإذا ببعضهم وقبل أن يصلوا إلى الحكم يتصارعون على المناصب ، وهذا البعض هو من القيادات التى كانت محل ثقة الناس ، وولاء الناس لهم .

ولعل ما أصاب إخوتنا الأفغان يعطينا دليلاً صارخاً على ذلك ، فقد قدم الشعب الأفغانى المسلم ومن ورائه شباب العالم الإسلامى قرابة مليون ونصف شهيد ثمناً لإقامة شريعة الله فى الأرض وللتمكن لدين الله فى أفغانستان ، وكان أكبر أحلام المسلمين فى نهاية هذا القرن أن يسمعوا عن سقوط كابل بيد المجاهدين ، وأذن الله تعالى بالنصر ، ودخل قادة المسلمين كابل ، وسقط الحكم الشيوعى ، وانتظر المسلمون الفجر الذى يزين هذا القرن ويتوجه بإقامة شريعة الله فى الأرض ، فى هذه الديار التى غدت مهوى أفئدة المسلمين فى كل مكان ، وإذا بنا نشهد حرباً بين الإخوة القادة ، تدخل الآن عامها السادس ، ودمرت كل ما تبقى من حياة وعمران فى أفغانستان ، وجعلت الناس ينسون مآسى الكفرة الملحدون بما يعانونه من مآسى صراع الإخوة المجاهدين .

ونعود معاً لرافع بن أبى رافع الذى يسمع أخطر درس فى حياته عن مفهوم الإمرة من أكبر وزراء رسول الله ﷺ ، لنشاهده يشد الرحال إلى الصديق الذى أوصاه ألا يتأمر على اثنين ، حيث صار خليفة للمسلمين فى الأرض .

(قال : ففارقه على ذلك ، فلما قبض رسول الله ﷺ ، واستخلف أبو بكر على الناس قدمت عليه فقلت له :

يا أبا بكر : ألم تك نهيتنى عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، فقلت له : فما حملك على أن تلى أمر الناس ؟ قال : اختلف الناس وخشيت عليهم الهلاك) .

(وفى رواية : الفرقة ، ودعوا إلى فلم أجد بداً من ذلك) .

وصدق صديق الأمة ، كما قالها - عليه الصلاة والسلام - ثلاثاً عندما سمع عمر يصلى بالناس فقال : « يابى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا بكر ، يابى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا

بكر، يأبى الله ذلك والمؤمنون إلا أبا بكر ، حتى ولو كان عمر هو الإمام ، وحين يصلى اليوم أبو بكر رضي الله عنه وراء عمرو بن العاص إنما هي عملية تدريبية تربوية لهذا الناشئ في دين الله ، والذي أراد المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يغسل له صفحة الجاهلية السابقة بهذه الصفحة الناصعة ، ويأخذ مكانه وموقعه في الأمة ، والذي حدا بالصديق أن يقبل الخلافة هو الذي حدا بأبى عبيدة أن يعطى الإمرة لعمرو تجنباً للفرقة والخلاف ، ولا شيء يذبح الأمة مثل الخلاف بين قادتها، والصراع على المناصب فى صفوفها فحين كان الصديق رضي الله عنه هو العاصم من الخلاف ، وهو الذى تجتمع عليه الأمة ، كان لابد له من قبول ذلك وهو يتمنى ألا يتأمر على اثنين ، وهو الذى روض نفسه ألا يرضى الإمرة على اثنين خوفاً من الله عز وجل أن يطلبه فى خفرته ، ولم يجد أهم من هذه الوصية يوصى بها رافع صاحبه فى هذه الغزوة ، لقد فطم قلبه عن الدنيا ، وعندما حين يقبل الإمارة إنما يقبلها تكليفاً وكرهاً لا يتشوق إليها بل يفر منها فراره من غضب الله، ولمثل هؤلاء تدين الدنيا، وكما وصفه معاوية رضي الله عنه :

فأما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وبقيت وصيته لصديقه رافع على ما هى عليها وهو يلى أمر الناس ، بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك .

ونبحث عن رافع بعد هذه الوصية فنلقاه وقد تلقى درس الزهد والإيثار عن الصديق يصفه عمرو بن حيان الطائى بقوله :

(كان رافع بن عميرة يغذى أهل ثلاثة مساجد يسقيهم الحيس وما له إلا قميص واحد للبيت والجمعة) وابتعد عن الأضواء ، وترك طريق الشهرة عند الناس ، واكتفى أن يضع خبرته وطاقاته تحت تصرف القادة والرؤساء ، واشتهر فى التاريخ كأعظم أدلائه ، حين قاد جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق إلى الشام ، فالتمس (خالد) دليلاً فدل على رافع بن عميرة الطائى فقال له خالد : انطلق بالناس ، فقال له رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيال والاثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مغرراً؛ إنها لخمس ليال جياذ لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ، فقال له خالد : ويحك ! إنه والله إن لى بد من ذلك ^(١)، إنه قد أتتني من الأمير عزمة ^(٢) بذلك ، فمرنى بأمرك ، قال : استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصير أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله :

وهنا تطالعنا عبقرية ابن الصحراء المجرب ، فتابع قوله لخالد :

ابغنى عشرين جزوراً ^(٣) عظاماً سمائاً مساناً ^(٤)، فأتاه بهن خالد ، فعمد إليهن رافع

(١) إن لى بد من ذلك : ما لى بد من ذلك .

(٢) عزمة : عزيمة .

(٣) جزور : جمال .

(٤) مسان : كبار .

فظمأهن ، حتى إذا أجهذهن عطشاً أوردهن فشربن ، حتى إذا تملأن عمد إليهن ، فقطع مشافرن^(١) ثم كمهن^(٢) لئلا يجتررن ، ثم أخلى أدبارهن .

إنه يعيد علينا لوصيته يوم كان يضع الماء فى بيض النعام فى الصحراء، ويقتاد الإبل إليها ويفوز بالإبل التى يسرقها من العرب ، هذه الطاقات الهائلة والخبرات العظيمة التى كانت تنصب فى الفتك بالناس والإغارة عليهن ، ها هى الآن تنصب لتصنع تاريخ هذه الأمة فى أعظم مغامرة شهدتها التاريخ وفى الطريق الذى سلكه خالد بن الوليد لينتقد إخوانه فى الشام ، ولتتابع هذه الرحلة العجيبة مع هذا الماهر الخبير .

(ثم قال لخالد : سر ؛ فسار خالد معه مغذا بالخيل والائتقال ، فكلما نزل منزلاً اقتط^(٣) أربعاً من تلك الشوارف، فأخذ ما فى أكراشها ، فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء فلما خشى خالد على أصحابه فى آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمذ : ويحك يا رافع : ما عندك ؟ قال : أدركت الرى إن شاء الله ، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج لقعدة الرجل^(٤) ؟ قالوا : ما نراها ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلكتم والله إذن وهلكت ، لا أبا لكم ، انظروا ، فطلبوا فوجدوها قد قطعت ، وبقيت منها بقية ، فلما رآها المسلمون كبروا ، وكبر رافع بن عميرة ، ثم قال : احفروا فى أصلها ، فحفروا، فاستخرجوا عيئاً ، فشربوا حتى روى الناس ، فاتصلت بعد ذلك بخالد المنازل ، فقال رافع : والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة ، وردته مع أبى وأنا غلام . وفى رواية : أيها الأمير : والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى ، فقال شاعر من المسلمين :

لله عينا رافع أننى اهتدى فوز^(٥) من قُراقر^(٦) إلى سُوى^(٧)
خمساً إذا ما سادها الجيش بكى ما سادها قبلك إنسى يُرى

فلما انتهى خالد إلى سُوى ، أغار على أهله - وهم بهراء - قبيل الصبح ، وناس منهم يشربون خمرًا لهم فى جفنة قد اجتمعوا عليها ومغنيهم يقول :

(١) قطع مشافرن : قطع شفاهن . (٢) كمهن : شد أفواههن .

(٣) اقتطها : عصر ماء كروشها .

(٤) قعدة الرجل : مقدار ما يأخذ الرجل من الأرض إذا قعد .

(٥) فوز : قطع المفازة . (٦ ، ٧) قراقر وسوى : أسماء أماكن فى البادية .

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب وما ندرى
 ألا عللانى بالزجاج وكرراً على كميّ اللون ^(١) صافية تجرى
 ألا عللانى من سلافة قهوة ^(٢) تسلى هموم الناس من جيد الخمر
 أظن خيول المسلمين وخالداً ستطرقكم قبل الصباح إلى الفجر
 فهل لكم فى السير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الحذر

فيزعمون أن مغنيهم قتل تحت الغارة ، فسال منه فى تلك الجفنة ^(٣) .

وهذا رافع كما نراه وقد تتلمذ على يد أبى بكر الصديق فى تلك الدورة القصيرة العملية التى حضرها معه فى غزوة ذات السلاسل ، فصار أزهد الناس وأكرم الناس ، يطعم أهل ثلاث مساجد ، وليس عليه إلا ثوب واحد للبيت والجمعة ، كما رأى معلمه وهو يلبس تلك العباءة ، فيجلس عليها إذا جلس ، ويضعها عليه إذا سافر ويشكها بالعود ، بينما يقدم له كسائه وفراشه لينام عليه ، ويتعدى عن الأضواء بعد أن كان يبحث عنها من خلال الإمرة ؛ ليبحث عنه خالد بن الوليد ليكون دليلاً للجيش .

وعوف بن مالك الأشجعى :

الذى التقيناه فى مؤتة وقد تشاجر مع خالد رضي الله عنه ، وكان محققاً فى شجاره ، لكنه أخطأ الأسلوب ، فرباه عليه الصلاة والسلام ، ونصر خالداً عليه ، وها هو الآن يمضى كما مضى أخوه رافع يصحب أباً بكر وعمر ، فهى فرصة العمر أن يرى المسلمون فى غزاتهم هذين الوزيرين يتأدبان بأدبهما وينهلان من معينهما ، وندع الحديث لعوف كما رواه البيهقى عن طريق ابن إسحاق :

(كنت فى الغزاة التى بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، وهى غزوة ذات السلاسل ، فصحبت أباً بكر وعمر رضي الله عنهما ، فمررت بقوم وهم على جزور قد نحروها ، وهم لا يقدرّون على أن يبعضوها وكنت امرأةً لبقاً جازراً فقلت لهم : أتعطونى منها عشيراً على أن أقسمها بينكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذت الشفرة فجزأتها مكانى ، وأخذت جزءاً فحملته إلى أصحابى فأطبخناه وأكلناه ، فقال لى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : أنى لك هذا اللحم يا عوف ؟ فأخبرتهما ، فقالا : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا ، ثم قاما يتقيآن ما فى بطونهما منه ، فلما قفل الناس من ذلك السفر كنت أول قادم على رسول الله ﷺ ، فبجته وهو يصلى فى بيته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ،

(١) كميّ اللون : خالط حمرة قنوه . (٢) القهوة : من أسماء الخمر .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٣ / ٤١٥ - ٤١٧ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

فقال : « أعوف بن مالك ؟ » فقلت : نعم : فقال : « أصحاب الجزور ؟ » ولم يزدنى على ذلك شيئاً ، زاد محمد بن عمر ثم قال رسول الله ﷺ : « أخبرنى » ، فأخبرته بما كان من سيرنا وما كان من أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ، ومطاوعة أبى عبيدة ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح » .

عوف بن مالك الأشجعى كما ذكرنا من قبل أسلم بعد خبير ، وأشجع من غطفان فقبيلته كما قال عنها أبو سفيان يوم رآها فى جيش الفتح : (هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد) ، قال العباس : (وأدخل الله تعالى الإسلام فى قلوبهم) (١) ، واختير عوف ليكون بشير المسلمين إلى رسول الله ﷺ بالفتح ، فهو أول من لقيه من الجيش عليه الصلاة والسلام ، وقد سألته : « أصحاب الجزور » قال : نعم ، فلم يتحدث أحد إلى رسول الله ﷺ بهذه القصة ، فهو أول قادم ، وهى موضوع خاص لم يشتهر فى الجيش كله ، ولا شك أن الوحي قد نزل إلى رسول الله ﷺ بقصة الجزور ، والظاهر والله أعلم أنها ليست من الأهمية لهذه الدرجة التى يتنزل الوحي من أجلها ، لكن حب رسول الله ﷺ لورثيه أبى بكر وعمر ، وشوقه لأخبارهما ، وحرص الوزيرين العظيمين على طاعة الله تعالى فيتقيان ما أكلا لشبهة فى حله ، فينزل الوحي لرسول الله ﷺ من أجلهما ، ويباهى الله تعالى بهما ملائكته ، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ راح يسأل عوف بن مالك عن أخبار السرية كلها ، وأقر عينه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، فدعا له بالرحمة .

وباب الشبهة كما ذكر السهيلي فى الروض : (إنما كره أبو بكر وعمر ﷺ أجرة مجهولة ؛ لأن العشير واحد الأعشار على غير قياس ، أو بمعنى العشر (كالثمن بمعنى الثمن) ولكنه عاملهم قبل إخراج الجزور من جلدتها وقبل النظر إليها ، أو يكون كرها أجر الجزار على كل حال والله أعلم) (٢) .

لكنه الدرس الثانى الذى يتلقاه عوف ﷺ بعد درس خالد الذى تلقاه فى مؤتة ، وتعلم أن يرجع ليستفتى فى دينه قبل أى عمل يقدم عليه ، وشهدناه فيما بعد من أعلم الصحابة (حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولانى ، وجبير بن نفير ، وراشد بن سعد ، ويزيد بن الأصم ، وشريح بن عبيد ، والشعبى ، وسالم بن النضر ، وسليم بن عامر ، وشداد أبو عمار) (٣) ، ونشهده سيد قومه يوم الفتح ، قال الواقدي : (كانت راية أشجع يوم الفتح مع عوف بن مالك) (٤) ، وهو ثانى أشجع إسلاماً بعد نعيم بن مسعود ﷺ .

(١) سبل الهدي والرشاد للصالحى ٣٣٣ / ٥ .

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٤ / ٢٤٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٨٨ / ٢ .

(٤) المغازى للواقدي ٨٠٢ / ٢ .

الذى فرّق كلمة المشركين فى الخندق ، ونجده ليس فقط من أعلم الصحابة ، بل من مجاهدى الصحابة كما حدّث ثابت بن الحجاج الكلابى ، قال : (شتونا فى حصن دون القسطنطينية ، وعلينا عوف بن مالك ، فأدركنا رمضان ...) (١) .

ونجده أخيراً قد بشره عليه الصلاة والسلام - بشفاعته من خلال قصة يسعدنا بروايتها قال : عرس^(٢) بنا رسول الله ﷺ ، فتوسد كل إنسان منا ذراع راحلته : فانتبهت فى بعض الليل ، فإذا أنا لا أرى رسول الله ﷺ عند راحلته ، فأفزعتنى ذلك ، فانطلقت ألتسمه ، فإذا معاذ وأبو موسى يلتسمانه ، فبينما نحن على ذلك ، إذ سمعنا هزيراً^(٣) بأعلى الوادى كهزير الوحى ، قال : فأخبرناه بما كان من أمرنا ، فقال :

« أتانى الليلة آت من ربى فخيرنى بين الشفاعة ، وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة ، فاخترت الشفاعة » ، فقلت : أنشدك الله ، والصحبة يا نبى الله ، لما جعلتنا من أهل شفاعتك قال : « فإنكم من أهل شفاعتى » (٤) .

وعودة إلى عمرو : القائد المظفر الذى فاز بأعظم (الميداليات) بعد هذه الغزوة وهى :

١ - اختاره رسول الله ﷺ أميراً على الجيش .

٢ - أثنى على عبقريته الحربية ، وحكم على خصومه ضده .

٣ - فاز بما لم يفز به أحد أن يكون أميراً على أعظم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين وعلى رأسهم : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . ومن الانصار وعلى رأسهم : سعد بن عباد ، وأسيد بن حضير ، وعباد بن بشر .

وشمخت نفسه به ، ورأى أنه خلال خمسة أشهر غدا فوق هؤلاء الناس جميعاً ، ولابد له أن يأخذ من حبيبه المصطفى ﷺ وثيقة بذلك ، يشهد الناس له بها أنه أفضل الجميع وأحب الجميع إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى قائده وحبيبه محمد - عليه الصلاة والسلام - يكاد رأسه يطال السحاب ليتسمع ويُسمع أنه أفضل الناس وأحب الناس إلى رسول الله ﷺ طالما أنه كان أميراً عليهم جميعاً ، ويحدثنا عن هذه المقابلة التاريخية قائلاً :

(بعثنى رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل ، وفى القوم أبو بكر وعمر ، فحدثت نفسى إنه لم يعثنى على أبى بكر وعمر إلا لمتزلة عنده ، قال : فاتيته حتى قعدت بين يديه وقلت : يا رسول الله من أحب الناس إليك ، قال : « عائشة » ، قلت : إنى

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٩٠ .

(٢) عرس : التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة .

(٣) هزير : صوت .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح وأخرجه أحمد ٦ / ٢٨ .

لست أسألك عن أهلك ، قال : فأبوها ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، قلت : ثم من ؟ حتى عدَّ رهطاً ، قلت فى نفسى لا أعود أسأل عن هذا ، وفى رواية الشيخين : فسكت مخافة أن يجعلنى فى آخرهم (١) .

لقد دخل عمرو رضي الله عنه فى نفسية وخرج فى أخرى ، وتلقى أبلغ درس فى حياته حتى الآن ، ورأى أن هذه المناصب والميداليات التى نالها لا يمكن أن تجعله فوق هام هؤلاء الرجال جميعاً ، وأن كل واحد من هؤلاء يعدل الأمة كلها ، وعرف أن العبقرية الحربية لا تكفى لتكون الميزان الوحيد فى الفضل والميزان الوحيد فى الحب ، وانتظر أن يكون له دور بين الرجال الأوائل الذين أحبههم - عليه الصلاة والسلام - فرأى أن المسافة شاسعة من الرجال حتى يصل العد إليه ، وصمت حتى لا يكون آخر القوم ، إنه حديث عهد بالإسلام ، وأكرمه النبى - عليه الصلاة والسلام - بهذه الإمرة ، تأليفاً لقلبه ، وفسحاً للمجال أمامه كى يفتح صفحة إسلامية هامة فى حياته ، ودفعاً له لياخذ موقعه فى الحرب ضد الكفار ، وأرسل معه أحب أصحابه إليه مبالغة فى إكرامه ، لكن هذا لا يعنى أن ميزان الرجال قد اختل ، وأنه أصبح الأول على الجميع ، وأدرك أن التفاضل فى الإسلام غيره فى الجاهلية ، ففى الجاهلية لا يزيد التفاضل عن البطولة أو البلاغة فى الشعر أو الحكمة فى رأى ، أما فى الإسلام فالتفاضل فى التقوى ، والتفاضل فى العمل الصالح : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لبيض على أسود إلا بالتقى أو بعمل صالح « (٢) .

أعظم درس فى التربية الجماعية :

أما أعظم درس فى التربية الجماعية تلقاه الجيش المسلم كله ابتداء بقائده عمرو بن العاص هو الدرس الذى قدمه أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، يوم علم الناس الإيثار ، وعلمهم الزهد فى الدنيا ، وعلمهم الزهد فى المنصب ، وعلمهم إيثار طاعة الله ورسوله على كل شئ ، وعلمهم خطورة الاختلاف ، وعلمهم أن الأمير الواحد مهما كان مستواه خير من الخلاف على الأفضل والأكفأ ، وعلمهم اللين وخفض الجانب والحلم والناة ، يوم تنازل عن الإمرة لعمرو بن العاص رضي الله عنه ، وما أخرج دعاة اليوم وقادته وزعماءه أن يقفوا ملياً مع هذا الدرس العظيم ، كما تعلم الجيل كله تقديم الخبر فى الحروب ليمارس طاقاته ويبدع فى الحرب .

(١) صحيح البخارى ، المغازى ٤٤ ح ٤٠١٠ ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٤٣٩٦) ، والترمذى فى المناقب (٣٨٢٠ ، ٣٨٢١) ، وأحمد فى مسند الشاميين ح (١٧١٤٣) .

(٢) أحمد ٤١١ / ٥ .

أبو عبيدة وسرية سيف البحر

١ - عن جابر رضي الله عنه قال : (خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا ، ففنى زادنا حتى كان الرجل منا يأكل فى كل يوم ثمرة ، فقال رجل : يا أبا عبد الله ، وأين كانت الثمرة تقع من الرجل ؟ قال : لقد وجدنا فقدناها حين فقدناها حتى أتينا البحر ، فإذا حوت قد قذفه البحر ، فأكلنا منها ثمانية عشر يوماً ما أحببنا) (١) .

٢ - وعن محمد بن عمر : قال : بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى سرية فيها المهاجرون والأنصار ، وهم ثلاثمائة رجل إلى ساحل البحر إلى حى من جهينة ، فأصابهم جوع شديد ، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى إذا كانوا ليقسمون الثمرة ، فقيل لجابر : فما يُغنى ثلث ثمرة ؟ قال : لقد وجدوا فقدوها ، قال : ولم تكن معهم حمولة (٢) إنما كانوا على أقدامهم ، وأباعر يحملون عليها أزوادهم ، فأكلوا الخبط (٣) وهو يومئذ ذو مشرة (٤) حتى إن شفق أحدهم بمنزلة مشفر البعير العضة ، فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم : لو لقينا عدوًا ما كان بنا حركة إليه لما بالناس من الجهد ، فقال قيس بن سعد : من يشتري منى تمرًا بجُزُر ، يوفيني الجزُر هنا ، وأوفيه التمر بالمدينة فجعل عمر يقول : واعجابه لهذا الغلام ، لا مال له يدان (٥) فى مال غيره ، فوجد رجلاً من جهينة فقال قيس بن سعد : معنى جُزُرًا وأوفيك سقة (٦) من تمر بالمدينة ، قال الجهنى : والله ما أعرفك ، ومن أنت ؟ قال : أنا قيس بن سعد بن عباد بن دليم ، قال الجهنى : ما أعرفتني بنسبك ، أما إن بينى وبين سعد خُلة ، سيد أهل يثرب ، فابتاع منهم خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر ، يشرط عليه البدوى تمر ذخيرة مُصلبة من تمر آك دليم ، قال يقول قيس : نعم ، فقال الجهنى ، فأشهد لى ، فأشهد له نفرًا من الأنصار ، ومعهم نفر من المهاجرين ، قال قيس : أشهد من تحب ، فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : لا أشهد ، هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه ، قال الجهنى : والله ما كان سعد ليُخنى بابه (٧) فى سقة من تمر! وأرى وجهًا حسنًا وفعالاً شريفًا ، فكان بين عمر

(١) البخارى ح ٦٧/٤/٢ ب حمل الزاد على الرقاب .

(٢) الحمولة : ما يحتمل الناس من الدواب .

(٣) الخبطة : الأغصان الخضرة الرطبة قبل أن تتلون بلون .

(٤) يدان : يستدين .

(٥) السقة : جمع وسق وهو الحمل وقدره الشرع بستين صاعًا .

(٦) ليخنى بابه : ليخفر ذمته .

وبين قيس كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس الجزر ، فنحرها لهم فى مواطن ثلاثة ، كل يوم جزوراً ، فلما كان اليوم الرابع نهأ أميره وقال : تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

وعن محمد بن يحيى بن سهل عن أبيه عن رافع بن خديج قال : أقبل أبو عبيدة بن الجراح ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال : عزمت عليك ألا تنحر ، أتريد أن تُخفر ذمتك ولا مال لك ؟ فقال قيس : يا أبا عبيدة : أترى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ، ويحمل الكل ، ويطعم فى المجاعة ، لا يقضى سقاة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ، فكاد أبو عبيدة أن يلين له ويتركه حتى جعل عمر يقول : اعزم عليه ، فعزم عليه ، فأبى عليه أن ينحر ، فبقيت جزوران معه حتى وجد القوم الحوت ، فقدم بهما قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليها ، وبلغ سعد ما كان أصاب القوم من المجاعة فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم فلما قدم قيس لقبيه سعد فقال : ما صنعت فى مجاعة القوم حيث أصابهم ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، انحر ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، انحر ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نهيت ، قال : ومن هناك ؟ قال : أبو عبيدة بن الجراح أميرى ، قال : ولم ؟ قال : زعم أن لا مال لى وإنما المال لأبيك ، فقلت : أبى يقضى عن الأباعد ، ويحمل الكل^(١) ، ويطعم فى المجاعة ، ولا يصنع هذا بى ، قال : فلك أربعة حوائط^(٢) ، قال : وكتب له بذلك كتاباً ، قال : وأتى بالكتاب إلى أبى عبيدة فشهد فيه وأتى عمر فأبى أن يشهد فيه ، وأدنى حائط منها يجذ خمسين وسقاً ، وقدم البدوى مع قيس فأوفاه سقته وحمله وكساه ، فبلغ النبى ﷺ فعل قيس فقال : « إنه فى بيت جود »^(٣) .

٣- قال جابر : (بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلاثمائة راكب ، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيراً لقريش ، فاقمنا بالساحل نصف شهر ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمى جيش الخبط ، فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر ، فأكلنا منها نصف شهر ، وادناها من ودكها حتى ثابت أجسامنا^(٤)) ، قال : فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه^(٥) ، ثم نظر إلى أطول رجل فى الجيش ، وأطول جمل فحملة عليه فمر تحته ، قال : وجلس فى حجاج^(٦) عينيه نفر ، قال : وأخرجنا من وقب عينه كذا وكذا قلة ودك^(٧) ، قال : وكان معنا جراب من تمر ، فكان أبو عبيدة يعطى كل رجل منا قبضة قبضة ، ثم أعطانا تمر تمر ، فلما فنى وجدنا فقده^(٨) .

(١) يحمل الكل : الضعيف الفقير .

(٣) المغازى للواقدي ٧٧٥ / ٢ - ٧٧٧ .

(٥) نصبه : أوقفه .

(٧) ودك : دسم اللحم .

(٢) الحوائط : البساتين .

(٤) ثابت أجسامنا : أى رجعت إلى الحالة الأولى .

(٦) حجاج : الحاء مكسورة ومفتوحة : أى داخل عينه .

(٨) مسلم ٣/ ك الصيد والنبائح ح (١٨/ ١٩٣٥) .

٤- وعن سفیان قال : سمع عمرو جابراً يقول فى جيش الخبيط : إن رجلاً نحر ثلاث جزائر^(١) ، ثم ثلاثاً ، ثم ثلاثاً ، ثم نهاه أبو عبيدة^(٢) ، وكان عمرو يقول : أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبيه : كنت فى الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : ثم نهيت^(٣).

٥- عن جابر قال : (بعثنا رسول الله ﷺ لتلقى عيراً لقريش (٤) ، وزودنا جراباً (٥) من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة تمر ، قال : فقلت : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصها (٦) كما يَمصُّ الصبي ثم نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل ، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله ، قال : وانطلقنا على ساحل البحر ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكشيبة (٧) الضخم ، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر ، قال : قال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا ، قال : فأقمنا عليها شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنا ، قال : ولقد رأيتنا نغترف من وقب (٨) عينيه بالقلال (٩) الدهن ، ونقتطع منه الفدر (١٠) كالثور ، أو كالفدر (١١) الثور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً ،

(١) جزائر : جمع جزور وهو البعير . ذكراً كان أم أنثى .

(۲) مسلم (۱۹ / ۱۹۳۵) .

(٣) البخارى ٢/٥/٢١١ باب غزوة سيف البحر .

(٤) قال ابن حجر في فتح الباري : (قوله :) وهم يتلقون عيرا لقريش :) هو صريح ما في الرواية الثانية في الباب حيث قال : فيها نرصد عير قريش ، وقد ذكر ابن سعد وغيره أن النبي ﷺ بعثهم إلى حى من جهينة مما على ساحل البحر ، بينهم وبين المدينة خمس ليال ، وأنهم انصرفوا ولم يلقوا كيذا ، وأن ذلك كان في رجب سنة ثمان ، وهذا ظاهره لا يغير ما في الصحيح ؛ لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرا لقريش ويقصدون حيا من جهينة ، ويقوى هذا الجمع ما عند مسلم من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا إلى أرض جهينة) فذكر هذه القصة ، لكن تلقى عير قريش ما يتصور أن يكون في الوقت الذى ذكره ابن سعد في رجب سنة ثمان ؛ لأنهم كانوا حيث في الهدنة ، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها قبل هدنة الحديبية ، نعم يحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم من جهينة ، ولهذا لم يقع فى شيء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحدا ، بل فيه أنهم قاموا نصف شهر أو أكثر فى مكان واحد) الفتح ٧٨/٨ غزوة سيف البحر .

(٥) جَرَابًا : بكسر الجيم وفتحها ، والكسر أفصح وهو وعاء من جلد .

(٦) غصها : بفتح الميم وضمها ، والفتح أفصح وأشهر .

(٧) الكتيب : هو الرمل المستطيل المحدودب .
(٨) وقب : هو داخل عينيه ونقرتها .

(٩) بالقلال : جمع قُلَّة وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه ، أى يحملها .

(١٠) الفدر : القطع .

(١١) كفدر الثور : رويناه بوجهين مشهورين (كما فى هامش صحيح مسلم) أحدهما بقاء مفتوحة ، دال ساكنة أى مثل الثور والثانى كفدر : جمع فدره والأول أصح .

فأقعدهم فى وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل (١) أعظم بعير منا ، فمر من تحتها ، وتزودنا من لحمه وشائق (٢) ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ » ، قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله (٣) .

لم نكد نغادر أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فى غزوة ذات السلاسل ، حيث تلقى الجيش الإسلامى منه ذلك الدرس العظيم فى الإيثار والزهد فى الدنيا والمنصب ولين الجانب وخفض الجناح ، والبعد عن الخلاف حتى التقينا أميراً على هذه السرية سرية سيف البحر على رأس ثلاثمائة من كرام المهاجرين والأنصار لا ينقصهم إلا أبو بكر الصديق من المهاجرين ، وسعد بن عباد من الأنصار ، وحتى لا يحرم هذا الجيش الإمرة العظيمة لأبى عبيدة والتي تنازل عنها فى غزوة ذات السلاسل كانت هذه السرية .

وتكاد تكون هذه السرية سرية تدريبية تربوية بحتة ، ليس لها أهداف عسكرية واضحة ، فجبهة التى مضى إليها المسلمون لم تكن ذات شوكة لتقاتل المسلمين ، ولم يسبق أن عبأت القوى لحربهم ، وترصد غير قريش غير وارد بعد هدنة الحديبية ، ونرجح ما رجحه الحافظ العظيم ابن حجر فى أن هذا الترصّد هو لحمايتها من جبهة أكثر من احتمال غزوها أو الانقضاض عليها ، فقد انعكست روح صلح الحديبية على أجواء العلاقة بين المسلمين والمشركين فى الظاهر على الأقل ، ولم يقع أى اشتباك ونقض للعهد خلال هذه المدة ، إلا المظاهرة النفسية لليهود فى خير وغيرها ، ولفظ رواية مسلم الثانية تؤكد هذا المعنى (تتلقى غيراً لقريش) .

فالسرية إذن ذات هدف تربوى واضح .

١ - وأول أهدافها الصبر على شظف العيش وآلام الجوع ، وآلام السير ، فلم يكن زادهم إلا جراباً من تمر ، ولم يكن لهم حمولة أو ركوبة إنما كانت الرحلة مشياً على أقدامهم فى أتون هذا الحر الملتهب ، وكانت من الدورات العنيفة فى الصبر على الجوع حتى لتكاد تنفرد عن غيرها ، وتتميز عن أى غزوة أخرى فى ذلك فأن يصبح طعام الفرد المسلم الواحد ثمرة واحدة بعد أن فنيت الأزواد ، وهم خيرة الصحابة وصفوة الأمة هو أبلغ درس للأجيال اللاحقة فى قضية التعامل مع الطعام ، لقد استغرب الجيل الجديد الذى يقص عليه جابر أنباء هذه الغزوة قائلاً : (لقد وجدنا فقدها حين فنيت) .

(١) رحل : جعل عليه رحلاً .

(٢) وشائق : هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا يبيض .

(٣) مسلم ١٥٣٦/٣ ، ١٥٣٦ ح ١٧ / ١٩٣٥ .

إن الرجل اليوم يعتبر فى قمة جوعه لو أمضى يومه وليله على التمر ، ويعتبر فى قمة الزاهدين ، وقلمنا نجد مثيلاً لذلك إلا فى محاولة ليوم واحد ، يقتدى بها فى سير الصالحين ، والذي يأكل أشهى أنواع الأطعمة دون أن يوقد النار طهيًا لتلك الأطعمة يعتبر زاهدًا كذلك إنه قبل أن يمضى نهاره على الحواضر كما يقولون ، فما بالنا اليوم نجد الجيش الإسلامى الذى يعد ليغير وجه الأرض لا يملك الفرد فيه إلا ثمرة واحدة هى طعامه فى اليوم والليلة ، ولا يستطيع الجيل الجديد جيل التابعين أن يستوعب هذه الصورة ، فيكرر أحد أفراد السؤال ثانية لجابر بن عبد الله رضي الله عنه : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال :

كنا نغصها كما يغمص الصبى الثدى، ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل ، وقد تطور الطعام فى حالة يسره وفى حالة عسره للجيش كله، فالزاد ابتداء لم يكن يعدو جرابًا من تمر (لم يجد لنا غيره) هو الذى أعطاه رسول الله ﷺ لقيادة الجيش وهى تمويناته كلها ، خلال هذه الرحلة الطويلة ، وقد صادر أبو عبيدة الأزواد جميعًا ، وجعلها تحت إشرافه ، وراح يوزعها على الجميع فالذين كانوا قد أعدوا أهبتهم لهذه الرحلة الطويلة ، وآخرون اكتفوا بالتموين العام ، استنوا الآن بعد أن أصبحت حياة الجيش مهددة بالخطر ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان يزود تمر ، وأصبح ﷺ يوزع هذا الزاد بالتساوى على الجيش كله (وكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً ، ثم انخفضت ميزانية التوزيع اليومي حتى غدت قبضة قبضة ، وازدادت الأزمة عتفاً ثم صار يعطينا ثمرة ثمرة حتى فنى ، وفى رواية أن الأزمة اشتدت أكثر (إذ كانوا ليقسمون الثمرة) . فقيل لجابر : فما يُغنى ثلث ثمرة قال : لقد وجدوا فقدها .

والذى أود أن أشير إليه أن هذه الغزوة ليست من الضرورة والخطورة بحيث لو تأخرت فأت المسلمون فيها خير كبير أو وقع عليهم خطر عظيم، فقد مضوا فى رحلتهم هذه لم يلقوا عدوًا ، ولم يواجهوا كيدًا ، كما أنى لا أتصور أن الدولة الإسلامية وفيها العدد العظيم من المؤسرين يعجزون عن إمداد هذا الجيش بحيث لا يملك إلا جرابًا من تمر، ويمكن أن يأخذوا معهم العديد من الجمال فينحروها فى طريقهم ، والذي أخلص إليه هو أنه ليس العجز هو الذى دعا إلى هذا النقص الكبير فى المؤونة ، إنما هى عملية مقصودة مصممة تدريجية لخيرة الأمة ؛ لتتعلم على صعب الحياة ومشاقها وأحوالها، ولا يستطيع أن يقوم بهذه الدورة إلا القيادات العليا فى الأمة ؛ لتبرز القدوة العالية فيها ، ويظهر البعد عن الدنيا والغنائم والزهد فيها ، فتم اختيار هذه القيادات لتنفيذ هذه المهمة الضخمة العظيمة .

٢- وحين نرى أن الجيش الذى يريد أن يواجه الدنيا يتزود بهذه الثمرة الواحدة ،

نرى كيف أنه كان يلجأ لأكل ورق الشجر يبلونه بالماء ، ويتناولونه يملؤون به بطونهم ، وأنى لهذا الورق أن يسد جوعتهم أو يكفى رمقهم ، وطعامه لا بد أن يقرح الأشداق ، ويشقق الشفاه ، ويدمى الأفواه ، ومع ذلك فلم يكن لهم خيار منه ، فعليهم مهمة أن يتابعوها وهو أن يمضوا إلى شاطئ البحر حيث وضع رسول الله ﷺ الهدف لهم كي يصلوا إليه ، فهم لا يتناولون التمرة وينامون فى الظلال الظليلة من الأشجار ، إن عليهم أن يتابعوا مسيرتهم تحت وهج الشمس المحرقة ، وعلى أرجلهم لا على رواحلهم ، ويحملون على رقابهم أمتعتهم إلا القليل الذى أعد له بضعة أبخرة لحمله .

إنها سرية البطولة البشرية والرجولة البشرية التى احتسبت فى هذه القيادات ؛ لتقرأ البرهان الناصع على الطاعة والانضباط والتحمل والصبر والمقاومة والمجاهدة .

٣- ويأتى الدرس الثالث العظيم الذى يكشف المعادن الثمينة المخبوءة درس قيس بن سعد رضي الله عنه ذلك الشاب الذى يتوقد رجولة ، وجمالاً وفتوة يحس بجوع الجيش ، وهو ابن أبيه سعد بن عبادة أكبر أجواد المدينة ، والذى كانت سفرته تنتقل مع رسول الله ﷺ كل يوم عند وصوله إلى المدينة ، سعد الذى كان ينحر الإبل كل يوم ، ويدعو الناس لمأدبته ، وناره متوقدة فى الليل والنهار تهذى السائرين إلى هذا الطعام ، سعد بن عبادة بيت الجود ، والذى ربه هذا الشاب وها هو ينظر إلى الجيش كله يشرف على الموت من الجوع ، فراح يطرق مضارب البدو من جهينة يعرض عليهم صفقة خيالية أن يبيعوه الجزر بالتمر والتمر يوفيههم إياه فى المدينة . . ولا يرضى عمر له هذا التصرف وهو لا يملك شيئاً ، غير أن قيساً رضي الله عنه يملك العزيمة المصممة على طعام الجيش مهما كلف الثمن ولو لم يكن رأسماله إلا ثمرة واحدة هى نصيبه طيلة اليوم واللييلة فلا يكل ولا يمل وهو يعرض هذه الصفقة (من يشتري منى تمرًا بجزر، يوفينى الجزر هاهنا وأوفيه التمر فى المدينة) ويزداد عجب عمر من هذه الصفقة المزمنة الغريبة، واعجابه لهذا الغلام لا مال له يدان فى مال غيره) ، وقيس ماضى إلى هدفه يحلم أن ينحر الجزر ويطعم جيش الله تعالى المضارب فى هذه البادية إلى أن وجد بغيته عند هذا الأعرابى الجهينى الأصل الذى تعرف إلى نسبه وعرف أنه ابن سعد بن عبادة ، الذى يضرب المثل بجوده كما يروى عروة بن الزبير رضي الله عنه .

(أدركت سعد بن عبادة وهو ينادى على أطمه : من أحب شحمًا أو لحماً فليأت سعد بن عبادة ، ثم أدركت ابنه مثل ذلك يدعو به) (١) . قال الجهينى : (ما أعرفتني بنسبك : أما إن بينى وبين سعد خلة ، سيد أهل يثرب) .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٦١٣ .

وعقد قيس الصفقة ، أغرب صفقة ، اشترى خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر ، والأعرابي يشرط قائلاً (تمر وخيرة مصلبة^(١) من تمر آل دليم) وحاول عمر رضي الله عنه أن يفسد الصفقة ؛ لأن قيساً لا يملك شيئاً قائلاً للأعرابي : إنما المال لأبيه ، فقال الجهني : (والله ما كان سعد ليخني بابه في سقة من تمر ، وأرى وجهاً حسناً وفعالاً شريفاً) . وما أن استلم قيس الجزر حتى مضى لينحر واحداً منها ، ويدعو الجيش الإسلامي إلى وليمته من اللحم والشحم ، عوضاً عن التمرة الواحدة التي يتسابقون للوصول إليها ، وراح قيس يحمل مؤونة الجيش ، فنحر الجزور الثاني في اليوم الثاني ، ثم نحر الجزور الثالث في اليوم الثالث ، وتمتع المسلمون بهذه المأدبة القيسية العظيمة ، يأكلون أشهى الطعام ، فيتقوتون به ويتمتعون بريحة الشواء وطعمه ، وتدخل عمر رضي الله عنه لإيقاف هذه المأدبة ، وإنما يطعم قيس الناس من مال أبيه ، واستطاع أن يعيئ أميره أبا عبيدة رضي الله عنه ؛ ليحظر على قيس أن يتابع مأدبته . ونجد في رواية البخاري رضي الله عنه أنه كان ينحر كل يوم ثلاث جزر وهو التصور المنطقي لإطعام الجيش ، فحين نعود إلى بدر ، ونرى رسول الله ﷺ يسأل الأسير المشرك : (كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم بين التسعمائة والالف »)^(٢) ، ورواية مسلم : أن رجلاً نحر ثلاث جزائر ، ثم ثلاث جزائر ، ثم ثلاثاً ثم نهاء أبو عبيدة ، والجيش ثلاثمائة ، فيكون قوتاً كافياً للجيش كله .

والأعجب من هذا تصور سعد بن عباد رضي الله عنه لابنه قيس ، وذلك عندما بلغه ما نزل في القوم من مجاعة ، فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم ، وكم كان سعد رضي الله عنه حريصاً على ألا يخيب ظنه بابه قيس ، فما أن رآه حتى سأله لهفماً : ما صنعت في مجاعة القوم ؟ وكأنها محاكمة ميدانية له إن أدخل بواجب الجود عنده ، قال : (نحرت ، قال : أصبت . انحر ، ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت انحر : ثم ماذا ؟ قال : نهيت . . .) ولم يكن بد لقيس من طاعة أميره ، وهو يتجرع الغصص ألا يكون قد أوفى على جزره جميعاً لتنحرون ولو كان يعرف أن المنع سيقع لأسرع في نحر كل ما ابتاعه ليقدمه لجيش حزب الله في هذه الصحراء المترامية ، وبمقدار ما كان سعد يثق بكرم ابنه ، ويثق بطبعه الذي طبع به على الجود بمقدار ما كان قيس واثقاً بجود أبيه ، وجهه لاستضافة هذا الجيش على حسابه ، فعندما حاكمه أميره أبو عبيدة قائلاً له : عزمت عليك ألا تنحر . أتريد أن تُخفر ذمتك ولا مال لك ؟ فقال : يا أبا عبيدة : أترى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ، ويحمل الكل ، ويطعم في المجاعة لا يقضى سقة تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟!

(١) مصلبة : ميسة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥١/١ .

٤ - ويأتى الدرس الأخير ، والضيافة الربانية لهذا الجيش ، ذى التمرة الواحدة ،
والذى صبر عليها ، فلم يحتج ، ولم يتلأأ ، ولم يخالف ، وقد أوقفت فيه ضيافة قيس
ابن سعد ، بأمر أمير الجيش أبى عبيدة ، فهل يعود هذا الجيش إلى تمرته ، ويفنى فى
هذه الصحراء ، أبداً . . . فقد أعدت له المأدبة الربانية على ساحل هذا البحر ، كما تواعد
موسى مع صاحبه عند مجمع البحرين ، فقد كان ميعاد جيش حزب الله مع مأدبة الله
تعالى التى أهداهم إياها من البحر ، على هذا الشاطئ ، ولئن كانت مأدبة عبد الله قيس
استمرت ثلاثة أيام ، فقد كانت مأدبة رب الأرباب نصف شهر على بعض الروايات أو
شهر على الرواية الأخرى ، لكنها أحيت الجيش كله ، فاللحم والشحم متروك مثل المآدب
الكبرى اليوم فى أرقى الفنادق ، بأخذ المرء حاجته ، يقطع ما يريد من اللحم فيمضى به ،
ويشويه ويأكله ، ويأخذ الشحم ، فيدهن به جسمه المتآكل المضنى (ويخترنه لطعامه ، وقد
بقى الجيش ، دون أية مهمة ، إنما هى ضيافة على مأدبة الله عز وجل ، فهم وفد الله وهم
حزبه وهم جيشه الذين اختبر إيمانهم ، وصبرهم على الجوع ، والعطش والمشقة ،
واختبر طاعتهم وولاءهم لأميرهم وانضباطهم مع قائدهم ، ولم تسجل مخالفة واحدة
لواحد منهم ، وقبلوا التمرة وثلاث التمرة ، وقبلوا أن يأكلوا ورق الخبط يتقوتون به ،
وقبلوا أن يعيشوا فى وهج الشمس ولهبها المحرق فى الصحراء ، وقبلوا أن ينفذوا كل
الأوامر الصادرة لهم من قيادتهم ، فيتنازلوا عن أزوادهم الخاصة لإمرة الجيش تعيد
توزيعها عليهم بالتساوى ، وقبلوا ضيافة أخيه قيس بن عباد ثلاثة أيام متوالية ، وقبلوا
منع قائد الجيش هذه الضيافة بعد ثلاثة أيام دون أن يعترضوا أو ينتقدوا أو يتبرموا بهذا
المنع المفاجئ ، والجزرُ بين أيديهم معدة للنحر ، قبلوا هذا كله ، فأكرمهم الله تعالى بهذه
الوليمة التى أعدّها لهم ، والتى رأينا وصفها فى وسائل الإعلام الصادرة عن هذا الجيش
المؤمن .

- فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا .

- ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال ، الدهن ، ونقتطع منه الفدر كالثور أو
كقدر الثور .

- وتزودنا من لحمه وشائق .

- فألقى لنا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منها نصف شهر ، وادهنا من ودكها
حتى ثابت أجسامنا .

- وأخرجنا من وقب عينيه كذا وكذا قلة ودك .

- (فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر ، فأصبنا من لحمها وودكها

وأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمنا وابتللنا (١) .

- وكى يعرف هذا الجيش الذى هو وفد الله اليوم وفى ضيافته لم ينس أن يصف لنا هذه الدابة لعظمها وذلك حتى تكفى الجيش كله طيلة مدة الإقامة التى كانت مفتوحة لشهر كامل .

- وأخذ أميرنا ضلعاً من أضلاعها فوضعها على طريقه ، ثم أمر بأجسم بعير منا فحمل عليه أجسم رجل منا قال فجلس عليه ، فخرج من تحتها وما مست رأسه .
- فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينيه .

وأدرك أبو عبيدة ﷺ أن هذه المائدة مرسله لهم من الله (فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكتيب الضخم فأتيناه فإذا دابة تدعى العنبر ، قال : أبو عبيدة : ميتة .) ثم جاءته البرقية الربانية الثانية (ثم قال : لا : بل نحن رسل رسول الله ﷺ (٢) وفى سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا) .

وشاء الله تعالى أن يشارك رسوله الحبيب فى هذه المائدة الربانية وهو فى المدينة ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : (هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟) وهو تأكيد على أنهم بعد كل صبرهم ومعاناتهم أهل لهذه المائدة والضيافة الشهرية ، (فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله) .

(١) هذه رواية السيرة لابن هشام ، وما سبق روايات الصحيحين .

(٢) وهذا يؤكد أن الجيش فى مهمة تدريبية أو استطلاعية وليس فى مهمة قتالية .

شعبان : غزوة ابن أبى حذرر ومناوشات مع هوازن

قال ابن إسحاق : وغزوة ابن أبى حذرر الغابة :

وكان من حديثها فيما بلغنى عمّن لا أنهم ، عن ابن أبى حذرر قال :

تزوجت امرأة من قومي ، وأصدقته مائتي درهم ، قال : فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحي ، فقال : وكم أصدقت ؟ فقلت : مائتي درهم يا رسول الله . قال : « سبحان الله ، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم ، والله ما عندي ما أعينك به » ، قال : فلبثت أياماً ، وأقبل رجل من بني جشم ، حتى نزل بقومه وبمن معه بالغابة يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ ، وكان ذا اسم في جُشم وشرف ، قال : فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين معي من المسلمين ، فقال : « اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم » ، قال : وقدم لنا شارفاً (١) عجباً (٢) فحمل عليها أحدنا ، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى دعمها الرجال (٣) من خلفها بأيديهم حتى استقلت (٤) وما كادت ثم قال : « تبلغوا عليها واعتقبوها » (٥) قال : فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر عشيبة (٦) مع غروب الشمس قال : كمنت في ناحية ، وأمرت صاحبي ، فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم ، وقلت لهما : إذا سمعتماني قد كبرت وشدت في ناحية العسكر ، فكبرا وشدا معي ، قال : فوالله إنا لكذلك ننظر غرة القوم أو أن نصيب منهم شيئاً ، وقد غشنا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء (٧) ، وقد كان لهم راع قد سرح في ذلك البلد ، فأبطأ عليهم حتى تخوفوا عليه ، قال : فقام صاحبهم ذلك رفاعه بن قيس ، فأخذ سيفه ، فجعله في عنقه ، ثم قال : والله لا تبعن أثر راعينا هذا ، ولقد أصابه شر ، فقال له نفر ممن معه : والله لا تذهب نحن نكفيك ، قال : والله لا يذهب إلا أنا ، قالوا : فنحن معك . قال : والله لا يتبعني أحد منكم ، قال : وخرج حتى يمر بي ، فلما أمكنني نفحته بسهمي (٨) ، فوضعت في فؤاده ، قال : فوالله ما تكلم ، ووثبت إليه ، فاحتزرت رأسه ، وشدت في ناحية العسكر ، وكبرت ، وشد صاحباي ، وكبرا . قال : فوالله

(٢) العجفاء : الهزيلة .

(١) الشارف : الناقة .

(٤) استقلت : نهضت .

(٣) دعمها الرجال : قووها بأيديهم .

(٥) اعتقبوها : اركبوها معاقبة أي واحداً بعد الآخر .

(٦) عشيبة : تصغير عشة .

(٨) نفحته بسهمي : رميته به .

(٧) فحمة العشاء : أول ظلام الليل .

ما كان إلا النجاء من فيه ، عندك ، عندك^(١) ، بكل ما قدروا عليه من نسايتهم وأبنائهم ، وما خف معهم من أموالهم . قال : واستقنا إبلاً عظيمة ، وغنماً كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، قال : وجئته برأسه أحمله معي قال : فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صداقي فجمعتُ إلى أهلي^(٢) .

تطالعنا هذه الرواية وفيها اختلاف عن الروايات الأخرى الأكثر صحة منها ، ونكاد نجزم أنهما حادثان منفصلتان لولا تشابه المقدمة والعمل على كسب المهر من ابن أبي حدرد رضي الله عنه ومع ذلك فما يعيننا منها وهو خاص بها نذكره فيما يلي :

١- بنو جشم وهم فرع ضخم من هوازن ، لا بدع أن يهتموا بالخطر الزاحف عليهم من الإسلام ورسول الإسلام ، وقد وقعت كثير من المصادمات بينهم وبين المؤمنين في أكثر من موقع ، وهم المرشحون بعد غطفان للمواجهة ، وشيخ بنى جشم هو دريد بن الصمة فارس العرب المشهور ، لكنه أصبح هرمًا عاجزًا عن أى قيادة فجاء هذا الشاب من قبيلته بجيش الجيوش لغزو المدينة ليس من جشم فقط ، ولا من هوازن فقط ولكن من قيس كلها ، إنه يريد أن يفتح جبهة عريضة تجر أكبر أحياء العرب لغزو المدينة ، ولذلك فالقضاء عليه قضاء على هذا الاتجاه كله .

٢- ويمضى ابن أبي حدرد أميرًا على سرية ، قوامها ثلاثة أشخاص ليخوض في جيش عدو لجب ، ويحاول اغتيال قائده ، ومضى مع رفاقه الثلاثة على بعير أعجف شارف هزيل لا يكاد يقوى على الحركة وهذا هو السلاح والعتاد والآليات والتموين الذى أخذوه ليمضوا به إلى الغابة حيث تجمع العدو وكتائبه ، ولكن الهدف الواضح فى ذهنه حدا به إلى الاختباء فى موقع يرى فيه العدو ولا يراه وكمن فى ناحية تظل على تحركات هذا العدو موضعًا خطته ، لصاحبيه أن يكبرا حيث يكبر ويشدان حين يشد ، وجلس ينتظر المفاجآت والفرص السانحة التى تمكنه من هدفه .

٣- وساق الله الهدف إليه كأنما يسعى إليه سعيا ، فقد خرج قائد العدو متحديًا يبحث عن الراعى المتخلف ، مضى وحده غير هياب ولا وجل حتى إذا ما حاذاه أشرع سهمه فى فؤاده وتجلد البطل لكن دون جدوى فالسهم أصاب مقتلا عنده ، فأجهز عليه ابن أبي حدرد ، ثم كبر وكبر أخواه وفاجؤوا الجيش بهجومهم الصاعق ، حيث ابذعر الجيش لمقتل قائده ، واستاق الفدائيون الثلاثة الإبل والغنم فيما قدروا عليه ، وآبوا ظافرين بالغنيمة وقتل قائد جيش العدو حيث احتز ابن أبي حدرد رأسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

(١) عندك ، عندك : كلمتان بمعنى الإغراء . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٤٦/٢ .

٤ - ويرى فى هذه المسؤولية التى ألقاها ﷺ على هذا الفتى عظمة الاختيار وفقه الرجال ، وسبر معدنهم من خلال النظرة الأولى ، فهى الفراسة التى أعطاها الله تعالى لنبيه بحيث يدرك أبعاد وأعماق الرجال ونفاسة معادنهم ، فيضعهم على محك التجربة ؛ ليخوضوا غمرات الحرب ويقدموا ثمنًا غاليًا لكل ما تصبو نفوسهم إليه وماذا يذكر التاريخ عن البطل العظيم ابن أبى حدرد لو أن رسول الله ﷺ أعطاه مائتى درهم وصرفه ، إنه المجد فى الدنيا والآخرة لا طريق له إلا من أبواب الجهاد .

شعبان : سرية أبى قتادة وآخر مناوشات غطفان

عن ابن أبى حدرد السلمى أنه ذكر (أنه تزوج امرأة فأتى رسول الله ﷺ يستعينه فى صداقها فقال : « كم أصدقت ؟ » قال : قلت : مائتى درهم . قال : « لو كنتم تغتربون الدراهم من واديكم هذا ما زدتم ، ما عندى ما أعطيك » ، قال : فمكثت ، ثم دعانى رسول الله ﷺ فبعثنى فى سرية بعثها نحو نجد فقال : اخرج فى هذه السرية لعلك أن تصيب شيئًا فأنفلكه ، قال : فخرجنا حتى جئنا الحاضر عشرين ، قال : فلما ذهب فحمة العشاء بَعَثْنَا أميرنا رجلين رجلين ، قال : فأحطنا بالمعسكر ، وقال : إذا كبرت وحملت فكبروا واحملوا ، وقال حين بعثنا رجلين : لا تفرقا ، ولا أسألن واحدًا منكما عن خبر صاحبه فلا أجد عنده ولا تمنعوا فى الطلب ، قال : فلما أردنا أن نحمل سمعت رجلًا من الحاضر صرخ : يا خضرة . فتفاءلت بأننا سنصيب منهم خضرة ، قال : فلما اعتمنا كبر أميرنا وحمل ، وكبرنا وحملنا ، فمر بى رجل فى يده السيف فاتبعته فقال لى صاحبى : إن أميرنا قد عهد إلينا ألا نمنع فى الطلب ، فارجع ، فلما رأيت إلا أن أتبعه قال : والله لترجعن أو لأرجعن إليه أخبرنه أنك أبيت ، قال : فقلت : والله لا أتبعن حتى إذا دنوت منه رميته بسهم على جريءاء منته فوق ، فقال : ادن يا مسلم إلى الجنة ، فلما رآنى لا أدنو إليه رميته بسهم آخر فأتخته رمانى بالسيف فأخطأنى ، وأخذت السيف فقتلته ، واحتزرت به رأسه ، وشددنا فأخذنا نعمًا كثيرة وغنمًا قال : ثم انصرفنا قال : فأصبحت فإذا بعيرى مقطور^(١) به بعير عليه امرأة جميلة شابة ، قال : فجعلت تلتفت خلفها فتكبر ، فقلت لها : أين تلتفتين قالت : إلى رجل والله إن كان حيًا خالطكم ، قال : قلت : وظننت أنه صاحبى الذى قتلت : قد والله قتلته وهذا سيفه وهو معلق بقتب البعير الذى أنا عليه ، قال : وغمد السيف ليس فى شيء معلق بقتب بعيرها ، فلما قلت ذلك لها قالت : فدونك هذا الغمد فشمه^(٢) إن كنت صادقًا قال : فأخذته فشمته فطبقه^(٣) . قال : فلما رأت ذلك

(٢) شمه : أخرجه .

(١) مقطور : مرتبط .

(٣) فطبق : تطابق السيف مع الغمد .

بكت، قال : فقدمنا على رسول الله ﷺ : فأعطاني من ذلك النعم الذى قدمنا به (١) .

وفى رواية محمد بن عمر الواقدي :

قال عبد الله بن أبي حذرر الأسلمى (٢) :

(تزوجت ابنة سراقه بن حارثة النجارى ، وكان قتل بيدر فلم أصب شيئاً من الدنيا كان أحب إلى من مكانها ، فأصدقته مائتى درهم . . . فقلت : يا رسول الله ، أعنى فى صداقها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وافقت شيئاً عندنا أعينك به ، ولكنى قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلاً فى سرية فهل لك أن تخرج فيها ؟ فإنى أرجو أن يغمك الله مهر امرأتك » ، فقلت : نعم ، فخرجنا فكنا ستة عشر رجلاً بأبى قتادة وهو أميرنا ، وبعثنا إلى غطفان نحو نجد ، فقال : سيروا الليل واكنموا النهار ، وشنوا الغارة ، ولا تقتلوا النساء والصبيان ، فخرجنا حتى جئنا ناحية غطفان ، فهجمنا على حاضر منهم عظيم ، قال : وخطبنا أبو قتادة وأوصانا بتقوى الله عز وجل ، وألف بين كل رجلين وقال : لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إلى فيخبرنى خبره ، ولا يأتى رجل فأسأل عن صاحبه فيقول : لا علم لى به ، وإذا كبرت فكبروا ، وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمنعوا فى الطلب ، فأحطنا الحاضر ، فسمعت رجلاً يصرخ : يا خضرة ، فتفاءلت وقلت : لأصين خيراً ولاجمعن إلى امرأتى ، وقد أتيناها ليلاً ، قال : فجرّد أبو قتادة سيفه وجردنا سيوفنا ، وكبر ، وكبرنا معه ، فشددنا على الحاضر فقاتل رجال ، وإذا برجل طويل قد جرّد سيفه صلّتا ، وهو يمشى القهقرى ويقول : يا مسلم هلم إلى الجنة ، فاتبته ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، وهو يقول : الجنة !! الجنة ! يتحكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل فخرجت فى أثره ، فينادينى صاحبى : لا تبعد ، فقد نهانا أميرنا أن نمنع فى الطلب ، فأدركته فرميته على جريءاء متته . . . فلما رجعت من غزوة خضرة وقد أصبنا فيئاً ، سهم كل رجل اثنا عشر بعيراً ، دخلت بزوجتى فرزقنى الله خيراً (٣) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي حذرر عن أبيه قال : أصبنا فى وجهنا أربع نسوة ، فيهن فتاة كأنها ظبى من الحداثة والحلاوة شىء عجب ، وأطفال من غلمان وجوار ، فاققسموا السبى ، وصارت تلك الجارية الوضيئة لأبى قتادة ، فجاء محمية بن

(١) مسند الإمام أحمد ١١/٦ ، ١٢ .

(٢) فى مسند الإمام أحمد (السلمى) ، وعند الواقدي : الأسلمى ، والأصح الأسلمى كما فى كتب التراجم .

(٣) المغازى للواقدي ٧٧٧/٢ - ٧٧٩ .

جزء الزبيدي ، فقال : يا رسول الله ، إن أبا قتادة قد أصاب في وجهه هذا جارية وضيئة ، وقد كنت وعدتني جارية من أول فيء يُفَىء الله عليك ، قال : فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي قتادة فقال : « ما جارية صارت في سهمك ؟ » قال : جارية من السبي هي أوضأ ذلك السبي أخذتها لنفسى بعد أن أخرجنا الخمس من المغنم ، قال : « هبها لى » ، فقال : نعم ، يا رسول الله ، فأخذها رسول الله ﷺ فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدي (١) .



١ - لابد أولاً أن نتعرف على ابن أبى حذر ، فهو كما ذكره ابن حجر في الإصابة :
(عبد الله بن أبى حذر بن . . أسلم بن أقصى الأسلمى أبو محمد له ولأبيه صحبة . . وقال ابن سعد : أول مشاهدته الحديبية ، ثم خير .
وأما خبره في خير فطريف كما رواه الإمام أحمد وسبق أن ذكرناه فيها :
(أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه رسول الله ﷺ فقال : « ادفع إليه حقه » ، قال : لا أجد ، فأعادها ثلاثاً ، وكان ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يراجع ، فخرج إلى السوق فترع عمامته فاتزر بها ودفع إليه البرد الذى كان متركاً به فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه فمرت امرأة عجوز فسألته عن حاله فأخبرها فدفعت له برداً كان عليها (٢) .
أما رواية الواقدي فتعطينا تفصيلاً أكثر .

(وكان لأبى الشحم اليهودى عند عبد الله بن أبى حذر الأسلمى خمسة دراهم فى شعير أخذه لاهله فلزمه ، فقال : أجلى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقتك إن شاء الله ، إن الله قد وعد نبيه خير أن يغنمه إياها ، وكان عبد الله ممن شهد الحديبية ، فقال : يا أبا الشحم إنا نخرج إلى ريف الحجاز فى الطعام والأموال ، فقال أبو الشحم حسداً وبغياً : تحسب أن قتال خير مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل ، قال ابن أبى حذر : أى عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت فى ذمتنا وجوارنا ؟ والله لارفعنك إلى رسول الله ! فقلت : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى ما يقوله هذا اليهودى ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم ، فأسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه ، فقال اليهودى : يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمنى وحبسنى بحقى ، وأخذ طعمى ، قال رسول الله ﷺ : « أعطه حقه » ،

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٢٣ / ٣ .

(١) المغازى للواقدي ٧٧٧ / ٢ - ٧٧٩ .

قال عبد الله ، فخرجت فبعت أحد ثوبى بثلاثة دراهم ، وطلبت بقية حقه فقضيته ،
ولبست ثوبى الآخر ، وكانت على عمامة فاستدفأت بها ، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً
آخر ، فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ، ونفلى الله خيراً ، وغنمت امرأة بينها وبين أبى
الشحم قرابة فبعتها منه بمال (١) .

وقد رواها الطبرانى بسند صحيح كما ذكر ذلك الصالحى فى سبل الهدى والرشاد (٢)
ولفظه :

(فخرج ابن أبى حردد إلى السوق على رأسه عصابة وهو يتنزر بمنزر ، فنزع عمامته
عن رأسه فاتنزر بها ، ونزع البردة ، فقال : اشتر منى هذه ، فباعها منه بالدراهم ،
فمرت عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ؟ فأخبرها ، فقالت : ها دونك
البرد ، فطرحته عليه ، فخرجت فى ثوبين مع المسلمين . . .) (٣) .

هذا هو ابن أبى حردد الذى شهدناه فقيراً مملقاً ، ليس عنده قوت أهله فيستدين من
اليهودى أربعة دراهم أو خمسة يشتري بها شعيراً لأهله ، ولا يجد وفاء ذلك ، فيبيع
ثوبه ليبقى عارياً إلا عن الاتزار بعمامته ، فما باله اليوم نراه وبعد سنتين أو أقل يقدم على
الزواج بمهر قدره مائتى درهم ! إنه يفعل ذلك طمعاً وإكراماً فى ابنة الشهيد سراقه بن
حارثة النجارى شهيد بدر .

ونعرف سراقه هذا من خلال ترجمته فى الإصابة لابن حجر :

(حارثة بن سراقه بن الحارث بن عدى بن النجار الانصارى النجارى . . . وأمه
الربيع بنت النضر عمة أنس بن النضر استشهد يوم بدر ، وروى أحمد والطبرانى عن
طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ، والبخارى ، والنسائى من غير وجه عن حميد
عن أنس ، والترمذى من طريق سعيد عن قتادة عن أنس فاتفقوا على أنه قتل يوم بدر ،
وفى رواية ثابت أنه خرج نظاراً فأصيب ، فأتت أمه النبى ﷺ فقالت : قد عرفت موضع
حارثة منى . . . الحديث (٤) وفيه وأنه فى الفردوس ، وهكذا ذكره ابن إسحاق وموسى
ابن عقبة وأبو الأسود فيمن شهد بدرًا وقُتل بها من المسلمين ولم تختلف أهل المغازى فى
ذلك . . .) (٥) .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٦٣٤ ، ٦٣٥ . وسبق أن درسناها دراسة تربوية فى موقعها فى خير .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٨١ . (٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٨٢ .

(٤) وتتمته (فإن كان فى اللجنة صبرت وإلا رأيت ما أصنع ، قال : « يا أم حارثة ، إنها ليست بجنة واحدة ولكنها
جنان كثيرة وإن حارثة لفى أفضلها » ، أو قال : « فى أعلى الفردوس » - شك يزيد) . مسند أحمد ٣/ ١٢٤ .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٣١١ .

فقد كان يحمل طموحات الشباب وأحلامهم الخيالية كما يذكر (ولم أصب شيئاً من الدنيا كان أحب إلى من نكاحها) ولكن أنى له أن يسوق لها هذا المهر ، الذى استعظمه عليه الصلاة والسلام قائلاً له : « سبحان الله والله لو كنتم تغتربونه من ناحية بطحان ما زدتم » .

وجاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى مهرها ، وبذل أن يعطيه الرسول ﷺ ذلك المهر ، فيعتاد الجلوس ، والطلب والتواكل والاعتماد على الغير فى كسب رزقه ، وجهه إلى البطولة والجهاد ليسعى للحصول على المال من خلاله :

« ما وافقت عندنا شيئاً أعينك به ، ولكنى قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلاً فى سرية فهل لك أن تخرج فيها ؟ فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك » .

ومضى شابنا ابن أبى حذرد الأسلمى إلى الموت ، فلما أن ينال الشهادة ويختصر الطريق إلى الخور العين وإما أن يعود سالماً غانماً ومعه المال الوفير الذى يصل به إلى ما يصبو إليه من نكاح بنت شهيد بدر حارثة ، واستمع إلى خطبة قائده أبى قتادة : لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إلى فيخبرنى خبره ، ولا يأتين رجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى : لا علم لى به ، وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمنعوا فى الطلب) .

ومع انتهاء الخطبة تنهى إلى سمعه صراخ رجل (يا خضرة) فخفق قلبه ، وذكر مخطوبته (فتفاءلت ، وقلت : لأصين خيراً ولاجمعن إلى امرأتى) .

وآن أوان الحرب والمواجهة (فجرّد أبو قتادة سيفه وكبّر ، وجردنا سيوفنا وكبّرنا معه فشدنا على الحاضر وقاتلنا رجالاً) .

وحانت ساعة الموت والشهادة ، أما التحدى الكبير لابن أبى حذرد :

(وإذا أنا برجل طويل يمشى القهقرى وقد جرّد سيفه ، مرة يقبل علىّ بوجهه ، ومرة يدبر عنى بوجهه كأنه يريد أن يستطردنى فاتبعه ، ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة أمره هذا الأمر ، وهو يقول : الجنة ، الجنة ، يتهمكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل) .

أفيكون المشرك المتحدى مستقتلاً يستخف بالمسلمين : الجنة ، الجنة ، ولا يستقتل شابنا المجاهد ، إنها فرصة العمر ، ولكنه بين نارين ، نار أن لا يمعن فى الطلب فيستدرجه المشرك ويخالف أميره ، ونار الثورة لله فى قتل هذا المتحدى المتغطرس ، ونار ثالثة من الشوق والحب إلى زوجته بأن يعود إليها وقد ظفر بعدو من أعداء الله فقضى عليه فى حربه هذه .

وغلب عليه نار الثورة لله ، ولو كان بها الموت فى سبيل الله فما أحلاه .

(فخرجت فى أثره وناديت أين صاحبى ؟ فينادينى صاحبى : لا تبعد فقد نهانا أميرنا أن نمنع فى الطلب .

فأدركته فرميته على جريءاء متنه^(١) ، ثم قال : ادن يا مسلم إلى الجنة ، فرميته حتى قتلته بنبلى ، ثم وقع ميتاً فأخذت سيفه) ، لقد قتل بطلا من أبطال المشركين ، وها هو يتحمل مسؤولية المخالفة .

(وجعل زميلى ينادينى : أين تذهب ؟ إنى والله إن ذهبت إلى أبى قتادة فسألنى عنك أخبرته ، قال : فلقيته قبل أبى قتادة فقلت : أسأل أميرى عنى ؟ فقال : نعم وقد تغيظ علىّ وعليك ، وأخبرنى أنهم جمعوا الغنائم وقتلوا من أشرف لهم) .

ثم كانت ساعة الحساب العسيرة ، لكنه يحمل وساماً عظيماً خالداً هو قتل هذا البطل المتغترس :

(فجئت أبا قتادة فلامنى ، فقلت : قتل رجلأ كان من أمره كذا وكذا ، فأخبرته بقوله كله) .

وغفر له أميره هذه المخالفة ، وعاد رضى النفس قرير العين بعد رضا أميره عنه .

(ثم استقنا النعم ، وحملنا النساء ، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، فأصبحت وبيعيرى مقطور بامرأة كأنها ظبى ، فجعلت تكثر الالتفات حولها وتبكى) .

ورق لها يسألها إلى أى شىء تنظرين ؟ قالت بخفر وخوف وثقة :

(أنظر والله إلى رجل لئن كان حياً ليستنقذنا منكم .

فوقع فى نفسى أنه الذى قتلته ، فقلت : قد والله قتلته) ، فهو لم ير أشد بأساً وشكيمة منه فى الجيش ، وتابع قوله : (وهذا سيفه معلق بالقتب إلى غمده) ، فقالت : وقد بدأ الخوف والقلق يغزوانها فى أعماقها بعد أن نظرت إلى الغمد ، (هذا والله غمد سيفه ، فشمه إن كنت صادقاً .

قال : فشمته فطبق ، قال : فبكت ويشت) .

وعرف أنه قتل بطلاً من أبطال المشركين من الآمال التى وضعتها هذه الفتاة عليه أن يسترجعها من المسلمين ، ووصل ابن أبى حدرد مع الستة عشر الأبطال الذين غزوا غطفان فى آخر غزوة لها ، وهو سعيد برؤية حبيبته وقائده ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام ،

(١) جريءاء متنه : أى موضع الفقا المتجرد من اللحم .

حيث بعثه ليشق طريق مجده بالدم والنار، ويصل إلى آماله وطموحاته بالجهاد والشهادة.
(فقدمنا على النبي ﷺ بالنعم والشاء) ، وكانت أهني ليلة ، وأحلى ليلة ينامها حيث
يفيق صباح اليوم الثاني على قسمة الغنائم ، ويأخذ نصيبه منها ويمضي إلى حبيته ،
فيعطيه مهرها .

ومن خلال الدم والخوف والموت والبطولة كسب ابن أبي حدرد مهره وحدثنا عن
ذلك قائلاً : (لما رجعت من غزوة خضرة وقد أصبنا فيثا ، سهم كل رجل اثنا عشر
بعيراً ، دخلت بزوجتي فرزقني الله خيراً) أما التقرير العسكري عنهم فكان كما هو في
السجلات :

غابوا خمس عشرة ليلة ، وجاؤوا بمائتي بعير وألف شاة ، وسبوا سبيّاً كثيراً ، وكان
الخمس معزولاً ، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً يعدل البعير بعشر من الغنم .
وآب صاحبنا الذي باع ثيابه بأربعة دراهم ليفي دينه وقوت أهله ، قبل أقل من
عامين ، ليغدوا اليوم صاحب الإبل والشاء ، وزوج بنت شهيد بدر .
٢ - ولم تنته قصتنا مع هذه السرية .

فقائدها أبو قتادة لأول مرة يستلم هذه القيادة ، بعد أن أثبت كفاءته القتالية العالية
يوم ذي قرد ، ونعود بعرض موجز له ، لنرى الدوافع التي حدث بالمصطفى ﷺ أن
يكلفه بهذه القيادة بعد أن فاز بقلب :

« خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجّالنا سلمة بن الأكوع » (١) .

١ - أيوب عن محمد أن النبي ﷺ أرسل إلى أبي قتادة ف قيل : يترجل (٢) ، ثم أرسل
إليه ، ف قيل : يترجل ، ثم أرسل إليه ف قيل : يترجل ، فقال : « احلقوا رأسه » فجاء
فقال : يا رسول الله ، دعني هذه المرة ، فوالله لأعتبك (٣) ، فكان أول ما قتل رأس
المشركين مسعدة (٤) .

ب - الواقدي : حدثني يحيى بن عبد الله بن أبي قتادة عن أمه ، عن أبيه قال :
قال أبو قتادة : إني لأغسل رأسي ، قد غسلت إحدى شقيه إذ سمعت فرسي جردة
تسهل ، وتبحث بحافرها ، فقلت : هذه حرب قد حضرت ، فقمتم ولم أغسل شق
رأسي الآخر ، فركبت وعلى بردة ، فإذا رسول الله ﷺ يصيح : « الفرع ! الفرع ! » .

(١) مسند أحمد ٤/٣٨٣ ، ومسلم ٣/١٤٣٩ .

(٢) يترجل : يمشط شعره .

(٣) لأعتبك : لأزيلنّ عتبك على .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/٤٥٤ .

قال: فأدرك المقداد، فسأيرته ساعة، ثم تقدّمه فرسى، وكان أجود من فرسه ، وأخبرنى المقداد بقتل مسعدة محرراً يعنى ابن نضلة، فقلت للمقداد : إما أن أموت ، وإما أن أقتل قاتل محرز، فضرب فرسه ، فلحقه أبو قتادة ، فوقف له مسعدة ، فنزل أبو قتادة فقتله ، وجنب فرسه معه، قال: فلما مرّ الناس تلاحقوا ، ونظروا إلى بردى ، فعرفوها ، وقالوا : أبو قتادة قُتل ، فقال رسول الله ﷺ : « ولكنه قتل لأبى قتادة عليه بُرْدُهُ ، فخلوا بينه وبين سلبه وفرسه » ، قال : فلما أدركنى قال : « اللهم بارك له فى شعره وبشره ، أفلح وجهك ! قتلت مسعدة » قلتُ : نعم ، قال : « فما هذا الذى بوجهك ؟ » قلت : سهم رميت به ، قال : « فادن منى » ، فبصق عليه فما ضرب على قط ولا قاح .

فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابن خمس عشرة سنة .

قال : وأعطانى فرس مسعدة وسلاحه (١) .

وكما مرّ خير الرّجاله سلمة بن الأكوع بأعظم امتحان فى أن يتنازل عن جاريته الحسنة لرسول الله ﷺ (وقدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قرفة ، ويعبد الله بن مسعدة فذكر ذلك لرسول الله ﷺ وذكر له جمالها ، فقال: « يا سلمة ، هب لى المرأة لله أبوك » ، فقال : يا رسول الله ، جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا فى بنى فزارة ، فأعاد رسول الله ﷺ الكلام مرتين أو ثلاثاً حتى عرف سلمة أنه يريد بها فوهبها له ، فوهبها النبى ﷺ لحاله حزن بن أبى وهب بن عمرو . . بن مخزوم (٢) فولدت له عبد الرحمن بن حزن) (٣) .

ها هو خير الفرسان يتعرض لنفس الامتحان وهو القائد المظفر الذى شئت شمل جيش المشركين بستة عشر رجلاً وساق أكثر من مائتى بغير وألف شاة غنائم ، ويحدثنا ابن أبى حذر عن هذا الامتحان لقائده ، فيقول :

(أصبنا فى وجهنا أربع نسوة فيهن فتاة كأنها ظبى ، بها من الحداثة والحلاوة شىء عجيب ، وأطفال وجوار ، فاقسمنا السبى ، وصارت تلك الجارية الوضيئة لأبى قتادة ، فجاء محمية بن جزء الزبيدى فقال : يا رسول الله ، إن أبا قتادة قد أصاب فى وجهه هذا جارية وضيئة ، وقد كنت وعدتني جارية من أول فىء يفيء الله به عليك ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى قتادة فقال : « هب لى الجارية » قال : نعم يا رسول الله .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٥٠٢ ، وقال المحقق: انظر الخبر فى الواقدى ، والمعجم الصغير ، والاستيعاب ، والإصابة .

(٢) سبق أن تحدثنا عن الحكمة فى ذلك فى الموقع المناسب .

(٣) وعند مسلم أن رسول الله ﷺ فدى بابنة أم قرفة أسيراً كان فى قريش من المسلمين ، وهى فى السيرة

فأخذها رسول الله ﷺ ، فدفعتها إلى محمية بن جزء الزبيدي) .

وإن كان سلمة قد تردد قليلا ، فما كان لأبي قتادة أن يتردد أبداً ، ونزل عنها لقائده الحبيب عليه الصلاة والسلام ، ليهيئ له الوفاء بوعده مع محمية بن جزء بجارية من أول فيء يفيء الله تعالى به عليه ، ونجاح أبي قتادة ﷺ النجاح الباهر في قيادة هذه السرية ، أهله لقيادة جديدة ومسؤولية أكبر .

رمضان سنة ثمان ، إلى بطن إضم في شهر رمضان قبل فتح مكة

عن عبد الله بن أبي حدرد قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربيع ، ومسلم بن جثامة بن قيس حتي إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر الأشجعي على قعود له متبع ووطب من لبن ، فلما مر بنا سلم علينا فأمسكنا عنه ، وحمل عليه مسلم بن جثامة فقتله بشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بغيره ومتيعه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ، وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء] (١) .

تهيئة الأجواء لفتح مكة :

٢- (قال محمد بن عمر : لما أراد رسول الله ﷺ التوجه إلى مكة بعث أبا قتادة الحارث بن ربيع ﷺ في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار .

حدثني عبد الله بن يزيد بن قسيط عن أبيه عن ابن أبي حدرد قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن إضم (٢) أميرنا أبو قتادة في تلك السرية ، وفيها مسلم بن جثامة الليثي وأنا فيهم ، فبينما نحن ببعض وادى إضم إذ مر بنا عامر بن الأصبط الأشجعي فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه ، وحمل عليه مسلم بن جثامة فقتله وسلبه بغيراً له ومتاعاً ووطباً (٣) من لبن كان معه ، فلما لحقنا النبي ﷺ نزل فينا القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

(١) مسند أحمد ١١/٦ ، والمتبع : تصغير متاع .

(٢) إضم : واد وجبل حوالى المدينة بينه وبينها ثلاث برد ، وهى فى أرض جهينة على غير طريق مكة . انظر صفة جزيرة العرب / ٣٢٢ للهمدانى .

(٣) الوطب : رزق اللبن خاصة .

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿ الآية ، فانصرف القوم ولم يلقوا جمعاً حتى انتهوا إلى ذى خشب (١) ، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة ، فآخذوا على بين (٢) حتى لحقوا النبي ﷺ بالسقيا (٣) (٤) .

فهى سرية تمويهية ليس لها هدف عسكري إنما مهمتها التمويه على العدو للمكان المقصود غزوه ، وخاصة بالنسبة لأهل مكة كى لا يعرفوا مسير رسول الله ﷺ إليهم .

وأما مقتل عامر بن الأضبط الأشجعي فسنعرض له فى حينه .

وحيث إننا على أبواب فتح مكة ، فلا بد من استعراض الملاحظات التالية :

أ- لقد شهدنا الحرب مع غطفان التى لم يهدأ أوارها حتى قبيل المسير لفتح مكة بشهر ، فقد كانت سرية أبى قتادة الأخيرة فى شعبان إلى غطفان فى أرض نجد ، حيث شهدنا عيينة بن حصن ، يقود هذه الحرب ويحركها فى كل مكان ، ونفاجأ به ينضم للجيش الإسلامى فى فتح مكة ، فمتى تم دخوله للإسلام ؟

ليس بين يدينا نص قاطع فى ذلك ، والفارق الزمنى وجيز جداً بين قيادته السرايا ضد المسلمين ، وبين انضمامه للجيش الإسلامى ، ونقدر أن ذلك قد تم خلال الشهرين الأخيرين ، ورأينا أنه قد كاد يجمع دخول المدينة بعد شوال سنة سبع ؛ ليعلن إسلامه مع الحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان ثم صرفهما عن ذلك قرة بن هبيرة سيد بنى عامر ، وحين نستعيد حديث الحارث وعيينة بعد هروبه من جيش محمد فى شوال سنة سبع ، (يقول عيينة : هو والله ذاك ، ولكن نفسى لا تقرنى ، قال الحارث : فادخل مع محمد ، قال : أصير تابعاً ! قد سبق قوم إليه فهم يزرون (٥) بمن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدرًا وغيرها ، قال الحارث : وإنما هو على ما ترى ، فلو تقدمنا إليه لكنا من عليه أصحابه ، قد بقى قومه بعدهم منه فى موادة ، وهو موقع بهم موقعة ما وطئ له الأمر ، قال عيينة : أرى والله ، فاتعدا يريدان الهجرة والقدوم على النبي ﷺ إلى أن مر بهما قرة بن هبيرة القشيري يريد العمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان ، قال قرة : لو استأنيتم تنظروا) (٦) .

(١) ذو خشب : واد على ليلة من المدينة . (٢) بين : واديه عين من أعراس المدينة .

(٣) السقيا : قرية جامعة من عمل الفرع ، والفرع من أعمال المدينة .

(٤) المغارى للواقدي ٧٩٧/٢ .

(٥) يزرون : يتقصون .

(٦) المغارى للواقدي ٧٢٩/٢ ، ٧٣٠ .

واستأنيا في الشهرين الأخيرين من العام السابع ، ثم دخلت سنة ثمان .

ب- ونجد في ترجمة عيينة عند ابن سعد رواية تشير إلى زيارة عيينة بن حصن المدينة قبل هذا التاريخ ، قال : (أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : أجذبت بلاد آل بدر بن عمرو حتى ما أبقت من مالهم إلا الشريد ، ، وذكرت له سحابة وقعت بتغلمين^(١) إلى بطن نخل^(٢)) ، فسار عيينة بن حصن في آل بدر نحوًا من مائة بيت حتى أشرف على بطن نخل ، ثم هاب النبي ﷺ وأصحابه فورًا المدينة ، فأتى النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام فلم يبعد ولم يدخل فيه ، قال : إني أريد أن أدنو من جوارك فوادعني ، فوادعه ثلاثة أشهر لا يغير أحد من المسلمين على أحد منهم ، ولا يغير أحد منهم على المسلمين ، فلما انقضت المدة انصرف عيينة وقومه إلى بلادهم قد أسمنوا وألبنوا وسمن الحافر من الصلبان^(٣) ، وأعجبهم مرآة البلد ، فأغار عيينة بذلك الحافر على لقاح النبي ﷺ التي كانت بالغابة ، فقال له الحارث بن عوف : ما جزيت محمداً أسمنت في بلاده ، ثم غزوته ، قال : هو ما ترى^(٤) .

وغزوة الغابة أو ذى قرد كانت في آخر السنة السادسة وأوائل السابعة بين الحديبية وخيبر كما في صحيح مسلم .

ج- أما الزيارة الثانية المحتملة فقد تكون في السنة الثامنة ، وكان مع الاقرع بن حابس التميمي ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن خباب رضي الله عنه قال :

جاء الاقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم في نفر من أصحابه ، فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن نجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتابًا ، قال : فدعا بصحيفة ودعا عليًا ليكتب ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ... ﴾ الآية [الانعام : ٥٢] ، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه^(٥) .

(١) ، (٢) تغلمين : اسم موضع قرب بطن نخل ، وبطن نخل : قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة .

(٣) الصلبان : نبات له سمة عظيمة تحبه الإبل .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٥٥١ ، ٥٥٢ . تحقيق السلمي .

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٢٦ ، ٢٧ وقال عنه ابن كثير : ورواه ابن جرير من حديث أسباط به ، وهذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية ، والاقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر .

وإن كانت هذه الحادثة تتعارض في مجال أسباب النزول من حيث الزمن ، فالآية مكية ، وهذان إنما قدما المدينة في تقديرنا في السنة الثامنة ، لكن لا يبعد أبداً أن يكونا جاءا على أمل أن يأخذا موقعاً خاصاً لهما ، ويشترطا لإسلامهما ذلك الموقع ، فرد عليهما رسول الله ﷺ بهذه الآية ، وخرجا غاضبين ، فالقضية كلها عند هؤلاء الزعماء هي قضية السيادة والحكم ، والمصلحة ، وقد رأينا من نقاش الحارث بن عوف ، وعيينة ابن حصن السابق ما يجلى هذا المعنى ، وقضية السيادة قضية حياة أو موت ، فبعد أن يكون السيد الأول في قومه ينتقل ليكون تابعاً لمحمد بن عبد الله ﷺ ، فالموت أهون عليه من ذلك ما لم ير أن هذا هو الخيار الوحيد لديه ، فالعز الذي وصل إليه في الجاهلية ، تقطع الرقاب دونه (فقد كان من الجرارين يقود عشرة آلاف ، ولم يكن الرجل يسمى جراراً حتى يرأس ألفاً ، وقد قاد غطفان إلى بني تغلب) (١) .

د- ولاشك أن عيينة عاد فدرس الأمر ، ورأى أمر محمد يعلو علواً منكرًا ، فقد بقى وحده في الساحة يحاربه ، ومن حوله إما مهادن أو متابع ، فرأى أن الإسلام هو الطريق الوحيد للمحافظة على ما تبقى من أمجاد .

فقد روى ابن سعد قال : (أخبرنا علي بن محمد القرشي عن علي بن سليم عن الزبير بن خبيب قال : أقبل عيينة بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه ، فتلقيه ركب خارجين من المدينة ، فقال : أخبروني عن هذا الرجل ؟ قالوا : الناس فيه ثلاثة : رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشاً والعرب ، ورجل لم يسلم فهو يقاتله فيبينهم التذابح ، ورجل يظهر له الإسلام ، ويظهر لقريش أنه معهم ، قال : ما يسمى هؤلاء القوم ؟ قالوا : يسمون المنافقين ، قال : ما في من وصفتهم أحزم من هؤلاء ، اشهدوا أني منهم) (٢) .

وبذلك تابع خطاه ودخل المدينة (ثم أسلم قبل فتح مكة بيسير) (٣) ، فذكر بعضهم : أنه ورسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح ، وهو بين عيينة والاقرع) (٤) .

٣- حدث هام لم نشر له وقد هز أرجاء مكة ، وأفقدتها كثيراً من قوتها في حربها ضد رسول الله ﷺ هو حدث إسلام أبي العاص بن الربيع ، وذلك في العام السابع للهجرة ، وذلك كما رواه موسى بن عقبة في مغازيه التي أوردها البيهقي في دلائله : (فاقاموا مع أبي جندل وأبي بصير لا يمر بهم غير قريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها

(١) المحبر ص ٢٤٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٥٣/٢ ، وقال المحقق فيه : إسناده حسن إلى الزبير بن خبيب .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٥٦/٢ .

(٤) ذكر في المصادر ذلك ، مثل السيرة لابن هشام وابن شبة والطبري وابن حجر في الإصابة والتهذيب .

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألون ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل بن سهيل ومن معه فقدموا عليه ، وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره . . .

ولم يزل أبو جندل وأبو بصير وأصحابهما الذين اجتمعوا إليهما هنالك ، حتى مر بهم أبو العاص بن الربيع - وكان تحت زينب بنت رسول الله ﷺ - من الشام في نفر من قريش ، فأخذوهم وما معهم وأسروهم ولم يقتلوا منهم أحداً لصهر أبي العاص رسول الله ﷺ ، وأبو العاص يومئذ مشرك ، وهو ابن أخت خديجة رضي الله عنها لامها وأبيها ، وخلوا سبيل أبي العاص ، فقدم المدينة على امرأته ، وهى بالمدينة عند أبيها كان أذن لها أبو العاص حين خرج إلى الشام^(١) أن تقدم المدينة فتكون مع رسول الله ﷺ ، فكلما أبو العاص في أصحابه الذين أسر أبو جندل وأبو بصير وما أخذوا لهم ، فكلمت رسول الله ﷺ في ذلك فزعموا أن رسول الله ﷺ قام فخطب الناس فقال : « إنا صاهرنا ناساً ، وصاهرنا أبا العاص ، فنعم الصهر وجدناه ، وأنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش ، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأسروهم ، وأخذوا ما كان معهم ، ولم يقتلوا منهم أحداً ، وإن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتني أن أجيرهم ، فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ » فقال الناس : نعم ، فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله ﷺ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده من الأسرى ردَّ إليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال^(٢) .

ورواية ابن إسحاق كما يلي :

(وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة حين فرق بينهما الإسلام حتى إذا كانت قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها^(٣) معه ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هارباً ، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح كما حدثني يزيد بن رومان فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس

(١) الصحيح أن زينب خرجت إلى رسول الله ﷺ بعد بدر ، وحادثة هبار بن الأسود والحويث بن منقر اللذين أهدر رسول الله ﷺ دمهما لطمعتهما ناقة زينب وهى خارجة معروفة .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١٧٤/٤ . أما رواية الواقدي فتشير إلى أن زيد بن حارثة رضي الله عنه هو الذى أسر أبا العاص

ابن الربيع في سرية بعثه رسول الله ﷺ فيها إلى العيص في جمادى الأولى سنة ست .

(٣) أبضعوها : بعثوها معه بضاعة .

إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، قال : فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أديانهم » ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فدخل على ابنته فقال : « أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر :

أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسبوا وتردوا عليه الذي له ، فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي يفاء عليكم فأنتم أحق به ، فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ، فردوه عليه ، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ، ويأتي الرجل بالشنة (٢) وبالإداوة (٣) حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ (٤) حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئا ، ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ! فقد وجدناك وفيا كريما ، قال : فانا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنني إنما أردت أن أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ ، قال ابن إسحاق : وحدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : رد رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئا بعد ست سنين (٥) .

وأهمية إسلام أبي العاص بن الربيع ﷺ تبدو في الإعلان الرسمي والتحدى بالإسلام في مكة فما سبق أن أعلن أحد إسلامه في بطحاء مكة مثله بعد إعلان إسلام عمر ﷺ ، أو إسلام أبي ذر الغفاري ، وهو قد أسقط الأمر في أيديهم بعد أن أعاد إليهم أموالهم التي لهم بحيث لا يعتبرون إسلامه لو تم في المدينة طمعا في أموالهم ، إنما هو عن رغبة جامحة وقناعة في هذا الدين ، وليس عن رغبة في زوجة فقد أقام عندهم ست سنين بدون زينب ، إنما كان عن عقيدة راسخة .

(١) وهذا يؤكد أن السرية بعد الحديبية ؛ لأن تحريم نكاح الكفار إنما كان بعد الحديبية .

(٢) الشنة : السقاء البالي .

(٣) الإداوة : المطهرة التي يتوضأ بها .

(٤) الشظاظ : عود مثقب يشد به فم الغرارة ، والغرارة : وعاء من الخيش توضع به الحبوب .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦٥ - ٣٦٩ .

ولا شك أن زلزال أبي بصير وأبي جندل قد هدَّ ركن أبي سفيان وصحبه ، حيث اضطروا هم إلى التراجع عن شرطهم ، أن من جاء محمداً مسلماً فعلى محمد أن يرده إليهم ، وأضعف هبة مكة في فرض أوامرها على أبنائها حيث لم يعودوا يخشون إعادتهم إليها لو أسلموا .

والأثر الآخر للإسلامه ﷺ هو ما رافق إسلامه من إعادة الأموال التي افتقدت كلها إلى أصحابها ، تكريماً له بصفته صهراً لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ومدى استعداد المسلمين للتنازل عن فيثهم الذي أفاءه الله تعالى عليهم استجابة لرغبة رسول الله ﷺ بذلك دون قيد أو إكراه أو استغلال .

وما أدهش مكة كذلك بهذا الإسلام، هو هذا الاحترام العظيم المتبادل بينهم ، فيكفى أن تحبير بنت محمد ﷺ رجلاً حتى يقبل جوارها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وقد حَزَّ هذا في نفس أبي سفيان حتى ليقول لفاطمة فيما بعد حين اعتذرت عن إجارتها :

قال : أجري بين الناس ، قالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد ، بل تجراً حتى أن يطلب جوار ابنها الحسن ﷺ ابن الأربع سنين لقناعته بقيمة كل فرد في هذا المجتمع حتى ولو كان صيباً ، بينما الأمر في مكة هو للملأ فقط والسادة فقط ، ولا يملك كل فرد في مكة مثل هذه الميزة أن يجير لمحمد مسلماً إلا إذا كان ذا شأن وذا سطوة إنها في أعماق عامة أهل مكة ثورة لاحترام الإنسان وتقديره .

لقد جاءت هذه الأمور متتالية ، فهدت كيان قريش ؛ صلح الحديبية ، ثم التنازل عن أحد شروطه بوساطة من أبي سفيان نفسه ، ثم التحدى الإسلامي المعلن في أرجاء مكة بدخول أبي العاص الإسلام ، ثم قطع التعبئة الإعلامية ضد محمد وصحبه بأن أعاد الأموال إلى أصحابها في قلب مكة وأعلن إسلامه ، ولم يعلنه في المدينة ويسطو على المال ، جاءت هذه الأمور جميعاً لتجعل أجواء مكة تتقبل الإسلام شيئاً فشيئاً . وتضعف هبة الملأ والسادة لدى جماهير مكة وعامتها .

٤ - وتشير بعض الروايات إلى تهيئة أجواء مكة لقبول الإسلام من خلال تعامله ﷺ مع أهل مكة بعد الهدنة ، فبعد أن رفض أهل مكة بوقاحة ، بعد عمرة القضية ضيافة رسول الله ﷺ لهم ، أن يتزوج ميمونة بين ظهرانيهم ، ويدعوهم إلى وليمة عرسها ، ها هو عليه الصلاة والسلام يتجاوز بعظمته هذه الوقاحة والجلافة ، ويحاول أن يسبغ جوا من الود في مكة ، يساعد على قبول الإسلام ودعوة الإسلام في صفوفها .

هذه الرواية هي بعث رسول الله ﷺ بهدية إلى أبي سفيان زعيم مكة وهو على شركه :

أ- (وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليه قبل أن يسلم بمال يقسمه في قريش لما بلغ رسول الله ﷺ حاجتهم) (١) .

ب- عن عكرمة (أن النبي ﷺ بعث إلى أبي سفيان بن حرب ، وأناس من قريش من المشركين بشيء فقبل بعضهم ورد بعض ، فقال أبو سفيان : أنا أقبل ممن رد ، قال : ثم بعث أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ بسلاح وأشياء فقبل منه) (٢) .

ج- عن عكرمة مولى ابن عباس أن النبي ﷺ أهدى إلى أبي سفيان بن حرب تمر عجوة وكتب إليه يستهديه أدمًا - قال : وهب بن جرير في حديثه عن أبيه - مع عمرو بن أمية الضمري ، قال : فقدم عمرو بن أمية ، فنزل على إحدى امرأتى أبي سفيان ، فلما أصبحت قريش عدوا عليه فأخذوه ، فقال : يا فلانة ، أأخذ من بيتك ودارك ؟ أما والله لو كنت نزلت عند فلانة لمنعتني ؟! فأحفظتها ، فقامت دونه وقالت لأبي سفيان : لتمنعن ضيفي ، فمنعه وقبل أبو سفيان هدية رسول الله ﷺ) (٣) .

وتؤكد هذه النصوص أن رسول الله ﷺ يحرص على تهئية أجواء مكة لاستئلال الحقد من نفوس قادتها كي تفتح صدرها للإسلام ، وتفتح صفحة جديدة من التعامل مع هذا الدين .

٤ - وأسر ثمامة بن أثال سيد بنى حنيفة والذي قطع الميرة والحنطة عن مكة بعد أن أسلم وقد سبق أن تحدثنا عنه في أحداث السنة السادسة ، لكن من المرجح أن يكون أسره بين خيبر والفتح (٤) ، ويعيننا من حديثه (فلما قدم مكة وسمعته قريش يتكلم بأمر

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧٤/١ ، ٧٥ . وذلك حين وقع الجذب بمكة وأكلت قريش العلهز .

(٢) المصدر نفسه ٧٥/١ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح إلى عكرمة .

(٣) المصدر نفسه ٧٦/١ وقال المحقق فيه : إسناده صحيح إلى عكرمة ، وأخرجه أبو عبيد من رواية جرير بن حازم في الأموال / ٢٤٠ . وذكر أن ذلك - أي الهدية - كانت في مدة الهدنة التي بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ، أما المحاربة فلا تنجز الهدية ، وكذا أيضاً ابن زنجويه في الأموال (٥٨٩/٢ - ٥٩٠) وذكره ابن حجر من رواية ابن سعد وقال عنه : إسناده صحيح (الإصابة / ١٢٨٥) انظر : الطبقات ٧٧/١ .

والملاحظ أن عمرو بن أمية الضمري الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بهديته هو هو نفسه الذي أرسله رسول الله ﷺ لاغتيال أبي سفيان بعد مقتل خبيب رضي الله عنه ، وهو الذي أخذ جثة خبيب وابتلعها الأرض بعد ذلك ، وفي هذا قمة الوفاء وعظمة الترية للرجل الذي تكلف بالقتل في الحرب أو تكلف بالهدية في السلم . (٤) يقول الحافظ البيهقي : والذي روى في حديث محمد بن إسحاق من قول أبي هريرة وإرادة فدائه يدل على شهود أبي هريرة ذلك ، وأبو هريرة إنما قدم على النبي ﷺ وهو بخيبر تشبه أن تكون قصة ثمامة فيما بين خيبر وفتح مكة ، انظر : الدلائل للبيهقي ٨١/٤ . ونص الرواية تؤكد أن هذا الأمر وقدم أبي سفيان وكتابة قريش إنما كان بعد هدنة الحديبية .

محمد من الإسلام ، قالوا : صبا ثمامة فأغضبوه فقال : إني والله ما صبت ولكني أسلمت ، وصدقت محمداً وأمنت به ، وإيم الذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة - وكانت ريف أهل مكة - ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ ، وانصرف إلى بلده ، ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (١) .

وفى رواية ابن عباس : أن ابن أثال الحنفى لما أتى النبي ﷺ وهو أسير خلى سبيله ، فأسلم فلحق بمكة يعنى ثم رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة ، حتى أكلت قريش العلهز (٢) ، فجاء أبو سفيان بن حرب إلى النبي ﷺ فقال : أأست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال : قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٧٦) [المؤمنون] (٣) .

والذى أبرز هذا الحدث هو الرواية السابقة الثانية التى تشير إلى مواساة رسول الله ﷺ لأهل مكة حين بعث الهدايا لقادتها ، كما بعث - مواساة - بالمال لأبى سفيان ليقسمه على قريش ، هذه الروح التى برزت بعد الهدنة ، نلاحظ على الخط نفسه سماحه عليه الصلاة والسلام لثمامة بن أثال أن يعيد بعث الطعام والميرة إلى مكة بعد أن عض قريشاً الجوع ، إنها عملية أسو الجراح ، وإيجاد جو جديد بين مكة والمدينة ، بكسر الحواجز بين الإسلام ومكة المكرمة .

٥- وفى تهيئة أجواء مكة للفتح تطالعنا وفود القبائل بإسلامها :

الأولى : مزينة : وقد جاء وفدها أربعمئة إلى رسول الله ﷺ يعلنون ولاءهم لهين الله بما روى ابن سعد فى الطبقات : (كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمئة من مزينة ، وذلك فى رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم ، قال : أنتم مهاجرون حيث كنتم ، فارجعوا إلى أموالكم ، فرجعوا إلى بلادهم) (٤) .

الثانية : خزاعة : (قال أبو عبد الله : سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبي ، متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه ؟ فقال : أخبرنى أبى عن قبصة بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان ، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير ، ومنهم ما هو

(١) دلائل النبوة لليهقى ٨٠ / ٤ .

(٢) العلهز : شئ كانوا يتخذونه فى سنى المجاعة يخلطون فيه الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه فى النار ويأكلونه .

(٣) دلائل النبوة لليهقى ٨١ / ٤ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩٠ / ١ .

بعد مقيم على شركه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ، لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدق بمحمد ، قد أتوا بالإسلام ، وهو فيمن حوله قليل حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوزة وهاجروا ، فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :
بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى بُدَيْل وبشر وسروات بنى عمرو سلام عليكم ، فإنى أحمد الله إليكم ، الله لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإنى لم آثم بآلكم ، ولم أضع فى جنبكم ، وإن أكرم تهامة على أنتم ، وأقربهم رحماً أنتم ومن تبعكم من المطيين ، فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ولو هاجر بأرضه - غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً - وإنى لم أضع فيكم إذ سألت ، وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصورين ، أما بعد فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة ، وابنا هوزة ، وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة . أخذت لمن تبعنى منكم ما أخذ لنفسى ، وإن بعضنا من بعض أبداً فى الحل وفى الحرم ، وإننى والله ما كذبتكم وليحبكم ربكم .

حدثنى عبد الله بن بُدَيْل عن أبيه عن جده عن عبد الله بن مسلمة عن أبيه عن بديل ابن ورقاء مثل ذلك (١) .

الثالثة : غفار : وكانت غفار قد سبقت خزاعة فى إسلامها قبيلة كاملة كما حدثنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه فى قصة إسلامه ، فقال فى ذلك :

(فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم ، وكان يؤمهم إيماء بن رخصة الغفارى وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأسلم نصفهم الباقي ، وجاءت أسلم فقالوا : يا رسول الله ، إخواننا . نسلم على الذى أسلموا عليه ، فأسلموا فقال رسول الله ﷺ : « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » (٢) .

الرابعة : أسلم : (وجاءته أسلم وهو بغدير الاشطاط ، وجاء بهم بريدة بن الحصيب فقال : يا رسول الله ، هذه أسلم وهذه محالها ، وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقي قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله ﷺ : « أنتم مهاجرون حيث كنتم » ، ودعا العلاء بن الحضرمى فأمره أن يكتب لهم كتاباً فكتب : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم لمن آمن منهم بالله وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ،

(٢) صحيح مسلم ٤ / ١٩٢٢ ح (٢٤٧٣).

(١) المغارى للواقدي ٢ / ٧٤٩ - ٧٥٠ .

فإنه آمن بأمان الله، وله ذمة الله وذمة رسوله، وإن أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم، اليد واحدة والنصر واحد ، ولاهل باديتهم مثل ما لاهل قرارهم ، وهم مهاجرون حيث كانوا (١) .

هذه الظاهرة بحاجة إلى دراسة مستأنية خاصة ونحن نتحدث عن التربية الجماعية التي غدت أساساً في هذه المرحلة ، فنحن نذكر في كتاب الله عز وجل قوله تعالى :

﴿ لَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أُخْرَجَ مِنْكُمْ لِيُحْجِزَ الْكُفْرَ عَنْكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ ﴾ [الشعراء] .

﴿ فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أُخْرَجَ مِنْكُمْ لِيُحْجِزَ الْكُفْرَ عَنْكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ وَلِيُجْزِيَ الْإِسْلَامَ فِيكُمْ ﴾ [الكهف] .

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الانعام] .

١ - فهناك إرادة ربانية إذن أن تكون عمليات البناء الأولى عملية فردية لكل شخص ولكل لبنة ليتم بناؤه مستقلاً عن عشيرته وقبيلته ، وتأثيرات عشيرته وقبيلته .

وبقى هذا الأمر طيلة العهد المكي ، حتى لم يتجاوز عدد المسلمين الذين انضموا لهذا الدين مائتي مسلم ، خلال ثلاثة عشر عاماً من عمر الزمن (٢) ، وتمت صياغة النوعية القيادية الأولى في التاريخ .

ولم يشأ الله تعالى أن يرتبط إسلام الأفراد بإسلام زعماء القبائل في قريش ، بحيث لو أسلم سيد العشيرة لأسلمت العشيرة بأكملها .

٢ - وشاءت الإرادة الربانية لهذا الدين كذلك أن يتم إسلام الأنصار الجماعي بعد أن فقدوا أكبر قياداتهم في حرب بعاث، فجرى الدخول الجماعي في الإسلام بقيادات شابة ، لا تحمل عقْدَ الجاهلية وموروثاتها ومبادئها بحيث تؤثر على مجرى التربية الإسلامية لهذا الجيل ، وكان بناء النوعية القيادية الثانية من الأنصار حتى تكون من النوعيتين جيل بدر الذي سبق أن تحدثنا عنه من قبل .

٣ - وحين أصبحت المدينة عاصمة الإسلام ، وأصبحت جاهزة لتستقبل كل مسلم من القبائل المجاورة ، والذين بدؤوا يفدون على المدينة من كل صوب ، ورسول الله ﷺ جعل المسجد قاعدة الانطلاق والبناء للأحاد والعشرات الوافدين كل يوم ، ويتابع رسول الله ﷺ بناءهم وتربيتهم والعناية بهم ، ولو بلغوا المئات ، فلا يزال المسجد قادراً على تلقيهم وتوجيههم وتكوينهم التكوين المناسب بالإضافة إلى متابعة التربية من النوعيتين

(٢) وقبل إسلام الأنصار .

(١) المغازي للواقدي ٧٨٢/٢ .

الأولى والثانية لهؤلاء الوافدين الجدد ، أمكن تكوين النوعية القيادية الثالثة التى كانت نواة جيل الحديدية والتى تجاوزت الألف دون أن تصل إلى الألف والنصف من النوعيتين الأولى والثانية بحيث غدت القيادات قادرة على تأدية دورها الفعال فى مجتمعاتها الخاصة وقبائلها ، بما تلقت من تربية عميقة وتكوين دقيق على يد النبى الأعظم ﷺ وصحبه الذين رباهم على عينه .

٤ - وبعد صلح الحديدية وخير ، وخلال سنتين من الزمن انتقلت العملية الكبرى فى البناء إلى هؤلاء الرواد الأوائل الذين يتابعون عمليات البناء فى قبائلهم ومجتمعاتهم ، بالإضافة إلى الدورات السريعة التى يتلقاها الوافدون الجدد فى المسجد النبوى وقد اتسعت القاعدة وغدت بالآلاف بعد أن كانت بالمئات وتم خلال هاتين السنتين تكوين عواصم جديدة للإسلام ، هى هذه القبائل التى ذكرناها من قبل بحيث تصبح القبيلة كلها مسلمة بفضل جهود أبنائها الأوائل ، إضافة إلى قربها من المدينة المنورة التى كان يفد إليها الصحابى ، فيتعلم ويتدرب ، ويشارك فى الجهاد والحياة الإسلامية ، وقد شهدنا أكبر هذه التجمعات فى مؤتة حيث بلغ عدد الجيش الإسلامى ثلاثة آلاف ، كان معظمه من العناصر الشابة الجديدة التى دخلت فى الإسلام ، وانضمت إلى دورات التأهيل التربوى والعسكرى والجهادى مباشرة أو بواسطة الرواد القياديين الأوائل الذين كانوا يشرفون على هذه الدورات سواءً فى مواقع القيادة العسكرية ، أو مرافقة الجيش ليتحملوا مسؤولية الجانب التربوى فيه .

٥ - ولم تمنع هذه التربية الجماعية من متابعة التربية القيادية للأفراد النوابع الذين يملكون الكفاءات القيادية على جميع مستوياتها من أن يهيئ لهم رسول الله ﷺ دورات عالية تناسب مستواهم ، ويفتح لهم آفاق التدريب واختبار هذه الكفاءات وتوجيهها ، وممارستها، ثم تصحيح بعض شوائبها التى تبرز نتيجة بعض مخلفات الجاهلية فيها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هذه النماذج: أبان بن سعيد ، وعمرو بن العاص ، وخالد ابن الوليد ، وعثمان بن طلحة من قيادات قريش ، وعمرو بن أمية الضمري ، وغالب بن عبد الله الليثي، وأبو قتادة بن ربعي الأنصاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، والضحاك بن سفيان الكلابي .

٦ - وانطلق هؤلاء الرواد يتابعون الدعوة فى قبائلهم حتى تم إسلام أربعة قبائل قبل فتح مكة وهى غفار ومزينة وأسلم وخزاعة ، وغدت هذه المراكز الأربعة مقاطعات إسلامية خالصة ، تابعة لقيادة المدينة ، وعندما جاء الطلب كى تشارك هذه القبائل فى الجهاد سارع شبابها للانضمام للجيش الإسلامى بالمئات ، ونشير إلى أن هذه القبائل

بشكل عام هي من القبائل الصغيرة التي لا يؤبه لها قبل الإسلام لكنها وبعد دخولها في الإسلام أخذت موقعها الممتاز في مقدمة الركب بينما تخلفت القبائل الكبرى التي كانت في مناشات مع دولة الإسلام أو كانت متربصة نهاية المعركة بين دولة الإسلام ودولة قريش .

٧- ونشير أخيراً إلى انضمام ثلاث قيادات بأشخاصها لا بقبائلها ، وهي من القبائل الكبرى ذات الوزن والثقل في المجتمع العربي ، وكان إسلام هذه القيادات الثلاث إسلام مصلحة سياسية أكثر منه إسلام قناعة إيمانية ، فلذلك اكتفت بالانضمام إلى الجيش الإسلامي وحدها كمراقبة للساحة حتى تتأكد من النصر النهائي لمحمد ، فتتجه بقبائلها إلى الإسلام ، هذه القيادات الثلاثة هي :

عينة بن حصن سيد بني غطفان .

والأقرع بن حابس سيد بني نعيم .

وعلقمة بن علاثة سيد بني عامر بن صعصعة .

٨ - وعندما اتجه رسول الله ﷺ لفتح مكة ، كانت الساحة السياسية هادئة ، وكان هناك حلفان رئيسيان لقريش ولرسول الله ﷺ ، هذان الحلفان هما :

حلف خزاعة مع رسول الله ﷺ ، ولم يعلن أنه حلف إسلامي ، إنما أرادت خزاعة في الظاهر أن تبنيه على حلف خزاعة مع جد رسول الله ﷺ الذي ينص على : (باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب لخزاعة إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأي غائبهم مقر بما مضى عليه شاهدهم . . . إن بيننا وبينكم عهد الله وعقوده ما لا ينسى أبداً ولا يأتي بلد^(١) اليد واحدة ، والنصر واحد ، ما أشرف ثبير ، وثبت حراء ، وما بل بحر صوفة ، لا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجددًا أبداً أبداً ، الدهر سرمداً) ، فقرأه عليه أبي بن كعب فقال : (ما أعرفني بحلفكم ! وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف فكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف في الإسلام)^(٢) . بينما انضمت بكر إلى قريش للثارات والعداء المستحكم بين القبيلتين .

(١) اللد : الخصومة .

(٢) المغازي للواقدي ٧٨١/٢ .

فتح مكة

نقض العهد

روى محمد بن عمر عن شيوخه قال :

(كانت خزاعة فى الجاهلية قد أصابوا رجلاً من بنى بكر أخذوا ماله ، فمر رجل من بنى خزاعة على بنى الدليل بعد ذلك فقتلوه ، فوقع الحرب بينهم ، فمر بنو الأسود ابن رزن - ذؤيب وسلمى وكلثوم - على خزاعة فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، وكان قوم الأسود يودون فى الجاهلية ديتين لفضلهم فى بنى بكر ، فتجاوزوا ، وكف بعضهم عن بعض من أجل الإسلام ، وهم على ما هم عليه من العداوة فى أنفسهم ، إلا أنه قد دخل الإسلام عليهم جميعاً فأمسكوا ، فلما كان صلح الحديبية ، دخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده ، وكانت خزاعة حلفاء لعبد المطلب ، وكان رسول الله ﷺ عارفاً ، ولقد جاءته يومئذ خزاعة بكتاب عبد المطلب فقراه عليه أبى بن كعب ، فقال : « ما أعرفنى بحلفكم ! وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف ، فكل حلف كان فى الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام » (١) .

وعن محجن بن وهب قال : كان آخر ما كان بين خزاعة وبين كنانة أن أنس بن زنيم الدبلى هجا رسول الله ﷺ ، فسمعه غلام من خزاعة ، فوقع به فشجّه ، فخرج إلى قومه فأراهم شجّته ، فثار الشر مع ما كان بينهم ، وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها ، فلما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية ، تكلمت بنو نفاثة من بنى بكر أشراف قريش ، واعتزلت بنو مدلج فلم ينقضوا العهد - أن يعينوا بالرجال والسلاح على عدوهم من خزاعة ، وذكرهم القتلى التى أصابت خزاعة منهم ، وضربوهم بأرحامهم ، وأخبروهم بدخولهم معهم فى عقدهم وعهدهم ، وذهاب خزاعة إلى محمد فى عقده وعهده ، فوجدوا القوم إلى ذلك سراعاً إلا أبا سفيان لم يشاور فى ذلك ولم يعلم ، ويقال : إنهم ذاكروه فأبى عليهم - وجعلت بنو نفاثة وبكر يقولون : إنما نحن ! فأعانوهم بالسلاح والكراع والرجال ، ودسوا ذلك سراً ؛ لئلا تحذر خزاعة ، فهم آمنون غارون بحال المودعة وما حجز الإسلام بينهم ، ثم اتعدت قريش الوتير (٢) موضعاً بمن معها ، فوافوا للميعاد ، فيهم رجال من قريش من كبارهم ، متنكرون متنقبون - صفوان بن أمية ، ومكرز بن حفص بن الأحنف ، وحويطب بن عبد العزى - وأجلبوا

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٧٨١ - ٧٨٢ .

(٢) الوتير : موضع معروف جنوب غربى مكة ويبعد عنها ١٦ كم ، وأطلق على حيز منه اليوم الكعكية .

معه أرقاءهم ، ورأس بنى بكر نوفل بن معاوية الدولى فبيّتوا خزاعة ليلاً وهم غارون آمنون من عدوهم ، ولو كانوا يخافون هذا لكانوا على حذر وعدة ، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم ، فقالوا : يا نوفل ، إلهك إلهك ! قد دخلت الحرم ، قال : لا إله لى اليوم ، يا بنى بكر ، قد كنتم تسرقون الحاج ، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم ؟ لا يريد أحدكم يأتى امرأته حتى يستأذنى ، لا يؤخره أحد منكم اليوم بعد يومه هذا من ثأره ، فلما انتهت خزاعة إلى الحرم ، دخلت دار بديل بن ورقاء ، ودار رافع الخزاعيين ، وانتهوا بهم فى عماية الصبح ودخلت رؤساء قريش فى منازلهم ، وهم يظنون ألا يعرفوا ، وألا يبلغ هذا محمداً ﷺ ، وعن عطاء بن أبى مروان قال : قتلوا منهم عشرين رجلاً وحصروا خزاعة فى دار رافع وبديل ، وأصبحت خزاعة مقتلين على باب بديل ورافع مولى خزاعة ، وتنحت قريش ، وندموا على ما صنعوا ، وعرفوا أن هذا الذى صنعوا نقض للمدة والعهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ .

وقال فى ذلك ابن لقطه الديلى :

ألا هل أتى قصوى العشيرة أنا	رددنا بنى كعب بأفوق ناصل ^(١)
حبسناهم فى دارة العبد رافع	وعند بديل محبساً غير طائل
حبسناهم حتى إذا طال يومهم	نفخنا لهم من كل شعب بوابل ^(٢)
ذبحناهم ذبح التيوس كأننا	أسود تبارى فيهم بالقواصل ^(٣)

قال : ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة إلى أبى سفيان فقالا : هذا أمر لا بد له أن يصلح ، والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يردعكم إلا محمد فى أصحابه . قال أبو سفيان : قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وأفظعتها وخفت من شرها ، فقال القوم : ما هى ؟ قال : رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة ملياً ثم كان ذلك الدم لم يكن ، فكره القوم هذا وقالوا : هذا شر .

قال أبو عبد الله : وقد سمعنا وجهاً من أمر خزاعة لم أر عليه الناس قبلنا ولا يعرفونه ، وقد رواه ثقة ومخرجه الذى ردّ إليه ثقة مقنع إلا أن الناس قبلنا ينفونه .

وكان أول الحديث ، أنه حدثنى الثقة عندى أنه سمع عمرو بن دينار يخبر عن ابن عمر ، قال : إنه لما قدم ركب خزاعة على رسول الله ﷺ ، فأخبره بمن قتل منهم ، قال

(١) ناصل : أى رددته خائباً .

(٢) الوابل : دفعة الخيل .

(٣) القواصل : القواطع من الأنبياء .

رسول الله ﷺ : « فمن تُهْمِتُكُمْ وظننتمكم ؟ » قالوا : بنو بكر ، قال : « كلها ؟ » قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة ، ورأس القوم نوفل بن معاوية الديلي قال : هذا بطن من بكر ، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ، ومخيرهم في خصال ، فبعث إليهم ضمرة يخبرهم بين إحدى ثلاث خصال ، بين أن يدوا خزاعة ، أو يبرؤوا من حلف نفاثة ، أو ينبذوا إليهم على سواء . فقال قرظة بن عبد عمرو الأعمى : أما أن ندى خزاعة فإن نفاثة قوم فيهم عرام^(١) ، فلا نريهم حتى لا يبقى لنا سب^(٢) ولا لبد^(٣) ، وأما أن نبرأ من حلف نفاثة ، فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيماً لهذا البيت من نفاثة ، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم ما بقي لنا سب ولا لبد ، ولكننا ننبذ إليه على سواء فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ بذلك من قولهم فبعثت قريش أبا سفيان ابن حرب تسأل رسول الله ﷺ أن يجدد العهد، وندمت قريش على رد الرسول بما ردوه .

وعن عطاء بن مروان قال : قال رسول الله ﷺ لعائشة : « قد حرت في أمر خزاعة » .

قال ابن واقد ، فقالت عائشة : يا رسول الله أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم » .

قالت عائشة : خير أو شر يا رسول الله ؟ قال : « خير » .

(وروى الطبراني في الكبير والصغير عن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بات عندها ليلة ، فقام ليتوضأ إلى الصلاة فسمعتة يقول في متوضئه : « لييك لييك لييك » ثلاثاً ، « نصرت نصرت نصرت » ثلاثاً ، فلما خرج قلت : يا رسول الله ، سمعتك تقول في متوضئك : لييك لييك ثلاثاً نصرت نصرت ثلاثاً ، كأنك تكلم إنساناً ، فهل كان معك أحد ؟ قال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر » ، قالت ميمونة : فأقمنا ثلاثاً ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح بالناس فسمعت الراجز ينشد .

قدوم عمرو بن سالم :

روى الطبراني في الكبير والصغير عن ميمونة بنت الحارث والبخاري بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن أبي شيبة في المصنف ، عن عكرمة ، والبيهقي عن ابن إسحاق^(٤) ، ومحمد بن عمر عن شيوخه^(٥) : أن عمرو بن سالم الخزاعي خرج في أربعين راكباً من

(٢) السبد : الشعر .

(١) العرام : الشدة والقوة والبأس .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٦/٥ .

(٣) اللبد : الصوف أى لا يبقى لنا شيء .

(٥) المغازي للواقدي ٧٨٩/٢ .

خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذى أصابهم وما ظهرت عليهم قريش ، ومعاونتهم بالرجال والسلاح والكرع ، وحضور صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، ومن حضر من قريش ، وأخبروه الخبر ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد بين أظهر الناس ، ورأس خزاعة عمرو بن سالم ، فلما فرغوا من قصتهم قام عمرو بن سالم فقال :

يا رب إنى ناشد محمداً	حلف أيينا وأبيه الأتلدا(١)
قد كتنم ولدًا وكنا والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا	وقتلونا ركعًا وسجداً
وجعلوا لى فى كداء رُصدا	فانصر رسول الله نصرًا أيدا
وادعوا عباد الله يأتوا مددا	فيهم رسول الله قد تجردا
أن سيم خسفًا وجهه تربدا	فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا

قرم لقرم من قروم أصيدا

فقال رسول الله ﷺ : « نصرت يا عمرو بن سالم » ، فما برح حتى مرت عنانة من السماء ، فرعدت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذه السحابة لتستهيل بنصر بنى كعب » .

وروى أبو يعلى بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بنى كعب غضبًا لم أره غضبه منذ زمان ، وقال : « لا نصرنى الله تعالى إن لم أنصر بنى كعب » .

وروى عبد الرزاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بلغه خبر خزاعة قال : « والذى نفسى بيده لا منعه مما أمنع منه نفسى وأهل بيتى » .

قال ابن عقبة ومحمد بن عمر : إن رسول الله ﷺ قال لعمر بن سالم وأصحابه : «ارجعوا ، وتفرقوا فى الأودية » ، فرجعوا وتفرقوا ، وذهبت فرقة إلى الساحل بعارض الطريق .

وأخبر عمرو بن سالم ومن معه أن أنس بن زنيم هجا رسول الله ﷺ ، فأهדר دمه .

١ - لقد كانت شرارة تجديد المواجهة بين بكر وخزاعة شرارة إسلامية خالصة ،

(١) الأتلد : القديم .

ولست شرارة جاهلية تقوم على الثارات القديمة ، وذلك بعد أن حجز الإسلام بين الفريقين ، ثم انتهى كل واحد منهما إلى صف ؛ خزاعة إلى صف رسول الله ﷺ ، وبكر إلى صف قريش ، لكن الشرارة كما ذكرها الواقدي في مغازيه هي (كان آخر ما بين خزاعة وبنى كنانة أن أنس بن زعيم الدبلي هجا رسول الله ﷺ ، فسمعه غلام من خزاعة ، فوقع به فشجّه ، فخرج إلى قومه فأراهم شجته ، فثار الشر مع ما كان بينهم وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها) .

والهجاء في المجتمع العربي آنذاك أشد وقعاً من السيف ، فالشجة هي رد اعتداء وذود عن محمد رسول الله ﷺ ، والأصل أن تؤنب بنو بكر شاعرهما لهجائه سيد العرب والمسلمين ، لا أن يستغل الفرصة لأخذ الثأر من حليفتهم خزاعة .

والذي يؤكد صحة هذا الاتجاه أن رسول الله ﷺ أهدر دم أنس بن زعيم عندما ذكر له هجاؤه (فلما فرغ الركب قالوا : يا رسول الله ، إن أنس بن زعيم الدبلي قد هجاك ، فهدر رسول الله ﷺ دمه) .

وأنس هذا ليس مغموراً بين الشعراء ، بل هو شاعر له باعه العالي في الشعر ، وتتناقله الركبان ، والدليل على ذلك ، أنه عندما خاف على نفسه بعد إهدار دمه ، عاد فمدح رسول الله ﷺ ، وأعلن إسلامه في هذا الشعر .

ويحتفظ تاريخ الشعر العربي بأن أمدح بيت قالته العرب برسول الله ﷺ هو بيت أنس بن زعيم .

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمةً من محمد

ونعود إلى القصيدة فيما بعد ، لكن الذي نعينه أن المدح الذي بلغ هذا الحد من القوة ، يقابله الهجاء وكذلك الذي تتناقله الركبان ، فإن يغضب مسلم لهذا الهجاء الذي تم أمامه ، فيشج شاعر بنى بكر ، هو أهون الأمور في طبيعة الحرب القائمة بين الفريقين .

٢- وجدت بكر هذه الشرارة مناسبة لتصفية الحسابات السابقة مع خزاعة ، فراحت تعبئ قيادات مكة ، وترين لها نقض العهد ، والهجوم على خزاعة .

وحتى نتأكد من خطورة هذا الأمر ، نعود إلى الحوار الذي تم بين ثلاثة من القيادات الجاهلية الكبرى ، حول هذا الموضوع بين عيينة بن حصن والحارث بن عوف سيدى بنى غطفان ، وبين قرة بن هبيرة سيد بنى عامر ، عندما هم الأولان أن يمضيا إلى المدينة مسلمين .

لقد كان نوفل بن معاوية سيد بنى نفاثة ، ينتظر فرصة الانقضاض على المسلمين من خزاعة ، لكن قريشاً لا تطاوعه .

(ويسمع به - قرة بن هبيرة العامري - نوفل بن معاوية الديلي ، فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش) .

فقال نوفل : (إذا لأجد عندكم شيئاً ! قدمت الآن لمقدمك حيث بلغني ، ولنا عدو قريب داره وهم عيبة نصح محمد لا يغيبون عليه حرفاً من أمورنا ، قال : من هم ؟ قال : خزاعة ، قال : قُبُحت خزاعة قعدت بها يمينها ! قال قرة : فماذا ؟ قال : أستنصر قريشاً أن يعينونا عليهم ؟ قال قرة : فأنا أكفيكم ، فلقى رؤساءهم ؛ صفوان بن أمية ، وعبد الله ابن أبي ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، فقال : ألا ترون ماذا نزل بكم ! إنكم رضيتم أن تدافعوا محمداً بالراح ، قالوا : فما نصنع ؟ قال : تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم ، قالوا : إذن يغزوننا محمد فيما لا قبل لنا به ، فيوطننا غلبة ، وننزل على حكمه ، ونحن الآن في مدة وعلى ديننا ، فلقى قرة نوفل بن معاوية ، فقال : ليس عند القوم شيء ...) (١) .

لقد كان صوت العقل هو الذى يحكم تصرفات قريش ، فى وفائها مع محمد ، وتعلم أن نقض العهد يقود إلى احتلال مكة وخطر زوال دينها وأصنامها ، ولهذا كانت تحرص على الاستمرار فى هذه الهدنة والمحافظة عليها ، فما الذى حدا بهذه القيادات أن تتبع هواها وتترك عقلها وتستجيب لاستشارة نوفل ؟ لا ندرى ، ولعل الانتصارات الكبرى التى حققها رسول الله ﷺ فى الجزيرة وخارج الجزيرة جعلتهم يزدادون حقداً على رسول الله ﷺ ، فهؤلاء الثلاثة ؛ صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة ، بقى ثالثهم على عقله دون أن يتهور ، بينما ساهم صفوان وسهيل فى عون نوفل بحربه ضد خزاعة ، ودليل سوء تقديرهما للعواقب أنهما هما اللذان قادا أهل مكة لمواجهة خاسرة ضد الجيش الإسلام الذى يقوده خالد بن الوليد مع زميلهم الثالث عكرمة بن أبى جهل ، ولأذ ثلاثتهم بالفرار بعد سويعات من المهاجمة ، كما قال حماس بن قيس لزوجه :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموثمة وقطعتنا بالسيوف المسلمة

وأبو يزيد هو سهيل بن عمرو ، لقد قادوا عملية نقض العهد فجروا على قريش شراً لا قبل لها به ، وقاموا بالمواجهة ، ولم يغلقوا عليهم أبوابهم ، ليكونوا آمنين فأدى

(١) المغارى للواقدي ٢ / ٧٣٠ ، ٧٣١ .

اندفاعهم إلى مقتل قرابة أربعة وعشرين رجلاً من قريش وحلفائها .

إننا إذن أمام قيادات حاقدة متحمسة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، وغير مدركة أبعاد وامتداد هذا الدين حتى من الناحية السياسية ، بينما انحاز ثلاثة من القادة الكبار إلى الصف الإسلامي ، وهم خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، وحدّد خالد رضي الله عنه هوية هذه القيادات الثلاث حين عرض عليهم الإسلام فأبوا ، وعرف أن الرغبة بالنار والحقد الشخصي هو الذي يقودهم لذلك .

(فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ ، قلت : من أصحاب إلى رسول الله ، فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا إلى محمد فاتبعنا ، فإنه شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً ، فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتركاً قد قُتل أبوه وأخوه بيد ، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطو ما ذكرت لك) .

وأما سهيل بن عمرو ، فقد طعن بانه أبى جندل الذي فرّ إلى الساحل وأقام دولة للإسلام مع أبى بصير اضطرت مكة أن تبعث إلى رسول الله ﷺ بقبولهم عنده ، ولكننا نرى أن الحكمة عند سهيل ، لا تتناسب مع شخصه واندفاعه في صف صفوان وعكرمة .

٣- أما القائد الأعلى لمكة أبو سفيان بن حرب الذي قاد معركة الحرب ، وحافظ على معركة السلم ، فقد كان رافضاً لهذا العون ، ومدرّكاً أبعاده ونتائجه الوخيمة على مكة ، فقال فيما رواه مجمع بن يعقوب عن أبيه : (هذا والله أمر لم أشهده ، ولم أغب عنه ، لا حُمْل إلا على ولا والله ما شوّرت ، ولا هويت حين بلغني ! والله ليغزونا محمد إن صدقني ظني وهو صادق ، وما لي بُد أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في المدة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر .

فقال قريش : قد والله أصبت الرأي ، وندمت قريش على ما صنعت من عون بني بكر على خزاعة ، وعرفوا أن رسول الله ﷺ لن يدعهم حتى يغزوهم) (١) .

وأدرك - مع أبى سفيان بن حرب - خطورة الموقف - ابتداء - رجلان عاقلان من قيادات مكة هما الحارث بن هشام - أخو أبى جهل بن هشام - وعبد الله بن ربيعة ، ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن ربيعة إلى أبى سفيان بن حرب فقالا : هذا أمر لا بد له

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٧٨٥ .

من أن يصلح ، ووالله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروحكم إلا محمد فى أصحابه (١) .

٤ - واستغل نوفل بن معاوية هذا العون المادى والمعنوى وانقض مع قومه على خزاعة ، كما قال شاعرهم :

هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا

وأعملوا فيهم السيف وهم نائمون وغارون وآمنون لما بين الفريقين من الهدنة ، واستطاع نوفل بن معاوية أن يقود معركة الحقد والثأر مهما كانت عواقبها المشؤومة متجاوزاً كل القيم والأعراف والاحتمالات حتى لتلجأ خزاعة إلى الحرم ، فيقتلونهم داخل حرم مكة الأمن ، وأمام بيت قائدهم بُذيل بن ورقاء .

(وأصبحت خزاعة مقتلين على باب بديل ، ورافع مولى خزاعة ، ويذكر نوفل بإلهه وحرم إلهه فيقول : لا إله لى اليوم ، وهو يرى أن دينه الثأر ، ولو استطاع لأجهز على خزاعة جميعاً وأباد خضراءهم ، لولا إجارة سهيل بن عمرو لبقيتهم فى الحرم ، حيث قال لنوفل :

قد رأيت الذى صنعنا بك وبأصحابك ، وما قتلت من القوم ، وأنت قد حصرتهم تريد قتل من بقى منهم وهذا ما لا نطأوعك عليه ، فاتركهم لنا ، قال : نعم ، فتركهم ، فخرجوا ، فقال ابن قيس الرقيات يذكر سهيل بن عمرو :

خالط أخواله خزاعة لما كثرتهم بمكة الأحياء (٢)

وما الذى جتته قريش من وراء هذه التعبئة والتأييد لنوفل ؟ لا شىء ، فهى لا تار لها مع خزاعة ، ولكن صديق عدوك عدوك ، فخزاعة طالما أنها حالفت محمداً ﷺ فهى عدوها مثله .

٥ - وأمام تفرق رأى قيادات مكة ، وتقاذفهم التهم واللوم فيما بينهم ، حيث أجهض أمر المواجهة لرسول الله ﷺ هذا الاختلاف ، وعندما جاءهم تحذير رسول الله ﷺ انعكس هذا الخلاف عليهم فى اتخاذ رأى المناسب لصد هذا الخطر الجاثم الداهم ، ففوّت عليهم الفرصة الأخيرة فى تدارك الحرب .

(روى ابن عائد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ومحمد بن عمر عن حزام بن هشام الكعبي ، ومسدد فى مسنده بسند صحيح عن محمد بن عباد بن جعفر أحد ثقات التابعين وأئمتهم ، واللفظ لمحمد بن عمر ، قال حزام :

(٢) المغارى للواقدي ٧٨٤ / ٢ .

(١) المغارى للواقدي ٧٨٥ / ٢ .

إن قريشاً ندمت على عودة بنى نفائة ، وقالوا : محمد غازينا ، فقال عبد الله بن أبى سرح - وهو يومئذ فى حال رده عن الإسلام ، وأسلم بعد ذلك - إن عندى رأياً ، إن محمداً لن يغزوكم حتى يعذر إليكم ، ويخيركم فى خصال كلها أهون عليكم من غزوه ؟ قالوا : وما هى ؟ قال : يرسل إليكم أن دوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً ، أو تبرؤوا من حلف من نقض الصلح وهم بنو نفائة ، أو ينبذ إليكم على سواء فما عندكم فى هذه الخصال ؟ فقال القوم : أحر بما قال ابن أبى سرح وقد كان به عالماً .

قال سهيل بن عمرو : ما خلة أهون علينا من أن نبرأ من حلف بنى نفائة ، فقال شيبه بن عثمان العبدري : حفظت أحوالك ، وغضبت لهم ، قال سهيل : وأى قريش لم تلده خزاعة) .

لقد اتهم سهيل فى رأيه أنه يثور لأخواله الذين قتلهم بنو نفائة ، وأدرك حجم خطئه يوم أيد نوفلاً فى حربه ، فأراد أن يكفر عنه بالبراءة من حلف بنى نفائة (وهم قسم من بكر والذين قادوا الهجوم ضد خزاعة) .

(قال شيبه : ولكن ندى قتلى خزاعة فهو أهون علينا) ، وأدرك شيبه الفضيحة السياسية فى التخلّى عن بنى نفائة ليقضى عليهم محمد والعار الذى تحمله قريش فى ذلك ، فرأى أن الحل إذا عولج بالمال فأمره سهل ، وقال قرظة بن عبد عمرو : لا والله لا يودون ولا نبرأ من حلف نفائة ، ولكننا ننبد إليه على سواء ، ولا ندرى من قرظة هذا ، وهو يبرز لأول مرة بين القيادات ، ويحمل لواء المواجهة ، فتدرك الأمر أبو سفيان ، وقال : (ليس هذا بشيء ، وما رأى إلا جحد هذا الأمر ، أن تكون قريش قد دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة ، وإنه قطع بغير رضى منا ولا مشورة ، فما علينا ، قالوا : هذا رأى لا رأى غيره) (١) .

وعندما جاء وافد رسول الله ﷺ إلى مكة ، وعرض هذه الخيارات الثلاثة ، نقض الموقف قرظة هذا ، وأبلغ المسلمين رأيه أنه رأى قريش (أما أن ندى قتلى خزاعة ، فإن نفائة فيهم عرام فلا نديهم حتى لا يبقى لنا سيد ولا لبد ، وأما أن نتبرأ من حلف نفائة فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيماً له من نفائة وهم حلفاؤنا ، فلا نبرأ من حلف نفائة ، أو لا يبقى لنا سيد ولا لبد ، ولكن ننبد إليه على سواء ، فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ بذلك من قولهم) .

وندمت قريش على رد رسول الله ﷺ ، وبعثت أبا سفيان ، ليجدد العقد ويزيد فى المدة ، لقد فوت الاندفاع الأعمى الفرصة الأخيرة للصلح من مكة ، وأعذر رسول الله ﷺ بعد هذه الخيارات الثلاثة .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣١٠/٥ .

٦- وما هو سيد ولد آدم ﷺ يعيش هاجس نقض قريش للعهد بكيانه كله، فـ (قال لعائشة صبيحة كانت وقعة بنى نفاثة وخزاعة بالوتير «يا عائشة، لقد حدث فى خزاعة أمر» فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى » ، قالت : يا رسول الله ، خير ؟ قال : « خير » فهو حليف بنى خزاعة وجارهم ولن يضام جاره ولا حليفه .

ونجد بنت الصديق ؓ بحسها المرفف وفطرتها النقية تقول (أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد أفناهم السيف ؟) هذا رأى الذى أدركته ، لم تدركه قادة قريش ، وقادوا قومهم إلى الدمار والمواجهة ، ويجب - عليه الصلاة والسلام - بإحساسه العظيم : « ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى » . ثم كان الهاجس الثانى وهو عند ميمونة ؓ ، وفى بهيم الليل سمعته يقول فى متوضئه : « لبيك لبيك لبيك ، نُصرت نُصرت نُصرت » حتى لتعجب ميمونة ؓ من حديثه ، وكأنما يكلم أحداً فى هذا الليل ، فقال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر » .

ومضى ثلاثة أيام لوصول وفد خزاعة وراجزهم عمرو بن سالم .

٧- ولقد كان عمرو بن سالم الخزاعى من البلاغة والفصاحة ، والشاعرية : بحيث يعبئ الجؤ كله ضد قريش فى ذلك الوصف الذى أشعل معركة فى النفوس قبل أن تثور بالسلاح :

يا رب إنى ناشد محمداً حلف أيننا وأبيه الأتلادا
قد كتمم وكُداً وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

إنها الاستجارة والاستغاثة بكل العهود والمواثيق التى بينهم وبينه ، حلفه وحلف عبد المطلب جده ، وبالرحم والقربة ، فهم أحوال قريش ، وكما قال سهيل : (وأى قريش لم تلده خزاعة) ، وبحق هذا الدين الذى انتمى إليه هؤلاء المظلومون ، (ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا) وسبق أن شهدنا دخول خزاعة كلها فى الإسلام ، وكيف غدت مركزاً من مراكز الإسلام فى الجزيرة بعد المدينة ومزينة ، فحريم الإسلام انتهك ، وحليف الإسلام طعن ، وعرين الإسلام استبيح .

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا

ولقد رافق نقض العهد تحديًا سافرًا بالاستهانة بالمجير (وزعموا أن لست أدعو أحدًا)
فماذا فعلوا ؟

هم يبتونا بالوتير هجّدا وقتلونا ركعًا وسجدا
وجعلوا لى فى كداء رُصدا

هذه هى جرعتهم النكراء ، وتحديهم السافر ، وقتلهم الآمنين ، وترويعهم النساء
والاطفال فى غدر مييت ونقض مبرم ، لا غموض فيه ولا شبهة ، وها هو يرسل
استغاثته العظيمة فى هذا الشعر البليغ :

فانصر رسول الله نصرًا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا بأن سيم خسفًا وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا قرم لقرم من قروم أصبدا

وهو رسول الله ﷺ الذى لا يهاب حليفه ، ولا يضام جاره ، ولا ينال نصيره .

لقد كان - عليه الصلاة والسلام - فى الجاهلية وهو الفرد الأعزل يفك العانى ، ويقرى
الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، وكان فى الإسلام وهو الفرد الأعزل يرغم معاطس
أبى جهل ليرد على الإراشى إبله ، فكيف وقد دانت له العرب فى الحجاز يرضى أن
يستباح حمى الإسلام وحرمة فى تحدٍ وقح سافرٍ من بعض القيادات الحاقدة من قريش ؟
لقد كان الرد متناسبًا مع عظم الجريمة بكلمة واحد مقتضبة : « نصرت يا عمرو بن
سالم » .

وعندما أرعدت السحابة ، قال : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » ، وأقسم -
عليه الصلاة والسلام : « لأمعن خزاعة مما أمنع منه نفسى وأهلى وبيتى » ، وقام وهو
يجر رداءه قائلا : « لا نصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى » .

ثم أمر وفد خزاعة أن يتفرقوا فى الأودية : إذ كانوا أربعين راكبًا ، فقد بدأت
الحرب ، وهو لا يريد أى تظاهرات تشد الأنظار إليها ، فطلب من وفد خزاعة أن يتفرق ،
وهو عائد إلى خزاعة ، حتى لا تقع الحرب إلا فى الوقت والساعة التى يريد ، ويود
إخفاء كل معالمها عن قريش .

٨ - ومع هذا فلم يكتف - عليه الصلاة والسلام - بما سمع من خزاعة ، فكان أن
أرسل رسوله ضمرة للوصول إلى حل يحول دون إهراق الدماء ، وذلك فى التبرؤ من
حلف نفائة ، إذا كانت قريش غير راضية بصنيعهم ، بحيث تتحمل نفائة الغدر وحدها ،

أو دية القتلى من خزاعة ، أو إعلان النبذ على سواء ، كما أدب القرآن الكريم رسوله بهذا الادب : ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨) [الأنفال]

وفى محادثات خاصة بعيدة عن الجو الجماهيري ، سأل - عليه الصلاة والسلام - وفد خزاعة : « فمن تهتمكم وظنتكم ؟ » ، قالوا : بنو بكر ، قال : كلها ؟ قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة ، ورأس القوم نوفل من معاوية النفاثي ، فقال - عليه الصلاة والسلام : « هذا بطن من بكر ، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم في خصال . . . » ، ورأينا من قبل كيف كان جوابهم السفیه لرسول رسول الله ﷺ أن ينبذ إلينا محمد على سواء .

٩ - إن رسول الله ﷺ يبنى أمة ، وبني طريقة التعامل مع العدو ، وعظمة الوفاء بالعهود والمواثيق ، كما يبنى من جهة ثانية ، عظمة الوفاء بالجوار ، وحماية المظلومين والمضطهدين ، لقد أرسل رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف جندي ، ليصطدم بدولة الروم ؛ لأن رسولا له قتل من قبل أحد حلفاء الروم ، فالإنسان له قيمة كبرى في هذه الرسالة ، ولا يطل دمه ، بل تبذل الدماء كلها للذود عنه ، وها هي صورة غزوة الحديبية ، حين قرّر رسول الله ﷺ أن يخوض حرباً مع قريش ؛ لأنه بلغه أنها قتلت رسوله عثمان بن عفان ، وبايعه الجيش على الموت ، وها هو اليوم يعبئ كل جيوشه وقواته للثأر لقتلى خزاعة الذين اختاروه على غيره ناصراً ومجيراً ، فلا يمكن أن تطل دماؤهم أو تهدر أرواحهم حين يكون قادراً على ذلك ، ونجد اليوم الطغاة يثدّون شعوبهم بالملايين من أجل أمجادهم ، فإبادة الشعوب لحماية كراسيهم هي الميزان الذي ينطلقون منه ، ومربى البشرية - عليه الصلاة والسلام - يربّيها في السلم ، فيحافظ على عهودها ، ويرعى مواثيقها ، ويفي بعقودها ، ويربّيها في الحرب ، فيدفع الضيم عنها ، وينصر مظلومها ويفك عانيها .

فيهم رسول الله قد تجردا أن سيم خسفًا وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجرى مزبدا

١٠ - وتشير الروايات إلى أن الذين أعلنوا براءتهم من هذا الغدر هم بنو مدلج ؛ لأن سيدهم سراقه بن مالك بن جعشم قد عاهد رسول الله ﷺ أن يكون معه أبد الدهر هو وقومه بعد أن ساخت به فرسه على طريق المدينة ، وحافظ على هذا الحلف ، ووفى به حين نبذ بعض قومه العهد فنقضوه ، وسكت بعضهم على الغدر ، فأقروه . أما هو فقد أعلن براءته من البغي والنكث والغدر ، وهو لم يجد من محمد رسول الله ﷺ إلا وفاءً ، ولم يدخل في الإسلام إلا بعد فتح مكة .

١١ - وقد عرضنا هذه التفصيلات جميعاً ، لتكون صفحة مكة واضحة أمامنا ،
 وصفحة قياداتها ، والخلافات التي سادت صفوفها ، وتبادل الاتهامات ، وفقدان الثقة ،
 وتضارب الآراء التي عجز أبو سفيان على جمعها على رأى واحد ، ونغضى مع أبى
 سفيان إلى المدينة ، لنشهد الصف الإسلامى هناك ، ولأبى سفيان سفارة فى قلب بيت
 النبى ﷺ ، فابنته أم حبيبة زوج محمد - عليه الصلاة والسلام - وهذا يعنى أنه القادر على
 أن يدخل بيت محمد دون واسطة ، وأن يحقق بهذه القرابة كل آماله وطموحاته ضمن
 الخطة التى اختطها وهى جحود الغدر والنقض ، وتجاهله للوصول إلى عقد وعهد جديد
 يزيد فى المدة ويجدها ، ويجنب قريشاً غزواً لمكة يكاد يكون رأى العين ولمس اليد .

١٢ - ولم يكتف - عليه الصلاة والسلام - بنذ العهد إلى قريش وحلفائها ، بل لا بد
 أن يعلم العرب جميعاً بنقض قريش للعهد ، فتكفل وزير إعلامه حسان بن ثابت رضي الله عنه
 بتوزيع خبر الغدر على كل وكالات الأنباء العربية آنذاك فى عدة أبيات مضت كالنار فى
 الهشيم فى المضارب العربية :

(١) عنانى	ولم أشهد بيطحاء مكة
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم	رجال بنى كعب تحزّ رقابها
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى	وقتلّى كثيرٌ لم تُجنّ ثيابها (٢)
وصفوان عود (٣) حنّ من شفراسية	سهيل بن عمرو وخزها ورقابها
فلا تأمننّها يابن أم مجالد (٤)	فهذا أوان الحرب شد عصابها
ولا تجزعوا منا فإن سيوفنا	إذا احتلبت صرفاً (٥) وأعصل (٦) نابها
	لها وقعة بالموت يفتح بابها (٧)

فقد حدد الغدر الذى نزل ببني كعب وهم غارون آمنون ، وكان وراء هذا الغدر
 ثلاثة من قادة مكة المشهورين ، صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل
 والعرب جميعاً تعلم حلف خزاعة مع رسول الله ﷺ ، ولم يُعر حسان لبني بكر اهتماماً
 كبيراً ، بمقدار ما ركز فى إعلانه على تبني قريش لهذا الغدر على يد زعماء مكة ، وأعلن
 الحرب على مكة لهذا الغدر المبيت ، فهم قد أشعلوا أوارها ، فلا بد أن يذوقوا علقها
 ويكتنوا بنارها ، وسيوف المسلمين كفيلة بفتح باب الموت للغادرين الناكثين للعهد ،
 والناقضين للمواثيق .

(١) عنانى : أهمنى .

(٢) لم تُجنّ ثيابها : لم تستر ، يريد أنهم قُتلوا ولم يدفنوا .

(٣) العود : المسن من الإبل .

(٤) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبى جهل .

(٥) أعصل : اعوج ، والعصل : اعوجاج الأسنان .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢ : ٣٩٨ ت : مصطفى السقا وإخوانه .

وترافقت هذه الأبيات مع أبيات عمرو بن سالم الذى وصف الغدر كذلك ، وطالب محمداً ﷺ بنصر حلفائه ، وهو الذى لا يضام جانبه ، ولا يخفر جاره ، فجاءت أبيات حسان لتعلن على التو الاستجابة النبوية ، وترجم الكلمة النبوية الخالدة ، شعراً تتناقله الركبان : « نُصِرْتُ يا عمرو بن سالم » .

بينما كانت مكة قد بعثت زعيمها أبا سفيان مباشرة ، ليتفادى الحرب بعد تسوية الصراعات الداخلية فى صفوفها فلتتابع مسيرته إلى هناك .

أبو سفيان والصف الإسلامي الموحد : المهمة الخاسرة

١ - روى محمد بن عمر عن حزام بن هشام عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال :
«لكنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد، وزد في الهدنة ، وهو راجع بسخطه ».

٢ - (...) فخرج أبو سفيان وخرج معه مولى له على راحلتين فأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ فلقى بُدَيْل بن ورقاء بعُصفان ، فأشفق أبو سفيان أن يكون بُدَيْل جاء رسول الله ﷺ بل كان اليقين عنده ، فقال القوم : أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟ قالوا: لا علم لنا بها ، فعلم أنهم كتموه ، فقال : أما معكم من تمر يثرب شيء تطعمونه ، فإن لتمر يثرب فضل على تمر تهامة ؟ قالوا : لا . فأبت نفسه أن تُقره حتى قال : يا بُدَيْل ، هل جئت محمداً ؟ قال : لا ، ما فعلت ، ولكن سرت في بلاد بنى كعب وخزاعة من هذا الساحل في قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم . فقال أبو سفيان : إنك والله ما علمت برٍّ وأصل ، ثم قابلهم أبو سفيان حتى راح بُدَيْل وأصحابه ، فجاء أبو سفيان منزلهم ففتّ أبعاد أباعرهم فوجد فيها نوى من تمر عجوة كأنها السنة الطير فقال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً ، وكان القوم لما كانت الواقعة خرجوا من صبح ذلك اليوم فساروا ثلاثاً ، وخرجوا من ذلك اليوم فساروا إلى حيث لقيهم أبو سفيان ثلاثاً ، وكانت بنو بكر قد حبست خزاعة في داري بُدَيْل ورافع ثلاثة أيام يكلمون فيهم واتمرت قريش في أن يخرج أبو سفيان ، فأقام يومين فهذه خمس بعد مقتل خزاعة ، وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ ، فطوته دونه ، فقال : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عني أو بى عنه ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ . قال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر . فقالت : بل هدانى الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ؟ وزاد الواقدي : (يا عجباً وهذا منك أيضاً ، أأترك ما يعبد آبائي - وأتبع دين محمد) . فقام من عندها . فأتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد فقال : يا محمد ، إني كنت غائباً في صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا في المدة ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فلذلك جئت يا أبا سفيان ؟ » قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل كان من قبلكم من حدث ؟ » قال : معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل .

فقال رسول الله ﷺ: « فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل » فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول . فلم يرد عليه شيئاً .

فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلمه وقال: تكلم محمداً أو تحير أنت بين الناس ، فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ - زاد ابن عقبة : والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعتها عليكم ، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ما كان من حلفنا جديداً فأخلفه الله ، وما كان منه متيناً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله ، فقال أبو سفيان : جزيت من ذى رحم شرّاً ، فأتى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : أنت أمس القوم بى رحماً ، وفى رواية : إنه ليس فى القوم أحد أقرب رحماً منك ، فزد فى المدة، وجدّد العهد فإن صاحبك لا يرده عليك أبداً ، فقال عثمان : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، فأتى علياً رضي الله عنه فقال: يا على إنك أمس القوم بى رحماً ، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى محمد ، فقال: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فأتى سعد بن عباد رضي الله عنه فقال : يا أبا ثابت ، قد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وإنى قد كنت لك فى حرماً جاراً ، وكنت لى بيثرب مثل ذلك وأنت سيد هذه البحيرة ، فأجر بين الناس وزد فى المدة ، فقال سعد : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى أشراف قريش والانصار ، فكلهم يقول : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد على رسول الله ، فلما أيس مما عندهم ، دخل على فاطمة الزهراء فكلمها فقال: أجيرى بين الناس ، فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد . قالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وأبت ذلك عليه ، فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله ما بلغ بُنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، فلما أبت عليه أتى علياً رضي الله عنه فقال: يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، قال : صدقت وأنا كذلك ، قال : قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : يا أيها الناس : إنى قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفرننى أحد ، ثم دخل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » ثم ركب بعيه وانطلق .

٣- وكان قد احتبس وطالت غيبته ، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطل أشد التهمة قالوا : والله إنا نراه قد صبا ، واتبع محمداً سرّاً وكنتم إسلامه .

فلما دخل على هند امرأته ليلاً قالت : لقد احتبست حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع الإقامة جنتهم بنجح فانت الرجل ثم دنا منها ، فجلس مجلس الرجل من امرأته ، فقالت : ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر ، وقال : لم أجد إلا ما قال لى على ، فضربت برجلها فى صدره وقالت : قُبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان خلق رأسه عند إساف ونائلة ، وذبح لهما ، وجعل يمسخ بالدم رؤوسهما ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى ، إبراءً لقريش مما اتهموه به ، فلما رآته قريش ، قاموا إليه فقالوا : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد ، أو زيادة فى مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد ؟ فقال : والله لقد أبى على (وفى لفظ : لقد كلمته فوالله ما ردّ على شيئاً) وكلمت أبا بكر ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، وقد كلمت عليه أصحابه ، فما قدرت على شىء منهم ، إلا أنهم يرموننى بكلمة واحدة ، وما رأيت قومًا أطوع للملك عليهم منهم له ، إلا أن علياً لما ضاقت بى الأمور قال : أنت سيد بنى كنانة ، فأجر بين الناس ، فناديت بالجوار ، فقال محمد : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » لم يزدنى . قالوا : رضيت بغير رضى ، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئاً ، ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن خفارك عليهم لهين ، ما زاد على من أن لعب بك تلعباً .

(قال : والله ما وجدت غير ذلك) (١) .

* * *

١ - لقد أدرك رسول الله ﷺ بحدسه العظيم ، وفقهه لنفوس الرجال ، وفراسته فى معادن القوم ، أن أبا سفيان زعيم مكة سيأتى ؛ ليطالب بتجديد عهد الحديبية ، وزيادة مدة الهدنة ، كى يخفى آثار تواطؤ قريش مع بنى بكر حلفائهم ، ويبرئ قريش من الظنة أنها ساهمت فى حرب خزاعة .

إنه يتعامل مع أبى سفيان منذ عشرين سنة ، ويعرف دهاء بنى أمية ، وأبعاد شخصية هذا الخصم ، ويعرف عليه الصلاة والسلام من جهة ثانية الصف الذى يقوده فيناطح

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣١٢/٥ - ٣١٦ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٩٥/٢ - ٣٩٧ ، ودلائل النبوة لليبهي : ٧/٥ - ١١ ، والمغازى للواقدي ٧٩١/٢ - ٧٩٥ .

الثريا ، أدبًا ، وانضباطًا ، وطاعة ، فقال عليه الصلاة والسلام كلمته الخالدة :

« لكأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول : جدد العهد ، وزد فى الهدنة ، وهو راجع بسخطه » .

ويدرك المصطفى ﷺ أن أبا سفيان قادم إلى المدينة ، كما مر معنا فى هذا النص ، فلم يصدر تعميمًا يحظر فيه اللقاء مع أبى سفيان بن حرب ، ويهدد بالموت من يتصل به أو يلقاه ، خشية الوصول إلى الأسرار العسكرية الخطيرة فى الدول، ويعاقب بالإعدام كل من تسول له نفسه أن يتصل بقائد العدو ، فهى الخيانة العظمى عند الدول ، وكم سقطت دول نتيجة تعرف أعدائها على مخططاتها .

لم يفعل الرسول ﷺ شيئًا من ذلك ، ولم يفاجأ بقدومه بحيث لم يتمكن من ذلك التعميم الذى لا يكلفه أكثر من كلمة يقولها، فتصل إلى بيت كل مسلم ، ويستجيش همم شعبه وقياداته، وأن يُبدوا روح الاستعداد للمواجهة والحرب، ويرفع معنوياتهم بالمواجهة، لم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئًا من ذلك كله، وهو واثق من قدوم أبى سفيان ، حتى لزوجه - أم حبيبة رضي الله عنها بنت قائد مكة وزعيمها - بنت أبى سفيان . لم يؤكد عليها إلا لتلقى مع أبيها إلا بحضوره، فالنساء منهن يأتى الخطر، وهى ابنته وهو أبوها ، والأجلر حفاظًا على سياسات الدولة العليا أن تمتنع عن لقاء أبيها ، فهو الداهية الأريب الرهيب الذى لم يمسك بمقود المواجهة النبوية منذ بدر، وهو الشخص الأول دون منازع، كل هذا لم يتم فى هذه المدينة العظيمة الخالدة، بل كان من الممكن حسب أعراف الدول، وفى جو الحرب ، أن تفرض الإقامة الجبرية على أبى سفيان ، ولا يتم لقاء أحد معه إلا رسول الله ﷺ القائد الأعلى للجيش ، ورئيس الدولة ، أو من يأذن له بلقائه فيما يخدم هذه المهمة .

لكننا أمام جيل ربانى ، تربي بكتاب الله ، وعلى يد معلم البشرية وسيدها ، ومربيها ، الذى يعرف جنده ، وشعبه ، والقيادات عنده ، ولم نسمع أى إشارة ، أو تلميح ، أو تلويح من بعيد عن عدم الرغبة فى لقاء جندى أو قائد مع أبى سفيان إنما ترك هذا القائد العدو أن يقوم بنفسه باختيار الشعب المسلم ، قياداته ، وأطفاله ، حتى نسائه، إذ كان بين من التقى معهم أبو سفيان ابنته أم حبيبة ، وابنة محمد ﷺ - فاطمة الزهراء - ولنشهد عظمة هذا الصف من خلال هذه اللقاءات .

٢ - كان اللقاء الأول له مع ابنته أم حبيبة رضي الله عنها والتى مر على بعده عنها قرابة خمسة عشر عامًا ، منذ أن هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وبقيت هناك صابرة محتسبة بعد ارتداد زوجها عن الإسلام ، حتى جاءتها سعادة الدنيا والآخرة بخطبة

رسول الله ﷺ لها ، وكان وكيل رسول الله ﷺ النجاشي ملك الحبشة الذى سلم المهر لابن عمها خالد بن سعيد ، وأولم للمسلمين هناك ، ثم جاءت إلى المدينة حيث وصلت والمسلمون فى خير ، وها هى تعيش أمًا للمؤمنين بجوار رسول الله ﷺ قرابة سنة ونصف وهذا أول لقاء لها مع أهلها ومع أبيها - أبى سفيان - بعد هذا الزمن الطويل ، لقد جاء أبو سفيان إلى بيت ابنته ، ولعل مصاهرته لرسول الله ﷺ تشفع له فى تحقيق المهمة التى جاء من أجلها، واستقبلت أباها بترحاب ، وود عظيمين ، وهشت له وبشت ، فهو أبوها الذى أمرها الإسلام ببرّه ، ولو كان مشركًا .

وجاء ليجلس إلى الفراش الذى لا يوجد غيره فى غرفتها ، فأسرعت ورفعته ، وانتظر فراشًا آخر يوضع له يتناسب ومقامه فلم تضع شيئًا ، وعلى كل عقله الكبير لم يدرك لم فعلت ذلك ، فسألها فى لهفة مشوبة باستنكار : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ جاء الجواب كوقع الصاعقة على رأسه : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ .

وإذا كان تلقى هذا الجواب فى أهون أمر وأصغره ، فكيف يمكن أن يصل منها إلى سر من أسرار الإسلام السياسية أو العسكرية . ولعلها أكبر طعنة وجهت إليه فى حياته من أقرب الناس إليه ، واستحضر كل حلمه حتى ضبط أعصابه التى كادت تتفجر ، وقال لها بتصنع واضح : يا بنية، لقد أصابك بعدى شر ، لقد غدت إنسانًا آخر بعده ولاشك ، وغدت صياغة جديدة بهذا الدين ، ولم تكتف بذلك ، فهى لا تريد إيذائه وهى تحبه ، وتحرص على بره ومرضاته ، لكن هذا الحرص وهذا الحب يدفعها إلى أن تختار له ما اختارته لنفسها من خير ، وهل الإسلام شر حتى تغضى عن إجابته ؟ قالت بقوة الواثق الحكيم : بل هدانى الله للإسلام ، ثم تحولت من الابنة المسلمة إلى الابنة الداعية ، فكم هو حلم لا يقاربه حلم أن يدخل أباها الإسلام ، ويذوق حلاوته كما ذاقته ، تابعت حديثها :

وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام ، وأن تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر إنها الحججة التى يسوقها القرآن دائمًا ضد هؤلاء الذين تحجرت عقولهم كهذه الأحجار التى يعبدوها .

وأبو سفيان ليس من البلاءة والجنون بحيث يغيب عن ذهنه هذا المعنى ، ولقد أدرك منذ زمن بعيد أن المستقبل للإسلام فى الأرض ، وعلى الأقل منذ لقائه مع هرقل ، قبل قرابة عامين أو أقل وأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا بلغ من القوة بهذا الإله أن تهابه

ملوك بنى الأصفر ، لكن أن يذهب بسيادته التى تقوم على أساس هذه العقيدة الباطلة ، وهو سيد قريش وكبيرها ، وستنتهى هذه السيادة بدخوله بهذا الدين ، فأجابها الإجابة التقليدية بعد أن كان لا يزال يلحق آثار جرحه الغائر :

يا عجباه وهذا منك أيضاً ؟ أأتترك ما يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟

إنه علم أنه يطرق باباً من حديد فى محاولة الوصول إلى كلمة واحدة مع ابنته التى من صلبه فقد غدت ابنة الإسلام وحده ، وزوج رسول الله ﷺ ، وتخطط كى تقوده إلى الإسلام ، فأى جدوى من وراء استدراجها لأخذ أسرار بيت النبوة ، إن لم يستطع أن يمس فراش رسول الله ﷺ ؛ لأنه مشرك نجس فكيف يمكن أن يمس سرّاً من أسرار هذا البيت ، وأسرار هذه الدولة ؟ وإذا كان يفكر بغزوها فى أعماقها ودغدغة عواطفها الأبوية ، واستدراجها ، فهى تخطط كذلك لتغزوه فى أعماقه ، وتدخله فى حظيرة الإسلام ، وتعيد صياغته من جديد بهذا الدين ، وافترق الحبيبان بعد غياب خمسة عشر عاماً ، لتزداد الهوة بينهما من جديد ، وأنه لا لقاء إلا بالإسلام ، فما له وهذه المتاهة ولن يدخلها الآن مع أحد من أركان الدولة إن التقى به فلن يفكر أحد منهم أن يدعوه إلى الإسلام .

وإذا كان قد عجز أن يصل إلى شىء مع صديق عمه بُدِيل بن ورقاء الخزاعى وحليف محمد ، ولم يتمكن أن يصل إلى جواب سؤاله : أخبرونى عن يثرب منذ كم عهدكم بها ؟ وهو سؤال ماهر ذكى يضطر المجيب أن يتلعثم أو يتلصا ، لكنه كان مع عبقرى مثله ، فقال مع النفيّر الذين معه : لا علم لنا بها ، وعرف أنهم كتموه ، ثم كان السؤال الثانى الذى تفتقت عنه عبقرية أبى سفيان ودهاؤه فى محاولة لوضع بُدِيل فى اضطراب وتلعثم : أما معكم من تمر يثرب شىء تطعموناه ، فإن لتمر يثرب فضلاً على تمر تهامة ، ولكن بُدِيلاً وصحبه كانوا من التمكن والقوة كالطود الشامخ ، فقالوا : لا .

وحين عجز عن الوصول إلى جواب شاف من الاسئلة غير المباشرة ، لم يكن له بد أن يسأل السؤال المباشر المحدد بعد أن يشس من أن ينزلق لسان بُدِيل بشىء كان السؤال : يا بُدِيل ، هل جئت محمداً ؟ قال : لا ما فعلت ولكنى سرت فى بلاد كعبٍ وخزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم .

وحين عجز عن أخذ جواب مباشر أو غير مباشر تظاهر بالافتناع ، ومضى بعد ذهابهم إلى بحر أبعرتهم ففته فى يده ، فرأى نوى يثرب فيه فقال : أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً .

وهذا دليل مادى واضح على قدومهم المدينة .

ويتساءل المرء بعدها : كيف يفوت أبو سفيان الداهية الأريب أن مهمته قد فشلت تماماً منذ أن رأى نوى يثرب فى بحر وفد خزاعة ، فالخبر إذن قد وصل إلى محمد ﷺ ، ووصل فى تفاصيله فما هى جدوى جحود الأمر وإنكاره بعد علم رسول الله ﷺ به ؟

إن الجانب الذى سيصير على جحوده ، هو أن قریشاً لا علم لها بهذا الاعتداء المبيت ، وقریش حريصة على استمرار الهدنة والصلح ، ووقوع هذا الأمر من بكر لا يلغى الاتفاق ، ويمكن تسوية هذا الحدث الطارئ بدفع ديات خزاعة ، لكنه تجاهل كذلك أن هذا الأمر قد رفضته قریش من قبل ، ونبذت إليه على سواء بعد أن بادأها بإلغاء الاتفاق . فهو يحس فى أعماقه أن بوادر الفشل أصبحت كثيرة ، واحتمالات النجاح ضعفت بعد أن تأكد من وصول وفد خزاعة إلى رسول الله ﷺ لكنها السياسة التى لا تعرف الاستسلام وتؤمن بفرن الممكن .

٣- وقبل أن يلتقى بأحد من الوسطاء ؛ ليكلم محمداً ﷺ فى مهمته ، مضى ليلقاه وجهاً لوجه ، وهو لقاء يعرف من خلاله الخط الذى يسير فيه بعد .

فأتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال :

يا محمد ، إني كنت غائباً فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد وزدنا فى المدة .

لقد صدقت فراسة رسول الله ﷺ السياسية مائة بالمائة : « كأنى بأبى سفيان وقد جاءكم يشد العقد ويزيد فى المدة » وها هو أبو سفيان أمامه يقول له : اشدد العهد وزدنا فى المدة ، والمسلمون شهود لهذا الحديث .

قال عليه الصلاة والسلام : « هل كان من قبلكم من حدث ؟ » .

وكان سؤالاً محرجاً لأبى سفيان ، لكن القرار الذى جاء به من مكة وعلى أساسه تحرك هو جحود هذا الأمر ، وفى حالة العجز التام عن الجحود ، فالتنصل من المسؤولية . فأجاب لتوه :

معاذ الله ، نحن على عهدنا ومدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل .

وعلى كل عبقرية أبى سفيان ودهائه ، فقد بدا بين يدي رسول الله ﷺ كالطفل ، فرسول الله ﷺ لم يكذبه ، ولم يدفعه علمه بكل ما جرى أن يفضح هذا الغدر ، إن له مهمة محددة يريد الوصول إليها هى كتمان أمر أى تحرك على مكة وها هو يتجاهل الأمر ، ويتظاهر بتصديق أبى سفيان ليسد الطريق عليه من كل جانب فقال ﷺ : « فنحن على عهدنا ومدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل » .

فإذ لم يكن هناك من حدث طارئ ، ولا داعٍ للتغيير ، فالأصل بقاء العهد والميثاق على ما هو عليه دون تغيير أو تبديل .

وكان هذا الرد السياسى المفحم إغلاقاً لكل الأبواب السياسية فى وجه أبى سفيان .

فَلِمَ التغيير والتبديل طالما أنه لم يطرأ جديد على الساحة يقتضى هذا التغيير .

فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول . . . فلم يرد عليه شيئاً .

نحن ندعو صناع السياسة إلى أن يفقهوا هذا الدرس العظيم فى عالم السياسة ، الذى لم يحتاج إلى بيان مديح ، ولا استرسال مسهب ، ولا نقد جارح ؛ لتحقيق الهدف الأكبر وراء هذه المقابلة ، هو كتمان كل شئ عن أبى سفيان ، والمحادثات علنية وفى المسجد .

ولنتظر إلى هدف أبى سفيان وهدف رسول الله ﷺ ، أى منهما تحقق ، وأى منهما فشل . هدف أبى سفيان . تجديد العهد ، وزيادة المدة ، حتى لا يغزو محمد مكة ، وخطته : جحود الغدر وتجاهله .

وهدف رسول الله ﷺ : الإغارة على مكة بعد نقض العهد والنكث فيه ، وخطته : السرية التامة عن العدو . وحققت خطة أبى سفيان الفشل الذريع ؛ لأنها لم تقدم أى مبرر للتغيير والتبديل ، حيث ليس هناك من حدث يقتضى زيادة المدة وتجديد العقد ، وحققت خطة رسول الله ﷺ النجاح التام فى عدم الاضطرار إلى اللجوء للحديث فى الغزو ، والتهديد فيه ، إذا كان القوم لم يحدثوا حدثاً ، ولم يغدروا ولم ينكثوا ، فهو عليه الصلاة والسلام على عهده لم يغير ولم يبدل ، وقدم الجزء المناسب لجحود أبى سفيان من جنس عمله ، وتركه عاجزاً عن أى تصرف ، فهو قد سد الأبواب عليه من كل جانب ، وأعطى الأغاليق لرسول الله ﷺ كى يحكم هذا السد عليه من كل جانب ، وهكذا يكون العمل للهدف وخطة الوصول إليه ، وكان هذا درساً خالداً فى التربية السياسية تلقاه الجيل المسلم من قائده ، وتعلم منه عبقرية السياسة دون دخل أو التواء .

٤ - وكانت الخطوة الثالثة المقابلات مع قادة الدولة الكبار ، فكانت أولى هذه المقابلات مع الوزير الأول فى دولة الإسلام (فذهب إلى أبى بكر رضي الله عنه فكلمه وقال : تكلم محمداً أو تجير أنت بين الناس فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر ، فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ !!؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ما كان من حلفنا جديداً فأخلفه الله ، وما كان منه متيناً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله ، فقال

أبو سفيان جزيت من ذى رحم شرًا .

فأتى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : إنه ليس فى القوم أحد أقرب رحمًا منك ، فزد فى المدة وجدّد فى العهد ، فإن صاحبك لا يرده عليك أبدًا ، فقال : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

فأتى عليًا رضي الله عنه فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحمًا ، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا ، فاشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه) .

إنهم الأركان الأربعة فى دولة الإسلام ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، الذين كانوا فيما بعد خلفاء الأمة الراشدون ورؤساء دولة الإسلام ، على اختلاف أخلاقهم لينًا وشدة ، وعلى اختلاف قرابتهم ورحمهم قريبًا وبعيدًا ، كان الجواب واحدًا لدى الجميع ، كل حسب طريقته ، وقرابته ، وأسلوبه ، وقناعاته ، من دون أن يكون تعميم بذلك ، وتخطيط له ، فهناك حد معين لن يتجاوزه أحد ، لن يجبر أحد على رسول الله ﷺ ، ورغم أننا نلاحظ فيما بعد أن أبا بكر رضي الله عنه كان أحرص الناس على تجنب غزو مكة ، وأن عمر رضي الله عنه أشد الناس تحمسًا لفتحها ؛ لاختلاف منطلقاتهما فى الحكم ، ومع ذلك ، فكان الجواب واحدًا للوزيرين الكبيرين مع اختلاف اللهجة بينهما شدة ولينًا ، حتى ليضطرب أبو سفيان أن يقول لعمر رضي الله عنه : جزيت من ذى رحم شرًا ، وعثمان الذى تستحى منه الملائكة ، الوزير الثالث فى دولة الإسلام ، أقرب الناس رحمًا من أبى سفيان ، فهو عثمان بن عفان بن أمية بن عبد شمس ، وذاك أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، فجدّهما الأقرب واحد ، ومع ذلك فما تزلزل الحد الأدنى عنده ، وهو اللين فى عريكته ، السهل المحبب فى قومه ، وذاك على رضي الله عنه الذى يلتقى مع أبى سفيان فى الجدل الثالث مع هذا سد الطرق على أبى سفيان قاتلاً : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، وأنه لا يجبر أحد على رسول الله ﷺ ، وما هو يفاجأ فى جولته الثالثة بخيبة أمل مريّة ، ألا يجد لدى مجلس وزراء النّبى ﷺ من المهاجرين ، ومن أقرب الناس إليه ، صوتًا واحدًا يرتفع فى الإجارة بين الناس أو يتبنى زيادة المدة وتجديد العهد ، وكاد هذا العنصر الثالث من خطته يتصدع حتى ليكاد ينهار بنيانه كله معه .

٥- فأتى سعد بن عبادَة رضي الله عنه فقال : يا أبا ثابت ، أنت سيد هذه البحيرة ، وقد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وأنى قد كنت لك فى حرمنًا جارًا ، وكنت لى ييثر مثل ذلك فأجر بين الناس وزد فى المدة ، فقال سعد : يا أبا سفيان ، جوارى فى جوار

رسول الله ﷺ ، ما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، فأتى أشراف قريش والأنصار فكلهم يقول : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

إن أبا سفيان ليمتلئ حسرة ، وقد غادر مكة والقيادات منقسمة بينها كل يمضى على شاكلته ، فقد قاموا بالتواطؤ مع بكر دون إذنه وقاموا بإمدادهم والحرب معهم دون إذنه ، وأجار سهيل بن عمرو أخواله خزاعة بجاهه ، وتقدم بعضهم بنبد العهد على سواء دون إذنه ، وما هم يحملونه وزر تصرفاتهم كلها : ويرمون بأخطائهم عليه ، أين هذا الصف الذى تركه ، من هذا الصف الذى يفاجأ فيه ؟ فسعد بن عباد هو حليف أبى سفيان فى الجاهلية وهو من أخص المقربين وآثرهم عند رسول الله ﷺ ، وسيد الخزرج بلا منازع ، والخزرج هم جمهرة الأنصار ، ويعيد إلى ذاكرته ذكرى الحلف السابق ، والمواقف الودية بينهما ، ولكن الجواب واحد ، كأنما خرج من مشكاة واحدة ، وفعلاً قد خرج من مشكاة واحدة ، من مشكاة النبوة التى رعت هذا الجيل وربته ، وكل أشراف الأنصار ، وكل أشراف المهاجرين على جواب واحد لا يتغير .

(جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، ولا يجير أحد عليه) .

٦ - وكانت الحلقة الأخيرة من الخطة ، وعبقريته تتفتق عن كل جديد فى محاولة لتجنب الفشل والسقوط السياسى الخطير عند قومه أن يعود إليهم كما ذهب ، وتخفق مهمته كلها بعد طول انتظار ، كانت هذه الحلقة هى اللجوء إلى أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ، وآثرهم عنده إلى فاطمة بنت محمد التى هى أحب الناس إلى أبيها ، والمرأة ضعيفة ، والمرأة عاطفية ، وهو يحمل صورة قد وقعت من قبل أمام بنت محمد الثانية زينب التى أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع يمضى وهو لا يشك أن هذه الحلقة قد تغير كل الإخفاق الذريع السابق ، فيستأذن عليها ويدخل قائلاً :

يا بنت محمد ، هل لك أن تجيرى بين الناس ؟ فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : إن جوارك جائز قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز ذلك محمد ، فقالت : ذلك إلى رسول الله ﷺ وأبت عليه ، ولم يبق فى كنانته إلا السهم الأخير ، فقال لها : مرى ابنك هذا - أى الحسن بن على - أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، فهو إغراء ضخم أن يكون هذا الطفل الذى لا يزال يلثغ فى لسانه يقوم فيجير بين الناس ، وتحرك أبوة محمد وحنانه لهذه الإجارة ، فيوقف حرباً متوقعة تبديد الأخضر واليابس بين المسلمين وقريش ، ويذكر العرب له إلى آخر الدهر أنه هو الذى حجز بين الفريقين ، وأجار بين الناس .

لم يكن أبو سفيان يدرك ما أعد الله تعالى فى لوح الغيب لهذا الصبى الذى لا يزال

يعثر فى مشيته ، ويتعثر فى كلامه ، ويلثغ فى لسانه ، أن يكون سيد العرب والمسلمين حقًا إلى آخر الدهر يوم وقف بعد قرابة خمس وأربعين عامًا ، وأجار بين الناس ، وتنازل عن الخلافة لابن أبى سفيان - معاوية - فحقن دماء عشرات الألوف من المسلمين ، وقد أعلم رسول الله ﷺ بمهمته قبل أن يغادر هذه الدنيا قائلاً :

« إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » .

ووقف سيد المسلمين إلى آخر الدهر بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية ؛ ليقول فى أروع ختام :

الحمد لله الذى هداكم بأولنا ، وحقن دمكم بآخرنا .

فكانت أبلغ خطبة سمعتها العرب لسيدها العظيم الحسن بن على بن أبى طالب ؓ أما اليوم فلا . وجواب فاطمة رضوان الله عليها أمام إغراء هذه الأمجاد .

(والله ما بلغ ابنى أن يجير بين الناس ...) .

وحتى ولو بلغ (... وما يجير أحد على رسول الله ﷺ) .

٧- وحين رأى الإخفاق قد بلغ ذروته نظر إلى على ؓ أعدى العدو الذى قتل حماه وابن حميه - الوليد بن عتبة - وعتبة بن ربيعة ، وأفراد كثيرين من أهله ، راح أبو سفيان يقول متجاوزاً تلك الدماء والثرات ، ضارعاً لعلى قائلاً : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، قال : صدقت ، وأنا كذلك . قال : فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : (أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، وما أظن أحداً يخفرننى) ثم دخل على محمد فقال : يا محمد ، إنى قد أجرت بين الناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة !! » .

لقد أَرْضَى على غروره يوم قال له : إنك سيد بنى كنانة ، لكن ماذا تفيد الآن هذه السيادة إذا لم يقبل إجارته رسول الله ﷺ ، وقد نصحه على أن هذا الأمر لا يغنى عنه شيئاً ، ومع ذلك ففعله خير من رفضه ، وأحب أن يعرف أثر هذه الإجارة على رسول الله ﷺ ، ومدى قبوله لها ، فسمع الجواب الذى آياسه ، مع ما فيه من غموض وكتمان : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

لقد كان رسول الله ﷺ يكرم أبا سفيان وهو يكنيه بأبى حنظلة ، وكان أبو سفيان

رغم كل لباقته السياسية ، ودبلوماسيته ، يتجاوز هذا الأدب ، فيناديه : يا محمد ، دون أن يخاطبه : بأبى القاسم ، الاسم الذى اشتهر به بمكة ، لكن فى مضمون هذا التقدير يبحث أبو سفيان فلا يجد شيئاً يمك به إلا كمن يمك بيده بقبض الريح : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » ، وإن كان معناها الواضح ابتداء أن إجارته مرفوضة ، لكن لتعلقه بخيط العنكبوت وحيث لم تأت بالصراحة المعهودة : جوارك مرفوض ، فيمكن أن تحتل هذه الجملة ، ولو بتصور ضعيف إمكانية قبول هذا الجوار : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

ومضى أبو سفيان خالى الوفاض فى مهمته ، وتلقى المسلمون كبارهم وصغارهم الدرس الثانى فى التربية السياسية مع جواب رسول الله ﷺ لأبى سفيان : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » فقد جعله فى حبص بيص ، لا يدرى عم ورد ، ولا يدرى مصير جواره ، ولا يدرى ما يود محمد ﷺ أن يفعله فى مكة ، ولا يدرى ما وصل إليه من التفصيلات ، ولم تجد كل الاستفزازات ، وكل الإثارات العاطفية وغير العاطفية ، ولم تجد عبقرية السياسية ، شيئاً فى الوصول إلى شىء يمكه بيده ، يقوله لقومه ، ويواجه قريشاً به .

يزعم كثير من الناس أن السياسة لا تلتقى مع الإسلام ، فالسياسة كذب ودجل ، ومصالح ، والاعيب ، ومكر . والإسلام أخلاقيات نظيفة ترفض هذه الأساليب ، وهو دين المبادئ الذى يتعامل بوضوح وصراحة مع الناس ، وهذا الزعم فيه شىء من الحق ، وشىء من الباطل ، فالسياسة هى فن التعامل مع الصديق وفن التعامل مع العدو ، وإذا كان بعض الساسة يبيعون مبادئهم لمصالحهم ، فهذا لا يعنى أن السياسة لا تكون إلا كذلك . إن المدرسة السياسية الإسلامية هى أعلى وأرقى مدارس السياسة فى الأرض ، وتحرك النبى ﷺ فى غزوة الفتح تحركاً سياسياً قبل أن يكون تحركاً عسكرياً ، فالهدف عند رسول الله ﷺ أن يوجه إلى مكة الضربة القاضية بفتحها ، بأقل قدر ممكن من الدماء ، بحيث تجد مكة نفسها تحت الأمر الواقع فتضطر للاستسلام دون مقاومة ، وهذا العمل السياسى الذى قام به رسول الله ﷺ ، وغطى به تحركه العسكرى ، يدلنا على مدى أهمية العمل السياسى فى كل معركة ، إن الهدف هو الدعوة إلى الله عز وجل ، وفتح هذه القلوب المغلقة للإسلام ، وليس الهدف هو الإبادة ، والقتل ، والسحل للعدو ، فمعركة بدر التى تمت قبل سنين بين ثلاثمائة من المسلمين ، وألف من المشركين ، راح ضحيتها سبعون قتيلاً من المشركين ، وأسر سبعون ، فكيف إذا كان الجيش الإسلامى عشرة آلاف مقاتل يريد أن يدخل مكة عنوة ، لاشك أن القتلى ستكون بالآلاف ، وسيحمل عشرات الألوف وراء هؤلاء الآلاف الحقد والثار ، والكرهية للإسلام وأهله ،

وفرق كبير بين القائد سيد الأنبياء ، وبين القائد العسكري الفاتح الذى يفخر بعدد الجماجم التى سحقها لنصره ، ويعتبر النصر الحقيقى بآلاف القتلى الذين ذبحهم لتحقيق هذا النصر ، وما هذان الدرسان فى التربية السياسية فى جامعة النبوة ، فى المسجد إلا نموذجان على فن السياسة العظمى فى طريقة التعامل مع العدو ، فيدخل المدينة لآيام ويغادرها دون أن يتعرف على ذرة من الخطة النبوية ، وقد قابل الكبار ، والصغار ، والرجال ، والنساء ، والأطفال ، وعاد خالى الوفاض ، كما دخل ، دون حاجة إلى كذب أو غدر أو نكت للعهد ونقض له .

٨- ويعودة أبى سفيان إلى مكة ، والناس ينتظرون بلهفة نتائج مهمته ، كان أول من اصطدم بفشله السياسى هى زوجته هند بنت عتبة بعد أن تعبات أجواء مكة بالظن السيئ فيه أنه تابع محمداً على دينه لتأخره فى مهمته ، وحين كان فى ساعة شوق ولهفة لزوجته هند ، كانت هى فى شوق أشد ، لتطمئن على مكة وسلامتها بعد الرؤيا التى أفرعتها حين رأت الدم يسيل من الحجون إلى الخندمة ثم يتوقف ، وما أن حدثها عن خلاصة مهمته حتى تحركت دون وعى منها وضربت فى صدره برجلها قائلة :

قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

ويدرك أبو سفيان حليم مكة ، عصبية هند وعنفوانها ، فيمتص الموقف بهدوء ، ويعلم أنه مقبل على إعلان فشله الذريع أمام الملأ من قريش صبيحة اليوم التالى ، وفى مجلس قريش الذين راحوا يتسابقون ، لسؤاله عن مهمته التى حددها لنفسه ابتداءً ، ووافقوه عليها ، وهى تجديد العهد ، وزيادة المدة ، كمحاولة لمنع احتمالات غزو مكة ثاراً لخزاعة ، حلفاء محمد . لخص مهمته بقوله بعد سؤالهم :

- (ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد ، أو زيادة فى مدة ، ما نأمن به أن يغزونا محمد ؟

- والله لقد أبى على ، وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، وقد كلمت عليه أصحابه فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرمونى بكلمة واحدة ، وما رأيت قومًا أطوع للملك عليهم منهم له ، إلا أن عليًا لما ضاقت بى الأمور قال : أنت سيد بنى كنانة ، فأجر بين الناس ، فناديت بالجوار ، وما أظن أن يرد جوارى ، فقال : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة » .

- والله ما زاد على على أن تلعب بك تلعبًا . رضيت بغير رضى ، ولعمر الله ما جوارك بجائر ، وإن إخفارك عليهم لهين .

- والله ما وجدت غير ذلك) .

وراحوا يتهامون بالسر بينهم عن احتمالات إسلام أبى سفيان فى السر ، وليس الأمر فشل مهمة بمقدار ما هى خيانة أمة ، وخروج عن ملة ، خاصة وقد ذكرته هند بذلك قائلة :

لقد حُبِسْتُ حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع طول الإقامة جثتهم بنجح فانت الرجل .

وهو يدرك من وجوه قومه بذكائه اللماح ما تغلى به صدورهم من ظنون نحوه ، وخيبة أمل فيه . . . فلما أصبح فى اليوم الثانى حلق رأسه عند الصنمين - إساف ونائلة - وذبح لهما ، وراح يمسح بالدم رؤوسهما ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى : أبرأ لقريش مما اتهموه .

وخفتت التهمة والظنون بدينه كما خفتت الثقة العالية بعقريته ؛ لفشله الذريع فى تجديد العهد ، وزيادة المدة ، وبقيت قريش على أعصابها تنتظر مصيرها المحتمل بغزو محمد ﷺ لها الذى لا ينام على ضميم ، ولا يخفر جاره ، ولا يضام حليفه .

السرية والكتمان فى غزو مكة ، وقضية حاطب

١ - روى ابن أبى شيبه عن محمد ابن الحنفية - رحمه الله - عن أبى مالك الاشجعى قال : (خرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، وجلس عند بابها ، وكان إذا جلس وحده لم يأت أحد حتى يدعوه ، فقال : « ادع لى أبا بكر » فجاء ، فجلس أبو بكر بين يديه فناجاه طويلاً ، ثم أمره ، فجلس عن يمينه ، ثم قال : « ادع لى عمر » فجاء ، فجلس إلى أبى بكر ، فناجاه طويلاً ، فرفع عمر صوته ، فقال :

يا رسول الله ، هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنت كاهن ، وأنت كذاب ، وأنت مفتر ، ولم يدع عمر شيئاً مما كان أهل مكة يقولونه إلا ذكره ، فأمره أن يجلس إلى الجانب الآخر ، فجلس أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، ثم دعا الناس فقال : « ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين ؟ فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأقبل بوجهه إلى أبى بكر ، فقال : « إن إبراهيم كان آلىن فى الله تعالى من الدهن اللين » ثم أقبل على عمر فقال : « إن نوحاً كان أشد فى الله من الحجر ، وإن الأمر أمر عمر ، فتجهزوا وتعاونوا » فتبعوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر ، إنا كرهنا أن نسأل عمر عما نناجيك به رسول الله ﷺ ، قال : قال لى : « كيف تأمرنى فى غزو مكة ؟ » قلت : يا رسول الله ، هم قومك حتى رأيت أنه سيطيعنى ، ثم دعا عمر فقال عمر : هم رأس الكفر حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه ، وإيم الله وإيم الله لا تذلل العرب حتى تذلل أهل مكة ، وقد أمركم بالجهاد ؛ ليغزو مكة (١) .

٢ - حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى ، عن محمد بن جبير بن مطعم قال : (لما ولى أبو سفيان راجعاً ، قال رسول الله ﷺ لعائشة : « جهزينى وأخفى أمرى » وقال رسول الله ﷺ : « اللهم خذ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة » ، ويقال : قال : « اللهم خذ على قريش الأبصار فلا يرونى إلا بغتة » ، ولا يسمعون بى إلا فجأة » ، قالوا : وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددموه ، وكانت الأنقاب مسلمة إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه ، أو ناحية مكة (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣١٦/٥ .

(٢) المغارى للواقدي ٧٩٥/٢ ، وانظر : ابن هشام ٣٩٧/٢ ، ودلائل النبوة لليهقى ١٢/٥ ، والأنقاب : الطرق .

٣- قالوا: (فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمرّاً ، فدخل عليها أبو بكر فقال: يا عائشة ، أ هم رسول الله ﷺ بغزو ؟ قالت : ما أدري ، قال : إن كان رسول الله ﷺ همّ يسفر فأذنينا نهيأ له ، قالت : ما أدري . لعله يريد بنى سليم ، لعله يريد ثقيفاً ، لعله يريد هوازن ! فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، أردت سفرّاً ؟ قال : نعم . فقال له أبو بكر : أفاتجهز ؟ قال : نعم ، قال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال : « قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر » ، وأمر رسول الله بالجهاز ، قال : أوليس بيننا وبينهم مدة ؟ قال : « إنهم غدروا ونقضوا العهد ، فأنا غاريهم » . وقال لأبى بكر : « اطو ما ذكرت لك » فظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام ، وظان يظن ثقيفاً ، وظان يظن هوازن ، ويبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الاخبار) (١) .

٤- وعن أبى رافع قال : (سمعت عليّاً عليه السلام يقول : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (٢) فإن بها طعينة (٣) معها كتاب فخذوه منها » ، قال : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالطعينة ، قلنا لها : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة ، إلى ناس بمكة من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » فقال : يا رسول الله ، لا تعجل على ، إني كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ، يقول : كنت حليفاً ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد صدقكم » فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « إنه قد شهد بدرّاً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرّاً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فانزل الله السورة (المتحنة) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ ﴾ [المتحنة] (٤) .

(١) المغازى للواقدي ٧٩٦/٢ .

(٢) روضة خاخ : على بريد من المدينة ، والبريد أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال .

(٣) الطعينة : اليهود كانت فيه امرأة أم لا . (٤) البخارى ١٨٤/٤ - ١٨٥ .

وذكر السهيلي رحمه الله تعالى أنه قد قيل: إنه كان في كتاب حاطب : (إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر) (١) .

وفي رواية ابن إسحاق : (حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير ، وغيره من علمائنا قالوا : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم لى غيرهم أنها سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم » ، فخرجا حتى أدركاها بالخليفة - خليفة بنى أبي أحمد - فاستنزلاها ، فالتمسا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجدة منه ، قالت: أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : « يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟ » ، فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأة ليس لى في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فانزل الله تعالى في حاطب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [المتحنة: ١ - ٤] إلى آخر القصة (٢) .

٥ - الحكم في قتل الجاسوس: وفي الحديث دليل على قتل الجاسوس ، فإن عمر رضي الله عنه

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٩٩/٢ .

(١) الروض الأنف للسهيلي ٩٧/٤/٢ .

قال : دعنى فلاضرب عنقه ، فقال له النبى ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر » الحديث ، فعلق حُكم المنع من قتله بشهود بدر ، فدل على أن من فعل مثل فعله وليس بيدى أنه يُقتل . زاد البخارى فى بعض روايات الحديث قال : فاغرورت عينا عمر رضيه وقال : الله ورسوله أعلم ، يعنى حين سمعه يقول فى أهل بدر ما قال ، وفى مسند الحارث أن حاطباً قال : يا رسول الله ، كنت عريراً فى قريش ، وكانت أمى بين ظهرائهم ، فأردت أن يحفظونى فيها ، أو نحو هذا - ثم فسر العرير : وقال : هو الغريب (١) .

* * *

١ - الجو فى المدينة جو متوتر ، لكنه غامض ، وجاء رسول الله ﷺ صبيحة أحد الأيام ، فاستدعى أبا بكر رضيه وسارّه ، ثم استدعى عمر رضيه وسارّه ، وارتفع صوت عمر حتى عرف الناس شيئاً ما من موضوع الحديث مع رسول الله ﷺ ، وأمام استغراب الناس ، وأمام الأجيال الوافدة التى لا تعرف إلا رسول الله ﷺ ، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعرفهم بشيخى المسلمين أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فقال : « ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين ؟ » فقالوا : نعم يا رسول الله .

- فأقبل بوجهه إلى أبى بكر فقال : « إن إبراهيم كان ألين فى الله تعالى من الدهن اللين » .

- ثم أقبل على عمر ، فقال : « إن نوحاً كان أشد فى الله من الحجر » .

وراجع الناس قول عمر رضيه : يا رسول الله هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنت كاهن ، وأنت كذاب ، وأنت مفتر ، ولم يدع عمر شيئاً مما يقوله أهل مكة إلا ذكره .

فأدرك المسلمون أن الحديث عن قريش ، والاختلاف بين الشيخين هو على طريقة التعامل معها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الأمر أمر عمر فتجهزوا وتعاونوا » .

ونتوقع أن تكون هذه الحادثة متأخرة ؛ لأن الأمر بالجهاز والتعبئة قد كان ابتداء دون تحديد جهة السير ، وسنرى فيما بعد أن كعب بن مالك رضيه مضى مع الجيش أشواطاً ، ولم يعرف الجيش بعد أين المسير ، فالطريق الذى مضى به - عليه الصلاة والسلام - يمكن أن يقود إلى هوازن وثقيف ودوس ومكة ، ولا يدرون أين يتوجه النبى ﷺ ، وإذا صح هذا النص ، فلعله كان فى خاصة أصحابه دون سائر المسلمين .

(١) الروض الأنف للسيلى ٩٨/٢ .

٢- ونلاحظ في البداية أن هذا الأمر كان مكتومًا حتى عن الخاصة ، وأخص الخاصة هو الصديق ﷺ ، فهو أول المستشارين وكبير الوزراء في دولة الإسلام .

لقد أمر رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها بقوله : « جهزينا وأخفى أمرك » ، وقال : « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة » ، فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ ، تعمل قمحًا سويقًا ، ودقيقًا ، وتمرًا ، فدخل عليها أبو بكر فقال : يا عائشة ، أ هم رسول الله ﷺ بغزو ؟ فقالت : ما أدري ، قال : إن كان رسول الله ﷺ هم بسفر فأذنينا نتهيا له ، قالت : ما أدري ، لعله يريد بنى سليم ، لعله يريد ثقيفًا ، لعله يريد هوازن ! وفي مرسل سلمة عند ابن أبي شيبة ثم قال : « جهزيني ولا تعلمي بذلك أحدًا » .

نحن أمام هذا الطراز الرفيع من النساء بنت السادسة عشر من عمرها ، وأبوها الذى تعرف أنه صاحب سر رسول الله ﷺ ومستشاره الأول ، وقد تربت في بيته وبيت النبوة ، تكتم أمر هذا الخروج حتى عن أبيها ، وعندها السر المخبوء الذى لا يعرفه أحد إلا هي وزوجها الحبيب ، لكنها في التربية العالية في بيت النبوة تحفظ هذا السر عن أبيها حتى وهو يسألها عنه ، فلا تجتهد في إعطائه شيئًا منه ، بل تعمى الأمر عليه أكثر ، فتصرف نظره إلى ثقيف وسليم وهوازن ، ولا تذكر قريشًا البتة ، وهؤلاء النساء اللاتى يقال عنهن : أنهن لا يحملن سرًا ، فإذا بها أعظم من أى قائد وأى مسؤول تؤمن على هذا السر .

لقد كانت رضي الله عنها أهلاً لحمل هذا السر وهي في الثامنة من عمرها في بيت أبيها ، حين دخل رسول الله ﷺ على أبيها أبى بكر ، فقال له : « أخرج من هنا » ، قال : يا رسول الله ، إنما هما ابتدئ ، حيث كانت عائشة الصغرى زوج رسول الله ﷺ ، وأحب عليه الصلاة والسلام أن يدر بها على السر منذ تلك اللحظة ، فقبل بقاءها في الغرفة ، وقال : « يا أبا بكر ، قد أذن الله تعالى لى في الهجرة » ، قال : الصعبة يا رسول الله ، قال : « الصعبة » ، وذلك في الوقت الذى كُتِم فيه أمر الهجرة عن كل أصحاب رسول الله ﷺ إلا عن بيت أبى بكر وبيت رسول الله ﷺ .

ولقد تلقت عائشة رضي الله عنها درسًا قاسيًا من ربها حين أفشت سر رسول الله ﷺ إلى صرتها حفصة ونزل في ذلك قرآن يتلى :

﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرُ (٢) ﴾ [التحریم] .

ونزل أمر الله تعالى يدعوها إلى التوبة مع أختها حفصة :

﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٤) [التحریم] .

(وتعرضت حياتها للخطر بقوله عز وجل : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُدْهِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (٥) [التحریم]) (١) .
ومن أجل ذلك كانت حريصة أشد الحرص على أن تكتم أمر الغزو ومكانه عن أبيها ﷺ .

٣- ودخل أبو بكر ﷺ يشكو عائشة أم المؤمنين إلى رسول الله ﷺ فيما بلبنته وأخفت عنه : (يا رسول الله ، هل أردت سفراً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » ، قال : أفأتجهز ؟ قال : « نعم » ، قال أبو بكر : فأين تريد يا رسول الله ؟ قال : « قريشاً ، وأخف ذلك يا أبا بكر » .

وأدرك أبو بكر ﷺ من ساعته ، سر إخفاء الأمر من عائشة عنه فهي أوامر نبوية لا تقبل الاجتهاد ، (قال : أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟ قال : « إنهم غدروا ونقضوا العهد ، فأنا غازيهم » .

ثم عاد رسول الله ﷺ فاكد الأمر الجازم : « اطوما ذكرت لك » وظان يظن ثقيفاً ، وظان يظن هوازناً ، وظان يظن أن رسول الله ﷺ إنما يريد الشام) .

وشاع في المدينة خبر التأهب للغزو ، وترك الأمر لدى الصف المسلم غائباً عنه .

٤- وأضيف إلى هذا السر الوزير الثاني في الإسلام عمر بن الخطاب : وأوكل بمهمة مراقبة الطرقات الخارجة من المدينة ، حيث وضع عليها الحرس ، ومراقبة خروج الخارجين من مكة زيادة في الحيلة والحذر والسرية ، وكل من يود أن يمضى إلى مكة لابد أن يفتش ويسأل دون أن يعلم بسبب ذلك .

٥- ثم كانت الخطوة الثالثة بالتمويه بعد كتمان أمر الغزو عن الجميع ، وبعد مراقبة الأنقاب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها . خطة بعث أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ في سرية معه إلى بطن إضم .

(١) روى البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبی ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلنقل له : إني أجِد منك ريح مغاير (شبيه بالصمغ) قال : « لا ، ولكني أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، فلا تخبري بذلك أحداً » : ﴿ تَبَيَّنَ مَوَاضِعُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (البخارى ١٩٤/٦) .

(وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار) .

٦- وبعد كل هذه الإجراءات والاحتياطات البشرية في التنفيذ الدقيق للخطة : «اللهم خذ العيون والأبصار عنهم ، فلا يروني إلا بغتة ، ولا يسمعون بي إلا فجأة » ، كان أمر حاطب بن أبى بلتعة البدرى رضى الله عنه في بعث المولاة إلى قريش بعيداً عن الانقلاب والطرقات ، فتدخل الوحي الإلهي تلبية لرجاء نبيه وعبد محمد ﷺ (وأنى رسول الله ﷺ الخبير من السماء بما صنع حاطب) .

٧- وفي رواية الواقدي عن شيوخه قال : كتب حاطب إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل : (إن رسول الله ﷺ قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد بكتابى إليكم) ، ودفع الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل العرج يقال لها : كنود (١) وجعل لها ديناراً (٢) على أن تبلغ الكتاب ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليها محرساً ، فسلكت على غير نقب ، عن يسار المحجة في الفلوق (٣) ، حتى لقيت الطريق بالعقيق (٤) .

وحاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه هو من الجيل القيادي الأول من أهل بدر ، وكان واحداً من ستة أكل إليهم أن ينقلوا رسالة رسول الله ﷺ إلى الملوك ، وكان هو صاحب المقوقس عظيم القبط في مصر ، وأبدى من الوعي والنباهة والنضج السياسى ما لفت أنظار المقوقس داهية مصر ، يحدثنا عن هذه المهمة بقوله : (بعثنى رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية قال : فحييته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلنى فى منزله ، وأقامت عنده ، ثم بعث إلىّ وقد جمع بطارقه فقال : إنى سأكلمك بكلام وأحب أن تفهمه منى ، قال ، قلت : هلم ، قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبي ؟ ! قال : فقلت : بلى هو رسول الله . قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين أخرجه من بلده إلى غيرها ؟ ! قال : فقلت : عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله عز وجل حتى رفعه إليه فى السماء الدنيا ، قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، هذه هدايا أبعت بها معك إلى محمد ، وأرسل معك ببذرة يذر قونك إلى مأمك ، قال : فأهدى إلى

(٢) وفي رواية : جعل لها عشرة دنائير .

(١) ذكر ابن إسحاق أن اسمها سارة .

(٣) الفلوق : جمع فلق وهو الشق .

(٤) العقيق : أشهر أودية المدينة ويتدنى بعد ذى الحليفة (حوالى ١٥ كم عن المدينة) .

رسول الله ﷺ ثلاث جوار منهم أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لأبى جهم بن حذيفة ، وواحدة وهبها لحسان بن ثابت الأنصارى ، وأرسل إليهم بطرف من طرفهم (١) .

فهو من الطبقة العليا من الصحابة ولم يكن قد مر على مهمته هذه أكثر من سنة ، فما باله يضعف ﷺ أمام أهله ، ولم يحفظ له تاريخه الناصع أى زلة من هذه الزلات من قبل .

(وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة ، وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها ، وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو يعين عليها) .

ثم يقف الإنسان أمام عظمة الرسول الله ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل : « ما حملك على ما صنعت ؟ » فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » ليعينه وينهضه من عثرته ، فلا يطارده بها ولا يدع أحداً يطارده بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر : « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، دعنى فلاضرب عنقه » فعمر ﷺ ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم ، أما رسول الله ﷺ ، فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف ، ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو فى لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيمانى الصحيح فذلك حين يقول : (أردت أن تكون لى عند القوم يد ... يدفع الله بها عن أهلى ومالى) فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها إنما يدفع الله بها ، ويؤكد هذا التصور فى بقية حديثه وهو يقول : (وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع - الله - به عن أهله وماله) فهو الله حاضر فى تصوره ، وهو الذى يدفع لا العشيرة ، إنما العشيرة أداة يدفع الله بها .

ولعل حس رسول الله ﷺ الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحى فى قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله ﷺ : « صدق ... لا تقولوا إلا خيراً » .

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣٩٦/٤ .

وأخيراً يقف الإنسان أمام تقدير الله فى الحادث، وهو أن يكون حاطب من القلة (١) التى يعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة ، وأن تدركه لحظة الضعف البشرى وهو من القلة المختارة ، ثم يجرى قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع ولا تنفج بالقول : ها هو ذا أحد الذين استودعوا السر خانوه ، ولو أودعناه نحن ما بُحنا به ! فلم يرد من هذا شيء مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم فى الظن بأنفسهم واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

والحادث متواتر الرواية أما نزول هذه الآيات فهو أحد روايات البخارى ، ولا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولكن مضمون النص القرآنى - كما قلنا - أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذى تواترت به الروايات بمناسبة وقوع هذا الحادث على طريقة القرآن (٢) .

٨ - والذى يؤكد هذا المعنى هو انضمام أضعاف الجيش الإسلامى إلى الجيش الأساسى ، وكله من شباب القبائل الذين أسلموا حديثاً ، ولا تزال ارتباطاتهم حية بقبائلهم ، فكان هذا الحادث - كما يقال فى علم التربية - وسيلة إيضاح سمعية بصرية ، يتم من خلالها الحديث عن تقديم رابطة العقيدة على رابطة القبيلة بكل ما تحتاجه هذه القضية الخطيرة من جهد فى البناء والتربية والتكوين؛ لتحول هذه الآلاف إلى أبناء للعقيدة الواحدة ، جاعلين رابطة القبيلة تدور مع رابطة العقيدة ، واختار الله تعالى لهذا الدرس أن يكون أحد البدرين هو الذى ينطلق الحديث عن الآيات بسببه ؛ ليؤكد لهذه الآلاف المؤلفة أن المطلوب منهم هو الانسلاخ التام منذ الآن من رابطة القبيلة والالتحام بالإسلام وقيادته ودولته ، وخاصة بالنسبة لأولئك الأفراد نزاع القبائل الذين لا تزال قبائلهم تقف موقف المحاربة لهذا الدين ، والمعاداة له .

٩ - (ولكن مضمون النص القرآنى - كما قلنا - أبعد مدى - كان يعالج مشكلة الأواصر القرية ، والعصبيات الصغيرة وحرص النفوس على مآلوفاتها الموروثة؛ ليخرج بها من هذا الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى ، وكان ينشئ فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيماً جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى ، وكان كأنما يجمع هذه النباتات

(١) تتضافر الروايات التى تنقل نص الكتاب حيث تشير أن الأمر ظنى عنده فى النفي إلى مكة ، وهذا يشترك فيه مع المسلمين جميعاً .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٥٣٨ ، ٣٥٣٩ .

الصغيرة الجديدة فى كنف الله ؛ ليعلمهم الله ، ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايتهم ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمراً ، ويحقق بهم قدراً ، ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته ، ويُعرفون بهذه الشارة ، وتلك السمة بين الأقسام جميعاً فى الدنيا والآخرة ، وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته فى عالم الشعور ، وعالم السلوك (١) .

١٠ - ولأن الالتباس قد يقع الآن فى طبيعة هذا الجيش الإسلامى الجديد ، حيث انتقادت القبائل الصغيرة فى الحجاز للإسلام بكيانها كله ، وانطلق شبابها يلبون نداء الإسلام للحرب ، فقد تلبس القضية عند هؤلاء الآلاف من الشباب أن الاستجابة عندهم هو لنداء القبيلة ، وقيادة القبيلة ، والله تعالى يريد لهم التخلص من هذه الازدواجية ، واعتبار تلبية هذا النداء هو استجابة لله ورسوله وحده ، فى حرب المحادين لله ولرسوله ، ولو كانوا قبيلة رسول الله ﷺ . هذا الاختلاط فى المشاعر والولاء ، وعدم الخلوص منه جر على المسلمين الولايات الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، حيث عادت القبيلة بعد حين تستعيد حياتها وتمزق المجتمع الإسلامى إلى صراعات داخلية أنهكتهم وأجهزت عليه ، فلا بد لهذا الجيل الأول أن يمحّص الولاء لله عز وجل من أى ولاء آخر ، ويدور مع الإسلام حيث دار ، فإن كانت قبيلته معه كان معها ، وإن كانت ضده تخلّى عنها ، لا أن يدور مع قبيلته حيث تدور ، ولأمر ما نلاحظ أن كل الأحداث الضخام فى فتح مكة تناولها القرآن الكريم بسورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ قَوَّامًا ۚ ﴾ [النصر] .

بينما احتفل القرآن الكريم بهذا الحادث ، وأنزل فيه السورة كاملة تقريباً ؛ لتحدد معالم الولاء والبراء فى هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

لقد كانت هذه الأمور قد تمحصت وتحددت فى جيل الحديدية الذى كانت لبناته فردية مستقلة قائمة على اختيار الإسلام بعيداً عن موقف القبيلة منه ، فالولاء واضح جلى خالص . أما وقد جاءت وفود العديد من القبائل لتتضم باسم قبائلها إلى الإسلام ، كان لابد من هذا الدرس الإيضاحى الجلى الذى يعزز هذه القواعد جميعاً إلى الصف الإسلامى .

١١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ فِيهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ

(١) فى ظلال القرآن ٦/٣٥٣٩ ، ٣٥٤٠ .

كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ [المتحنة] .

والذى يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدى بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته وإدراكه ومشاعره واستقامة طريقه وطمانينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار أو أشد ، فعذو الله هو الذى يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوى بعد عالم الإيمان المعمور ؛ لهذا يندرج القرآن فى تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم ، حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم : ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [المتحنة] (١) .

﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ [المتحنة] .

(وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على أماد الزمان ، وإذا هو راجع إلى إبراهيم لا فى عقيدته فحسب ، بل فى تجاربه التى عاناها كذلك ، فيشعر أن له رصيذاً من التجارب أكبر من رصيده الشخصى ، وأكبر من رصيده جيله الذى يعيش فيه ، إن هذه القافلة الممتدة فى شعاب الزمن من المؤمنين بدين الله الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به وقد انتهت فى تجربتها إلى قرار اتخذته ، فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين ، ثم إن له لامة طويلة عريضة يلتقى معها فى العقيدة ، ويرجع إليها إذا انتبت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته ، فهو فرع من شجرة ضخمة ، باسقة عميقة الجذور ، كثيرة الفروع ، وارقة الظلال ... الشجرة التى غرسها أول المؤمنين إبراهيم .

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانها المسلمون المهاجرون ، وفيهم أسوة حسنة : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ، فهى البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم ،

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٥٤١ .

وهو الكفر بهم والإيمان بالله ، وهى العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده ، وهى المفاصلة الحاسمة الجازمة التى لا تُبقى شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، وفى هذا فصل الخطاب فى مثل هذه التجربة التى يمر بها المؤمن فى أى جيل ، وفى قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المؤمنين يجد فى استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين ، فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم فى قوله لأبيه : ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ ، فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك ، قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة : ١١٤] ، كما جاء فى سورة أخرى (١) .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المتحنة] .

وفى نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [المتحنة] ، فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم . . . فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج ، من يريد أن يحيد عن طريق القافلة ، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه، فإن الله هو الغنى الحميد .

(بعدئذ يعود فينسم على القلوب التى يعلم الله ما بها من حنين ورغبة فى زوال حالة العداوة والجفوة التى تكلفهم هذه المشقة ينسم عليها بنسمة الأمل الندية فى أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام وإلى صفوف المسلمين ، فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين (٢) . ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المتحنة] .

١٢ - ونعود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى رأى أن قضية إفشاء سر المسلمين والصلوات مع قيادة أعدائهم دون علم قيادة المؤمنين خيانة وارتداد عن الدين لا عقوبة له إلا قط العنق ، ويطلب أن ينفذ هو هذا الحكم بإذن قيادته ، فيأتى الجواب من المصطفى

(٢) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٥٤٣ .

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٥٤٢ .

ﷺ : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، تنتقل إليه ، وهو الأسد الهصور الذى لا يرضيه إلا قتل حاطب ، فإذا به بعد هذه الكلمة الندية من قائده ورسوله الحبيب ، وقد غدا إنساناً آخر ، فاغرورت عيناه بالدموع ، وقال : الله ورسوله أعلم لا ليعلنها ثورة لشخصه وذاته ويكتبها فى نفسه لهذا التهاون مع هذه الخيانة ، ويخرج عن طوره قائلاً : وإن كان من أهل بدر ، كما كان يفعل كل جاهلى مع قيادته ، بل ينكفئ على نفسه لتطاوله فى حق سيد مسلم من سادات أهل بدر ، ورب العزة جل جلاله قد كتب له فى الأزل مغفرة زلاته يوم شرفه بحضور غزوة بدر ؛ ليعلن براءته من نفسه وذاته ورأبه واندفاعه - ولو لعقيدته - بأن يفوض الأمر إلى الله عز وجل ، والدموع تغمر وجهه : الله ورسوله أعلم . ولا يدرى فقد يكون حاطب بن أبى بلتعة عند الله خيراً منه .

١٣ - ولكن القرآن الكريم جاء ليني هذه الامة الربانية من كل جانب .

فإذا كان الجانب المهم فى بنائها هو معرفتها فضل أهل بدر وأن يتعرف هؤلاء الآلاف العشرة على فضل الجيل القائد الرائد - جيل بدر - وأنه قد حاز على مرضاة الله ، فهو من جانب آخر يريد بناء هذا الجيش الذى يملك فى صفه أكثر من ثلثيه من حضر أول معركة فى حياته تحت راية الإسلام ورسول الإسلام يريد أن يحرر بمناسبة هذه الحادثة كثيراً من المعانى ويمحصها فى ضرورة الولاء الخالص للإسلام وحده ولقيادة هذه الامة كما فعل من مع إبراهيم مع قائدهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جانب ترك تقدير التصرف الأنسب حرباً أو سلماً أو مودة إلى القيادة النبوية العظيمة . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مُودَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) [المتحنة] .

وفى أقل من شهرين يتحقق موعود الله تعالى ، فإذا عكرمة وصفوان وسهيل الذين وجه اللوم لحاطب من أجلهم ، فهم عدو الله المحارب ، إذا هؤلاء الثلاثة وغيرهم جند من جند الله عز وجل ، وعادت المودة والأواصر والحب بين الجميع تحت راية الإسلام ، والآيات تريد هذا التمحيص الكامل الخالص لهؤلاء الجنود ، لقيادتهم النبوية ، وأن يكونوا من ورائهم فى الموقف المناسب الذى تراه وهو الموقف الأصعب والأعنف فى قبول التواد والتراحم مع هؤلاء الأعداء حين يرى رسول الله ﷺ ضرورة ذلك ليضمهم إلى هذا الدين بدل أن يعمل فيهم السيف ، فيفنيهم عن بكرة أبيهم . ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) [المتحنة] .

١٤ - وبقي هذا السر مكتوماً ، وساعد على نجاح الخطة حتى بعد مسيرة الجيش كله إلى مكة .

(فلما نزل رسول الله ﷺ بالعرج^(١) ، والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن ، أو إلى ثقيف ، فهم يحبون أن يعلموا ، فجلس في أصحابه بالعرج وهو يتحدث ، فقال كعب بن مالك : أتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضيئنا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجممنا السيوف
نسائلها ولو نطق لقال قواطعهن : دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاضر إن لم تروها بساحة داركم منها ألوفاً
فنتزع الخيام ببطن وج ونترك دورهم منهم خلوفاً

فتبسم رسول الله ﷺ ، ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بين لك رسول الله شيئاً ، ما ندرى بمن يُبدي بقريش أو ثقيف أو هوازن^(٢) .

وكعب من القيادات الكبرى ومن النقباء الاثنى عشر وهو يجهل الهدف الاولى والرئيسي للجيش وهو شاعر رسول الله ﷺ ، وهو أولى الناس بالمعرفة ، ومع ذلك لم يعرف الامر .. وبقي الامر مكتوماً عن الخُص من أصحابه .

١٥ - وإذا كانت العرج قرية من المدينة ، فلم يُزل الالتباس حتى بعد أن نشرت الرايات والالوية ، وتوزعت القيادات والمهمات ، وأخذ الجيش وضعه الطبيعي ، كان عيينة بن حصن قد انضم إلى الجيش .

(فلما نزل - رسول الله - قُديد^(٣) عقد الالوية وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ بالرايات والالوية عضاً على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ، قال : على قومي ألا يكونوا نفرؤا على محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله^(٤) .

١٦ - (وجن جنون هوازن وثقيف لأبيات كعب السابقة ، فبعثوا يرصدون حركة الجيش ، هل هو متجه إليهم أم إلى مكة فبعثوا عيناً منهم وقالوا له : ائت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه ، أبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه ، ولا نراه إلا يستفورهم ، فإن خرج سائراً أو بعث بعثاً فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سرف ،

(١) العرج : قرية جامعة على نحو ثلاث مراحل من المدينة بطريق مكة تبعد عن المدينة ١١٣ كم .

(٢) المغازي للواقدي ٨٠٢/٢ .

(٣) قديد : واد يمتد بطول ١٢٠ كم بين مكة والمدينة في منتصف الطريق وهو إلى مكة أقرب .

(٤) المغازي للواقدي ٨٠٤/٢ .

فإن كان يريدنا أولاً فيسلك في بطن سرف حتى يصل إلينا ، وإن كان يريد قريشاً فسيلزم الطريق (١) .

وبقى هذا العين أسيراً عند المسلمين ، وبقيت هوازن في حيص بيص لا تدرى أيتجه محمد إليها أم إلى قومه .

١٧ - وبقي الأمر سرّاً عن قريش تنفيذاً لخطة رسول الله ﷺ : « اللهم خذ العيون والأبصار عنا فلا يرونا إلا بقتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة » ، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى مشارف مكة .

(واجتمع المسلمون بمر الظهران (٢) ، ولم يبلغ قريشاً حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون أن يغزوهم رسول الله ﷺ) (٣) ، ولكنهم يغطون في سبات عميق ، رغم كل القلق والذعر الذي يحيط بهم . (فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاءً أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار) وهنا لم يعد رسول الله ﷺ يخشى معرفة قريش به ، ولو كان يخشى ذلك لما أمر بإيقاد النار بهذا الحجم ، بل أراد عليه الصلاة والسلام أن تعرف قريشاً بجيش الله الجرار بهذا الحجم وهذه الضخامة ، فتعلن استسلامها له) .

١٨ - وحتى ندرك الفارق الضخم بين عظمة التخطيط النبوي ، وتخلف التخطيط قريش ، وتعاملها مع هذا الحدث . (أجمعت قريش بعثة أبي سفيان بن حرب يتحسس الأخبار ، وقالوا : إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب) (٤) .

فهم أجمعوا أمرهم أن يعيدوا وفادة أبي سفيان ثانية إلى المدينة يزيد في المدة ويجدد العهد ، ولكنهم - كما يرون في عميق تخطيطهم بأنه إذا رأى ضعفاً أو رقة أو تخاذلاً من جند محمد ، فليؤذنه بالحرب ، لزيادة تخويفهم وإرعابهم ، هذا هو المستوى الذي بلغته قريش في تخطيطها لمواجهة احتمالات حرب محمد لها ، ولنشهد مهمة أبي سفيان فيما يتعلق بهذا الأمر .

١٩ - (فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ، فلحقا بديل بن ورقاء فاستبعاه فخرج معهما ، فلما بلغوا الأراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران ، وسمعوا صهيل الخيل ، ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً ، فقالوا : هؤلاء بنو كعب

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٨٠٥ .

(٢) مر الظهران : واد قرب مكة ويبعد عنها قرابة ٢٥ كم .

(٣) (٤) المغازي للواقدي ٢/ ٨١٤ .

حاشتها الحرب ! فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فتنجعت هوازن على أرضنا ! والله ما نعرف هذا ! إن هذا العسكر مثل حاج الناس (١) .

وفى رواية ابن هشام : (وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليل نيراناً قط ولا عسكرياً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، قال يقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها) .

٢٠- وانتهت مهمة أبى سفيان إلى المدينة فى تجديد العقد وزيادة المدة ، والتهديد بالحرب إن وجد رقة من أصحابه ، أقول : انتهت هذه المهمة بأسر أبى سفيان القائد العام لمكة وقريش سيد البطحاء الذى أجار بين الناس ، وسيد قريش وكنانة .

(قال ابن عقبة : فبينما هم يعنى أبا سفيان ، وحكيم بن حزام وبديلاً بن ورقاء كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيوناً له ، فأخذوا بخطم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش ، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم) (٢) .

وروى ابن أبى شيبه عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن قالا : أخذ أبو سفيان وأصحابه وكان حرس رسول الله ﷺ نفر من الأنصار ، وكان عمر بن الخطاب ؓ تلك الليلة على الحرس فجأؤوا بهم إليه فقالوا : جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتموني بأبى سفيان ما ردتهم ، قالوا : قد والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح) (٣) .

٢١- وهكذا شهدنا عظمة التربية النبوية لهذا الجيش على الكتمان والسرية ولشعبه كله عليها ، ابتداء من ابنة السادسة عشرة عائشة ؓ وانتهاء بأبى بكر الوزير الأول وكبير الوزراء فى دولة الإسلام ، ومروراً بابنة أبى سفيان قائد العدو أم حبيبة ؓ .

والمخالفة الوحيدة التى شهدناها فى هذا المنحى كله ، هى مخالفة حاطب ؓ التى تدخل الوحي الإلهى لكشفها ، ونزل القرآن الكريم بها يربى الجيل على خطورة سلوكها ، وكانت هذه التربية من التأثير والتفاعل والقوة بحيث حالت دون أى مخالفة أخرى فيما بعد ، والجيش ملئ بحديثى الإسلام ، ومن خاضوا أول معركة لهم تحت راية النبى ﷺ ، وعجز كعب ؓ أحد وزراء الأنصار ، والرجل الثانى فى الإعلام النبوى أن يعرف مكان اتجاه الجيش وهدفه كما عجز عيينة بن حصن العدو لللدود السابق للإسلام

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٢٥/٥ .

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٨١٤ .

(٣) المصدر نفسه ٥ / ٣٢٦ .

وحتى بعد منتصف الطريق فى تحديد هوية المكان المقصود للغزو ، وانتهت بأخذ أبى
سفيان بن حرب القائد العام لجيش مكة أسيراً، وهو خارج إلى المدينة ؛ ليتعرف الأخبار ،
ويجدد العهد ، ويهدد بالحرب إن وجد رقة من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام ،
فهل لنا أن نتعلم عظمة التخطيط والمتابعة ودقة التنفيذ لنجاح المهمة من إمام المربين عليه
الصلاة والسلام، ونعود باللائمة أولاً وقبل كل شىء على أنفسنا حين نسيء التخطيط أو
نسيء التنفيذ أو نسيء المتابعة ، بدل أن نعود بها على العدو والاستعمار ؟ !!

تكوين الجيش الإسلامى والرواد الأوائل

(قالوا : فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ، وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ : أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقيته بقديد ، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة .

قال : وحدثنى سعيد بن أبى عطاء ، عن أبى مروان ، عن أبيه ، عن جده قال :

أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ، وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ جندباً ، ورافعاً ابنى مكيث إلى جهينة يأمهم أن يحضروا رمضان بالمدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رَحْضة ، وأبا رُهم كلثوم بن الحصين إلى بنى غفار ، وضمرة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونُعيم بن مسعود ، وبعث إلى مزينة بلال ابن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المزنى ، وبعث إلى بنى سليم الحجاج بن علاط السلمى ، ثم البهزى ، وعرباض بن سارية ، وبعث إلى بنى كعب بن عمرو بشر بن سفيان ، وبُدَيْل بن ورقاء ، فلقيه بنو كعب بقديد ، وخرج معه من كان من بنى كعب بالمدينة ، وعسكر رسول الله ﷺ ببئر أبى عنبه ، وعقد الألوية والرايات ، فكان فى المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع على عليه السلام ، وراية مع سعد بن أبى وقاص ، وكان فى الأوس بنى عبد الأشهل راية مع أبى نائلة ، وفى بنى ظفر راية مع قتادة بن النعمان ، وفى بنى حارثة راية مع أبى بردة بن نيار ، وفى بنى معاوية راية مع جبر بن عتيك ، وفى بنى خطمة راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر ، وفى مبيض ... وفى بنى ساعدة راية مع أبى أسيد الساعدى ، وفى بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد ، وفى بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر بن حديدة ، وفى بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم ، وفى بنى مازن راية مع سليط بن قيس ، وفى بنى دينار راية يحملها ... وكان المهاجرون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفاً من الخيل مائة فرس ومائة درع وفيها ثلاثة ألوية ؛ لواء مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو ، وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً ، ولواءان يحملهما بريدة

ابن الحصيب والآخر ناجية بن الأعجم ، وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرساً ، فيها أربعة ألوية ، لواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع ابن مكيث ولواء مع أبي زرعة ، ولواء مع عبد الله بن بدر ، وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية ؛ لواء بشر بن سفيان ، ولواء مع ابن شريح ، ولواء مع عمرو بن سالم ، ولم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقُديد (١) .

(قال : وحدثني قُزان بن محمد عن عيسى بن عميلة الفزاري قال : كان عينة في أهله بنجد ، فاتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهاً ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العرج ، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال :

يا رسول الله ، بلغني خروجك، ومن تجمع إليك فأقبلت سريعاً ولم أشعر ، فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كبيرة ، ولست أرى هيئة حرب ، ولا أرى ألوية ولا رايات ! فالعمره تريد ؟ فلا أرى هيئة الإحرام ! فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » ، وذهب وسار معه ، ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا قد وافاها في عشرة نفر من قومه فساروا معه ، فلما نزلوا قُديد عقد الألوية ، وجعل الرايات ، فلما رأى عينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضاً على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومي ، ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع ، وعينة (٢) .

(ولما نزل رسول الله ﷺ قُديداً لقيته سليم وذلك أنهم نفروا من بلادهم فلقوه وهم تسعمائة على الخيول جميعاً مع كل رجل رمحه وسلاحه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكرا أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلوا عليهم ، وحشدوا ويقال : إنهم ألف ، فقالت سليم : يا رسول الله ، إنك تُقصينا ، وتستغشنا ، ونحن أخوالك - أم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت مرة ... من بنى سليم : فقدّمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا ، فإننا صبرٌ في الحرب ، صدُق عند اللقاء ، فُرسانٌ على متون الخيل ، فقال رسول الله ﷺ : « سيروا » فجعلهم مقدمته ، وكان خالد بن الوليد على مقدمة النبي ﷺ حين لقيته بنو سليم بقديد حتى نزلوا مرّ الظهران ، وبنو سليم معه (٣) .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٠٣ ، ٨٠٤ .

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٧٩٩ - ٨٠١ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨١٢ ، ٨١٣ .

(قال : حدثني شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه ، قال : خرجت بنو سليم تسعمائة على الخيول ، والقنا والدروع ظاهرة ، قد طووا ألويتهم ، وراياتهم ، وليس معهم لواء ولا راية معقودة ، فقالوا : يا رسول الله ، اعقد لنا ، وضع راياتنا حيث رأيت ، فقال : « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها في الجاهلية ! ما فعل فتى كان قدم مع وفدكم على ، حسن الوجه ، جيد اللسان ؟ قالوا : توفي حديثاً » (١) .

(قال : حدثني عكرمة بن فروخ ، عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن مرداس السلمى ، قال : قال عباس : لقيته وهو يسير حتى هبط من المشلل في آلة الحرب ، والحديد ظاهر علينا ، والخيول تنازعنا الأعنة ، فصفقنا لرسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أبو بكر ، وعمر ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عيينة ، هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والعدد » ، فقال : يا رسول الله ، جاءهم داعيك ، ولم يأتني ، أما والله إن قومي لمعدون مؤدون في الكراع والسلاح وإنهم لأحلاس (٢) الخيل ورجال الحرب ، ورماة الحدق (٣) ، فقال العباس بن مرداس : أقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ، وأضرب بالمشرفية (٤) منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولؤمت لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفته لنا العرب قاطبة ، فأوما إليهما النبي ﷺ بيده حتى سكتا (٥) .

* * *

كان آخر عهدنا بالجيش الإسلامى وفي أضخم تجمع عددى له هو فى غزوة مؤتة ، حيث بلغ ثلاثة آلاف مقاتل ، وها نحن الآن أمام جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ، أى ثلاثة أضعاف ونيف ، فمن أين جاءت هذه الأعداد الضخمة خلال مدة لا تتجاوز بضعة أشهر ، من جمادى الأولى إلى رمضان أى قرابة أربعة أشهر ، وأى امتداد تم للإسلام خلال هذه المرحلة ؟

وسنقف - ملياً - مع كل سرايا الجيش الإسلامى وكتائبه ، كما ساقها الواقدي رحمه الله ، إذ لم يفصل غيره فى ذلك ، إلا ما ذكروه بالجملة من أنباء القبائل الذين شاركوا

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٨١٣ .

(٢) أحلاس الخيل : جمع حلس وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير ، ويريد هنا : لزومهم لظهور الخيل .

(٣) الحدق : جمع حدقة وهى سواد العين ، والمعنى هنا : أنهم يصيبون العين إذا رموا .

(٤) السيوف المشرفية : تنسب إلى مشارف الشام . (٥) المغازى للواقدي ٢ / ٨١٣ ، ٨١٤ .

فى الغزوة ، وستحدث عن الرواد الأوائل فى كل قبيلة ، وهم الذين كانوا حداة قومهم وهداتهم إلى النور ، ونعود كذلك إلى استحضار حديث رسول الله ﷺ الذى يذكر هذه القبائل ، فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قريش ، والأنصار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع موالى ليس لهم مولى دون الله ورسوله » (١) .

وهذه القبائل المذكورة هى قوام الجيش الإسلامى فى المدينة ، وهم الذين خلصوا من العصبية القبلية ، والانتماء إلى قبائلهم ، وتولوا الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، فكانوا هم نواة حزب الله فى الأرض ، وكانوا هم القاعدة العريضة التى قام الإسلام على أكتافهم ، وسنعرض لهم بالتفصيل :

أولاً : قريش

وهى التى كانت تمثل المهاجرين ، ومنها السابقون الأولون فى الأرض ، وقد تخلت عن ولائها القبلى منذ لحظات الإسلام الأولى ، فقد انضموا إلى رسول الله ﷺ ، وقد انسلخوا عن قبائلهم ، وكانوا نواة الإسلام فى الوجود ، وكانوا الحجر الأساسى لحزب الله فى الأرض ، وفى السنة الأولى للهجرة كانوا يمثلون صفاً واحداً وحزباً واحداً تحت اسم « المهاجرين » كما ورد فى وثيقة المدينة :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رميتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .) (٢) .

كما ذابت القبائل الفرعية من قريش ؛ سهم ومخزوم وهاشم وتيم وعدى ، فقد كان يطلق عليهم قريش ، أو المهاجرون ، وبدأ اسم المهاجرين يضم تحت لوائه نزاع القبائل الأخرى ، وتحت هذا المصطلح يمكن أن ينضم ستة آلاف من الجيش الإسلامى ، مقابل أربعة آلاف من الأنصار ، وقد فاز بقلب المهاجر كل من هاجر إلى رسول الله ﷺ قبل فتح مكة ، فالمسلمون من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار هم جزء من شجرة المهاجرين الضخمة ، لكن هذه الشجرة كان جذعها الرئيسى هو قريش ، ولهذا أفرد لها رسول الله ﷺ بهذا الحديث ، حيث كانت قريش قسمين ضخمين ؛ القسم الأول : وهو الذين

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٨/٢ .

(١) مسلم ١٩٥٤/٤ ح ٢٥٢٠ .

آمنوا منهم وانضموا لرسول الله ﷺ ، والقسم الثانى : الذىبقى يحمل راية الحرب ضد الإسلام ، وكانت عندما تطلق قبل الفتح ، إنما يقصد بها المشركون من قريش ، وطفا اسم المهاجرين على المسلمين منهم .

لقد كان عدد المهاجرين - كما ذكر محمد بن عمر - فى جيش الفتح سبعمائة ، بينما رأينا أنهم كانوا فى خيبر ثمانمائة حيث ذكر هناك أن أسلم ثمن المهاجرين^(١) ، لكن أسلم اليوم انفصلت برائتها المستقلة بالأسلميين فيبقى المهاجرون سبعمائة هم من قريش ، ونزاع القبائل وأفرادها الذين لم تكن لهم قبيلة معينة خاضت الحرب تحت اسمها الصريح كالقبائل الخمسة المذكورة آنفاً ؛ أسلم وأشجع ، ومزينة ، وجهينة ، وبنى كعب من خزاعة ، وغيرها مثل سلّيم ، فالفرد من غير أهل المدينة مهاجرى ، وجزء من المهاجرين ، وأحد السبعمائة المذكورين .

(وكان مع المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع على ، وراية مع سعد بن أبى وقاص) .

هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يحملون راية المهاجرين يوم فتح مكة ، وكانوا فتيةً صغاراً يوم انضموا لحزب الله فى الأرض ، وعاشوا المحنة منذ لحظاتها الأولى ، فكان عُمر على يوم أسلم ثمانية أعوام ، وعمر الزبير اثنا عشر عاماً ، وعُمر سعد ستة عشر عاماً ، وها هم اليوم يعودون إلى مكة - بعد أن هاجروا منها - رجالاً تهتز لهم الأرض ، ويكونون ثلاثة من عشرة هم خيرة أهل الأرض بعد النبيين والمرسلين ، وهم العشرة المبشرون فى الجنة .

وهؤلاء الثلاثة لهم سابقتهم فى الجهاد ، فسعد أول من أراق دمًا للمشركين فى الأرض وأول من رمى يسهم فى سبيل الله ، وعلى أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن وأول من قتل قتيلاً فى الإسلام بالمبارزة ، والزبير أول من أشهر سيفاً فى سبيل الله وهو ابن اثني عشر عاماً فى مكة .

ولا داعى للحديث عن بقية المهاجرين السبعمائة ، أو الاستفاضة فى الحديث عن هؤلاء الثلاثة ، فهم صنعوا التاريخ الإسلامى ، وهم فجره الأول ، وشمسه التى لا تغيب لحظة عن هذا التاريخ .

ثانياً : الأنصار

وهم الذين آووا ونصروا ، وذكرهم القرآن فى محكم التنزيل : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا

(١) كان الأسلميون فى خيبر مائة ، وهذا ما أوضح العدد الكلى للمهاجرين .

الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[الحشر]

وهؤلاء الانصار فرعان ضخمان هما : الأوس والخزرج ، ومن كل فرع نبت قبائل و بطون متعددة :

أ- الأوس :

وسيدهم بلا منازع هو سعد بن معاذ ، سيد الأوس جميعاً ، وسيد بنى عبد الأشهل خصوصاً ، وقد استشهد فى الخندق ، و يليه فى الفضل أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، وقد نما عدد الأوس المسلمين ، إذ أن قسماً منهم بقى مثيراً عن الإسلام حتى غرزة الخندق ، (حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله وهم من الأوس ابن حارثة ، وذلك أن فيهم أبو قيس بن الأسلت وهو صيفى ، وكان شاعراً لهم ، قائداً يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل كذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ...) (١) .

وبعد دخول هذا القسم الكبير من الأوس فى الإسلام ، توزعت رايات الأوس على الصيغة التالية :

١ - بنو عبد الأشهل ، راية مع أبى نائلة ، و(أبو نائلة الأنصارى اسمه سلكان بن سلامة بن وقش بن ... عبد الأشهل الأنصارى الأوسى الأشهل ... وهو مشهور بكنيته ، ثبت ذكره فى الصحيح فى قصة قتل كعب بن الأشرف ، وشهد أحدًا وغيرها ، وكان شاعراً ومن الرماة المذكورين) (٢) .

٢ - وفى بنى ظفر ، راية مع قتادة بن النعمان ، و(قتادة بن النعمان بن زيد بن ... ظفر الأوسى ثم الظفرى ... وقال خليفة وابن حبان وجماعة : شهد بدرًا ، وحكى ابن شاهين عن ابن أبى داود أنه أول من دخل المدينة بسورة من القرآن وهى سورة مريم ، وروى عن النبى ﷺ أحاديث ... وأخرج البغوى عن ... عاصم بن عمر بن قتادة ، عن قتادة بن النعمان أنه أصيب عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجته ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٩١/٢ ، وقد اختلف فى إسلام أبى قيس ، وقيل : إن النبى ﷺ بعث له أن قل : لا إله إلا الله ، أشفع لك بها يوم القيامة فلما حضره الموت قالها ، انظر : الإصابة ٤/ ١٦٠ - ١٦٢ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ١٩١ ، ١٩٢ ت (١١٣٥) .

فأرادوا أن يقطعوها فقالوا: لا، حتى نستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمروه فقال: « لا »، ثم دعا به فوضع راحته على صدقه ثم غمزها، فكان لا يدرى أى عينيه ذهب، ومن طريق يعقوب بن محمد الزهرى، عن... عاصم بن عمر بن قتادة عن جده أنه سألت عينه على خده يوم بدر فردها، فكانت أصح عينيه، قال عاصم: فحدثت به عمر بن عبد العزيز فقال:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وجاء من وجه آخر أنها أصيبت يوم أحد، أخرجها الدارقطنى وابن شاهين... والبيهقى فى الدلائل... وابن إسحاق... وذكر الواقدى أنه كان معه يوم حنين وأنه من ظفر، وأخرج أحمد عن طريق أبى سعيد بن الحارث عن أبى سلمة عن أبى سعيد^(١) فى قصة ساعة الجمعة قال:

(هاجت السماء فخرج النبى ﷺ لصلاة العشاء، فبرقت برقة، فرأى قتادة بن النعمان فقال: « ما السرى^(٢) يا قتادة ؟ »، قال: يا رسول الله، إن شاهد العشاء قليل فأحييت أن أشهدا، فقال: « إذا صليت فائت »، فلما انصرف أعطاه العرجون^(٣)، قال: « خذ هذا فيضيء لك، فإذا دخلت البيت ورأيت سواداً فى زاوية البيت، فاضربه قبل أن يتكلم، فإنه شيطان »، وأخرج هذه القصة الطبرانى... مات فى خلافة عمر فصلى عليه ونزل فى قبره، وعاش خمسا وستين سنة^(٤).

٣- وفى بنى حارثة، راية مع أبى بردة بن نيار، و(أبو بردة بن نيار الأنصارى خال البراء بن عازب اسمه هانىء... شهد أبو بردة بدرًا وما بعدها، وروى عن النبى ﷺ... قال أبو عمر: مات فى أول خلافة معاوية بعد أن شهد مع علىؓ حروبه كلها)^(٥).

٤- وفى بنى معاوية، راية مع جبر بن عتيك و(جبر بن عتيك بن قيس... بن معاوية بن... مالك بن الأوس الأنصارى، تقدم فى جابر بن عتيك، وأنه شهد بدرًا، وأن منهم من قال: إنه أخو جابر بن عتيك المتقدم، وكانت معه راية قومه يوم الفتح، وقال الواقدى: مات جبر بن عتيك الأنصارى سنة إحدى وسبعين، وقال ابن سعد: هم ثلاثة إخوة، جابر وجبر وعبد الله، وكان جبر أكبرهم)^(٦).

(١) هو أبو سعيد الخدرى، وهو أخو قتادة من أمه.

(٢) السرى: المسير والخروج فى الليل.

(٣) العرجون: السواك.

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٥ ت (٧٠٧٠) باختصار.

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/١٧، ١٨ ت (١١٦). (٦) المصدر نفسه ١/١ ت (١٠٦٢).

٥ - وفي بنى خطمة ، راية مع أبي لبابة بن عبد المنذر ، و(أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري مختلف في اسمه ، قال موسى بن عُبَبة : اسمه بشر ... وقال ابن إسحاق : اسمه رفاعة ... قال ابن إسحاق : زعموا أن النبي ﷺ ردَّ أبا لبابة والحارث بن حاطب بعد أن خرجا معه إلى بدر ، فأمر أبا لبابة على المدينة ، وضرب لهما بسهمهما وأجرهما مع أصحاب بدر ، وكذلك ذكره موسى بن عُبَبة مع البدرين ، وقالوا : كان أحد النقباء ليلة العقبة ، ونسبوه إلى عبد المنذر بن زر بن زيد بن ... أمية بن زيد بن ... مالك بن عوف بن الأوس ، ويقال : إن رفاعة ومعشراً أخوان لأبي لبابة وكانت راية بنى عمرو ابن عوف يوم الفتح معه^(١) ... يُقال : مات في خلافة علي ، وقال خليفة : مات بعد مقتل عثمان ، ويقال : عاش إلى ما بعد الخمسين^(٢) ، وربط نفسه إلى سارية المسجد ، وكانت تحمله ابنته لحاجة الإنسان والصلاة فبقى كذلك بضع عشرة ليلة ... وكان سبب ذلك أن بنى قريظة لما حصرهم رسول الله ﷺ ، وكانوا حلفاء الأوس ، فاستشاروه في أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ^(٣) فأشار إليهم أنه الذبيح ، قال : فما برحت قدمي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله فجاء وربط نفسه ، وقيل : إنما ربط نفسه ؛ لأنه تخلف عن غزوة تبوك ، فربط نفسه بسارية فقال : والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى يتوب الله علي ، فمكث سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عز وجل عليه ...)^(٤) .

٦ - وفي بنى أمية راية مع مبيّض^(٥) ، قال ابن حيويه (نبيض) في كتاب أبي حية ، فتركه .

ب - الخزرج :

٧ - وفي بنى ساعدة راية مع أبي أسيد الساعدي :

و(أبو أسيد الساعدي : هو مالك بن ربيعة بن ... ساعدة بن كعب بن الخزرج ، شهد بدرًا وأحدًا وما بعدها ، وكانت معه راية بنى ساعدة يوم الفتح ، وروى عن النبي

(١) وهو الأنسب فهو من بنى عمرو بن عوف ، أما راية بنى خطمة فكانت مع خزيمه بن ثابت ذى الشهادتين ، كما روى ابن الأثير في أسد الغابة ١٣٣/٢ ت (١٤٤٦) .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ١٦٥/٧/٤ ت (٩٧٣) .

(٣) والأصح حكم رسول الله ﷺ كما عند ابن إسحاق (السيرة ٣٢٨/٣) ؛ لأنهم نزلوا على حكم سعد ﷺ .

(٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٢٦/٦ ت (٦١٩٨) .

(٥) لم أعر على ترجمة لهذا الاسم (نبيض أو مبيّض) في كتب التراجم ، رغم أن العديد من الصحابة من بنى أمية بدريون ، والغالب أن هناك سقط ، أو تحريف في النسخة المحققة للمغازي للواقدي في هذا الموقع ، ودليل ثان على السقط هو أنه لم يذكر إلا خمس رايات للخزرج ، والخزرج أضعاف الأوس في العدد .

ﷺ أحاديث ... وكان قد ذهب بصره ، ومات سنة ستين وهو ابن ثمان وقيل خمس وسبعين وقيل ثمانين ، وهو آخر البدرين موتاً (١) ، وأخرج له مسلم أن النبي ﷺ قال : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير » (٢) .

٨- وفي بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد : (و) عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد ... بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الخزرجى الحارثى ... شهد عبد الله العقبة وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى أرى الأذان فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن على ما رآه عبد الله (٣) .

٩- وفي بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر بن حديدة : (و) قطبة بن عامر بن حديدة ابن ... سلمة الأنصارى الخزرجى ، يكنى أبا زيد ... ذكره فيمن شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها ، وكانت معه راية بنى سلمة يوم الفتح ... وقال ابن أبى حاتم : توفي قطبة فى خلافة عمر ، وقال ابن حبان : بدرى مات فى خلافة عثمان (٤) .

١٠- وفي بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم : (و) عمارة بن حزم بن زيد ابن ... مالك بن النجار الأنصارى ... ذكره ابن إسحاق فيمن شهد العقبة ، قال أبو عمر : اتفق على ذلك جميع أهل المغازى ، وذكره أكثرهم فيمن شهد بدرًا ، وقال ابن سعد : شهد المشاهد كلها ، وكانت معه راية بنى مالك بن النجار يوم الفتح ، وذكره ابن إسحاق فيمن استشهد باليمامة ... وروى ابن سعد عن الواقدي بسند له ، عن أم سلمة قالت : كانت الأنصار الذين يكثرون إلفاظ رسول الله ﷺ ، سعد بن عباد ، وعمارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وسعد بن معاذ لقرب جوارهم (٥) .

١١- وفي بنى مازن راية مع سليط بن قيس : (و) سليط بن قيس بن عمرو بن عبيد ابن مالك (٦) بن ... عدى بن النجار ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد كلها ، وقتل يوم جسر أبى عبيد الثقفى بالعراق (٧) .

١٢- وفي بنى دینار راية يحملها (٨) ...

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٤٦/٣ ت (٧٦٢٢) . (٢) مسلم ٤/ ١٩٥٠ ح (٢٥١١) .

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢٤٧/٣ ت (٢٩٥٣) .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٤٢/٣/٣ ت (٧١١١) .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٧٥/٤/٢ ت (٥٧٠٦) .

(٦) لم يذكر فى نسبه أنه ينتهى إلى بنى مازن بن النجار ، ولعله مالك وحرف إلى مازن ، والاصوب أن تكون معه راية بنى عدى بن النجار ، وهم أخوال رسول الله ﷺ الأذنون .

(٧) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٤٤١/٢ ت (٢٢٠٤) .

(٨) بياض فى الأصل ، رغم أن فى بنى دینار الضحاک بن عبد عمرو بدرى ، وسعد بن سهيل بدرى ، وغيرهما بدریون استشهدوا قبل الفتح .

وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة .

١٣ - وكان مع سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه سيد الخُزَرج جميعاً راية النبي ﷺ .

فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان : يا رسول الله ، ما نأمن سعداً أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشاً » ، وقال : وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله وجعل اللواء إلى :

١٤ - قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من سعد حين صار لابنه .

هؤلاء الرواد الأربعة عشر من الأنصار على قيادة أربعة آلاف مقاتل .

ويمكن القول : إن السابقين الأولين من الأنصار كلهم قيادات ، فالسبعون عقيون ، ومائتان وواحد وثلاثون بدريون ، وأعداد لا تحصى شهدوا بيعة الرضوان ، فالجيل الأول الذي تحدثنا عنه كله جيل قيادات ، وفي غير هؤلاء الأربعة عشر من هو أقدم سابقة وأفضل فضلاً منهم ، ولكننا نؤكد أن ألفاً على الأكثر هم من السابقين الأولين القياديين ، وتبقى الآلاف الثلاثة الأخرى ممن اتبعوهم بإحسان ، وكان لهؤلاء الألف دور في تربية الآلاف الثلاثة الوافدة الجديدة ، والتي شكلت القاعدة العريضة للجيش الإسلامي في الفتح ، وكانت قرابة نصفه ، ويكاد يكون العدد نفسه عند المهاجرين البدرين الذين كانوا حوالى مائتين من جيل بدر ، وها هم اليوم يبلغون السبعمائة .

ثالثاً : مزينة

(ويعث إلى مزينة بلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المزني ...) (١) .

(وكانت مزينة ألفاً ، فيها من الخيل مائة فرس ومائة درع ، وفيها ثلاثة ألوية ، لواء مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو) (٢) ، ولنبحث عن هؤلاء الرواد الثلاثة في مزينة .

١٥ - (بلال بن الحارث بن عاصم بن ... عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة أبو عبد الرحمن المزني ، وولد عثمان ، يقال لهم : مزينة ، تُسبوا إلى أمه مزينة ، وهو مدني ، قدم على النبي ﷺ في وفد مزينة في رجب سنة خمس وكان ينزل الأشعر (٣) والاجر (٤))

(١ ، ٢) المغازي للواقدي ٢ / ٨٠٠ .

(٣ ، ٤) الأشعر والاجر : جبلا جهينة بين المدينة والشام .

وراء المدينة ، وكان يأتى المدينة ، وأقطعه النبى ﷺ العقيق^(١) . وكان يحمل لواء مزينة يوم الفتح ثم سكن البصرة . . . ، وتوفى بلال سنة ستين آخر أيام معاوية ، وهو ابن ثمانين سنة (٢) .

١٦ - عبد الله بن عمرو بن هلال المزنى ، قال البخارى : له صحبة ، وروى ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب ، وغيره فى تسمية البكائين الذين أتوا النبى ﷺ ؛ ليحملهم ، فذكر منهم : عبد الله بن عمرو المزنى وكذا ذكره ابن مردويه من حديث مجمع بن حارثة . . . وروى البغوى عن بكر بن عبد الله المزنى قال : قال لى علقمة بن عبد الله المزنى : غسل أباك أربعة من أصحاب بدر .

لكن البحث عن هذين الرائدتين فى مزينة : يفضى بنا أن نبحت عن أول الرواد المزنيين للإسلام ، قبلهما ، وذلك فى احتكاك بين مزينة وبين الإسلام ، وكان هذا فى غزوة أحد .

١٧ - وهب بن قابوس المزنى (ذكره ابن السكن فى الصحابة ، وأخرج من طريق محمد بن طلحة عن محمد بن الحصين عن عمرو بن سعد بن معاذ عن أبيه عن جده قال : لقي رجل من مزينة يقال له : وهب بن قابس بالعرج ، فأسلم وباعه ، ثم أقام فى أهله حتى إذا كان يوم أحد خرج . . .)^(٣) .

فهو أول مزنى يدخل الإسلام فى السنة الأولى من الهجرة ، ونتابع حديثه عند الواقدي فى مغازيه مع :

١٨ - الحارث بن عقبة بن قابوس ، وهو ابن أخيه :

(وأقبل وهب بن قابوس المزنى ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجدا المدينة خلوقاً^(٤) فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتغى أثراً بعد عين ، فخرجا حتى أتيا النبى ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه فأغاروا مع المسلمين فى النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، فاختلفوا فقاتلا أشد القتال ، فانفرت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الفرقة ؟ » ، فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع ، فانفرت فرقة أخرى ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه

(١) العقيق : كل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه ، والمقصود به هنا : عقيق المدينة .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٤٢/١ ت (٤٩١) .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٣٢٧ ت (٩١٧٢) . (٤) خلوقاً : خلواً .

الكتيبة؟ فقال المزني: أنا يا رسول الله ، فقام فذبحها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزني ، ثم طلعت كتيبة أخرى ، فقال: « من يقوم لهؤلاء ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول الله ، فقال: « قم وأبشر بالجنة » ، فقام المزني مسرورا يقول: والله لا أقبل ولا أستقبل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصاهم ، ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم ارحمه » ثم يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسياфهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثل به أقبح المثل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كنهو قتاله حتى قُتل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليه المزني (١) ، فقد أصبح وهب وابن أخيه رمزا لجبل الرواد الأوائل ، كما شهدنا آمال الفاروق رضي الله عنه ، وهذه شهادة ثانية من هذا الجيل الرائد لهذا المزني ، يقصها علينا واحد من مدرسته ، وأحد الأعلام الذين سبق ذكرهم : (بلال ابن الحارث المزني) يقول :

(وكان بلال بن الحارث المزني يحدث فيقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، فلما فتح الله علينا وقسمت بيننا غنائمنا ، فأسقط فتى من آل قابوس من مزينة ، فجئت سعدا حين فرغ من نومه ، فقال : بلال ؟ قلت : بلال ، قال : مرحبا بك ، من هذا معك ؟ قلت : رجل من قومي من آل قابوس ، قال سعد : ما أنت يا فتى من المزني الذي قُتل يوم أحد ؟ قال : ابن أخيه ، قال سعد : مرحبا وأهلا ونعم الله بك عينا ، ذلك الرجل شهدته منه يوم أحد مشهدا ما شهدته من أحد ، لقد رأيتنا وقد أهدق بنا المشركون من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطنا ، والكتائب تطلع من كل ناحية وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره يتوسمهم يقول : « من لهذه الكتيبة ؟ » كل ذلك يقول المزني : أنا يا رسول الله ، كل ذلك يردّها فما أنسى آخر مرة قامها ، فقال رسول الله ﷺ : « قم ، وأبشر بالجنة » ، قال سعد : وقمت على أثره - يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب من الشهادة - فحضرنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية ، وأصابوه رحمه الله ، ووددت - والله - أني كنت أصيب يومئذ معه ، ولكن أجلى استأخر ، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضّله ، وقال : اختر في المقام عندنا ، أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحب الرجوع ، فرجعنا ، وقال سعد - وهو يستعيد ذكريات عشرين عاما خلّت أو تزيد : أشهد لرأيت رسول الله ﷺ واقفا عليه ، وهو مقتول وهو يقول : « رضى الله عنك فإني عنك راض » ، ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه - وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله - وإني لأعلم أن القيام ليشق عليه - على قبره حتى وضع

(١) المغازي للواقدي ١/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

فى لحده ، وعليه برده لها أعلام خضر ، فمدَّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمرة ، وأدرجه فيه طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه وهو فى لحده ، ثم انصرف .

فما حال أموت عليها أحب إلىَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزنى (١) .

ويعر الزمن سنتين بعد أحد ، لنشهد رائدًا جديدًا من مزينة هو :

١٩ - (خزاعى بن عبد نُهم (٢) بن عفيف بن ... عداء ... بن عثمان بن عمرو المزنى ، وهو عم عبد الله بن مغفل المزنى ، كان يحجب صنمًا لمزينة اسمه نُهم ، فكسر الصنم ، ولحق بالنبي ﷺ فأسلم ، وهو يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت حزمها أهذا إله ؟ ! أبكم ليس يعقل
أبيت فدينى اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل

فبايع النبي ﷺ وبايعه على مزينة (٣) .

٢٠ - ٢٦ - ولم يتحرك خزاعى وحده بل مضى مع عشرة من سادة قومه .

قال : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، أخبرنا أبو مسكين وأبو عبد الرحمن العجلاني قالا : قدم على رسول الله ﷺ نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد نُهم ، فبايعه على قومه مزينة وقدم معه عشرة منهم ، فيهم بلال بن الحارث ، والنعمان ابن مقرن ، وأبو أسماء (٢٠) ، وأسامة (٢١) وعبد الله بن درة (٢٢) ، وعبد الله بن درة (٢٣) وبشر بن المحترف (٢٤) ، قال محمد بن سعد : وقال غير هشام : وكان فيهم دكين بن سعيد (٢٥) ، وعمرو بن عوف (٢٦) (٤) .

الوفادة الكبرى :

وقال هشام فى حديثه :

(ثم إن خزاعياً خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت فقال : اذكر خزاعياً ولا تهجه ، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ خزاعياً رسولاً بأن الذم يغسله الوفاء

(١) المغازى للواقدي ٢٧٦/١ ، ٢٧٧ .
(٢) نُهم اسم صنم لمزينة ، وكان خزاعى سادته .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ١٣١/٢ - ١٣٢ ات (١٤٤٢) .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩١/١ .

وأنك خير عثمان بن عمرو وأسناها إذا ذكر الشاء
وبايعت الرسول وكان خيراً إلى خير وأذاك الشراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه من الأشياء لا تعجز عدا

قال : ما عدا بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله قالوا : فإننا لا ننبوا عليك ، قال :
فأسلموا ووفدوا على النبي ﷺ ، فدفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى
خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل (١) .

(ويحدثنا عن هذه الوفاة الكبرى كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال :
كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة وذلك فى رجب سنة
خمس ، فجعل رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم ،
فارجعوا إلى أموالكم » ، فرجعوا إلى بلادهم (٢) .

٢٧ - النعمان بن مقرن بن عائذ ... بن عثمان بن عمر ... قال مصعب : هاجر
النعمان ومعه سبعة إخوة له ، روى عنه أنه قال : قدمنا على رسول الله ﷺ فى أربعمائة
راكب من مزينة ، ثم سكن البصرة وتحول إلى الكوفة ، وقدم المدينة بفتح القادسية ،
ولما ورد عمر بن الخطاب رضي الله عنه اجتماع الفرس بنهاوند كتب إلى أهل البصرة والكوفة ليسير ثلاثهم ،
وقال : لاستعملن عليهم رجلاً يكون لها ، فخرج إلى المسجد فرأى النعمان بن مقرن
يصلى ، فأمره بالمسير والتقدم على الجيش فى قتال الفرس وقال : إن قُتل النعمان
فحذيفة وإن قتل حذيفة فجرير ، فخرج النعمان ومعه حذيفة والمغيرة بن شعبة ،
والأشعث بن قيس ، وجرير ، وعبد الله بن عمر ، فلما أتى نهاوند (٣) قال :

(يا معشر المسلمين ، شهدت مع رسول الله ﷺ إذ لم يقاتل أول النهار ، آخر
القتال حتى تزول الشمس ، اللهم ارزق النعمان الشهادة بنصر المسلمين ، وافتح عليهم ،
فأمّن القوم ، وقال : إذا هزرت اللواء ثلاثاً ، فاحملوا مع الثالثة ، وإن قُتلت فلا يلوى
أحد على أحد ، فلما هز اللواء الثالثة ، حمل الناس معه ، فقتل وأخذ الراية حذيفة
ففتح الله عليهم ، وكانت وقعة نهاوند سنة إحدى وعشرين ، وكان قتل النعمان يوم
جمعة ولما جاء نعيه إلى عمر ، خرج إلى الناس فنعاه إليهم على المنبر ، ووضع يده على

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ . (٢) المصدر نفسه ٢٩١ .

(٣) كانت معركة نهاوند أعظم المعارك فى الشرق الإسلامى ، قال عنها ابن حزم فى جوامع السيرة ص ٣٤٦ :
وكانت وقعة نهاوند العظيمة التى قلّ الله - جل ثناؤه - فيها حد المجوس سنة عشرين ، وفيها قتل أمير
المسلمين النعمان بن مقرن المزنى .

رأسه وبكى .

وقال ابن مسعود : إن للإيمان بيوتًا وإن للنفاق بيوتًا ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن (١) .

هؤلاء الرواد ؛ وهب وابن أخيه ، ثم خزاعي بن عبد نهم ، ثم العشرة الذين معه ، ثم الأربعمائة فيما بعدُ هم الذين قادوا ألف بطل إلى جيش الفتح ، وليس الألف برقم هين ، فأقصى ما استطاعت مكة أن تخرجه من أبطالها يوم بدر ألف مقاتل ، وإذا كانت أفراس المشركين يوم بدر مائتا فرس ، فخيّل مزينة في الفتح مائة فرس ، ومائة درع ، وكانت مزينة هي الفصيل الثالث الذي عدّه رسول الله ﷺ بعد قريش والأنصار ، ممن خلص ولاؤهم لله ورسوله ، وتبرؤوا من ولاء القبيلة .

رابعاً : جهينة

(وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرساً فيها أربعة ألوية ؛ لواء مع : ٢٨ -) سويد بن صخر الجهني : أسلم قديماً ، وشهد الحديبية ، وباع بيعة الرضوان ، وهو أحد الأربعة الذين حملوا لواء جهينة (٢) ، (وذكره الواقدي في جملة العشرين الذين خرجوا إلى العرنيين في سرية غالب بن عبد الله الليثي) (٣) .

٢٩ - ولواء مع ابن مكيث ، وهو : (رافع بن مكيث الجهني ، شهد بيعة الرضوان وكان أحد من يحمل ألوية جهينة يوم الفتح ، واستعمله رسول الله ﷺ على صدقات قومه ، وشهد الجابية مع عمر) (٤) .

٣٠ - ولواء مع عبد الله بن بدر ، وهو : (عبد الله بن بدر بن بعجة بن معاوية . . . الجهني . . . قال ابن سعد : كان اسمه عبد العزى ، فغيره النبي ﷺ ، وروى ابن شاهين عن طريق ابن الكلبي . . . قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، وفد إليه عبد العزى بن بدر ابن زيد بن معاوية ، ومعه أخوه لأمه يقال له أبو مروعة وهو ابن عمه ، فقال النبي ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : عبد العزى ، قال : « أنت عبد الله » ، ثم قال له : « ممن أنت ؟ » قال : من بني غيان ، قال : « بل أنتم بنو رشدان » ، وكان اسم واديهم غويًا فسماه راشداً ، وقال لأبي مروعة : « رعب العدو إن شاء الله تعالى » وأعطى اللواءين يوم الفتح لعبد الله بن بدر ، وكان شهد معه أحدًا ، وخط له النبي ﷺ وهو أول من

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٩٠ ت (٢٣٤٨) .

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ت (٥٢٦١) .

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٩٠ ت (٥٤٣) .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ١٥٢ ت (٣٥٩٣) .

خط مسجداً بالمدينة وذكر ابن سعد أنه مات في خلافة معاوية ، وقال ابن جبان : كان حامل لواء جهينة يوم الفتح ونزل القبيلة من جبال جهينة (١) .

٣١- أبو زرعة ، وهو : (معبد بن خالد الجهني أبو زرعة . . . قال الواقدي : أسلم قديماً ، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جهينة يوم فتح مكة ، وكان يلزم البادية ، مات سنة اثنتين وسبعين ، وهو ابن بضع وثمانين سنة) (٢) .

(وأرسل رسول الله ﷺ رافعاً

٣٢- وجندباً بن مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة) (٣) ، (وجندب ابن مكيث أخو رافع بن مكيث ، واستعمله النبي ﷺ على صدقات جهينة ، قاله ابن سعد ، وسكن المدينة) (٤) .

وقد ذكره الواقدي في الفوارس العشرين الذين مضوا إلى العرنيين (٥) .

(وجندب هو الذي قصّ علينا قصته في سرية غالب الليثي على بني الملوّح فقال :

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي أحد بني كلب بن عوف في سرية كنت فيها ، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوّح بالكديد وهم من بني ليث ، فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك بن البرصاء ، فأخذه فقال : إنما جئت أريد الإسلام ، فقلنا : لا يضرّك رباط ليلة إن كنت تريد الإسلام . . . ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكمنّا ناحية الوادي ، فبعثنى أصحابي ربية (٦) لهم ، فخرجت فأتيت تلاً مشرقاً على الحاضر يطلعي عليهم ، حتى إذا أسندت فيه وعلوت على رأسه انبطخت ، فوالله إنني لأنظر إذ خرج رجل منهم من خباء له ، فقال لامراته : والله إنني لأرى على هذا التل سواداً ما رأيته عليه صدر يومى هذا ، فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب أخذت منها شيئاً ، فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتي شيئاً ، فقال : ناوليني قوسى ونبلى ! فناولته قوسه وسهمين معها ، فأرسل سهماً ، فوالله ما أخطأ به جنبى ، فانترعته فوضعت وثبتت في مكاني ، ثم رمانى الآخر فخالطني به أيضاً ، فأخذه فوضعت وثبتت مكاني ، فقال لامراته : والله لو كان زائلة لتحرك بعد ، لقد خالطه سهماي ، لا أبالك إذا أصبحت فاتبعيهما ، لا تمضيهما الكلاب ، ثم دخل خباءه وراحت ماشية الحى من إبلهم وأغنماهم ، فحلبوا وعطنوا (٧) ، فلما اطمأنوا وهدؤوا شئنا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٣٨/٤/٢ ت (٤٥٤٨) . (٢) المصدر نفسه ١١٨/٦/٣ ت (٨٠٨٧) .

(٣) المغازي للواقدي ٧٩٩/٢ . (٤) أسد الغابة لابن الأثير ٢٦٢/١ ت (٨٠٧) .

(٦) ربية : طليعة .

(٥) المغازي للواقدي ٥٧١/٢ .

(٧) عطنوا : سقوا وبركت الإبل بعد الشرب .

عليهم الغارة فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية ، واستقنا النعم والشاء ، فخرجنا نحدوها قبل المدينة . . . وخرج صريخ القوم في قومهم فجاءنا ما لا قبل لنا به ، ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادى وهم موجهون إلينا، فجاء الله الوادى من حيث شاء بماء ملاً جنبيه ، وايم الله ما رأينا قبل ذلك سحاباً ولا مطراً، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا، وقد أسندنا فى المشلل وفتناهم، فهم لا يقدرون على طلبنا . . . (١).

وأهم ما فى هذه السرية هو جندب بن مكيث رضي الله عنه الذى نجح حين كان طليعة قومه، فاجتاحته السهام دون أن يحير حراكاً حتى أوهم العدو بالأمن ونجحت الغارة عليهم .

هؤلاء الرواد الخمسة من جبهة هم الذين أسلموا من قبل ، وكانوا الدعاة فى قومهم إلى الله تعالى ، فربوا هذه القاعدة العريضة التى بلغت ثمانمائة مقاتل ، انضمت إلى جيش الفتح العظيم .

خامساً : أسلم

(أرسل رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة ، وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم : إن رسول الله يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة) (٢) .

٣٣- (أسماء بن حارثة بن هند بن . . . مالك بن أفضى ، ومالك بن أفضى أخو أسلم ، وكثيراً ما يضاف أبناء مالك إلى أسلم ، فيقال له : أسلمى . . . له صحبة ، وكان هو وإخوه هند من أهل الصفة ، قال أبو هريرة : ما كنت أرى أسماء وهنداً ابني حارثة إلا خادمين لرسول الله ﷺ من طول ملازمتها بابه وخدمتهما له ، وأسماء هو الذى بعثه رسول الله ﷺ يوم عاشوراء إلى قومه فقال : مر قومك بصيام عاشوراء ، فقال : أريت إن وجدتهم طعموا ؟ قال : « فليتموا » .

وتوفى سنة ست وستين بالبصرة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة . . .) (٣) .

فأسماء إذن مسلم منذ السنة الأولى للهجرة والتى فرض فيها صيام عاشوراء قبل رمضان ، أما :

٣٤- (هند بن حارثة . . . قال ابن حبان : له صحبة ، وأخرج ابن قانع من طريق عبد الرحمن بن حرملة عن يحيى بن هند بن حارثة عن أبيه وكان من أصحاب الحديث : أن النبى ﷺ مرَّ بنفر من أسلم يرمون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » ، وحكى البغوى أنه شهد بيعة الرضوان مع إخوة له سبعة، وهم : هند ، وأسماء ،

(٢) المصدر نفسه ٧٥٩/٢ .

(١) المغازى للواقدي ٧٥١/٢ ، ٧٥٢ .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٩٥/١ ت (١٢٣) .

وخراش ، وذؤيب ، وسلمة ، وفضالة ، ومالك ، وعمران ، قال : ولم يشهدا إخوة
فى عددهم ، كذا قال ، وقد أوردوا عليه أولاد مقرن ... (١) .

(وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً ولواءان ، يحمل أحدهما بريدة بن
الحصيب الأسلمى ، والآخر ناجية بن الأعجم ، أما :

٣٥- بريدة بن الحصيب الأسلمى ، فهو الرائد الأول فى بنى أسلم ، وله قصب
السبق عليهم ، وكل « أسلم » فى سجل حسناته يحدثنا عن إسلامه فى الفجر الأول ،
فيقول :

لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﷺ حملنى الطمع فركبت فى سبعين
من بنى سهم فلقبته ، فقال : « من أنت ؟ » قلت : بُريدة ، فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال :
« برد أمرنا واصلح » ، ثم قال : « بمن أنت ؟ » قلت : من أسلم ، قال : « سلمنا » ثم
قال : « بمن ؟ » قلت : من بنى سهم ، قال : « خرج سهمك يا أبى بكر » ، فقال بريدة
للنبى ﷺ : من أنت ؟ قال : « أنا محمد بن عبد الله رسول الله » فقال بُريدة : أشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم بريدة ، وأسلم من كان معه جميعاً ،
قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين ، فلما أصبح قال بريدة :
يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلّ عمامته ، ثم شدّها على رمح ثم
مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة (٢) ، وتأتى بقية ترجمته بعد أن أدخل قومه الإسلام
كما يقول : ناجية بن الأعجم فهو : (أسلم حين مرّ به النبى ﷺ مهاجراً هو ومن معه ،
وكانوا نحو ثمانين بيتاً ، فصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة ، فصلوا خلفه ، وأقام
بأرض قومه ، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد ، فشهد معه مشاهدته ، وشهد
الحديبية ، وبيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكان من ساكنى المدينة ، ثم تحول إلى البصرة
وابتنى بها داراً ، ثم خرج منها غازياً إلى خراسان ، فأقام بمرور حتى مات ودفن فيها
وولده بها (٣) ، أما :

٣٦- ناجية بن الأعجم الأسلمى ، ذكره ابن سعد فى الصحابة وقال : (لا عقب له
وأخرج عن الواقدي عن عطاء عن أبى مروان عن أبيه : حدثنى أربعة عشر رجلاً من
أسلم من أصحاب النبى ﷺ أن ناجية بن الأعجم هو الذى نزل فى القلب القليل الماء
يوم الحديبية بسهم رسول الله ﷺ أعطاه إياه من كنانته وأمره أن يفور الماء بسهمه ، وأن
يصب فيها ماءً توضأ منه ... وقال العطوى : عقد رسول الله ﷺ لأسلم لواءين يوم

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٩٣/٦/٣ ت (٩٠٠٦) .

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٤٠٥ . (٣) أسد الغابة لابن الأثير ٢٠٩/١ ت (٣٩٨) .

الفتح ، أعطى أحدهما ناجية بن الأعجم ، والآخر بريدة بن الحصيبي . . . وقال ابن شاهين في الصحابة : مات بالمدينة في آخر خلافة معاوية (١) .

ولأن عدد أسلم قليل ، والقبيلة صغيرة ، فكان جلُّ شبابها في الفتح، وكان عددهم أربعمئة فيها ثلاثون فارساً من أثر هؤلاء الرواد الأوائل الخمسة ، وفازوا بقلب : « أسلم سالمها الله » (٢) كما قال عنهم عليه الصلاة والسلام .

سادساً : غفار

(وأرسل رسول الله ﷺ إيماء بن رخصة وأبا رهم كلثوم بن الحصين إلى بنى غفار وضمرة) (٣) .

٣٧ - أما إيماء بن رخصة فهو سيد غفار في زمانه ووافدهم كان يسكن غبقة من ناحية السقيا ثم انتقل إلى المدينة ، فاستوطنها قبل الحديبية . . . (أبو عمر أسلم قبل الحديبية) (٤) ، (وروى مسلم في صحيحه قصة إسلام أبي ذر من طريق عبد الله بن الصامت عن أبي ذر ، وفيها : فجننا قومنا فأسلم نصفهم قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة ، وكان يؤمهم إيماء بن رخصة الغفاري ، ولكن ذكر أحمد في هذا الحديث الاختلاف على رواية سليمان بن المغيرة هل هو خفاف بن إيماء أو أبوه إيماء وعلى هذا يمكن أن يكون إسلام خفاف تقدم على إسلام أبيه ، والله أعلم . وذكر الزبير بن بكار من حديث حكيم ابن حزام أن إيماء بن رخصة حضر بدرًا مع المشركين فيكون إسلامه بعد ذلك) (٥) .

٣٨ - أبو رهم هو كلثوم بن الحصين بن . . . غفار الغفاري ، مشهور باسمه وكنيته ، كان تَمَن بايع تحت الشجرة ، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة الفتح . . . ، وقال ابن سعد : بعثه النبي ﷺ يستنفر قومه إلى تبوك ، ووجدت في كتاب الأدب المفرد للبخاري وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني : (ذكر ابن عروبة أنه رمى بسهم في نحره يوم أحد فبصق فيه النبي ﷺ فبرأ) (٦) .

(ومرو بنو غفار في ثلاثمئة يحمل رايتهم أبو ذر الغفاري ، ويقال : إيماء بن رخصة) (٧) .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/٧ ٣٢٣ ت (٨٦٣٥) .

(٢) البخاري ٤/٢ ٢٢٠ ، ومسلم ٤/١٩٥٢ (٢٥١٤) .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ١/١٩٨ .

(٤) الاستيعاب على هامش الإصابة ١ / ١١١ .

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ١/٩٤ .

(٦) المصدر نفسه ١/٦٩ ت (٤١٤) .

(٧) المغازي للواقدي ٢/٨١٩ .

٣٩- وأبو ذر الغفاري المسلم العظيم رابع من أسلم ، والذي دخلت غفار في الإسلام عن طريقه ، وهم - إن شاء الله - في صحيفته ، استفاض حديث إسلامه في الصحيحين ، ونقل مقتطفات منه :

(...) فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى » ، قال : والذي نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، قال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا عليه ، فأكب العباس عليه (١) ، أما في رواية مسلم ، عن أبي ذر قوله : (خرجنا من قومنا غفار ، وكانوا يحلون الشهر الحرام ... قال : وقد صليت يابن أخى قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين ، قلت : لمن ؟ قال : لله ، قلت : فأين توجه ؟ قال : حيث يوجهنى ربى ، أصلى عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقى كائى خفاء (٢) حتى تعلونى الشمس ... فقال أنيس (أخوه) : إن لى حاجة بمكة فاكفنى ، فانطلق أنيس حتى أتى مكة ، فرآه (٣) على ، ثم جاء ، فقلت : ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ... قال : قلت : فاكفنى حتى أذهب فأنظر ، قال : فأتيت مكة ، فضعفت (٤) رجلاً منهم ، فقلت : أين هذا الذى تدعونه الصابئ (٥) ؟ فأشار إلى ، فقال : الصابئ ، فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً على ، قال : فارتفعت حين ارتفعت كائى نصب أحمر (٦) ، قال : فأتيت زمزم ، فغسلت عنى الدماء ، وشربت من مائها ، ولقد لبثت يابن أخى ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لى من طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى (٧) ، وما وجدت على كبرى سخفة جوع (٨) ، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قال أبو ذر : كنت أول من حياه بتحية الإسلام ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، قال : « وعليك رحمة الله » ثم قال : « من أنت ؟ » قلت : من غفار ، قال : فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته ، فقلت فى نفسى : كره أنى

(٢) خفاء : هو الكساء .

(١) البخارى ٦٠ / ٥ / ٢ .

(٤) تضعفت : نظرت إلى أضعفهم .

(٣) رآه : أبطأ .

(٥) الصابئ : منصوب على الإغراء أى خذوا هذا الصابئ .

(٦) نصب أحمر : من كثرة الدماء التى سالت عليه . (٧) عكن بطنى : طيات بطنى .

(٨) سخفة جوع : رقة الجوع وضعفه وهزله .

انتميت إلى غفار ، فذهبت أخذ بيده ، فقد عني صاحبه ، وكان أعلم به منى ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : « متى كنت ها هنا ؟ » قال : قد كنت هنا منذ ثلاثين ، بين ليلة ويوم . . . ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال : « إني وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم » فأتيت أنيساً فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت أنى أسلمت وصدقت ، قال : ما بى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت ، فأتينا أمنا ، فقالت : ما بى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت ، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا ، فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رَحْضَةَ الغفارى وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي ، وجاءت أسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، إخواننا نسلم على الذى أسلموا عليه ، فأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالها الله » (١) .

سابعاً : أشجع

(وبعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونعيم بن مسعود ، أما :

٤٠ - معقل بن سنان فهو ابن سنان بن مظهر بن . . . أشجع بن ريث بن غطفان . ذكر ابن الكلبي ، وأبو عبيد ، أنه وفد على النبي ﷺ فأقطعه قطيعة . . . وهو روى عن النبي ﷺ وروى عنه . . . وقال العسكرى : نزل الكوفة وكان موصوفاً بالجمال ، وقدم المدينة فى خلافة عمر فقبل فيه وكان جميلاً :

أعوذ برب الناس من شر معقل إذا معقل راح البقيع مرجلاً

فبلغ ذلك عمر ، فنفاه إلى البصرة وذكر المدائني بسنده أن عمر سمع امرأة تنشده ، وفى مغازى الواقدي أنه كان معه راية أشجع يوم حنين ، ومع نعيم بن مسعود راية أخرى . . . وذكر الواقدي عن طريق زياد بن عثمان الأشجعي قال : كان معقل حامل لواء قومه يوم الفتح إلى أن بعثه الوليد بن عتبة بيعة أهل المدينة ليزيد بن معاوية فلقى مسلم بن عقبة المري فأنس به وحدثه ، فقال له : إنى قدمت على هذا الرجل فوجدته يشرب الخمر وينكح الحرام ، فلم يدع شيئاً حتى قال فيه ، ثم قال لمسلم : اكتم ، قال : أفعل ، لكن على عهد الله وميثاقه لا تمكثنى يداى ولى عليك قدرة إلا ضربت الذى فيه عينك ، فلما قدم مسلم فى وقعة الحرة أتى به ، فضربت عنقه صبراً ، وفى ذلك يقول الشاعر :

(١) مسلم ٤ / ١٩٢٠ ح (٢٤٧٣) .

ألا تلکم الانصار تبکی سراتها وأشجع تبکی معقل بن سنان

وقال البغوی : قتل فی ذی الحجة سنة ثلاث وستین (١) .

٤١ - ونُعیم بن مسعود بن عامر بن . . . أشجع بن ریث بن غطفان ، أسلم فی وقعة الخندق ، وهو الذی أوقع الخلف بین قریظة وغطفان وقریش یوم الخندق ، وخذّل بعضهم عن بعض ، وأرسل الله علیهم الریح والبرد والجنود وهم الملائكة ، فصرف کید الکفار عن النبی ﷺ والمسلمین ، ولما أسلم واستاذن النبی ﷺ فی أن یخذل الکفار ، قال له النبی ﷺ : « خذل ما استطعت فإن الحرب خدعة » .

ومات نُعیم فی خلافة عثمان وقیل : بل قتل یوم الجمل (٢) .

وقد ذکر الحافظ ابن حجر قصة التخذیل هذه عن ابن إسحاق ملخصة فقال : (و ذکر ابن إسحاق فی سبب رحیلهم ، أن نُعیم بن مسعود الأشجعی أتى النبی ﷺ مسلماً ، ولم یعلم به قومه ، فقال له : « خذّل عنا » ، فمضى إلى بنی قریظة وكان نديماً لهم ، فقال : قد عرفتم محبتی ، قالوا : نعم ، فقال : إن قریشاً وغطفان لیست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإلا رجعوا إلى بلادهم ، وترکوکم فی البلاء مع محمد ولا طاقة لکم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتی تأخذوا منهم رهناً فقبلوا رأیه ، فتوجه إلى قریش فقال : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فی الرجوع إلیه ، فراسلهم بأن لا نرضی حتی تبعثوا إلى قریش فتأخذوا منهم رهناً فاقتلوهم ، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، قال : فلما أصبح أبو سفیان بعث عكرمة بن أبی جهل إلى بنی قریظة بأن لا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فاخرجوا بنا حتی نناجز محمداً ، فأجابوهم : إن الیوم یوم السبت ، ولا نعمل فیهِ شیئاً ، ولا بد لنا من الرهن منکم حتی لا تغدروا بنا ، فقالت قریش : هذا ما حذرکم نُعیم ، فراسلوهم ثانیاً ألا نعطیکم شیئاً ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا ، فقالت قریظة : هذا ما أخبرنا نُعیم (٣) .

(وخذّل الله بینهم ، وبعث علیهم الریح فی لیل شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تکفأ قدورهم ، وتطرح آتیهم ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذیفة بن الیمان فبعثه إلیهم لینظر ما فعل القوم لیلاً (٤) .

ولقد بنی أبو سفیان قراره بالانسحاب فی شطر منه على انخزال بنی قریظة عن قتال

(١) الإصابة فی تمییز الصحابة ١٢٥/٦/٣ ت (٨١٣١) .

(٢) أسد الغابة لابن الاثیر ٣٤٨/٥ ت (٥٢٧٤) .

(٣) فتح الباری شرح صحیح البخاری لابن حجر ٤٠٢/٧ .

(٤) السيرة النبوة لابن هشام ٣٢١/٣ .

رسول الله ﷺ إذ خطب قائلاً : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل (١) .

(ثم مرت أشجع وهم آخر من مر ، وهم ثلاثمائة معهم لواءان ... فقال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ...) .

نعم ، وأبو سفيان أخبر الناس بذلك ، فأشجع فرع من غطفان التى جاهدت الله ورسوله لآخر لحظة من حياتها ، ونعيم بن مسعود بعد غزوة الخندق ، وبعد إسلامه هو الذى قلب الموازين ، وغير الانتحاة ، وعمل ما يعجز جيش عن عمله فى تمزيق كلمة غطفان وقريش واليهود ، ثم عمل ما عمله جيش من الدعاة فى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، وينشر كتاب الله بينهم ، وينحت من صخر فى قلوبهم حتى استطاع خلال ثلاثة أعوام ، أن يغير هوية القبيلة كاملة من حرب الله ورسوله إلى أن تدخل ضمن القبائل التى تقف بجوار المهاجرين والأنصار والتى تتولى الله ورسوله ، وتذوب فى جيش الإيمان الخالد ، الذى لا ولى له إلا الله ورسوله .

ثامناً : بنو كعب من خزاعة

فى رواية من روايات هذا الحديث :

(عن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال : « إن أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، ومن كان من بنى كعب موالىً دون الناس ، والله ورسوله مولاهم ») (٢) .

(ثم مرت بنو كعب بن عمرو فى خمسمائة يحمل رايهم بُسر بن سفيان ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد) (٣) .

(وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية : لواء مع بشر بن سفيان ، ولواء مع ابن شريح ، ولواء مع عمرو بن سالم ، ولم يكن خرج معه من المدينة ، لقيه قومه بقديد) (٤) .

(وبعث إلى بنى كعب بن عمرو بشر بن سفيان وبديل بن ورقاء) (٥) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٨٦٦/٢ ح (١٦٧٧) ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح ورواه مسلم والترمذى والحاكم والطبرانى .

(٣) المغازى للواقدي ٢/ ٨١٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٨٠١ .

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٨٠٠ .

نعيد إلى الذاكرة قول رسول الله ﷺ عندما بلغه عدوان بنى بكر على خزاعة وهو ينظر إلى السحابة المارة : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » (١) .

وما روى عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث مطولاً ، وفيه أيضاً أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلاً وهو فى متوضئه : « نُصرت ، نُصرت » ، فسألته ، فقال : « هذا راجز بنى كعب يستصرخنى » (٢) .

فقد استعمل رسول الله ﷺ فى هذه المرات الثلاث لفظ (بنى كعب) ولم يستعمل لفظ خزاعة مع أن الحلف بين رسول الله ﷺ وبين خزاعة مسلمهم ومشركهم وإنما خص رسول الله ﷺ هذا الفرع من خزاعة لأنه أصبح قلعة إسلامية كما وصفها عمرو بن سالم :

هم بيتونا بالوتير هجداً وقتلونا رُكعاً وسُجداً

(وينو كعب هؤلاء الذين انضموا بنص الحديث إلى ولاية الله ورسوله ، تلقى من روادهم أربعة ذكروا من قبل هم :

٤٢ - بُسر (٣) بن سفيان ... بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة ، كان شقيقاً كتب إليه النبى ﷺ يدعو إلى الإسلام ، له ذكر فى قصة الحديبية ، وهو الذى لقى رسول الله ﷺ لما اعتمر عمرة الحديبية ، وساق معه الهدى ، فأخبره أن قريشاً خرجت بالعود المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ... الحديث ، وأسلم سنة ست من الهجرة ، وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ ، أخرجه الثلاثة (٤) .

٤٣ - وعمرو بن سالم بن حصين بن ... بن كعب بن عمرو ، وهو الذى ركب إلى رسول الله ﷺ لما كان من أمر خزاعة وبنى بكر بالوتير حتى قدم المدينة ؛ يخبره الخبر فأنشده :

اللهم إنى ناشد محمداً

فقال رسول الله ﷺ : « نُصرت يا عمرو بن سالم ... » ، فذكر القصة فى فتح مكة ، وأخرج سعيد بن يعقوب فى الصحابة ... عن عمرو بن سالم قال : قلت : يا رسول الله ، إن أنس بن زعيم هجاك ، فأهدر رسول الله ﷺ دمه ... قال ابن الكلبي وأبو عبيد والطبرى : إن عمرو بن سالم كان أحد من يحمل ألوية خزاعة يوم فتح مكة (٥) .

٤٤ - بُذيل بن ورقاء بن ... عدى بن ربيعة قال ابن السككن : له صحبة ، سكن مكة .

(١) تاريخ الذهبى والمغارى ، ص ٥٢٣ . (٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٥٢٠ / ٧ .

(٣) ورد فى أماكن (بسر) وفى أماكن (بشر) والصحيح (بُسر) كما فى كتب التراجم .

(٤) أسد الغابة لابن الأثير ٢١٦ / ١ ت (٤١١) .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٩٨ / ٤ / ٢ ت (٥٨٣٠) .

وعن ... عبد الرحمن بن الحكم بن بشر ؛ أنه سئل عن بديل بن ورقاء ، فقال : مات قبل النبي ﷺ ... وكان إسلامه قبل الفتح وقبل يوم الفتح ... وعن عبد الله بن بديل بن ورقاء قال : سمعت بديل بن ورقاء قال : لما كان يوم الفتح قال لي رسول الله ﷺ ورأى بعارضى سواداً : « كم سنوك ؟ » قلت : سبع وتسعون ، فقال : « زادك الله جمالاً ، وسواداً » ، وعن ... سلمة قال : دفع إليّ أبى بديل بن ورقاء كتاباً فقال : يا بنى هذا كتاب رسول الله ﷺ فاستوصوا به ، فلن تزالوا بخير ما دام فيكم ... فذكر الحديث ، وفيه أن الكتاب بخط على بن أبى طالب ... (١) .

٤٥ - أبو شريح (٢) الخزاعى ثم الكعبى خويلد بن عمرو ... وكان معه لواء خزاعة يوم الفتح ... قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين ذكره فى طبقة الخندقين ، وقال : أسلم قبل الفتح وكذا قال غير واحد فى تاريخ موته ، روى عن النبي ﷺ أحاديث ... (٣) .

وقد ورد ذكره فى الحديثية : (ثم نادى مناديه : من كان عنده بقية من زاد ، فليشره على الانطاع ، قال أبو شريح الكعبى : فلقد رأيت من يأتى بالتمرة الواحدة ، وأكثرهم لا يأتى بشيء ، ويأتى بالكف من الدقيق والكف من السوق ، وذلك كله قليل ، فلما اجتمعت أزوادهم وانقطعت موادهم مشى رسول الله ﷺ إليها فدعا لها بالبركة ثم قال : قربوا أوعيتكم ! فجاؤوا بأوعيتهم ، قال أبو شريح : فأنا حاضر فيأتى الرجل فيأخذ ما شاء من الزاد حتى إن الرجل ليأخذ ما لا يجد له محملاً ، ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ... (٤) .

هؤلاء الأربعة فيهم اثنان من أهل بيعة الرضوان ، ومن جيل الرضوان ، هم الذين بشوا خلال سنتين نور الإسلام فى قومهم ، واستطاعوا خلال هاتين السنتين أن يهيئوا قومهما للانضمام للحزب الواحد الذى يقوده رسول الله ﷺ بعيداً عن الولاءات القبلية القائمة .

تاسعاً : كنانة

وهنا لا نجد كنانة قد أعطيت شهادة الانضمام هذه إلى الحزب الواحد - حزب الله ورسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ﴾

(١) الإصابة فى تمييز ١٤٦/١/١ ت (٦١١) .

(٢) ذكره الواقدي باسم ابن شريح والأصوب أبو شريح كما فى كتب التراجم .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٩٨/٦/٣ ت (٦٠٨) . (٤) المغازى للواقدي ٦١٦/٢ .

اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة] .

لقد شهد رسول الله ﷺ للفروع الثمانية السابقة بانضمامها إلى حزب الله وانصهارها فيه ، وأنها قد تولت الله ورسوله ، وبقي عندنا من هذا الجيش شريحتان هما : بنو كنانة ، وبنو سليم .

وبنو كنانة وإن لم يدخلوا صراحة في هذا الحزب ، فهم قد نالهم شرف الاصطفاء الرباني ، كما في الحديث الشريف : (حدثنا الأوزاعي ، عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم ») (١) .

ولم يضم رسول الله ﷺ كنانة لهذا الحزب ؛ لأن فيها قبائل وفروعاً لا تزال تعلن العداء للإسلام فبنو بكر من كنانة ؛ هم الذين أعلنوا انضمامهم صراحة لصف قريش الكافرة ضد رسول الله ﷺ ، وهم الذين اعتدوا على بنى خزاعة ، ومن أجلهم كانت الحرب ، فلم تتحول بكر وضمرة وسعد بن بكر إلى قلاع إسلامية ، رغم وجود أعداد قليلة تجمعت وانضمت إلى الجيش الإسلامي .

(ثم مرت كنانة ، وبنو ليث ، وضمرة ، وسعد بن بكر في مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثي ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله ، الذين غزانا محمد بسبيهم ، أما - والله - ما شوّرت فيه ولا علمته ، ولقد كنت له كارهاً حيث بلغني ، ولكنه أمر حمّ) (٢) .

(وحدثني عبد الله بن عامر عن أبي عمرة بن حماس قال : مرّت بنو ليث وخدمهم ، وهي مائتان وخمسون يحمل لواءها الصعب بن جثامة) (٣) .

٤٦ - الصعب بن جثامة : واسمه يزيد بن قيس بن ... ليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، أمه زينب بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وحالف جثامة قريشاً ، كان الصعب ينزل ودان والأبواء من أرض الحجاز ، وتوفى في خلافة أبي بكر ﷺ . . . عن ... ابن عباس أن الصعب بن جثامة أخبره أن رسول الله ﷺ مرّ به ، وهو بودان أو

(٢ ، ٣) المغازي للواقدي ٢ / ٨٢٠ .

(١) مسلم ٣ / ١٧٨٢ ح (٢٢٧٦) .

بالأبواء، فأهدى له حماراً وحشياً فردّه عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ في وجهه الكراهة ، قال : « إنه ليس بنا ردّ عليك ، ولكننا حرّم » (١) (٢) ، (وقال يعقوب بن سفيان : أخطأ من قال : إن الصعب بن جثامة مات في خلافة أبي بكر خطأً بيناً ، فقد روى ابن إسحاق عن عمرو بن عبد الله أنه حدثه عن عروة قال : لما ركب أهل العراق في الوليد بن عقبة كانوا خمسة منهم الصعب بن جثامة ، وللصعب أحاديث في الصحيح من رواية ابن عباس عنه ، وذكر ابن الكلبي في الجمهرة ، أن النبي ﷺ قال يوم حنين : « لولا الصعب بن جثامة لفصحت الخيل ، وذكر أبو بكر بن لال في كتاب المتحابين . . . قال : آخى رسول الله ﷺ بين عوف بن مالك والصعب بن جثامة ، فقال كل منهما للآخر : إن مت قبلي فترأى لي ، فمات الصعب قبل عوف فترأى فذكر قصته) (٣) .

٤٧ - أبو واقد الليثي : مختلف في اسمه قيل : الحارث بن مالك ، وقيل : ابن عوف ابن . . . ليث بن بكر بن عبد مناة بن علي بن كنانة كان حليف بنى أسد وقال البخاري وابن حبان والباوردي والحاكم : شهد بدرًا ، وقال أبو عمر : قيل : شهد بدرًا ولا يثبت ، قال ابن سعد : أسلم قديمًا وكان يحمل لواء بنى ليث ضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح ، وكان خرج إلى مكة وجاور فيها سنة ، فمات ، وقد أنكر أبو نعيم على من قال : إنه شهد بدرًا ، وقال : بل أسلم عام الفتح أو قبل الفتح وقد شهد على نفسه أنه كان بحنين ، قال : ونحن حديثو عهد بكفره ، وقد نفى الزهري على أنه أسلم يوم الفتح ، وأسند ذلك عن سنان ابن أبي سنان الأيلي ، أخرجه ابن منده بسند صحيح) (٤) .

والصعب بن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كان حليفًا في قريش ، وأبو واقد حليفًا في بنى أسد فهذا يعنى أنهما لم يعيشا معظم وقتهما مع قومهما ، ولا ندرى إن كانت كنانة كلها مائتان على تعدد في حملة الرايات ، وهما أبو واقد والصعب ، أم أن تحت راية كل واحد منهما مائتان ومائتان وخمسون .

عاشراً : بنو سليم

ولبنى سليم قصة مستقلة فهم يحملون تاريخاً أسود ضد الإسلام والمسلمين ، فمحنة بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من المسلمين ، وهم القراء ، كان ذلك على يد قبائل من بنى سليم ، كما في السيرة :

(فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهى بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم كلا البلدين

(١) وكان ذلك في عمرة الحديبية . (٢) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٢٠ ت (٢٥٠١) .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٤٤ ت (٤٠٦٠) . (٤) المصدر نفسه ٣/ ٢١٢ ت (١٢٠٠) .

منها قريب ، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب ، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكون ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله إلا كعب ابن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتث من بين القتلى وعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً ... (١) .

(ولم يجد (٢) رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بثر معونة ، وكان أنس ابن مالك يقول : أنزل الله فيهم قرآناً قرأناه حتى نسخ : « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » (٣) .

وبلغ الأمر برسول الله ﷺ أنه كان يقنت بالصلاة يلعن هذه القبائل :

(فعن خفاف بن إيماء الغفارى قال : قال رسول الله ﷺ فى صلاة : « اللهم العن بنى لحيان ورعلا وذكون وعصية ، عصوا الله ورسوله ، غفار غفر الله لها ، وأسلم سالها الله » (٤) .

وبيقيت الأجواء متوترة ، والحرب قائمة بين سليم والإسلام ، وحضروا الخندق مع المشركين ، وكانت آخر وقائعهم مثل وقعة بثر معونة قبل أشهر من الفتح :

سرية ابن أبى العوجاء السلمى فى ذى الحجة سنة سبع

(حدثنى محمد عن الزهرى قال : لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء سنة سبع ، بعث ابن أبى العوجاء السلمى فى خمسين رجلاً ، فخرج إلى بنى سليم ، وكان عين لبنى سليم معه ، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذرهم وأخبرهم ، فجمعوا جمعاً كبيراً وجاءهم ابن أبى العوجاء والقوم مُعدون له ، فلما رأهم أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأوا جمعهم دَعَوْهُمْ إلى الإسلام فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا لقولهم ، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتهم إليه ، فراموهم ساعة ، وجعلت الأمداد

(٢) وجد : حزن حزناً شديداً .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٢/٣ .

(٤) مسلم ١٩٥٣/٣ ح (٢٥١٧) .

(٣) المغازى للواقدي ٣٥٠/١ .

تأتى حتى أحدقوا بهم من كل ناحية ، فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم ، وأصيب صاحبهم ابن أبى العوجاء جريحاً مع القتلى ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ (١) .

لقد كانت السريتان سرية بثر معونة ، وسرية ابن أبى العوجاء سرية دعوة إلى الله عز وجل ، وقد كان على رأس السرية واحد منهم وهو ابن أبى العوجاء السلمى ، ولكن القوم كانوا من الحقد والحرب للإسلام بمستوى لا يدعهم يفكرون ولو لحظة واحدة بمبادئ هذا الدين ، إلى أن آذن الله تعالى بفجر جديد .

يحدثنا عنه سيد بنى سليم وشاعرهم عباس بن مرداس :

٤٨ - ذكر ابن أبى الدنيا فى سبب إسلام عباس حديثاً أسنده عن رجاله عن الزهرى عن عبد الرحمن بن أنس السلماني عن عباس بن مرداس أنه كان فى لقاح له نصف النهار، فاطلعت عليه نعامه بيضاء ، عليها راكب عليه ثياب يياض فقال لى :

يا عباس ، ألم تر أن السماء كفت أحراسها ، وأن الحرب جرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل عليه البر والتقى يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة القصواء .

قال : فخرجت مرعوباً ، قد راعنى ما رأيت ، وسعيت حتى جئت وثناً لى يُقال له : الضَمَار ، كنا نعبده ونكَلِّمُ من جوفه ، فكنت ما حوله ، ثم تمسحت به ، فإذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبائل من قريش كلها	هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يُعبد مدة	قبل الصلاة على النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى	بعد ابن مريم من قريش مهتدى

قال : فخرجت مذعوراً حتى جئت قوماً ، فقصصت عليهم القصة وأخبرتهم الخبر ، فخرجت فى ثلاثمائة من قوماً من بنى جارية إلى النبى ﷺ بالمدينة ، فدخلنا المسجد ، فلما رآنى النبى ﷺ تبسم وقال : « إلى يا عباس ، كيف إسلامك ؟ » فقصصت عليه القصة ، فأسلمت أنا وقومى (٢) .

وقال ابن حجر فى الإصابة (: . . . وقال ابن سعد : لقي النبى ﷺ وهو متوجه إلى فتح مكة ومعه سبعمائة من قومه فشهد بهم الفتح ، وذكر ابن إسحاق أن سبب إسلامه

(١) المغازى للواقدي ٧٤١/٢ .

(٢) الروض الأنف للسيهلي ١٢٠/٤ وهو عند ابن إسحاق فى السيرة ٤٢٧/٢ .

رؤيا رآها فى صنم ضَمَار ، وزعم أبو عبيدة أن الخنساء الشاعرة المشهورة أمه ، وقد حدث عن النبى ﷺ . . . ويقال : إنه ممن حرم الخمر فى الجاهلية ، وسأل عبد الملك بن مروان جلساءه من أشجع الناس فى شعره فتكلموا فى ذلك فقال :

أشجع الناس العباس بن مرداس فى قوله :

أَكْرُ عَلَى الكَتِيبة لَا أَبَالِي أَحْتَفَى كَانَ فِيهَا أَم سِوَاهَا

وكان يتزل البادية بالبصرة (١) .

٤٩ - وهناك رائد أول سبق العباس بن مرداس السلمى هو : العباس بن أنس بن عامر السلمى (. . . ذكره ابن إسحاق من طريق أبى بكر بن أبى الجهم ، قال : كان العباس بن أنس شريكاً لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ ، ثم شهد الخندق مع المشركين ، فلما هزم الله الأحزاب ، أسلم العباس فى بنى سليم ، أخرجه أبو موسى ، وحكى أبو الفرج الأصفهاني ، أنه كان رئيس بنى سليم ، قال : وأثنى عليه خفاف بن نُدبة السلمى لما مات فقال : يتقى بخيله عند الموت ، ولا يكالب الصعاليك على الأسلاب ، ولا يقتل الأسرى ، وكان موته فى زمن النبى ﷺ ، وكان ابنه أنس بن العباس من الأمراء فى الفتوح (٢) .

٥٠ - أما أول الرواد ، والرجل الرابع فى الإسلام فهو عمرو بن عبسة من بنى سليم الذى يقص علينا قصة فجره الأول ، وظلماته الأولى إذ يقول :

(رغبت عن آلهة قومي فى الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إني امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحى ليس معهم إله ، فخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة حجارة ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبد ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه ، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر ، فدلننى على خير من هذا ، فقال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها فإذا رأيته فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين ، فلم تكن لى همة منذ قال لى ذلك إلا مكة ، فأتى فأسال : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا . . .) (٣) .

وفى رواية مسلم عنه :

(كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شىء ، وأنهم

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٤/٣٠ ت (٤٥٠٢) .

(٢) المصدر نفسه ٢/٤/٣٠ ت (٤٤٩٦) . (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٢١٧ ، ٢١٨ .

يعبدون الاوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتى فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرّاء (١) عليه قومه ، فتلطفتُ حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له : ما أنت (٢) ؟ قال : « أنا نبي » ، فقلت : وما نبي ؟ قال : « أرسلنى الله » ، فقلت : وبأى شيء أرسلك ؟ قال : « أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء » ، قلت له : فمن معك على هذا الأمر ؟ قال : « حر وعبد » ، قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به ، فقلت : إني متبعك ، قال : « إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالى وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهلِكَ ، فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى » .

فذهبت إلى أهلى ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكنت فى أهلى فجعلت أنخبر الأخبار (٣) وأسأل الناس حين قدم المدينة ، حتى قدم على نفر من أهل يثرب من أهل المدينة ، فقلت : ما فعل هذا الرجل الذى قدم المدينة ؟ فقالوا : الناس إليه سراع ، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه ، فقلت : يا رسول الله ، أتعرفنى ؟ قال : « نعم أنت الذى لقيتنى بمكة ؟ » قال : قلت : بلى ، فقلت : يا نبي الله ، أخبرنى عما علمك الله وأجهله ، أخبرنى عن الصلاة ، قال : « صلّ صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرنى شيطان ، وحيثنجد يسجد لها الكفار ، ثم صلّ فإن الصلاة مشهودة (٤) محضورة (٥) حتى يستقل الظل بالرمح (٦) ، ثم أقصر عن الصلاة فإن حيثنجد تسجد (٧) جهنم ، فإذا أقبل الفء فصلّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلى العصر ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرنى شيطان وحيثنجد يسجد لها الكفار » ، قال : فقلت : يا نبي الله ، فالوضوء حدثنى عنه ، قال : « ما منكم رجل يقرب وضوءه ، فيتمضمض ويستنشق فينثر إلا خرّت خطايا وجهه وفيه (٨) وخياشيمه (٩) ، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا

(١) جرّاء : جمع جرىء ، وذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين : جرّاء ومعناه غضاب قد عيل صبرهم والصحيح بالجيم .

(٢) ما أنت ؟ ولم يقل : من أنت ؟ لانه سأل عن صفته لا عن ذاته والصفات عما لا يعقل .

(٣) أنخبر الأخبار : أسأل عنها .

(٤) مشهودة : يشهدها الملائكة .

(٥) محضورة : يحضرها أهل الطاعات .

(٦) يستقل الظل بالرمح : يقوم مقابله فى جهة الشمال وهى حالة الاستواء .

(٧) تسجد جهنم : يوقد عليها إيقاداً بليغاً . (٨) فيه : فمه .

(٩) خياشيمه : جمع خيشوم وهو أقصى الأنف .

خَرَّتْ خطايا يديه مع أنامله^(١) مع الماء ، ثم مسح رأسه إلا خرّ خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعنين إلا خرّت خطايا رجله من أنامله مع الماء ، فإذا هو قام فصلّى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بالذى هو له أهل ، وفرّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه .

فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبا أمامة: يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول فى مقام واحد يعطى هذا الرجل ؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة لقد كبرت سنّى ، ورقّ عظمى ، واقترب أجلى ، وما بى حاجة أن أكذب على الله ولا على رسول الله ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عدّ سبع مرات ، ما حدثت به أبداً ولكنى سمعته أكثر من ذلك^(٢) .

قال محمد بن عمر : لما أسلم عمرو بن عبسة بمكة ، رجع إلى بلاد قومه بنى سليم ، وكان ينزل بصفة وحادة وهى : من أرض بنى سليم ، فلم يزل مقيماً هناك حتى مضت بدر وأحد والخنندق وخيبر ، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك المدينة^(٣) .

وهو عمرو بن عبسة بن خالد بن ... بهثة بن سليم ... بن ... مضر ويكنى أبا نجيح ولقد جنبّ عمرو بن عبسة قومه بنى مالك بن ثعلبة حرب الإسلام والمسلمين ، وكان الخميرة الأولى للإسلام فى بنى سليم ، ولم تنزل اللعنة بقومه كما نزلت فى عصية ورعل وذكوان الذين حاربوا الإسلام .

٥١ - الحجاج بن علاط بن هلال بن ... سعد السلمى ثم البهزى ، (روى ابن أبى الدنيا فى هواتف الجان من طريق واثلة بن الأسقع ، كان سبب إسلام الحجاج بن علاط أنه خرج فى ركب من قومه إلى مكة ، فلما جنّ عليه الليل استوحش فقام يحرس أصحابه يقول :

أعيذ نفسى وأعيذ صحبى حتى أعود سالماً وركبى

فسمع قائلاً يقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ... ﴾ [الآية (الرحمن : ٣٣) ، فلما قدم مكة أخبر بذلك قريشاً فقالوا له : يا أبا كلاب ، إن هذا فيما يزعم محمد أنه أنزل عليه ، قال : فسأل عن النبى ﷺ فقيل له : هو فى المدينة ، قال : فأسلم الحجاج وحسن إسلامه^(٤) .

قال ابن سعد : قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً

(٢) مسلم ١/٥٦٩ - ٥٧١ ح (٨٣٢) .

(١) الأنامل : رؤوس الأصابع .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/١/٣٢٨ ت (١٦١٧) .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢١٩/٤ .

ومسجدًا (١) .

٥٢ - العرياض بن سارية (أبو نجيح ، صحابى مشهور من أهل الصفة ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ... ﴾ [التوبة : ٩٢] ، وقال أيضاً كل واحد من عمرو بن عبسة والعرياض بن سارية : أنا رابع الإسلام ولا يدرى أيهما قبل صاحبه ، ثم نزل حمص وحديثة فى السنن الأربعة . . . وقال محمد بن عوف : كان قديم الإسلام جدًا (٢) .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى سعيد بن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يغزو مكة بعث إلى الحجاج بن علاط السلمى والعرياض بن سارية السلمى يأمرهما بقدم المدينة (٣) ، أما عند الواقدى فى المغازى (وبعث إلى بنى سليم الحجاج بن علاط السلمى ثم البهزى وعرياض بن سارية) (٤) .

قالوا : فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ، وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، وبعث رسولاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ : أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقبته بقديد ، وأما سائر العرب فخرجوا إلى المدينة (٥) .

وهذه صفة انضمام سليم إلى الجيش الإسلامى فى غزوة الفتح :

(ولما نزل رسول الله ﷺ قديداً لقيته سليم ، وذلك أنهم نفروا من بلادهم فلقوه وهم تسعمائة على الخيول جميعاً مع كل رجل رمحه وسلاحه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكرا أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلا عليهم وحشدوا ، ويقال : إنهم ألف فقالت سليم : يا رسول الله ، إنك تُقصينا وتستغشنا ونحن أخوالك - أم هاشم بن عبد مناف عاتكة بنت . . ذكوان من بنى سليم - فقدّمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا فإنا صبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، فرسان على متون الخيل ، قال : ومعهم لواءان وخمس رايات والرايات سود ، فقال رسول الله ﷺ : سيروا فجعلهم مقدمته ، وكان خالد بن الوليد على مقدمة النبى ﷺ حين لقيته بنو سليم بقديد حتى نزلوا مرّ الظهران وبنو سليم معه (٦) .

قال : حدثنى شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧١/٤ . (٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٣٤/٤/٢ ت (٥٤٩٣) .

(٣) الطبقات الكبرى ٢٧١/٤ . (٤) (٥) المغازى للواقدى ٧٩٩/٢ .

(٦) المصدر نفسه ٨١٢/٢ ، ٨١٣ .

خرجت بنو سليم تسعمائة على الخيول ، والقنا والدروع الظاهرة قد طووا ألويتهم وراياتهم ، وليس معهم لواء ولا راية معقودة ، فقالوا : يا رسول الله ، اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت ، قال : « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها في الجاهلية : ما فعل فتى كان قدم مع وفدكم على حسن الوجه جيد اللسان ؟ » قالوا : توفي حديثاً (١) .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عكرمة بن فروخ السلمي ، عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن مرداس قال : قال عباس بن مرداس : لقيته عليه السلام وهو يسير حين هبط من المشلل ، ونحن في آلة الحرب والحديد ظاهر علينا والخيول تنازعنا الأعنة ، فصفقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جنبه أبو بكر وعمر ، فقال رسول الله : « يا عيينة ، هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والعدد » . فقال : يا رسول الله ، جاءهم داعيك ولم يأتني ، أما والله إن قومي لمعدون مؤدون في الكراع والسلاح ، وإنهم لأحلاس الخيل ورجال الحرب ورماة الحدق ، فقال عباس بن مرداس : أقصر أيها الرجل فوالله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت وخنت لنحن أولى بما ذكرت منك قد عرفته لنا العرب قاطبة ، فأوما إليهما النبي صلى الله عليه وسلم بيده حتى سكتا (٢) .

(وذكر أبو عمر في ترجمة الضحاك الكلابي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سار إلى فتح مكة كان بنو سليم تسعمائة فقال لهم : هل لكم في رجل يعدل مائة يوفيكم ألفاً؟ فوفاهم بالضحاك وكان رئيسهم وفيه يقول العباس بن مرداس السلمي :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم	جيش بعثت عليهم الضحاك
أمرته ذرب اللسان (٣) كانه	لما تكشفه العدو يراكا
طوراً يعانق باليدين وتارة	يفرى الجماجم صارماً بتاكاً (٤) (٥)

(...) وقال الواقدي : كان (أي الضحاك) على صدقات قومه ، وكان من الشجعان يعدل بمائة فارس وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم على سرية ، وفيه يقول العباس بن مرداس :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم جيش بعثت عليهم الضحاك (٦)

لقد جاءت سليم بخيل تعدل خيل المسلمين جميعاً ، وهو أكبر تجمع للخيال يشهده

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٨١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٢٧٠ ، ٢٧١ ، وهي مذكورة عند الواقدي وفيها نقص أشكل المعنى ، فأخذناها بتمامها من الطبقات .

(٣) ذرب اللسان : حاد اللسان .

(٤) بتاكاً : قطعاً للرؤوس وغيرها .

(٥) الإصابة لابن حجر ٢ / ٢٦٧ ت (٤١٦٠) .

(٦) المصدر نفسه ٢ / ٢٦٧ ت (٤١٦١) .

(وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الانصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفاً فيها من الخيل مائة فرس ... وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً ... وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرساً ...) (١) .

وقد عدَّ رسول الله ﷺ الضحاك بمائة فارس ، فإذا كانت سليم ألفاً ، فالخيل للمسلمين جميعاً هى ألف كذلك .

وعندما هدَّدَ عامر بن الطفيل رسول الله ﷺ بغزو المدينة ، قال له :

(أو أغزوك غطفان بألف أشقر وألف شقراء) (٢) فهو يريد أن يجمع عامر وغطفان حتى يغزوه بهذا العدد ، لكن كل هذا العدد الضخم والأعداد الضخمة من بنى سليم لم ترتفع إلى مستوى الطبقة الأولى من أسلم وأشجع ومزينة وجهينة وغفار وقريش والانصار ، وإن كان رسول الله ﷺ قد أكرمهم وجعلهم مقدمته ، وباهى بهم عيينة بن حصن سيد بنى غطفان ، وعباس سيد بنى سليم وقائدها ، كان يتأرجح بين المؤلفة قلوبهم وبين المهاجرين ، فقد غضب عندما رأى الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يأخذان أكثر منه من غنائم حنين ، وراح يقيس نفسه بهما .

قال ابن إسحاق : وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها فعاتب فيها رسول الله ﷺ فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

كانت نهاباً (٣) تلافيتها	بكزى على المهر فى الأجرع (٤)
وإيقاظى القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أمجع
فأصبح نهبى ونهب العُيُود (٥)	بين عيينة والأقعر
وقد كنت فى الحرب ذا تدراً (٦)	فلم أعط شيئاً ولم أمنع
إلا أفائل (٧) أعطيتها	عديد قوائمها الأربع (٨)
وما كان حصن (٩) ولا حابس (١٠)	يفوقان شيخى (١١) فى المجمع

(٢) البخارى ، ك المغارى ب غزوة الرجيع ٤٢/٥ ، ٤٣ .

(٤) الأجرع : المكان السهل .

(٦) ذا تدراً : ذا دفع عن قومى .

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٨٠٠ .

(٣) نهاب : جمع نهب وهو ما ينهب .

(٥) العُيُود : فرس العباس بن مرداس .

(٧) الأفائل : الصغار من الإبل .

(٨) يقال : إنه أعطى أربعة من الإبل ، كما فى رواية ابن سعد فى الطبقات .

(٩) حصن : أبو عيينة .

(١١) شيخى : هو مرداس أبوه ، وفى رواية : يفوقان مرداس فى المجمع .

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال ابن إسحاق: (فقال رسول الله ﷺ « اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه » . فأعطوه حتى رضى ، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله ﷺ) (١) .

وفى رواية :

(لما أعطى النبى ﷺ المؤلفلة قلوبهم يوم حنين مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيننة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنت إلا امرءاً منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

العبيد اسم فرسه ، وحصن الذى ذكره هو أبو عيننة بن حصن بن حذيفة بن بدر سيد فزارة ، وحابس أبو الأقرع بن حابس وقد تقدم نسبه فأمر النبى ﷺ بإحضاره فقال: أنت القتال :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيننة والأقرع

وكان النبى ﷺ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس : ٦٩] ، فقال : « قم يا على فاقطع لسانه » ، قال العباس : فقلت : يا على ، وإنك لقاطع لسانى ؟ فقال : إنى ممض فىك ما أمرت ، فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر فقال : اعتد ما بين الأربعين إلى المائة ، قلت : بأبى أنت وأمى ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم ، فقال : إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعين وجعلك من المهاجرين ، فإن شئت فخذها ، وإن شئت فخذ مائة وكن من المؤلفلة قلوبهم ، فقال : أشر على ، قال : إنى أمرك أن تأخذ ما أعطاك ، فأخذتها (٢) .

ونعود بعد هؤلاء الرواد الخمسين الذين قادوا قومهم إلى الإسلام وكانوا نواة حزب الله فى الأرض ونواة جيش الفتح الذى بلغ عشرة آلاف إلى ثلاثة من القادة، حضر منهم اثنان غزوة الفتح، ولم تشر الروايات إلى حضور الثالث، وهم قادة أكبر قبائل العرب، وهم :

١- عيننة بن حصن : سيد بنى غطفان .

٢- الأقرع بن حابس : سيد بنى تميم .

٣- علقمة بن علاثة : سيد بنى عامر .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٩٣ ، ٤٩٤ . (٢) زهر الآداب للحصرى القيروانى ٣/ ٦١٩ .

لقد أسلم هؤلاء القادة الثلاثة، ولم يحضر قومهم غزوة الفتح ، حضروا بأشخاصهم إلا نفرًا يسيرًا منهم ، ولم يصلوا إلى مستوى الرعيلى الأول فقد بقوا من المؤلفة قلوبهم ، واعتبروا ممن أسلم بعد الفتح ، كما ذكر ابن إسحاق :

(وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرفًا من أشرف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة مائة بعير ، وأعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة بعير ، وأعطى مالك بن عوف النصرى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير) (١) .

وجميع هؤلاء قد أسلموا بعد فتح مكة ، ما عدا الأقرع ، وعيينة ، وأبى سفيان فقد ذكر إسلامهم قبل الفتح ، لكنهم عوملوا معاملة مسلمة الفتح ، وكانوا من الطبقة الرابعة من الأمة بعد طبقة بدر والحديبية ، ومن أسلم قبل الفتح .

وسنجد فيما بعد أن هؤلاء الثلاثة عيينة ، والأقرع ، وعلقمة يرتدون مع المرتدين ، ثم يسلمون ويحسن إسلامهم ، وحين نعود إلى القبائل التى دخلت فى حزب الله وشكلت طبقة جيل الفتح ، نحمد رسول الله ﷺ يقارنها مع هذه القبائل الكبار ، فيجعل القبائل الكبار بعدها فى الفضل والشرف ، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ أنه قال : « أسلم وغفار ومزينة ، ومن كان من جهينة أو جهينة خير من بنى تميم وبنى عامر ، والحليفين أسد وغطفان » (٢) ، وفى رواية : « ومن أسد وطى وغطفان » (٣) ، وفى رواية : « من أسد وغطفان وهوازن وتميم » (٤) ، وعامر جزء من هوازن ، وهذه القبائل هى التى شكلت الطبقة الأخيرة فى الأمة فيما بعد ، بل نجد فى ذلك حديثًا مرويًا عن الأقرع بن حابس ؓ أخرجه مسلم عن (عبد الرحمن بن أبى بكرة يحدث عن أبيه : أن الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة ، وأحسب جهينة (محمد - أحد الرواة - هو الذى شك) فقال رسول الله ﷺ : « أرايت إن كان أسلم وغفار ومزينة ، - وأحسب جهينة - خيرًا من بنى تميم وبنى عامر وأسد وغطفان أخابوا وخسروا ؟ » فقال : نعم ، قال : « فالذى نفسى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٣/٢ .

(٢) مسلم ١٩٥٥/٤ ح (٢٥٢١) .

(٣) المصدر نفسه ح (٢٥٢١ / ١٩١) .

(٤) المصدر نفسه ح (١٩٢ / ٢٥٢١) .

بيده إنهم لآخر (١) منهم » (٢) .

وهذه القبائل الأربعة هي أكبر القبائل المضرية ، أما طيئ فهي قبيلة من اليمانية ، وليست عدنانية لقد نأى هؤلاء القادة بقبائلهم عن الإسلام ، ولم يعلنوا الانضمام الكامل لهذا الدين إلا فى السنة التاسعة وبعد غزوة تبوك حيث كان عام الوفود ، وأوقفوا حرب رسول الله ﷺ بعد الحديبية إلا غطفان والتي استمرت فى حربها إلى قبيل الفتح .

أما سليم فقد سكت عنها رسول الله ﷺ ، وإن كان قد فخر بها على عيينة بن حصن حين قدمت فقال له : « يا عيينة ، هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والعدد » .

واحتمى بهم عليه الصلاة والسلام حين قال لهم :

« هل لكم فى رجل يعدل مائة يوفىكم ألفاً ؟ » فوفاهم بالضحاك .

وجعلهم ﷺ على مقدمته .

لقد تمكنت سليم أن تطوى الصفحة السابقة صفحة الحرب للإسلام وأهله ، وأن تفتح صفحة مشرقة جديدة ، صفحة الذود عن الإسلام وأهله ، وأن تتقدم بتسعمائة فارس يمثلون طلائع الجيش الإسلامى العظيم وتعلن ولاءها لله ورسوله ضد ولاء القبيلة والعشيرة على لسان شاعرها عباس بن مرداس ، قائلة :

(نذود أخانا عن أخينا ولو نرى مصالاً لكننا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد رضىنا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا وليس لأمر حمه الله دافع) (٣)

وانضم عباس شاعرهم وسيدهم إلى المهاجرين كما التحقت سليم بالمهاجرين ، لكنها لم تبلغ شأو السابقين من أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقريش ، والأنصار وأشجع، وبني كعب فى الولاء المحض لله ورسوله .

(١) لآخر منهم : هي لغة قليلة تكررت فى الأحاديث وأهل العربية ينكرونها ويقولون : الصواب : خير وشر ولا يقال : أخير ولا أشر ، ولا يقبل إنكارهم فهي لغة قليلة الاستعمال .

(٢) مسلم ١٩٥٦/٤ ح (٢٥٢٢) . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٤/٢ .

على طريق مكة : أحداث وتربية

١ - (وخرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر ، فما حلَّ عُدَّه حتى انتهى إلى الصلصل^(١)) ، وخرج المسلمون وقادوا الخيل وامتطوا الإبل ، وكانوا عشرة آلاف ، وقدم الرسول ﷺ أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين . . . وخرج رسول الله ﷺ من المدينة فنأى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر ، وصام رسول الله ﷺ ، قال : وحدثني مالك بن أنس عن سُمى مولى أبى بكر عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن رجل رأى رسول الله ﷺ بالعرج^(٢) يصب الماء على رأسه ووجهه من العطش . . .)^(٣) .

٢ - (فلما نزل رسول الله ﷺ العرج والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف ، فهم يحبون أن يعلموا ، فجلس في أصحابه بالعرج وهو يتحدث ، فقال كعب بن مالك : أتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه ثم قال :

قضينا من تهامة كل ريب	وخير ثم أجمنا ^(٤) السيوا
نسائلها ولو نطق لقلت	قواطعهن : دوساً أو ثقيفا
فلست لحاضر إن لم تروها	بساحة داركم منها ألوفاً
فنتزع الخيام بيطن وج ^(٥)	وتترك دورهم منهم خلوفاً

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بين لك رسول الله شيئاً ، ما ندرى بمن يبدى ؛ بقريش أو ثقيف أو هوازن^(٦) .
قال : حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال : لما نزل رسول الله ﷺ بَقْدِيد ، قيل : هل لك في بيض النساء وأدم الإبل ؟ فقال : إن الله حرمهما على بصلة الرحم ووكزه في لبأت الإبل) .

٣ - وعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : لما سار رسول الله ﷺ من العرج ،

(١) الصلصل : موضع على سبعة أميال من المدينة . (٢) العرج : موضع على أربعة وثمانين ميلاً من المدينة .
(٣) المغازى للواقدي ٨٠١/٢ . (٤) أجمنا السيوف : أرحناها .
(٥) بطن وج : واد بالطائف . (٦) المغازى للواقدي ٨٠٢/٢ .

فكان فيما بين العرج والطلوب^(١) نظر إلى كلبة تهرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له : جعيل بن سراقه أن يقوم حذاءها ، لا يعرض لها أحد من الجيش ولا أولادها^(٢) .

٤ - (قال : حدثني معاذ بن محمد عن عبد الله بن سعد قال : لما راح رسول الله ﷺ من العرج تقدمت أمامه جريدة^(٣) من خيل طليعة ، تكون أمام المسلمين ، فلما كانت بين العرج والطلوب أتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، رأينا حين طلعتنا عليه وهو على راحلته فتغيَّب عنا في وهدة^(٤) ، ثم جاء فأوفى على نشز^(٥) ، فقعده عليه ، فركضنا إليه فأراد أن يهرب منا ، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النشز وهو يغيبه^(٦) ، فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بنى غفار ، فقلنا : هم أهل هذا البلد ، فقلنا : من أي بنى غفار أنت ؟ فعبي^(٧) ولم ينفذ لنا نسباً ، فازددنا به ريبة ، وأسأنا به الظن ، فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريباً ، وأوماً بيده إلى ناحية ، قلنا : على أي ماء ، ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئاً ، فلما رأينا ما خلط ، قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنقك ، قال : فإن صدقتكم يتفنى ذلك عندهم ؟ قلنا : نعم ، قال : فإني رجل من هوازن من بنى نصر بعثني هوازن عينا وقالوا :

ائت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه ، أبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه ولا نراه إلا يستفورهم ، فإن خرج سائراً أو بعث بعثاً فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سرف^(٨) فإن كان يريدنا أولاً فيسلك في بطن سرف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يريد قريشاً فسيلزم الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : « وأين هوازن ؟ » قال : تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع ، وأجلبوا في العرب وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم ، فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجرش^(٩) في عمل الدبابات والمنجنيق ، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً ، قال رسول الله ﷺ : « وإلى من جعلوا أمرهم ؟ » قال : إلى فثاهم مالك بن عوف ، قال رسول الله ﷺ : « وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه مالك ؟ » قال : قد أبطأ من بنى عامر أهل الجدة والجلد ، قال : « من ؟ » قال : كعب وكلاب ، قال : « ما فعلت هلال ؟ » قال : ما أقل من

(١) الطلوب : ماء في الطريق بين مكة والمدينة . (٢) المغارى للواقدي ٢ / ٨٠٤ .

(٣) جريدة من الخيل : قطعة مختارة منها . (٤) وهدة : الأرض المنخفضة .

(٥) نشز : المكان المرتفع . (٦) يغيبه : يحاول إخفاءه .

(٧) فعبي : عجز عن الكلام والجواب .

(٨) بطن سرف : مكان يبعد ١٢ كم عن مكة وفيه قبر ميمونة رضي الله عنها .

(٩) الجرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة .

ضوى^(١) إليه منهم ، وقد مرت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان بن حرب ، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون ، فقال رسول الله ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا صدقنى » ، قال الرجل : فلينعنى ذلك ؟ فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه ، وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس ، فلما نزل العسكر مرَّ الظهران أفلت الرجل ، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه عند الأراك^(٢) وقال : لولا وليت عهداً لك لضربت عنقك ، وأخبر به رسول الله ﷺ فأمر به يحبس حتى يدخل مكة ، فلما دخل رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس^(٣) (٤) .

٥ - (قال أبو عبد الله : وقد سمعت فى إسلام أبى سفيان بن الحارث وجهاً آخر قال : لقيت رسول الله ﷺ أنا وعبد الله بن أبى أمية بنيق العقاب ، فطلبنا الدخول على رسول الله ﷺ ، فأبى يدخلهما عليه فكلمته أم سلمة زوجته فقالت : يا رسول الله صهرك وابن عمك وابن عمك وأخوك من الرضاعة ، وقد جاء الله بهما مسلمين ، لا يكونان أشقى الناس بك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لى بهما أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فالقائل لى بمكة ما قال : لن يؤمن لى حتى أرقى فى السماء » ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ﴾ إلى آخر الآية [الإسراء: ٩٣] ، فقالت : يا رسول الله إنما هو من قومك ما هو وقد تكلم وكل قریش قد تكلم ونزل القرآن فيه بعينه ، وقد عفوت عمن هو أعظم جرماً منه ، وابن عمك وقرابته وأنت أحق الناس عفواً عن جرمة فقال رسول الله ﷺ : « هو الذى هتك عرضى ، فلا حاجة لى بهما » ، فلما خرج إليهما الخبر قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابنه : والله ليقبلنى أو لاخذت بيد ابنى هذا فلاذهبن فى الأرض حتى أهلك جوعاً وعطشاً ، وأنت أحلم الناس وأكرم الناس مع رحمتك بك ، فبلغ رسول الله ﷺ مقالته فرقَّ له ، وقال عبد الله بن أبى أمية : إنما جئت لأصدقك ، ولى من القرابة ما لى والصهر بك ، وجعلت أم سلمة تكلمه فيهما ، فرقَّ رسول الله ﷺ لهما فدخلتا ، فأسلما (٥) .

ويقال : إن علياً علمه لما جاء ليسلم أن يأتى النبى ﷺ من قبل وجهه فيقول : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ... ﴾ الآية [يوسف : ٩١] ، ففعل فأجابه : ﴿ لَا تَقْرِبْ عَلَيْنَا ... ﴾

(١) ضوى : أوى واستجاب .

(٢) الأراك : موضع بعرفة .

(٣) أوطاس : واد بهوازن .

(٤) المغازى للواقدي ٢ / ٨١٠ ، ٨١١ .

الآية [يوسف : ٩٢] ، فأنشده أبو سفيان :

لعمرك إنى يوم أحمل راية ليغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى^(١)

٦- (وقدم العباس على رسول الله ﷺ مسلماً ، قال ابن هشام : لقيه بالجحفة^(٢) ، فأرسل ثقله إلى المدينة وسار مع رسول الله ﷺ ، قال البلاذرى : وقال رسول الله ﷺ : « هجرتك يا عم آخر هجرة ، كما أن نبوتى آخر نبوة »)^(٣) .

٧- (روى مسلم والترمذى عن جابر ، والشيخان وأبو داود والنسائى والطحاوى عن ابن عباس رضيهما أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة فى غزوة الفتح فى رمضان يصوم ويصومون ، حتى بلغ الكديد^(٤) بين عسفان وقديد ، وفى رواية : بين عسفان وأمج ، وفى حديث جابر : كراع الغميم ، بلغه أن الناس شقَّ عليهم الصيام ، وقيل له : إنما ينظرون فيما فعلت ، فلما استوى على راحلته بعد العصر ، دعا بإناء من لبن أو ماء - وجزم جابر بأنه ماء - وكذا ابن عباس ، وفى رواية فوضعه على راحلته ليراه الناس ، فشرب فأفطر فتأوله رجلاً إلى جنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس صام فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر^(٥) .

(وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم » وكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا » فكانت عزيمة^(٦) .

٨- (روى البيهقى عن ابن شهاب رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله ، أرانى فى المنام ، وأراك دنونا من مكة ، فخرجت إلينا كلبة تهراً فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هى تشخب لبناً ، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب كلبهم ، وأقبل دَرُهُم ، وهم سيأوون بأرحامهم وإنكم لا قون بعضهم فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه »)^(٧) .

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٨٦/٦/٤ ت ٥٣٥ .

(٢) الجحفة : فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة ، تبعد ١٥٠ ميلاً عن المدينة .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣٢٣/٥ . (٤) الكديد : تبعد عن مكة ٩٠ كم .

(٥) المصدر نفسه ٣٢٣/٥ ، ٣٢٤ وهى عند البخارى ١٨٥/٥/٢ ، ١٨٦ وعند مسلم ٧٨٥/٢ ح (١١١٣) ، ١١١٤/٨٨ ، ٩٠ .

(٦) سبل الهدى والرشاد ٢٢٢/٥ ، وهى عند مسلم ٧٨٩/٢ ح (١٠٢/١١٢٠) .

(٧) سبل الهدى والرشاد ٣٢٥/٥ .

(وفي رواية الواقدي : « ذهب كلُّهم ، وأقبل درهم ، سائلوكم بأرحامهم ، وأنتم لا قون بعضهم فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ») (١) .

٩ - (ونزل رسول الله ﷺ من الظهران^(٢) عشاءً ، وأمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ، قال عروة كما عند ابن عائذ وبه جزم ابن عقبة وابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهم : وعميت الأخبار عن قريش فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل ، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم) (٣) .

١٠ - (أخرج البيهقي عن أبي الوليد سعيد بن مينا قال : لما فرغ أهل مؤتة ورجعوا أمرهم رسول الله ﷺ بالسير إلى مكة ، فلما انتهى إلى مر الظهران نزل بالعقبة وأرسل الجناة^(٤) يجتنون الكباث^(٥) ، فقلت لسعيد : وما هو ؟ قال : ثمر الأراك ، فانطلق ابن مسعود فيمن يجتنى فجعل الرجل إذا أصاب حبة طيبة قذفها في فيه ، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقى ابن مسعود ، وهو يرقى في الشجرة فيضحكون فقال رسول الله ﷺ : « تعجبون من دقة ساقيه فوالذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد »^(٦) كان ابن مسعود ما اجتنى من شيء جاء به وخياره فيه إلى رسول الله ﷺ فقال :

هذا جناى وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ نجتنى الكباث وأن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالأسود منه فإنه أطيب » قالوا : كنت ترعى الغنم ؟ قال : « نعم وهل من نبي إلا قد رعاها »^(٧) وقال : إن ذلك كان يوم بدر^(٨) يوم الجمعة لثلاث عشرة بقت من رمضان ، رواه البخاري في الصحيح عن يحيى بن بكير مختصراً لم يذكر التاريخ فيه) (٩) .

* * *

- (١) المغارى للواقدي ١١٢/٢ .
 (٢) مر الظهران : تبعد عن مكة ثلاثة عشر ميلاً .
 (٣) سبل الهدى والرشاد ٢٢٤/٥ .
 (٤) الجناة : الذين يقطعون الثمر .
 (٥) الكباث : وفي فتح الباري ٥٧٦/٩ قال ابن التين : ثمر الأراك الغض منه ، والبربر ثمره الرطب واليابس ... قال أبو زياد : يشبه الثين يأكله الناس والإبل والغنم ، وقال أبو عمرو : هو حار كان فيه ملحاً .
 (٦) المستدرک للحاكم ٣١٧/٣ وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي .
 (٧) حتى هنا هو عند البخاري باب الأطعمة ٥٧٥/٩ ، ٥٧٦ ح (٥٤٥٣) من فتح الباري .
 (٨) لاشك في خطأ الرواية إذ هي الفتح وليس بدرًا ؛ لأن المسلمين لم يكونوا في هذا المكان إلا في غزوة الفتح ، وهو ذهل من الراوى ، وبدر كانت قرب البئر المعروف بين مكة والمدينة ولا كباث هناك .
 (٩) دلائل النبوة للبيهقي ٢٩/٥ .

لقد كان خروج رسول الله ﷺ من المدينة في العاشر من رمضان ، وها هو على أبواب مكة في السابع عشر منه لثلاث عشر خلون منه كما في الرواية السابقة ، وكان فتح مكة وغزوة حنين وغزوة الطائف والعودة من الطائف وعمرة الجعرانة وتوزيع غنائم حنين والعودة إلى المدينة حيث وصلها كما ذكر الواقدي (وقدم رسول الله ﷺ يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة)^(١) ، أى في السابع والعشرين منها ، وهذا يعنى أن هذه الرحلة والرفقة مع سيد الثقلين محمد ﷺ قد استغرقت شهرين ونصف ، لهؤلاء الآلاف العشرة ، فكانت عملية تربية خالدة لهذه القاعدة العريضة مع سيدها وقائدها محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن كانت عملية التربية مع الرواد الأوائل الذين ذكرناهم ، واستغرقت تلك التربية الأولى حوالى السنتين منذ صلح الحديبية وفتح خيبر وذلك في نهاية السنة السادسة ، هاتان السنتان كان منهما دورة تدريبية خاصة على أعلى مستويات التربية في الوجود ، رعاها رسول الله ﷺ والمسلمون بين يدي قائدهم ، وليسوا مقيمين داخل البيوت والقصور والأبنية إنما هم في الصحراء أو في مكة أو في الجبال والأودية حيث كانت حنين ، أو على أسوار الطائف حيث كانت غزوة ثقيف ، في غزوة فيها من المشقة والعسر والظنك والتدريب العنيف والمواقف والأحداث ما يكون كافياً لانصهار هذا الجيل واستحقاقه أن يمثل القاعدة العريضة لحزب الله ، وسنقف مع الفقرات السابقة التي عرضنا لها من أحداث وأشخاص ومواقف تبرز دور التربية وعظمتها لهذا الجيل الجديد الفريد .

١ - لقد كان أمر رسول الله ﷺ الذي وجهه للقواعد الإسلامية المنتشرة في القبائل أمراً واضحاً محدداً (فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية ومن حولهم من المسلمين : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، وبعث رسولا في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ - أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع - وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقيته بالقديد وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة)^(٢) .

وجاء المسلمون من كل فج يلبون دعوة رسول الله ﷺ ، وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على أن يحضر هذه الدورة التربوية العامة كل من دخل في الإسلام خلال هذه المرحلة ، ويريد أن يواجه بهم قريشاً التي حادث الله ورسوله ونقضت العهد ونكثت وغدرت بعونها لبكر على خزاعة .

ورمضان هو شهر الصوم ، وكان بالإمكان تأجيل افتتاح هذه الدورة وبتأجيلها حتى ينتهى الصوم في شهر رمضان ؛ لحرمة الشهر والصوم فرض على المسلمين ، ولضمان

(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٧٩٩ .

(١) المغازي للواقدي ٣/ ٩٦٠ .

القدرة عليه من المسلمين فى كل مكان، لكن الأوامر كانت من الصراحة والوضوح بحيث
توجب على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر رمضان بالمدينة .

والمعنى الرئيسى من هذه الدعوة بهذه السرعة هو أن عملية الثأر للدماء المراقبة لا يمكن
أن تؤجل ، فسرعة الحركة والقدرة على الرد أمران ضروريان لحماية السمعة السياسية
لرسول الله ﷺ فى قبائل العرب المجاورة المنتشرة فى دنيا العرب ، وتأجيل الرد على هذا
النكت قد يفتح المجال لتحالفات جديدة بين مكة والأعداء المجاورين وتهدى فرصة التعبئة
للمواجهة، فقد كانت هوازن تعد العدة للغزو ولو خططت لذلك مع مكة وخصوصاً بعد
عودة أبى سفيان من المدينة لكانت هناك صعوبة قد تبلغ حد الاستحالة فى فتح مكة ،
وتدرب المسلمون من هذا النداء على الجدية الخالصة والسرعة اللازمة فى الحركة ولو كان
ذلك فى رمضان شهر الصوم ، والذى لا يحتمل فى الحالة العادية التحركات العسكرية
الضخمة .

ولعل المعنى الثانى من حضور رمضان فى المدينة هو ربط العبادة بالجهاد لهذا الجليل
الجديد ، والتعرف على الأولويات لهذا الدين فصيام رمضان فرض ، والجهاد فى سبيل
الله فرض ، لكن الظروف الصعبة ، والمحن الضخمة قد تقدم فرض الجهاد على فرض
الصيام حين يتم التعارض فى ذلك ، وأن يأتى هذا الجليل ليصوم رمضان مع قائده ويتعرف
على آداب الصيام وفضائله ويعيش هذا الجو الروحانى مع قائده عليه الصلاة والسلام هو
هدف مهم كذلك فى تحديد هذا اللقاء والبداية فيه ، وأمضى المسلمون بضعة أيام من
رمضان فى المدينة ، وشهدوا هذا الجو الروحانى العظيم فى صيامهم وسجودهم وفطورهم
مع قائدهم العظيم فى عاصمة الإسلام الأولى فى الوجود فى المدينة المنورة ، وتم التقاء
الجيل الرائد بالجيل الجديد ، وتم التعرف والاختلاط والتعايش بين الجيلين بحيث أصبح
المسلمون أسرة واحدة ، ولو لم يكن فى هذه الدورة إلا هذه الأيام القلائل التى اجتمعت
فيها هذه الآلاف المؤلفة ولأول مرة فى التاريخ يفطرون فى وقت واحد ، ويمسكون فى
وقت واحد ، ويؤدون العبادات فى المسجد والمساجد المجاورة فى وقت واحد لكان من
حضرها من أسعد الناس فى التاريخ ، فكيف إذا كانت الدورة ليست عشرة أيام بل قرابة
ثمانين يوماً مع رسول الله صلوات الله عليه .

إن الدعاة إلى الإسلام اليوم ينتهزون فرصة قدوم رمضان ؛ ليقيموا حفلاً جماعياً فى
إفطار مشترك لعشرة من الشباب أو أكثر حد على مستوى العشرات ، ويدعون الموجهين
ليشاركوا فى هذا الحفل البهيج ، وتبقى آثار هذا المهرجان خالدة فى نفوسهم يتغذون من
حقيقتها طيلة العام كله ، وحين نسمع عند هؤلاء الدعاة عن المؤتمرات العامة التى يحضرها

المئات والآلاف ويصل بعضها إلى عشرات الآلاف حيث يستمر المؤتمر ثلاثة أيام أو أربعة ، ويتناولون الفطور المشترك والغداء المشترك والعشاء المشترك ، ويوجهون الدعوات إلى كبار العلماء والدعاة ليشاركوهم مؤتمرهم هذا ، ويتفرغون للندوات والمحاضرات وليألى السمر والتوجيه الطيب بأخذ الفرد زاده من هذا المؤتمر فى أوربا وأمريكا إلى العام كله ، أما الإعداد للمؤتمر فقد يأخذ من جهة الجمعيات الإسلامية أشهراً كاملة لضبطه وإنجاحه ، فكيف بنا بهذا المؤتمر الذى اقترب من عشرة آلاف .

وابتدأ فى رمضان فى عمليات الصوم الجماعى والإفطار الجماعى ، وعلى رأس هذا المؤتمر سيد الخلق وإمام الوجود وصحبه من الجيل الإسلامى الرائد الذين صاغهم عليه الصلاة والسلام وكونهم بيده الشريفة ورعاهم وهم نباتات صغار حتى استغلظ الواحد منهم واستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيب بهم الكفار . هذا الجيل الرائد هو الذى يشرف على تربية هذا الجيل القديم الذى جاء من كل فج عميق ومن أعماق البادية ومن كل حذب وصوب ليحضر رمضان بالمدينة .

٢ - بداية التحرك ، يحضر هذا الجيل كله بالآلاف المؤلفة والذى يدرية هو أنه ماضٍ إلى معركة ، لكنه لا يعرف أين هذه المعركة وصدرت الأوامر النبوية لهذا الجيل الذى سيمضى غداً تحت لهب الشمس وفى أتون الصحراء وفى مرجل الرمل المحرق تصدر الأوامر له منذ بداية التحرك .

(وخرج رسول الله ﷺ من المدينة فنادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر ، وصام رسول الله ﷺ ...) (١) .

لقد كان الصوم اختيارياً فى هذا التحرك ولم يكن إجباراً أما رسول الله ﷺ فقد صام وأكثر المسلمون كانوا على صيامه والمفطرون يأخذون بالاختيار المتاح لهم دون حرج وكان أول منزل لرسول الله ﷺ بهذا الجيش بعد قرابة مائة وخمسين كيلو متراً من المدينة فى العُرج ، ولا يزال المسلمون يتابعون صومهم والمفطرون يفطرون ورسول الله ﷺ على راحلته والمسلمون جميعاً يرونه (وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن رجل رأى رسول الله ﷺ بالعُرج يصب الماء على رأسه ووجهه من العطش) ، فهو يعانى فى ذاته الشريفة من الجوع والعطش ما يعانون ، ويتزلون فى هذا الموقع والماء والطعام هو أشهى ما يكون مع هذه الراحة ، ويترك الأمر لكل مسلم باختياره ودون أى إثم يقع عليه لو أفطر ، ومع ذلك فالكثير من المسلمين يصومون بصوم رسول الله ﷺ .

ولا تزال الألوية والرايات والأسلحة الثقيلة كلها مطوية ، وإنما أمام المسلمين جريدة

(١) المغازى للواقدي ١/٢٠٨ .

من خيل طليعة تشق الطريق للمسلمين وتحرسهم من أى غدر أو هجوم قد يقع عليهم ، بل صورة هذه الآلاف المؤلفة أنها ليست ماضية إلى الحرب والمواجهة (وخرج المسلمون فقادوا الخيل وامتطوا الإبل ، وقدم رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فى مائتين من المسلمين)^(١) وقد رأينا من قبل أن خيل المسلمين كانت قرابة الآلف هنا فلم تنضم لهم بنو سليم بعد والمسلمون بالآلفهم يتشوقون للتعرف على طبيعة المعركة القادمة وساحتها وجهتها ومع من ، وراحوا يسألون قياداتهم ورؤساء أركانهم ووزارة الإعلام المسؤولة عن الإعلام عن المعركة لكن دون جدوى ، وكانت المحاولة التى سبق وتحدثنا عنها والتى قام فيها كعب بن مالك رضي الله عنه رجل الإعلام الثانى بعد حسان رضي الله عنه فقال : (أتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه ، فجاء كعب فبرك بين يدى رسول الله ﷺ على ركبته ثم قال :

قضينا من تهامة كل ريب	وخير ثم أجمنا السيوف
نسائلها ولو نطقنا لقات	قواطعهن دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاضر إن لم تروها	بساحة داركم منها ألوف
فنتزع الخيام بيطن وج	ونترك دورهم منهم خلوف

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بين لك رسول الله ﷺ شيئاً ، ما ندرى بمن يبدى بقريش أو ثقيف أو هوازن)^(٢) .

ويبقى الجيش يتحرق ليتعرف على وجهة رسول الله ﷺ ، لكن السرية كانت تقتضى إخفاء ذلك ، وكل هذه الاحتمالات قائمة ثقيف وهوازن ودوس ومكة ، ولا تزال التوجيهات تقتضى حتى بعد انتهاء المرحلة الأولى من الاستراحة بالمحافظة على كل مظاهر القوة العسكرية وعدم إبدائها ، والمحافظة على امتطاء الإبل وقيادة الخيل وإخفاء الأسلحة الكبيرة ، والجيش كله ملتزم بالأوامر الصادرة ولم يحفل بمخالفة واحدة ، أو احتجاج أو تدمير أو عصيان إنما يتربى على يدى قائده فى تنفيذ كل ما يأمر به .

٣- انضمام عيينة بن حصن ، وهو الذى يدور مع القوة حيث تدور ، فهو دائماً مع الحصان الغالب ، وحينما رأى رياح محمد ﷺ تهب لا يقف أمامها شيء حتى رأسه للعاصفة (وكان فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهاً وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج فى نفر من قومه حتى قدم المدينة ، فوجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبه فسبق إلى العرج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال : يا رسول الله ، بلغنى خروجك ومن يجتمع إليك ، فأقبلت سريعاً ولم أشعر

(٢) المغازى للواقدي ٢/ ٨٠٢ .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٠١ .

فاجمع قومي فيكون لنا جلبة كثيرة ، ولست أرى هيئة حرب لا أرى ألوية ولا رايات ، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيئة الإحرام فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » (١) .

لقد كان وجود عيينة بن حصن في جيش الفتح وجوداً رمزياً وإعلان استسلام غطفان ، العدو اللدود خلال ثمانية أعوام ، وانضمامه إلى رسول الله ﷺ ولم يكن معه إلا نفر قليل من قومه .

ومن أجل هذا عندما نشرت الألوية والرايات في قُديد كاد يتميز غيظاً أن يجد الجميع قد سبقوه إلى الإسلام :

(فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عرض على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله) (٢) .

٤- التحرك الثاني إلى قديد : وقد حفل هذا التحرك بحدثين صغيرين في حجمهما كبيرين في دلالتهما :

أ- الحدث الأول : الكلبة التي واجهت المسلمين في طريقهم :

فعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : لما سار رسول الله ﷺ من العرج فكان فيما بين العرج والطلبوب نظر إلى كلبة تهرّ على أولادها وهم حولها يرضعونها ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له : جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها لا يعرض لها أحد من الجيش ولا أولادها .

هذا الاحترام للبهيمة يتربى هذا الجيل عليه حيث يبعث رسول الله ﷺ من يحمى هذه الكلبة التي كانت ترضع أولادها وتهر خوفاً عليهم وإعلاماً بوجودها فلا يعتدون عليها .

إنا لنذكر مع هذه الحادثة ذلك التراحم العجيب الذي ذكره القرآن حين علم سليمان ﷺ منطق الطير والحيوان ، حيث وقفت ثملة تخطب في قومها قائلة : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) فَبَسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٩) [النمل] .

وعلى خط الجيش الإسلامي الأول الذي يقوده سليمان عليه الصلاة والسلام يمضي

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٤ .

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٨٠٣ .

الجيش الثانى الذى يقوده محمد عليه الصلاة والسلام فتأتى الكلبة تهر محذرة الجيش من الاعتداء عليها مستغيثة بمحمد عليه الصلاة والسلام أن لا يؤذوها ، فيستجيب لها قائد الجيش ويبعث أحد جنوده حماية لها ولأولادها من الاعتداء ، وهى مصرة على البقاء فى الطريق ومتاكدة من الحماية النبوية لها فى لغة قد ألقتها لرسول الوجود كله إنسه وجنه وطيره وبهائمه ، فأصدر أوامره عليه الصلاة والسلام أن لا يعرض أحد لها بسوء .

ب- أما الحدث الثانى فهو العين من هوازن ، هو فرد واحد مهمته أن يحقق الهزيمة بجيش كامل ، وكان هذا دور الخيالة الطليعة بأن تكشف الطريق ، وترتاد المجهول وتعرف المتربصين والمماكرين ، وقد كانت يقظتهم بحيث رأوا تحركاته المشبوهة وقدموه للقيادة النبوية (رأيناه حين طلعا عليه وهو على راحلته ، فتغيب عنا فى وهدة ، ثم جاء فأوفى على نشز فقعد عليه فركضنا إليه فأراد أن يهرب منا وإذا بعيره قد عقله أسفل من النشز وهو يغيبه) ، فقد كان متقناً لمهمته تماماً بحيث يشرف على الجيش كله ويشهد عدده وتحركاته وسلاحه وخيله فيغيب فى الوادى ليضيع على المسلمين ، ثم يأخذ مكاناً عالياً يطل عليهم ويغيب جملة فى الوادى حتى لا يكشفه ، وقبضت عليه المخابرات النبوية وراحت تجرى التحقيق الأول معه .

(فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بنى غفار ، فقلنا : هم أهل هذا البلد ، فقلنا : من أى غفار أنت ؟ فعبى ولم ينفذ لنا نسباً ، فازددنا به ريبة وأسأنا به الظن فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريباً وأوماً بيده إلى ناحية ، قلنا : على أى ماء ، ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئاً) ، وليس من الصعوبة بمكان على المسلمين أن يتحققوا من هويته ، فمعهم من غفار قرابة خمسمائة ، ولا بد أن يتعرفوا عليه ، لكن هذا الأمر يلجأ إليه حين الثبوت من صحة كلامه ، لكنه منذ السؤال الأول راح يتلعثم فى الإجابة ولم يتمكن من الانتساب إلى أى قبيلة أو بطن من بطون غفار كما أنه لم يعرف من أرضهم ومائهم أى اسم . (فلما رأيناه خلط قلنا : لتصدقنا أو لنضرين عنقك ، قال : فإن صدقتكم ينفعنى ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم ، فقال : فإنى رجل من هوازن ومن بنى نصر بعثنى هوازن عيناً) .

وبهذا الاعتراف وقع فى يد المسلمين بعد التهديد الذى وجه إليه ، وراح يعد الخطة الكاملة التى كلف بها من هوازن : (اتت المدينة حتى تلقى محمداً فاستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه ، أبعث إلى قريش بعثاً أو يقودهم بنفسه ولا نراه إلا يستفورهم ، فإن خرج سائراً أو بعث بعثاً فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يخرج إلينا وإن كان يريد قريشاً فسيلزم الطريق) .

هذه هي المعلومات المكلف بالحصول عليها ، وقد كان يماشى الجيش ، فهو يخشى أن يدخل فيه ويكشف أمره ، فكان يسابق حركة الجيش ، وهنا ندرك عظمة السرية التي حافظ عليها رسول الله ﷺ حتى بعد ١٥٠ كم من خروجه من المدينة ، ولم يتمكن أحد من التعرف على مكان اتجابهه ، وأبيات كعب قد بثت الذعر في قلب دوس وهوازن وثقيف إن كانوا هم المقصودون كما موّهت على الخروج الرئيسي نحو مكة ، ولم ينف عليه الصلاة والسلام ولم يثبت إنما اكتفى بالابتسامة التي يلقي بها صحبه ، وجاء دور التحقيق النبوى مع عين هوازن .

(فقال رسول الله ﷺ : وأين هوازن ؟ قال : تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع وأجلبوا في العرب ، ويعثوا إلى ثقيف فأجابتهم فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعوا الجموع ، ويعثوا إلى الجرش في عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جميعاً) .

وأفرغ الجاسوس كل ما في جعبته من معلومات ، كان رسول الله ﷺ يشك فيها ، وتأكد له أن هوازن معدة لحربه بالتواطؤ مع ثقيف وراح ﷺ يتابع الأمور الدقيقة في هذه التجمعات (« وإلى من جعلوا أمرهم ؟ » .

- إلى فتاهم مالك بن عوف النصري .

- « وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه مالك بن عوف ؟ » .

- قد أبطأ من بنى عامر أهل الجد والجلد .

- « قال : من ؟ » .

- قال : كعب وكلاب .

- قال : « ما فعلت هلال ؟ » .

- قال : ما أقل من ضوى إليه منهم) .

وها هو الجاسوس يقدم معلومات جديدة عن كل ما عنده حتى يسلم بروحه ولا تطير عنقه من جسده ، (قال : وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان ابن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أراه إلا قد صدقني ، حسبنا الله ونعم الوكيل » .

- فلينفعن ذلك .

- فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه .

وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس، فلما نزل العسكر من الظهران أفلت الرجل، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه عند الأراك، قال: لولا وليت عهداً لضربت عنقك، وأخبر به رسول الله ﷺ فأمر به فحبس حتى يدخل مكة، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، فدعاه إلى الإسلام، فأسلم ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس (١).

وهكذا غدت المعلومات لسيد القادة ﷺ عن عدوه واضحة جلية في كل شيء بينما كانت معلومات عدوه عنه معممة لا يعرفون عنه أى شيء، وتلقى القادة الكبار في جيش الفتح هذا الدرس العظيم في الحرب بأن قوة الجيش بما لديه من معلومات عن عدوه، وضعف العدو بما يجهل من معلومات عن الجيش المسلم.

٥- كما انضم قائد جديد هو الأقرب بن حابس سيد بنى تميم بعد في السقيّا (٢) وقبل قُديد مع عشرة من قومه، ومثّل اشتراكاً رمزياً لبنى تميم في الجيش الإسلامى، وتميم أكبر قبائل العرب كما يقول الشاعر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وللاستفادة السياسية من هذه الظاهرة أمام قريش ولوجود سيد غطفان عينة وسيد بنى تميم الأقرب في هذا الجيش، وحتى تستسلم قريش وتعلم أن لا طاقة لها بمحمد وصحبه سُخرت هذه الظاهرة لذلك، فإذا كانت لا تقيم وزناً لهذه القبائل الصغرى المنضمة للجيش، كما سيظهر فيما بعد من أبى سفيان فهي تعلم أن غطفان و تميم بالنسبة لمضر أكبر هذه القبائل.

فقد كانت العرب تطلق على بكر و تميم الجُفَّان (٣) لكثرة عددهما، كما كانت تعتبر غطفان من الجماجم العشرة، و تميم كذلك (٤)، ويسمى ابن حزم تميم بقوله: وهى قاعدة من أكبر قواعد العرب (٥).

من أجل هذه الظاهرة ولتوظيفها التوظيف السياسى المطلوب (دخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرب وعينة (٦).

٦- لكن أهم من هذه المظاهر جميعاً هو انضمام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة إلى الجيش الإسلامى وهما من سادة قريش وأعيانها وهذا هو سجل أبى سفيان فى الجاهلية:

(كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة،

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٠٥.

(٢) السقيّا: على بعد مائة وثمان أميال من مكة المكرمة.

(٣) الجُفَّ: العدد الكثير.

(٤) جهمرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٨٧.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٧.

(٦) المغازى للواقدي ٢/ ٨٠٤.

أرضعته حليمة أياماً ، وكان يألف رسول الله ﷺ وكان له تربياً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ولم يكن دخل الشعب ، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه ، وهجا حسان فقال :

ألا مبلغ حسان عنى رسالة فخلتُك من شر الرجال الصعالك
أبوك أبو سوء وخالك مثله فلست بخير من أبيك وخالك

فقال المسلمون لحسان : اهجه ، قال : لا أفعل حتى أستاذن رسول الله ﷺ ، فسأل رسول الله فقال : « كيف آذن لك في ابن عمي أخى أبى ؟ » قال : أسلُك منه كما تُسلُّ الشعرة من العجين فقال حسان شعراً ، وأمره رسول الله ﷺ أن يذكر أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعض ذلك فذاكره ، قال : فمكث أبو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه (١) ، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ .

هذه هي الصفحة الأولى وأبو سفيان بن الحارث نفسه الذي وجّه حسان له رسالة شعرية قال له فيها :

ألا أبلغ أبا سفيان عنا بأن سيوفنا تركتك عبداً
مغلغلة فقصد برح الخفاء هجوت محمداً وأجبتُ عنه
وعبد الدار ساداتها الإماء أنهجوه ولست له بكفاء
وعند الله في ذاك الجزاء هجوت مباركاً برأ حنيفاً
فشركما لخيركما الفداء فإن أبى ووالده وعرضى
أمين الله شيمته الوفاء لسانى صارم لا عيب فيه
لعرض محمد منكم وقاء وبحرى لا تكدره الدلاء (٢)

(ثم إن الله ألقى في قلبه الإسلام ، قال أبو سفيان : من أصحب ومع من أكون ؟ قد ضرب الإسلام بجرانه فجئت زوجتى وولدى فقلت : تهيؤوا للخروج فقد أظلم قدوم محمد عليكم ، قالوا : قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمداً وأنت موضع في عداوته وكنت أولى الناس بنصره ، فقلت لغلامى مذكور : عجّل بأبرة وفرس ، قال : ثم سرنا حتى نزلنا الأبواء (٣) ، وقد نزلت مقدمته الأبواء فتكرت وخفت أن أقتل وكان قد هدر دمي فخرجت وأجد ابني جعفر على قدمي نحواً من ميل في الغداة

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢م/٤٢٣ .

(١) المغازي للواقدي ٦/٢ : ٨٠ .

(٣) الأبواء : على بعد مائة وسبعة وعشرين ميلاً من المدينة .

التي صبح فيها رسول الله ﷺ الأبواء ، فأقبل الناس رسلاً رسلاً (١) ، فنخيت فرقاً من أصحابه ، فلما طلع مركبُهُ تصدّيت له تلقاء وجهه ، فلما ملأ عينيه مني أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى فتحوّلت إلى ناحية وجهه الأخرى وأعرض عني مراراً ، فأخذني ما قرب وما بعد ، وقلت : أنا مقتول قبل أن أصل إليه وأتذكر بره ورحمته وقرباتي فيمسك ذلك مني ، وكنت أظن أن رسول الله ﷺ يفرح بإسلامي فأسلمت وخرجت معه على هذه الحال حتى شهدت فتح مكة وحنين ، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف صلتاً ولم يعلم أنني أريد الموت دونه وهو ينظر إلى فقال العباس : يا رسول الله ، هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث فارض عنه ، قال : « قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عدانيها » ، ثم التفت إليّ فقال : « أخي لعمرى » فقبلتُ رجله في الركاب (٢) .

هذا أبو سفيان الذي قال عنه رسول الله ﷺ وعن أمثاله : « تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرهم له قبل أن يقع فيه » وفي رواية : « أشدهم له كراهية قبل أن يقع فيه » (٣) .

ويمثل هذا النمط لذلك رفيق أبي سفيان بن الحارث في إسلامه عبد الله بن أبي ربيعة الذي مثل أعظم تحدٍ وكراهية وتكذيب لرسول الله ﷺ قبل إسلامه .

(فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وهو ابن عمته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له :

يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك عند الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك عند الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - والله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله لو فعلت هذا ما أظن أنني أصدقك (٤) .

لقد كانت هذه الكلمة من أقسى ما لاقاه رسول الله ﷺ في حياته من ابن عمته ، ومن أجل هذا رفض رسول الله ﷺ ابتداء إسلامهما كما في رواية الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس :

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٤٩ ، ٥٠ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام م ١/٢٩٨ .

(١) رسلاً رسلاً : جماعات جماعات .

(٣) مسلم ٤/١٩٥٨ ح ٢٥٢٦ / ١٩٩ .

(وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بـثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك (١) فقال :

« لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال ، فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبى سفيان بن الحارث ابن له فقال : والله ليأذنن لى رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقى لهما فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه فقال :

لعمرك إنى يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لا كالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ونالنى	مع الله من طردت كل مطرد
أصد وأناى جاهداً عن محمد	وأدعى وإن لم أنتسب لمحمد
هُم ما هُم من لم يقل بهوهم	وإن كان ذا رأى يُلسم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلانط	مع القوم ما لم أهد فى كل مقعد

فذكروا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ : ومن طردت كل مطرد ، ضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال : « أنت طردت كل مطرد ؟ » (٢) .

أما كيف كان التحول العجيب لأبى سفيان بن الحارث فقد كان سببه (فإنه هرب وقدم على قيصر ملك الروم فقال : ممن أنت ؟ فانتسب له أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، قال قيصر : أنت ابن عم محمد إن كنت صادقاً ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : نعم : أنا ابن عمه ، فقلت : لا أرانى عند ملك الروم ، وقد هربت من الإسلام لا أعرف إلا بمحمد ، فدخلنى الإسلام وعرفت أن ما كنت فيه باطل من الشرك ، ولكننا كنا مع قوم أهل عقول باسقة وأرى فاضل الناس يعيشون فى عقولهم ورأيهم ، فسلكوا فجاً فسلكتناه ولمّا جعل أهل الشرف والسن يقتحمون عن محمد ، ويتصرون آلهتهم ويغضبون لأبائهم فاتبعناهم (٣) .

وكما أن عمرو بن العاص لقى مفتاح هدايته عند النجاشى ، فقد لقى أبا سفيان بن

(١) أم سلمة هى أخت عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، ومن هنا كان عبد الله صهره ، فهى زوجة رسول الله ﷺ .

(٢) دلائل النبوة لليهقى ٢٧/٥ ، ٢٨ وسنده صحيح . (٣) المغازى للواقدي ٨١١/٢ ، ٨١٢ (١٣) .

الحارث مفتاح هدايته عند قيصر ، حيث لم يعرف عنده إلا بمحمد وهو الهارب منه ، وكذلك فالذى دفع العظيمين لعداوة محمد ﷺ هو ثقتهم بعقول آبائهم وأشرافهم إذ يقول عمرو كما قال أبو سفيان :

(إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا من يوازي حلومهم الجبال ، فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا ، فإذا حق بين) (١) .

بقى عندنا أن نعرف أن هذا العدو الذى حارب الإسلام عشرين عاماً أو تزيد ، ما هو موقعه فى الإسلام ؟

نشهد ذلك من روايتين :

الأولى : ما رواه حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة » (٢) .

الثانية : (وكان رسول الله ﷺ يقول : « أبو سفيان أخى وخير أهلى ، وقد أعقبني الله من حمزة أبا سفيان بن الحارث » (٣) .

فكان يقال لأبى سفيان بعد ذلك أسد الله وأسد الرسول) (٤) .

ونودع أبا سفيان بن الحارث ﷺ هنا بهذه الحادثة :

وقال (وأتى أبو سفيان بن الحارث النبي ﷺ وابنه جعفر بن أبى سفيان معتمين ، فلما انتهيا إليه قالوا : السلام عليك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « أسفروا تُعرفوا » قال : فانتسبوا له وكشفوا عن وجوههم وقالوا : نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « أى مطرد طردتنى يا أبا سفيان ؟ » ، أو « متى طردتنى يا أبا سفيان ؟ » قال : لا تثريب يا رسول الله ؟ قال : « لا تثريب يا أبا سفيان » وقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : « بصر ابن عمك الوضوء والسنة ورح به إلى » ، قال : فراح به إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فنادى فى الناس : ألا إن الله ورسوله قد رضا عن أبى سفيان فارضوا عنه) (٥) .

٧- وبعد الأبناء حيث التقى رسول الله ﷺ بأبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة ، وصل عليه الصلاة والسلام إلى منتصف الطريق فى الجحفة والى تبعد ثلاثاً

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣ / ٥ / ٢ ت (٥٨٧٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٥ / ١ وقال فيه المحقق : رجاله ثقات ، لكنه مرسل كما قال الحافظ فى الإصابة ٨٦ / ٧ / ٤ ت (٥٣٥) .

(٣- ٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٢ / ٤ .

وعشرين ميلاً عن الأبواء ، كان لقاء رسول الله ﷺ مع عمه العباس الذى كان يمثل قلم استخباراته فى مكة وسفيره فيها ، وكانت مكة تعلم ذلك ، ولابد لنا أن نعرض إلى سجل العباس العظيم ﷺ فى خدمة هذا الدين رغم عدم إعلانه ذلك .

أ- عندما أراد رسول الله ﷺ أن يرتاد قبائل العرب بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، وبعد عودته من الطائف ، قال لعمه العباس :

(« لا أرى عندك ولا عند أخيك منعة ، فهل أنت مخرجى إلى السوق غداً حتى نفر فى منازل قبائل الناس » وكانت مجمع العرب قال فقلت : هذه كندة ولفها وهى أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل عامر بن صعصعة فاختر لنفسك ؟ قال : فبدأ بكندة فأتاهم (١) .

ب- (عن عويم بن ساعدة قال : لما قدمنا مكة قال لى سعد بن خيشمة ومعن بن عدى وعبد الله بن جبير : يا عويم انطلق بنا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنسلم عليه ، فإننا لم نره قط وقد آمنا به فخرجت معهم فقبل لى : هو فى منزل العباس بن عبد المطلب فرحنا إليه فسلمنا عليه ، وقلنا له : متى نلتقى ؟ فقال العباس بن عبد المطلب : إن معكم من قومكم وهو مخالف لكم ، فأخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج ونلتقى نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر ، فتدخلون على أمرين ...) (٢) ، فهو الناطق الرسمى باسم رسول الله ﷺ يحدد زمان ومكان اللقاء .

ج- (عن كعب بن مالك ﷺ قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ... حتى قدمنا مكة ... فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا : نعم ، قال : وكنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً - قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : « تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » قال : نعم : هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » قال : نعم (٣) ، وهو إذن المسؤول عن حمايته وإجارته ، (وكان أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين) (٤) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/٣/٢ ، وقد رواه عن الحافظ أبى نعيم ومغازى الأموى بسنده .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/٤ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٤٠/١/٣ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٤ .

د- وكان يثق به في أمره كله ، (أخبرنا محمد بن عمر عن عبيد بن يحيى بن معاذ ابن رفاعة بن رافع قال : فخرج القوم تلك الليلة ، ليلة النصر الأول بعد هذه يتسللون وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع ومعه العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد من الناس غيره ، وكان يثق به في أمره كله فلما اجتمعوا كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج - وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج - إنكم قد دعوتهم محمداً إلى ما دعوتهمو إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ، يمينه والله من كان منا على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤوا رأيكم واثمروا برأيكم ولا تفترقوا إلا عن ملائمتكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه ، وأخرى : صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم ؟ قال : فأسكت القوم فقال عبد الله بن عمرو بن حرام :

نحن والله أهل الحرب غدينا بها ، ومرتنا عليها ، وورثناها كابراً عن كابر ، نرمى بالنبل حتى تفتنى ، ثم نطاعن بالرماح حتى تنكسر الرماح ، ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا ، فقال العباس : أنتم أصحاب الحرب، فهل فيكم دروع ؟ قالوا : نعم شاملة ، وقال البراء بن معرور : إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما يُنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ (١) .

وهل هناك أخطر من البيعة على الإسلام والجهاد فيما يخص أمر المؤمنين ؟ حتى ليحضرها العباس من دون المؤمنين أجمعين ؟

هـ- وهو المسؤول عن الترتيبات الأمنية كاملة لهذا اللقاء .

(عن سفيان بن أبي العوجاء قال : حدثني من حضرهم تلك الليلة ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ وهو يقول : يا معشر الأنصار أخفوا جرسكم فإن عليكم عيوثاً ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون الذين يلون كلامنا منكم ، فإننا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفترقوا إلى مجالسكم واكتموا أمركم ، فإن طويتهم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرجال وأنتم لما بعد اليوم ، فقال البراء : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم ، وإظهار ما تحب أن نظهر ، وبذل مهج أنفسنا ، ورضا ربنا عنا، إنا أهل خلفه وافرة، وأهل منعة وعز ، وقد كنا على ما كنا عليه من عبادة حجر ونحن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٤ .

كذا فكيف بنا اليوم حين بصرنا الله ما أعمى على غيرنا وأيدنا بمحمد ﷺ ؟ ... (١) .

و- (وكان من أوائل من أسلم : فعن ابن عباس قال : قد كان من كان منا بمكة من بنى هاشم قد أسلموا فكانوا يكتمون إسلامهم ويخافون يظهرون ذلك فرقا من أن يشب عليهم أبو لهب وقريش فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وغيرهما ؛ فلذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر : « من لقي منكم العباس وطالبا وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين » (٢) .

فكتمان إسلامهم إذن توجيه نبوي خالص ، وليس دافعه الخوف على الذات .

ز- وأسر في بدر وحوسب حساب المشركين :

(عن عكرمة قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت ، فكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم إسلامه وكان ذا مال متفرق في قومه فخرج معهم إلى بدر وهم على ذلك) (٣) .

وعن مقسم أبي القاسم عن ابن عباس رضيهما قال : كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة ، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر : « كيف أسرت العباس يا أبا اليسر » ، فقال : يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد ، هيئته كذا ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أعانك عليه ملك كريم » (٤) .

عن محمد بن إسحاق قال : (حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما أمسى القوم يوم بدر والأسارى محبوسون في الوثاق فبات رسول الله ﷺ ساهراً أول ليله فقال له أصحابه : يا رسول الله ، مالك لا تنام ؟ قال : « سمعت أنين العباس في وثاقه » ، فقاموا إلى العباس فأطلقوه ، فنام رسول الله ﷺ) (٥) .

عن محمد بن إسحاق قال : (قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب حين انتهى به إلى المدينة : « يا عباس ، أقد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر فإنك ذو مال » قال : يا رسول الله ، إني كنت مسلماً ولكن القوم استكروني ، قال : « الله أعلم بإسلامك إن يك ما تذكر

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٤ .

(٤) المصدر نفسه ١٢/٤ .

(٢) (٣ ، ٤) المصدر نفسه ١٠/٤ .

(٥) المصدر نفسه ١٣/٤ .

حقاً فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك » ، وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب فقال العباس : يا رسول الله احسبها لى من فداى ، قال : « لا ، ذاك شىء أعطانا الله منك » ، قال : فإنه ليس لى مال ، قال : « فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا » ، قال : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه (١) .

ح - الهجرة الأولى : (أخبرنا على بن عيسى النوفلى عن إسحاق بن الفضل عن أشياخه ، قال عقيل للنبي ﷺ : من قتلت من أشرافهم أنحن فيهم ؟ قال : « قُتل أبو جهل » قال : الآن صفى لك الوادى ، وقال له عقيل : إنه لم يبق من أهل بيتك أحد إلا وقد أسلم ، قال : « فقل لهم: فليلحقوا بى » ، فلما أتاهم عقيل بهذه المقالة خرجوا وذكر أن العباس ونوفلاً وعقيلاً رجعوا إلى مكة أمروا بذلك ليقيموا ما كانوا يقيمون من أمر السقاية والرفادة والرياسة وذلك بعد موت أبى لهب ، وكانت السقاية والرفادة والرياسة فى الجاهلية فى بنى هاشم ، ثم هاجروا بعد إلى المدينة فقدموها بأولادهم وعيالهم (٢) .

ط - السفارة : (أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى ابن أبى سبرة عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال : أسلم العباس بمكة قبل بدر ، وأسلمت أم الفضل معه حيثئذ ، وكان مقامه بمكة إنه كان لا يغيب على رسول الله ﷺ بمكة خبراً إلا كتب به إليه ، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه ، وكان لهم عوناً على إسلامهم ، ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إن مقامك مجاهد حسن » ، فأقام بأمر رسول الله ﷺ (٣) ، فقد كان بمثابة سفير النبي ﷺ بمكة ، وأهل مكة يدركون ذلك ويعرفونه .

(وعن سهل بن سعد الساعدي قال : استأذن العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ فى الهجرة فقال له : « يا عم ، أقم مكانك الذى أنت به ، فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة ») (٤) .

ى - مناقبه : (وكان رسول الله ﷺ يعظمه ، ويكرمه بعد إسلامه ، وكان وصولاً

(٢) المصدر السابق ١٦/٤ ، ١٧ .

(١) الطبقات الكبرى ١٣/٤ ، ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ٣١/٤ .

(٤) أسد الغابة لابن الأثير ١٦٥/٣ . والحديث ضعيف لوجود إسماعيل بن قيس فى سنده كما فى فضائل الصحابة ٩٤١/٢ ح (١٨١٢) .

لأرحام قريش ، محسناً إليهم ، ذا رأى سديد ، وعقل غزير (١) ، قال النبي ﷺ له :

(« هذا العباس بن عبد المطلب أجد قريش كفاً وأوصلها » (٢) ، وقال : « هذا بقية آبائي » (٣) .

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﷺ مغضباً وأنا عنده ، فقال : ما أغضبك ؟ قال : يا رسول الله ، ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة وإذا لقونا لقونا بغير ذلك ، قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه ثم قال : « والذي نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحتكم لله ولرسوله » ثم قال : « أيها الناس ، من آذى عمى فقد آذانى ، فإنما عم الرجل صنو أبيه » (٤) .

ثلاثة قادة كبار من بنى هاشم وبنى المغيرة، انضموا إلى الجيش النبوى على الطريق، وغدا العباس بعد ذلك رفيقه الدائم .

(ولقيه العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل بالسقيا ، فدخل عليه العباس فلم يخرج حتى راح رسول الله ﷺ ، وكان ينزل معه فى كل منزل حتى دخل مكة) (٥) .

٨- ولما كانت الليلة التى نزل فيها بالجحفة ، كانت رؤيا الصديق رضوان الله عليه فى نومه للكلبة التى تنبج على المسلمين ، ثم استلقت وصمتت ، فعند الواقدي :

(ولما كانت الليلة التى نزل فيها بالجحفة رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ وأصحابه لما دنوا من مكة ، خرجت عليهم كلبة تهر فلما دنوا منها استلقت على ظهرها وإذا أطباؤها (٦) تشخب لبناً ، فذكرها أبو بكر فقال رسول الله ﷺ : « ذهب كلبهم وأقبل درهم ، والقوم سائلوكم بأرحامكم وأنتم لا قون بعضهم ، فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ») ، وهذه أول مرة يعلن رسول الله ﷺ احتمال الاتجاه إلى مكة أمام هذا الجيش وقياداته ويعلن من جهة ثانية أن مكة ستأتى مستسلمة مهادنة : « ذهب كلبهم وأقبل درهم » ، وأن هذه الهدنة والاستسلام قد يتم توقيعها على يد قائد مكة أبى سفيان بن حرب : « فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه » .

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١٦٥/٣ .

(٢) قال المحقق فيه فى فضائل الصحابة ٩٢٤/٢ : إسناده صحيح .

(٣) فضائل الصحابة ٩٣٠/٢ وقال المحقق فيه : إسناده مرسل ورجاله ثقات .

(٤) الجامع الصحيح للترمذى ٦٥٢/٥ ح (٣٧٥٨) وقال فيه : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) المغازى للواقدي ٨١٢/٢ .

(٦) أطباؤها : جمع طى وهى حلمات الضرع التى من خف وظلف وحافر وسبع .

ولا شك أن الخير قد انتشر وأذيع في الجيش ليهيئ الجو النفسى للمواجهة ، وهو نوع من رفع الروح المعنوية إلى أعلى قمة ، فالتصر بإذن الله قادم ، وأهل مكة سائلون المؤمنين بأرحامهم أن يحفظوها .

ورواية البيهقى عن ابن شهاب الزهري لم تحدد وقت الرؤيا ، فعلى صحة رواية الواقدي أن هذه الرؤيا كانت في الجحفة على بعد قرابة مائة ميل من مكة ، مع أن الجو حتى هذه اللحظة لم يسمح فيه رسول الله ﷺ بإظهار قوة الجيش وإبراز راياته حرصاً على الكتمان عن مكة أن يصل إليها شيء من أخبار غزو رسول الله ﷺ لها، ولا يبعد أن يكون هذا الإعلان على مستوى خاص للقيادات العليا ، وأن يكون أمر رسول الله ﷺ بعدم قتل أبى سفيان إن وُجد أن يكون ذلك على أبواب مكة ، لقد كانت حماية الكلبة الأولى على الطريق التى بعث رسول الله ﷺ لحمايتها وأولادها هي المقدمة الأولى لتبشير رؤيا الكلبة الثانية التى استسلمت وراحت أندأوها تشخب لبناً وسكتت عن الهرير .

٩ - (فلما نزل قُديد عقد الألوية وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضاً على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله) (١) .

وقُديد تبعد عن مكة قرابة مائة وعشرين كيلاً أو ٦٠ ميلاً ، فهناك تم تمييز القبائل على راياتها وبرزت القيادات في الجيش ، والتى أعلنها رسول الله ﷺ ، فهو الذى سمى حملة الرايات في كل قبيلة ، وغالباً ما يحمل الراية سيد القبيلة أو قائدها العسكرى المشهور فيها .

وفى قلب هذه التعبئة العسكرية والإعداد للمواجهة وصلت خيول سليم ، تسعمائة فارس على تسعمائة فرس أو حصان ، ولم ينشروا الرايات حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يأمر بتوزيعها عليهم وتسليمها لقياداتهم ، وهكذا نجد الجيش يلد ولادة في هذه المنطقة لتمضى بأخباره الركبان إلى كل مكان ، ومع ذلك فليس يعرف اتجاه الجيش ، فعين هوازن حسب ما كُلف به من مهمة أن يمضى مع الجيش إلى سرف ، وهناك يعرف هل يقصد رسول الله ﷺ مكة أو هوازن أو ثقيف ؟ وبطن سرف لا تبعد أكثر من بضعة عشر كيلاً من مكة المكرمة .

١٠ - والأمر الذى وجهه رسول الله ﷺ بعد قُديد هو من قبيل الاستعداد والتعبئة للعدو ، حيث رجَّح رسول الله ﷺ الفطر على الصيام ولو كانوا في رمضان ، حيث

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٠٤ .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم » ، وكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، وقد رأى رسول الله ﷺ صائماً في هذا المكان .

ورغم أننا استعرضنا في الفصل السابق : تكوين الجيش الإسلامى ، كل قبيلة على حدة براياتها وقياداتها فنحن هنا سنعرضها كما وردت فى المغازى بصيغتها المجملة حيث تبرز التعبئة العامة لهذا الجيش .

(وعسكر رسول الله ﷺ ببئر أبى عنبّة ، وعقد الألوية والرايات ، فكان فى المهاجرين ثلاث رايات ، راية مع الزبير ، وراية مع سعد بن أبى وقاص ، وراية مع على بن أبي طالب ، وكان فى الأوس بنى عبد الأشهل راية مع أبى نائلة ، وفى بنى ظفر راية مع قتادة بن النعمان ، وفى بنى حارثة راية مع أبى بردة بن نيار ، وفى بنى معاوية راية مع جبر بن عتيك ، وفى بنى خطمة راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر ، وفى بنى أمية راية مع مبييض ...) ورايات الخزرج كانت (وفى بنى ساعدة راية مع أبى أسيد الساعدى ، وفى بنى الحارث بن الخزرج راية مع عبد الله بن زيد ، وفى بنى سلمة راية مع قطبة بن عامر ابن حديدة ، وفى بنى مالك بن النجار راية مع عمارة بن حزم ، وفى بنى مازن راية مع سليط بن قيس وفى بنى دينار راية يحملها ... وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مزينة ألفاً فيها من الخيل مائة فرس ومائة درع ، وفيها ثلاثة ألوية ، ولواء مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً ، ولواءان يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب الأسلمى ، والآخر ناجية ابن الأعجم وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرساً فيها أربعة ألوية ولواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع ابن مكيث ، ولواء مع أبى زرعة ، ولواء مع عبد الله بن بدر وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة فيهم ثلاثة ألوية ، ولواء مع بشر بن سفيان ، ولواء مع ابن شريح ، ولواء مع عمرو بن سالم ، ولم يكن يخرج معه من المدينة لقيه قومه بقديد ، قال : حدثنى عتبة بن جبير عن الحصين بن عبد الرحمن قال : لم يعقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات حتى انتهى إلى قديد ، ثم جعل رايات المهاجرين والأنصار على ما ذكرنا وقال : كانت راية أشجع مع عوف بن مالك ...) (١) .

من الجحفة إلى مر الظهران :

١١ - ها هو الجيش الإسلامى العظيم يسير بخيله وألويته وراياته وقياداته وأبطاله وجنوده ، وهو لا يعرف إلى الآن هدفه نحو أى عدو يمضى إلا بعض القرائن التى توحى

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٨٠٠ ، ٨٠١ .

أنه قاصد مكة ، والجيش بين صائم ومفطر ، والمفطرون أغلب الجيش ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم » ، وكانت رخصة فمنا من صام ، ومنا من أفطر ، حتى انتهى عليه الصلاة والسلام إلى كديد^(١) ، وبلغه أن الناس قد شق عليهم الصيام ، وقيل له : إنما ينظرون فيما فعلت فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من لبن أو ماء وجزم جابر بأنه ماء وكذا ابن عباس ، وفى رواية وضعه على راحلته ليراه الناس ، فشرب فأفطر فناولوه رجلاً إلى جنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس صائم ، فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر^(٢) .

لقد كانت القدوة العملية أبلغ من القول ، وحتى يرى المسلمون من رسول الله ﷺ أن الجهاد مقدم على الصيام ، كان أن أشرف على راحلته بحيث يراه الناس جميعاً ، ويمسك بالإناء فيفطر بين الظهر والعصر أو عند العصر ويعطى الإناء إلى أحد المسلمين بجواره معلناً أنه آن الاوان للإفطار ، فالجرب وشيكة والمواجهة قريبة ، وبعد أن رأى المسلمون رسول الله ﷺ يفطر لم يعد هناك من مجال للتنطع والاستمرار بالصيام ، ومن أجل ذلك عندما قيل له : إن بعض الناس صام قال : « أولئك العصاة » .

وما أبلغ هذا المعنى فى أعماق الجيش المسلم أن يُحكم على من يصوم فرض رمضان بالعصية ؛ لأن هذا يفوت عليه القيام بفريضة الجهاد وهو تدريب حى لهذا الجيش كى يرضع لبان الجهاد فى كل ذرة من كيانه حين يرى قائده - عليه الصلاة والسلام - يفطر لأن هذا أقوى له على العدو ، ومواجهته .

وتحددت مسيرة الجيش وتحدد العدو عندما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران فعرف الجيش أنه قاصد مكة ، مكة المكرمة حيث بيت الله العتيق ، فهى إلى الآن دار كفر يحكمها المشركون الكافرون ، ولا بد من حربهم ولو فى قلب بيت الله العتيق لتكون كلمة الله هى العليا فيها ، وفى مر الظهران لم يكتف - عليه الصلاة والسلام - بالإفطار إنما أمر منادياً ينادى فى الجيش : (ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إنكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم فأفطروا » فكانت عزيمة فافطروا) .

إن عملية إنقاذ الأمة من الظلم الذى يحيق ولو بفتنة صغيرة منها من الأهمية بمكان بحيث يتقدم على قدسية صيام رمضان ، فالثأر من قريش وبكر الطغاة الظلمة الذين بيتوا بنى كعب ركعاً وسجداً لا يمكن أن يؤجل أو يؤخر حتى انتهاء رمضان ، ولا بد من سرعة المبادرة لتحقيق الهدف الكبير فى تحرير مكة من سلطان قريش التى حادت الله ورسوله ،

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٢٤/٥ .

(١) كديد : تبعد عن مكة قرابة ٩٠ كم .

ونصر بنى كعب حلفاء رسول الله صلوات الله عليه ، بل أصبح فرضاً على المسلمين أن يفتظروا استعداداً لمواجهة العدو .

١٢ - ونجحت الخطة فى أعظم أبعادها ، ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران الذى يبعد ٢٥ كم عن مكة ، وأصبحت مكة بحكم المدينة الساقطة بيد رسول الله ﷺ ، ومكة لا تدرى شيئاً عن هذا الجيش الجديد الذى بلغ عشرة آلاف بطل ، ولكى يسقط فى يد مكة نهائياً ، كانت الخطة الجديدة لبث الرعب والخوف فى قلب العدو .

(ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون مر الظهران عشاء ، وأمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب) ، فالمركة لابد أن يحس فيها كل جندى وكل فرد فيها هدف بحد ذاته عليه أن يساهم فى النصر ، وعلى كل جندى أن يسعى ليشعل ناراً للتدفئة أو للطعام أو للنار حتى تنظر مكة فتعرف ضخامة وقوة هذا الجيش العظيم ، ولن يعرف العدد ليلاً إلا من خلال النيران الموقدة ، وعميت الأخبار عن قريش فلم يبلغهم حرف واحد عن مسير رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم) .

١٣ - وكما تعرف الجيش المسلم على فضل العباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبى ربيعة من الذين انضموا حديثاً للإسلام ، كان لابد أن يتعرفوا على فضل جندى لا يؤبه له فى الجيش لقصر قامته ، وقد يتساءل الجيش عن مغزى انضمامه له ، وهذا الفضل يعرف حتى والجيش يتناول الكباث ويستمتع إلى نصيحة رسول الله ﷺ فى الطيب اللذيذ منه ، ها هم يضحكون من هذا الجندى القصير الذى تقتحمه العين من قصره، ويضحكون من دقة ساقيه فيستمعون إلى جواب يذهلهم ويمسك أفئدتهم: « تعجبون من دقة ساقيه ، فوالذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد » (١) .

وهو لم يكن يجنى لياكل ، بل كان يجنى ليطعم حبيبه المصطفى ﷺ وهو ينشد فرحاً بهذا الجهد :

هذا جنائى وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وتباسط المسلمون مع قائدهم الحبيب حيث انطلق الجيش يطعم ثمر الأراك قائلين له: كنت ترعى الغنم ؟ قال : « نعم وهل من نبي إلا قد رعاها » (٢) .

(١) هو فى مسند أحمد (٤٢١/١) بلفظ : عن ابن مسعود أنه كان يحتبى سواكا من الأراك لرسول الله ﷺ وكانت الرياح تكفوه ، وكان فى ساقيه دقة فضحك القوم فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى فى يده لهما أثقل فى الميزان من أحد » وقال المحقق فيه فى كتاب فضائل الصحابة ٨٤٣/٢ : إسناده حسن .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢٩/٥ ، والمستدرک للحاكم ٣١٧/٣ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح .

وذلك حتى تترى نفوس الصفوة من خلقه على التواضع لله ، والصبر على مشاق الحياة للحصول على الرزق الكفاف مهما كان العمل ، وللتعلم على الرحمة بهذه البهائم حتى يمتلئ القلب رحمة بعدها بخلق الله عز وجل ، فربى الله تعالى من صنعهم على عينه بهذا العمل الشريف الذى يصل القلب بالله تعالى فى هذه البيداء ، وعلى رأس هؤلاء كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص] .

وأضى عشر سنوات ﷺ وهو يرعى الغنم لشعيب قبل أن يكلمه الله تعالى بعد أن قضى الأجل ، وسيد ولد آدم الذى يقود الآن هذه الآلاف العشرة هو هو نفسه الذى كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة يسد بها رمقه بأمر رب العالمين ، فلا يجد فرد فى هذا الجيش حرجاً وهو قادم من البادية راعياً للغنم والإبل ، وكما اكتسب هذا الجيش من الخبرات العظيمة والتربية الضخمة فى طريقه من المدينة إلى مكة :

أ- عرف أهمية الجهاد فى حس المسلم وأنه مقدم على الصيام ؛ ولهذا كان الخروج فى العاشر من رمضان .

ب- تدرب على الصبر على الجوع والعطش ، فمنهم الصائم فى قلب هذا الحر والصحراء والهجير ، ومنهم المفطر .

ج- تدرب على الانضباط والطاعة فى كل شىء ، فهو يسير إلى حرب ولا يعرف الاتجاه المطلوب إلا عندما يصبح على أبواب العدو .

د- تدرب على الكتمان ، فلا يتفشى الخبر ، ولا يتجاوز القيادات العليا ، رغم كل الشائعات ومحاولات التنفس للخبر من أكبر الشخصيات الإعلامية والعسكرية التى لم يسمح لها بالتعرف على وجهة المعركة .

هـ- تدرب على أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فقبل قدوم أبى سفيان ابن الحارث وعبد الله بن أبى ربيعة هم أعدى العدو ، وأبغض الناس إلى الله ورسوله ، فإذا جاء وأسلما يستمع الجيش للنداء الخالد من قيادته :

(ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبى سفيان بن الحارث فارضوا عنه) .

و- تدرب الجيش على اليقظة والسهر على أمن الجيش كله ، فالطليعة من الفرسان

هى التى كانت تتراد الطريق ، وهى التى كشفت جاسوس هوازن ، وعرف رسول الله ﷺ منه أسرار هوازن وقريش ، فأصبح كل شىء معروفاً لرسول الله ﷺ بمقدار الجهالة النامة المطبقة لقريش عن رسول الله ﷺ .

ز- تدرب الجيش على حمل السلاح عندما يقتضى حمله ، وإلقائه عندما يقتضى إلقاؤه فقد بقيت الألوية والرايات والأسلحة مطوية حتى بعد منتصف الطريق ، ثم عندما صدر الأمر فأنما ولد الجيش ولادة فى قديد .

ح- تدرب الجيش على المسؤولية الفردية لكل فرد فيه ، فكل فرد بذاته وشخصه من هؤلاء العشرة آلاف مسؤول عن إشعال نار تبقى متقدة طيلة الليل .

ط- تدرب الجيش على الحرب المعنوية فى كيفية بث الرعب فى صفوف العدو ، ومحاولة كسب المعركة بالاستسلام دون نزيف الدماء الذى قد يفنى الآلاف من الفريقين .

ى- تدرب الجيش على القدوة العملية فرسول الله ﷺ يصوم كما يصوم الناس ، ويجوع كما يجوع الناس ، ويمسح وجهه ويضع الماء على رأسه من شدة العطش طاعة لله تعالى ، ثم هو عليه الصلاة والسلام حين اقتضى الأمر الفطر يأخذ بإناء الماء ، وعندما يستوى على راحلته يشربه ويسقى من فى جواره حيث تراه الآلاف المؤلفة فتحثذى حذوه .

ك- تدرب الجيش على حفظ حق الإنسان والحيوان ، فالكلبة ، تحرس أولادها حتى لا يؤذيها الجيش ، فحق الأمن والحياة مصون حتى لهذه البهائم .

ل- تدرب الجيش على أن تكون قضية الدعوة هى الهدف قبل قضية القتل ، فالقوم سائلوكم بأرحامهم وهم مستسلمون فلم القتل والمجازر فيهم .

م- تدرب الجيش على أن قائده عليه الصلاة والسلام هو الذى كان يرمى الغنم فى مكة كما كان يرميها كل رسول قبله وهو سيد ولد آدم .

ن- وتدرب الجيش على أن يكون خروجه لله ولرسوله لا للذات ولا للقبيلة ولا للعشيرة ، إنما مولاهم الله ورسوله لا مولى له إلا الله ؛ ليكون أعظم جيش عقيدة على وجه الأرض .

س- وتدرب الجيش على تقويم الأفراد والرجال بالعقيدة لا بالمظاهر والأبهة ، فساقا عبد الله بن مسعود أثقل فى الميزان من أحد .

القائد الأسير وتربيته

١- (لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح ، فبلغ ذلك قريشاً خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه ؟ لكانها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرأهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ ، فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس : احبس أبا سفيان عند حطم الخيل^(١) ، حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان فمرت كتيبة قال : يا عباس ، من هذه ؟ قال : هذه غفار . قال : ما لي ولغفار ، ثم مرت جهينة قال مثل ذلك ، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك ، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال : من هذه ؟ قال : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عباد يحمل الراية ، فقال سعد بن عباد : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : يا عباس ، حبذا يوم الذمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل^(٢) الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام ، فلما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عباد ؟ قال كذا وكذا ، قال : « كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » ، قال : وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون^(٣) .

٢- (وقال حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال :

فلما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران قال العباس - وقد خرج مع رسول الله ﷺ من المدينة^(٤) : يا صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله ﷺ فدخل عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر ، فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وقال : أخرج إلى الأراك ؛ لعلنى أرى حطاباً أو صاحب لبن أو داخلاً يدخل مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ

(١) هى فى فتح البارى : عند حطم الجبل ، وهو الأصح ٥ / ٨ .

(٢) فى فتح البارى ، قال عياض : وقع للجميع بالقاف ، ووقع فى الجمع للحميدى « أجل » بالجيم وهى أظهر ، ولا يبعد صحة الأولى ؛ لأن عدد المهاجرين كان أقل من عدد غيرهم من القبائل ٩ / ٨ .

(٣) البخارى ١٨٦ / ٥ / ٢ .

(٤) هذه الجملة ليست فى رواية ابن إسحاق ، وواضح أن العباس انضم إلى رسول الله ﷺ من الجحفة .

ليأتوه فيستأمنوه، فخرجت فوالله إنى لأطوف بالأراك إذ سمعت صوت أبى سفيان وحكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء وقد خرجوا يتجسسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فسمعت صوت أبى سفيان وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط نيراناً فقال بُديل : هذه نيران خزاعة حمشتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة الأُم من ذلك وأذل فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ، فقال : ليك ، فذاك أبى وأمى ، ما وراءك ؟ قلت : هذا رسول الله فى الناس قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به ، فى عشرة آلاف من المسلمين ، قال : فكيف الحيلة فذاك أبى وأمى ، فقلت : تركب فى عجز هذه البغلة فاستأمن لك رسول الله ﷺ ، فإنه والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فردفنى فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين نظروا إلى وقالوا : عمّ رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ ، حتى مررت بنار عمر فقال لأبى سفيان : الحمد لله الذى أمكن منك بغير عهد ولا عقد .

ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبة وسبقت عمر كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء .

ودخل عمر فقال : يا رسول الله : هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنى قد أمتته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى أحد ، فلما أكثر فيه عمر ، قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه رجل من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما ذاك إلا لأنى عرفت أن إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به فقد أمّناه حتى تغدو به على الغداة » ، فرجع به العباس إلى منزله .

فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبى وأمى ما أوصلك وأكرمك، والله ظننت أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، فقال : « ويحك ، أولم يأن أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى وأمى ما أوصلك وأكرمك ، أما هذه ففى النفس منها شيء ، فقال العباس : فقلت : ويلك تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك ، فتشهد ، فقال رسول الله ﷺ حين تشهد : « انصرف به يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله » .

فقلت له : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون له في قومك فقال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

فخرجت به حتى حبسته عند خطم الجبل بمضييق الوادي ، فمرت عليه القبائل ، فيقول : من هؤلاء يا عباس ؟ فأقول سليم ، فيقول : ما لي وسليم ، وتمر به القبيلة ، فيقول : من هذه ؟ فأقول : أسلم ، فيقول : ما لي ولاسلم ؟

وتمر جهينة ، حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ، فقال : يا أبا الفضل ، من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقلت : ويحك ! إنها النبوة ، قال : فنعن إذن ، قلت : إحق الآن بقومك فحذرهم ، فخرج سريعاً حتى جاء مكة ، فصرخ في المسجد : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبّل لكم به ، فقالوا : فمه ؟ قال : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق داره فهو آمن (١) .

(هكذا رواه بهذا اللفظ ابن إسحاق عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس موصولاً ، وأما أبو أيوب السخيتاني فأرسله وقد رواه ابن إدريس عن ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس بمعناه (٢) .

٣- (وعن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : وخرج رسول الله ﷺ كما يقال في اثني عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار ومن طوائف العرب ؛ من أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، ومن بنى سليم وقادوا الخيول فأخفى الله عز وجل مسيره على أهل مكة حتى نزلوا بمرّ الظهران وبعثت قريش أبا سفيان وحكيم بن حزام ومعهما بُدَيْل بن ورقاء فلما طلّعوا على مرّ الظهران حين بلغوا الأراك وذلك عشاء ، رأوا النيران والفساطيط والعسكر وسمعوا صهيل الخيل ، فراعهم ذلك فقالوا : هذه بنو كعب (٣) حشّتها (٤) الحرب ، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فلعلهم هوازن انتجعوا الغيث بأرضنا ولا والله ما نعرف هذا أيضاً فبينما هم كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيوناً له بخطيم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ؟ فلما دخل بهم العسكر لقيهم عباس بن عبد المطلب فأجارهم

(١ ، ٢) المغازي للذهبي ٥٣٨ - ٥٤١ ، وهو في السيرة ٤٠٢/٢ - ٤٠٥ .

(٣) المقصود ببني كعب هنا خزاعة . (٤) حشّتها : حمستها .

وقال : يا أبا حنظلة ، ثكلتك أمك وعشيرتك ، هذا محمد فى جمع من المؤمنين ، فادخلوا عليه فأسلموا ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فمكثوا عنده عامة الليل يحدثهم ويسألهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، فقال لهم : « اشهدوا أنه لا إله إلا الله » ، فشهدوا ، ثم قال : « اشهدوا أنى رسول الله » ، فشهد حكيم وبُذيل ، وقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك ، وخرج أبو سفيان مع العباس ، فلما نودى للصلاة ثار الناس ففزع أبو سفيان وقال للعباس : ماذا يريدون ؟ قال : الصلاة ، ورأى أبو سفيان المسلمين يتلقون وضوء رسول الله ﷺ : فقال : ما رأيت ملكاً قط كالليلة ولا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر ، فسأل أبو سفيان العباس أن يُدخله على رسول الله ﷺ فادخله فقال أبو سفيان : يا محمد قد استنصرت آلتهى ، واستنصرت إلهك فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت علىّ فلو كان إلهى محقاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك ، فشهد أن محمداً رسول الله .

وقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ، أجتث بأوباش الناس من يُعرف ومن لا يُعرف إلى أصلك وعشيرتك ، فقال رسول الله ﷺ : « هم أظلم وأفجر ، فقد غدرتم بعقد الحديبية ، وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه » ، فقال بُذيل : قد صدقت يا رسول الله ، فقد غدروا بنا ، والله لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا ما نالوا منا الذى نالوا ، فقال أبو سفيان وحكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقاً أن تجعل عدتكَ وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحماً وأشدّ عداوة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأرجو أن يجمعهما لى ربى : فتح مكة وإعزاز المسلمين بها ، وهزيمة هوازن ، وغنيمة أموالهم وذرائعهم » .

فقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ، ادع لنا بالأمان ، رأيت إن اعتزلت قريش فكفّت أيديها آمنون هم ؟

قال رسول الله ﷺ : « نعم ، من كفّ يده وأغلق داره فهو آمن » قالوا : فابعثنا نؤذن بذلك فيهم ، قال : « انطلقوا فمن دخل دارك يا أبا سفيان ، ودارك يا حكيم ، وكفّ يده فهو آمن » ، ودار أبى سفيان بأعلى مكة ودار حكيم بأسفل مكة .

فلما توجهوا ذاهبين ، قال العباس : يا رسول الله ، إنى لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه فيكفر فأردده حتى نفقه فيرى جنود الله معك ، فقال أبو سفيان : أغدراً يا بنى هاشم ؟ فقال العباس : ستعلم إننا لسنا بغدر ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جنود الله وإلى ما أعد للمشركين ، فحبسهم بالمضيق دون الأراك إلى مكة حتى أصبحوا ، وأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى : « لتصبح كل قبيلة قد ارتحلت ، ووقفت مع

صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعدة » ، فأصبح الناس على ظهر ، وقدم رسول الله ﷺ بين يديه الكتائب ، فمرت كتيبة على أبى سفيان فقال : يا عباس أفى هذه رسول الله ؟ قال : لا ، قال : فمن هؤلاء ؟ قال : قضاة ، ثم مرت القبائل على راياتها . . . فمرت الكتائب يتلو بعضها بعضاً على أبى سفيان وحكيم وبديل لا تمر عليهم كتيبة إلا سألوا عنها حتى مرت عليهم كتيبة الأنصار وفيها سعد بن عباد فنادى سعد أباً سفيان فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه .

فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان فى المهاجرين ، قال : يا رسول الله أمرت بقومك أن يُقتلوا ، فإن سعد بن عباد ومن معه حين مروا بى نادانى سعد فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمه وإنى أناشدك الله فى قومك ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن عباد فعزله وجعل الزبير مكانه على الأنصار مع المهاجرين ، فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون وغرز راية النبى ﷺ . . . (١) .

٤ - قال : وحدثنى عبد الله بن جعفر قال : سمعت يعقوب بن عتبة يخبر عن عكرمة عن ابن عباس رضيهما قال : (. . .) ثم قال رسول الله ﷺ للعباس بعد ما خرج : « احبسه بمضيق الوادى إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » ، قال العباس : فعدلت به فى مضيق الوادى إلى خطم الجبل ، فلما حبست أباً سفيان قال : غدرأ يا بنى هاشم ؟! قال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ولكن لى إليك حاجة ، فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولاً ، فقلت : إن لى إليك حاجة فكان أفرخ لروعى ، قال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب .

وعباً رسول الله ﷺ أصحابه ، ومرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها ، فكان أول من قدم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى بنى سليم وهم ألف فيهم لواء يحمله عباس بن مرداس ، ولواء يحمله خُفاف بن ثُدبة ، وراية يحملها الحجاج بن علاط ، قال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : خالد بن الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، فلما حاذى خالد العباس وإلى جنبه أبو سفيان كبر ثلاثاً ثم مضوا ، ثم مرّ على إثره الزبير بن العوام فى خمسمائة منهم مهاجرون وأفناء (٢) العرب كلها ومعه راية سوداء ، فلما حاذى أباً سفيان كبر ثلاثاً وكبر أصحابه ، فقال : من هذا ؟ قال : الزبير ابن العوام ، قال : ابن أختك ؟ قال : نعم ، ومرّ بنو غِفَار فى ثلاثمائة يحمل رايته

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣٩/٥ - ٤٤ وهى رواية محمد بن فليح عن موسى بن عُقبة عن ابن شهاب الزهري ، ورواية ابن أبى أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عُقبة عن عمه موسى بن عُقبة .

(٢) أفناء : يقال هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو ، وعلى الغالب هم أفراد من قبائل متنوعة لم تشارك قبائلهم فى تشكيل الجيش .

أبو ذر الغفاري ، ويقال إيماء بن رخصة ، فلما حاذوه كَبُرَ ثلاثًا ، قال : يا أبا الفضل ، من هؤلاء ؟ قال : بنو غفار ، قال : ما لي ولبنى غفار ، ثم مضت أسلم في أربعمئة فيها لواءان يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب والآخَرُ ناجية بن الأعجم فلما حاذوه كَبُرَ ثلاثًا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : أسلم ، قال : يا أبا الفضل ما لي ولأسلم ما كان بيننا وبينهم مرة قط ، قال العباس : هم قوم مسلمون دخلوا في الإسلام ، ثم مرت بنو عمرو بن كعب في خمسمائة يحمل رايتهم بَسْر بن سفيان قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد ، فلما حاذوه كَبُرُوا ثلاثًا ، ثم مرت مزينة في ألف معها ثلاثة ألوية وفيها مائة فرس يحمل ألويتها النعمان بن مقرن ، وبلال ابن الحارث ، وعبد الله بن عمرو فلما حاذوه كَبُرُوا ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : مزينة ، قال : يا أبا الفضل ما لي ولمزينة ، قد جاءتنى تققعق من شواهقها ، ثم مرت جهينة في ثمانمائة مع قادتها فيها أربعة ألوية ؛ لواء مع أبي زوعة^(١) ، ولواء مع سويد بن صخر ، ولواء مع رافع بن مكيث ، ولواء مع عبد الله بن بدر ، قال : فلما حاذوه كَبُرُوا ثلاثًا ، ثم مرت كنانة ، وبنو ليث ، وضمرة ، وسعد بن بكر في مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثي ، فلما حاذوه كَبُرُوا ثلاثًا فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر ، قال : نعم ، أهل شؤم والله الذين غزانا محمد بسبيهم ، أما والله ما شورت فيه ولا علمته ، ولقد كنت له كارهاً حيث بلغنى ولكنه أمر حَمَ ، قال العباس : قد خار الله لك في غزو محمد ، ودخلتم في الإسلام كافة .

قال : وحدثني عبد الله بن عامر عن أبي عمرة بن حماس قال : مرت بنو ليث وحدها وهم مائتان وخمسون يحمل لواءها الصعب بن جثامة ، فلما مر كَبُرُوا ثلاثًا فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو ليث ، ثم مرت أشجع وهم آخر من مرّ وهم ثلثمائة معهم لواءان ؛ لواء يحمل معقل بن سنان ، ولواء مع نعيم بن مسعود ، فقال أبو سفيان : هؤلاء هم كانوا أشد العرب على محمد ، قال العباس : أدخل الله الإسلام في قلوبهم فهذا من فضل الله عز وجل ، ثم قال : ما مضى بعد محمد ؟ قال العباس : لم يمض بعد ، لو رأيت الكتيبة التي فيها محمد ﷺ رأيت الحديد والخيول والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، قال : أظن والله يا أبا الفضل ومن له بهؤلاء طاقة ؟ فلما طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء طلع سواد وغبرة من سنانك الخيل ، وجعل الناس يميرون كل ذلك يقول : ما مرّ محمد ، فيقول العباس : لا ، حتى مر يسير على ناقته القصواء بين أبي بكر ، وأسيد ابن حضير وهو يحدثهما ، فقال العباس : هذا رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار ، فيها الرايات والألوية مع كل بطن من الأنصار راية ولواء في

(١) ذكره هناك أبو روعة ، وفي ص ٨٠٠ أبو زرعة ، والغالب أنه خطأ للمحقق .

الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها رَجَلٌ وعليه الحديد بصوت عال وهو يزعجها^(١) ، فقال أبو سفيان : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلم ؟ قال : عمر ابن الخطاب ، قال : لقد أمر أمر بني عدى بعد قلة وذلة ، فقال العباس : يا أبا سفيان إن الله يرفع من يشاء بما يشاء ، وإن عمر ممن رفعه الإسلام ، ويقال : كان في الكتيبة ألف دارع ، وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عباد وهو أمام الكتيبة ، فلما مر سعد براية النبي ﷺ نادى : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ زعم سعد حين مرّ بنا ومن معه قال : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، وإنى أنشدك الله في قومك ، فانت أبر الناس وأرحم الناس وأوصل الناس ، قال عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان : يا رسول الله ، ما نأمن سعداً أن يكون منه في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشاً » .

قال : وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله ، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ لم يخرج من سعد حين صار لابنه فابى سعد أن يسلم اللواء إلا بإمارة من النبي ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ بعمامته فعرفها سعد فدفع اللواء إلى ابنه قيس^(٢) .

٥ - (قال : فحدثني عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن ساعدة قال العباس : فانج ويحك ، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم ، قال : فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كداء وهو يقول : من أغلق بابي فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة ، فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد وقد جعل لي : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابي فهو آمن ، ومن طرح السلاح فهو آمن ، قالت : قبّحك الله رسول قوم ، قال : وجعل يصرخ في مكة : يا معشر قريش ، ويحكم إنه قد جاء ما لا قبل لكم به ، هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد فأسلموا ، قالوا : قبّحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول : اقتلوا وافدكم هذا ، قبّحك الله وافد قوم ، قال : يقول أبو سفيان : لا تغرّنكم هذه من أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الكراع والرجال والسلاح فما لأحد بهذا من طاقة^(٣) .



(١) يزعجها : خطأ ، والغالب أنه يزعها ، يقال : وزعه يزعه فهو وازع ، وهو الذى يكف الناس ويحمل أولهم على آخرهم ، والوازع الحابس للعسكر الموكل بالصفوف يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر .

(٢) المغارى للواقدي ٨١٨/٢ - ٨٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ٨٢٢/٢ .

١ - تركنا أبا سفيان وقد مُني بأكبر فشل سياسي في حياته ، حيث قال له قومه حين أجار بين الناس بوصية ابن أبي طالب : ما زاد على أن لعب بك تلعباً .
وقالت له زوجته بعد أن ضربت برجلها في صدره : قُبِحت من رسول قوم .
ثم ها هو يكلف بمهمة ثانية بعد أن استفاقوا من هول الصدمة كانت هذه المهمة هو أن يتجسس الأخبار وقالوا له :

إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب ، واختار رفيقاً له هو حكيم بن حزام ولم يختره عبثاً فهو قريب نسباً من محمد ، فهو ابن أخى خديجة بنت خويلد وله من مواقفه السابقة أنه ممن ساهم في فك الحصار عن بنى هاشم ، فيكاد يكون وسيطاً بين محمد وبين أبي سفيان ، إنه يحسن الحساب حين يحسب خارج الساحة الإسلامية ، وبذكائه الحاد اختار رفيقاً ثالثاً هو بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ، وباختياره بُدَيْلاً حقق أربعة أهداف بضربة واحدة :

الهدف الأول : هو إحراج بُدَيْل في تبنى وجهة نظر مكة وقريش ، والذي يخرج عن إجماعها متهم في هذه الظروف وهو يعلم أن بُدَيْلاً قد مضى من قبل وقابل محمداً سرّاً ، وأخبره بعدوان بكر وقريش على خزاعة ، ورغم أنه خزاعي ، لكنه من أشرف مكة وجوهها وعن اختار الإقامة فيها .

الهدف الثاني : إشعار محمد ﷺ أن بُدَيْلاً إذا جد الجد فهو من حلفاء قريش لإبراز الصف الموحد لقريش ضد رسول الله ﷺ ، فهذا هو سيد خزاعة ماض ليحاور مع أبي سفيان ويمثل مكة ودولتها في مواجهة محمد وحلفه .

الهدف الثالث : هو التخفيف من حدة محمد ﷺ واندفاعه للثأر من خزاعة ، فهذا بُدَيْل سيد بنى خزاعة حريص على التفاهم وحل الأزمة سياسياً دون اللجوء إلى الحل العسكري والحرب ، وهو ماض مع أبي سفيان لتحقيق الهدف المطلوب نفسه : (إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب) .

الهدف الرابع : إمكانية نجاح الحوار والحل السلمي بوجود هذين العضوين في الوفد فكما فعلوا في الحديبية حيث قدموا للمفاوضات رجال الصف الثاني في مكة ، بنى عامر ابن لؤى بعد بنى كعب بن لؤى ، وهنا يريد أبو سفيان أن يعلن عن هوية مهمته وهي الحل السلمي واستمرار الصلح وتسوية الأزمة سياسياً بلا خوف ولا رعب ولا دماء ، أما لو كانت مهمته عسكرية فله من عكرمة وخالد وصفوان وعمرو بن العاص ما هو أنسب لهذه المهمة لقد كان أبو سفيان عقلية سياسية جبارة إذا قيس في الحدود العربية لكنه

خارج هذا الإطار ، وفى حربه لمحمد ﷺ قد رأينا قمة خسارته السياسية فى عودته خائباً من المدينة ولعل تلك الحثية والفشل هى التى أوحى له بهذا الحل السياسى الذكى واختيار أعضاء الوفد المرافق والمكلف بالمباحثات مع محمد بن عبد الله ، وقبلت مكة على مضض بذلك .

٢ - (فلما بلغوا الأراك من مرّ الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ، ورجاء الإبل فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا : هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب ، فقال بديل هؤلاء أكثر من بنى كعب قالوا : فتنجعت هوازن على أرضنا ، والله ما نعرف هذا، إن هذا العسكر مثل حاجّ الناس ، فبينما هم كذلك لم يشعروا حتى أخذهم نفر كان رسول الله ﷺ بعثهم عيوناً له بخطيم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ؟) .

إنه مستوى متخلف جداً لقيادة مكة حين ترى جيشاً كأنما هو عديد الحجيج يوم عرفة بجوار مكة وعلى بعد ٢٠ كم منها ولا تعرف لمن هذا الجيش وأراد بديل بن ورقاء أن يثار شيئاً ما لقومه خزاعة، فقال لأبى سفيان : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ، ولا يغيب عن ذهن بديل أنها ليست خزاعة فما كان لقومه أن يجمعوا هذا الجمع لغزو مكة دون إخباره ، ويعلم أن خزاعة مهما جمعت لن تجمع عُشر هذا الجيش ، فإذا كانت مكة حين خرجت وحدها لم تستطع أن تجند أكثر من ألف مقاتل فهل تستطيع خزاعة أن تفعل أكثر من ذلك ؟ إنما يقصد وخز أبى سفيان بما جنوه على قومه خزاعة وما أججوا من ثارات وكان أبو سفيان أدهى من بديل حيث أدرك مرماه فقال له :

خزاعة الأُم من ذلك وأذل .

وأكبر قبائل العرب جواراً لهم هى هوازن ، فهل قدمت هوازن تطلب المرعى والكلأ فى أراك مكة ؟ لم يسبق لها أن فعلت ذلك ، هل الموسم موسم حج أو أيام عرفة ؟ أبداً وكأنما الحاج حاجّ عرفة ، ما هذا ؟

ولم يخطر بذهن قائد مكة وفى حساباته كلها أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ هو الذى يغزو مكة، فعنده به قبل عام فى عمرة القضية عام واحد فقط ، أن كان معه ألفان فقط وهذا الجيش أضعاف أعداد جيش محمد ، ومع هذا فلم يخطر على باله أبداً أن يتمكن محمد بهذه السرعة والضحامة من التحرك لغزو مكة دون أن يعرف بذلك أحد ، وهنا ندرك مستوى التخطيط العظيم بين القائدين، قائد يعبئ خلال نصف شهر عشرة آلاف مقاتل ، ويغزو بهم مكة فى عقر دارها ، وقائد لا يدري عن عدوه شيئاً ، وقد غدت

عاصمته محاصرة على وشك السقوط وإذا أخذنا صورتين متقابلتين ندرك من خلالهما عظمة التخطيط والاستعداد للمواجهة :

الصورة الأولى : حيث تمكن أبو سفيان أن يعي عشرة آلاف مقاتل من قبائل الحجاز ونجد جمعت بينهم عقيدة الشرك في حرب محمد ﷺ ، كما استطاع أن يغزو محمداً في حلفائه اليهود ويضمهم إليه ، وكان يمكن أن تسقط المدينة كما سقطت مكة ، غير أن عظمة القيادة النبوية استطاعت أن تقيم الخنادق حول المدينة خلال ثلاثة أيام صمدت هذه الخنادق أمام أشرس هجوم وأعتفه ، وردته خاسراً ذليلاً دون أن يتمكن من فعل شيء إلا مقتل بضعة عشر جندي من الجانبين ، ونحن لا ننسى أبداً التدخل الإلهي في النصر ، لكننا نتحدث عن الجهد البشري العظيم في التخطيط لإحاطة المدينة كلها بخنادق من الجهة التي يمكن لمكة الدخول منها ، وعظمة التنفيذ من هذا الجيش الفدائي العظيم الذي لا يجد الثمرات يقيم بهن أوده ، وينحسر أعظم هجوم شهدته الحجاز : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الاحزاب] .

الصورة الثانية : حيث يتقل رسول الله ﷺ إلى طور الهجوم : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » ، فيتحرك بعشرة آلاف مقاتل ينزل بها بمر الظهران بجوار مكة ، وكان أول إنحجاز لهذا الجيش وأعظم إنحجاز له هو أسر قائد العدو من اللحظات الأولى للمعركة ، ويعنى هذا الإنحجاز انتهاء المعركة من اللحظات الأولى فيها ، بعد أسر القائد العام لجيش مكة وقواتها المسلحة .

لقد كان رسول الله ﷺ يريد أن ينهى المعركة قبل وقوعها ، وقد دعا ربه أن يأخذ العيون والأرصاد عن مكة فلا يرونهم إلا بغتة ، ولا يشهدونهم إلا فجأة ، واستجاب الله تعالى لدعاء عبده محمد ﷺ فأخذ العيون والأرصاد ، وأوقع بعضهم في يده وتدخل الوحي حين عجز العلم البشري عن معرفته ، وحين اقترب رسول الله ﷺ من مكة - حيث قرر أن ينزل جيشه - دعا المسلمين إلى البحث عن أبي سفيان في الأراك .

(روى الطبراني عن أبي ليلى رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران فقال : « إن أبا سفيان بالأراك فخذوه » ، فدخلنا فأخذناه) (١) .

ويبقى الجهد البشري مطلوباً في كل لحظة ، حيث يأتي التوفيق الإلهي مباركاً هذا الجهد ومسدداً له ، فالحراسة مستمرة لا تنقطع وكان رئيس الحرس في هذه الليلة التي أخذ فيها أبو سفيان هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعيون النبي ﷺ مبثوثة في كل مكان

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٢٤/٥ .

حول الجيش وداخله وبهذا الجهد تم القبض على أبى سفيان وصاحبيه (١) .

(روى ابن أبى شيبه عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قالا : أَخَذَ أبو سفيان وأصحابه ، وكان حرس رسول الله ﷺ نفر من الأنصار ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الليلة على الحرس فجاءوا بهم إليه ، فقالوا : جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتموني بأبى سفيان ما زدتم ، قالوا : قد والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح ، فغدا به على رسول الله ﷺ) (٢) .

لقد كان القبض على أبى سفيان يفوق الخيال عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ لأنه أئمن هدف على الإطلاق وأدرك بفراسته العظيمة حين قيل له أنه قُبِضَ على نفر من أهل مكة ، كان أبو سفيان أول ما خطر في ذهنه ، وكان أبو سفيان وهو لا يملك صلاحيات التصرف فيه إلا من خلال أوامر القيادة النبوية ، فأمر بحبسه حتى أصبح .

أما في رواية ابن إسحاق عن ابن عباس ، ورواية ابن راهويه عن ابن عباس كذلك كما يرويهما العباس رضي الله عنه :

(لما نزل مر الظهران رقت نفس العباس لأهل مكة ، فقال : واصباح قريش ، والله لئن دخلها رسول الله ﷺ عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، قال العباس : فأخذت بغلة رسول الله ﷺ الشهباء فركبتها ، وقلت : ألتمس حظاً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، فوالله إنى لفى الأراك ألتمس ما خرجت إليه إذ سمعت كلام أبى سفيان . . . قال العباس : فعرفت صوت أبى سفيان ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى ، فقال : لبيك يا أبا الفضل مالك ؟ فذاك أبى وأمى ، وعرف صوتى ، فقلت : ويلك ! هذا رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف مقاتل ، فقال :

واصباح قريش ، والله بأبى أنت وأمى ، فما تأمرنى ؟ هل من حيلة ؟ قلت : نعم ، اركب عجز هذه البغلة فأذهب بك لرسول الله ﷺ فاستأمنه لك ، فإنه والله إن ظُفِرَ بك دون رسول الله ﷺ لتقتلن ، فركب خلفى ورجع صاحبه) (٣) .

(١) أخذنا برواية البخارى وابن عتبة ، أما رواية ابن إسحاق فقد وردت بسند صحيح عند ابن مردويه ، وسنحاول الجمع بين الروایتين .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٢٦/٥ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : (وعند ابن إسحاق أن العباس خرج ليلاً فلقى أبا سفيان وبُديلاً ، فحمل =

٣- لقد تركنا العباس عم رسول الله ﷺ في مكة ليلة العقبة ، وقد استوثق لابن أخيه محمد ﷺ من الأنصار ، وقد أدار مباحثات العقبة ، وحدّد زمانها ومكانها ، ثم شهدناه أسيراً بين يدي رسول الله ﷺ في بدر يتضور في وثاقه ، فلا ينالم رسول الله ﷺ من ألمه عليه ، ثم يدفع فداءه وفداء ابن أخيه وحليفه ، وها نحن نشهده فجأة ينهى رسول الله ﷺ مهمته في مكة بعد أن غدت مكة على وشك الاستسلام ، ويدعوه ليختم به الهجرة قبل الفتح ، فيكون آخر المهاجرين وأفضلهم كما كان رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، وها هو يمضي من الجحفة مع رسول الله ﷺ ، وخلال ساعات يغدو أكبر الوزراء والمستشارين بين يديه ، فينزل حيث ينزل رسول الله ﷺ ، ويرحل حيث يرحل ، وإذا هو في القمة وفي عليّة أصحابه ، وها هو كما قاد محادثات العقبة التي قامت على أعقابها دولة المسلمين في المدينة ، ها هو يمضي ليقود مباحثات جديدة ينهى بها دولة الكفر في مكة ، فهو أعظم الساسة على الساحة ، إنه يتحرك بمبادرة منه ليلة نزول رسول الله ﷺ ليلقى رجلاً أو خطاباً يبعث به إلى مكة يدعوهم لينقذوا أنفسهم من الهلاك والموت ، قبل أن يدخلها رسول الله ﷺ عنوة فيكون ذل وهلاك قريش إلى آخر الدهر ، ولولا الصلاحيات الواسعة التي يملكها لما أقدم على مثل هذه المبادرة ، فهو يشعر أن مهمة السفير الدبلوماسية لم تنته بعد ، وعليه أن يختمها بوثيقة استسلام تحجب قريشاً نزيف الدم المرتقب ، وتقنعها بتوقيع وثيقة الصلح الأخيرة مع رسول الله ﷺ ، ولم نجد أحداً يجرؤ على مثل هذه المبادرة غيره ﷺ لأنه لا يملك أحد من الصلاحيات مثل ما يملكها هو ، وكان قدر الله السعيد الذي أنقذ الله به قريشاً من الهلكة أن يلتقى العباس سفير النبوة ، وصديق أبي سفيان القائد العام لمكة ورئيس دولتها معاً في بهيم الليل ، وقد أخذ أبو سفيان أسيراً من المخابرات النبوية ، ويقدم العباس ، عرّف الحرس وعلى رأسهم قائده عمر بن الخطاب ﷺ صلاحيات العباس ﷺ مسلم اليومين أو الثلاثة أنه مفوض شخصي من رسول الله ﷺ ، وحين نأخذ بالرواية لابن إسحاق نشهد تنازع الصلاحيات بين السلطة المدنية السياسية التي يمثلها العباس ﷺ والسلطة الأمنية العسكرية التي يمثلها عمر بن الخطاب ، ولكل مسؤول سلطة مضي يستعمل سلطته، ونشهد هذا التنازع كما رواه ابن إسحاق وكما تحرك به العباس ﷺ وهو يعلم وجود هذه التعليمات والصلاحيات:

= أبا سفيان على البغلة ورجع أصحابه (ويمكن الجمع بأن الحرس لما أخذوهم استنقذ العباس أبا سفيان ... ولكن عند ابن عائد: (فدخل بُذيل وحكيم على رسول الله ﷺ فأسلما) فيحمل قوله : (ورجع أصحابه) أي بعد أن أسلما ، واستمر أبو سفيان عند العباس لأمر رسول الله ﷺ أن يحبس ... وفي مغازي موسى ابن عقبة ما يؤيد ذلك وفيه : (فلقاهم العباس فاجارهم وأدخلهم إلى رسول الله ﷺ لما أصبح) ويجمع بين ما عند ابن إسحاق ومرسل أبي سلمة بأن الحرس أخذوهم ، فلما رأوا أبا سفيان مع العباس تركوه معه ٨ / ٧ - ٨ ك المغازي .

(قال العباس: فجئت بأبى سفيان وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته . . .) .

ولا يمكن أن يتطرق الشك لديهم بأن العباس إنما ينفذ أوامر رسول الله ﷺ وهو على بغلته الخاصة ، وهذا فوق إدراكهم أن يعرفوه أو يعرفوا طبيعة التعليمات النبوية الموجهة لعم محمد عليه الصلاة والسلام .

(حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ؓ فلما رآنى قام ، فقال : من هذا ؟ قلت : العباس ، فذهب ينظر فرأى أبا سفيان خلفى ، فقال : أى عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء . . .) .

لقد كان عمر بن الخطاب ؓ قائد الحرس الأعلى ، والعباس المستشار الخاص لرسول الله ﷺ يدرك كل واحد منهما حدود صلاحياته وطبيعة مهمته ، ولكل هدفه نحو رئيس دولة مكة وقائد جيشها العام أبى سفيان بن حرب ، ووجهة النظر الأمنية والعسكرية هى : قتل أبى سفيان الذى قاد أشرس حرب وأعنفها ضد الإسلام والمسلمين خلال ست سنوات ، ووجهة النظر السياسية والدبلوماسية هى : إنقاذ رئيس دولة مكة ، وتوقيع وثيقة الصلح والاستسلام من قبله ، وكل واحد من الزعيمين يود تنفيذ صلاحياته ، وتطبيق هدفه .

(فاجتمعنا على باب قبة رسول الله ﷺ ودخل عمر على أثرى ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلاضرب عنقه) .

ولم الموت بين عيني أبى سفيان ، وشهد رأسه ملقى عن جسده بإشارة واحدة من رسول الله ﷺ بتنفيذ رغبة رئيس مخابراته .

(قال : قلت : يا رسول الله إني قد أجرتة) .

وجرض أبو سفيان بريقه الذى جف فى حلقه ، هل يرى الحياة بعد أن رأى الموت يتراقص أمام ناظره ؟ ولم يكف العباس ؓ بذلك ، بل أقدم على ابن أخيه محمد ﷺ فالتزمه (ثم التزمت رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يتاجيه الليلة دونى رجل) ، فالعباس لن يتثنى حتى ينقذ رأس أبى سفيان ولو بقى إلى آخر الليل بجوار ابن أخيه رسوله الحبيب ، وعمر ؓ بكل ما أوتى من بلاغة وموقع متقدم وعالٍ عند رسول الله ﷺ ، يريد أن ينهى بلحظة واحدة حياة أبى سفيان .

وتقاذفت السلطان الاتهامات ، لكن الغريب أن تكون السلطة السياسية والدبلوماسية هي التي توجه الاتهام إلى السلطة الأمنية والعسكرية :

(فلما أكثر عمر في شأنه ، فقلت : مهلاً يا عمر فوالله لو كان من رجال بنى عدى ابن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف) .

لو كنا في دولة من دول الأرض التي لا تعرف لشريعة السماء طعمًا ولا مذاقًا ولا تربية ، لأقدم قائد الجيش الإسلامي ومدير مخابرات الدولة المسلمة على قتل العباس لهذه الكلمة ، فهو متهم أصلاً ، وعليه أن يكون مراقبًا ، ولم يمر على إسلامه يومان أو ثلاثة وها هو يتأمر مع رئيس دولة العدو ، لو كان هذا في هذا العصر لأعدم العباس وأبو سفيان رميًا بالرصاص ؛ لأن العباس المسلم الجديد اتهم عمر بن الخطاب بالتحيز لقبيلته ولعشيرته ، وهو الذي أفنى حياته في حرب قبيلته وعشيرته ، وهو المعروف عنه أنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، بينما العباس هو الذي أمضى حياته كلها محالًا لقومه ، وها هو يسلم في اللحظة الأخيرة .

ورسول الله ﷺ لم يعلن عفو بعد .

لكننا أمام الجيل الذي صنعه الله تعالى على عينه بقيادته وجنده ، وعمر بن الخطاب الرجل الثاني في الأمة ، والذي قال فيه عليه الصلاة والسلام : « لو كان بعدى نبي لكان عمر » ، هذا النموذج الخالد بدل أن يسجن أو يقتل أو يرد على الاتهامات بسبل من السباب والشتائم ، ويغضب لنفسه وللنيل منه أمام رسول الله ﷺ وتحريجه والاتهام بنيته بدل أن يفعل هذا كله راح يتحدث عن أعظم حب وسعادة يحملها بإسلام العباس عم محمد ﷺ ، ويبرز ما يحمله في قلبه من إجلال وتعظيم ووفاء للعباس الذي عاش على أعصابه طيلة حياته في قلب دولة العدو وبين يديهم ، وكأنما راح يعتذر من العباس ﷺ مسلم اليومين أو الثلاثة .

ولن نشهد مثل هذا أبدًا في كل أهل الأرض ودول الأرض وعالم الأرض ولن نشهده أبدًا إلا عند جيل النبوة والرعيل الذي تربى بعين الله وكلته ورعايته .

(قال عمر رضيه الله : مهلاً يا عباس - وفي لفظ : يا أبا الفضل - فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم) .

لقد ذاب هذا الجيل حبًا بنبيه وقائده عليه الصلاة والسلام وانخلع من ذاته لتكون ذات رسول الله ﷺ هي محور حبه ، منها ينطلق وبها يحب ويكره ، فغداً إسلام العباس

عم رسول الله ﷺ أحب إلى عمر من إسلام أبيه الخطاب، وهذا شرط أساسى من شروط الإيمان .

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »^(١) ، وقد تمثل هذا الجيل هذا الامر واقعاً حباً نشأ وتربى عليه ، فأين مكان عبد مناف وعدى عند عمر رضي الله عنه ، بعد هذا المستوى العظيم الذى ارتقى إليه .

ولقد بلغ عمر رضوان الله عليه من التجرد أنه عندما فرض العطاء اعتبر بنى هاشم هم أول الخلق عطاء ونظر إلى أقربهم لرسول الله ﷺ فكان أول الأمة تسجيلاً فى ديوان العطاء (فعن العباس بن عبد الله بن معبد قال : لما دون عمر بن الخطاب الديوان كان أول من بدأ به فى المدعى بنى هاشم ، ثم كان أول بنى هاشم يدعى العباس بن عبد المطلب)^(٢) .

وحسم رسول الله ﷺ الامر بالنسبة لمصير أبى سفيان الذى كان يتراقص أمامه الموت فقال : « اذهب به فقد أمناه حتى تغدو على به الغداة » وتغلبت السلطة السياسية على السلطة الأمنية ، فرجع به إلى منزله ، فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ .

٤ - وفى رواية موسى بن عقبة : (فأدخلوا على رسول الله ﷺ ، فمكثوا عنده عامة الليل يحادثهم ويسألهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام فقال لهم : « اشهدوا أن لا إله إلا الله » فشهدوا ، ثم قال : « اشهدوا أنى رسول الله » فشهدوا ، فشهد حكيم وبُديل ، وقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك) .

أما بُديل بن ورقاء فهو مع رسول الله ﷺ قلباً وقالباً ، وهو الموتور الثائر الذى حمى قومه خزاعة من القتل حين لجؤوا إلى داره ، ولو لم يكن يملك هذه الحماية لذبح العشرات والمئات من قومه من بنى بكر .

(قال أبو سفيان وحكيم : جئت بأوياش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أصلك وعشيرتك ، فقال رسول الله ﷺ : « هم أظلم وأفجر ، غدرتم بعقد الحديبية وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه » ، فقال بُديل : قد صدقت يا رسول الله ، فقد غدروا بنا والله ، لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدوتنا ما نالوا منا الذى نالوا) .
فبُديل أقرب قلباً لرسول الله ﷺ من قريش ولعله أسلم قبل ولم يعلن إسلامه ، وليس عنده عقدة أبى سفيان لو أسلم أن يتزعزع الملك منه لكن أبى سفيان يقود قومه بالجاهلية وعقائدها ، وموروث الآباء والخطر كبير وماحق عليه لو أسلم عند قومه وعشيرته ، ولقد

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢/٤ .

(١) مسلم ٦٧/١ ح (٧٠ / ٤٤) .

رأى من قبل يوم أشيع إسلامه ، كيف سقطت قيادته ، واستهانت به حتى امراته .

وأما حكيم ، فهو من المعادن النفيسة المخبوءة التي طفا عليها ران الكفر، لكن أعماقها من الصفاء والنقاء ما يجعله مؤهلاً لتلقى نور الله والاستجابة لدعوته ، وتنتظر هذه الأعماق عملية اختلاص هذا الران أو إزاحته على الأقل ليصل النور فتوهج به دون أى عقد أو موروثات تشين هذا القلب أو تمس هذا المعدن .

(روى ابن عساكر عن عطاء قال : لا أحسبه إلا رفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ ليلة قرينه من مكة فى غزوة الفتح :

« إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام » قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عتّاب بن أسيد ، وجُبَيْر بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » (١) .

وحكيم كان يترى على يدى رسول الله ﷺ من خلال عمته خديجة بنت خويلد التى كانت تصف له خلق رسول الله ﷺ حتى كأنه يعيشه ويعاينه ، وجاء الوقت المناسب الذى وجد فيه نفسه وجهاً لوجه أمام الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان تلك المحادثة التى مسحت ذلك الران عن قلبه ، وأبرزت قلبه كما هو دون أى لوثة ، فما أن دعى للإسلام حتى استجاب على الفور .

بينما بقى أبو سفيان يتلکأ ويتلعثم ، وسنعود إليه وحده فيما بعد .

ومن المحادثات التى التقطها لنا ابن عقبة عن رواته فى هذه الليلة :

(فقال أبو سفيان ، وحكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقاً أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن - ولعلها كلمة حكيم - فأبو سفيان لم يؤمن بعد ، فإنهم أبعد رحماً وأشدّ عداوة ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن يجمعهما لى ربي؛ فتح مكة وإعزاز المسلمين بها ، وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم وذرائعهم ») .

فإذاً لا بد أن يدرك قادة مكة أن الأمر فيها هو إعزاز دين الله وتحكيم شريعته ، وليس سلطان أبى سفيان أو سلطان محمد بن عبد الله ، وهوازن كذلك ليست هى الهدف لأنها أبعد رحماً، بل لأنها تعادى الله ورسوله وتحارب شرعته ، والهدف واحد نحو هوازن ومكة فى استسلامهما لشرعة الله .

ونلاحظ هنا خوف حكيم وأبى سفيان أن يتزل بمكة ما يتزل بهوازن من غنيمة أموالهم وذرائعهم .

(١) المغازى للواقدي ٥ / ٣٣١ .

(فقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ادع لنا بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفّت يدها ، آمنون هم ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم ، من كفّ يده وأغلق داره فهو آمن » ، قالوا : فابعثنا نؤذن بذلك فيهم ، قال : « انطلقوا فمن دخل دارك يا أبا سفيان ودارك يا حكيم وكف يده فهو آمن » (١) .

ومضى حكيم رضي الله عنه وبديل يعمر قلبهما بالإسلام ، وتركوا أبا سفيان يعالج مصيره بين يدي رسول الله ﷺ .

٥ - ونعود إلى أبي سفيان الذي زال شبح الموت من رأسه بعد أن أنقذه العباس رضي الله عنه وأجاره ، وبقي ينتظر المصير المجهول ليعود في الغداة ويلتقى برسول الله ﷺ ، والهمّ جائم على صدره طيلة الليل وهو يفكر بأمره وأمر محمد ﷺ ، إن الذكرى المرة للقاءه بقيصر ملك الروم كأنما هي الساعة ماثلة بين عينيه ، لقد خرج والغيط يأكل قلبه ولخص الأمر بقوله : (لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أن تهابه ملوك بني الأصفر) ، ولا تزال ترن في أذنه منذ ذلك الوقت كلمة هرقل :

(فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منك) ، فأين إذاً حرب قريش له إن كان سيملك ملك قيصر ؟ وهرقل نفسه يتابع قوله : (فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) (٢) .

(فقلت لأصحابي : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أن تهابه ملوك بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام) .

لقد غزى في أعماقه أكبر غزو بعد ذلك اللقاء التاريخي مع هرقل ، وعرف يقيناً بأن محمداً سينتصر ، لكن قضية الإسلام والنبوة كانت موطن أخذ ورد عنده منذ أن كانت الدعوة الأولى في مكة :

أ - فمئذ أن استمع ليلاً سرّاً إلى رسول الله ﷺ وكُشف أمره ، قال للأخنس بن شريق : (يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها) (٣) .

ب - وأحس قبل أن تنهش قلبه عقدة الزعامة بخطورة حرب محمد ﷺ في بدر ، فقد استطاع بذكائه أن يُفكّل القافلة من يد محمد ﷺ ، وبعث إلى قريش : إنما خرجتم

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤٠ / ٥ ، عن مغازي موسى بن عقبة .

(٢) البخاري ٦ / ١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام م ٣١٥ / ١ ، ٣١٦ .

لتمنعوا غيركم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا ، فكان جواب أبي جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ، فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونُسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب في مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا .

(ولحق الرسول أبا سفيان بالهدة ، فأخبره بمضى قريش فقال :

واقوماه ، هذا عمل عمرو بن هشام ، كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس ، وبغى والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب أصحاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة) (١) .

ج - لقد كان حتى هذه اللحظة يفكر بعقله الراجح بعيدًا عن الاندفاع والعصبية العمياء التي تذهل العقل ، وأدرك أن الهزيمة لو تمت لقريش فهو ذل لقريش حتى يدخل محمد مكة بالمسلمين .

أما بعد بدر فقد اختلفت الصيغة ، وتغيرت الصورة تمامًا أمامه ، لقد فوجئ بقتل بكره حنظلة وأسر ولده الثاني عند محمد بن عبد الله ، وفوجئ بأكبر كارثة في بيته وقومه ، فزوجه هند قد فجعت بأبيها وأخيها وعمها وبكرها ، وأصبح الثأر من محمد وصحبه هو الهاجس الدائم في الصباح والمساء لها ، وهؤلاء عتبة وشيبة والوليد سادة بني أمية ، ومكة كلها خيم عليها الموت ، فقد قتل قرابة خمسة وعشرين صنيديًا من صناديدها وبطلانها كانوا هم أئمة الكفر ، وليس هذا فقط هو الذي تغير في الساحة عند أبي سفيان ، إنما أهم من هذا كله أنه وجد نفسه قائدًا لمكة دون منازع بعد سقوط تلك القيادات صرعى في قلب بدر ، وإذا ترأس أبو جهل في بدر فبغى ، وهى معركة واحدة فهو الآن رئيس مكة ، ولا تثبت رئاسته إلا بالثأر لقتلى مكة ففى كل بيت مناحة ، لقد وجد نفسه هو رأس الحربة في وجه محمد ﷺ .

وحتى يرضى نفسه في زعامته ، ويرضى زوجته في الثأر للأحبة ، ويرضى الموتورين في مكة بالثأر لقتلاهم ، ها هو يشنها حربًا شعواء على محمد وصحبه .

(فلما رجع المشركون إلى مكة من بدر حرم أبو سفيان الدهن حتى يثار من محمد وأصحابه عمن أصيب من قومه ، فخرج في مائتي راكب ... حتى سلوكوا النجدية فجاؤوا بنى النضير ليلاً فطرقوا - سلام بن مشكم - ففتح لهم فقرأهم وسقى أبا سفيان خمرًا وأخبره من أخبار النبي ﷺ وأصحابه ، فلما كان السحر خرج فمرّ بالعريض فيجد رجلاً من الأنصار مع أجير له في حرثه فقتله وقتل أجيره ، وحرق بيتين بالعريض ،

(١) المغازي للواقدي ٤٣/١ .

وحرَّق حرًا لهم ورأى أن يمينة قد حُلَّت ، ثم ذهب هاربًا وخاف الطلب ... (١) .

د- ويعرف أبو سفيان في أعماقه أنه إنما يضحك على نفسه بهذا الثأر (فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب .. فقالوا : انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبسها ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ... وهم طيبو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشًا إلى محمد ، وقد ترى من قُتل من آبائنا وأبنائنا وعشائنا ، قال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنأ أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنأ والله الموتور الثائر ، قد قُتل ابني حنظلة بيدر وأشراف قومي ، فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج إلى أحد فباعوها وصارت ذهبًا عيَّنًا وكانت العير ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار) (٢) .

وها هو يبلغ في أحد ذروة مجده (فأقبل فأشرف على أصحاب النبي ﷺ في عُرْض الجبل فنادى بأعلى صوته : اعل هُبْل ، ثم يصيح : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة بحنظلة ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أجيبه ؟ قال : « بلى فأجبه » فقال أبو سفيان : اعل هُبْل ، فقال عمر : الله أعلى وأجل ، ثم قال أبو سفيان : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، إلا إن الأيام دول وإن الحرب سجال ، فقال عمر : لا سواء قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، قال أبو سفيان : إنكم تقولون ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا ، لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم ، قال أبو سفيان : قم إلى يا بن الخطاب أكلمك ، فقام عمر . فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك هل قتلنا محمدًا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر) (٣) .

ولم ينته من سكرته بهذا الانتصار الجزئي حتى بقيت الغصة في حلقه ، عندما علم أن محمدًا حي و يسمع كلامه .

هـ- وأمام هذا النصر الوهمي ، مضى أبو سفيان - وقد ترأس فبغى - فحشد العرب كافة لحرب محمد ﷺ في الخندق (وكان القوم جميعًا الذين وافوا الخندق من قريش وسليم ، وغطفان وأسد عشرة آلاف فهي عساكر ثلاثة ، وعناج الأمر إلى أبي سفيان) (٤) .

وكيف كانت نفسية أبي سفيان بعد الخندق ؟

(١) المغازي للواقدي ١/ ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠٠ .

(٣) ٤ ، المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤ ، وعناج الأمر : ملاحه .

يجيبنا على هذا السؤال الرسالتان المتبادلتان بين أبي سفيان ورسول الله ﷺ :

(وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على بيضة المدينة كتب كتاباً فيه :

باسمك اللهم ، فإنني أحلف باللات والعزى ، لقد سرتُ إليك فى جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلکم منا يوم كيوم أحد ، تبقر فيه النساء .

وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمى ، فلما أتى بالكتاب دعا رسول الله ﷺ أبى ابن كعب فدخل معه قبته ، فقرأ عليه كتاب أبى سفيان ، وكتب إليه رسول الله ﷺ :

من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب .. أما بعد ، فقد يئاً غرُك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تُذكر اللات والعزى ، وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح^(١) ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك » (٢) .

فهو الآن يتميز غيظاً ويأكل قلبه حسرة أن يعود كما قال الله تعالى فيه : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [الاحزاب] ، وصحا من سكرته على الواقع المرير الذى مئى به من الفشل الذريع الذى أصابه وحلفاءه ، وأعاد حساباته جميعاً ، فأدرك أن مجده الذى بلغ الذروة فى أحد ، قد بدأ بالافول بعد الخندق ، ويشس نهائياً من إمكانية النصر على محمد .

و- وراح بتجارة قريش ، فاراً من هذا الواقع المرير ، الذى انتهى بالاعتراف بمحمد ودولته فى عقد الحديبية ، وبحق محمد فى دخول مكة ، فكان ذلك اللقاء الذى جمعه من هرقل ، وانتهى بنفسيته كما قال :

فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

لقد كانت هذه الذكريات تشال عليه من كل جانب طيلة الليلة التى حُبس فيها عند العباس ، ويصل إلى اليقين بنصر محمد عليه ، فهل يا ترى كان ذاك لعبقريه محمد وقوته ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وبطيعة كبريائه رفض أن يعبد ذلك لهذا السبب

(٢) المغارى للواقدي ٢/ ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(١) الراح : الأكف .

وعرف أن إله محمد هو الحق ، وأن اللات والعزى وهبل آلهة مبطلون .

وأغفى على هذه القناعة ليجد نفسه مدعوًا للمثول بين يدي محمد رسول الله ،
وحين كان يمضى إلى رسول الله ﷺ عادت إلى ذاكرته تلك المسامرة بينه وبين أمية بن
أبي الصلت قبل قرابة عشرين عامًا من اليوم إذ كان يقول : (كنت أرى فى كتبي أن نبيًا
يبعث فى حرتنا فكنت أظن بل كنت لا أشك أنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذ هو
فى بنى عبد مناف فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحدًا يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن
ربيعة ، فلما جاوز الأربعين ولم يوح إليه علمت أنه غيره ، قال أبو سفيان : فخرجت
فى ركب أريد اليمن فى تجارة فمررت بأمية بن أبى الصلت ، فقلت له كالمستهزئ به : يا
أمية قد خرج النبى الذى قد كنت تتعته ، قال : إنه حق فاتبعه ، قلت : ما يمنعك من
اتباعه ؟ قال : ما يمنعنى من اتباعه إلا الاستحياء من بنات ثقيف ، إني كنت أحدثهن أنى
هو ، يريننى تابعًا لغلام من بنى عبد مناف ، ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان
إن خالفته قد رُبِطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيك ما يريد ، رواه
الطبرانى فى معجمه (١) .

وها هو الآن قد ربط كما يربط الجدى وهو ماضٍ إلى محمد يحكم فيه بما يريد .

٦ - وكان ذلك اللقاء الخالد بين يدي رسول الله ﷺ وأبى سفيان كان من الممكن أن
يعيد مع ذلك الماضى كله والذى حشد فى رأس أبى سفيان طيلة الليل ، ويذيه حياء
وخجلًا ، وكان من الممكن أن يسفه ويحقره ويستهزئ به ، ويمرغ كرامته فى الوحل ،
وكان من الممكن أن ينزل به أشد أنواع الأذى والإهانة ، كما كان يفعل سفهاء مكة معه ،
كان من الممكن أن يكون هذا كله ، وإذا به يفاجأ أن الأمر عند محمد رسول الله هو أمر
هذا الدين ، وأمر هذه العقيدة إذ صفح عن كل ما كان فى تلك الصفحة السوداء المقيتة
المخزية ، وراح يحدثه عن الإسلام : (فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ ،
فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا
الله ؟ ») .

سمع أبو سفيان هذا السؤال العظيم فأحس بنفسه أنه قطرة فى بحر العظمة المحمدية ،
ولم يتمالك عن القول ، بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت
أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد ، وفى رواية ابن عقبة : (يا محمد
استنصرت آلهتى ، واستنصرت إلهك ، فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت علىّ ، فلو
كان إلهى محققًا وإلهك مبطلًا لقد غلبتك) (٢) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٤٠ / ٥ .

(١) السيرة الحلبية ١٩ / ٣ .

فأين مستوى تفكيره وما يحمل فى نفسه من خوف ورعب وغيظ وحرب وحقد وكبر أمام هذا السمو الإنسانى الخالد ، فكل ما يسأل عنه : « ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله » .

ثم كان السؤال الثانى : « ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » .

(قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فوالله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم) (١) .

وذكر عبد بن حميد : (أن النبى ﷺ حين عرض الإسلام على أبى سفيان قال له : كيف أصنع بالعزى ، فسمعه عمر رضي الله عنه من وراء القبة فقال له : تحزأ عليها ، فقال له : أبو سفيان : ويحك يا عمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى) (٢) .

ويرى عمر رضي الله عنه الذى فاته قتل أبى سفيان أن يقتل ظلام الشرك فى قلبه الذى لا يزال يحن إليه ، فأبو سفيان الذى قال لعمر يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم .

يناسبه وقد أصبح اليوم أسيراً بيد محمد ﷺ أن يقال له عن هذه الآلهة المزيفة التى استنصرها طيلة حياته فلم تنصره ، يناسبه أن يقول له عمر رضي الله عنه : تحزأ عليها .

أما أبو سفيان فهو الذى يرى الحلم والعفو والوصل بعد الغلظة والجفوة والكيد والحقد ، يرى نفسه أمام بحر النور الزاخر الذى يتسع لكل التفاهات الى تمثل ذلك الزبد الذى يغيب فى البحر ، فهو مع رسول الله ﷺ يئسه الشك الذى فى قلبه ، والهم الذى يحمله ، والأمل الذى يحدوه ، والألم الذى يعانى منه ، فلا غرو أن يقول له : دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم .

ولقد كان العباس يدرك أعماق صديقه أبى سفيان الذى عاش معه عمره كله صديقاً فى رحلاته وتجارته .

(قال العباس : قلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابهُ فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ») (٣) .

أما فى رواية البيهقى التى وردت بسند حسن (٤) عن زياد بن عبد الله عن محمد بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٣/٢ . (٢) السيرة الحلبية ١٨/٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٣/٢ .

(٤) زياد بن عبد الله البكائي (صدوق ثبت فى المغازى) ، ابن إسحاق (صدوق يدلّس) الزهري (الإمام الثبت الفقيه) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (ثقة فقيه ثبت) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : (جاء العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان يشهد أن لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؟ » ، قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا الفضل ، انصرف بضيفك الليلة إلى أهلِكَ واغْد به » ، فلما أصبح غدا به عليه ، فقال العباس : يا رسول الله ، بأبى أنت وأُمى إن أبا سفيان رجل يحب الشرف والذكر فأعطه شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما تسع دارى ؟ فقال : « من دخل الكعبة فهو آمن » ، فقال : وما تسع الكعبة ، فقال : « من دخل المسجد فهو آمن » ، فقال : وما يسع المسجد ؟ فقال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » فقال : هذه واسعة (١) .

وهكذا يفتح أبو سفيان صفحة جديدة فى حياته ، ينتقل فيها من ظلام الشرك إلى نور الإسلام ، ولا يزال فى قلبه شيء من صحة النبوة ، وذلك من آثار الملك الذى سيحوِّله منذ الآن تابعاً وفرداً فى جيش محمد بن عبد الله .

وأدرك رسول الله ﷺ أن هذه النزعة حب الفخر والذكر الذى ركَّز عليه العباس صديقه فأعطاه منه رسول الله ﷺ زعامة المستسلمين للدين الجديد ، وأن يكون بيته هو رمز بيت السلام فى مكة فهو الزعيم الذى يحارب وهو الزعيم الذى يصلح ، وهو الآن يحرص على أن يبلغ الخبر لقومه قريش قبل أن يجتاحهم الجيش العظيم ، لكن ما الذى يحول دون المقاومة إن وجد تياراً قوياً يدعو لذلك لا بد له أن يستسلم يقيناً ويعلم أن لا قدرة له على المواجهة .

٧- (فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : « يا عباس احبسه فى مضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ») .

أما رواية موسى بن عقبة فى مغازيه : (فقال العباس : يا رسول الله ، إنى لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه ، فيكفر فأردده حتى تقفه فيرى جنود الله معك ، فأدركه عباس فحبسه) .

لا يزال هذا الخلل فى التيار عند أبى سفيان يشوِّه الرؤيا كلها عنده ، ولا تزال الأحكام معظمها تصدر عن الصراع بينه وبين محمد بن عبد الله ، وقد راعه فى حلمه وعفوه ووصله ، لكن هذا لا يعنى عنده صحة نبوته ورسالته من الله ، ومن أجل ذلك

(١) دلائل النبوة للبيهقى وقال فيها المحقق : نقلها باختصار ابن عبد البر فى الدرر ص ٢١٧ ، والصالحى فى السيرة الشامية ٥ / ٣٣٠ .

لما حبس وحيل بينه وبين المضى إلى مكة ليبلغ رسالة الاستسلام إلى قومه حسب أنه قد غُدر به ، وسيساق إلى مقصلة الموت بعد أن أعلن إسلامه .

(قال : أغدرًا يا بنى هاشم ؟

فقال العباس : ستعلم أنا لسنا بغُدر ، ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جنود الله وإلى ما عُدَّ للمشركين فحبسهم بالمضيّق دون الأراك إلى مكة حتى أصبحوا وأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى لتصبح كل قبيلة قد ارتحلت ووقفت مع صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعدة) (١) .

إن قضية الإيمان بالله ووحدانيته قد تجاوزها أبو سفيان ، وهى لا تمس موقعه وزعامته ولا تقتضى منه أن ينخلع أو يتخلى عن هذه الزعامة ليكون تبعاً لمحمد بن عبد الله ، أما الإيمان برسول الله ، فهذه تعنى أنه أصبح فرداً مسلماً من هذه الآلاف المؤلفة التى عليها أن تسمع وتطيع لرسول الله ، وقد كان صادقاً مع نفسه حين قال : أما هذه ففى النفس منها شيئاً ، ثم اضطر إلى الإيمان خوفاً أن تُضرب عنقه ، وما الذى يمنعه إن غادر الأسر أن يعلن أنه إنما أسلم خوفاً من السيف ، وها هو يعد العدة للمواجهة ، إذن فالقضية التى يجب أن تحسم فى نفسه هى منطق القوة ، وأنه عاجز عن مواجهة محمد ابن عبد الله أو جمع الجموع له أو الدفاع المستميت عن مكة .

ونفسيات الزعماء يصعب أن ترى النور وهى قادرة على الاستمرار فى الزعامة ، خصوصاً وهى تحس بالخطر على زعامتها وقيادتها .

وحين خرجت الإشاعات عندما تأخر فى المدينة أنه قد أسلم، كان أول شيء فعله بعد وصوله مكة المكرمة، أن مضى فى صبيحة اليوم الثانى وأمام الملا من أهل مكة ف (خلق رأسه عند الصنمين إساف ونائلة ، وذبح لهما وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ، ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى ، أبرأ لقريش مما اتهموه) (٢) ، ولو أسلم لعزل مباشرة من قيادة مكة .

إن رسول البشرية محمد رسول الله ﷺ الفقيه فى نفوس هذه النوعيات والذى يسبر أغوارها وأبعادها ومنحنياتهما يدرك أن المنطق الوحيد الذى يقنع أبا سفيان الآن هو منطق القوة ، وقد رأى أبو سفيان الجيش منتشرًا فى السهل لا يعرف منه ولا من كتابه ونوعياته أحد ، أما عندما يتم العرض العسكرى الكامل بكامل الأسلحة والدروع المضادة ، وبالأسلحة الخفيفة والثقيلة وبراياته وألويته وقياداته ورؤساء أركانه من القبائل العربية المشاركة فى هذا الزحف على مكة المكرمة .

(٢) المغازى للواقدي ٧٩٥/٢ .

(١) دلائل النبوة ٤١/٥ .

وقد انحصر تفكير أبى سفيان القائد الداهية عندما حبس بأن بنى هاشم يغدرون به ويقتلونه بعد أن أمنوه على حياته وأجاروه من الموت ، فكان الجواب الحاسم من العباس ابن عبد المطلب ، ستعلم أنا لسنا بغدر ولكن لى إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر جنود الله .

وهذه هى عظمة تربية الخصوم من إمام البشرية وهاديتها محمد رسول الله ﷺ ، لقد أخذ بمجامع قلب أبى سفيان وأسرّه حين لم يوجه له حتى ولو كلمة عتاب ، وأغضى عن كل حربه معه ، وحق له أن يفديه بأبيه وأمه وأن يعلن للدنيا عظمة عفو محمد ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، ولكن هذا شيء والإيمان بالرسالة شيء آخر ، ترى ماذا كان يفعل بمحمد لو وقع أسيراً بين يديه ، هل يبقيه لحظة واحدة على قيد الحياة لكنها عظمة الرجولة ، وعظمة الرجال حين يغضى عن كل حربه معه ، ولا يسأله كلمة واحدة عن مواقفه السابقة ، ومع أن أبا سفيان هو قائد معسكر الشرك ، وهو الذى قاد العرب كلها ليستأصل شأفة محمد ويحارب عقيدته لكنه يعلم أن هذه العقيدة لها متطلباتها ، ولها تكاليفها عندما يتبناها المرء فى حياته ، وهو يرى دائماً كيف يفدى أصحاب محمد محمداً بالمهج والأرواح وله الكلمة الماثورة المشهورة .

والله ما رأيت أحداً يحب أحداً حب أصحاب محمد محمداً .

وقد سبق هذه التربية التى أرادها رسول الله ﷺ لخصمه الأكبر فى رؤية جنود الله ، سبقها حبس ليلة داخل المعسكر قبل لقاء رسول الله ﷺ ليتسنى له أن يتعرف على المسلمين عن كتب فكان ما يلى :

(وخرج أبو سفيان مع العباس فلما نودى للصلاة ثار الناس ففرغ أبو سفيان وقال للعباس : ماذا يريدون ؟ قال : الصلاة ، ورأى أبو سفيان المسلمين يتلقون وضوء رسول الله ﷺ فقال : ما رأيت ملكاً قط كالليلة ، ولا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر (١) .

وهذا هو الهدف المقصود من سجنه لهذه الليلة فى معسكر المسلمين حتى يرى بأم عينه مدى حب هذه الآلاف العشرة لقائدها وحببها محمد عليه الصلاة والسلام ، ومدى استعدادها للموت فى سبيله حين تقتل على وضوئه .

لقد تحدث عروة بن مسعود من قبل أمام أبى سفيان عن هذا الحب والتفانى الذى رآه فى الحديدية ، لكنه هو يراها عياناً ، وإذا كانوا فى الحديدية ألفاً وخمسمائة ، وصالحتهم

(١) دلائل النبوة لليهقى ٤٠/٥ .

قريش فكيف وهم اليوم عشرة آلاف .

وتبقى القضية في ذهن أبي سفيان قضية ملك وقيادة .

وها نحن نشهد الآن الحلقة الخامسة من التربية النبوية لخصمه الأكبر .

لقد كانت الحلقة الأولى ، يوم وجه بالجدار الصلب من الصف الإسلامي الموحد وفشل في مهمته في المدينة وكان على رأس هذا الجدار الصلب ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان .

وكانت الحلقة الثانية ، يوم أخذ أسيراً من جنود المسلمين ومضى مكبلاً إلى رسول الله ﷺ ، ورأى صراع السلطتين السياسية والأمنية حوله والموت يتراقص أمام ناظريه . وكانت الحلقة الثالثة من التربية هي قبول إجارته وحبسه في معسكر المسلمين ورؤيته للصلاة عند المسلمين .

وكانت الحلقة الرابعة ، يوم رأى عظمة العفو ، وذاق عظمة الحلم من رسول الله ﷺ وفداه بأبيه وأمه .

وكانت هذه هي الحلقة الخامسة هي أن يرى جنود الله عند خطم الجبل حيث تبرز الكتائب إثر الكتائب . . . ولاشك أن العباس قد تعرف على كل فصائل الجيش الإسلامي قبل رؤية أبي سفيان، وحيث إنه هو سفير النبوة في مكة فلا عجب أن يكون هو المكلف باستعراض الجيش الإسلامي مع أبي سفيان إضافة إلى ما بينهما من صداقة قديمة، وهو الذي حماه وأجاره .

وكان رعب أبي سفيان من استمرار اعتقاله هو أول المطاف .

(فلما حبست أبا سفيان قال : غُدراً يا بني هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ، ولكن لى إليك حاجة ، فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولاً فقلت : إنى لى إليك حاجة فكان أفرخ لروعى ، قال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب) (١) .

وبدأت طلائع الجيش الإسلامي العظيم تظهر أمام رئيس دولة مكة أبي سفيان .

ومرّت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها ، فكان أول من قدّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في بني سليم وهم ألف يحمل لواءهم عباس بن مرداس السلمى ، ولواء يحمله خُفاف بن ندبة ، ولواء يحمله الحجاج بن علاط .

(١) المغازى للواقدي ٨١٨/٢ .

وأبو سفيان يعلم أن سُلَيْمًا كانت معه في غزوة الأحزاب ضد رسول الله ﷺ وقبائلها هي التي أوقعت محنة بئر معونة بالمسلمين ، وها هو يرى عباس بن مرداس الشاعر الفارس الأشهر في بني سليم ، ويرى سنا بك الخيل تهتز منها الأرض ، ألف فارس وفرس على رأسهم جميعاً من ؟ خالد بن الوليد .

(قال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : خالد بن الوليد) .

وكلمة خالد وحدها كفيّلة أن تُغيب وعى أبي سفيان، فقال والغيط يخنقه : الغلام ؟ قال : نعم ، والغلام هنا لها مدلولها الضخم ، فهو الذي ساد قومه منذ أن كان غلاماً ولا يزال في فتوته ، هنا يقود الخيالة في جيش النبوة ، أما الحجاج بن علاط فما ينسى أبو سفيان أبداً ذلك السهم الغائر في صدره يوم استخف بعقول قريش كلها وأوهمهم أن محمداً أسير عند قادة خيبر وراحوا يجمعون أمواله فرحاً بذلك .

وها هو العباس بجواره (حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلّة له وتخلّق^(١)) وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها فلما رآوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحرّ المصيبة .

قال : كلا والله الذي حلفتُم به ، لقد افتتح محمد خيبر ، وتُرك عروساً على بنت ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه ، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ أمواله ، قالوا : يا لعباد الله ، انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن) ، وها هو الحجاج بن علاط السلمى ، هل يأمر أبو سفيان باعتقاله وإعدامه بعد ذلك الغدر بهم ، ويفرك عيناه ، إنه الآن هو الأسير ، وليس الحجاج بن علاط السلمى وحده بل معه ألف فارس وفرس من سليم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، (فلما حاذى خالد العباس ، وإلى جنبه أبو سفيان : كبر ثلاثاً ثم مضوا ، ثم مرّ الزبير بن العوام في خمسمائة منهم مهاجرون وأفناء العرب ومعه راية سوداء ، فلما حاذى أبا سفيان كبر ثلاثاً وكبر أصحابه ، فقال : من هذا ؟ قال : الزبير بن العوام ، قال : ابن أختك ؟ قال : نعم) ، والزبير شوكة في حلق أبي سفيان فكم قتل من صناديد قريش وأبطالها في تاريخه ، إنه ابن صفيه بنت عبد المطلب .

(ومرّ بنو غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر ويقال : إيماء بن رخصة ، فلما حاذوه كبر ثلاثاً ، قال : يا أبا الفضل من هؤلاء ؟ قال : بنو غفار ، قال : مالى ولبنى غفار) .

(١) أخذ خلوقاً : أى طيّباً وعطراً .

وبنو غفار لا يابه أبو سفيان لهم كثيرًا ، لكنه يعلم أنهم ممن خنقوا قريشًا في طريق تجارتها إلى الشام .

(ثم مرّت أسلم في أربعمئة . . . فلما حاذوه كبر ثلاثًا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : أسلم ، قال : ما لى ولاسلم ، ما كان بيننا وبينها مرة قط ، قال العباس : هم قوم مسلمون دخلوا في الإسلام) (١) .

وصحيح أن أسلم من القبائل العربية الصغيرة التي لا تقيم قريش لها وزنًا لكن ما لها تنضم لمحمد وليس بينها وبين قريش من قبل حرب ولا خصومة ، وكان العباس يحرص على أن يُعلم أبا سفيان أن الأمر أمر هذا الدين ، فمن أسلم ودخل فيه أصبح من حزب الله يوالى من والاه الله تعالى ورسوله ، ويحارب من حارب الله ورسوله ، فكان جواب العباس يصب في هذا المجال : هم قوم هداهم الله للإسلام .

(ثم مرّت بنو عمرو بن كعب في خمسمئة يحمل رايتهم بسر بن سفيان ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو كعب بن عمرو ، قال : نعم هؤلاء حلفاء محمد ، فلما حاذوه كبروا ثلاثًا) .

وهل ينسى وهو يتجرع غيظًا أن هذا الجيش كله ليس زاحفًا لغزو مكة إلا من أجل هؤلاء ، بنى كعب الذين غدروا بهم ، وظاهروا بكرًا عليهم ؟ ويدرك أن المصير المظلم الذى ستقدم عليه مكة إن قاومت ، ما هو إلا من أجل هؤلاء من خزاعة ، الذين حالقوا محمدًا يوم الحديبية ، وهو قادم لنصرهم بعد أن قتلوا ركعًا وسجدًا في حرم الله .

(ثم مرّت مزينة في ألف فيها ثلاثة ألوية ، وفيها مائة فرس . . فلما حاذوه كبروا ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : مزينة ، قال : يا أبا الفضل ما لى ولزينة ، قد جاءتنى تقعقع من شواهقها) .

ومزينة قريش ثانية فقد عبأت قريش في بدر ألقًا وكان معها سبعون فرسًا ، وهذه مزينة وحدها يمكن أن تغزو قريشًا مع أفراسها المائة ، وقد انحدرت من شواحق الجبال نصرة لله ولرسوله .

(ثم مرّت جهينة في ثمانمئة مع قاداتها . . . فلما حاذوه كبروا ثلاثًا) .

وهذا جيش ثان من جهينة بجوار جيش مزينة بجوار من سبقوه من غفار وأسلم وعمرو بن كعب .

(ثم مرّت كنانة ، بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر في مائتين يحمل لواءهم أبو واقد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٤٧/٢ .

الليثي ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً فقال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر .

فها هي خزاعة وبكر العدوان اللدودان تجتمع فصائلهما تحت راية الإسلام العظيم ، فوق ذلك الصراع القبلي المقيت .

يقول أبو سفيان : نعم أهل شؤم والله ، الذين غزانا محمد بسبيهم ، أما والله ما شوورت فيه ولا علمته ، ولقد كنت له كارهاً حين بلغني ولكنه أمر حم .

فهو بيت همه وشجته للعباس بن عبد المطلب صديقه القديم ، ومجيئه الجديد ، وأخيه في الإسلام اليوم ، ويؤكد له رفضه لغدر بكر بخزاعة ، وتواطؤ بعض قيادات قريش معهم ، فيهتبل أبو سفيان الفرصة ليتابع عملية التربية التي أرادها رسول الله ﷺ ، وكلف العباس بتنفيذها ومتابعتها .

يقول العباس : قد خار الله لك في غزو محمد ﷺ ، ودخلتم في الإسلام كافة ، إنه يريد أن يصقل هذا القلب الجاسي ، ويفتت هذا الفؤاد القاسي ، الذي لا يزال يُمدّ بالقيح والصديد من حب الزعامة والشهرة ، ويذكره ، بفضل الله على قريش أن دخل قادتها جميعاً في الإسلام بسبب غدر بكر .

(ثم مرت أشجع وهم آخر من مروا وهم ثلثمائة .. فقال أبو سفيان : من هؤلاء؟ قال : أشجع ، قال : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد) وهو يعرفهم فقد كانوا معه في حرب محمد يوم الأحزاب ، ونعيم بن مسعود حامل لوائهم اليوم هو الذي مزق صف اليهود وغطفان وقريش .

ويتابع العباس على الوتيرة نفسها في طرق الباب ، ومحاولة كسر كل أغلاله ، باب قلب أبي سفيان قائلاً له : أدخل الله الإسلام في قلوبهم فهذا من فضل الله عز وجل .

فسكت ثم قال : ما مضى بعد محمد ، قال العباس : لم يمض بعد .

فكل ما رآه أبو سفيان من جيوش القبائل هي بعد مقدمات لجيش الرحمن ، جيش المهاجرين والانصار ، الكتيبة الخضراء الخرساء التي التقت فيها القيادات الاولى والتي جاهدت منذ فجر التاريخ الإسلامي يقول العباس : لو رأيت الكتيبة التي فيها محمد ﷺ رأيت الحديد والخيول والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، قال : أظن والله يا أبا الفضل ، ومن له بهؤلاء طاقة ؟) .

فهو قد ذاق الأمرين خلال السنوات الثمانية من كتيبة الانصار والمهاجرين ، وكل هؤلاء الذين رآهم هم جيش جديد ، وكتائب جديدة لم تكن قبل فتح مكة .

(فلما طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء طلع سواد وغبرة من سنابك الخيل ، وجعل الناس يمرون ، كل ذلك يقول : ما مر محمد ، فيقول العباس : لا ، حتى مر يسير على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير وهو يحدثهما ، فقال العباس : هذا رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار ، فيها الرايات والألوية مع كل بطن من الأنصار راية ولواء فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ، ولعمر بن الخطاب ؓ فيها رجل وعليه الحديد بصوت عالٍ وهو يزعاها) .

لقد كان نصف الجيش من المهاجرين والأنصار خمسة آلاف ، وعندما كانوا ثلاثمائة ، ذبحوا سبعين من صناديد قريش ، وأسروا سبعين وعندما كانوا سبعمائة سقط سبعون شهيداً منهم حول رسول الله ﷺ ، ولم تتمكن قريش من التقدم شبراً واحداً نحو المدينة . ولقد فرَّ أبو سفيان منهم وهم سبعمائة^(١) فى غزوة حمراء الأسد ، خوفاً من مواجهتهم ثانية حيث وصفهم معبد الخزاعي بقوله :

كادت تهد من الأصوات راحلتى	إذ سالت الأرض بالجرذ الأبايل
تردى بأسد كرام لا تنابلة	عند اللقاء ولا ميلٍ معازيل
فظلتُ أعدو أظن الأرض مائلة	لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم	إذا انفطمطت البطحاء بالجيل

واضطروا لمصاحبتهم وهم ألف وخمسمائة ، فكيف يواجهونهم اليوم وهم خمسة آلاف مقاتل يردفهم خمسة آلاف أخرى من القبائل المجاورة ، فقال أبو سفيان : ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ، ولا خبرنيه مخبر ، سبحان الله ما لأحد بهذه طاقة ولا يدان ، ثم قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً .

وهذا هو الهدف الرئيسى من رؤية أبى سفيان لحزب الله وجيشه ، هو أن يشعر من أعماقه أنه لا طاقة له بمحمد وصحبه ، فما رأى وما سمع مثل اليوم ، وعاد العباس ليخلع الاقفال المتبقية على قلب أبى سفيان ليقول له :

ويحك يا أبا سفيان ، ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال : نعم فالنبوة إذن^(٢) .

لقد ضاقت الهوة كثيراً جداً فى قلب أبى سفيان لتصل إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ بعد ما رأى ما رأى من القوة العظيمة التى ساقط العرب جميعاً تحت رايته ، وهو أميل إلى أن تكون النبوة ؛ لأن هذا النصر والمدد لا يتأتى من العظمة الشخصية فقط ، لا بد

(١) لأن رسول الله ﷺ أذن مؤذنه (ألا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا أمس) فبقوا سبعمائة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٣/٢ .

أن الله تعالى الذى نصره قد بعثه رسولا إلى العباد .

قال له العباس : فانج ويحك فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم .

٨ - ولم لا تكون النبوة ، وها هو العباس يبلغه مقالة رسول الله ﷺ وأوامره الصريحة بدخول الخيل من كداء .

(قالوا : ثم التفت رسول الله ﷺ إلى رجل من الأنصار إلى جنبه ، فقال : كيف قال حسان بن ثابت فقال :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع مطلعها كداء

فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان » .

وقبل أن يودع العباس أبا سفيان ، عادت ذاكرتهما إلى الورا عشرين عاماً أو تزيد حينما ترافقا فى تجارة إلى اليمن .

(قال : ومن ذلك خبر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال :

خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيه أبو سفيان بن حرب ، فورد كتاب حنظلة ابن أبى سفيان : إن محمداً قائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله ، ففسا ذلك فى مجالس أهل اليمن ، فجاءنا خبر من اليهود فقال : بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال : قال العباس فقلت : نعم ، قال : نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟ قلت : لا والله ولا كذب ولا خان ، وما كان اسمه عند قريش إلا الأمين ، قال : هل كتب بيده ؟ فأردت أن أقول : نعم ، فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ويرد على ، فقلت : لا يكتب ، فوثب الخبر وترك رداءه وقال : قتلت يهود وذبحت يهود ، قال العباس : فلما رجعنا إلى منازلنا قال أبو سفيان : يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك فقلتُ : قد رأيت لعلك تؤمن به ؟

قال : لا أؤمن به حتى أرى الخيل فى كداء ، قلت : ما تقول ؟ قال :

كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع على كداء .

قال العباس : فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ونظر أبو سفيان إلى الخيل قد طلعت من كداء ، قال يا أبا سفيان تذكر تلك الكلمة ، قال : إى والله إنى لأذكرها (١) .

فهو من اللحظات الأولى فى فجر الدعوة ، رأى اليهود وأخبارها تفزع من محمد وتؤمن بنبوته ، وهو كذلك من الأيام الأولى حين تناقش مع أمية بن أبى الصلت عرف

(١) السيرة الحلبية ٣٠١/١ .

أن النصرارى يؤمنون بنبوته .

(ومن ذلك ما جاء عن أمية بن أبى الصلت أنه قال لأبى سفيان : إنى لأجد فى الكتب صفة نبي يبعث فى بلادنا ، فكنت أظن أنى هو ، وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو يتصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه ، فعرفت أنه غيره ، قال أبو سفيان : فلما بُعث محمد ﷺ قُلْتُ لأمية ، فقال أمية : أما إنه حق فاتبعه ، فقلت له : فأنت ما يمنعك من اتباعه ، قال : الحياء من نساء ثقيف أنى كنت أخبرهن أنى هو ، ثم أصير تبعاً لفتى من بنى عبد مناف) (١) .

(ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك ما يريد ، رواه الطبرانى فى معجمه) (٢) .

وها هو قبل عام ونيف يسمع تصديق قيصر بنبوته ويقول لأبى سفيان :

(فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) (٣) .

وهل بلغ أبو سفيان من العز والمجد والعقل أن يكون أعقل وأدهى وأعرق مجداً من ملك بنى الأصفر أحد ملكى الدنيا ، وقاهر الفرس آنذاك ، وأعظم حاكم فى الأرض ويقول : لو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، كل هذا ألا يكفيه ليؤمن بنبوة محمد ﷺ .

ولقد أتى به إلى محمد مربوطاً كما يربط الجدى ، وحكم فيه رسول الله ما شاء ، وعفا عنه فكان أحلم وأبر وأوصل من عرف ، ولقد انتهت عقدة الذل من محمد أو الإهانة أو القتل ، فما الذى يحول بينه وبين الإيمان بالنبوة من أعماقه ، أما من ظاهره فقد أعلنها ، بقى عنده الحياء من نساء مكة ، كما كان الحياء من نساء ثقيف عند أمية أن يعرف أنه أصبح تابعاً لمحمد ، وقد عرف وأعلنها فى الظاهر على الملأ :

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله مع أن رسول الله أعطاه الفخر الذى يريده سيد مكة فى الصلح والحرب .

٩ - ونستبق الحدث لنشهد الرد النهائى للشك والانبلاج بالنور المحمدى فى قلبه ، وذلك بعد فتح مكة ، فى الروايات الصحيحة المروية عنه :

(٢) المصدر نفسه ١٩/٣ .

(١) السيرة الحلبية ١ / ٣٠١ .

(٣) البخارى ٦ / ١ / ١ .

١ - قال : أخبرنا محمد بن عبيد قال : حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق السبيعي أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه : لو جمعت لمحمد جمعاً ، قال : إنه ليحدث نفسه إذ ضرب النبي ﷺ بين كتفيه وقال : « إذن أخزأك الله » ، قال : فرفع رأسه فإذا النبي ﷺ قائم على رأسه فقال :

ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة إن كنت لأحدث نفسي بذلك (١) .

٢ - قال : أخبرنا الفضل بن دكين أبو نعيم ، ومحمد بن عبد الله الأسدي قال : حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر قال : لما رأى أبو سفيان الناس يطؤون عقبي رسول الله ﷺ حسده فقال بينه وبين نفسه : لو عاودت هذا الرجل فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب يده على صدره ثم قال : « إذن يُخزيك الله ، إذن يُخزيك الله » ، فقال : أتوب إلى الله وأستغفره والله ما تفوهت به ما هو إلا شيء حدثت به نفسي (٢) .

٣ - قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكي قال : حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الرجال عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : خرج النبي ﷺ ملتحقاً بثوب من بعض بيوت نسائه وأبو سفيان جالس في المسجد ، فقال أبو سفيان : ما أدرى بم يغلبنا محمد ؟ فأتى النبي ﷺ حتى ضرب في ظهره وقال : « بالله يغلبك » ، قال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله (٣) .

فنحن نشهد الآن اليقين النهائي الذي يغمر قلب أبي سفيان حيث شهد بعينه أن محمداً يوحى إليه ، فقد أعلمه ربه بما يُحدثُ به أبو سفيان نفسه ، كما أنه الآن يدفع النبي ﷺ بالراح (أي الأيدي) كما كتب له في رسالته ويطلب الأمان لقريش منه، وها هو يرى الخيل تطلع من كداء فلم لا يؤمن ، وقد ملأ اليقين قلبه وكيونته ؟

١٠ - (وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة فهو أمام الكتيبة ، فلما مر سعد براية رسول الله ﷺ نادى أبا سفيان ، فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً .. فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال : يا رسول الله ،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٤/١ ، ٨٥ . تحقيق ودراسة د. عبد العزيز السلوي ، وقال فيه المحقق : إسناده صحيح إلى أبي إسحاق ، وأبو إسحاق السبيعي هو عمرو بن عبد الله الهمداني كوفي تابعي مكثرت ثقة عابد روى عن بعض الصحابة ، اختلط بآخره ومات سنة ١٢٩ هـ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٥/١ ، ٨٦ وقال المحقق فيه : إسناده حسن إلى أبي السفر ، وأبو السفر هو سعيد بن يحيى الهمداني الثوري الكوفي ثقة من الثالثة توفي سنة ١١٢ هـ .

(٣) إسناده صحيح إلى عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري المدني القاضي تابعي ثقة متفق على توثيقه روى له الجماعة ويرسل كثيراً مات سنة ١٣٥ هـ وهو في الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٦/١ ، ٨٧ .

أمرت بقتل قومك ؟ ! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : كذا وكذا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، وأنت أبرُّ الناس ، وأوصل الناس ، وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب (١) سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة اليوم يوم تكسى فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » (٢) .

ورواية البخارى (فقال سعد بن عبادة : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة . . . فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : قال كذا وكذا ، فقال : « كذب سعد ، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » (٣) .

(وقد روى الاموى فى المغازى أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه : أمرت بقتل قومك . . . وأرسل إلى سعد ، فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس) (٤) .

لا بد أن نقف عند سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو الذى انتهت إليه راية النبي ﷺ ، وهو الذى أمضى فى حرب قريش ثمانى سنوات لا يهدأ لها أوار ، وسبق أن وقع أسيراً فى يد قريش بعد بيعة العقبة الثانية ، وقبل ابتداء الحرب بين الفريقين .

قال : (ونفر الناس من منى ، فتنطس القوم الخبر ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيياً فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله (٥) ، ثم اقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه ، وكان ذا شعر كثير ، قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع عليه نفر من قريش فيهم رجل وضئ أبيض ، شعشاع حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، قال : فلما دنا منى رفع يده فلكنى لكمة شديدة ، قال : فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى ، إذ آوى إلى رجل منهم ممن كان معهم ، فقال : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم . . . تجاره (٦) وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية ، قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما

(١) كذب سعد : قال الحافظ ابن حجر : (فقال : كذب سعد : أى أخطأ) الفتح ٩/٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٣٥/٥ . (٣) البخارى م ١٨٧/٥ .

(٤) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٩/٨ . (٥) نسج رحله : الشراك الذى يشد به الرجل .

(٦) تجاره : أى جمع تاجر فكسر وفتح مثل تجاره .

فى المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف باسمكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً قالوا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عباد ، قالوا : صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، قال : فجاء فخلصنا سعداً من أيديهم فانطلق ، وكان الذى لكّم سعداً سهيل بن عمرو . . . قال ابن هشام : وكان الرجل الذى أوى إليه أبا البختری بن هشام .

قال ابن إسحاق : وكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين ، قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر ، فقال :

تداركت سعداً عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلتُهُ طَلَّتْ هناك جراحه وكان حريّاً أن يهان ويهدرا (١)

لقد ذاق سعد الإهانة والضرب والذل منذ اللحظات الأولى للبيعة وهو سيد قومه الخزرج الذى تغضب له مئات السيوف ، وسعد المعروف بحدته وعنفه وقد بقى مع قومه يجاهد فى سبيل الله هذه السنوات الثمانية وآن الأوان للثأر اليوم ممن حادوا الله تعالى وحادوا رسوله وكذبوه ، فلا عجب أن يُهدّد أبا سفيان بقوله : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً .

وأبو سفيان - بطل السلام والأمن - يعلم أن سعداً من القوة والغلظة على أعداء الله وهو يحمل راية رسول الله يمكن أن يفنى قريشاً عن آخرها ، ومن ورائه قومه من الخزرج الذين قدّموا الشهداء والضحايا والجراحات مع قريش ، وهذا أوان الثأر .

ويدرك أبو سفيان بثاقب نظره أن سعداً ، وهو يحمل هذا التاريخ الطويل من الحرب مع قريش قد يهلك قريشاً كلها ، فأحس أن عليه مسؤولية جسيمة ، وهو لا يضمن نجاح مهمته لو أريق دماء القرشيين ، وتحركت الثارات فمن يضمن القلوب أن تقرّ بعد ذلك ومن سيستجيب له فى أن يغلق بابه إذا كسر عليه بابه ، أو قتل أبوه أو أخوه أو عمه ، ويوم الملحمة هو يوم الالتحام والقتال والدماء ، ويوم استحلال الحرمه هو استحلال للدماء فى حرم الله ؛ دماء هؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله ، وأخرجوه والمسلمين من ديارهم وأبنائهم .

فوجد أبو سفيان الفرصة سانحة أن ينادى أعظم من فى الوجود براً وحلماً وفضلاً ؛ ليمنع مذبحه قريش على يد ألد أعدائها سعد بن عباد ، الذين أسروه ولطموه وجرجروه فى شوارع مكة وعذبوه .

- ومع أن الذى أجار سعداً هو أخو أبى سفيان بن حرب الحارث بن حرب ، ومع أن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٥٠ ، ٤٥١ .

أبا سفيان قصد سعدًا بالذات فيمن قصده يوم جاء المدينة يشد العقد ويزيد المدة ، وذكر سعدًا بالماضي الحليف معه فقال له :

يا أبا ثابت ، قد عرفت الذى كان بينى وبينك ، وأنى قد كنت لك فى حرمانا جارًا ، وكنت لى فى يثرب مثل ذلك ، وأنت سيد هذه البحرة فأجر بين الناس وزد فى المدة ، فقال سعد : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ . مع هذا كله فهو لا يأمن سعدًا الذى يتقد غيظًا على أعداء الله ، فلم لا يجير أبو سفيان إذا أهل مكة جميعًا بقوله لمحمد رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك !؟ ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة . . . وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبر الناس وأوصل الناس وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب سعد ، يا أبا سفيان : اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم يوم تكسى فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا » .

إن اتجاه الرحمة المهداة للبشرية لا يمكن أن يتم على يده استئصال قومه ، واستباحة بيضة بلده ، ولا يمكن له وهو الذى نالت رحمته الجمادات والحيوانات والبهائم العجماوات أن يكون سبب هلاك قومه واستئصالهم ، فهذا اليوم هو يوم المرحمة لا يوم الملحمة ، وهذا اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ولا تستحل فيه حرمت الله ، وهذا اليوم يُعز الله قريشًا بدخولها فى دين الله ، وليس يوم ذلها بقتلها محادة لله ولرسوله .
وأخطأ سعد ﷺ .

وفى رواية ابن إسحاق : (أن سعدًا لما قال ، سمعه رجل من المهاجرين - قال ابن هشام : هو عمر بن الخطاب ، فقال : يا رسول الله ، ما تأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : « أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها ») (١) .

إن هذه الجملة الخالدة التى أعلنها عليه الصلاة والسلام هى إعلان مبادئ وهى إقامة دولة العقيدة لا دولة الثارات القبلية ولا دولة الجاهلية المستعلية ، إنها دولة حزب الله تعالى الذى سيكون رحمة حتى لقريش العاتية المعادية ، فهى الآن إن استسلمت أمنت ودخلت فى دين الله .

١١ - (وقال ضرار بن الخطاب الفهرى فيما ذكره محمد بن عمر ، وأبو عثمان سعيد ابن يحيى الأموى شعراً ، يستعطف رسول الله ﷺ على أهل مكة حين سمع قول سعد ، قال أبو الربيع : هو أجود شعراً قاله .

ولا بُعد أبدًا أن يكون أبو سفيان هو الذى أرسل إلى ضرار بمقالة سعد .

وعند ابن إسحاق وعند ابن عساكر ، من طريق ابن الزبير عن جابر ، أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ بهذا الشعر ، فكان ضرارًا أرسل به المرأة ليكون أبلغ فى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٦/٢م ، ٤٠٧ .

انعطاف رسول الله ﷺ على قريش :

يا نبي الهدى إليك لجأ^(١) حين ضاقت عليهم سعة الأرض والتفت حلقتا البطان^(٢) على إن سعداً يريد قاصمة الظهر خزرجى لو يستطيع من الغيظ وغر الصدر^(٦) لا يهـم بشيء قد تظلى على البطاح وجاءت إذ ينادى بذل حى قريش فلتن أقحم اللواء ونادى ثم ثابت إليه من يهـم^(١٠) الخزرج لتكونن بالبطاح قريش فانهينه فإنه أسد الاسد إنه مطرق يريد لنا الأمر

حى قريش ولات حين لجاء وعاداهم إله السماء القوم ونودوا بالصيلم^(٣) الصلواء بأهل الحصون والبطحاء رمانا بالنسر^(٤) والعواء^(٥) غير سفك الدماء وسبى النساء عنه هند^(٧) بالسوء السواء^(٨) وابن حرب^(٩) بذأ من الشهداء يا حماة الأدبار - أهل اللواء والأوس أنجم الهيجاء فقعة^(١١) القاع فى أكف الإماء لدى الغاب والغ فى الدماء سكوتاً كالحية الصماء^(١٢)

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ، فتنزع اللواء من يده ، وجعله إلى ابنه قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه (١٣) .

(قال محمد بن عمر : فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمانة من رسول الله ﷺ ، فأرسل النبي ﷺ بعمامته ، فدفع اللواء إلى ابنه قيس ويقال : إن رسول الله ﷺ أمر علياً فأخذ الراية فذهب بها إلى مكة حتى غرزاها عند الركن (١٤) .

(قال أبو عمر رحمه الله تعالى : قد روى أن رسول الله ﷺ أعطى الراية للزبير إذ نزعها من سعد ، وروى أبو يعلى عن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دفعها إليه فدخل

(١) لجأ : لجأ .

(٢) حلقتا البطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير ، ويقال هذا للأمر إذا اشتد .

(٣) الصيلم : الداهية . (٤) النسر : النجم المعروف .

(٥) العواء : من العوة وهى اللبر ، وكأنهم سموها بذلك لأنها دبر الأسد من البروج .

(٦) وغر الصدر : حره . (٧) هند : بنت عتبة .

(٨) السوء السواء : الحلة القبيحة . (٩) ابن حرب : أبو سفيان .

(١٠) البهـم : الفارس الذى لا يدرى من أين يؤتى ؛ لشدة بأسه ، والجمع بهـم .

(١١) الفقعة : جمع فقع ، ضرب من الكماء وهى البيضاء الرخوة .

(١٢) الحية الصماء : التى لا تسمع . (١٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٣٥/٥ ، ٣٣٦ .

(١٤) المغارى للواقدي ٨٢٢/٢ .

مكة بلواءين ، وبه جزم موسى بن عقبة (١) .

قال الحافظ : (والذي يظهر فى الجمع أن رسول الله ﷺ أرسل علياً ؛ لينزعها وأن يدخل بها ، ثم خشى تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه قيس ، ثم إن سعداً خشى أن يقع من ابنه شيء يكرهه رسول الله ﷺ وسعد ، فسأل رسول الله ﷺ أن يأخذها فحيث أخذها الزبير ، ويؤيد ذلك ما رواه البزار بسند على شرط البخارى عن أنس رضي الله عنه قال : كان قيس فى مقدمة النبى ﷺ لما قدم مكة ، فكلم سعد النبى ﷺ أن يصرفه عن الموضع الذى هو فيه مخافة أن يقدم على شيء فصرفه عن ذلك . انتهى (٢) .

ونجحت خطة أبى سفيان فى توظيف كل الطاقات لحماية قريش من الإبادة فقد بعث إلى ضرار بما سمعه من سعد ، وبعث ضرار بهذا الشعر العظيم يستعطف به سيد الخلق أن يرحم قريشاً التى التفت عليها حلقتا البطان حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء .

لقد كان ضرار بن الخطاب الفهرى هو الذى افتتح معركة الشعر جذلاً بالانتصار حين أسر سعد بن عبادة ، وها هو يختم معركة الشعر يتعطف ويتذلل لرسول الله ﷺ خوفاً من بطش سعد بن عبادة . وحين يعلن فى بداية الطريق أن سعداً والمنذر سادة الخزرج تطل جراحهم ، وتهدر فلا قوة تمحيهم وهذا سعد يجز كما تُجرُ البهيمة ، ويلكم كما يلكم العبد ، ويجذب من شعره ، وينسون أنه سيد الخزرج الذى تعرفه الإنس والجن كما يروون عن مقتله برواية راوٍ من الجن :

(قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده) (٣)

سعد بن عبادة معروف كذلك عند الجن منذ فجر الدعوة الأول .

(وسمع أهل مكة هاتفاً يهتف ويقول قبل إسلام سعد :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فحسبوا أنه يريد بالسعدين : القبيلتين ؛ سعد هذيم بن قضاة ، وسعد بن زيد مناة من تميم حتى سمعوه يقول :

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيباً إلى داعى الهدى وتمنيا على الله فى الفردوس منية عارف

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٣٧/٥ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٩/٨ . (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/١١٣ .

فعلموا أنه حيثنذ يريد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (١) .

فسعد بن عبادة هذا الذى كان أكبر أعلام المدينة ، يفخر ضرار بن الخطاب بأسره وتعذيبه ، ويتحسر على أن فاته المنذر بن عمرو قاتلاً يفتخر ويتحسر :

تداركت سعداً عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذراً
ولو نلتها طلت هناك جراحه وكان حرياً أن يهان ويهدرا
ها هو ضرار بعد ثمان سنين بعد ذلك الفخر الأجوف ، يقف مذعوراً مرعوباً من سعد ابن عبادة ، هذا الذى يصفه بقوله :

إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
ولا عجب ففى الأبطح كان يُجرُّ ويهان .

خزرجى لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر والعواء
وغير الصدر لا يهتم بشيء غير سفك الدماء وسبى النساء

وهو يعترف بأنه البطل الرهيب الذى لا يضارعه أحد ، وهو السيد فى قومه الذى تستجيب له الألوف اليوم .

فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة الأدبار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخزرج والاوز أنجم الهيجاء

وهذا يعنى أن نهاية قريش ستكون على يده ويد جنده الأسد الأشداء ، وكما قال أبو سفيان لرسول الله ﷺ : أمرت بهلاك قومك .

لتكونن بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكف الإمام
فانهينه فإنه أسد الأسد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمر سكوئاً كالحية الصماء

وهذا ليس اتهاماً له ، بل هو ما أعلنه : اليوم تستحل الحرمه ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، وهند بنت عتبة ، وأبو سفيان بن حرب الشهداء على ذلك :

قد تلفى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوءة السوءاء
إذ ينادى بذل حى قريش وابن حرب بذاً من الشهداء

(١) الروض الأنف للسهيلى ١٩٩/٢/١ .

ويعلم رسول الله ﷺ ابتداء المبادئ العظمى التى تحكم المسيرة وتحكم الجيش ،
وتحكم حزب الله :

« اليوم يوم المرحمة ، اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » .
وهل من عز فى هذا الوجود يعدل انتصار محمد بن عبد الله الذى تنتمى إليه قريش
وتفخر به ، وتسعد به وهو الذى يعلن للدنيا : « نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمناً ،
ولا ننتفى من أبينا » (١) ، والنضر بن كنانة هو قريش .

وهنا نبحت عن عظمة التربية الخالدة لسيد ولد آدم بين هذه العواطف الملتهبة ،
والقيادات المتصارعة ، جيش من عشرة آلاف محارب تتلظى حقداً على قريش التى حاربت
الله ورسوله خلال عشرين عاماً ، وجاءت بالعرب من تهامة ونجد تستأصل شأفة الإسلام ،
وتبيد خضراء المسلمين .

وقيادات قريش هذه ذهلت لعظمة محمد وطمعت فى سعة عفوه ، وتأمل ألا تراق
قطرة دم لقريش ، وهى لا ترضى إلا عزل أكبر قيادات محمد ﷺ ورئيس أركان الجيش
الإسلامى ، الذى سلمه رسول الله ﷺ رايته العظمى .

فكيف يتصرف إمام المربين فى الوجود بين هذه العواصف المتضادة المتصارعة ،
والجيش فى أعداده الوفيرة وكتائبه الضخمة إنما يريد سبى قريش وقتل رجالها وسبى نساها ،
كما هى حالة كل متصرف فى كل معركة .

لقد كاد هذا الجيش فى قياداته الأولى أن يهلك من أجل الغنائم ، فى فجر الحرب
الإسلامية الأولى فى بدر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال] ، وهى التى فسرهما
عبادة بن الصامت بقوله :

(فىنا نزلت أهل بدر حين اختلفنا فى النفل يوم بدر ، فانتزعه الله من أيدينا حين
ساءت فيه أخلاقنا) (٢) .

ونزلت المحنة الكبرى فيه يوم أحد ، حين استهوت الغنائم معظم الرماة ، فقص الله
تعالى قصته فى كتابه :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى ٢٧/٦/٣ ح (٢٦٢٩) ، رواه أحمد وابن ماجه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م ٦٦٦/١ .

مَنْ بَعْدَ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ [آل عمران] .

وأولاء الرعيل الاول ، وقيادات هذا الجيش كله ، الذين لم يتجاوزوا سبعمائة وكلهم اليوم يقودون هذا الجيش إلا من كتب الله تعالى له الشهادة ، ووراءهم أقوامهم ، فكيف يعود هؤلاء جميعاً بعد حرب يستعدون لها منذ عشرة أيام ، ثم يمضون بعد ذلك لا يروون ظمأً سيوفهم إلى الدماء ، وظمأً أرواحهم إلى الشهادة ، وظمأً نفوسهم إلى الغنيمة ؟ هل يمكن أن تنتهى المعركة هكذا دون شيء ؟

كيف يوفق رسول الله ﷺ بين هذه العواطف المتأججة ، والنفوس المتصارعة ، والرغبات الجامحة وهو يقود هذه المسيرة الضخمة نحو مكة ، كيف يربى هذه القاعدة العريضة بعد تربية تلك القيادات الخالدة ، والقيادات الخالدة هى نفسها تنادى :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً .

ورسول الله تعالى يواجه الآن أعنف موقف من رئيس أركانه ، وحامل رايته العظمى ، وسيد الانصار ، أكبر وأعظم كتائب جيشه وأمهرها إعداداً وتدريباً وأسلحة فيهم ألف دارع ، لا يرى منها إلا الحدق ، والمدججة بالحديد ، يريد أن يصدم هذه الكتيبة الضخمة التى تربو على أربعة آلاف مقاتل ، وهى أعظم فرق جيشه وأعلاها تدريباً وإيماناً وتسليحاً وإخلاصاً ووفاء ، كيف يفعل بها حين يعزل قائدها إرضاء لأبى سفيان وأمثاله الاعداء الالءاء الذين حاربوا الله ورسوله .

كيف يربى رسول الله ﷺ هذه القاعدة العريضة ؟ وكيف يلبى إصرار قريش وزعاماتها على عزل سعد بن عبادة عن القيادة ؟

فكانت الحكمة العظمى فى تحويل الراية من سعد بن عبادة إلى قيس بن سعد ، فلقد بقيت فى يده حين انتقلت إلى يد ابنه ، وعرف الانصار أن الراية لم تنزع من قائدهم ، وأن قيساً هو هو أبوه سعد .

لكن كيف يتم امتصاص هذه العواطف المتأججة التى تود الثأر من قريش ؟ وخزاعة التى تود الثأر من بكر ، فكانت الخطة العظمى فى ذلك بعد إعلان الأمان العام : من أغلق بابه فهو آمن ، وهى التى سنعرض لها فيما بعد ، وبلغ السمو بسعد بن عبادة رضي الله عنه مبلغاً لا يصل إليه إلا ذلك الجليل الفريد فى تاريخ البشرية ، والذى رياه رسول الله ﷺ بيده ، حين بعث إلى رسول الله ﷺ يناشده أن يعزل ابنه قيس بن سعد ؛ حتى لا يقع منه ما يفسد خطة النبى ﷺ فى التعامل مع قريش .

(ويؤيد ذلك ما رواه البزار بسند على شرط البخارى عن أنس رضي الله عنه قال : كان قيس فى مقدمة رسول الله ﷺ لما قدم مكة ، فكلّم سعد النبى ﷺ أن يصرفه عن الموضع الذى هو فيه مخافة أن يقدم على شىء ، فصرفه عن ذلك) .

واستلم الراية العظمى ؛ راية رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، بإصرار سعد على نزاعها من ابنه قيس .

١٢ - (فحدثنى عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن ساعدة قال : قال له العباس : فاتج ويحك ، فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم ، قال : فخرج أبو سفيان ، فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كداء وهو يقول : من أغلق بابه فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة ، فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، وقد جعل لى من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن طرح السلاح فهو آمن ، قالت : قبحك الله رسول قوم ، وجعل يصرخ بمكة : يا معشر قريش ، ويحكم ، إنه قد جاء ما لا قبل لكم به ، هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد فأسلموا ، قالوا : قبحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول : اقتلوا وافدكم هذا ، قبحك الله وافد قوم ، قال : يقول أبو سفيان : لا تغرّنكم هذه من أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الرجال والكراع والسلاح ، فما لأحد بهذا طاقة) (١) .

لقد شهد أبو سفيان جنود الله ، وشهد القبائل والرايات ، وشهد الكتبية الحشناء الخضراء ، والتي لا يرى منها إلا الحدق، والتي فيها ألف دارع والمدججة بالحديد ، وشهد جيشاً ما رأت عينه مثله قط ولا خبره مخبر ، وشهد بعظمة ملك محمد بن عبد الله وهو يعرف أن القضية ليست قضية العدد فقط ، إنما قضيته الحب والفداء والتضحية فقد شهد الصلاة للمسلمين ، وشهد اقتالهم على وضوء رسول الله ﷺ وشهد الحب الذى لم يره فى بلاط كسرى ولا بلاط قيصر ولا بلاط النجاشى وأن هذه الآلاف العشرة على استعداد أن تباد كلها فداء لظفر محمد عليه الصلاة والسلام ، وشهد نفسه فى أعماقها التى ذابت أمام عظمة محمد ﷺ ، فهو يكرر : بأبى أنت وأمى يا محمد ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، شهد عظمة حب محمد فى قلبه قبل أن يشهد له بالرسالة والتى فى نفسه منها شىء وشهد استجابته لرغبته يوم عزل سعداً خوفاً على قريش من سطوته ، وشهد نفسه كيف لم يعد يملك ضبط نفسه فى الإعجاب بعظمة هذا القائد ، بعظمة هذا الملك ، بعظمة هذا النبى ، فقد غدا يطلق الثناء على عواهنه .

يا أبر الناس ، يا أوصل الناس ، يا أرحم الناس .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٢٣ .

لقد غدا على استعداد أن يُقتل مع هذا الجيش كله فيما لو مُسَّ محمد ﷺ بشوكة تؤذيه في رجله، وأصبح جندياً من حزب الله، رغم تلك اللوثة الصغيرة التي لا تزال تفتح فحيح الأفعى في قلبه تشككه في النبوة . إن عظمة الرجولة وعظمة البطولة وعظمة الملك وعظمة الوفاء وعظمة الرحمة وعظمة البر وعظمة الحب وعظمة الحلم وعظمة العفو ، فهذه قد غدت عملاً كيانه وتغمر وجدانه ونمت تربيته تربية كاملة حتى قبل إسلامه ، فراح ينفذ المهمة بدقة ملقياً وراء ظهره كل ما تواجهه به زوجته والمتحمسون من قومه والمتعصبون من عشيرته ، إنه يصرخ غير هباب ولا وجل على شيء : يا معشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ؛ بعشرة آلاف عليهم الحديد ، ويسيل الوادي بالناس ويجمعون بقائدهم الذي عرفوه بطلاً مغواراً وسيداً شجاعاً يسألونه عن الحل ، فيدعوهم إلى الدخول في إجارته : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن (قالوا : قاتلك الله ، وما تغني دارك ؟ قال : من أغلق بابي فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن) (١) ، فهذه الجماهير كلها تمضي مذعورة فارة إلى مكمنها وأمنها ، إلا هند توجهت بأخذه بشاربه وتقول : (اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبِحَ من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان : (ويحكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به) ، ومن يجرؤ على هذا الموقف إلا أبو سفيان قائد قريش كلها والعرب كلها لحرب محمد عليه الصلاة والسلام ، وأدري الناس به ها هو يعلن : أسلموا تَسَلَّمُوا ، ويصرخ معلناً محذراً منذراً ، واستجاب أكثر أهل مكة له بينما جيش الجناح العسكري بقيادة هند وأضرابها جيشاً صغيراً للدفاع عن مكة ، نتحدث عنه فيما بعد ، وقد انتهت في جولتنا مع أبي سفيان ﷺ - منذ أن أعلن أنه لن يسلم حتى يرى الخيل تطلع من كداء في فجر الدعوة الأول - إليه وهو يرى الخيل تطلع من كداء فيسلم وتسلم مكة معه ، ولم يكن ليتم لولا التربية النبوية الخالدة له وهو يحاربه وهو يكيد له ، فهل في الوجود مثل هذه التربية ؟ هل من مثيل !؟

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٣٨/٥ .

مع الرسول ﷺ إلى مكة

١ - قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى وغيره :

(لما ذهب أبو سفيان إلى مكة بعدما عاين جنود الله تمر عليه ، فأنتهى المسلمون إلى ذى طوى^(١) ، فوقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتى تلاحق الناس ، وأقبل رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء ، وهو على ناقته القصواء ، معتجراً بشق بردة حمراء)^(٢) .

(وعن أنس رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله ﷺ استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله متخشعاً ، رواه الحاكم بسند جيد وقوى ، ورواه أبو يعلى من طريق آخر)^(٣) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداء ، ورايته سوداء ، ولواؤه أسود ، حتى وقف بذى طوى ، وتوسط الناس ، وإن عثونه^(٤) ليمس واسطة رحله أو يقرب منها تواضعاً لله عز وجل ، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين ثم قال : « إن العيش عيش الآخرة » قال : وجعلت الخيل تمعج^(٥) بذى طوى في كل وجه ، ثم ثابت وسكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ ، رواه محمد بن عمر)^(٦) .

(وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام ، رواه الإمام أحمد ومسلم والأربعة)^(٧) .

(وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح من كداء من أعلى مكة ، رواه البخاري والبيهقي)^(٨) ، (وعن جابر رضي الله عنه كان لواء رسول الله ﷺ يوم دخل مكة أبيض ، رواه الأربعة) ، (وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لواء رسول الله ﷺ يوم الفتح أبيض ، ورايته سوداء تُسمى العقاب ، وكانت قطعة مرط مرحل^(٩)) ، رواه ابن إسحاق)^(١٠) .

(وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فتبسم إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : « يا أبا بكر ، كيف قال

(١) ذى طوى : واد بمكة وهو داخلها اليوم .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م ٢/٤٠٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٤٢/٥ .

(٤) العثون : اللحية .

(٥) تمعج : تسير في كل اتجاه .

(٦) المغازي للواقدي ٢/٨٢٤ .

(٧) سبل الهدى والرشاد ٣٤٢/٥ ، وعند مسلم ٢/٩٩٠ ح (١٣٥٨) .

(٨) الفتح ١٨/٨ ح (٤٢٩٠) .

(٩) المرط المرحل : كساء من صنع اليمن .

(١٠) سبل الهدى والرشاد ٣٤٢/٥ .

حسان ؟ » فأنشده أبو بكر قول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تشير النقع مطلعها كداء
ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمير النساء

فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان » (١) .

٢ - (وفى الصحيح وغيره عن عروة أن الرسول ﷺ أمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداء من أعلى مكة ، وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه ، وفى الصحيح أيضاً عن العباس أنه قال للزبير بن العوام : يا أبا عبد الله ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية ؟ قال : نعم) (٢) .

(وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وكان على المجنبية اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب أن يدخلوا من الليط ، وهو أسفل مكة ، وأمره أن يغرز رايته عند أدنى البيوت) (٣) .

(وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن رباح أن أبا عبيدة كان على البياذقة - يعنى الرجال) (٤) (وأمر أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على الحُسْر كما عند الإمام أحمد ومسلم) (٥) .

٣ - (وذكر ابن إسحاق أن أصحاب خالد لقوا ناساً من قريش منهم سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية كانوا تجمعوا بالخدمة ليقاتلوا ، وقد كان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ ويصلح منه فقال له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى علّه هذا سلاح كامل وآله (٦)

وذو غرارين سريع السله

ثم شهد الخدمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر أحد بني محارب بن فهر وخنيس بن خالد حليف بني مُنْقِذ ، وكانا فى خيل خالد بن الوليد فشدّا عنه فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً ، قتل خنيس قبل كرز بن جابر فجعله كرز بن جابر بين

(١) رواه البيهقى بإسناد حسن . انظر : الفتح ١٨/٨ .

(٢، ٣) فتح البارى ٦/٨ .

(٤) مسلم ١٤٠٧/٣ ح ٨٦ / (١٧٨٠) .

(٥) المصدر نفسه ٣/ ١٤٠٥ .

(٦) الآلة : الحرية لها سنان طويل .

رجليه ثم قاتل عنه حتى قُتل وهو يرتجز ويقول :

قد علمت صفراء من بنى فهر نقية الوجه نقية الصدر

لاضربن اليوم عن أبى صخر^(١)

وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين قريب من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامراته : أغلقى علىّ بابي ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
وأبو يزيد^(٢) قائم كالنوم واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطق في اللوم أدنى كلمه^(٣)

وعند موسى بن عقبة : واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة ، وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالدًا فقاتلهم فانهزموا وقتل من بنى بكر نحو عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور ، وارتفعت طائفة منهم على الجبال وصاح أبو سفيان : من أغلق بابي وكف يده فهو آمن ، قال : ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال : « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نظن أن خالدًا قوتل ويُدعى بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتل ثم قال : قال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد : « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ، ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففت يدي ما استطعت ، فقال : قضاء الله خير . وذكر ابن سعد أن عدة من أصيب من الكفار أربعة عشر رجلاً ، ومن هذيل خاصة أربعة^(٤) .

٤ - عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة قال : وفدت وفود إلى معاوية وذلك في رمضان ، فكان يصنع بعضنا لبعض الطعام ، فكان أبو هريرة مما يكثر ما يدعوننا إلى رحله ، فقلت : ألا أصنع طعاماً فأدعوهم إلى رحلي ؟ فأمرت بطعام يُصنع ، ثم لقيت أبا هريرة من العشى ، فقال : الدعوة عندى الليلة فقال : سبقتني ؟ قلت : نعم ، فدعوتهم ،

(١) أبو صخر : قال ابن هشام : وكان خنيس يكنى أبا صخر ، وقال : خنيس بن خالد من خزاعة م ٤٠٨ / ٢ .

(٢) أبو يزيد : سهيل بن عمرو .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام م ٤٠٧ / ٢ ، ٤٠٨ .

(٤) فتح الباري للحافظ ابن حجر ١١ / ٨ .

فقال أبو هريرة : ألا أعلمكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار ، ثم ذكر فتح مكة فقال : أقبل رسول الله ﷺ حتى قدم مكة ، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين ، وبعث خالدًا على المجنبة الأخرى ، وبعث أبا عبيدة على الحسر^(١) فأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبه ، قال : فنظر فرآني ، فقال : « أبو هريرة ؟ » قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : « لا يأتيني إلا أنصاري » زاد غير شيان : « اهتف لي بالأنصار » قال : فاطافوا به ، وويشت قريش أوباشًا^(٢) لها وأتباعًا ، فقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى ، ثم قال : « حتى توافوني بالصفاء » قال : فانطلقنا ، فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله وما أحد منهم يوجه إلينا شيئًا .

وفي رواية له : « يا معشر الأنصار ، هل ترون أوباش قريش ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فانظروا ، إذا لقيتهموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا » وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله .

قال : فجاء أبو سفيان : فقال : يا رسول الله ، أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، ثم قال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ، ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة : وجاء الوحي ، وكان إذا جاء الوحي ، لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار » قالوا : لبيك يا رسول الله ، قال : « قلت : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته » قالوا : قد كان ذاك ، قال : « كلا ، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم والمحيأ محياكم والممات مماتكم » فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » قال : فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق الناس أبوابهم^(٣) .

وفي الرواية الثانية لمسلم : (فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، قال أبو سفيان ، قال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

(١) الحسر : الذين لا دروع لهم .

(٢) ويشت قريش أوباشًا : جمعت جمعًا من قبائل شتى .

(٣) مسلم ٣/ ١٤٠٥ ح (٨٤) / (١٧٨٠) .

فقال الانصار : أما الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة فى قريته ، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ قال : « قلتم : أما الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة فى قريته ، ألا فما اسمى إذن ؟ » (١) ثلاث مرات ، « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » قالوا : والله ما قلنا إلا ضناً بالله ورسوله ، قال : « فإن الله ورسوله يُصدقانكم ويعذرانكم » (٢) .

٥- وروى محمد بن عمر عن جابر قال : كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح ، فلما أشرف رسول الله ﷺ من أذاخر ورأى بيوت مكة وقف عليها فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا فى كفرها » فذكرت حديثاً كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة : « منزلنا إذا فتح الله علينا مكة فى خيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » (٣) .

وروى البخارى وغيره عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أتى تنزل غداً ؟ تنزل فى دارك ؟ قال : « وهل ترك لنا عقيل من دار » (٤) .

وروى البخارى والإمام أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « منزلنا إن شاء الله تعالى إذا فتح الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » (٥) ، يعنى بذلك المحصب ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بنى هاشم ، وبنى المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ (٦) .

(وروى محمد بن عمر عن أبى رافع رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال : « وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ » ، وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ، ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل فى بعض بيوت مكة غير منازلنا فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » ولم يزل رسول الله ﷺ مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتى المسجد لكل صلاة من الحجون (٧) .

٦- (عن عبد الله بن مغفل قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته

(١) فما اسمى إذن ؟ قال القاضى : يحتمل هذا وجهين : أحدهما : أنه أراد ﷺ أنه نبى لإعلامى إياكم بما تحدثتم به سرّاً ، والثانى : لو فعلت هذا الذى خفتكم منه ، وفارقتكم ورجعت إلى استيطان مكة ، لكنت ناقضاً عهدكم فى ملازمتكم ، ولكان هذا غير مطابق لما اشتق منه اسمى وهو الحمد ، وكنت أوصف حيثئذ بغير الحمد) انظر : شرح مسلم ١٤٠٧/٣ فى الهامش .

(٢) المغازى للواقدي ٨٢٨/٢ .

(٣) مسلم ١٤٠٧ / ٣ ، (٨٦ ، ٨٧) .

(٤) المصدر نفسه ١٤/٨ ح (٤٢٨٤) .

(٥) فتح البارى ١٣/٨ ح (٤٢٨٢) .

(٦) المغازى للواقدي ٨٢٩/٢ .

(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٤٩/٥ .

وهو يقرأ سورة الفتح يرجع صوته بالقراءة (١) ، قال معاوية بن قرة : لولا أنه يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجّع عبد الله بن مغفل يحكى قراءة النبي ﷺ ، قال شعبة : فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : ثلاث مرات ، ورواه البخارى فى التفسير وفضائل القرآن والمغازى والتوحيد ومسلم فى الصلاة والنسائي والحاكم (٢) .

(وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم الفتح : « هذا ما وعدنى » ، ثم قرأ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

٧- (روى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته فقال : ياأسوا أن تردوا أمة محمد ﷺ إلى الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن أفسوا فيها - يعنى النوح والشعر (٤) .

(وروى ابن أبى شيبه عن مكحول أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة تلقته الجن يرمونه بالشر ، فقال جبريل : تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما بث فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن » (٥) .

وروى البيهقى عن ابن أبى رجمه الله قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيست أن تُعبد ببلدكم هذه أبداً » .

٨- (عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : لما كان عام الفتح فرَّ إلى رجلان من بنى مخزوم فأجرتهما ، قالت : فدخل علىَّ علىَّ فقال : أقتلها ، قالت : فلما سمعته يقول ذلك أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فلما رأتى رسول الله ﷺ رجب وقال : « ما جاء بك يا أم هانئ » قالت : قلت يا رسول الله ، كنت أمنت رجلين من أحماني ، فأراد على قتلها ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرت » ثم قام رسول الله ﷺ إلى غسله فسترته فاطمة ، ثم أخذ ثوباً فالتحف به ، ثم صلى ﷺ ثمان ركعات سبحة الضحى ، رواه مسلم والبيهقى (٦) .

(وعنهما أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة اغتسل فى بيتها ، وصلى ثمان ركعات

(٢) ، (٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٨/٥ .

(١) فتح البارى ١٣/٨ ح (٤٢٨١) .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٥٠/٥ .

(٥) المصدر نفسه ٣٥١/٥ .

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٥٠/٥ ، وفى مسلم ٤٩٧/١ ح (٨٠ / ٣٣٦) .

قالت : لم أره صلى صلاة أخف منها ، غير أنه يتم ركوعها وسجودها . رواه البخارى والبيهقى (١) .

٩ - (روى الإمام أحمد والطبرانى برجال ثقات ، ومحمد بن عمر والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنه) قالت : لما كان عام الفتح ونزل رسول الله ﷺ بذى طوى قال أبو قحافة لابنة له - قال البلاذرى : اسمها أسماء - كانت من أصغر بناته : يا بنية ، أشرفى بى على أبى قبيس ، وقد كُفَّ بصره فأشرفت به عليه فقال : أى بنية ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً كثيراً ، وأرى رجلاً يشتد بين ذلك السواد مقبلاً ومديراً ، فقال : ذلك الرجل الوازع ، ثم قال : ماذا ترين ؟ قالت : أرى السواد قد انتشر وتفرق فقال : إذن والله انتشرت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى فخرجت سريعاً حتى إذا هبطت به الابطح لقيتها الخيل وفى عنقها طوق لها من ورق ، فاقتلعه إنسان من عنقها) .

* * *

١ - ها هم المسلمون جميعاً بكل عساكرهم وقبائلهم يتجمعون فى ذى طوى انتظاراً لرسول الله ﷺ حتى يصل إليهم والخيل تمعج بذى طوى فى كل وجه ، إن الخيل لتهيج تبحث عن نبيها ﷺ لتكون فى خدمته ، (ثم ثابت وسكنت حين توسطهم رسول الله ﷺ) فهي تدرك أنها ماضية لأشرف فتح فى الوجود تحت إمرة النبى ﷺ فقرابة الألفين من الخيل ، والعشرة آلاف من الجيش فى أعظم عرض عسكري مهيب يمشى إلى مكة دون أن يجروا أن يقف فى طريقهم أحد ، وأى قائد لا يشمخ بأنفه ، ويعلو بنفسه تيهاً وعُجباً أمام هذا النصر المظفر ، وقد دانت له القبائل بقياداتها وأشرافها ورجالاتها ، وهذان سيدا أكبر القبائل العربية بجواره الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن سيدا تميم وغطفان ، لقد دان الأبطال والأسود والرجال له لكنه عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم ما أعطى هذه السيادة إلا بعظمة عبوديته وتذلل له لربه ، فهو أطوع خلق الله لله ، وأعظم خلق الله تواضعاً لله ، وحين تتساقط كل قيادات الدنيا هاوية إلى الأرض بشموخها بانتصاراتها ، يرتفع سيد الخلق ليكون فوق هامات الخلق جميعاً بعظمة تواضعه وتذلل له .

وتوسط الناس وإن عشونه ليمس واسطة رحله أو يقرب منها تواضعاً لله عز وجل حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين ، ثم قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

إنه قبل ثمان سنين فقط يفر مختفياً عن قومه ليلاً ويخرج من خوخة أبى بكر مع

(١) فتح البارى ١٩/٨ ح (٤٢٩٢) .

صاحبه ويمضيان للغار يقيمان فيه ثلاثة أيام تحسباً من طلب قريش ، ووقفت الدنيا كلها ضده إلا الله وحده :

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] .

إنه منذ خرج من بلده كانت نقطة انطلاق عزة الإسلام من هناك فمضى إلى المدينة ليقيم دولة الإسلام فيها وما هو الآن وبعد ثمان سنين يدخل بلده بهذه الجموع الغفيرة وهذه الجيوش الجرارة قد انتصر على كل من عاداه وأطاعه كل من حاربه واختبأ في بيته كل من قاتله ومع هذا ما ازداد إلا تواضعاً لله .

عمامته سوداء على رأسه أو حمراء وهى قطعة من بُرد لعائشة رضي الله عنها لا نياشين ولا زينة ولا نجوم ولا شيء يزهبه ، على رأسه المغفر استعداداً للحرب وهو على ناقته القصواء، فلم يركب الخيل التى تبعث الفخر والخيلاء فى النفس، وكتيبته الخضراء المدججة بالحديد والسلاح .

أما أبطال مكة وصناديدها فقد تركوا النساء يواجهن الخيل حيث يمضى الجيش إلى مكة فليس بين ذى طوى ومكة إلا تجاوز هذا الوادى وراية رسول الله ﷺ قد ارتفعت فى الحجون ترفرف خفاقة بنصر الإسلام بحراسة الزبير بن العوام رضي الله عنه ابن الثانية عشرة فى مكة يوم أسلم وابن الخامسة والعشرين يوم مضى مهاجراً بدينه ، وابن الخامسة والثلاثين اليوم ، يمثل رسول الله ﷺ فى مكة وحامل رايته وحين أعلن أبا سفيان ذات يوم : والله لا أؤمن حتى أرى الخيل تطلع من كداء .

وحين بعث حسان برسالة الحربى قائلاً :

عدمى بنيتى إن لم تردها تشير النقع من كنفى كداء
أو :

عدمنا خيلنا إن لم تردها تشير النقع مطلعها كداء

وها هو عليه الصلاة والسلام سيد المتواضعين وسيد العظماء يشهد نصر الله تعالى له ويسأل أبا بكر مبتسماً : « يا أبا بكر كيف قال حسان ؟ » فأنشده أبو بكر أبياته ، فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوها من حيث قال حسان » .

ومضت الخيل تتسابق فرحة نشوى بأمر رسول الله ﷺ تصعد كداء منفذة لأمر الله

تعالى ورسوله ، ولم يكن أمام هذه الخيل وأمام هذا الجيش الذى يقوده رسول الله ﷺ للمواجهة إلا النساء خرجن يقاومن الخيل ويقفن فى وجوها ، ويذدن عن مكة حين اختفى الأبطال وأورا إلى بيوتهم أو صعدوا فراراً إلى الجبال ينظرون محمداً وأصحابه ، أما القائد الأعظم ﷺ فقد أعاد إلى ذاكرته يوم الحديبية يوم وقفت قريش بالعوذ المطافيل تقسم ألا يدخل مكة عليها عنوة أبداً ، وها هو اليوم عليه الصلاة والسلام يدخل مكة عنوة عليها يحكم ما يشاء برجالها وأبطالها وأشرفها فيذكر فضل الله تعالى عليه بذلك ويقرأ بصوت مرتفع صورة الفتح يرجعها ويكررها وفيها :

﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] ، وكان فتح خبير ، وكانت عمرة القضاء ، ودخلوها محلقين ومقصرين لا يخافون ، وها هم اليوم يدخلون فاتحين وآن الأوان لتفتح مكة ذراعيها مستسلمة لله ولرسوله بعد حرب لله ورسوله تنوف عن عشرين عاماً فيقول عليه الصلاة والسلام بعد أن رجّع سورة الفتح : « هذا ما وعدنى ربى ، ثم قرأ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ » [النصر] .

وها هو يسبح ربه ويستغفره ، ويمضى بجيشه إلى مكان لا يعرفه إلا القليل من الجيش قد اختاره عليه الصلاة والسلام موقع القيادة فى مكة إلى مكان يحمل أشجى الذكريات التاريخية يوم قررت قريش وكنانة إبادة بنى هاشم وبنى المطلب مع محمد وصحبه حين قرروا وفى المكان الذى عقدوا فيه المؤتمر وكتبوا فيه الصحيفة (ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ) ، ويذكر وفاء أبى طالب عمه الذى أعلن لقريش : (إن ابن أخى أخبرنى - ولم يكذبنى - إن الله برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم وفى كل اسم هو له فيها وترك فيها عذرکم وقطيعتكم إيانا ، وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت عن آخرنا) (١) ، وهذا المكان التاريخى الذى عقد فيه هذا المؤتمر الجائر الظالم ، وتعاهدوا على إبادة حين من بنى عبد مناف إذا لم يسلموا محمداً لهم هو المكان المناسب لقيادة الجيش الإسلامى الذى يقوده محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر هذا لجابر بن عبد الله الفتى المسلم فى المدينة ، ونقل لنا جابر تلك الذكرى فقال : (كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه

ونظر إلى موضع قبته والتي بناها له أبو رافع رضي الله عنه) فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت علينا قریش فی کفرها » قال جابر : فذكرت حديثاً كنت أسمعه منه رضي الله عنه قبل ذلك بالمدينة : « منزلنا غداً إن شاء الله ، إن فتح الله علينا مكة بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » .

ويعر الزمن ، ويغدو خيف بنى كنانة موطن قيادة الجيش الإسلامي ، ومنزل رسول الله ﷺ هذا ما نقله لنا الفتى جابر أما ما نقله لنا الفتى أسامة بن زيد رضي الله عنه حب رسول الله ﷺ ، ورفيق رحله حيث سأل حبيب المصطفى ﷺ قائلاً : يا رسول الله ، أنى تنزل غداً ؟ تنزل في دارك ؟ قال : « وهل ترك لنا عقيل من رباغ أو دار ؟ » .

أما أبو رافع رضي الله عنه والذي كلف ببناء القبة حيث تقاسمت قریش على الكفر ينقل لنا معلوماته عن هذا الأمر فيقول : (قيل للنبي ﷺ : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال : « وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ » وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ، ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة فقيل لرسول الله ﷺ : فانزل في بعض بيوت مكة غير منزلك ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » ولم يزل رسول الله ﷺ مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً وكان يأتي المسجد لكل صلاة من الحجون (١) .

وإنها لعظمة النبوة وعظمة الوفاء وقد فتحت مكة على مصراعها ، وفتحت ذراعها لاستقبال الحبيب المصطفى ﷺ مكة أحب بلاد الله إلى الله والمصطفى أحب خلق الله إلى الله ومع ذلك لم يرض رسول الله ﷺ أن ينزل بيوت مكة أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إليه وفاء للأنصار الذين قال لهم : « المحيا محياكم ، والممات مماتكم » ، فصرف تصرف المسافر الذي يقيم خارج بلده ، ويمضي للصلاة في كل وقت من الحجون إلى المسجد ، وتتمنى كل ذرة تراب في مكة أن تكون موطن قدم له ، ولكنه بقي على العهد مع أنصاره الذين محضوه الود وبذلوا في سبيله المهج والأرواح .

والذي يؤكد هذا المعنى ، الحادثة التي رواها مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٢ - الأنصار والحب والثأر : (قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبه اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبه اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي ، فقال : « يا أبا هريرة ، ادع لى الأنصار » فدعوتهم فجاءوا يهرولون ، فقال : « يا معشر الأنصار ، هل ترون أوباش قریش ؟ » قالوا : نعم ، قال : « انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً » وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله ، وقال : « موعدكم الصفا » قال : فما أشرف يومئذ أحد لهم

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٨٢٩ .

هؤلاء الأنصار من دون غيرهم الذين أمضوا عمرهم ، وهم ينتظرون لحظة الثأر هذه من قريش التي حاربتهم وغزتهم فى عقر دارهم ، وحاولت استباحة المدينة أكثر من مرة ، وقتلت أشrafهم ، وعقرتهم بالجراح والآلام ، هؤلاء الأنصار الذين عبّر عنهم قائدهم بقوله : (اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً) ، قريشاً هذه التي قال فيها رسول الله ﷺ يوم بدر :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم احنهم الغداة » (٢) .

هؤلاء الأنصار هم المعنيون بالثأر من قريش ، للماضى الحافل بين الفريقين ، ومن أجل ذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يضطلعوا بهذا الدور حصد كل من يقف لمقاومة الجيش الإسلامى ، وقتل كل من تسول له نفسه المواجهة فلم يغلق عليه بابه ، ولم يلجأ إلى المسجد أو إلى دار أبى سفيان وفى إطار تربية القاعدة العريضة ، والأنصار يمثلون السواد الأعظم من الجيش والنفوس الشائرة المتأججة المتهيجة للقتال فلا يمكن أن يتجاهل هذا الوضع النفسى الذى قد يؤدى إلى انفجار بطريق آخر، ولا بد أن تمتص هذه الثورة من هؤلاء الموتورين ، فكان هذا الأمر : « أرايتم أوياش قريش؟ » قالوا: نعم، قال: « انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً » .

ومضى الأنصار يجوبون مكة فما أشرف أحد يومئذ لهم إلا أناموه ، وجاءت الأنصار حسب مواعدها مع قائدها رسول الله ﷺ تطوف بالصفاء حيث يطوف فيها عليه الصلاة والسلام وجاء رئيس أركان مكة ليتلافى الوضع وقد وقع ميثاق الاستسلام قبل تحرك الجيش جاء إلى رسول الله ﷺ يستغيث صارخاً :

يا رسول الله أبيدت خضرأ قريش ، لا قريش بعد اليوم .

فأعاد عليه الصلاة والسلام تعليماته الصارمة التى لا تقبل التعسف ولا التأويل :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » وأحس الأنصار أن رسول الله ﷺ لا يريد فناء قريش ولا ذلها ، وأنه حريص على الأمن فى مكة ، وأحسوا أن الأوان قد آن بعد فتح مكة واستسلام قريش ليعود إليها

(١) فما أشرف أحد يومئذ إلا أناموه : أى ما ظهر لهم أحد منهم إلا قتلوه فوقع على الأرض أو يكون بمعنى أسكنوه بالقتل كالنائم يقال : نامت الريح : إذا سكنت ، وضربه حتى سكن أى مات ، ونامت الشاة وغيرها: ماتت ، قال الفراء : النائمة الميتة . انظر : صحيح مسلم هامش ص ١٤٠٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام م ٦٢١/١ .

عليه الصلاة والسلام مقيماً بعد أن غادرها مكرهاً، فهو الحنين إلى الوطن ، وهو الإحسان إلى الأهل، وهو الحرص على القريبى وهذا يعنى فراق الأنصار لقائدها الحبيب الذى قدموا له من آيات الحب والولاء ما لم يقدمه أحد لأحد بعد حب الله تعالى .

وأبو سفيان الذى يستغيث اليوم خوفاً على إبادة قريش هو صاحب الجملة الاثيرة المشهورة : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد ومحمدًا . فهو الفراق الذى يفوق عندهم فراق أرواحهم ، وجاء الوحي .

وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحي ، وانقضى الوحي .

وجاء النداء الثانى من رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار » قالوا : لبيك يا رسول الله ، وأدركوا أن ما فى أعماقهم سيعرض الآن على صفحة الوحي من رب السموات والأرض الذى لا تخفى عليه خافية ووصلت أرواحهم إلى حناجرهم خوفاً من أن يكونوا أساؤوا لرسول الله ﷺ ، قال : « قلت : أما الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة فى قريته » ، قالوا : قد كان ذاك ، فهل تختم حياتهم وجهادهم بالإحباط أمام هذا الظن الذى راود قلوبهم ؟ لقد احترقت أعصابهم خوفاً من هذا المصير الرهيب .

يقول عليه الصلاة والسلام : « ألا فما اسمى إذن ؟ ألا فما اسمى إذن ؟ ألا فما اسمى إذن ؟ أنا محمد عبد الله ورسوله » .

وكانت أخرج لحظة انفرجت فى أسعد إجابة وأجمل بشارة :

« أنا محمد عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وبالها من لحظة غمرت هذا الجيل السعيد الأول ، جيل العطاء والفداء بفيوض ربانية غامرة من الأمن والسكينة والرضا ، من الحب والود ، من قرار العيون والقلوب إلى قائدهم عليه الصلاة والسلام يدع أهله ، وقريته وبلده وعشيرته بعد أن فُتحت له ، واستقبلته معتذرة يدعها ويمضى مع رفاق دربه ورفاق جهاده ، ورفاق حياته مع أنصاره محددًا الخط النهائى للمستقبل .

« فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وعبروا عن هذا الرضا ، وعن هذه الطمأنينة وعن هذه السكينة التى تدفقت فى قلوب المؤمنين فكانوا أحقَّ بها وأهلها ، قالوا :
والله ما قلنا إلا ضئلاً بالله ورسوله .

قال : « فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » .

فلقد جاء تصديقهم من رب السموات والأرض ، وجاء عذرهم من رب السموات والأرض فماذا يريدون بعد ذلك إذا كان رسول الله ﷺ سيعود معهم إلى ديارهم .

٣- حرب القادة الرفاق : ونعود في الذاكرة إلى خالد بن الوليد عندما هم أن يمضى إلى المدينة فيعلن إسلامه ويبحث عن أحب الناس إليهم وأقربهم ودًا منه ، ورفاق دربه الطويل الطويل في خط الحياة كله ، يقول : (فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصحابي إلى رسول الله ؟ فقلت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ، فأبى أشد الإباء وقال :

لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدًا فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترًا ، وقد قُتل أخوه وأبوه في بدر ، فقلت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاطموا ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره (١) .

هذان القائدان هما اللذان استغلتهما هند بنت عتبة وطالبت بقتل زوجها الذى خان قضية مكة : (اقتلوا الحميت (٢) الدسم (٣) الأحمس (٤) قُبِحَ من طليعة قوم) (٥) .

هذان القائدان مع سهيل بن عمرو الذين طفا فيهم حماس الجاهلية ونخوتها ، والحفاظ على الثار والكرامة المهدورة يأملون أن يصدوا هذا الهجوم الذى يقوده محمد ﷺ ضدهم : (فدعوا إلى قتال رسول الله ﷺ ، وضوى إليهم ناس من قريش وناس من بنى بكر وهذيل ، وتلبسوا السلاح ، ويقسمون بالله ، لا يدخلها محمد عنوة أبدًا) فقد تمكن بغض الإسلام وبغض محمد من قلوبهم قاتل الأحبة تمكّنًا أعمى عيونهم عن الحقيقة ، وعن نداءات أبى سفيان المتكررة :

(ويلكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به) ، لقد كان جند خالد الذين تحت رايته أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب هؤلاء الوافدون الجدد الذين انضموا للجيش لأول مرة على رأسهم قياداتهم العريقة فى الإسلام والجهاد وفيهم أبطال وفرسان مغاوير ومشاهير وعلى رأس هؤلاء جميعًا خالد بن الوليد

(٢) الحميت : رق السمن .

(١) المغارى للواقدي ٧٤٩/٢ .

(٣) الدسم : الكثير الودك .

(٤) الأحمس هنا : الشديد اللحم ، وتشبّه بالزق لبعالته وسمنه .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٥/٢ .

وهو القائد العسكري الأعلى الذى انتهت له قيادة المجنبه اليمنى وكلف بدخول مكة من أسفلها من الليط ، وها هو يواجه هذا التجمع العسكري الحاشد وعلى رأسه رفيقى حياته صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ورفيقه الثالث سهيل بن عمرو ولم تمر سنة واحدة بعد على انتقاله إلى المعسكر الإسلامى بعد عشرين عاماً أمضاها زعيماً وقائداً فى صف المشركين ، ترى هل حانت الفرصة للقاءات السرية بحيث يتفق مع هؤلاء القيادات ويتمرد على رسول الله ﷺ وينضم إليها للدفاع عن مكة ، وتنجح خطة الغدر من الخلف كما نجحت من قبل خطة الالتفاف من الخلف فى غزوة أحد وعشيرته مخزوم يكاد يكون كل قياداتها وأبطالها ومغاويرها فى الجيش المقابل ومن قادة مكة لو كان هذا فى غير أمة العقيدة لكان هذا هو الأصل ، وهذه الفرصة السانحة للانقضاض على محمد وصحبه والاتفاق مع عكرمة وسهيل وصفوان لذبح المسلمين وأسرهم وطرد الجيش الإسلامى منها فصدقة أربعين عاماً أو تزيد لا تقضى عليها صداقة أشهر مع عدو لدود أمضى حياته فى حربه وحرب أهله وعشيرته وهجا أباه وابن عمه أبى جهل وسجل التاريخ الأسود لهؤلاء الملأ الكبار من قومه ، أما فى دولة العقيدة وحيث تربية النبوة تصوغ هذه النماذج لا مكان أبداً لمثل هذه التصورات السخيفة فهو يتوق إلى الجهاد ولو كان جهاد أعز الناس عليه وأقرب الناس إليه جهاد سهيل وعكرمة وصفوان وجيشهم الذى معهم من قريش وغيرها ، لقد كان جيش خالد فى منأى عن هذا الامتحان فجله من أسلم وغفار وجهينة ومزينة وسليم وليس فيه أحد من قريش فهم يقاتلون ببسالة واندفاع وحماس دون أى صراع مع داخلهم وأعماقهم ، وحماسهم لدينهم ولانتصار عقيدتهم ، وأخذ قريش غنيمة لهم ، لا حذله ، ولا سقف له أما خالد رضي الله عنه فهو يقاتل ذاته ويصارع نفسه يوم يصارع عكرمة وصفوان وسهيلاً ، ومع هذا كله فهناك صراع آخر هو أمر رسول الله ﷺ له ألا يقاتل .

(فلما دخل خالد بن الوليد من حيث أمره رسول الله ﷺ وجد الجمع المذكور ، فمنعوه الدخول وشهروا له السلاح ورموه بالنبل قالوا : لا تدخلها عنوة) (١) .

وعند موسى بن عقبة : (ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال : « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نظن أن خالدًا قوتل ويُدَّى بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتل ثم قال : وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد : « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ووضعوا فينا السلاح ، وقد كفت يدي ما استطعت فقال : « قضاء الله خير » ، فخالد رضي الله عنه إذن قائد عقيدة ولديه أوامر بالكف عن القتال لكن ما يفعل ولم يرعو رفاقه عن حربه يتحدونه ويصرون على مواجهته يكف يده ولا

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٥/٥ .

يكفون أيديهم) (١) .

(ورواه الطبراني من حديث ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « إن الله حرم مكة ... » الحديث ، فقيل له : هذا خالد بن الوليد يقتل ، فقال : « قم يا فلان فقل له : فليرفع القتل » فأثاه الرجل فقال له : إن نبي الله يقول لك : اقتل من قدرت عليه فقتل سبعين ثم اعتذر الرجل إليه فسكت . وقال : وقد كان رسول الله ﷺ أمر أمراءه ألا يقتلوا إلا من قاتلهم) (٢) .

وحتى نعرف الوضع النفسى لهذا التجمع السريع من أوباش قريش وغيرها ، والذين أرادوهم محك اختبار أكثر مما أرادوهم مواجهة حقيقية كما فى صحيح مسلم :

« وبشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً فقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا » (٣) .

ولو قدّر للأنصار أن تكون مواجهتهم مع هذا التجمع لكان الحصد الحقيقى الذى عناه رسول الله ﷺ ابتداء لكن التجمع كان فى أسفل مكة من حيث دخل خالد بن الوليد والأنصار كانوا قد دخلوا مكة من حيث دخل رسول الله ﷺ فقد قتل الأفراد الذين يحملون السلاح للمواجهة ورفضوا أن يغلقوا بابهم عليهم وبعد أن بذل خالد بن الوليد الذى انتهى قائداً للمشرىكين منذ أقل من سنة ليصبح (سيف الله) تعالى وحين لم يكن بد من المواجهة ، قاد المعركة بعبقريته الحربية ، وحب رسول الله ﷺ يملك عليه كيانه ويغمر فؤاده فيقاتل ويرتجز قائلاً :

إذا ما رسول الله فينا رأيته	كلجة بحر نال فيها سريرها
إذا ما ارتدينا الفارسية فوقها	ردينة يهدى الأصم خيرها
أينا رسول الله فينا محمداً	لها ناصراً عزت وعز نصيرها

فهو روح الحياة لكثائب الإيمان ، وهو الذى تخفق به قلوبهم حيث راياتهم تخفق ، وسيوفهم تخفق فى نحور المشركين .

وفى لقطتين فنيتين نعرف منهما على هذا الجيش الطارئ الذى أراد أن يقدم مسرحية عسكرية لعلها تنجح فى إرهاب المسلمين وتخويفهم وقد غشوا جنودهم فلم يوافقهم بالحقيقة .

هذه اللقطة الأولى قبل المعركة لحماس بن قيس أحد بنى بكر وهو فى حوار مع

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ١١ .

(٢) مسلم ٣ / ١٤٠٥ من ح (٨٤ / ١٧٠٨) .

امراته حيث جلس يصلح سلاحه :

فقال له امرأته : لمن تعد هذا ؟

قال : لمحمد وأصحابه فإني أرجو أن أخدمك منهم خادماً فإنك إليه محتاجة .

قالت : ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً والله ليضلن هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه .

قال : سترين (١) .

وراح يشد :

إن يقبلوا اليوم فمالى عله هذا سلاح كامل وآله

وذو غرارين سريع السله

هذه اللقطة الأولى ، وهو ينتفش بسلاحه ، ويستعد للمواجهة ويطمح بأن يأتى بخادم من المسلمين لامراته وكانت اللقطة الثانية الفضيعة المربعة نعرض معها قول ابن إسحاق :

(وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً ثم انهزموا ، وجعل أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ، ويطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذه المسلمون) (٢) .

وهنا تأتى اللقطة الفنية النفسية الخالدة بعد المعركة لصاحبنا حماس بن خالد : (ورجع حماس منهزماً حتى انتهى إلى بيته ، فدقّه ففتحت له امرأته فدخل وقد ذهب روحه فقلت له : أين الخادم الذى وعدتني ؟ ما زلت منتظرة لك منذ اليوم (تسخر منه) .

فقال : دعى هذا عنك وأغلقى على بابي :

ثم قال :

إنك لو شهدت يوم الخندمه	إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالومته	واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه	ضرباً فلا تسمع إلا الغمغمه

(١) المغازى للواقدي ٨٢٣/٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٦/٥ .

لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه (١)

٤ - رسول الله ﷺ فى قبته : حين دخل رسول الله ﷺ مكة ، وفُتحت له ، وأقام قبته حيث تقاسموا على الكفر ، كان هذا يعنى انتصار شريعة الله فى الأرض والهزيمة الكبرى للشرك فيها وكان إبليس هو الذى يقود معسكر الكفر فى الوجود فى أكبر مآثم له فى حياته .

فقد روى أبو يعلى ، وأبو نعيم عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال :

(لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته) ، وكان هذا الاجتماع الطارئ لابد منه لشياطين الجن جميعاً بعد هذه النكبة الكبرى التى نزلت بهم أما خطبته فكانت :

(اياسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا) .

فلا جدوى من المقاومة لثنيهم عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك ، حتى لا يبذلوا جهداً مضنياً دون فائدة ، أما الذى بالإمكان فهو فتنهم عن هذا الدين بشغلهم بالنوح والشعر بحيث يبقى الشعر هو المستأثر بقلوبهم وأفئدتهم عن هذا الدين الذى إذا دخلت بشاشته النفوس شغلت به النفوس عن كل شىء ، (عن ليبد شاعر العربية الأكبر الذى قيل له : ما أحدث من الشعر فى الإسلام ، قال ليبد : أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران) (٢) .

ومع الشعر كذلك النوح الذى يبقى فى هذه الأمة من أمر الجاهلية ، حيث تلطم الخدود وتشق الجيوب ويدعى بدعوى الجاهلية فى النوح ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب والنياحة على الميت » (٣) .

كما تطالعنا محاولة أخرى للشياطين تنم عن مدى ما عندهم من حقد وكيد فى محاولة انتصار للشرك المنهار فى أرض العرب وهؤلاء مثل صفوان وعكرمة وسهيل الذين لم يعلنوا استسلامهم وخضوعهم لشريعة الله تعالى ونصر رسوله .

(وروى ابن أبى شيبه عن مكحول أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة تلقتة الجن يرمونه بالشر فقال جبريل لرسول الله ﷺ : تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات :

أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٤٦/٥ . (٢) الإصابة لابن حجر م ٤/٦ ت (٧٥٣٥) .

(٣) مسند أحمد ٤٩٦/٢ .

وما يعرج فيها ، ومن شر ما بثَّ في الأرض ، وما يخرج منها ، ومن شر الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن) ، وكما هي محاولات بائسة يائسة من هؤلاء الذين اجتمعوا ليطفؤوا نور الله تعالى من مرده الجان ولم يعلموا بأن نصر الله والفتح قد أرف ، وأن الحق قد جاء وما يبدئ الباطل وما يعيد .

وكما يش إبليس وأعلن يأسه وفشله في حربه التي قادها آلاف الأعوام وأدخل الشرك في هذه الأمة ودعا حزبه أن يكفوا عن هذه المحاولات فقد يثت كذلك نائلة شيطانة هذا الصنم أن تعبد كذلك ، كما روى البيهقي عن ابن أبرى قال :

(لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيست أن تُعبد ببلدكم هذا أبداً » .

وانضمت مع إبليس إلى اليائسين بعد أمن لها جاوز الألف عام منذ أن جاء عمرو بن لحي الخزاعي بالأصنام إلى مكة المكرمة ، والتي سنعود إلى حديثها التفصيلي فيما بعد . وتطالعنا في قبة النبي ﷺ كذلك ، زيارة أم هانئ رضيها إلى رسول الله ﷺ التي لم تره منذ أن غادر مكة إلى المدينة .

وها هي فرحة بانتصار الإسلام العظيم وفتح مكة من المسلمين .

(فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها فاستجارا بها وقالا : نحن في جوارك فقالت : نعم أنتما في جوارى ، قالت أم هانئ : فهما عندي إذ دخل عليَّ فارساً مدججاً في الحديد ولا أعرفه فقلت له : أنا بنت عم رسول الله ﷺ وخفق قلبها رعباً منه لكنها تعلم موقعها من رسول الله ﷺ ، قالت : فكف عني وأسفر عن وجهه فإذا عليَّ ﷺ فقلت : أخی ، فاعتنقته وسلمت عليه ، ونظر إليهما فشهري سيف عليهما) ، ولا عجب في ذلك منهما فهما ليسا في بيتهما وليسا في الكعبة وليسا في بيت أبي سفيان فالأصل أن يقتلا لهذا التجاوز (قلت : أخی من بين الناس يصنع بي هذا . قالت : وألقيت عليهما ثوباً وقال : تحيرين المشركين ؟ وحلت دونهما فقلت : والله لتبدأن بي قبلهما ، قالت : فخرج ولم يكذب فأغلقت عليهما بيتاً وقلت : لا تخافا) .

ومضت إلى رسول الله ﷺ ، يكاد قلبها يثب من بين يديها شوقاً إليه ، وتتراحم الأفكار على رأسها كيف تشكو أخاها علياً إلى رسول الله ﷺ ، وغضى معها تحدثنا عن هذا اللقاء السعيد قائلة (١) :

فذهبت إلى خباء رسول الله ﷺ بالبطحاء فلم أجده ، ووجدت فيه فاطمة فقلت :

(١) رواها الواقدي بسنده عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ .

ماذا لقيت من ابن أبي على ؟ أجرت حموين لى من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، قالت : فكانت أشد على من زوجها وقالت : تحيرين المشركين ؟) .

ولا عجب ففاطمة رضي الله عنها منطقية مع نفسها رفضت إجارة أبي سفيان ، ورفضت لولدها الحسن أن يجيره وقالت له : لا يجير على رسول الله ﷺ أحد ، أما أم هانئ فقد زاد همها وغمها ، فكيف إذا رفض رسول الله ﷺ إجارتها وهي امرأة لا وزن لها بين كبار المسلمين وبينما هي فى هذه الهواجس طلع رسول الله ﷺ وعليه رجة الغبار (١) ، فقال : « مرحباً بفاختة أم هانئ » ، وعليه ثوب واحد فقلت : ماذا لقيت من ابن أبي على ؟ ما كدت أنفلت منه أجرت حموين لى من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، فقال رسول الله ﷺ : « ما كان ذاك قد أمنا من أمنت ، وأجرنا من أجرت » .

وكادت تمس بيدها السماء نشوة واعتزازاً بهذا المجد ، فرسول الله ﷺ يجيز جوارها لهذين ولكل من تحيرهم غيرهما ، وباله من مقام رفيع سما بها الإسلام فيه ، وغدت تستطيع أن تواجه وتهاجم ابنة ابن عمها محمد فاطمة وتواجه أخاها علياً بعد أن أخذت هذه المكرمة النبوية الخاصة .

« أمنا من أمنت ، وأجرنا من أجرت » .

(ثم أمر فاطمة فسكبت له غسلأ فاغتسل ، ثم صلى ثمان ركعات فى ثوب واحد ملتحقاً به ، وذلك ضحى فى فتح مكة) (٢) .

ويناسب هذا المقام بعد هذا السفر الطويل ، وآثار الغبار تلفح وجهه وجسمه ﷺ أن يمضى فيغتسل ويصلى شكراً لله صلاة الفتح فى أعظم من من الله تعالى عليه به ، حيث فتحت مكة أبوابها له ، وها هو يمضى بقلب عار خاشع متبتل ، بعد هذه الصلاة ليكون أول عهده بمكة بيت الله الحرام يحف به جيش حزب الله الذى جاء من أقاصى الحجاز مع قيادات غطفان وتميم ، وقد أعلنوا استسلامهم لله تعالى موحدين هاجرين الشرك والوثنية ومعلنين كلمة التوحيد : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وستابع المسيرة مع رسول الله ﷺ إلى هناك إلى الكعبة التى حرمها رسول الله ﷺ عشر سنين ، وها هو سادنها اليوم جندى فى حزب الله .

(١) رجة الغبار : آثار الغبار .

(٢) المغازى للواقدي ٢/٨٢٩ ، ٨٣٠ .

مع رسول الله ﷺ من قبله إلى الكعبة

١- (عن عبد الله (هو ابن مسعود) رضى الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ») .

٢- عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الألهة فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الألام فقال النبي ﷺ : « قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط » ، ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه .

٣- وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد ومعه بلال ، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد ، فأمره أن يأتي بفتح البيت فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وعثمان بن طلحة فمكث فيه نهارًا طويلًا ، ثم خرج فاستبق الباب فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائمًا فسأله : أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فأشار إليه إلى المكان الذي صلى فيه قال عبد الله : فنسيت أن أسأله كم صلى من سجدة .

٤- قال : ومكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من النهار واطمأن واغتسل ثم دعا براحلته القصواء فأدنيه إلى باب قبلته ، ودعا للبس السلاح ، والمغفر على رأسه ، وقد صف له الناس فركب براحلته والخيول تجمع بين الخندمة إلى الحجون ومر رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه إلى جنبه يسير يحادثه فمر بينات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبي أحيحة وقد نشرن رؤوسهن يلطمن وجوه الخيول بالخمير ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضى الله عنه :

تظل جياندا متمطرات يلطمهن بالخمير النساء

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ومعه المسلمون تقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر فكبر المسلمون بتكبيره حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم : استكثوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته أخذ

(١ ، ٢) البخارى ١٨٨/٥/٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٨٩/ .

بزمائها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ثلاثمائة صنم، وستون صنماً فرصته بالرصاص وكان هبل أعظمها وهو وجه الكعبة على بابها وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح فجعل رسول الله ﷺ كلما مرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) ﴿[الإسراء] فيقع الصنم لوجهه﴾ (١).

٥ - (وفي لفظ لقفاه من غير أن يمسه وفي ذلك يقول نعيم بن أسد الخزاعي :

ففي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب

قال أئمة المغازي رحمهم الله تعالى : فطاف رسول الله ﷺ سبعا على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه في كل طواف فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته .

وعند ابن أبي شيبه عن ابن عمر قال : فما وجدنا مناخاً في المسجد حتى أنزل على أيدي الرجال ثم خرج بها قالوا : وجاء معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرج الراحلة فأنأخها الوادي ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلّع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لتزعت منها دلو » فتزع له العباس بن عبد المطلب ويقال : الحارث بن عبد المطلب دلو فشرب منها وتوضأ ، والمسلمون يتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به .

وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كسر هبل أما إنك كنت منه في غرور حين تزعم أنه أنعم ، فقال أبو سفيان : دع عنك هذا يا بن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

ثم انصرف رسول الله ﷺ فجلس ناحية من المسجد والناس حوله :

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يوم الفتح قاعداً وأبو بكر قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف) (٢) رواه البزار .

٦ - روى محمد بن عمر عن عبد الله بن عمر وابن أبي شيبه عن أبي هريرة رضي الله عنه ومحمد بن عمر عن علقمة بن أبي وقاص الليثي رحمه الله تعالى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه يزيد بعضهم على بعض .

قال عبد الله : كان عثمان قد قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة مسلماً مع خالد بن

الوليد ، وعمرو بن العاص قبل الفتح ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة ، فجاء بلال إلى عثمان فقال : إن رسول الله ﷺ يأمر أن تأتي بالمفتاح ، فقال : نعم هو عند أمي سلافة ، فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنه قال : نعم ، وأن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ رسولاً فجاء ، فقالت : لا واللوات والعزى لا أدفعه إليك أبداً ، فقال عثمان : يا رسول الله ، أرسلني أخلصه لك منها ، فأرسله ، فقال : يا أمه ، ادفعي إلى المفتاح ، فإن رسول الله ﷺ قد أرسل إليّ وأمرني أن آتيه به فقالت أمه : لا واللوات والعزى لا أدفعه إليك أبداً . (وقالت : أعيذك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومه على يديه) (١) ، فقال عثمان : لا لات ولا عزى ، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلی قتلت أنا وأخي فانت قتلتي ، فوالله لتدفعنه أو ليأتين غيري فيأخذه منك ، فأدخلته في حجزتها وقالت : أي رجل يدخل يده ها هنا ؟

قال الزهري فيما رواه عبد الرزاق والطبراني ، فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ قائم ينتظره حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول : « ما يجسه ؟ فيسعى إليه رجل ؟ » .

فبينما هي على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الدار ، وعمر رافع صوته حين أبطأ عثمان : يا عثمان اخرج ، فقالت أمه : يا بني ، خذ المفتاح فإن تأخذه أنت أحب إليّ من أن يأخذه تيم وعدى فأخذه عثمان فخرج يمشى به حتى إذا كان قريباً من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح فقام رسول الله ﷺ إلى المفتاح فحنا عليه بثوبه .

وروى الفاكهي عن ابن عمر أن بني أبي طلحة كانوا يقولون : لا يفتح الكعبة إلا هم فتناول رسول الله ﷺ المفتاح ففتح الكعبة بيده .

وروى ابن أبي شيبة بسند جيد عن أبي السفر قال : (لما دخل رسول الله ﷺ مكة دعا شيبة بن عثمان بالمفتاح ففتح الكعبة فتلكأ فقال لعمر : « قم فاذهب معه فإن جاء به وإلا فاجلد رأسه » فجاء به فأجاله في حجره) (٢) .

٧- روى أبو داود وابن سعد ومحمد بن عمر واللفظ له أن رسول الله ﷺ أمر عمر ابن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر قد ترك صورة إبراهيم فلما دخل رسول الله ﷺ رأى صورة إبراهيم ، فقال : « يا عمر ، ألم أمرك ألا تدع فيها صورة ؟ قاتلهم الله جعلوه شيخاً

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٥٧/٥ ، ٣٥٨ .

(١) جملة من المغازي للواقدي ٨٣٣/٢ .

يستقسم بالأزلام « ثم رأى صورة مريم فقال : « امسحوا ما فيها من الصورة ، قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون » .

وعند ابن أبي شيبة عن ابن عمر : (أن المسلمين تجردوا من الأزر وأخذوا الدلاء وانجروا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها فلم يدعوا أثرًا من المشركين إلا محوه وغسلوه) (١) .

قال : وحدثني ابن أبي ذئب عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ الكعبة فرأى فيها صورًا فأمرني أن آتية في الدلو بماء ، فيبل الثوب ويضرب به الصور ويقول : « قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون » (٢) .

٨ - (قالوا : وأمر رسول الله ﷺ بالكعبة فغلقت عليه ومعه أسامة بن زيد وبلال ابن رباح وعثمان بن طلحة فمكث فيها ما شاء الله وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة قال ابن عمر : فسألت بلالًا كيف صنع النبي ﷺ حين دخل البيت ؟ قال : جعل عمودين عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة وراءه ، ثم صلى ركعتين .

ثم خرج رسول الله ﷺ والمفتاح في يده ، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذُبُّ الناس عن الباب حتى خرج رسول الله ﷺ) (٣) .

(قال : فحدثني علي بن محمد بن عبيد الله عن منصور الحجبي عن أمه صفية بنت شيبة عن برة بنت أبي تجرة قالت : أنا أنظر إلى رسول الله ﷺ حين خرج من البيت فوقف على الباب وأخذ بعضًا إلى الباب ، فأشرف على الناس وبهده المفتاح ، ثم جعله في كفه) (٤) .

٩ - (قالوا (٥) : فلما أشرف رسول الله ﷺ على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة فهم جلوس قام على بابه فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

يا معشر قريش ، ماذا تقولون ، ماذا تظنون ؟ » قالوا : نقول خيرًا ، ونظن خيرًا ، نبي كريم ، وأخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنني أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦١) ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فخرجوا كأنما نشروا من قبورهم فدخلوا في الإسلام ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مائة (٦) يدعى فهو تحت

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٥٨/٥ ، ٣٥٩ . (٢) المغازي للواقدي ٨٣٤ / ٢ .

(٣) (٤) المصدر نفسه ٨٣٥ / ٢ .

(٥) قالوا : روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب والبخاري في صحيحه عن مجاهد وابن أبي شيبة ، وابن إسحاق عن صفية بنت شيبة والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص (قالوا) انظر : سبل الهدى والرشاد ٣٦٤ / ٥ .

(٦) المائدة : الخصلة المحمودة التي تؤثر وتتحدث بها .

قدمى هاتين ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .

ألا وفى قاتل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون فى بطونها أولادها ، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها
كلكم لآدم وآدم من تراب « ثم تلا هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣) [الحجرات] .

يا أيها الناس ، الناس رجلان ، فبرّ تقى كريم ، وكافر شقى هين على الله .

ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ووضع هذين الأخشين ،
فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ، ولن تحل لأحد كائن بعدى ، لم تحل لى إلا
ساعة من نهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد (١) عضاها (٢) ،
ولا تحل لقطنها إلا لمنشد ولا يختلى (٣) خلاها (٤) فقال العباس وكان شيخاً مجرباً : إلا
الإذخر (٥) يا رسول الله فإنه لا بد لنا منه للقين (٦) وظهور البيوت ، فسكت رسول الله ﷺ
ساعة ثم قال : « إلا الإذخر فإنه حلال ولا وصية لوارث ، وإن الولد للفراش وللعاهر
الحجر (٧) ، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم
والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم وهم يد على
أقصاهم ، ويعقل عليهم أذانهم ، ومشدهم على مضغفهم ، ومثريهم على قاعدتهم ، ولا يُقتل
مسلم بكافر ، ولا ذو عهد بعهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب (٨) ولا
جنب (٩) ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيئتهم (١٠) ، ولا تُنكح المرأة على
عمتها ولا على خالتها ، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة
ثلاث إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين يوم
الأضحى ويوم الفطر وعن لبستين : ألا يحتبى (١١) أحدكم بثوب واحد يفضى بعورته إلى

(١) لا يعضد : لا يقطع .

(٢) عضاها : شجر شوكة .

(٣) يختلى : يقطع .

(٤) خلاها : الرطب من الحشيش فيها .

(٥) الإذخر : نبات معروف ذكى إذا جف ايض .

(٦) القين : رواية الواقدى : للقبر .

(٧) للعاهر الحجر : الحنية ولا يثبت له نسب أو الرجم .

(٨) لا جلب : لا يكلف رب الماشية بجلبها إلى الساعى على الزكاة .

(٩) لا جنب : أى يجنب رب المال بماله أى بيده عن موضعه .

(١٠) الأفنية : جمع فناء وهى سعة أمام البيت .

(١١) احتبى بالثوب : اشتمل أو جمع بين ظهره وساقه .

السماء ، وألا يشتمل الصماء» (١) .

فقام رجل فقال : يا رسول الله إني قد عاهرت في الجاهلية ، فقال : « من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين لا يملكها ، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ، ولا يرث ولا يورث ، ولا إخالكم إلا عرفتموها ، يا معشر المسلمين كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر » - وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ ولم تحل لأحد قبله ، ثم قال لهم : « كفوا السلاح » - فقام أبو شاة فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال : « اكتبوا لأبى شاة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » (٢) .

(قال الزهرى فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى : ثم نزل رسول الله ﷺ ومعه المفتاح فتنحى ناحية من المسجد ، فجلس عند السقاية) .

وروى ابن أبى شيبه عن عبد الله بن عبيدة : أن رسول الله ﷺ بعد خطبته عدل إلى جانب المسجد فأتى بدلو من ماء زمزم فغسل منها وجهه ما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان إن كانت قدر ما يحسوها حساها إلا مسح جلده ، والمشركون ينظرون فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم من اليوم ، ولا قوماً أحق من القوم » (٣) .

١٠ - (روى عبد الرزاق والطبرانى عن الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج من البيت قال على : إنا أعطينا النبوة والسقاية والحجامة فما قوم بأعظم نصيباً منا ، فكره رسول الله ﷺ مقالته ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع المفتاح إليه وقال : غيبه » (٤) .

(وروى أيضاً عن سعيد بن المسيب قال : دفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة يوم الفتح وقال : خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة لا يظلمكوها إلا كافر » (٥) .

(وقال عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة : أن رسول الله ﷺ قال لعلى يومئذ حين كلمه فى المفتاح : « إنما أعطيتكم ما تُرْزَوْنَ ولم أعطكم ما ترزؤون » يقول : أعطيتكم السقاية لأنكم تغرمون فيها ولم أعطكم البيت قال عبد الرزاق : أى أنهم يأخذون من هديته » (٦) .

١١ - روى أبو يعلى عن ابن عباس (رضي الله عنه) وابن هشام عن بعض أهل العلم واليهقى وابن أبى شيبه والأزرقي ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ لما حانت الظهر

(١) اشتمال الصماء : أن يجلل جسده كله بكساء أو إزار لا يرفع شيئاً من جوانبه ، والفقهاء يقولون : هو أن يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبيه فتنكشف عورته .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٦٥ ، ٣٦٤ / ٥ . (٣) المصدر نفسه ٣٦٦ / ٥ .

(٤) المصدر نفسه ٣٦٨ / ٥ .

أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة ليغيظ بذلك المشركين وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فرَّ جماعة من وجوههم وتغيّبوا وأبو سفيان بن حرب وعتاب وفي لفظ ابن أبي شيبة خالد بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة - وأسلموا بعد ذلك فقال عتاب أو خالد بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون يسمع هذا فيسمع ما يغيظه ، وقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا وقال بعض بنى سعيد بن العاص : لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة ، وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله الحدث العظيم أن يصبح عبد بنى جمح على بنية أبي طلحة .

(وقال الحارث بن هشام : إن يكن الله تعالى يكرهه فسيغيره ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد علمت الذى قلت » فقال الحارث وعتاب ، نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك (١) .

١٢ - روى الإمام أحمد والبيهقى عن الأسود بن خلف رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال : جلس عند قرن مسفلة فبايع الناس على الإسلام فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله (٢) .

١٣ - (روى الطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأم هانئ يوم الفتح : « هل عندك من طعام نأكله ؟ » قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وإنى لأستحيى أن أقدمها إليك ، فقال : « هلمى بهن » فكسرن في ماء وجاءت بملح ، فقال : « هل من أدم ؟ » فقالت : ما عندى يا رسول الله إلا شيء من خل ، فقال : « هلميه » فصب عليه الطعام وأكل منه ثم حمد الله ثم قال : « نعم الأدم الخل ، يا أم هانئ لا يفقر بيت من أدم فيه خل » (٣) .

١٤ - قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلقت شيء أحب إلىَّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ، قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ،

فقلت : هلم إلى الحديث ، فقال : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا والشرك يغشى وجهه الإظلام

ذكره أبو عمر في الدرر ولم يذكره في الاستيعاب وهو على شرطه ، وذكره القاضي في الشفاء بنحوه (١) .

أولاً : تحطيم الوثنية

بضع ساعات من عمر البشرية تعدل عمر البشرية كله ، نحيهاها مع رسول الله ﷺ في أعظم ساعات النصر الرباني وفي جوانب مكة المكرمة وفي البيت العتيق .
١ - في قلب مكة :

مكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من النهار حتى اطمأن الناس فاغتسل ، ثم دعا براحلته القصواء فأدنت إلى باب قبته ، وعاد لللبس السلاح والمغفر على رأسه . فتشريقاً وتعظيماً لمكة وليت الله الحرام ، يغتسل ﷺ ويتبهاً لدخولها ، واختار ﷺ أن يخرج على ناقته القصواء حتى يراه الناس جميعاً ، ويراهم واختار أن يعود إلى لبس السلاح فهو في حالة حرب ، وقد فتح مكة بقوة جيش الله وحزب الله فهو هنا القائد العسكري الذي يعلن بعد لآي نهاية هذه الحرب مع قريش أعدى العدو ، وها هو يخرج من بيته .
(وقد حفر الناس به ، فركب راحلته ، والخيول تمعج بين الخدمة إلى الحجون ، ومر رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر الصديق يسير معه يحادثه) .

لقد كان آخر عهده بمكة ، وقبل عمرة القضاء أن مضى في الهجرة إلى بيت أبي بكر الصديق في ساعة مبكرة لم يكن يأتي فيها أحد لأحد ، وخرج مستخفياً مع أبي بكر من خوخة له في بيته ، وقد أهدر دمه ، وعاد قبل أقل من عام ضمن سلطان مكة وطواغيتها الذين يحكمون ، وأصنامها المقدسة ، عاد ليعتمر مع ألف وأربعمائة من أصحابه ، أما اليوم فما هو يمضي في مكة تحف به الناس من كل جانب وقد اختفى الطواغيت في بيوتهم أو فروا خارج مكة ، أو أووا إلى الجبال يشهدون من هناك الفاتح العظيم ، وخلت مكة من الرجال ، فلا شيء إلا النساء ناشرات شعورهن ، وقد رحن يلطن النساء بخمرهن .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ - ٣٧٣ .

إنه التاريخ يعيد نفسه قبل ثمانية أعوام مضى فى شوارع مكة مع صاحبه أبى بكر
والدنيا كلها ضده ليس معه إلا هذا صاحب وما هو اليوم يتحدث مع أبى بكر فى
شوارع مكة وخيل المسلمين تمعج بين الخدمة والحجون تبحث عن قتال فلا تجده ، ونسوة
مكة يقارعن الخيل بالخمير ويتسم رسول الله لصاحبه الصديق ، وذكريات الماضى كله
تنثال عليه ، ويستعيد بيت حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يتحدث عن هذه الصورة الحية التى
كانت خيالاً شعرياً ، فغدت واقعاً حياً .

تظل جياندا متمطرات يلطمهن بالخمير النساء

ونسوة بنى أحيحة هؤلاء قد كان أبوهم أعز أهل مكة وأشرس المشركين فى حرب
الإسلام والمسلمين وحين نزل به المرض نذر لله :

لئن أقامنى الله من مرضى لا يعبد إله أبى كبشة فى مكة .

ومضى أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية وهؤلاء أولاده الشباب جميعاً جنود فى
الصف الإسلامى إبان بن سعيد بن العاص ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعبد الله بن
سعيد بن العاص .

وقبل أقل من عامين كان إبان بن سعيد من طواغيت مكة ومن أبطالها المحاربين
لمحمد وهو الذى أجار عثمان بن عفان وأركبه خلفه وقال له :

أقبل وأدبر لا تخف أحداً بنو سعيد أعزة الحرم

وهؤلاء بنو سعيد أعزة الحرم اليوم فى ظل اللواء الإسلامى الخفاق ، لواء لا إله إلا
الله وحده ، وقد نكست رايات قريش ، وفر فرسانها العظام المقاتلون الذين جمعوا
الجموع لحرب رسول الله ﷺ .

وفر صفوان وفر عكرمه وأبو يزيد قائم كالموغمة
وقطعتنا بالسيف المسلمه يقطعن كل ساعد وجمعهم

لهم نهيت خلفنا وغمغمه

وسعد بن عبادة الذى كان يجرجر فى شوارع مكة قبل ثمانية أعوام ها هو اليوم
يحمل ابنه راية الإسلام ، راية النبى ﷺ ، وينظر إلى نساء مكة التكلى واليتامى
والجرحى والأيامى فيراهن فى أسوأ حالاتهن فيقول : (قد كان يذكر لنا من نساء قريش
حسن وجمال ما رأيناهن كذلك ، فغضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يوقع بسعد
وأغلظ له ، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من

عبد الرحمن؟ فقال: «وماله؟» فأخبره بما كان، فغضب ﷺ حتى كاد وجهه يتوقد ثم قال: «رأيتهن وقد أصبن بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن، خير نساء ركن الإبل نساء قريش أحناه على ولد، وأبذله لزوج بما ملكت يد» (١).

٢ - عند الكعبة المشرفة:

وها هو - عليه الصلاة والسلام - يدخل البيت الحرام ويمضي إلى الركن إلى الحجر الأسود، هذا الحجر الذي وضعه بيده الشريفة قبل خمسة وعشرين عامًا حين كادت تقع الحرب في قريش حوله فزعم أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلم إلى ثوبًا» فأتى به، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده» (٢).

كان هذا حين كان قومه من أهل مكة يعرفونه، أما الآن وهو يشير بمحجنه إلى الركن، ويكبر (فكبر المسلمون بتكبيره فرجّعوا التكبير، حتى ارتجت مكة تكبيرًا) ولأول مرة في تاريخها يتجلجل فيها هذا النداء العظيم والتكبير (حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون وطاف رسول الله ﷺ بالبيت آخذ بزمام الناقة محمد بن مسلمة).

٣ - أعظم انقلاب في مكة:

إنه طواف لم يسبق له مثل في تاريخ البشرية، لقد مضى على الوثنية في مكة أكثر من ألف عام، وها هي تستفحل وتستفحل حتى ليرتفع عدد الأصنام في الكعبة إلى ثلاثمائة وستين صنمًا، وولدت البشرية من جديد، وجاء فجرها السعيد على يد سيد الوجود محمد ﷺ (وفي يده قوس وقد أخذ بسية القوس فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينه ويقول: «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (١) [الإسراء]، فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه، وفي لفظ: لفقاه من غير أن يمسه.

ها هي الآلهة تتحطم وتنهار فمن يثار لها ويشور ويقول: حرقوا محمدًا وانصروا الآلهة، أين أبو جهل عمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأمية

(١) إمتاع الأسماع للمقرئ ١/ ٣٩٧ والحديث في مسلم ٤ / ١٩٥٨ ح (٢٠٢ / ٢٥٢٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٩٧.

ابن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، وسعيد بن العاص ، وعتبة بن ربيعة ؟ أين هؤلاء الملأ الذين أخرجوا رسول الله ﷺ من مكة لأنه ينال من آلهتهم ويسفّه أحلام من مضى من آبائهم حين كانوا يعبدونها ؟ أين الجماهير الثائرة للآلهة ؟ إما أغلقوا عليهم أبوابهم ذعراً وخوفاً على حياتهم ، وإما التجؤوا إلى بيت أبى سفيان الذى وقع وثيقة الاستسلام والإسلام عن قومه جميعاً ، وإما اندسوا فى الحرم بين الناس فمن دخل المسجد فهو آمن لا يجزئ واحد منهم أن يرفع صوته ، أو يعلن احتجاجه ، أو فروا إلى رؤوس الجبال ، يشهدون تحطيم آلهتهم التى عاشوا على تقديسها والذبح لها والصلاة لها تقريباً وزلفى إلى الله .

أين هؤلاء جميعاً والجمع الإسلامى الهادر الذى يكبر وهو يرى تكسّر الأصنام بمعجزة ربانية بطعنة من محجن أو طعنة بسية القوس فيهوى وفيها ما هو مرصع بالرصااص فيذوب الرصااص ويتحطم الصنم ؟ إنه عيد البشرية اليوم أن انتكست الوثنية وتهاوت آلهتها وأصنامها لا تدفع عن نفسها شيئاً ولا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً ، ولا تملك لغيرها ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

لقد كان عليه الصلاة والسلام يكره هذه الآلهة منذ نعومة أظفاره ، ويرفض تقديسها مع قومه ، ويرفض حضور أعيادهم للذبح للآلهة والقربان لها وأمضى عمره حتى الأربعين من عمره لا يقر لها بقدسية ولا يقدم لها نسكاً ولا يكره شيئاً كراهته لها ، وكان الوحى والبعث وكانت الرسالة ، وكانت الحرب الفكرية على الآلهة والمهاجمة العلنية والتى استمرت ثلاثة عشر عاماً لا يهدأ لها أوار حتى انتهت بإخراجه عليه الصلاة والسلام من مكة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال] .

وكاد ﷺ أن يدفع حياته ثمناً لهذه المعركة الفكرية ضد الوثنية وأنقذه الله تعالى من كيدهم ومكرهم وتحولت الحرب الفكرية إلى حرب فعلية ومضت ثمانية أعوام حتى آن أوان لقطف ثمارها فى هذه اللحظة والأصنام تكسر وكل عبادها خزايا نادمين مقتضى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء .

وكان الحدث الأضخم وذروة نصر هذا الدين يوم أن جاء عليه الصلاة والسلام ليكسر إله الآلهة هُبَل أعظم أصنام مكة الذى كان وجاه الكعبة ، (وأمر بهبل فكسّر وهو واقف عليه) ها هو يهشم وجهه ، فلا من معترض ، ويسحق بالأقدام فلا من ناثر ، هُبَل نفسه الذى أعلن أبو سفيان انتصاره يوم أحد حيث أوفى على رأس الجبل وهو يقول فى أول إعلان للنصر : اعلِ هُبَل .

فيأتي الجواب له من عمر بن الخطاب على لسان رسول الله ﷺ: الله أعلى وأجل،
ثم يأتي نائب الإله الأكبر ونائبه اللات والعزى يأتي ليفخر بنصر عزاه قائلاً :
لنا العزى ولا عزى لكم ، فيأتيه جواب الجيش الصامد الجريح بلسان قائده الحبيب
وبإعلان عمر رضي الله عنه مولانا ولا مولى لكم .

وعمر عامان ، ويجيش أبو سفيان الجيوش ويفاجأ بالخذق ، فيتميز غيظاً من محمد
وأصحابه ويكتب له : باسمك اللهم فإني أحلف باللات والعزى لقد سرتُ إليك بجمعنا ،
وإنا نريد أن لا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك . . . فإن نرجع عنكم فلکم منا كيوم أحد
تُبقر فيه البطون .

أما جواب النور الهادي للبشرية لأبي سفيان قائد جيش الشرك فكان : « . . وليأتين
عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك » .

وأزفت الآزفة وآن الأوان ، وهذا إساف ونائلة يكسران ، وهذا هبل يحطم ، فأين
أبو سفيان ها هو أبو سفيان يرى بأَم عينيه تحطم هبل ، وإساف ، ونائلة كما ذكر ذلك
له رسول الله ﷺ ويذكره الزبير رضي الله عنه قائلاً :

يا أبا سفيان ، قد كسر هبلُ أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه
أنعم ، قال أبو سفيان : دع عنك هذا يا بن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره
لكان غير ما كان ، ألف عام خلت أو تزيد ، وغضب الله تعالى على المشركين قائم ،
من أجل ذلك الإله البشري الذي عبده من دون الله، من أجل عمرو بن لحي الخزاعي .

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان
حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي :
« يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصبه (١) في النار فما رأيت
رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه » ، فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول
الله ؟ قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب
الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي » (٢) .

وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم :

أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض
البلقاء وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق - يقال : عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ،

(١) قُصبه : وهي الامعاء .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٧٦/١م ونحوه في مسلم ١٩٢/٤ ، ح (٥١/٢١٢٨) .

رأهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له : هبل ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (١) ، وهكذا كان هبل أقدم أصنام العرب .

ويقال : إنه أول ما كان من أمر عمرو هذا فى عبادة الأصنام : أنه كان حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة ، جعلته العرب رباً لا يبتدع لهم ببدعة إلا اتخذوها شرعة ؛ لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكانت هناك صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف ، وكانت تسمى صخرة اللات (أى الذى يلت العجيين) فلما مات هذا الرجل قال لهم عمرو : إنه لم يمت ، ولكن دخل فى الصخرة ، وأمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى اللات (٢) .

ويصف ابن الكلبي هبل بقوله : (وكان هبل أعظم أصنام العرب التى فى جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قریش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة بن إلياس ابن مضر ، وكان يقال له : هبل خزيمه ، وكانت تضرب عنده القداح (٣) .

أما إساف ونائلة فيمثلان أبشع صورة من صور حمق العرب وجاهليتها الجاهلاء وضلالها العمياء .

قال ابن إسحاق : واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندها ، وكان إساف ونائلة رجلاً وامراً من جرهم - هو إساف بن بغي ، ونائلة بنت ديك - فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين (٤) .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنها قالت : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : (ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامراً من جرهم أحدثا فى الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجرين) ، والله أعلم .

وها هو إساف ونائلة اللذين جاء أبو سفيان وتبرك بهما وذبح عندهما وتمسح بهما وقال لهما : لا أفارق عبادتكما حتى أموت بعد أن عاد من مهمته الخاسرة من مكة ، ها هو

(٢) الروض الأنف للسيهلى ١/١٠٢ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٧٧ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٨٢ .

(٣) الأصنام لابن الكلبي .

يراهما يتهتمان ويداسان بالأقدام ، فلا يغضب لهما أحد .

إنه أعظم انقلاب فى تاريخ البشرية حين تحطمت الوثنية والأصنام وأعلن إبليس لجنده فى الأرض :

« إن الشيطان قد يش أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكن رضى ما دون ذلك ، فيما تحقرون من أعمالكم » .

٤ - محاولة الاغتيال :

ولعل فضالة بن عبيد اللئى الذى رأى الفرصة مواتية ليثار للأصنام المقدسة ، ويثار للآلهة المهشمة ، واقترب من رسول الله ﷺ ليقتله ، لعله لو نجح فى ذلك لأصبح رمزاً للعرب والوثنية مثل عمرو بن لحي ، واعتبر هذا القتل هو ثار الآلهة من الذين كفروا بها ، واقترب وفى ذهنه تلك الأحلام الوردية من المجد الذى سيمضى به فى قومه بنى بكر ثم قریش ثم العرب قاطبة أن يقتل محمد بن عبد الله الذى حطم الطواغيت والأصنام والمقدسات والآلهة ، وها هو يقترب أكثر فأكثر ، فتأخذه الرعدة ولقد أخذت الرعدة قبله من هو أجراً منه ، فرعون هذه الأمة أبى جهل حين أراد اغتيال رسول الله ﷺ فرأى فحلاً من الإبل لم ير مثل هامته وأنيابه قط ، لو هم رمى أبو جهل بحجره لا تبلغ أبا جهل ، وهذه إحدى المحاولات التى لم تنقطع من الاغتيال تبرر لنا واضحة بهذا الجلاء .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل ؟ » قال : نعم ، قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن ، ولنسمع إلى فضالة الجديد الذى دخل معمل التغيير ، بهذه اللمسة النبوية العظيمة غيرت كل تكوينات ذراته فى بناء جديد وإنسان جديد يقول : (والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شيء أحب إلىَّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ليكون الإيذان الجديد بتكسير الأصنام لصديقة عمره التى دعت إلى الحديث الشجى والخلوة اللذيذة والنشوة العارمة فجاءها فضالة الجديد بإيمانه الجديد بيقينه ، وقد عمر الإيمان صدره وقد ملا حب محمد ﷺ كل ذرة من ذرات كيانه بهذه اللمسة ، فقال :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت لا	يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله	بافتتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيتاً	والشرك يغشى وجهه الإظلام

٥ - الصلاة أمام مقام إبراهيم :

وانتهى عليه الصلاة والسلام من الطواف ، وأنهى عهداً بائداً مر عليه قرابة ألفى عام

وأمر مناديه ينادى بمكة :

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره .

ومضى عليه الصلاة والسلام بعد الطواف (ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه ، فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً » فتزع له العباس بن عبد المطلب دلواً فشرب منه وتوضأ ، والمسلمون يتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصيبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

ومضى رسول الله ﷺ إلى مقام إبراهيم وهو لاصق بالكعبة فصلى ركعتين .

إنها النبوة الكبرى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيها هنا اتصل التاريخ واختصر الزمان والمكان وطويت الأرض وطوى الليل والنهار فهذا مقام إبراهيم حيث كان أثر قدمه فيه فى بناء الكعبة ، وها هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام يتلقى موعود الله له :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾

[البقرة]

وها هو ﷺ يتخذ من مقام إبراهيم مصلى ، وها هو يطهر البيت الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود ، يطهره من أضرار الوثنية وأقدارها ، ويهيئ لهذا الجيل العظيم خيرة أجيال البشرية ليصلى لله قائماً وراكعاً وساجداً .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَئِيرِ (١٢٦) ﴾

[البقرة]

لقد استمر هذا المتاع القليل ما ينوف عن ألف عام ، وتلك الاجيال المرتدة الكافرة إلى جهنم وبئس المصير .

ويعضى الزمن بإبراهيم وإسماعيل حيث يبلغ إسماعيل السعى ويناهز الطفولة ليشارك مع أبيه إبراهيم فى بناء البيت على قواعده الأولى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً

مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرَنَا مَتَاسِكًا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ [البقرة] .

واستجاب الله دعاء أبى الامة المسلمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ووهب له من ذريته من إسماعيل أمة مسلمة بقيت على هدى الله وملة إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي فقير الدين ، واتخذته الناس رباً من دون الله فأحل لهم الحرام وحرم لهم الحلال، وآن الاوان لاستجابة الله عز وجل للدعوة الأخيرة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة] .

وحقق الله تعالى موعود نبيه إبراهيم بابنه محمد ﷺ بعد آلاف الأعوام ، وكان أهل السموات والأرض ينتظرون قدوم هذا النبی الذي يتلو على هؤلاء العرب الاميين آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وبقيت البشرية تن من أوجاعها ووثنياتها وشركها ، حتى جاء نبي النبيين الذي أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين بالإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران] .

وها هو نبي الملحمة ، ونبي الرحمة ، ونبي النبيين ، قد وقف يصلى عند مقام أبيه إبراهيم وأعلن للعالمين قوله : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى » .

وها هى مكة التى حاربه عشرين عاماً تعلن استسلامها وهو فى ساحة المسجد الحرام لا يجد مناخاً لناقته ، فيتلقى على الأكف (فما وجدنا مناخاً فى المسجد حتى أنزل على أيدي الرجال ، وذلك بعد أن انتهى طوافه بالبيت العتيق ، وأنهى بطوافه تاريخ الوثنية التتن فى مكة المكرمة وكسر هُبُلُ أمام عباده وسدنته وجاء وعد الله كما كان يردد عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء] ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبا] .

٦- ورى من ماء زمزم :

(ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة والدرع والمغفر ، وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى ماء زمزم فاطلع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لتزعت منها دلوًا » فنزع له العباس بن عبد المطلب ، ويقال : الحارث بن عبد المطلب دلوًا ، فشرب منه .

إنها بئر أبيه إسماعيل وفي ذلك يشترك مع جميع أولاد إسماعيل فيها ، لكنها غاضت فترة طويلة من الزمن إلى أن ألهم الله تعالى جده عبد المطلب بحفرها ثانية لتسقى الحجيج الأعظم .

(قال ابن إسحاق : وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد ابن أبي حبيب المصري^(١) ، عن مرثد بن عبد الله اليزني^(٢) ، عن عبد الله بن زريق الغافقي^(٣) أنه سمع على بن أبي طالب عليه السلام يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال : قال عبد المطلب :

إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة ، قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال : احفر برة^(٤) ، قال : قلت : وما برة ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه فجاءني فقال : احفر المصنونة ، قال : قلت : وما المصنونة ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه ، فجاءني فقال : احفر زمزم ، قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تتزف أبداً ولا تدم ، تسقى الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل^(٥)) .

(فقدأ عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنيين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها ، فجاء بالمعول ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جدَّهُ فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثنيينا هذين اللذين تحفر عندهما ، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : دُدْ عني حتى أحفر فوالله لا مضين لما أمرتُ به ، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر^(٥) ، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج^(٦)) .

فسقاية الحاج وإن كانت ابتداء من اختصاص بنى عبد مناف حين وزعت مآثر مكة ، وكانت السقاية من آبار خارج الحرم ، لكن زمزم هي من اختصاص عبد المطلب وبنيه ، ورسول الله ﷺ هو من بنى عبد المطلب لكنه رسول البشرية كافة ، وخشى إن هو نزح دلوًا من ماء زمزم أن يرى المسلمون جميعًا حقًا لهم في ذلك في انتزاع الدلاء اقتداء بنبينهم محمد عليه الصلاة والسلام مهما امتد الزمان والمكان ولهذا قال رسول الله ﷺ :

« لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنتزعتُ منها دلوًا » ، وترك النزح لبنى عبد المطلب

(١) ثقة فقيه من الخامسة .

(٢) ثقة فقيه من الثالثة .

(٣) ثقة رمى بالتشيع .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام م/١٤٢ ، ١٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ١٤٦/١ .

(٦) المصدر نفسه ١٤٧/١ .

حيث قام بذلك عمه العباس رضي الله عنه فشرب منه .

وها هي زمزم تمتد عبر الآماد والآفاق حتى يومنا هذا فتسقى الحجاج الأعظم الذي يفد إلى بيت الله الحرام .

(وتوضاً والمسلمون يتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم ...) .

فكل قطرة من وضوء الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حق يقتل عليه المسلمون جميعاً لينالوا بركته، بل قل : كل ذرة من كل قطرة ماء توضأ بها المصطفى صلى الله عليه وسلم هي حلم يود كل مسلم أن يصل إليه .

حق لقريش وهي ترى هذا الاقتتال ، وهذا الازدحام على وضوئه أن تقول :
(ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

فالطغاة والجبارون يستطيعون أن يتحكموا بأجساد الناس ويقودونهم إلى قتال أعدائهم أما الأنبياء والهداة في الوجود ، فيتعاملون مع قلوب الأمة ، ومن الذي يضطر المسلمين أو يجبرهم على الاقتتال على وضوئه صلى الله عليه وسلم إنه الحب الدفين الذي يملأ كل ذرة في كيانه أما المشركون الذين لم يؤمنوا بعد بنبو محمد وحاربوه وطردهوه وأرادوا اجتثاته بأخذهم العجب ولا شك بهذا الاقتتال ، ويعرفون أنه لا شيء إلا الحب ، وقد سمعوا بملوك الأرض فما رأوا وما سمعوا بمثل هذا الحب :

(ما رأينا ملكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به) .

٧- داخل البيت العتيق :

أ- قبل الدخول :

(عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأرقام فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قاتلهم الله ، لقد علموا ما استقسما بها قط » (١) .

(ووقع في حديث جابر عند ابن سعد وأبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذي أخرجها) (٢) ، والذي يظهر أنه محا ما كان من الصور مدهوناً وأخرج ما كان مخروطاً ، وأما حديث أسامة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها وقد نفذ في الحج ، فهو محمول على أنه بقيت بقية خفي

(١) فتح الباري للعقلائي ١٦/٨ ح (٤٢٨٨) . (٢) المصدر نفسه ١٧/٨ .

على من محاها أولاً).

إنها الحرب على الوثنية بجميع صورها وأشكالها ، ما دق منها وما عظم ابتداء من هُبل وانتهاء بالصورة المرسومة على جدران الكعبة ، بل قام المسلمون جميعاً ، وألقوا أزهرهم ومضوا يمحون بالماء كل آثار الوثنية والشرك ، فكلما تكسر أصنام البيوت وتكسر أصنام الكعبة فتكسر الصور المجسدة ، وتطمس الصور المرسومة ويبقى بيت الله تعالى خالصاً له وحده ، وليس فيه صورة لأحد حتى ولا لإبراهيم بانيه ، ولا لإسماعيل شريكه فى رفع قواعد البيت العتيق .

إن عملية التربية لا يكفى فيها الأوامر الصادرة ، وإن قضية التوحيد لله وحده لا يكفى فيها التوجيهات النظرية فلا بد لهذا الجيش المسلم ولهذه القاعدة العريضة ولكل من دخل فى دين الله أن يعلم أن الشرك محرم بجميع صورهِ ، وجميع مظاهرهِ وجميع دلالاتهِ وهذه القضية لا تحمل المهادنة قط ولا تحمل المساومة قط ، وذلك عندما يغدو المسلمون قادرين على ذلك .

لقد صمتوا على هذه المظاهر وطافوا فى ظلالها فى عمرة القضية لأن السلطان للمشركين ، ولم يكن يعينهم إزالتها فى ذلك الوقت أو الحوار على التخفيف منها كحل وسط على الطريق أو دخلت فى بنود صلح الحديبية أما وقد سقط سلطان طواغيت مكة وفتحت مكة لرسول الله ﷺ فلا مجال لمراعاة أحد ، ولا مساومة أحد ، ولا الخوف من غضب الجماهير الحاكمة المؤمنة بهذه الأصنام والتماثيل .

فكل مسلم فى هذا الجيش يرى بعينه رفض رسول الله ﷺ دخول أول بيت أقيم لله فى الأرض ، وأقدس بيت فى الأرض ، قبل أن تمحى منه معالم الوثنية وآثارها ، ورأى المسلمون رسول الله ﷺ وهو يزيل بيده صورة أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل ، ووضح لهذه القاعدة العريضة أن الأمر الأول هو أمر العقيدة فطواغيت الأرض ، وكبار مجرمي مكة يمكن أن يكون موضوع قتلهم مجال حوار ، ومجال شفاعة ، ومجال رجاء أما مظاهر الشرك والوثنية فلا ؛ لأن دولة المبادئ لا ترضى لنفسها حواراً حول مبادئها ومجالاً على حساب هذه المبادئ ، ودولة العقيدة ترفض الازدواجية ، والمجاملة بين العقيدة والشرك ، لقد رفضها رسول الله ﷺ وهو فرد أعزل وحيد مستضعف ، وقال للمشركين كما علمه ربه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون] .

وها هو يرفضها عليه الصلاة والسلام أمام صناديد قريش وأبطالها ، وسدنتها ، وعابديها ، وأربابها رفضها أمام هؤلاء جميعاً حين غدا قادراً على إزالتها ومحوها أو طمسها .

ب - مفتاح البيت وعثمان بن طلحة :

والظاهر أن المفتاح أعيد لعثمان بن طلحة رضي الله عنه بعد إزالة الصور والتماثيل من الحرم ، وها هو عليه الصلاة والسلام قد توجهاً وتجهز لدخول بيت الله الحرام فطلب المفتاح من عثمان ، وكانت القصة الطريفة في ذلك والتي رواها محمد بن عمر عن عبد الله بن عمر وابن أبي شيبه عن أبي هريرة قال عبد الله : كان عثمان قد قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة مسلماً مع خالد بن الوليد وعمر بن العاص قبل الفتح ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة فجاء بلال إلى عثمان فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تأتي بالمفتاح فقال : نعم ، هو عند أمي سلافة ، فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنه قال نعم وأنه عند أمه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ رسولاً فجاء ، فقالت : لا واللّات والعزى لا أدفعه إليك أبداً .

وكيف تدفع سلافة المفتاح إلى قاتل الأحبة ، فيصبح بيد محمد بن عبد الله ، إن الشجى في حلقها من مقتل ولديها لما يزل كما هو وما تزيده الأيام إلا قوة .

وكان ذلك يوم أحد (وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الألقح فقتل مسافع بن طلحة ، وأخاه الجلّاس بن طلحة وكلاهما يشعره سهماً فيأتي أمه سلافة فيضع رأسه في حجرها فتقول : يا بني من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً حين رمانى وهو يقول : خذها وأنا ابن أبي الألقح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك) (١) .

وتدخل عثمان بن طلحة قائلاً لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أرسلنى أخلصه لك منها ، فأرسله ، فقال : يا أمّه ادفعى إلىّ المفتاح فإن رسول الله قد أرسل إلى وأمرنى أن آتيه به .

(فقالت أمه : أعيذك بالله أن تكون الذى تذهب مأثرة قومى على يديه) (٢) ، لا واللّات والعزى لا أدفعه إليك أبداً ، فقال : لا لات ولا عزى إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنك إن لم تفعلنى قتلت أنا وأجى فأنت قتلتيها ، فوالله لتدفعنه أو ليأتين غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته في حجرتها وقالت : أى رجل يدخل يده ها هنا ؟) .

(٢) المغازى للواقدي ٢/ ٨٣٣ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٧٤ .

إنها لا تزال تعيش حياة الجاهلية ولا تدرى أن الكون قد شارك المصطفى ﷺ فرحته بزوالها ، ولا تزال القضية فى ذهنها أن الحجابة لبني عبد الدار ، فإن يأتى غلام بنى هاشم ليغتصب هذه المأثرة من قومها سوف تراق الدماء لذلك وتهيج الحروب ، ألم يتم ذلك من قبل ؟ وانقسمت قريش إلى المطبيين والأحلاف ، وكادت أن تهيج حرب تدمر الفريقين لولا تدخل العقلاء من الفريقين وتقسيم المآثر بين بنى عبد مناف وبنى عبد الدار، وبنو عبد مناف اليوم يعتقدون ويريد محمد بجيشه أن يأخذ مفتاح الكعبة، فكيف تسلم له؟ (قال الزهرى فيما رواه عبد الرزاق والطبرانى ، فأبطأ عثمان ورسول الله ﷺ قائم ينتظره حتى إنه لينحدر منه مثل الجمال من العرق ، ويقول : « ما يحبسه ؟ فيسعى إليه رجل » .

فبينما هما على ذلك رأى عثمان وأمه ، وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر رضي الله عنهما فى الدار وعمر رافع صوته حين أبطأ عثمان ، يا عثمان اخرج ، فقالت : يا بنى خذ المفتاح ، فإن تأخذه أنت أحب إلى من أن تأخذه تيم وعدى ، فأخذه عثمان فخرج يمشى به حتى إذا كان قريباً من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح ، فقام رسول الله ﷺ إلى المفتاح فحنى عليه بثوبه) .

(وروى الفاكهى عن ابن عمر : أن بنى أبى طلحة كانوا يقولون : لا يفتح الكعبة إلا هم ، فتناول رسول الله ﷺ المفتاح ففتح الكعبة بيده) .

ولم نبعد وتحدث عن أم عثمان بن طلحة ولا نعود بالذاكرة سنين إلى الوراء مع عثمان بن طلحة رضي الله عنه وندد هذه الذكريات لعثمان يقول فيما رواه ابن سعد عن إبراهيم بن محمد العبدري، ومحمد بن عمر عن شيوخته، قالوا : قال عثمان بن طلحة: لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعاني إلى الإسلام فقلت : يا محمد العجب لك حيث تطمع أن أتبعك وقد خالفت دين قومك وجئت بدين محدث (١) .

فهو لم يكن يرضى لنفسه الجراة على الحديث معه ، ولم تكن تلك الثارات والدماء بينهما ، وأين مقام محمد فى قريش آنذاك من مقام عثمان بن طلحة فعثمان من سدنة البيت المعترف بهم والمقرين لهم بالحجابة ، ومحمد ﷺ يحاربه الملا من قومه ، ويرمونه بالشعر والسحر والجنون .

(... فأقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت عليه ونلت منه) .

وهى فرصة موأتية أن يشارك قومه فى النيل من محمد وإيذائه ، وذلك حين أراد

الدخول عن البيت الذى يملك عثمان مفتاحه ، ويجد لذلك لذة فى النيل منه .
(.. فحلُم عنى ثم قال :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت » .
فقلت : لقد هلكت قريش وذلت ، قال : « بل عمرت يومئذ وعُزّت » .
ودخل الكعبة .

لقد كان عثمان بن طلحة سليل المعدن النفيس يعرف الرجال، وها هو يتلقى أول درس فى التربية من محمد ﷺ الذى يتلذذ فى إيذائه وكان هذا الدرس هو فى حلمه عنه ، وترفعه على هذه السفاسف ومضى ﷺ صُعُداً بعثمان بحيث يوسّع آفاقه بأن هذا المفتاح سيكون يوماً بيد محمد ﷺ ، فاهتز كيانه عثمان وأعطت التربية مفعولها وثمرتها المقصودة
(.. ف وقعت كلمته منى موقعاً فظننت أن الأمر سيصير كما قال ..) (١) .
وازداد إعجاب عثمان ﷺ بحلم محمد وعقله وخلقه وفهمه بالإسلام .
(فأردت الإسلام فإذا قومى يزبروننى زبراً شديداً) .

ثم وجد المتنفس بعد ذلك حين دعاه خالد بن الوليد ﷺ إلى الإسلام وهو يائس منه ؛ لأن أباه وأعمامه وإخوته قتلوا جميعاً فى أحد فى حربهم لمحمد ﷺ غير أن طيب الأصل ونفاسة المعدن كان يتوهج فى داخله فيصهر كل نداءات الثأر فى قلبه حيث يعطينا خالد ﷺ فى رواية إسلامه مجهرًا أعضاء به ذلك المعدن إذ يقول :

(وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تُخرج إلىَّ فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان ابن طلحة ، فقلت : إن هذا لى لصديق ولو ذكرت له ما أريد ، ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهت أذكره ، ثم قلت : وماذا على وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت :

إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر ، لو صُبَّ عليه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفتح مناخة) .

فإذن كان يتهمياً رغم كل ثاراته للغدو إلى محمد ليعلن إسلامه قبل أن يفاتحه خالد بذلك رغم كل أحقاد الجراحات والثارات التى يحملها وأسلم قلبه لله مع صديقه عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد .

(١) المغارى للواقدي ٧٤٨/٢ .

وها هو الآن يقدم المفتاح لرسول الله ﷺ بصفته جندياً فى حزب الله ويأخذ رسول الله ﷺ المفتاح منه ، ويفتح الكعبة بيده الشريفة ، ويطلب الماء لإزالة صورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام قائلاً : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام » ، ثم يمضى عليه الصلاة والسلام خطوات إلى الامام ويصلى ركعتين فى المسجد وسط حفل إزالة الصور والرسوم الباقية ، ثم يخرج ليلقى عثمان بانتظاره أمام الباب .

وعلى بن أبى طالب وهو يرى المفتاح بيد ابن عمه محمد ﷺ فيقول :

يا رسول الله اجعل لنا الحجابة مع السقاية .

وها هو المفتاح بيد رسول الله ﷺ يضعه حيث يشاء ، ويستعيد عثمان فى ذاكرته تلك الحادثة الفريدة التى قال له فيها رسول الله ﷺ :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت » .

وها هو فى يده عليه الصلاة والسلام يضعه حيث يشاء ، لا شئ يمنعه أن يعطيه علياً أو يبقه عنده أو يعيده لعثمان ، وهو يرى عز قريش التى علت فيه على الأرض كلها شرقاً برسول الله ﷺ كما قال له ﷺ : « بل عمرت قريش وعزت » .

وها هو رسول الله ﷺ ينادى عثمان ولا يدرى مصير المفتاح ولا مصيره ، وليضعه رسول الله ﷺ حيث يشاء فهو رسول الله ، لكنه يتمنى فى أعماقه أن يعود إليه وتبقى هذه المأثرة لبنى عبد الدار .

(فلما دعانى بعد أخذه المفتاح ذكرت قوله ما كان قال ، فأقبلت فاستقبلته ببشر واستقبلنى ببشر ثم قال :

« خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة لا ينزعها إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف » .

وفى رواية ابن إسحاق : « هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء » (١) .

قال عثمان : فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » فذكرت قوله لى بمكة فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ، فأعطاه المفتاح (٢) .

وعادت أرواح قريش إليها وهم يرون رسول الله ﷺ يعيد المفتاح لعثمان بن طلحة ويلقى درساً عاليًا فى التربية يستمع إليه الجيش المسلم كله يخاطب به علياً ؓ بأن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٢ .

(٢) المغازى للواقدي ٨٣٧/٢ ، ٨٣٨ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٦٧ / ٥ .

الانتساب إليه من أهل بيته مسؤولية وأمانة وتضحية قبل أن تكون كسباً وثراءً واستثماراً
 « إنما أعطيتكم ما ترزؤون ، ولا أعطيتكم ما ترزؤون » يقول: أعطيتكم السقاية لأنكم
 تغرمون فيها ولم أعطكم البيت ، قال عبد الرزاق : أى أنهم يأخذون هديته .

ثانياً : إعلان المبادئ

وقريش بجميع قياداتها وقواعدها التى التجأت إلى المسجد تنتظر الحكم النهائى
 عليها، وتتوقع الموت فى كل لحظة ، فكان الانفراج الثانى على قريش بعد إعطاء المفتاح
 لعثمان هو جواب رسول الله ﷺ لعلى أخص أهله وأقربهم إليه حين طلب منه أن يضم
 لهم الحجابة مع الرفادة ، يمنع ذلك عنهم لأن لهم الغرم لا الغنم .

(لما خرج رسول الله ﷺ من البيت قال على : إنا أعطينا النبوة والسقاية والحجابة ،
 ما قوم أعظم نصيباً منا ، فكره رسول الله ﷺ مقالته ثم دعا عثمان بن طلحة ودفع إليه
 المفتاح ، وقال : « غيبوه »)^(١) ، واعتبر أهله ظلمة لو انتزعوه منهم ، ووقف عليه
 الصلاة والسلام عند عضادتي الباب بعد خروجه من الكعبة ، وخالد بن الوليد يذب الناس
 عن الباب ، ووقفت الدنيا كلها تصغى إلى سيدها العظيم ماذا يقول : (لما خرج من
 البيت استكف له الناس)^(٢) وأشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة (٣) - وهم
 جلوس - قام على بابهم فقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب
 وحده » .

ولأول مرة منذ ألف سنة خلت يعلن شعار التوحيد فى مكة المكرمة وفى بيت الله
 العتيق بعد أن كان الشعار السابق :

(لييك اللهم لييك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك هو لك وما ملك)^(٤) ،
 وكان هذا هو إهلال قريش وكنانة خلال هذه الأحقاب .

وقد صدق وعده ، ولم يأت النبى ﷺ ليحل محل تلك الآلهة مع عظمتهم ومزيد
 فضله ، إنما أعلنت مع الوحدانية العبودية التامة لله وحده من سيد ولد آدم :
 « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده » .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٦٦/٥ . (٢) استكف له الناس : جلسوا عند عتبة الباب .

(٣) ليط بهم حول الكعبة : تجمعوا والتفوا حول الكعبة . (٤) السيرة النبوية لابن هشام م ٧٨/١ .

وعلى من نُصِر ؟ على كل الأحزاب الذين تألبوا ضده .

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ١٦ ﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١٧ ﴾ [الأحزاب] .

هؤلاء هزمهم الله تعالى وحده .

وهؤلاء رؤوس الأحزاب المهزومين أمامه ، هؤلاء هم قريش ينتظرون القرار المصيري فيهم :

« يا معشر قريش ، ماذا تظنون ، ماذا تقولون ؟ » قالوا : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، نبي كريم ، وأخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإني أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ١٧ ﴾ [يوسف] ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فخرجوا كأنما نشروا من قبورهم فدخلوا فى الإسلام .

لقد أصدر ﷺ عفوه العام قبل إعلان الدستور الإسلامى ، وطوى أصعب صفحة فى حياته ، وأشق صفحة فى حياته من حرب أهله له ، وقومه له ، وطوى كل سفاهات الجاهلية وحقد الجاهلية وتنن الجاهلية ، طوى هذا كله مع قومه ، وفتح صفحة جديدة للدخول فى الإسلام ، وشعرت قريش كأنما بُعثت بعد الموت ، وكأنما الناس حشروا من قبورهم بهذا العفو العظيم الذى لا يستطيعه قلب بشر إلا أن يكون قلب نبي أو قلب نبي الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وكانت هذه المقدمة العملية التى بثت الأمن فى كل قلب ، وبثت الطمأنينة بكل نفس ، وتهيئ المناخ الملائم للتفاعل مع الدستور الجديد .

وبهذا العفو الذى قدمه عليه الصلاة والسلام ، والإمكان صار بإمكانه أن يعلن أول مبدأ من مبادئه ، وهو :

١ - إلغاء الثأر : وهذا يعنى إلغاء مجتمع بكامله يقوم كله خلال آلاف السنين على الثأر وسفك الدم الحرام ، والحروب التى قطعت أواصر هذا المجتمع ، فكان دينه أن يقتل بعضه بعضاً ، وفخره فى ذبح بعضه بعضاً .

٢ - إلغاء الربا : والظلم الذى كان سمة الجاهلية حيث يتحكم أغنياؤها بفقرائها ، ويستبيحون أموالهم الحرام ليزداد الغنى غنى والفقير فقراً وفاقة .

٣ - إلغاء مآثر الجاهلية : والتى كانت الطبقة فى المجتمع تقوم عليها ، فيكون بعضهم أرباباً لبعض بحجة هذه المآثر ، وتحددت هذه المبادئ فى نص واحد :

« ألا إن كل رباً فى الجاهلية أو دم أو مائة أو مال يُدعى فهو تحت قدمى هاتين » .

وفى دولة النبوة ، ودولة العقيدة يبدأ تطبيق المبادئ من القمة لا من القاعدة ، فيبدأ التنفيذ من السلطة العليا ويمتد إلى الأفراد العاديين بعد ذلك ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث » .

٤ - إلا سدانة البيت وسقاية الحاج : فهاتان المائرتان عليهما عماد عبادة الحج والسقاية التى اختص بها بنو هاشم والتى يضعون ثروتهم لخدمة الحجيج ورعايتهم ، وبقيت حجابة البيت عند بنى عبد الدار الذين قال لهم رسول الله ﷺ : « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » ، فقد أعطاهم الله تعالى هذا الحق إلى يوم القيامة .

٥ - إلغاء الدول الجاهلية وقيام الدولة الإسلامية : والتى كانت تقوم على الصراع القبلى ، والتميز بالأنساب والفخر والتعصب للقبيلة ، فكما أن هناك دولة قومية ودولة شيوعية ، ودولة وطنية فهناك دولة قبلية التى تجعل من القبيلة الصنم الذى يُعبد من دون الله ، وقامت الدولة الإسلامية التى تنطلق من استسلام الخلق لرب العالمين :

« ألا وإن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلکم لآدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) » [الحجرات] .

٦ - المساواة فى الأصل والتمايز على أساس التقوى : « يا أيها الناس ، الناس رجلان : فبر تقى كريم ، وكافر شقى هين على الله » .

٧ - تحديد دية القتل شبه العمد : وذلك لإيقاف مسلسل القتل المرتبط بالنار « ألا وفى قتل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة ، مائة ناقة ، أربعون منها فى بطونها أولادها » .

٨ - حرمة مكة المكرمة : « ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ووضع هذين الاخشين فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ، ولن تحل لأحد كائن بعدى ، لم تحل لى إلا ساعة من نهار - يقصرها ﷺ بيده هكذا - ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضائها ، ولا تحل لقطنها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها » .

فقال العباس - وكان شيخاً مجرباً : إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد لنا منه للقبور وظهور البيوت ، فسكت رسول الله ﷺ ساعة ثم قال : « إلا الإذخر فإنه حلال » .

٩ - إلغاء الوصية للوارث : وذلك بعد أن أعطى الله تعالى لكل ذى حق حقه فى

كتابه ، فلا تحمل الوصية للوارث إلا إذا جاز ذلك الورثة جميعاً ، هذه الوصية عن طيب خاطر .

لقد كان الابن الأكبر فى الجاهلية يرث مال أبيه كله ، وتحرم المرأة من الميراث ، فأنهى الله تعالى هذا الظلم القائم فى هذا المجتمع الجاهلى ووزع الانصباء والسهام وأعطى كل ذى حق حقه .

١٠ - تنظيم الأنساب وتحريم الزنا : التى كانت تقوم على التبنى أحياناً ، وعلى الزنا أحياناً أخرى ، فجعل الله تعالى للعاهر الرجم بالحجر وجعل نسب الولد للفراش الذى ولد فيه ، وليس لمن يدعيه .

١١ - ولاية الزوج : فهو السيد فى البيت وله الطاعة « ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها » .

١٢ - إخوة الإسلام والمسلمين : « والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة المسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم وهم يرد عليهم أقصاهم ويعقل ^(١) عليهم أذانهم ومُشدِّهم على مُضغِعِهم ، ومثريهم على قاعدتهم » .

١٣ - حرمة الدم البشرى إلا بحق : « ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده » .

١٤ - اختلاف العقيدة يلغى التوارث : « ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين » .

١٥ - تنظيم جباية الزكاة : « ولا جلب ولا جنب ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفانيتهم » .

١٦ - فى تنظيم حكم سفر المرأة : « ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم » .

١٧ - وتحريم الجمع بين الزوجة وعمتها وخالتها : « ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » .

١٨ - وفى تنظيم أصول القضاء : « والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر »

١٩ - النهى عن صيامين : « وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر » .

٢٠ - النهى عن صلاتين : « ولا صلاة بعد العصر ولا بعد الصبح » .

٢١ - والنهى عن لبستين : « وعن لبستين ألا يحتبى أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، وألا يشتمل الصماء » ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إني قد

(١) وهى عند البيهقى فى الدلائل : « ويسعى بذمتهم أدناهم ، يعقد عليهم أولهم ، ويرد عليهم أقصاهم » ٨٧/٥ .

عاهرت فى الجاهلية .

٢٢ - إلغاء الحقوق المترتبة على الزنا : فقال : « من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين لا يملكها ، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ولا يرث ولا يورث ولا أخالكم إلا عرفتموها » .

٢٣ - إيقاف القتال : « يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح - إلا خزاعة عن بنى بكر - من ضحوة نهار الفتح إلى صلاة العصر منه » .

والملاحظ أن هذه المبادئ العليا تناولت إلغاء الجاهلية وإقامة دولة الإسلام على المساواة فى الأصل والتفاضل بالتقوى وعالجت أحكاماً كبرى كإلغاء الربا والزنا والثأر ومآثر الجاهلية وأحكاماً عملية فى إلغاء الوصية للوارث والتوارث بين ملتين مختلفتين والولد للفراش وللعاهر الحجر مما هو يمارس يومياً فى واقع الأمة .

وأحكاماً تنظيمية فى : لا جلب ولا جنب ، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر .
وأحكاماً تعبدية لمن يتجه إلى الصلاة والصيام والزكاة واللباس فيما هو محظور عنه وتبقى الإباحة بعدها والحث على العبادة .

وسمة هذه القوانين جميعاً هى التصاقها بواقع هذه الآلاف المؤلفة فى بيوتهم ، وفى مجالسهم وفى عباداتهم وفى نفوسهم وفى عاداتهم وتقاليدهم .

وأنهى رسول الله ﷺ خطبته وأنهى معها عهداً من الظلمات ران على البشرية مئات القرون ، وأطلق النور فى الوجود ، وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٢٨) [الفتح] .

ثم مضى بعد خطبته (إلى جانب المسجد فأتى بدلو من ماء زمزم ، فغسل منها وجهه ما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان إن كانت قدر ما يحسوها حساها وإلا مسح جلده والمشركون ينظرون ، فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم من اليوم ، ولا قومًا أحق من القوم) (١) .

تطبيق المبادئ ، والحدث العظيم

وكان لابد من التطبيق العملى لهذه المبادئ علناً وأمام الناس جميعاً ، وحان وقت

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٦٧/٥ من رواية ابن أبى شيبه عن عبد الله بن عبيدة .

أذان الظهر ف (أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة ليغيظ بذلك المشركين ،
وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فر جماعة من وجوههم وتغيّبوا وأبو سفيان بن حرب
وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة وأسلموا بعد ذلك فقال عتّاب أو
خالد بن أسيد :

- لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا فيسمع ما يغيظه ، وقال الحارث :

- أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان :

- لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا ، وقال بعض بنى سعيد بن العاص :

- لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة ، وقال
الحكم بن أبى العاص :

- هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبدُ بنى جُمَح على بَنِيّ أبى طلحة ، وقال
الحارث بن هشام :

- إن يكن الله تعالى يكرهه فسيغيره ، وفى رواية : أن سهيل بن عمرو قال مثل قول
الحارث ، فاتى جبريل النبى ﷺ فأخبره خبرهم فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد
علمت الذى قلت » فقال الحارث وعتاب :

- نشهد أنك رسول الله صلى الله عليك وسلم ما اطلع على هذا أحد كان معنا
فنقول أخبرك (١) .

وخير تعبير يمثل عظمة هذا الحدث ودوره فى مكة هو ما قاله الحكم بن أبى العاص :
(هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبد بنى جمع على بَنِيّ أبى طلحة) .

فهو أبلغ تعبير عن هذا الانقلاب البشرى العظيم أن يصعد بلال بن رباح عبد أمية
ابن خلف الجمحي بقدميه السوداوين على ظهر الكعبة أقدس بيت عند العرب ، فيؤذن
فوقه : الله أكبر الله أكبر ، أكبر من كل طواغيت الجاهلين وهاماتهم وعقائدهم وعصبياتهم .

- أشهد أن لا إله إلا الله هذا الإعلان الذى حرّمته مكة منذ ألف عام .

- أشهد أن محمداً رسول الله ، رغم أنف كل الطواغيت الأموات والأحياء وتنفيذ
دعوة إبراهيم قبل أربعة آلاف عام : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

(١) سبيل الهدى والرشاد ٣٧٢/٥ ، ٣٧٣ وقال فيه رواه أبو يعلى عن ابن عباس وابن هشام عن بعض أهل العلم
والبيهقى عن ابن إسحاق وعن عروة ، وابن أبى شيبه عن أبى سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب
والأرقم عن ابن أبى مليكة ومحمد بن عمر عن شيوخه رحمهم الله تعالى : أن رسول الله ﷺ لما حانت
صلاة الظهر أمر بلالاً (. . .) .

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴿ [البقرة] .

- حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فلا رشد ولا فلاح ولا نجاح إلا بهذا الدين ، هذا الدين الذى عرضه عليهم رسول الله ﷺ ، قبل عشرة أعوام ، وكل الطواغيت أحياء :

- كلمة واحدة تعطونهاها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم « فقال أبو جهل :
- هاتها وأبيك وعشر كلمات ، فقال رسول الله ﷺ :

« تشهدون أن لا إله إلا الله وتنبذون ما تعبدون من دونه » ، فقالوا كما حدثنا الله تعالى بلسانهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَوْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص] .

وانطوى الملأ ، ونفذ الصبر ، وذاقوا العذاب ، فكانت :

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

يعلمها عبد بنى جمع الاسود الزنحى كان رأسه زبيبة فوق بيت الله الحرام .

فأى انقلاب فى التاريخ يعدل هذا الانقلاب ؟!

المأدبة العظمى لقائد الفتح

وصلى المسلمون الظهر ، وأن أوان القيلولة ، وبهذا الفتح المبين يحسن أن تنصب آلاف الموائد ، وتنحر مئات النياق والشيء احتفاء بهذا الفتح ، وإطعاماً لهذا الجيش الذى لا يجد ما يأكله .

وتصادر آلاف الاقوات ، من الإبل والغنم والدقيق والطعام لإطعام هذا الجيش ، وتكريم قائده ، وكانت أعظم مأدبة لقائد هذا الفتح هى هذه المأدبة .

(روى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لام هانئ يوم الفتح : « هل عندك من طعام نأكله ؟ » قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة ، وإنى لاستحى أن أقدمها إليك ، فقال : « هلمى بهن » فكسرهن فى ماء وجاءت بملح ، فقال : « هل من آدم ؟ » فقالت : يا رسول الله ، ما عندى إلا شئ من خل ، فقال : « هلميه » ،

فصَّبَهُ عَلَى الطَّعَامِ ، وَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ حَمْدَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ : « نَعَمْ الْأَدَمُ الْخَلُّ ، يَا أُمَّ هَانِئُ ، لَا يَفْقَرُ بَيْتٌ مِنْ أَدَمٍ فِيهِ خَلٌّ » (١) .

هذه هي البشرية كلها ترنو إلى هذا الفاتح العظيم ، الذي قهر الجبابرة من أعدائه ، يكتفى أن يكون هذا طعامه كسرات من خبز يابسة ، وملح وشيء من خل ، والمأدبة بعظمتها غنية عن أى تعليق .

اليوم تعظم الكعبة اليوم أعز الله قريشاً :

فلقد عادت حرمتها كما كانت من قبل يوم خلق الله السموات والأرض ولا بد أن يقوم النبي ﷺ بتحديد حدودها ، ليكون الرابع في البشرية وخاتمها الذي يحددها .

(روى الأزرقى عن محمد بن الأسود ، ومحمد بن عمر عن شيوخة قالوا :

أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم كان جبريل ﷺ يذله على مواضعها فلم تحرك حتى كان إسماعيل ﷺ فجدها ، ثم لم تحرك حتى كان قصي بن كلاب فجدها ، ثم لم تحرك حتى كان يوم الفتح فبعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم) (٢) .

إنه هو البلد الأمين الذي دعا له إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة] .

وانتهى متاع الذين كفروا ومضوا إلى جهنم وبئس المصير ، وعادت اليد المؤمنة المباركة لتسيطر على الحرم ، عاد حفيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وشبيهه ودعوته ورسوله عاد ليجدد أنصاب الحرم ، ويحدد معالم هذا البلد الأمين .

الناس يدخلون في دين الله أفواجاً :

وانتهت المأدبة ، وانتهت القيلولة ، ومضى رسول الله ﷺ بعدها يستقبل الناس فيبايعونه على الإسلام .

(روى الإمام أحمد ، والبيهقى عن الأسود بن خلف رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال : جلس عند قرن مسفلة فبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله

(٢) المصدر نفسه ٣٧٣/٥ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٥٥/٥ .

إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله (١) ، وجاء فى السيرة الحلبية : (أنه كان يبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط) (٢) .

لقد كانت حصيلة عشرين عاماً ألف وخمسمائة ، وحصيلة يوم واحد بعد الفتح ألفين من المسلمين ، فقد جاء نصر الله والفتح وهؤلاء الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، وآن الاوان لشكر الله تعالى على ذلك : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [النصر] .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٧١/٥ ، ودلائل النبوة لليهقى ٩٤/٥ .
(٢) السيرة الحلبية ١١١/٣ .

المخالفات الكبرى

١ - (روى الإمام أحمد والطبراني رجال ثقات، ومحمد بن عمر والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت : لما كان يوم الفتح ونزل رسول الله ﷺ بذي طوى ، قال أبو قحافة لابنة له . . . كانت من أصغر ولده : يا بنية ، أشرفى بى على أبى قبيس - وقد كُفَّ بصره - فأشرفت به عليه فقال : أى بنية ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً كثيراً ، وأرى رجلاً يشتد بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً ، فقال : ذلك الرجل الوازع ثم قال : ماذا ترين ؟ قالت : أرى السواد قد انتشر وتفرق ، فقال : إذن والله انتشرت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى فخرجت سريعاً حتى إذا هبطت الابطح لقيتها الخيل وفى عنقها طوق لها من ورق ، فاقتلعه إنسان من عنقها ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد خرج أبو بكر بابيه ﷺ يقوده وكان رأس أبى قحافة ثغامة بيضاء فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه ، فأجلسه بين يدى رسول الله ﷺ ، فمسح رسول الله ﷺ صدره وقال : « أسلم تسلم » فأسلم ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال : أنشدكم بالله والإسلام طوق أختى فوالله ما جاء به أحد ، ثم قال الثالثة فما جاء به أحد فقال : يا أخية احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل (١) .

قال البلاذرى : (ورمى بعض المسلمين أبا قحافة فشجه ، وأخذت قلادة أسماء ابنته فأدركه أبو بكر وهو يستمدى فمسح الدم عن وجهه) (٢) .

٢ - (وروى ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن الأزهري ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ عام الفتح وأنا غلام شاب ، ينزل عند منزل خالد بن الوليد وأتى بشارب فأمرهم فضربوه بما فى أيديهم ، فمنهم من ضرب بالسوط وبالنعل وبالعصا وحثا رسول الله ﷺ التراب) (٣) .

٣ - وعن عروة بن الزبير عن عائشة ﷺ : أن امرأة سرق فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقيل : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به إلى

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٥١/٥ ، ٣٥٢ ، وفى مسند أحمد ٣٤٩/٦ ، وعند البيهقي فى الدلائل ٩٥/٥ ، ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ٣٨٦/٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٣٥٢/٥ .

رسول الله ﷺ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال: « أنكلمنى » وفى لفظ: « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » قال أسامة: يا رسول الله استغفر لى ، فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيباً فأتى على الله تعالى بما هو أهله ثم قال: « أما بعد فإنما أهلك الناس - وفى لفظ: « بنى إسرائيل » وفى لفظ: « الذين من قبلكم » - أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف » وفى لفظ: « الوضع قطعه » وفى لفظ: « أقاموا عليه الحد ، والذي نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة (وفى رواية النسائي « قم يا بلال ، فخذ يدها فاقطعها » فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت رجلاً من بنى سليم ، قالت عائشة : فكانت تأتينى فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ) رواه الإمام أحمد (١) ، والشيخان (٢) والنسائي والبيهقى (٣) (٤) .

٤ - « وقام إليه رجل فقال : يا رسول الله قُتِلَ رجل بالمزدلفة ، فقال : « إن أعتى الناس على الله ثلاثة: من قتل فى حرم الله ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحل الجاهلية » (٥) .

٥ - دخل جندب بن الأدلع الهذلى مكة يرتاد وينظر والناس آمنون ، فرآه جندب بن الأعجم الأسلمى فقال : جندب بن الأدلع قاتل أحمر بأساً ؟ قال : نعم ، فمه ، فخرج جندب يستجيش عليه حيه ، فكان أول من لقي خراش بن أمية الكعبى فأخبره ، فاشتمل خراش على السيف ثم أقبل إليه والناس حوله وهو يحدثهم عن قتل أحمر بأساً فينماهم مجتمعون عليه إذ أقبل خراش بن أمية ، فقال : هكذا عن الرجل ، فوالله ما ظن الناس إلا أنه يُفَرِّجُ الناس عنه لينصرفوا ، فانفروا فحمل عليه خراش بن أمية بالسيف فقطعنه به فى بطنه وابن الأدلع مستند إلى جدار من جدر مكة فجعلت حشوته تسيل من بطنه وإن عينيه لَتَرْتَفَقَانِ (٦) فى رأسه وهو يقول : فعلتموها يا معشر خزاعة فانجفع فوق فمات فسمع رسول الله ﷺ بذلك فقال : « يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه إن خراشاً لقتل - يعيبه بذلك - لو كنت قاتلاً مؤمناً بكافر لقتلت خراشاً » (٧) .

(١) مسند أحمد ١٦٢/٦ .

(٢) مسلم فى الحدود (١٦٨٨) ، والبخارى فى الأنبياء ٣٧٧/٦ ، ٣٧٨ .

(٣) النسائي (٤٩٠٣) ، ولفظ: « قم يا بلال » ورد عند النسائي فى الكبرى (٧٣٧٦) ، ودلائل النبوة ٥ / ٨٨ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٣٨٧/٥ . (٥) دلائل النبوة للبيهقى ٨٧ / ٥ .

(٦) لترتفقا : تنغلقتان .

(٧) ابن أبى شيبه عن الزهرى والواقدي عن شيوخه ٨٤٣/٢ ، وسبل الهدى والرشاد ٣٨٢/٥ ، ٣٨٣ .

(ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ،
فقام رسول الله ﷺ خطيباً بعد الظهر وأسند ظهره إلى الكعبة .

وعند ابن أبي شيبه عن أبي هريرة أنه ﷺ ركب راحلته فحمد الله وأثنى عليه
وقال : « أيها الناس ، إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ويوم خلق
الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، ولم يحرمها الناس ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، فلا
يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ، ولا يعضد فيها شجرة لم تحل
لأحد كان قبلي ، ولم تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضباً على
أهلها - ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب فمن
قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله تعالى أحلها لرسول الله
ﷺ ولم يحلها لكم » (١) .

« أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم ، أو قتل غير قاتله ، أو
قتل بذحول الجاهلية ، يا معشر خزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل فقد والله كثر إن نفع
فقد قتلتم قتيلاً لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شأوا فديته
كاملة وإن شأوا فقتله » ، ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتله خزاعة ، قال
ابن هشام : مائة ناقة ، قال ابن هشام : وبلغنى أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ (٢) .

٦ - روى مسلم عن عبد الله بن مطيع بن الأسود عن أبيه ؓ قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكة : « لا يقتل قرشى صبراً بعد اليوم إلى يوم القيامة » .

وروى محمد بن عمر عن الحارث بن البرصاء ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة على الكفر » (٣) .

٧ - فعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : « لا هجرة
بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » رواه الشيخان (٤) .

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال : رزت عائشة ؓ مع عبيد بن عمير
الليثى وهى مجاورة بشير فسألها عن الهجرة فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر

(١) ، سبل الهدى والرشاد ٣٨٣/٥ وقال فيها : روى الشيخان البخارى (١٨٣ ، ١٨٤) فى العلم ، ومسلم
(١٣٥٥) والترمذى عن أبي شريح الكعبى وابن منيع بسند صحيح وابن أبي عمير والإمام أحمد والبيهقى عن
ابن عمر ، وابن أبي شيبه ، والشيخان عن أبي هريرة وابن أبي شيبه عن الزهرى ، وابن إسحاق عن بعض
أهل العلم ، ومحمد بن عمر عن شيوخه) .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٨٣/٥ ، والمغازى للواقدى ٨٦٢/٢ .

(٤) البخارى فى الجهاد ٢٨/٦ ، ٢٩ ، ومسلم فى الإمامة ١٤٨٧/٣ . انظر : سبل الهدى والرشاد ٣٨٥/٥ .

أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عنه فأما اليوم فقد أظهر الله تعالى الإسلام
فالمؤمن يعبد ربه حيث كان ولكن جهاد ونية . رواه الشيخان (١) .

* * *

١ - المخالفة الأولى : مع أخت أعظم رجل في الإسلام .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم تطلع الشمس ولم تغرب على أفضل منه بعد النبيين
والمرسلين ، والذي كان الرجل الأول في الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، والذي كان أول
من آمن بالله ورسوله في الأرض يتأخر إسلام أبيه عشرين عاماً إلى ما بعد فتح مكة ،
ولم يمنعه تأخر إسلام أبيه أن يكون الداعية الأول في الإسلام ، فيسلم على يديه ثلثي
العشرة المبشرين بالجنة ، فالهداية من الله تعالى وهو لا يملكها ولا يوقف دعوته حتى
يسلم أباه ، وأبو قحافة يدرك أن أبا بكر رضي الله عنه من أعظم أصحاب محمد .

(قالت : فنزلت به ، فجعلت الجارية ترعب لما ترى فيقول : يا بنية لا تخافى
فوالله إن أخاك عتيقاً لأثر أصحاب محمد عند محمد ، قال : وعليها طوق من فضة
فاختلسه بعض من دخل) (٢) .

وجاء الصديق بأبيه إلى رسول الله ﷺ ليسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام للصديق
إكراماً له : « لو أقررت الشيخ في بيته لآتيناه » تكرمة لأبي بكر ، وقد أدركه الصديق
والدماء تسيل منه وأدرك أخته وقد ذهب طوقها ، فنأدى في المسلمين يطالب به ، ولم
يسمع جواباً واكتفى بقوله : (يا أختي ، احتسبي طوقك فإن الأمانة اليوم في الناس قليل)
لقد قال هذا الصديق عن جيل الفتح فإذا قورن بجيل الخديبية يصح عليه هذا التعميم
لكنه إذا قورن بأجيال الأرض فيبقى الجيل المثالي ، الذي يُفقد فيه في معركة وجيش من
أضخم الجيوش آنذاك طوق واحد لا يعرف مصيره .

إن جيشاً الأمانة فيه قليلة حين يفقد طوق أو قلادة فيه ، لهو أعظم الجيوش في
الوجود أمانة ولا شك ، وحيث لم يعرف الذي أخذ الطوق مع أنه لا شيء يمنع أن يكون
من الغنائم ، لكن لجهل فاعل ذلك اعتبرنا هذه هي من المخالفات الكبرى في أيام الفتح
ولم يقم أبو بكر رضي الله عنه وهو أعلى سلطة في الدولة وأعلى شخصية فيها بعد رسول الله
ﷺ باعتقال المئات وتعذيبهم من أجل طوق أخته ، وثاراً لأبيه المدمى ، إنما اكتفى بقوله
لأخته : احتسبي طوقك ، وهذا كل ما نفذه من عقوبة في حق المتهمين .

٢ - المخالفة الثانية : حيث أتى إلى رسول الله ﷺ بشارب خمر والعرب تعشق الخمر

(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٨٢٤ .

(١) البخاري ١٧٨/٧ ، ومسلم ١٤٨٨/٣ ح (١٨٦٤) .

وتفنى فيها وهى جزء أساسى من حياتها ، وحوالى نصف الجيش أو أكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، انضموا للجيش الإسلامى قبل بضعة عشر يوماً فقط ، ومع هذا لم تنقل لنا الإحصائيات إلا هذه المخالفة شارب خمر واحد ، ونفذ فيه الحد مباشرة فراح المسلمون يضربونه بما فى أيديهم من السياط والنعال والعصى ويحثو رسول الله ﷺ التراب عليه إشعاراً إلى أن المؤمنين صف واحد ضد العصاة لا يجيرهم أحد ، ولا يدفع عنهم أحد ، وهذه الدولة الإسلامية الجديدة، لابد لها أن تنفذ حدود الله فى العصاة، وهذا الشعب كله غدا يطبق عليه شرع الله منذ اليوم الأول للفتح ولا مجال للمسايرة أو اللين أو الإغضاء عن تطبيق حد الله ولو لحظة واحدة ، ويتعلم المسلمون من قائدهم عليه الصلاة والسلام أن حدود الله أولى بالرعاية والحماية ، وليست مجال اجتهد شخصى حين يكون الحاكم قادراً على تطبيقها ، فقبل يومين كان الساجدون للأصنام والمقدسون لها وكان الزناة والمرابون ، أما اليوم وبعد يوم واحد من الفتح أو فى اليوم الأول فقد جاء الحق وظهر أمر الله ، وزهق الباطل ، فكانت إقامة حد الله هى الدليل الصحيح على إسلامية هذه الدولة وخضوعها لله رب العالمين .

٣- المخالفة الثالثة : شأن المرأة المخزومية وحد السرقة :

وإذا كانت المخالفة الأولى قد نجت من العقوبة لعدم معرفة صاحبها والمخالفة الثانية أتى بصاحبها فضرب لأنه شرب الخمر لكنه مجهول لا نعرف نسبه فهو من عرض الناس، وقد لا يفكر أحد بالشفاعة له .

أما المخالفة الثالثة هذه ، فهى ذات شأن خطير فالمرأة التى سرت من مخزوم ، ومخزوم سرقة قريش ، وقائد الجيش خالد بن الوليد منها ، فله سلطة عليا فى الدولة وهو سيف الله فى الأرض كما سماه رسول الله ﷺ وبنو مخزوم من أعرق قبائل قريش وهى التى حملت لواء الحرب ضد رسول الله ﷺ عشرين عاماً ، ومنها كبار القادة والزعماء فى الجاهلية والإسلام ، وسوف يثلم شرف القبيلة كله لو نفذ الحد على هذه المرأة ، ويمكن أن يفنى بنو مخزوم عن آخرهم ، ولا يدعوا بنى هاشم يقطعون يد امرأة منهم ولو كانت سارقة ، فهى علامة دائمة تشين القبيلة ، وكل من رآها سوف يعير القبيلة كذلك ، ولم يأخذ الهم مخزوماً فقط لذلك إنما أخذ الهم قريشاً كلها ، وقريش هى قبيلة محمد ﷺ وسوف ينال من شرف قبيلة محمد لو قطعت يد هذه المرأة بأنه وهو النبى الموحى إليه ، وامرأة من قبيلته تسرق وحسب رواية مسلم عن عائشة زوج النبى ﷺ : (أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح) (١) .

ويمكن أن تحمل القضية بإيقاف حد السرقة لاعتبارات سياسية وعسكرية عديدة وجيهة

(١) مسلم ح (٣/١٦٨٨) .

وبحث قريش الأمر فرأت أن أعظم وساطة لرسول الله ﷺ يمكن أن تتم عن طريق أحب الناس إليه أسامة بن زيد الذى يردفه خلفه طيلة مدة الفتح ، فهو ابن ابنه زيد من قبل ، وهو الاثير عنده وهو أحب الناس إليه . . . فكلّموا أسامة فى ذلك دون أن يجزؤ أحد أن يفتح رسول الله ﷺ فى هذا الأمر غيره ، إنه الولد الاثير المحب المدلل عنده فليؤت من قبله ، فكلّمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! » .

هذا هو دور الوساطة فى الإسلام من أحب الناس إلى رسول الإسلام ، هى جريمة ومعصية تحتاج إلى استغفار (فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله) .

وكان الأمر يمكن أن يتم بالسر ، لكن رسول الله ﷺ الذى يربى البشرية كلها ، قام فى العشية خطيباً فى المسلمين فأتى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وبذلك حدّ رسول الله ﷺ سنة من سنن الله تعالى فى هلاك الأمم هو الظلم بحيث يطبق الحد على الضعيف ويعفى منه الشريف ، فليس تعطيل حدود الله فقط هو سبب هلاك الأمم إنما تعطيلها عن فريق لشرفه ووجاهته ومركزه وتطبيقها على فريق آخر لضعفه وعجزه حيث لا ظهر له ولا سند هو سبب رئيسى ويكاد يكون السبب الرئيسى فى هلاك الأمم .

وحيث جاء رسول الله ﷺ بإنقاذ البشرية من الهلاك فلا بد أن ينال الحد الشريف قبل الوضع ، ويطبق على الأمير قبل الفقير ، ويقسم عليه الصلاة والسلام بقوله :
« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وأتبع القول الفعل وجىء بالمرأة المخزومية ، ولأول مرة فى تاريخ بنى مخزوم ، وتاريخ قريش ، وتاريخ العرب ينفذ هذا الحد ويطبق على الشريف ، ولا يستثنى منه أحد
« ثم أمر بتلك المرأة فُقطعت يدها » .

وكان هذا إيذاناً بانتهاء الظلم فى الأرض على يد سيد ولد آدم ، وتعلم حزبه الذى يتربى على يديه قضيتين رئيسيتين لا تقبلان النقاش :

القضية الأولى : أنه لا شفاعة فى حد من حدود الله ، وليس من حق أى حاكم أو صاحب نفوذ أن يعطل هذا الحد أو يلغيه أو يوقفه .

القضية الثانية : أن السبب الرئيسى فى هلاك من سبق من الأمم هو تطبيق الحد على

الضعيف وإعفاء الشريف منه ، وهم الحراس الأمناء على هذه الشريعة فيما بعد حين ينطلقون حكاماً فى الأرض يحكمون بشريعة الله وتطبيق الحد ، ولو كان قاسياً لكنه هو العدل بعينه ، قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد : وتزوجت ، وكانت تأتيني بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ .

٤ - المخالفة الرابعة : عن قتيل قتل بمزدلفة لم يعرف قاتله أو لم يصلنا ماذا جرى بقاتله .

٥ - المخالفة الخامسة : من حلفاء محمد ﷺ من بنى خزاعة ومن رجل من جيل الحديبية خيرة أجيال الأرض من خراش بن أمية الكعبي .

وإنما قتل خراش جندب بن الأدلع ، قاتل أحمر بأساً ، حيث قتله غيلة فقتل به فى اغتيال مماثل ، لكن الأمر الصادر من رسول الله ﷺ :

« ألا كل دم أو مائة فى الجاهلية تحت قدمي هاتين وإن أول دم أضعه هو دم ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب قتله هذيل » .

وجندب بن الأدلع قتل أحمر بأساً قبل الإسلام ، ولم يكن الثار من بكر التى غزت خزاعة قبيل الفتح .

ولو كان الثار قائماً لثم الثار من هذيل لقتلها ربيعة بن الحارث ، ولأن هذا الباب حين يفتح سوف يعيد الثارات السابقة كلها ويحيل العرب إلى بركان من الدماء .

ولهذا غضب رسول الله ﷺ لهذا القتل وتحدث عنه بلهجة شديدة عنيفة محذراً من مغيبته وعاقبة نتائجه .

« أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل فى الحرم ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية » ، وقد جمع هذا القتل عنصرين كبيرين من العدوان ، فالقتل بالحرم ، والقتل بذحول الجاهلية ، ورسول الله ﷺ يريد أن يبنى أمة جديدة ترتبط بدولة حضارية لها سلطان مهاب هو الذى ينفذ الحدود وهو الذى يأخذ بالقصاص وهو الذى ينفذ الشريعة وإلا ستبقى الجاهلية ماثات القرون الأخرى دينها أن يقتل بعضها بعضاً .

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام معنفاً صاحبه وجنديه خراش : « إن خراشاً لقتال » . وقال ﷺ : « لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراشاً » .

وقال ﷺ : « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع قتلتم قتيلاً لأدينه » .

وقال ﷺ : « من قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شأؤوا فديته كاملة ، وإن شأؤوا فقتله » .

وأعقب ﷺ القول الفعل ، ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة . قال ابن هشام : وبلغنى أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ (١) .

إن فرق ما بين الجاهلية والإسلام هى وضع القتل والثأر بيد السلطة الحاكمة المسلمة وليست بيد الأفراد فقد كانت الجاهلية العاتية حين يقتل فرد من أفرادها يسعون للثأر من رئيس القبيلة نفسه لتمتد الثارات بعد ذلك أشهراً وسنين لا تنتهى ولا يمكن أن تنتهى .

إن القتيلى الذى وداه رسول الله ﷺ هو قاتل فاتك فى الأصل ولنشهد كيف قتل أحمر بأساً من قبل .

(روى ابن أبى شيبه عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : خرج غزى^(٢) من هذيل فى الجاهلية وفيهم جندب بن الأدلع الهذلى يريدون حى أحمر بأساً من أسلم وكان أحمر بأساً رجلاً من أسلم شجاعاً لا يرأى ، وكان لا ينام فى حية ، ينام خارجاً من حاضره وكان إذا نام غطاً غطيلاً منكراً لا يخفى مكانه ، وكان الحاضر إذا أتاهم فزع صرخوا : يا أحمر بأساً ، فيثور مثل الأسد ، فلما جاءهم ذلك الغزى من هذيل قال لهم جندب بن الأدلع : إذا كان أحمر بأساً قد قُيِّل (٣) فى الحاضر فليس إليهم سبيل ، وإن له غطيلاً لا يخفى فدعونى أسمع ، فتسمع الحس فسمعه ، فأتاه حتى وجده نائماً فقتله ؛ وضع السيف على صدره ثم اتكأ عليه فقتله ثم حملوا على الحى فصاح الحى يا أحمر بأساً فلا شىء لأحمر بأساً قد قتل فنالوا من الحى حاجتهم ، ثم انصرفوا وتشاغل الناس بالإسلام) (٤) .

فجندب إذن مجرم قتل أحمر بأساً وهو نائم ، وغزا مع قومه هذيلاً ونالوا منهم ، وخرأش إنما قتل جندباً وهو واقف ، ثأر لقتله أحمر بأساً واغتياه ، ومع هذا كله لم يغفر رسول الله ﷺ لخرأش هذا الثأر بعد أن نهى عنه وقضى على آثاره وإن إحياء إحياء للثارات من جديد وتمزيقاً لصف هذه الأمة المسلمة التى تناست ثاراتها ، والتحمت بعقيدة جديدة ودين جديد بقيادة جديدة ، وقيادة وحيدة هى قيادة رسول الله ﷺ ، وأمة جديدة تكونت بهذا الدين :

(١) لعل هذا كان بعد فتح مكة ، لكن المشهور أن رسول الله ﷺ ودى أكثر من قتيل من قبل ومن هؤلاء العامرين اللذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري .

(٢) الغزى : مجموعه غارية . (٣) قُيِّل : نام القيلولة .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٣٨٢/٥ والمغازى للواقدي ٨٤٣/٢ .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران] .

لقد كانوا يتمزقهم وتناحرهم وعدوانهم على شفا حفرة من النار فانقذهم الله تعالى برسوله ﷺ وهددهم بأن العودة إلى الاختلاف والفرقة عودة إلى عذاب الله وغضبه .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران] .

٦ - لا هجرة بعد الفتح :

وبفتح مكة المكرمة عقر دار الشرك أغلق المجتمع الإسلامي على المهاجرين والأنصار وأخذت هذه الطبقة من القاعدة العريضة حدها النهائي لتمثل جيل الفتح والتي بلغت ذروتها بعشرة آلاف حيث ختمت بآخر المهاجرين العباس بن عبد المطلب ﷺ وفلسفة الهجرة ابتداءً تقوم على الرحيل إلى دار الإسلام من دار الكفر حيث يفتن المسلم عن دينه ويعذب في سبيل عقيدته فيفر من الأرض الظالم أهلها إلى دولة الإسلام ودار الإسلام إلى رسول الله ﷺ ويمضى يجاهد في سبيل الله حيث يوجهه القائد الأعظم ﷺ يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، أما وقد غدت مكة داراً للإسلام وأقيمت فيها حدود الله وتحطمت الوثنية وجاء الحق وزهق الباطل فقد انتهت مبررات الهجرة ، ومضت الهجرة لأهلها كما تقول عائشة رضي الله عنها : كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عنه فأما اليوم فقد أظهر الله تعالى الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث كان ولكن جهاد ونية (١) .

ولا يمكن أن يدخل في هذا الركب أحد بعد هذا الفضل .

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد] .

وهذه محاولة من المحاولات التي أخفقت في دخول هذا الحزب بعد الفتح .

روى ابن أبي أسامة عن مجاهد مرسلًا قال : جاء يعلى بن صفوان بن أمية رضي الله عنه بعد

(١) البخارى ١٩٤ / ٢ باب وقال الليث .

الفتح فقال : يا رسول الله ، اجعل لأبي نصيباً من الهجرة ، فقال : « لا هجرة بعد اليوم » فأتى العباس فقال : يا أبا الفضل ألسنت قد عرفت بلائى ؟ قال : بلى ، وماذا ؟ قال : أتيت رسول الله ﷺ بأبى ليبياعه على الهجرة فأبى ، فقام العباس معه فى قيظ ما عليه رداء ، فقال لرسول الله ﷺ : أذاك يعلى بأبيه لتبایعه على الهجرة فلم تفعل ، فقال : « إنه لا هجرة بعد اليوم » ، قال : أقسمت عليك يا رسول الله لتبایعه ، فمد رسول الله ﷺ يده فبایعه فقال : « قد أبررت عمى ولا هجرة » (١) ، أما الجهاد فمأض إلى يوم القيامة لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل .

وهذه محاولة ثانية يحدثنا عنها (مجاشع قال : أتيت النبى ﷺ بأخى بعد الفتح فقلت : يا رسول الله جئتك بأخى لتبایعه على الهجرة ، قال : « ذهب أهل الهجرة بما فيها » ، فقلت : على أى شىء تبایعه ؟ قال : « أبایعه على الإسلام والإيمان والجهاد » ، فلقيت معبدًا بعد وكان أكبرهما فسألته فقال : صدق مجاشع (٢) (٣) .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٨٦/٥ . (٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٥/٨ ح ٤٣٠٦ . (٣) لنا عودة إلى موضوع الهجرة وتجديدها وعرض آراء العلماء فيها فيما بعد قبل نهاية الكتاب إن شاء الله .

أكابر مجرميها

(وقد كان رسول الله ﷺ أمر أمراءه ألا يقتلوا إلا من قاتلهم غير أنه أهدر دم نفر سماءهم ، وقد جمعت أسماءهم من مفرقات الاخبار وهم :

عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحويرث بن نُقيذ . . . ومقيس بن صبابه ، وهبار بن الأسود ، وقيتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء الرسول ﷺ ، وسارة مولاة بنى المطلب وهى التى وجد معها كتاب حاطب (١) .

١ - عبد العزى بن خطل :

قال ابن إسحاق : (عبد الله بن خطل رجل من بنى تيم بن غالب) (٢) .

(وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وهاجر إلى المدينة ، وبعثه رسول الله ﷺ ساعياً ، وبعث معه رجلاً من خزاعة ، وكان يصنع له طعامه ويخدمه ، فترلا فى مجمع - والمجمع حيث يجتمع الاعراب يؤدون فيه الصدقة - فأمره أن يصنع له طعاماً ونام نصف النهار ، واستيقظ والخزاعى نائم ولم يصنع له شيئاً ، فعدى عليه فضربه فقتله ، وارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة ، وكان يقول الشعر يهجو به رسول الله ﷺ ، وكان له قيتان وكانتا فاسقتين فيأمرهما ابن خطل أن يغنيا بهجاء رسول الله ﷺ) (٣) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر ، فلما نزع جاء رجل فقال : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال : « اقلته » ، قال مالك : ولم يكن النبى ﷺ فيما نرى يومئذ محرماً (٤) .

فهو مرتد عن الإسلام ، وقاتل لنفس بريئة عمداً ، ومعلن حربه على الإسلام والمسلمين حين يخصص قيتيه لتغنيا بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين .

ونستمع إلى قتله من قاتله أبى برزة الأسلمى .

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ١١/٨ ، وذكر اسم كعب بن زهير نقلاً عن الحاكم ، والحاتر بن طلاطل

الخزاعى عن أبى معشر ، وهند بنت عتبة ، ووحشى بن حرب ولم يثبت إهدار دم هؤلاء .

(٢) السيرة النبوية ٤٠٩/٢ . (٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٣٨/٥ .

(٤) البخارى ١٨٨/٥/٢ .

قال : (... أخرجت عبد الله بن خطل وهو معلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام) (١) .

كما ينقل لنا الواقدي جزءاً من حديث نفسه بعد قتل الخزاعي : (... فلما قتله قال : والله ليقتلني محمد إن جئته فارتد عن الإسلام ، وساق ما أخذ من الصدقة وهرب إلى مكة فقال له أهل مكة : ما ردك إلينا ؟ قال : لم أجد ديناً خيراً من دينكم ، فأقام على شركه) (٢) .

لقد كان قتله في الحقيقة هو قتل مسلم من رعايا المدينة ، فرّ منها وارتد وقتل نفساً بريئة ، ومضى إلى العدو يناصره ويكيد للمسلمين ، ويعبئ الأجواء ضدهم .

(وأما القيتان ، فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما ، فقتلت إحداهما ؛ أرنب أو فرتنا ، وأما فرتنا فاستؤمن لها حتى آمنت ، وعاشت حتى كسر ضلع من أضلاعها زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقتل فيها عثمان ثمانية آلاف درهم ، ستة آلاف دينها ، وألفين تغليظاً للجرم) .

لقد كان معتداً برده وحره لرسول الله ﷺ ف (لما دخل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى أقبل ابن خطل من أعلى مكة مدججاً في الحديد على فرس ويده قناة ، فمرّ بنات سعيد بن العاص فقال لهن : أما والله لا يدخلها محمد حتى تُرين ضرباً كأفواه المزاد ، ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة فرأى خيل الله ، ورأى القتال فدخله رعب حتى ما يستمسك من الرعدة ، فرجع حتى انتهى إلى الكعبة فنزل عن فرسه وطرح سلاحه ، وأتى البيت فدخل تحت أستاره ، فأخذ رجل من بني كعب سلاحه وأدرك فرسه عايراً (٣) فاستوى عليه ولحق برسول الله ﷺ بالحجون) (٤) .

لقد كان يهدد ويتوعد تخايلاً وكبراً أمام بنات سعيد بن العاص ، أن محمداً ﷺ لن يدخل مكة حتى تفجر الدماء كأفواه القرب ، وحكمت بنات سعيد بن العاص بذلك ، وانتظرن أبطال الخندمة ، وإذا بالخيّل تنزل عليهن من كداء ، فرحن ينشرن شعورهن ، وحين فقد الرجال رحن يواجهن الخيل بخمرهن ، أما ابن خطل فقد أصابته الرعدة عندما رأى خيل الله ، مثل ما أصابت إلياس الرعدة والرجفة يوم رأى جبريل يزع الملائكة يوم بدر ، وكان سلاح ابن خطل وفرسه غنيمة للمسلم الخزاعي الذي انضم إلى جيش رسول الله ﷺ في الحجون .

(١ ، ٢) المغازي للواقدي ٨٥٩/٢ .

(٤) المغازي للواقدي ٨٢٦ / ٢ ، ٨٢٧ .

(٣) عايراً : ذاهباً .

٢ - المرتد الثاني : مقيس بن أبى صبابه :

قال ابن إسحاق : (وقدّم مقيس بن صبابه من مكة مسلماً فيما يظهر فقال : يا رسول الله ، جئتكم مسلماً ، وجئتكم أطلب دية أخى ، قُتل خطأ ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابه ، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدّاً ، فقال فى شعر يقوله :

شفى النفس أن قد مات بالقاع^(١) مسنداً تضرّج^(٢) ثوبيه دماء الأخادع^(٣)
وكانت هموم النفس من قبل قتله تلم^(٤) فتحمينى^(٥) وطاء المضاجع^(٦)
حللت به وترى^(٧) وأدركت ثورتى وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثارت به فهراً وحملت عقله^(٨) سراة بنى النجار أرباب فارع^(٩) (١٠)
وقال مقيس بن صبابه أيضاً :

جللته^(١١) ضربة باءت لها وشل^(١٢) من ناقع الجوف^(١٣) يعلوه وينصرم
فقلت والموت تغشاه أسرته لا تأمن بنى بكر إذا ظلموا^(١٤))

إنه مجرم فأتك وغدر، يعلم أن أخاه قتل خطأ، فتظاهر بالإسلام حتى أخذ دية أخيه، ثم انقضَّ على قاتل أخيه فقتله غدرًا وغيلة ، وافتخر بأنه أول راجع إلى الأوثان . إنما ضحك على المسلمين بإظهاره الإسلام ليأخذ الدية ، ويقتل القاتل الخطأ وهو يحسب أن يد العدالة لن تطاله، وأن هروبه من الله ورسوله إلى الأوثان والشرك سيحميه إلى الأبد، وما كان لمثل هذا المجرم أن يترك أو يعفى عنه ، فهو ذو معدن خسيس منحط ولا بد ، أن تناله يد الإسلام فتؤدبه وتؤدب أمثاله ، وهو خائن لدينه وأمه وعليه أن يتحمل تبعه جرمته وخيائنه .

وها نحن نتابع المسيرة معه :

(قالوا : وأما مقيس بن صبابه فإنه كان مع أخواله بنى سهم ، كانت أمه سهمية

-
- | | |
|--------------------------------|----------------------------------------|
| (١) القاع : المنخفض من الأرض . | (٢) تضرّج : تلتطخ . |
| (٣) الأخادع : عروق القفا . | (٤) تلم : تحل . |
| (٥) تحمينى : تمنعنى . | (٦) وطاء المضاجع : لينها . |
| (٧) الوتر : طلب الثأر . | (٨) العقل : الدية . |
| (٩) فارع : حصن للأنصار . | (١٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣ . |
| (١١) جللته : علوته . | (١٢) وشل : قطر . |
| (١٣) ناقع الجوف : الدم . | (١٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٤ . |

فاصطبح الخمر يوم الفتح فى ندامى له ، فأتى نميلة بن عبد الله الليثى وعلم بمكانه فدعاه فخرج إليه وهو ثملٌ يتمثلُ بهذه الأبيات ، أنشدنيها ابن جعفر وغيره :

دعيني أصطبح يا بكرُ إني رأيت الموت نقب عن هشام
ونقب عن أبيك أبى يزيد أخى القينات والشرب الكرام (١)
بهم أرسى رواسى من ثبير ومن ثور ولم تصمم صمام
تعيننى الحمام كأن رهطى خزاعة أو أناس من جذام (٢)

وليطمئن مقيس فرهطه بكر ، وأخواله سهم ، والذى يتولى تنفيذ حد الله فيه أحد قومه بنى بكر نميلة بن عبد الله الليثى ، وهو الأولى بتأديبه وشفاء النفس فى تحقيق حد الله فيه .

(فضربه (نميلة) بالسيف حتى برده ويُقال : خرج وهو ثمل بين الصفا والمروة فرآه المسلمون فهبتوه بأسيا ففهم وقال شاعرهم ، وقد نسبته ابن إسحاق إلى أخت القتيل) (٣) .

لعمري لقد أخزى نميلة رهطه وفجع أضياف الشتاء بمقيس
فله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تخرس (٤)

٣- المرتد الثالث : عبد الله بن سعد بن أبى سرح :

قالوا : (أى شيوخ محمد بن عمر) :

(وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب لرسول الله ﷺ الوحي فرمى أمله عليه رسول الله ﷺ : « سميع عليم » فيكتب : عليم حكيم ، فيقرأ رسول الله ﷺ ، فيقول : « كذلك الله » ويقره ، وافتتن وقال : ما يدرى محمد ما يقول ، إني لأكتب له ما شئت ، هذا الذى كتبت يوحى إلى كما يوحى إلى محمد ، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتدًا فأهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح فلما كان يومئذ جاء ابن أبى سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة فقال : يا أخى ، إني والله اخترتك فاحتبسني ها هنا واذهب إلى محمد فكلمه فى فإن محمداً إن رآنى ضرب الذى فيه عيناي ، إن جرمى أعظم الجرم وقد جئت تائبًا ، فقال : بل اذهب معى ، قال عبد الله : والله لئن رآنى ليضربن عنقى ولا يناظرنى ، قد أهدر دمى ، وأصحابه يطلبوننى فى كل موضع . . .) .

لقد أدرك ابن أبى سرح جريمته ولم يأت ثملاً متخايلاً مثل مقيس بن صبابه ولم يأت

(١) الشرب الكرام : صديق السكرارى وندبهم . (٢) المغازى للواقدي ٢ / ٨٦٠ ، ٨٦١ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤١٠ .

(٣) المغازى للواقدي ٢ / ٨٦١ .

متحديًا بضرب كأفواه المزاد مثل ابن خطل ، إنما عاش شعور القناعة بالجرم العظيم الذى ارتكبه وأن القتل هو الذى يستحقه ولاشك ، ولكن هل من شفاعة ؟ وأمله ضعيف جدًا بذلك أمام عظم جرمه (إن جرمى أعظم الجرم ، وقد جئت تائبًا) .

(فقال عثمان : انطلق معى فلا يقتلك إن شاء الله ، فلم يرح رسول الله ﷺ إلا بعثمان آخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبى سرح واقفين بين يديه ، فأقبل عثمان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمه كانت تحملنى وتمشيه ، وترضعنى وتقطعه ، وكانت تلطفنى وتتركه فهبه لى ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبى ﷺ بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام وإنما أعرض النبى ﷺ عنه إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه ، فلما رأى ألا يقدم أحد ، وعثمان قد أكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وهو يقول : يا رسول الله ، تباعه فذاك أبى وأمى ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم » ، ثم انفت إلى أصحابه فقال : « ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الفاسق فيقتله ؟ ! » .

فقال عباد بن بشر : ألا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فوالذى بعثك بالحق إنى لأتبع طرفك فى كل ناحية رجاء أن تشير إلى فأضرب عنقه ، (ويقال : قال هذا أبو اليسر ، ويقال : عمر بن الخطاب) .

فقال رسول الله ﷺ : « إنى لا أقتل بالإشارة » ، وقائل يقول : إن النبى ﷺ قال يومئذ : « إن النبى لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين » .
فبايعه رسول الله ﷺ .

لقد سبق عليه الكتاب وعمل بعمل أهل النار ، ولم يكن بينه وبينها إلا ذراع فعمل بعمل أهل الجنة ، وقبل رسول الله ﷺ توبته ، فقد أراد الله تعالى به الخير رغم عظيم جرمه .

فلم يقدم أى مسلم بين يدى رسول الله ﷺ على قتل ابن أبى سرح هية منه صلوات الله وسلامه عليه ، وإكرامًا لعثمان بن عفان صهره وختنه على ابنتيه ويد الكثير منهم على السلاح ينتظرون الإشارة فقط لقط رأسه عن جسده .

ثم كانت الإرادة الربانية لمقام النبوة ألا يقتل بخائنة الأعين ، ولا يقتل بالإشارة ، أو يظهر شيئًا، ويبطن شيئًا فمقام النبوة من العظمة والعلو والسمو ألا يستعمل العين أو اليد فيقتل بها ، ولو كان يستحق القتل ولو كان المجرم المرتد الفاتك، وهو الرحمة للعالمين وهو النور والهدى للبشرية كلها، وهكذا سبقت سعادته شقاوته ، ومضت المهلة المقررة للقتل ،

فقبل رسول الله ﷺ بيعة ابن أبي سرح .

(فبايعه رسول الله ﷺ فجعل يفر من رسول الله كلما رآه فقال عثمان لرسول الله ﷺ : بأبى أنت وأمى لو ترى ابن أم عبد الله ، يفر منك كلما رآك ، فتبسم النبي ﷺ فقال : « أو لم أبايعه وأؤمنه ؟ » قال : بلى ، أى رسول الله ، ولكنه يتذكر عظيم جرمه فى الإسلام ، فقال النبي ﷺ : « الإسلام يجب ما كان قبله » ، فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره ، فكان يأتى فيسلم على النبي ﷺ مع الناس (١) .

ولنمض مع ابن أبي سرح قدماً إلى الامام ، إذ بقى منطوياً على نفسه مغموماً بذنبه إلى أن أطلقه عثمان رضى الله عنه ثانية بعد إطلاقه الاول وإعادة الحياة إليه بالإسلام ، فها هو يعيد إليه الحياة بالجهاد .

(وهو الذى افتتح إفريقية زمن عثمان وولى مصر بعد ذلك ، وكانت ولايته لمصر سنة خمس وعشرين ، وكان فتح إفريقية من أعظم الفتوح ، بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة ثمان وعشرون ، وأما الاسود فكان فتحها سنة إحدى وثلاثين بالنوبة ، وقال خليفة : وفى سنة سبع وعشرين عزّل عمرو عن مصر وولى عبد الله بن سعد ، وقال ابن البرقى فى تاريخه : حدثنا أبو صالح عن الليث قال : كان ابن أبي سرح على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ، وكان محموداً فى ولايته وغزا ثلاث غزوات ؛ إفريقية وذات الصوارى والاسود ، وروى البغوى بإسناد صحيح عن زيد ابن أبي حبيب قال : خرج ابن أبي سرح إلى الرملة ، فلما كان عند الصبح قال : اللهم اجعل آخر عملى الصبح ، فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه فذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه - يرحمه الله ، وذكره البخارى من هذا الوجه ، وأخرج السراج عن عبد العزيز ابن عمران قال : مات ابن أبي سرح سنة تسع وخمسين فى آخر عهد معاوية (٢) .

٤ - القتل الثالث : الحويرث بن نقيد :

(وأما الحويرث بن نقيد بن وهب بن عبد بن قصى ، فإنه كان يؤذى النبي ﷺ فأهدر دمه .

قال ابن هشام : وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة ، فتخس بهما الحويرث بن نقيد ، فرمى بهما إلى الأرض (٣) ، وعند الصالحى : (ونخس بزینب بنت رسول الله ﷺ) (٤) .

(١) المغارى للواقدي ٢/ ٨٥٦ ، ٨٥٧ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٧٧ ، ٧٨ ت (٤٧٠٢) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤١٠ . (٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٤٠ .

(فيبينما هو فى منزله قد أغلق عليه بابه ، فسأل عنه على بن أبى طالب رضي الله عنه فقيل : هو فى البادية : فأخبر الحويرث أنه يطلب فتنحى على عن بابه ، فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقيه على فضرب عنقه (١) .

لقد كانت رجولته وجراته على الطعن بينات محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من الشرف والرجولة بحيث يصارع فى الميدان ، لقد قالت هند بنت عتبة عنه وعن هبار بن الأسود اللذين ظهرت شجاعتهما فى النيل من النساء متمثلة فى البيت المشهور : (ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم :

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك (٢)

وانتهى الحويرث بن نقيذ ، بينما أنقذ الله تعالى زميله هبار بن الأسود .

٥ - المستأمن الثانى : هبار بن الأسود :

فقد شاءت إرادة الله تعالى نجاته وإسلامه إذ فرّ من مكة ولم يقع بين يدى جيش الله وجنده .

(قال محمد بن عمر ، حدثنى واقد بن أبى ياسر عن يزيد بن رومان قال : قال الزبير ابن العوام : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هباراً قط إلا تغيط عليه ، ولا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية قط إلا قال : « إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه » والله لقد كنت أطلبه وأسأل عنه ، والله يعلم لو ظفرت به قبل أن يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلته ، ثم طلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس عنده ، فجعل يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : سُبَّ يا محمد من سُبَّك ، وأوذى من آذاك ، فقد كنت موضعاً فى سبك وآذاك ، وكنتُ مخذولاً وقد نصرنى الله وهدانى للإسلام : فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم استحياءً مما يعتذر هبار ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد عفوت عنك ، والإسلام يجب ما كان قبله » وكان لسناً ، وكان يسبُّ حتى يبلغ منه فلا يتنصف من أحد فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم حلمه وما يحمل عليه من الأذى فقال : « هبار ، سُبَّ من سُبَّك » (٣) .

هذه رواية الزبير الحريص على قتله ، وتلك رواية هشام بن عمار ، عن سعيد ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه عن جده قال :

كنت جالساً مع النبى صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فى مسجده ، منصرفه من الجعرانة ، فطلع هبار بن الأسود من باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر القوم إليه قالوا :

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٦٥٦/١ .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٠ / ٥ .

(٣) المغازى للواقدي ٨٥٨/٢ ، ٨٥٩ .

يا رسول الله ، هبار بن الأسود ، قال رسول الله ﷺ : « قد رأيته » ، فأراد بعض القوم القيام إليه فأشار النبي ﷺ : « أن اجلس » .

فهنا عند هبار يشير عليه الصلاة والسلام بالجلوس ، ويومئ به لانه الأمن والطمأنينة للمحكوم عليه بالإعدام ، أما هناك وعند ابن أبي سرح فلا إشارة لأن النبي ﷺ لا يقتل ولا يقتل بالإشارة ، وقد فاتهم ركبهم يوم الفتح ، ومضى الزمن طويلا بعد إهدار دمه ، ووصل إلى موطن الأمن والسلام في الوجود فكيف يُخاف .

(ووقف عليه هبار فقال: السلام عليك يا رسول الله، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ...) .

إنه هو هو نفسه الذى آذى ابنته زينب (فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن الأسود بن عبد العزى والفهرى فروّعها هبار بالرمح وهى فى هودجها ، وكانت المرأة حاملا فلما ريعت طرحت ذا بطنها)^(١) .

إنه هو نفسه الذى كان تغيط عليه رسول الله ﷺ ، وهو نفسه الذى كان يوصى كل سرية إن وجدته أن تحرقه بالنار ، ثم عدل رسول الله ﷺ إلى قطع يديه ورجليه وقتله ، إنه هو نفسه الآن بين يدي محمد وجنده وحزبه الذين يتقربون إلى الله تعالى وإلى رسوله بدمه .

ولكن كيف وقد قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، أما بعد هذا فلا ، فقد دخل حظيرة الأمن بالإيمان .
ويتابع هبار :

(... ولقد هربت منك فى البلاد ، وأردت اللحق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرك وصفحك عمّن جهل عليك) .

فهو أحلم الخلق ، وأبر الخلق ، وأصفح الخلق ، وأفضل الخلق ، إنه محمد رسول الله ﷺ الرحمة المهداة .

(... وكنا يا رسول الله ، أهل شرك ، فهدانا الله عز وجل بك ، وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح عمّن جهل عليك ، وعما كان يبلغك عنى ، فإنى مقرر بسوء فعلى ، معترف بذنبى) .

وهل يمكن أن يكون فى الوجود أعظم خلقاً وحلماً من رسول الله ﷺ ؟ ! أبداً .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٥٤/١ .

فقال : « قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله » (١) .

٦ - المستأمنة الثالثة :

(وسارة مولاة عمرو بن صيفى بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية نواحة بمكة ، وكانت قدمت على رسول الله ﷺ قبل الفتح ، وطلبت منه الصلة وشكت الحاجة فقال رسول الله ﷺ : « ما كان من غنائك ما يغنيك ؟ ! » فقالت : إن قريشاً منذ قتل من قُتل منهم يبدر تركوا الغناء ، فوصلها رسول الله ﷺ وأقر لها بغيراً وطعاماً ، ورجعت إلى قريش ، وكان ابن خطل يلقي عليها هجاء رسول الله ﷺ فتغنى به ، وهى التى وجد معها كتاب حاطب بن أبى بلتعة ، فأسلمت وعاشت إلى خلافة عمر ابن الخطاب) (٢) .

٧ - لا يقتل قرشى صبراً بعد اليوم :

روى مسلم عن عبد الله بن مطيع بن الأسود وعن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكة : « لا يُقتل قرشى صبراً بعد اليوم إلى يوم القيامة » (٣) .

ويسوق لنا محمد بن عمر سبب هذا الإعلان بقوله فيما رواه عن أبى حصين الهذلى : (لما قُتل النفر الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم سمع النوح عليهم بمكة ، وجاء أبو سفيان بن حرب فقال : فذاك أبى وأمى البقية فى قومك) .

إنه أبو سفيان زعيم الحرب وزعيم السلام ، فهو الذى قال عند تهديد سعد بن عباد : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ، ألم تعلم ما قال سعد بن عباد ؟ ونزعت الراية منه لابنه قيس وهو الذى قال ، عندما أمر رسول الله ﷺ بحصد أوياش قريش :

يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، وتم إعلان إيقاف القتال وهو الذى يقول الآن ، وقد سمع النوح فى مكة :

فذاك أبى وأمى البقية فى قومك .

فكان الإعلان النبوى عن منع القتل عن المهدر دمهم بعد أن لم يتم قتلهم فى المدة التى أباحها الله تعالى لنييه ساعة من نهار من صبح يوم الفتح إلى عصره .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا يُقتل قرشى صبراً بعد اليوم » ، قال محمد بن

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٤٧ .

(١) المغارى للواقدي ٢/ ٨٥٨ .

(٣) مسلم ٣/ ١٤٠٩ .

عمر: يعنى على الكفر .

ولقد شمل عفو النبى ﷺ كل كافر من قريش ، وهم المطلوبون الملاحقون ، فلن يقتلوا صبراً وهم محبوسون على الكفر ، وقد أعاد الله تعالى الأمن إلى مكة كحرماتها يوم خلق الله السموات والأرض وعمم رسول الله ﷺ الأمر فى حديث آخر بحيث يكون أبعد من الأمن الفردى ليكون الأمن الجماعى .

(وروى أيضاً عن الحارث بن البرصاء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة على الكفر » (١) .

وهكذا كانت نهاية أكابر المجرمين الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، انتهت نهاية النفر الثمانية الذين أحصاهم ابن حجر فى الفتح والاربع نسوة، انتهت بقتل نصفهم واستثمان نصفهم الآخر ، إذا أخذنا بجميع الروايات التى ورد فيها هذا الأمر (٢) .

حيث ورد أن الحارث بن الطلائل الخزاعى قتله على بن أبى طالب ، وهو أحد هؤلاء الثمانية ثم صدر العفو الأخير يوم الفتح بعد العصر ، فلا يقتل بعد اليوم قرشى صبراً إلى يوم القيامة .

(١) المغازى للواقدي ٨٦٢/٢ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ١٢/٨ .

أئمة الكفر الأربعة والتربية النبوية للعدو

الأربعة الكبار الذين رفضوا السلام والأمن وقرروا الحرب والمواجهة من قيادات مكة هم : هند بنت عتبة ، عكرمة بن أبى جهل ، صفوان بن أمية ، سهيل بن عمرو .

وللتابع الخطأ مع كل واحد من هؤلاء ، ما هو المدى الأعلى والذروة التى بلغها فى حرب الإسلام وأهله ، وكيف تم التحول العجيب لهؤلاء إلى الإسلام .

١ - هند بنت عتبة - تنمة الأربعة (١) :

أ- لا نبالغ إذا حددنا شخصية هند بقولنا : إنها أكبر حاقدة فى التاريخ العربى آنذاك فهى تمثل بيئة الكفر والحرب ضد رسول الله ﷺ قبل أن تفقد أحبابها وأعلى ما فى وجودها فى بدر ، وكانت تضارع الخنساء فى عظيم مصيبتها وما نحن نراها فى أحد ، ونشهد ماذا يفعل الحقد فى النساء .

(قال ابن إسحاق : ووقفت هند بنت عتبة كما حدثنى صالح بن كيسان والنسوة اللاتى معها ، يمثلن (٢) بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدن (٣) الأذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خدماً (٤) وقلائد ، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً غلام جبير بن مطعم وبقرت (٥) عن كبد حمزة فلاكتها (٦) فلم تستطع أن تسيغها (٧) فلفظتها (٨) ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سحر (٩)
ما كان عن عتبة لى من صبر	ولا أخى وعمه وبكرى (١٠)
شفيت نفسى وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل (١١) صدرى
فشكر وحشى على عمرى	حتى ترم (١٢) أعظمى فى قبرى (١٣)

(١) إذا أخذنا بالقول أنها واحدة من النسوة الأربع اللاتى أهدر دمهن .

(٢) يمثلن : يشوهن .

(٣) يجدن : يقطعن .

(٤) الخدم : جمع خدمة وهى الخلخال .

(٥) بقرت : شقت .

(٦) لافكتها : طرحتها .

(٧) لفظتها : طرحتها .

(٨) لفظتها : طرحتها .

(٩) السحر : الالتهاج (وسكن للشعر) .

(١٠) بكرى : لعله قيس بن الفاكه بن المغيرة من أول أزواجها وقد قُتل قيس فى بدر .

(١١) الغليل : العطش .

(١٢) ترم : تبلى وتتفتت .

(١٣) السيرة النبوية لابن هشام م ٩١ / ٣ .

وقالت هند بنت عتبة أيضاً :

(شفيت من حمزة نفسى بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عنى ذاك ما كنت أجد^(١) من لذعة^(٢) الحزن الشديد المعتمد^(٣)
والحرب تعلقكم بشؤبوب برد تقدم إقداماً عليكم كالأسد^(٤))

لقد فقدت فى بدر ابنها البكر ، وأباها ، وأخاها ، وعمّها ، وشفت حقدّها فى أحد
ومضت كاللبوة الكاسرة لا يرضيها إلا حرب محمد وأهله والقضاء عليهم .

وها هى تعود إلى مكة بعد هذه الملمحة والتمثيل بالشهداء وتبحث عن كبدها الحرى
فلا تجد أنها اشتفت فى كل ما فعلته فقالت :

(رجعت وفى نفسى بلابل^(٥) جمّة^(٦) وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئاً ولم يكن كما كنت أرجو فى مسيرى وركبى^(٧))

إنها تود كبدين آخرين تلوّكهما ، وجشتين تمثل بهما إضافة إلى كبد حمزة رضي الله عنه
وجشته ، إنها تود من بنى هاشم كبد محمد رسول الله وجشته لتطفئ غلتها فهو الذى جاء
بهذا الدين وسبب قتل الأحبة .

وتود كبد على بن أبى طالب وجشته فهو الذى قتل أخاها الوليد ، وساهم فى قتل
أيها عتبة فهو شريك حمزة بن عبد المطلب فى كل شيء لهذا قالت والغصة فى حلقها :

رجعت وفى نفسى بلابل جمّة وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

ب - وحين فشل أبو سفيان فى مهمته الأولى بعد الحديبية :

(وانطلق إلى مكة (أبو سفيان) وكان قد حبس وطالت غيبته ، وكانت قريش قد
اتهمته حين أبطأ أشد التهمة وقالوا : والله إن نراه قد صبأ واتبع محمداً سرّاً وكنتم إسلامه
فلما دخل على هند ليلاً قالت : لقد حبست حتى اتهمك قومك ، فإن كنت مع طول
الإقامة جئتهم بنجح فانت الرجل ، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة ،
فجعلت تقول ، ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر وقال : لم أجد إلا ما قال لى على ، فضربت
برجليها فى صدره وقالت : قبّحت من رسول قوم^(٨)) .

(١) أجد : أتألم .

(٢) اللذعة : ألم الثأر أو ما يشبه بها .

(٣) المعتمد : القاصد المؤلم .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢م / ٩١ .

(٦) جمّة : كثيرة .

(٥) البلابل : الأحران .

(٨) المغارى للواقدي ٢ / ٧٩٥ .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢م / ١٦٨ .

ج- أما أعنف الازمات بينها وبينه فقد كانت عندما وقع وثيقة استسلام مكة مع رسول الله ﷺ :

(فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كداء وهو يقول : من أغلق بابهُ فهو آمن ، حتى انتهى إلى هند بنت عتبة ، فأخذت برأسه فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، وقد جعل لى : من دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابهُ فهو آمن ، ومن طرح السلاح فهو آمن ، قالت : قبحك الله رسول قوم ، قال : وجعل يصرخ بمكة :

يا معشر قريش ويحكم ، إنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، هذا محمد فى عشرة آلاف عليهم الحديد ، فأسلموا ، قالوا : قبحك الله وافد قوم ، وجعلت هند تقول : اقتلوا وافدكم هذا ، قبحك الله وافد قوم .

قال : يقول أبو سفيان : ويلكم لا تغرّنكم هذه عن أنفسكم ، رأيت ما لم تروا ، رأيت الكراع والرجال والسلاح ، فما لأحد بهذا طاقة (١) .

وفى رواية ابن إسحاق : (فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوا الحميت (٢) الدسم (٣) الأحمس (٤) ، قبّح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به (٥) .

د- وانقسمت مكة إلى معسكرين : معسكر على رأسه أبو سفيان قبل بشروط الصلح ، وأغلق عليه بابهُ - أو مضى إلى الكعبة أو دخل دار أبى سفيان - ينتظر مصيره المجهول ، ومعسكر آخر على رأسه هند بنت عتبة والقادة الكبار الثلاثة عكرمة وسهيل وصفوان يقسمون : لا يدخلها علينا محمد عنوة أبداً ، واستنفروا الأحابيش حول مكة ، ووضعوا الخطة التالية ، كما فى صحيح مسلم وغيره :

(لما كان يوم فتح مكة : وبشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً فقالوا : نقدم هؤلاء ، فإن كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا ، فرأى رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا هريرة » ، قلت : لبيك . قال : « اهتف بالأنصار ، ولا يأتينى إلا أنصارى » . قال : ففعلت ما أمرنى به فاتوه فقال : « انظروا قريشاً وأوباشهم فاحصدوهم حصداً » ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى فانطلقنا ، فما أحد يوجه إلينا شيئاً ، وما منا أحد

(٢) الحميت : زق السمن .

(٤) الأحمس : شديد اللحم .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٢٣ .

(٣) الدسم : الكثير الودك .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠٥ .

يريد أحداً منهم إلا أخذه . فجاء أبو سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله ، أبيت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، فألقى الناس سلاحهم » (١) .

هـ- وتناهى إلى سمعها أخبار الحرب الدائرة بين خالد بن الوليد والقادة الثلاثة والتي لخصها حماس بشعره الذى قاله لزوجته :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمه
وأبو يزيد قائم كالموثق واستقبلتهم السيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا تُسمعُ إلا الغمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

آن الأوان بعد هذه الهزيمة الكبرى أن تعى وتعقل وتثوب إلى رشدك فهل تفر كما فر القادة الثلاثة أم تختبئ فى بيتها وتطلب الأمان عن طريق زوجها. وقد انتهى معسكرها وفر قادتة ؟

و- وما هى تعرض سجل حياتها بعد الهزيمة . كما حدثت به مولاة مروان بن الحكم فيما بعد تقول فيه :

(أنا عاديتك كل العداوة ، وفعلتُ يوم أحد ما فعلتُ من المثلى بعمه وأصحابه ، وكلما سيرت قريش مسيرة فأنا معها بنفسى أو معينة لقريش ، حتى إن كنتُ لأعين كل من غزا إلى محمد حتى تجردت من ثيابى ، فرأيت فى النوم ثلاث ليالٍ ولأء بعد فتح مكة ، رأيت كأنى فى ظلمة لا أبصر سهلاً ولا جبلاً ، وأرى تلك الظلمة انفرجت على بضوء كأنه الشمس ، وإذا رسول الله ﷺ يدعونى . ثم رأيت فى الليلة الثانية كأنى على طريق يدعونى وإذا هبلٌ عن يمينى يدعونى ، وإذا إساف عن شمالى يدعونى ، وإذا برسول الله ﷺ بين يديّ يقول : هلمى إلى الطريق ، ثم رأيت فى الليلة الثالثة كأنى واقفة على شفير جهنم يريدون أن يدفعونى بها ، وإذا بهبل يقول : أدخلوها ، فالتفت فأنظر رسول الله ﷺ من ورائى آخذ بشابى . فتباعدت من شفير النار فلا أرى النار ففرعت . فقلت : ما هذا وقد تبين لى . فغدوت من ساعتى إلى صنم فى بيت كنا نجعل عليه منديلاً ، فأخذت قدوماً فجعلت أفلذه وأقول : طالما كنا منك فى غرور ، وأسلمت) (٢) .

لقد بدأت ترى هذه الرؤى بعد أن فقدت صوابها بالهزيمة المنكرة التى حاقت بقريش

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٨١/٥ .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٤٦/٥ ، ٣٤٧ .

وبدأت عودة الوعى عندها تأخذ مداها ، وكانت الهزيمة الساحقة الصاعقة هى الصاعق الكهربى الذى زلزل أعماقها ، وحطم الران الذى يسيطر على قلبها ، وأمكن دخول النور إليه من خلال ذلك الركام . وكان ضئيلاً فى البداية ثم بدأ يتوهج قليلاً قليلاً حتى امتزج ثانية ، ودخل الإسلام فى إعادة بناء ذراته من جديد .

ز - ولعل الحدث الذى هزها بعد الفتح هى نظرتها إلى جيش الله بآلافه المؤلفه وهو فى الكعبة قائم طيلة الليل بين راعم وساجد ، يكبر لله ، ويحطم الأصنام ، ويناجى ربه تضرعاً وخفية . كانت هذه المناظر تترأى أمامها ، وتحتشد وتحتشد ، حتى خرجت على غير وعى منها تلك الكلمة المشهورة :

ما رأيت الله عُدَّ حقَّ عبادته إلا هذه الليلة .

وفى رواية عن سعيد بن المسيب قال : (لما دخل رسول الله ﷺ مكة ليلة الفتح لم يزالوا فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا . فقال أبو سفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم هذا من الله . قال : ثم أصبح ، ففدا أبو سفيان على رسول الله ﷺ فقال : « قُلت لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم . هذا من الله » .

فقال أبو سفيان : أشهد أنك عبد الله ورسوله والذى يُحلف به ما سمع قولى هذا أحد من الناس إلا الله عز وجل وهند (١) .

لقد أشرق قلبها بنور الإسلام قبل أن تتلفظ به ، حيث رأت العباد الزهاد المجاهدين ، وقامت لتوها إلى الصنم الذى أمضت عمرها تقدسه وتغطيه بالمنديل وتستره . قامت إلى القدام ، لتلبى ذلك النور الذى تاجج فى صدرها ، ومضت إلى الصنم تقطعه فلذة فلذة صارخة من أعماقها ، طالما كنا منك فى غرور ، وأبو سفيان ، كأنما ملك الدنيا ، حين رأى هند تفعل ذلك ، فقد انتهى هذا الفصام النكد فى بيته بينه وبينها وانضمت إلى حزبه .

ح - وكان اليوم الثانى حيث نشهد فيه عظيمة النساء التى كانت أشد من كرهها للإسلام ، كيف تفعل بمعنهن النفيس فى الإسلام . فما هى الآن تقود النساء إلى الإسلام . كما قادنهن من قبل لحرب الإسلام .

(قال الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله تعالى :

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلس رسول الله ﷺ فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا . فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٣٧٠ .

بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنبئة متكررة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يُخبرها بما كان من صنيعها بحمزة . فهي تخاف أن يأخذها بحدثها ذلك ، فلما دنين من رسول الله ﷺ قال :
« بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً » .

فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذ على الرجال .
فقال : « ولا تسرقن » .

فقالت : والله إنى كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً : أمّا ما أصبت فيما مضى فانت منه فى حل .

فقال رسول الله ﷺ : « وإنك لهند بنت عتبة ! »

فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .
ثم قال : « ولا تزنين » .

فقالت : يا رسول الله ! أو تزنى الحرة ؟

ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » .

فقالت : قد رييناهم صفاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب (١) .

قال : « ولا تأتين بيهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن » .

قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : « ولا تعصيننى فى معروف » .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر : « بايعهن ، واستغفر لهن رسول الله » .

فبايعهن عمر ، وكان رسول الله ﷺ لا يصفاح النساء ، ولا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه (٢) .

وها هى هند تتفاعل مع هذه العظمة النبوية التى أغضت عن كل سفاهاتها الجاهلية ، فلا تمالك أن تعبر عن هذه المشاعر كما حدثتنا عائشة رضي الله عنها قالت :

(١) استغرب : معلوماً ومجهولاً : بالغ فى الضحك .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٣/ ٦١ ، ٦٢ ، دار المعارف تحقيق : أبى الفضل إبراهيم .

(جاءت هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحبَّ إلىَّ أن يذلوا من أهل خباثك ، ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحبَّ إلىَّ أن يعزوا من أهل خباثك .

قال : « وأيضاً والذي نفسى بيده » (١) .

إنه تعبير صادق عن ذلك الانهيار النفسى للبناء الجاهلى المتداعى الذى كان أكبر أحلامه ، وأعظم آماله دحر محمد وأهله وذلهم وهزيمتهم ليقام عوضاً عنه هذا البنيان الإسلامى السامق الذى يرى أكبر أحلامه وأعظم آماله أن يكون بيت محمد رسول الله أعز بيت فى الدنيا ، وأعلاه مجداً وذروة وأرومة ، وكيف لا ، وهو بيت رسول الله ﷺ الذى أنقذها من النار التى كان هبل يدفعها فيها ، وأنقذها من الظلمة المهلكة العاتية إلى النور الأبلج .

وتتجلى العظمة النبوية المحمدية فى هذا الجواب الخالد لرسول البشرية كلها - عليه الصلاة والسلام - الذى كان يريد الذل لبيت هند وأبى سفيان ؛ لانه بيت قيادة الشرك والوثنية وها هو - عليه الصلاة والسلام - يريد هذا العز والمجد لهذا البيت أن يكون أعز البيوت وأرفعها بعد أن دخل حظيرة الإسلام ، أو ليس خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ؟

وها هى تتابع بعد هذا الإسلام قائلة معترفة سعيدة قريرة العين بهذا الدين .

(الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتمسنى رحمتك يا محمد . إني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة به ، ثم كشفت عن نقابها ، فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مرحباً بك ») .

إنها بشخصيتها العظيمة الخالدة ، لم تدع فقرة من فقرات البيعة على الإسلام إلا أبدت فيها رأيها . فهى ترفض فى قيمها الجاهلية : أن تزنى الحرة ، فكيف لا تتابع على ذلك ، وهى ترفض فى قيمها الجاهلية إتيان البهتان وتراه من القبائح المموجة ، والتجاوز عنه أعظم ، وهى لا تجد حرجاً أن تعبر عن لوعتها على بكرها المقتول فى بدر ، (ريبناهم صغاراً وقتلتهم بيدركباراً) ، ولا تجد حرجاً أن تسأل عما كانت تأخذ من أبى سفيان الهنة بعد الهنة ، وهل هو سرقة أم لا - وأبو سفيان زوجها - وهى تعلن فى النهاية استسلامها الكامل لله ولرسوله . وهى تفقه معنى الشهادة بالوحدانية والشهادة بالرسالة .

(١) البخارى ٤٩/٥ ، ذكر هند بنت عتبة .

قال : « ولا تعصيننى فى معروف » .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

وتعلم أن الإسلام هو الانقياد الكامل لله تعالى ورسوله فيما يأمر فيه وينهى عنه .

وليت مسلمى اليوم يفقهون معنى هذه الشهادة ، كما فقهتها مسلمة الدقائق الأولى وجاهلية العمر كله هند بنت عتبة ، ولما يمر على إسلامها لحظات ، وأين مسلمو الأرض اليوم من معنى لا إله إلا الله ؟؟

إنها قبل يوم واحد لا تزال أكبر حاقدة فى التاريخ على محمد وصحبه وتدعو إلى قتل زوجها الذى أسلم واستسلم وتعيب مكة كلها لحرب محمد ، وها هى اليوم وبعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام ، لم تجلس هذا المجلس لتسلم وفى ذهنها أن تعصى محمداً رسول الله فى ذرة من ذرات أوامره ونواهيه .

ط - وها هى تود ﷺ : أن تمسح كل الأجواء القائمة السابقة ، وأن تُعبر عن فرحتها بهذا الحدث السعيد أو قل أسعد حدث فى حياتها من خلال هذه الهدية المتواضعة .

فعن أبى حصين الهذلى قال : (لما أسلمت هند بنت عتبة أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية وهو بالابطح - مع مولاة لها بجديين مرضوفين (١) وقَد (٢) ، فانتهت الجارية إلى خيمة رسول الله ﷺ فسلمت واستأذنت . فأذن لها فدخلت على رسول الله ﷺ وهو بين نسائه أم سلمة وزوجته وميمونة ، ونساء من نساء بنى عبد المطلب ، فقالت : إن مولاتى أرسلت إليك بهذه الهدية وهى معتذرة إليك تقول : إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة . فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكم فى غنمكم ، وأكثر والدتها » .

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرَّت بذلك ، فكانت المولاة تقول : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى من قبل ولا قريباً ، فتقول هند : هذا دعاء رسول الله ﷺ وبركته ، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام . ثم تقول :

لقد كنت أرى فى النوم أنى فى الشمس أبداً قائمة ، والظل منى قريب لا أقدر عليه . فلما دنا رسول الله ﷺ رأيت كأنى دخلت فى الظل (٣) .

لقد كانت الوجبة الأولى والوليمة العظيمة يوم الفتح هى كسرات الخبز والملح والخل عند أم هانئ . أما اليوم فالوجبة هذان الجديان المشويان ، ومَن ؟ من عدوة الإسلام

(١) مرضوفين : مشويين على الرضف ، والرضف الحجارة المحمأة على النار .

(٢) القد : جلد السخلة . (٣) المغازى للواقدي ١/٨٦٨ ، ٨٦٩ .

الأولى التى غدت سيدة الإسلام الأولى فى مكة ، وفى بيت أبى سفيان .

٢ - عكرمة بن أبى جهل تنمة الثمانية :

أ - ورث العداوة عن أبيه كابرًا عن كابر . وخاض كل الحروب ضد رسول الله ﷺ . وقال لخالد بن الوليد رضي الله عنه عندما دعاه للإسلام قبل الفتح : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبدًا وهو أحد القادة الأربعة الكبار الذين رفضوا المصالحة مع رسول الله ﷺ وقادوا الجموع لمواجهة معلنين : لن يدخلها علينا عنوة أبدًا . وجرب حظه وألقى سهمه الأخير فى حرب محمد رسول الله ﷺ ، وما هى إلا ساعات حتى اندحر مع أركان حربه . وفرَّ يبغي ملاذًا آمنًا يأوى إليه ، وفاته الأمان الأول حين لم يغلق عليه بابهُ ولم يلجأ إلى الكعبة أو إلى بيت أبى سفيان . بل أعلن أنه المحارب حتى آخر لحظة . ولم نتحدث عنه ، وقد أغنانا بالحديث عن نفسه بقوله :

ب - (بلغنى أن رسول الله ﷺ نذر دمي يوم الفتح ، وكنت فى جمع من قريش بأسفل مكة وقد ضوى إلى من ضوى . فلقينا هناك خالد بن الوليد ، فأوقع بنا ، فهربت منه أريد والله أن ألقى بنفسى فى البحر ، وأموت تائبًا فى البلاد قبل أن أدخل فى الإسلام ، فخرجت حتى انتهيت إلى الشعيبة) (١) .

لقد كان يفكر فى كل شيء إلا الإسلام أن يلقى نفسه فى البحر ، أو يمضى تائبًا فى البلاد حتى يلقى مصرعه ، ولو مضى كذلك ، فمن هو فى التاريخ حتى يذكره التاريخ ، إنه سينتهى كما انتهى أبوه من قبل فرعون هذه الأمة الذى حلم بأن يكتب تاريخ قريش بالدم ، وتعزف عليه القيان ويشرب الخمر ، وتُضرب الدفوف .

هذه هى بيثة عكرمة . وزوجه ابنة عمه الحارث بن هشام أم حكيم ، وبنو مخزوم هم العدو الألد لرسول الله ﷺ ، لكن الذى غيرَ لعكرمة تاريخه ، وقاده إلى النور هى زوجه أم حكيم بنت الحارث ابن هشام التى وصفها عكرمة بقوله : (وكانت زوجتى أم حكيم بنت الحارث امرأة لها عقل) . ولنشهد عقلها العظيم .

ج - (لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ، وأسلمت أم حكيم بنت الحارث ابن هشام امرأة عكرمة بن أبى جهل ، وأسلمت امرأة صفوان بن أمية البقوم بنت المَعْدَل من كنانة ، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وأسلمت هند بنت منبّه بن الحجاج وهى أم عبد الله بن عمرو بن العاص فى عشر نسوة من قريش . . . ثم قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبى جهل : يا رسول الله قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٧٧/٥ .

تقتله فأمته . فقال لها رسول الله ﷺ : « هو آمن » . فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومى (١) .

ماذا تفعل وليس لها محرم يرافقها ، والوقت يدركها ، فلئن فاتها الركب ومضى إلى اليمن فأين تجده ، فلتغامر بحياتها لإنقاذه من الهلكة وهو كافر، وعزمت عزمتها المخزومية ومضت مع غلامها الرومى نحو الشعيبة .

د- وشاءت إرادة الله تعالى لهذا القلب المتفطر بالحق أن تكون صدمته الكهربائية فى خطر الموت الذى لاقاه فى البحر (فقد روى ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن سعد ابن أبى وقاص رضي الله عنه والبيهقى عن عروة: أن عكرمة ركب البحر، فأصابتهم ريح عاصف) . هذه الرياح العاصف التى تنال الإنسان مؤمناً أو كافراً ، فتمضى به إلى الله .

﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) [يونس] .

(فنادى عكرمة اللات والعزى ، فقال أهل السفينة : اخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً) ، والشعور بالموت يزلزل كيان الإنسان كله . ورافق هذا الشعور ، الدعوة إلى إخلاص الدعاء لله وحده من ركاب السفينة، ووجد عكرمة نفسه متخلقاً فى عقله وفكره، وما تغنى الآلهة واللات والعزى عنه ، إنه هو الشارد وحده والضال وحده ، والمعاند وحده .

وأمام هذا التفاعل العنيف بين رهبة الموت ، ودعوة الأبعدين لله وحده . وهو الذى يدعو إليه محمد ، ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ (٥) [ص] .

(فقال عكرمة : والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، لا ينجنى فى البر غيره . اللهم لك عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده . فلأجده غفوراً غفوراً كريماً ...) (٢) .

هـ- ونعود إلى أم حكيم رضي الله عنها نتابع معها خطواتها ورحلتها باحثة عن زوجها الفار من الله ورسوله .

(فخرجت أم حكيم فى طلبه ومعها غلام لها رومى ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تمنيه، حتى قدمت به على حى من عك فاستغاثتهم عليه، فأوثقوه رباطاً . وأدركت عكرمة

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٧٧/٥ ، ٣٧٨ .

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٥٠ ، ٨٥١ .

وقد انتهى إلى البحر ، فركب سفينة ، فجعل نوتى يقول له : أخلص ، أخلص ، قال :
أى شىء أقول ؟ قال : قل : لا إله إلا الله . . .) .

لا إله إلا الله هى التى يقاتل عليها محمداً وأبوه منذ وعى على الدنيا ، وهو يرفض
أن يقولها . لكن هنا وحين لم يكن من الموت بد فلا بد من قولها ، إذن هى الحق . . .) قال
عكرمة : ما هربت إلا من هذا) ، وأين الهروب (وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم
حتى النواتى !!) .

ووجد نفسه ينطق دون أن يشعر ، وقلبه يخفق بالإسلام : (. . . ما الدين إلا ما جاء
به محمد) ، وأحس بالتحول الهائل الذى غيرّه مائة وثمانين درجة (. . . وغير الله قلبى) .

وكما أن صديقه عمرو بن العاص وجد لحظة تغير قلبه النجاشى جاهزاً لأخذ البيعة
منه على الإسلام وجد عكرمة زوجته .

(قال عمرو : وغير الله قلبى عما كنت عليه ، وقلت : عرف هذا الحق العرب
والعجم وتخالف أنت . . .)

(وقال عكرمة : وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواتى ، ما الدين إلا الذى
جاء به محمد) .

(وقال عمرو من قبل : وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام : أرى لو أسلمت قريش كلها ما أسلمت) .

(وقال عكرمة من قبل لخالد : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً) .

وكان النجاشى جاهزاً لأخذ البيعة من عمرو ، وأتت امرأة عكرمة فى اللحظة المناسبة
لتقود زوجها إلى النور ، حيث قرر عكرمة الدخول فى هذا الدين .

(. . . وغير الله قلبى ، وجاءتنى أم حكيم على هذا الأمر ، فجعلت تليح إلىّ وتقول :

يا بن عم ، جئتكَ من عند أبرّ الناس ، وأوصل الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك
فوقف لها حتى أدركته . فقالت له : إنى قد استأمنت لك رسول الله ﷺ فأمنك . فرجع
معه) .

وكان له مهمة أخرى ، حين حدثته عما لقيت من غلامه الرومى (وأخبرته خبره
فقتله عكرمة ، وهو يومئذ لم يسلم) .

وعاد معها بعد غياب طويل وشوق شديد ، وبعد أن قتل غلامه الذى راح يراودها
عن نفسها فتمنيه ، وها هو عكرمة زوجها الحبيب الذى تجشمت المشاق من أجله ،
وعرضت نفسها للخطر ، على عرضها ونفسها لإنقاذه ، ها هو عكرمة ، وقد التقت معه
وهما وحيدان فى الصحراء يطلب منها ما يطلب المرء من زوجته ، إنه ليس غلامها

الرومى إنه زوجها الحبيب المفدى بالروح والنفس والمهج ، ومع ذلك تفعل معه ما فعلته مع غلامها الرومى ، وتفيض السمة من وجهه ويبدأ وجهه يقطب إيداناً بالغضب بعد العتب ، لم تتمنع منه ، وكان الدرس الثانى الذى يعادل درس خطر الموت الذى تلقاه من زوجته أم حكيم ، وأعطاه دفعة أو دفقة كهربية جديدة ، جعلت الإيمان يجد ملاذاً له فى قلبه بعد كسر الران من الحقد والكفر الذى انهار .

(وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها ، فتأبى عليه وتقول : إنك كافر وأنا مسلمة)
فيقول : إن أمراً منعك منى لأمر كبير .

ولو لم يكن شعاع الإيمان قد نفذ إلى قلبه لكان قد ثنى بها بعد غلامها الرومى ، وقتلها لإسلامها وتمنعها عنه . لكنه قد تغير ، وهو يرى فى زوجته ذلك الملاك الطاهر الذى يقوده إلى محمد بن عبد الله ، ويذلل كل العقبات التى كانت تحول بين عكرمة وابن عمه محمد ، فهو لن يجد حرجاً أو يبحث عن وساطة للدخول عليه ، بعد أن أخذت له زوجه الأمان منه .

و- ونعود إلى المسلمين الذين بلغهم تغيير القرار النبوى عن عكرمة ، من إهدار دمه بحيث يتقرب كل مسلم إلى الله تعالى بدمه إلى إعطائه الأمان ، فلو مسه أحد لطرد من رحمة الله ، ولو كان ابن أبى جهل .

ولا يزال المسلمون يعانون من آخر فجوره يوم قاتل المسلمين حتى اللحظة الأخيرة ، وإذا بالمسلمين يستمعون إلى رسول الهدى يقص عليهم أخبار عكرمة مع تعليمات مشددة بعدم إيذائه بشيء ، ولو كان بأبيه أبى جهل فرعون هذه الأمة ، وتعييره به .

إنها تعليمات من أعجب ما روى التاريخ تصدر من محمد رسول الله ﷺ تطالب المسلمين بالكف عن سب فرعون الأمة أبى جهل بن هشام .

(فلما وافى مكة قال رسول الله ﷺ : « يأتىكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت ») ، وبدأت أنظار القوم تترقب هذا القادم الفار من الله ورسوله ، فهل قبضت عليه شرطة النبى لتقوده إلى المقصلة وهو من أكبر مجرمى الحرب ، وها هو قد لاح قادماً مع زوجته .

(قال ابن عقبة والزهرى فيما رواه البيهقى وعروة وغيرهما :

فلما رأى رسول الله ﷺ عكرمة وثب إليه ، وما على رسول الله ﷺ رداء ، فرحاً بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف عكرمة بين يديه وزوجته منتقبة .

فقال : يا محمد ، إن هذه أخبرتنى أنك أمتنى .

فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ، فأنت آمن » .

وانتهى حساب أعرق أئمة الكفر بهذا اللقاء الخاطف الذى لم يتجاوز الثوانى القليلة .
وابتدأ الحوار حول العقيدة ، وانتهى حساب السياسة .

(قال عكرمة : فإلام تدعو يا محمد ؟

قال : « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتفعل وتفعل » حتى عدد خصال الإسلام ، وليت راوينا ذكرها لنا جميعاً .

(وحيث لا ظل للسيف ، ولا للخوف ، وبعد أن تبددت ظلمات قلبه ، فى ظلمات البحر جاءهم الموج من كل مكان) ، قال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى خير ، وأمر حسن جميل ، وأدلى عكرمة ﷺ بتصريح صحفى نقلته وكالات أنباء المسلمين فى الدنيا قبل أن يسلم ، وأدلى بأهم اعتراف عنده وأخطره : (قد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه ، وأنت أصدقنا حديثاً ، وأبرنا برّاً ، ثم قال عكرمة : فأنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله) .

(قال عكرمة : ثم ماذا ؟) .

فقد أسلس الآن قياده لعدوه الالذ محمد بن عبد الله ، وصار أحب إليه من سمعه وبصره .

قال رسول الله ﷺ : « تقول : أشهد الله ، وأشهد من حضر أنى مسلم مهاجر مجاهد » .

فقال عكرمة ذلك .

ومن تحرير العقيدة إلى تحرير القلوب ونجوى الأرواح .

(فقال رسول الله ﷺ : « لا تسألنى اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه ») .

وهذا يعنى أنه صار من أثر أصحاب محمد - عليه الصلاة والسلام ، وذلك خلال لحظات فقط لا تتجاوز بضع دقائق .

وماذا يريد عكرمة ، إن وراءه سجلاً قائماً أسود يملأ حياته فى حرب الله ورسوله ، فهل يطلب مال الدنيا أم يطلب محو ذلك التاريخ ، إن الرجال الكبار الكبار هم الذين يصنعون التاريخ ويريد الآن أن يصنع تاريخاً جديداً ، بعد محاولة كتابة تاريخه الجاهلى بدمه واجتثاث جذور محمد عدوه ، وحانت أغلى فرصة لطى تلك الصفحة السابقة كلها ، ولا يملكها إلا رسول رب العالمين ، ذو الخطوة العظمى عند ربه .

(فقال عكرمة : فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها ، أو مسير وضعت فيه ، أو مقام لقيت في فيه ، أو كلام قلته فى وجهك أو أنت غائب عنه) .

ويستجيب القلب النبوى الأعظم الذى يتسع فى الصفح حتى يغمر ابن أبى جهل والملايين أمثاله حين يذعنون لله ولرسوله .

(فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها ، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك إطفاء نورك ، فاغفر له ما نال منى من عرض فى وجهى أو أنا غائب به عنه ») .

وانتهت كل طلبات عكرمة ، وقائمة المطالب العظمى من الأموال والمتاع والرياش .

(فقال عكرمة : رضيت يا رسول الله) .

هذا الاخذ ، أما العطاء والبذل فماذا عند عكرمة أنه سيقدم مكافئاً لهذا العطاء ثم قال عكرمة : (أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها فى صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله ، ولا قتلاً كنت أقاتل فى صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه فى سبيل الله) (١) .

وحيث كان أحد الأربعة الكبار الذين قاوموا الإسلام لآخر لحظة ، وعاهد الله تعالى أن يتفق ويجاهد فى سبيل الله ، كما أنفق وجاهد فى الصد عن سبيله ، نراه فيما بعد أحد القادة الأربعة الكبار الذين اختارهم الصديق لمواجهة المرتدين ثم المضى بهذا الدين إلى موعود الله تعالى فى أرضه فى الشام وفارس ، وصدق ما عاهد الله عليه ، وقضى نجه فى اليرموك شهيداً فى سبيل الله .

٣- ثالث الأربعة الكبار : صفوان بن أمية :

(إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة ...) .

أ- وكما التقيا فى وجهة السير فى المواجهة ، التقيا فى وجهة السير فى الفرار نحو اليمن ، وكانا قد التقيا من قبل فى الموقف الموحد ضد الإسلام .

يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه فى قصة إسلامه :

(فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصحاب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية . فقلت : يا أبا وهب ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة

(١) هذه الرواية كاملة عند الواقدي فى المغازى ٢/ ٨٥١ - ٨٥٣ ، وعند البيهقي فى الدلائل بعضها ٩٧/ ٥ - ٩٩ ، وعند ابن إسحاق فى السيرة م ٤١٨/ ٢ .

رأس ، قد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف .

فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ، ما اتبعته أبداً .

فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترًا ، قد قتل أخوه وأبوه يوم بدر .

فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل الذى قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان) .

ب - ونقف عند قصة وتره وثأره يوم بدر ، وكيف خطط لاغتيال رسول الله ﷺ بعد بدر ثارًا لأبيه وأخيه ، ونشهد كيف تلقى خبر مصرع أبيه وأخيه .

(قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بمصايب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم ابن هشام ، وأمّية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البخترى ابن هشام ، فلما جعل يعدّ أشراف قريش ، قال صفوان بن أمّية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى ، فقالوا : ما فعل صفوان بن أمّية ؟ قال : ها هو ذاك جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتل) (١) .

وحسب صفوان ابتداء أن الحيسمان الخزاعى قد أصابه لؤثة فى عقله ، وهو يعدد أشراف مكة القتلى ، وكادت اللؤثة أن تنزل بصفوان حين تأكد أن أباه وأخاه قد قتل يوم بدر والحيسمان يعقل كل ما يقول .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال :

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمّية بعد مصايب أهل بدر من قريش يسير ، فذكر أصحاب القليب ومصايبهم فقال صفوان : والله إن (٢) فى العيش بعدهم خير ، قال عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيالٌ أخشى عليهن الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير بين أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان وقال : علىّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء والعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكم شأنى وشأنك ، قال : أفعل .

قال : ثم أمر عمير بسيفه ، فشحذ له وسمً ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر

(٢) إن : بمعنى ما .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٦/١م .

ابن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا (١) ، وحزرننا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : فأدخله على ، قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبد بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير . فدنا ثم قال : انعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » ، فقال : أما والله يا محمد ، إن كنت بها لحديث عهد ، قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » ، قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » ، قال : قبّحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ، قال : « اصدقنى ما الذى جئت له ؟ » ، قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من أخبار السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ، ففعلوا ، ثم قال : يا رسول الله إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أؤذى أصحابك فى دينهم ؟

قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة .

(١) حرش بيننا : أفسد بيننا .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتیکم الآن فى أيام تنسیکم وقعة بدر ، وكان صفوان یسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا یكلمه أبداً ، ولا ینفعه ینفع أبداً (١) .

جـ- كان هذا آخر العهد بین صفوان وعمیر ، وفى الوقت الذى فرَّ فيه صفوان خارج مكة ، وفى الوقت الذى كانت أم حکیم بنت هشام تبذل كل ما تملك من جهد لتأخذ أماناً لعكرمة ، كان عمیر بن وهب رضي الله عنه یبذل كل ما لديه من جهد لیاخذ أماناً لصفوان ، فصفوان یبقى سید بنی جمح بلا منازع ، وعمیر یشفق علیه أن یكون حطباً للنار غداً .

(روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير ، والبيهقي عن الزهري ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير ابن وهب : يا نبی الله ، إن صفوان بن أمية سید قومى ، وقد خرج هارباً منك لیقذف نفسه فى البحر ، فأمنه رضي الله عنه وقال : « هو آمن » .

د- أما صفوان فیرید أن یسابق الزمن قبل أن یقبض علیه ، ویقطع رأسه ، ومعه غلامه یسار ، (وجعل یقول لغلامه یسار وليس معه غیره : ويحك : انظر من ترى !) . فهو یخشى أن یدركه الطلب (قال : هذا عمیر بن وهب . قال صفوان : ما أصنع بعمیر ؟ والله ما جاء إلا یرید قتلى ، قد ظاهر محمداً علیّ) . ولن یتمکن صفوان أن یفر من عمیر ، فعمیر بن وهب شیطان قریش ، ولا یدركه أحد ، ولحق بصفوان فأدركه ، وأین المفر ، إذا كان عمیر جاء قاصداً قتل صفوان ؟

(فلحقه فقال : يا عمیر ، ما كفاك ما صنعت بى ؟ حملتني دينك وعيالك ، ثم جئت تريد قتلى) وصفوان یعلم أن المسلمین قد قتلوا آباءهم وإخوانهم فى سبیل الله ، فما الذى یمنع أن تكون هذه مهمة عمیر .

(قال عمیر : يا أبا وهب ، جُعِلَ فِداك ، جئتک من عند أبرّ الناس ، وأوصل الناس ، فداك أبى وأمى ، الله الله فى نفسك أن تهلكها ، هذا أمان من رسول الله ﷺ ، قد جئتک به) .

وأنى لصفوان أن یثق بهذا الأمان ، وهو یعرف عراقة جریمته ، وحربه لمحمد بن عبد الله .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١م/٦٦٣ .

قال صفوان ولا يزال يذكر تلك الصفعة الأليمة التي تلقاها من عمير يوم مضى ليقتل محمداً فأسلم معه .

(قال صفوان : اغرب عنى فلا تكلمنى) .

وذلك كما قال لخالد يوم دعاه إلى الإسلام .

ولكن عميراً الذى يفيض حباً وحنواً على سيد قومه ، لم يغضب لنفسه ، وعاد يتكلم بحرارة الثكلى على ابنها :

(قال : أى صفوان ، فذاك أبى وأمى ، أفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وخير الناس ، ابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك وملكه ملكك) .

ويعرف صفوان فى أعماقه أن محمداً أفضل الناس وأبرّ الناس وخير الناس ، لكن مشكلة الصراع بينهما هى الصراع على السلطة ، وقد أنهى محمد ﷺ سلطان الشرك ، ولم يته سلطان قريش ، فالعز والسؤدد والذى قاده لقريش وهو ابن قريش الصميم سيبقى لها أبد الدهر ، فهؤلاء العرب جميعاً تحت حكمه وسلطانه ، إنما الذى انتهى وتحطم ، أصنام قريش ، وهبل ، والعزى ، وبقية الاوثان ، ووصلت إلى مسامعه : «اليوم أعز الله قريشاً ، اليوم تعظم فيه الحرمه ، اليوم تعظم فيه الكعبة ، فلقد عظمت الكعبة ، ودخلها رسول الله ﷺ وصلى فيها وأعاد مفتاحها لعثمان بن أبى طلحة صديقه القديم ، فكان للكلمات الأخيرة التى قالها عمير أثر عجيب هز أوتار قلبه ، وخالط رحيق روحه رغم وجود الران من الكفر على قلبه ، وهو يخشاه على نفسه ، ويعلم كم أوضع فى حربه ، لكن هذه الكلمات الأخيرة راح صداها يصرخ فى أعماقه : ابن عمك ، عزه وعزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، لكن أنى له الأمان لينعم بهذا العز ، وهذا الملك وهذا الشرف قبل أن يقذف نفسه فى البحر ، ولا يدرى أحد مصيره .

(قال : إنى أخافه على نفسى) .

فقد تغيرت اللهجة عن البدايات التى ابتدأت : إنك قاتلى ، اغرب عن وجهى .

(قال : هو أحلم من ذلك وأكرم) ، ويعرف صفوان أن محمداً أحلم من ذلك وأكرم ، لكنه يعرف نفسه أنه أحقد وأجرم .

قال كلمته الأخيرة : (لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها) .

وما كاد عمير يصل إلى هذا الموقف ، حتى أعيدت روحه إليه ، قال :

امكث مكانك حتى آتيك به .

وعاد عمير أدراجه إلى مكة ، يريد أن يسابق الزمن قبل أن يسبقه ، ويتخذ صفوان سيد قومه وهل راودت نفس صفوان أن يدع عميراً ويمضى فاراً بنفسه ، إنه الموت أمام هذه المغامرة ، لكن قدميه تسمرتا ، فلو كان عمير متواطئاً لفتك به منذ أن رآه . لكنه يحزن عليه حين الجارية كى يقبل أمان محمد ﷺ ، فكيف سيكون مجده وموقعه بعد أن يعفو عنه محمد .

هـ- (فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن صفوان أبى أن يأنس لى حتى يرى منك أمانة يعرفها) .

ورسول الله ﷺ يريد أن يدخر صفوان بن أمية سيد بنى جمح ، لعل قلبه يعمر بالإسلام .

(فتزع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه إياها ، وهى البرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ معتجراً به) .

(فخرج عمير فى طلبه الثانية ، فقال له : قد دعاك إلى أن تدخل فى الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين ، فهو أوفى الناس وأبرهم ، وقد بعث إليك ببرده الذى دخل فيه معتجراً ، تعرفه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم ، هو هو) .

وها هو صفوان يعود إلى أين ؟ إلى محمد الذى خطط لقتله ، ومع من ؟ مع عمير ابن وهب الذى كلفه بقتله ، ولكن هذا البرد علامة كافية لصدق عمير ، وكل حلمه الآن أن يفوز بالأمان .

ورسول الله ﷺ يربى هذا العدو الكافر إنه لا يريد له أن يدخل فى الإسلام عنوة خوفاً من السيف ، إنما يريد له أن يعيش فى الجو الإسلامى ، ويتحرك داخل المجتمع الإسلامى ، ويعرف هذا الجيل الجديد الذى بناه محمد ﷺ ، جيل الرحمن الذى بنى بكتاب الله وبترية رسول الله ، والذى لا يعرف فى قلبه إلا الله .

(فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يصلى بالمسلمين العصر فى المسجد ، فوقفا ، فقال صفوان : كم تصلون فى اليوم واللييلة ؟ قال : خمس صلوات ، قال : يصلى بهم محمد ؟ قال : نعم) .

لقد بدأ صفوان يأنس رويداً رويداً ، ويذهب خوفه ورعبه ، وبدأ ينتظر لحظة الخلاص .

و- (فلما سلم صاح صفوان : يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى بيردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك ، فإن رضيتُ أمراً وإلا سيرتنى شهرين .

قال : « انزل أبا وهب » .

قال : لا والله حتى تبين لى) .

فلا تزال الأقفال قائمة بينه وبين الإسلام ، وكل ما تحرك فى قلبه هو عظمة محمد ابن عبد الله إن عفا عنه ، ورفض النزول عن دابته حتى يسمع الجواب بأذنه .

(قال : « أنت بالخيار أربعة أشهر ») .

وكأنما ألقى جبل عن كاهله ، فقد نال الأمن الذى يريد ، وليمض إلى بيته فقد هدء التعب ، وأهلكه الرعب والخوف ، وسوف يمضى منزوياً عن الدنيا ، يراجع مصيره بهدوء ، ويقرر مصيره بهدوء ، فهو بالخيار أربعة أشهر .

ز - ويمر اليوم تلو اليوم ، وهو يرى المسلمين يملؤون فجاج مكة ، فلا يعرض له أحد بسوء ولا يجزئ أحد أن ينظر إليه بريبة ، فقد نال أمان محمد بن عبد الله .

والمسلمون فى مكة قائمين راكعين ساجدين ، يوحدون الله تعالى ، وهو متربص مراقب متريث إلى أن جاءه طلب من رسول الله ﷺ يود أن يستقرض منه خمسين ألف درهم ، ولم يتردد لحظة واحدة ، فهو يريد أن يكسر حاجز الجفاء بينه وبين محمد ﷺ وهو الكريم الجواد ، ومحمد أكرم الناس وأبرهم وأجودهم ، وقد جرب ذلك بنفسه . ثم كان الطلب الآخر حين تنهى إلى سمعه أن محمداً ماضٍ إلى هوازن ، فجاءه رسول الله ﷺ ، فجاء إليه رجلاً قال له عليه الصلاة والسلام : « يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » . قال وهو متوجس خيفة : أغضباً يا محمد ؟ قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس .

ويهتز صفوان للندا ، ويضطرب للثقة القائمة بينه وبين محمد بن عبد الله . . . ومضى فأمر غلمانه أن يخرجوا له مائة درع بما يكفيها من السلاح ، وجاءه الطلب ثانية يضرب على وتر الثقة العظيمة نفسها أن يكفيهم حملها ، ولم يتردد صفوان لحظة فى أن يرافق محمداً وصحبه ، وأن يحملها إلى أوطاس .

ومع هذا كله ، فلم تأت بعد الصدمة الكهربائية التى تنقله إلى حظيرة الإسلام ، لكن الحاجز بينه وبين الإسلام بدأ ينحسر ويضعف ، والران بدأ يتآكل أمام عظمة محمد - عليه الصلاة والسلام - الذى يقود العرب بين يديه إلى حرب ضخمة ، هائلة إلى حرب هوازن الذى كان آخر عهده بها وهو صغير عندما كانت حرب الفجار .

وسنبقى مع صفوان عند الأمان إلى أن نعود معه بعد حين فنشهد إسلامه هناك .

٤ - رابع الأربعة الكبار سهيل بن عمرو :

لم نستعرض تاريخ سهيل بن عمرو رضي الله عنه وقد كفانا المؤونة ، واستعرض هو ذلك التاريخ .

(قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر ، اقتحمت بيتي ، وأغلقت على بابي وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد ، وإنى لا آمن أن أقتل ، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه ، فليس أحد أسوأ أثراً مني ، وإنى لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد وكنت الذي كاتبته مع حضوري بدرًا وأحدًا ، وكلما تحركت قريش كنت فيها) .

ومع هذا فعنده أمل ضعيف رغم كل حربه العنيفة أن يطغى حلم محمد على غضبه ، ويعطيه تلك الإجارة . إنه في بدر أخذ أسيراً في بيت رسول الله ﷺ كما تحدثنا سودة رضي الله عنها أم المؤمنين تقول : والله إنى لعندهم (أى عند آل عفرأ في مناحتها على ولديها) إذ أتينا ف قيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم ، قالت : فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه : وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة مجموعة يده إلى عنقه في حبل قالت : فوالله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت : أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم إلا متم كراماً ، فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت : « يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ » قالت : قلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت (١) .

ولا عجب فسهيل سيد عشيرتها بنى عامر بن لؤى ، وزوجها السابق أخوه السكران بن عمرو رضي الله عنه فهو أحد أحمائها ، وإن كنا لا نرى أثراً لسهيل في أحد ، لكنه في الحديبية مضى يصنع تاريخ الجاهلية في أعنف رد ومواجهة ضد رسول الله ﷺ .

(قال : ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب : باسمك اللهم » ، فكتبها ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض » (٢) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣١٧/٢م .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٥/١م .

(فينما الناس على ذلك قد اصطلحوا، والكتاب لم يكتب أقبيل أبو جندل بن سهيل،
 قد أفلت يرسف في القيد متوشح السياف خلا له أسفل مكة، فخرج من أسفلها حتى أتى
 رسول الله ﷺ وهو يكتب سهيلاً، ورفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبي جندل فقام إليه سهيل
 فضرب وجهه بغصن شوك، وأخذ بلبته، وصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر
 المسلمين، أريد إلى المشركين يفتنونى فى دينى، فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم
 وجعلوا يكون لكلام أبى جندل - فقال سهيل: هذا أول ما قاضيتك عليه ردوه، فقال
 رسول الله ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: والله لا أكاتبك على
 شيء حتى ترده إلى فردّه رسول الله ﷺ، فكلّم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه فأبى
 سهيل، فقال مكرز وحويطب: يا محمد نحن نجيّره لك فأدخله فسطاطاً فأجاراه،
 وكفّ أبوه عنه (١).

وكان موقفه الأخير فى إعلان الحرب ضد رسول الله ﷺ وكونه أحد القادة الأربعة
 الثوريين الذين رفضوا الأمان والاستسلام، ثم كانت الهزيمة المنكرة.

إذ فرّ صفوان وفر عكرمه وأبو يزيد قائم كالموتمة (٢)

لكن كل هذه المواقف العنيفة كانت تقابل بمواقف من الليونة والإغضاء عن سفاهة
 سهيل.

(فقى بدر: قال عمر رضيه الله عن رسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعنى أنزع ثيبتى
 سهيل بن عمرو، ويدلج لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال رسول الله ﷺ:
 «لا أمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبياً»، قال ابن إسحاق: بلغنى أن رسول الله ﷺ
 قال فى هذا الحديث: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه» (٣).

وفى الحديثية: منذ أن رأى رسول الله ﷺ وجه سهيل قال: (فلما جاء سهيل بن
 عمرو قال النبى ﷺ: «سهل أمرهم» (٤).

فلما رآه النبى ﷺ حين طلع قال: «أراد القوم الصلح» (٥).

وقبيل فتح مكة، (قال رسول الله ﷺ كما روى ابن عساكر عن عطاء قال: لا أحسبه
 إلا رفعه إلى ابن عباس رضيه الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ ليلة قربته من مكة فى غزوة
 الفتح: «إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم فى الإسلام،

(٢) الموتمة: التى قتل زوجها وبقي لها أيتام.

(٤) المغازى للواقدي ٦٠٣/٢.

(١) المغازى للواقدي ٦٠٨/٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٩/٢م.

(٥) المصدر نفسه ٦٠٥/٢.

قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « عَتَابُ بن أُسَيْد ، وجبير بن مُطْعَم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » (١) .

فهو واحد من أربعة موطن أمل رسول الله ﷺ بالإسلام ، ويرى نفاسة معدنه من خلال كل الركام القاتم المتلبد فوقه ، فهو يربأ به عن الشرك لذلك .

ولا شك أن هذه الأمور جميعاً قد تناهت لسهيل ، ومدى احترام رسول الله ﷺ ، وتقديره له ، رغم كل ما يقدمه من حرب وإثم واعتداء عليه .

(وروى حميد بن زنجويه فى كتاب الأموال من طريق ابن أبى حسين قال :

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ودخل البيت ، ثم خرج فوضع يده على عضادتي البيت فقال : ماذا تقولون ؟ فقال سهيل بن عمرو : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال : « أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم » (٢) .

لقد كان هذا العفو العام لا يكفى لسهيل بن عمرو ، ولهذا انقحم فى بيته ، وبعث ابنه عبد الله بن سهيل يجيره . ولتتابع الخطا مع عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ كما يحدثنا عنها سهيل رضي الله عنه : (فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « نعم ، هو آمن بأمان الله ، فليظهر ») .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك بل نهى عن إيذائه ولو بلمحة البصر ، فقال : « من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه » ولماذا ؟ « لعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام » وأن الأوان لسهيل أن ينضم إلى هذه الحظيرة النبوية « ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع » .

ومضى عبد الله بن سهيل إلى أبيه بمقالة رسول الله ﷺ وقلبه يخفق أملاً بإسلامه ، وخفق قلب سهيل بحب محمد وإعظامه الذى ملا كيانه فقال : (كان والله برّاً صغيراً وكبيراً) ، تشاء إرادة الله تعالى أن يتأخر إضاءة قلبه بالنور الإلهي إلى ما بعد حنين . (وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة) (٣) .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١٤٦/٣/٢ ت (٣٥٦٦) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٣١/٥ .

(٣) المغارى للواقدي ٨٤٧/٢ .

نصف شهر ونيف : تربية وبناء

ذكر قدر إقامته ﷺ بمكة :

(عن ابن عباس رضيه الله عنه قال : أقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلى ركعتين ، وفى لفظ : أقمنا مع رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر نقصر الصلاة) رواه البخارى ، وأبو داود ، وعنده : سبعة عشر ، وعن عمران بن حصين رضيه الله عنه قال : غزوت مع رسول الله ﷺ الفتح فأقام بمكة ثمانى عشرة ليلة لا يصلى إلا ركعتين . رواه أبو داود . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس رضيه الله عنه : أن رسول الله ﷺ أقام بمكة عام الفتح خمس عشرة يقصر الصلاة . رواه أبو داود من طريق ابن إسحاق والنسائى من طريق عراك بن مالك كلاهما عن عبيد الله وصححه الحافظ (١) .

وإنها لقمة الوفاء النبوى العظيم لأصحابه الأنصار ، فمكة بلده وأحب أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إليه ، فلم يتعامل معها أنها بلده قط ، إنما أصبح مقامه المدينة كما وعد الأوس والخزرج يوم بيعة العقبة : « المحيا محياكم والممات مماتكم » ، فهو مسافر يقصر الصلاة ، وبلده هى التى آوته واحتضنته ، وفدته بالأرواح والمهج . فيها يقيم ، ولم يرض - عليه الصلاة والسلام - أن ينزل داخل بيوت مكة إنما كان مضطرباً بين الحجون وبين الحرم بالأبطح خارج البيوت فى قبة ضربت عليه ، ونزل معه صحبه ونزل معه جيشه القادم من مكة بآلاف العشر خارج بيوتات مكة خمسة عشر يوماً أو تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويصلى ركعتين ركعتين . وكان لا بد من هذه الإقامة ، فقد انضمت مكة كلها إلى الإسلام برجالها وشبابها وشيوخها ونسائها ، وبقي بعض الأفراد على شركهم بأمان خاص من رسول الله ﷺ .

لقد عبأت مكة فى حربها ضد رسول الله ﷺ ألف مقاتل ، وها هو ضعف هذا العدد ينضم اليوم إلى الإسلام . ولا بد من نزع آثار الحرب والموت بين الفريقين ، ولا بد من تفقيه الناس دينهم .

وما أروعها من إقامة حيث عاد المهاجرون يعلمون أبناءهم وإخوانهم وأمهاتهم الإسلام ، بعد أن كانوا يقاتلونهم فيقتلون ويقتلون . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) [المتحنة] .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٣٩٠ / ٥ ، وهى عند البخارى ١٩١ / ٥ .

وفى أقل من شهر ، غدا أعداء الله - الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم - غدوا
مؤمنين مسلمين وتحقق موعود الله بالمودة بينهم ، ولتابع أهم الأحداث التي تمت خلال
هذه الأيام المعدودات .

أولاً : بقية القيادات وإسلامها

١ - الحارث بن هشام :

وهو أخو أبي جهل بن هشام ، وقد ورث المجد بعد أخيه ، وغدا السيد المرموق من سادات بني مخزوم حتى أنه كان يضرب به المثل في السؤدد كما يقول الحافظ ابن حجر^(١) :
(وكان يضرب به المثل في السؤدد حتى قال الشاعر :

أظننت أن أباك حين تسبني في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قریش بالمكارم والندی في الجاهلية كان والإسلام)

وكان حسان بن ثابت له بالمرصاد ، فراح يضرب المثل بالفرار في بدر حين قال :

(إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الاحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فأجابه الحارث :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسى بأشقر مزيد
فعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل ولا ينكى عدوى مشهدي
ففررت عنهم والاحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

ويقال : إن هذه الأبيات أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار ، قال الزبير : شهد أحداً مشركاً وأسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه^(٢) .

أما قصة إسلامه يوم فتح مكة فقد كانت مرتبطة بقصة فراره ، حيث التجأ وزهير بن أبي ربيعة إلى أم هانئ بنت أبي طالب فأجارتهما بعد أن كاد عليّ يقتلهما ، قالت : (فرجعت إليهما فأخبرتهما وقلت لهما : وإن شئتما فأقيما ، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما ، قالت : فأقاما عندي يومين في منزلي ثم انصرفا إلى منزلهما)^(٣) ، ويأخذ الحديث الحارث قائلاً :

(١ ، ٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٣٠٧/١ .

(٣) المغازي للواقدي ٨٣٠ / ٢ .

(فانطلقنا ، فأقمنا يومين ثم خرجنا إلى منازلنا ، فجلسنا بأفئتيها لا يعرض لنا أحد ، وكنا نخاف عمر بن الخطاب فوالله إنى لجالس فى ملاء موروثة على بابى ما شعرت إلا بعمر بن الخطاب فإذا معه عدة من المسلمين فسلم ومضى ...) .

والخارث بن هشام أحس بعرق منّ رسول الله ﷺ بالحياة حتى ليقبل إجارة ابنة عمه أم هانئ له ، وبهذه الإجارة يمتنع عشرة آلاف من المسلمين عن المساس به ولو كان أعدى العدو عمر بن الخطاب .

ويبقى لا يجرؤ أن يلقى رسول الله ﷺ حين يذكر ما أجرم ويذكر ما أنعم عليه من الفضل .

(وجعلت أستحيى أن يرانى رسول الله ﷺ ، وأذكر رؤيته إياى فى كل موطن مع المشركين ثم أذكر برّه ورحمته وصلته ، فألقاه وهو داخل المسجد ...) .

وكانت تلك اللحظة الصعبة أولاً أقل من نظرة تأنيب أو نظرة عتاب ، أو كلمة تار . كل هذا لا وجود له فى قاموس النبوة فى قاموس سيد ولد آدم . (فلقينى بالبشر) .

ولم يكتف بذلك بل وقف - عليه الصلاة والسلام - ينتظر الخصم الألد الخارث بن هشام الذى اختاره إبليس ليكون معه فى بدر حين تبدى بصورة سراقه بن مالك ، وقف - عليه الصلاة والسلام - ينتظر الخارث بن هشام ليسلم عليه كما ينتظر المشتاق حبيباً قادماً إليه . (فوقف حتى جتته فسلمت عليه ، وشهدت بشهادة الحق ، فقال :

« الحمد لله الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام ») .

ومضى الخارث يعمر قلبه نور الإسلام ، لم تكن صدمته إلا شدة برّ محمد به وإحسانه إليه ، فلا يحتاج لأكثر من ذلك ، ولم ينتظر إلى حين ويتربص النتائج . لقد أشرق قلبه بالنور ، وهزته هذه الكلمة الخالدة : « ما كان مثلك يجهل الإسلام » فكان يقول : (فوالله ما رأيت مثل الإسلام جهل) (١) .

٢- ولدا أبى لهب :

وإذا كان الله تعالى شاءت إرادته أن يخرج من صلب أبى جهل عكرمة ، فقد شاءت إرادته أن يخرج من صلب أبى لهب عتبة ومعتب ، وأبو لهب هو الوحيد الذى ذكر

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٧٤/٥ .

مجاوزه باسمه الصريح فى القرآن :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ^(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ^(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ^(٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ^(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ^(٥) ﴾ [المد] .

أما هو وامراته وولده عتية فقد انتهيا إلى جهنم وبئس المصير ، وأنقذ الله تعالى ولديه عتبة ومعتب من النار ، لقد كان رسول الله ﷺ يسأل بلهفة وقلق عنهما .

(روى ابن سعد عن ابن عباس عن أبيه قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة فى الفتح قال لى : « أين ابنا أخيك عتبة ومعتب ابني أبى لهب ، لا أراهما ؟ » .

قال : تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش .

فهما سلاله العداوة الابدية التى كانت بين رسول الله ﷺ وعمه أبدا كما قال له : لا زلت عدواً لك أبداً .

(فركبت إليهما بعرفة فأتيت بهما) .

ولا شك أن أوصالهما كانت ترجف من الخوف ، فقد آن الاوان للثأر منهما ومن أييهما .

(فدعاهما إلى الإسلام فأسلما ثم بايعا) .

ورسول الله ﷺ يريد أن يطوى صفحة أبى لهب من الساحة المكية ، ويقضى على آثارها ليفتح صفحة الإسلام داخل هذا البيت .

(ثم قام رسول الله ﷺ فأخذ بأيديهما وانطلق حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى فى وجهه فقال :

« إني استوهبت ابني عمى هذين من ربي ، فوهبهما لى » (^(١)) .

(وأخرج الطبرانى من وجه آخر إلى على أن النبى ﷺ دخل يوم الفتح بين عتبة ومعتب يقول للناس : « هذان أخواى وابنا عمى - فرحاً بإسلامهما - استوهبتهما من الله فوهبهما لى » ، ويُجمع بأنه دخل المسجد بينهما بعد أن أحضرهما العباس) (^(٢)) .

٣ - حويطب بن عبد العزى :

قال محمد بن عمر : حدثنى ابن أبى سبرة ، عن موسى بن عقبة ، عن المنذر بن جهم قال :

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١٢٢ / ٦ / ٣ ت (٨١١٥) .

(لما كان يوم فتح مكة هرب حويطب بن عبد العزى حتى انتهى إلى حائط عوف فدخل هناك ، وخرج أبو ذرٍ لحاجته وكان داخله ، فلما رآه هرب حويطب فناداه أبو ذر : تعالى ، أنت آمن ، فإن شئت أدخلتك على رسول الله ﷺ ، وإن شئت فاذهب إلى منزلك) .

وحويطب من الوفد المفاوض في الحديبية ، ومن قادة وسادة عامر بن لؤى ، ولن يخفى على محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو ليس نكرة في قومه (قال : وهل من سبيل إلى منزلى ؟ ألقى ، فأقتل قبل أن أصل إلى منزلى ، أو يدخل على منزلى فأقتل) ، إنه يرى الموت شاخصاً أمام عينيه ، وما فراره إلا تأخيراً لساعة الموت . (قال : فأنا أبلغ معك منزلك ، فبلغ معه منزله ، ثم جعل ينادى على بابه : إن حويطباً آمن ، فلا يهجم عليه ، ثم انصرف أبو ذر إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « أوليس قد أمنا كل الناس إلا من أمرت بقتله ») (١) .

وانضم حويطب إلى سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية الذين يعيشون في السلام لا في الإسلام، ويترك لهم المجال حراً حين يشهدون المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية الربانية ، لتتحات تلك الاقنعة والاكتمة عن قلوبهم مع مرور الزمن ، ويتسلل نور الإسلام إلى قلوبهم من خلال هذا الركاب .

٤ - فاران جديدان :

وإذا كانت أم هانئ رضي الله عنها أجارت اثنين من أحمائها من قيادات بنى مخزوم فالغريب أن زوجها هبيرة بن أبى وهب لم يفز بهذه الإجارة ، وفرَّ هارباً مع وزير إعلام مكة عبد الله بن الزبعرى .

(وهرب هبيرة بن أبى وهب ، وهو يومئذ زوج أم هانئ بنت أبى طالب هو وابن الزبعرى جميعاً حتى انتهيا إلى نجران ، فلم يأمنّا من الخوف حتى دخلا حصن نجران ، فقبل لهما : ما وراءكما ؟ قالا :

أما قريش فقد قُتلت، ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى محمداً سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلحارث وكعب يصلحون ما رث من حصنهم ، وجمعوا ماشيتهم) .

لقد كان هذان الزعيمان خير دعاية لرسول الله ﷺ ، وخير إعلان عن الانتصار الإسلامى فى الساحة العربية ، حتى لترتجف اليمن من وصول محمد ﷺ إليها .

(فأرسل حسان بن ثابت أبياتاً يريد بها ابن الزُبَيْرى أنشدنيها ابن أبى الزناد :

لا تعدمن رجلاً أحللت بُغْضَهُ نَجْران فى عيش أحدٌ (١) لثيم
بليت قناتك فى الحروب فألفيت خمانة (٢) جوفاء ذات وصوم
غضب الإله على الزبعرى وابنه وعذاب سوء فى الحياة مقيم

وابن الزبعرى أشهر شخصية عربية جاهلية محاربة ، فشعره هو متدى العرب ضد محمد ﷺ ، ووصلت الابيات ابن الزبعرى ، وأمضى ليله ساهراً لا يرقأ له جفن ، فى الوقت الذى تنامت الانباء إلى هبيرة بن أبى وهب بإسلام زوجته هند (أم هانئ) التى كان يذوب حباً بها ، وشوقاً إليها ، وكان كلا الرجلين يعانى من صراع محموم فى داخله يود أن يهدأ إلى نفسه ، ولا يتزع هدوءه وخلوته أحد . أما هبيرة ، فيزداد حقداً على حقد ، ويغريه الشيطان بالنيل من زوجته التى صبات ، ويزيد الركام فوق الركام ، والثأر فوق الثأر ، بينما كان ابن الزبعرى يمضى فى اتجاه معاكس تماماً إلى داخله إلى أعماقه يخوض فى أوحال هذا الركام ، ويشهد سواده وقناتمه وظلمته ، ويود لو يحطمه إلى النهاية ، وطالعا هبيرة بن أبى وهب بشعره الشجى العصبى الذى يخاطب به زوجته هند قائلاً :

أشأقتك هند أم تآل سؤالها كذاك النوى أسبابها وانفتالها
وقد أرقّت فى رأس حصن مئع بنجران يسرى بعد ليل خيالها

وتبرز العصبية العفنة الجاهلية لتزكم أنفه وتعمى بصره عن محمد بن عبد الله .

ولأنى من قوم إذا جد جدهم على أى حال أصبح اليوم حالها
ولأنى لحام من وراء عشيرتى إذا كرهت نحو المعالى فحالها

فهو الوارث لمجد أبى الحكم بن هشام والوليد بن المغيرة والمحافظ عليه والحامى له .

وإن كلام المرء فى غير كنهه لكالنبيل تهوى ليس فيها نصالها

وبعد ذلك الشوق وذلك الأرق وذلك الجوى لزوجته وحبيته هند ، يذكر إسلامها ، وهذنتها لمحمد ، وحبها له ، فيقشعر جسده ، ويتنفخ غضبه فيقول :

وإن كنت قد تابعت دين محمد وقطعت الأرحام منك جبالها
فكونى على أعلى سمين بهضبة ململمة حمراء ييس تلالها

(٢) خمانة : ضعيفة .

(١) الأحذ : اللثيم المقطع .

ويقوم مع الضحى يود أن يحدث ابن الزبعرى بهذه القصيدة الجديدة الثائرة على أم هانئ وإسلامها ليبوح له بهذا السر الجديد ، أنه بدأ يحقد على روجه لمتابعتها محمد ، إذ يراه يتأهب ويشد الرحال ليغادر نجران .

(فقال هبيرة بن أبى وهب : أين تريد يا بن عم ؟

قال : أردتُ والله محمداً .

قال هبيرة - وكأنما لسعته حية : أتريد أن تتبعه ؟

قال : أى والله .

قال وقد تميز غيظاً وحقدًا : (يا ليت أنى رافقت غيرك ، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً .

قال ابن الزبعرى : هو ذاك ، فعلى أى شيء نقيم ؟! مع بنى الحارث بن كعب ، وأترك ابن عمى وخير الناس وأبرهم ، ومع قومى ودارى (١) .

وانطلقا فى طريقين مختلفين ، هذا إلى النار تحت عتبة الجاهلية ودخانها الأسود ، وذاك إلى الجنة يمزق تلك الحجب كلها ، والأقنعة كلها ، قاصداً منبع النور ، حيث نلتقى معه بعد حنين .

(١) المغازى للواقدي ، مقتطفات ٢/٨٤٧ - ٨٤٩ .

ثانيًا : هدم الطواغيت

١ - هدم العزى :

(قال ابن سعد : ثم سرية خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، وكان بيتًا بنخلة ، قال ابن إسحاق وابن سعد : وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم وكانت أعظم أصنام قريش ، وجميع كنانة ، وذلك أن عمرو بن لحي كان قد أخبرهم أن الرب يشق بالطائف عند اللات ، ويصيف عند العزى ، فعظموها وبنوا لها بيتًا وكانوا يهدون إليها كما يهدون للكعبة .

وروى البيهقي عن أبي الطفيل رضي الله عنه : وكانت بيتًا على ثلاث سمرات . انتهى .

قال محمد بن عمر وابن سعد : وبعث رسول الله ﷺ يوم فتح مكة خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها فخرج في ثلاثين فارسًا من أصحابه ، قال ابن إسحاق : فلما سمع سادنها السلمى بسير خالد إليها علّق عليها سيفه ، وأسند في الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

يا عَزَّ شدى شدة لا شوى لها على خالد ألقى القناع وشمري
يا عَزَّ إن لم تقتلى المرء خالدًا فبئى يائس عاجل أو تنصرى

قال أبو الطفيل وابن سعد ومحمد بن عمر : فأناها خالد فقطع السمرات وهدمها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « هل رأيت شيئًا ؟ » قال : لا ، قال : « فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها » ، فرجع خالد وهو متغيظ ، فلما رأت السدنة خالدًا انبعثوا فى الجبل وهم يقولون : يا عَزَّى خبلية ، يا عَزَّى عورّيه ، ولا تموتى برغم ، فخرجت إليه عجوز سوداء عُرْيانة ثائرة الرأس - زاد أبو الطفيل : تحثو التراب على رأسها ووجهها فضرى بها خالد وهو يقول :

يا عَزَّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

فجزلها اثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : « نعم تلك العزى قد يشت أن تعبد ببلادكم أبدًا » (١) .



(١) سبل الهدى والرشاد ٦/٣٠٠ ، وهى عند ابن إسحاق فى السيرة ٢/٤٣٦ ، ٤٣٧ ، وعند الواقدي ٣/٨٧٣ ، ٨٧٤ ، وعند ابن سعد فى الطبقات ٢/١٤٥ ، ١٤٦ ، وعند البيهقي فى الدلائل ٥/٧٧ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم] .

والعرب لا يعظمون بعد الله تعالى شيئاً أكبر من تعظيمهم اللات والعزى، إذ يقسمون بهما أكثر مما يقسمون بالله عز وجل ، وقد شهدنا أبا سفيان حين علا إلى الجبل فقال : اعل هبل ، فهو الصنم الأول فى الكعبة ، بينما كانت الأصنام الثلاثمائة والستون هى دون هبل فى القداسة .

ووجدناه حين أراد أن يفخر على المسلمين قال لهم : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال له عمر رضي الله عنه بأمر نبيه ﷺ : الله مولانا ولا مولى لكم .

وإن كانت اللات ذات قيمة عظمى عند العرب ، لكن مقامها فى الطائف وهى ممنوعة من ثقيف ولم يأن الأوان بعد لهدمها .

وأن يسير خالد بن الوليد لهدمها ، وهو ابن الوليد بن المغيرة وحيد قريش ، له عند العرب مغزى كبير ، وأن يكون الفوارس الذين معه من سليم ، وسليم هم سدة العزى ، فله مغزى آخر كذلك .

يحدثنا خالد رضي الله عنه عن أبيه وماذا كان يعمل عند العزى ، وذلك بعد أن هدمها .

(ثم قال خالد : أى رسول الله ، الحمد لله الذى أكرمنا وأنقذنا من الهلكة ، إني كنت أرى أبى يأتى إلى العزى يجبر ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً) (١) .

لقد كانت العرب تعرف ذلك للوليد ، وقد مات على ذلك ، فإذا بابنه خالد بن الوليد رضي الله عنه هو الذى يقوم بهدم هذه الآلهة .

وعندما قال الشيطان على لسان رسول الله ﷺ بعد قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ عندما قال الشيطان : وإن شفاعتهن لترجى ، سجد شيوخ مكة وكبارها كلهم ، وحين لم يتمكن الوليد من السجود ، رفع التراب إلى جبهته وسجد عليه ، ويأتى ابنه اليوم ليهدم هذه الآلهة ، يعنى أعظم انقلاب فى تاريخ العرب نحو هذه الآلهة ، وما هو سادنها يدعوها لتدافع عن نفسها ، فهو لن يقف فى وجه خالد ابن الوليد البطل العربى المظفر ، وكل ما فعله أن علق عليها سيفه ، وهرب إلى الجبل

(١) أخبار مكة للأردق ١/ ١٢٨ .

وهو ينشدها وينشدها :

يا عَزَّ شدى شدة لا شوى (١) لها على خالد ألقى القناع وشمري
يا عَزَّ إن لم تقتلى المرء خالداً فبئس ما عاجل أو تنصرى

وعوضاً عن أن تقتل العزى خالد بن الوليد ، فيقطع خالد السمرات التى أقفيت العزى عليها ، ويهدم البيت الذى يحج إليه العرب ، فقد أخبرهم عمرو بن لحن أن الرب يشتى بالطائف عند اللات لبرد الطائف ، ويصيف عند العزى لحر تهامة ، وعاد وهو سعيد بأن كتب الله تعالى على يديه هدم هذا الطاغوت الأكبر الذى يعبد من دون الله ، وأنقذ الأمة من هذه الخرافات ، ويلقاه نبيه المصطفى ﷺ قائلاً له : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا ، قال : « فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها » .

وأحس خالد ﷺ بغیظ من هذه الآلهة المدعاة ورأى السدنة خالداً ففروا مصعدين فى الجبل ، وراحوا يدعون آلهتهم : يا عَزَّى خبليه ، يا عَزَّى عوریه ، ولا تموتى برغم .

وإذا بالشیطانة الرهيبة تظهر ، تود أن تخبل خالداً وتعوره حيث برزت عجوز سوداء عريانة ثائرة الرأس تحثو التراب على رأسها ووجهها ، وهذا الذى ينتظره خالد ، فقد عاد ليرى شيئاً لم يره من قبل ، وكان سيف الله الخالد خالد هو الذى قطع هذه الشیطانة الكاذبة التى أضلت الناس قروناً طوالاً فعجز لها اثنتین ، وهو يصرخ :

يا عَزَّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

لقد خرجت نائلة من قبل تدعو بالويل والثبور ، وهذه العزى اليوم وقد قطعت نصفين ، وابن الوليد بن المغيرة الذى كان يهدى الإبل والغنم لها ، ابن الوليد يعلن كفره بها ، وقتله لها بدل أن تقتله ، أو تخبله أو تعوره ، ويبشره المصطفى ﷺ أن الله كتب على يديه هدم أكبر معاقل الوثنية فى جزيرة العرب ، هدم العزى فقال له : « نعم ، تلك العزى ، قد يشت أن تعبد ببلادكم أبداً » .

وتقر عين خالد ﷺ ويعلن فرحه أمام نبيه ﷺ بقوله :

(يا رسول الله ، الحمد لله الذى أنقذنا بك من الهلكة وأكرمنا بك ، لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الإبل والغنم ، فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً) .

وفى مراجعة عظيمة لما كانت عليه الأمة من الظلمات ، وما آلت إليه من النور يبدو

(١) لا شوى : لا بقيا لها .

الفرق شاسعاً بين الموقفين .

(ونظرت إلى ما مات عليه أبى ، وإلى ذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله ، وكيف خُدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع) ، لقد كان الوليد هو حكيم قريش وسيدها الذى يفزع إليه بالمللمات ، ويتبرك برأيه الميمون ، وهو هو نفسه الذى كان يذبح المائة من الإبل عند العزى وتقر عينه بذلك لحجر لا يضر ولا ينفع ولا يدفع عن نفسه الأذى والضرر .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَیْشُرْکُونَ مَا لَا یَخْلُقُ شَیْئًا وَهُمْ یَخْلُقُونَ (١٩١) وَلَا یَسْتَطِیعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ یَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا یَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَیْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنْ الذِّینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَیْسَتْ جِیُورًا لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾ [الاعراف] .

لقد بقيت هذه الآيات كلاماً نظرياً حتى جاء رسول الله ﷺ فهدمها بمحجته ، ثم جاء جنديه خالد فهدمها وقتل العزى بسيفه ، ولم تستطع أن تدفع عن نفسها ، ولم تتقن استعمال سيف السادن ، ولم تخبل خالداً ، ولم تعوره . بل سقطت تحت الأحذية والنعال ، وارتفع صوت التوحيد فى الوجود بعد هذه القرون الطوال .

إنه حدث من الأهمية بمكان يعلن صدق دعوة المصطفى ﷺ والتي بقى العرب يكذبونها عشرين عاماً حتى جاءت ساعة الصفر التى أسقطت هذه الطواغيت ، وكان الإعلان الأكبر فى هذا الحدث أنها انتهت إلى غير رجعة ، ولن تعبد فى أرضكم هذه أبداً بعد تلك القتلة التى قتلت فيها ، وهدم بيتها الذى كانت تنشد فيه .

فعن ابن إسحاق : أن عمرو بن لحي اتخذ العزى بنخلة ، فكانوا إذا فرغوا من حاجتهم لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ، ويحلون عندها ، ويعكفون عندها يوماً وكانت لحزاعة ، وكانت قريش وبنو كنانة كلها يعظمون العزى مع خزاعة وجميع مضر ، وكان سدنتها الذين يحجبونها بنو شيبان من بنى سليم ، حلفاء بنى هاشم ، وقال عثمان: وأخبرنا محمد بن السائب الكلبي قال : كانت بنو مضر وجشم وسعد بن بكر وهم عجز هوازن يعبدون العزى ، قال الكلبي : وكانت اللات والعزى ومناة فى كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وترايا (تترأى) للسدنة وهم الحجة ، وذلك من صنيع إبليس وأمره (١) .

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٢٦/١ ، ١٢٧ .

٢- هدم سواع (١) :

وإذا كانت العزى قد كلف بهدمها خالد بن الوليد، فقد كُلف عمرو بن العاص رضي الله عنه بهدم سواع ، وهو ابن العاص بن وائل سيد بنى سهم الخصم الألد لرسول الله ﷺ ، والذي اشترك مع الوليد بن المغيرة بأنهما من المستهزئين ، فإذا بأبنائهما يحملان راية التوحيد ، ويقومان بهدم آلهة الآباء والأجداد ، وكان هذا فى شهر رمضان سنة ثمان ، ولعلمهما مضيا فى يوم واحد .

قال محمد بن عمر وابن سعد : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل بن مُدرِكة ، وكان على صورة امرأة ليهدمه ، قال عمرو : فانتفيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد ؟ فقلت : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلتُ : لم ؟ قال : تُمنع ، قلتُ : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك ، هل يسمع أو يبصر ؟ قال : فدنوت منه فكسرتة ، وأمرت أصحابه فهدموا بيت خزانتة فلم نجد فيه شيئا ، ثم قلتُ للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله تعالى (٢) .

٣- هدم مناة :

وذلك فى سرية سعد بن زيد الأشهلى رضي الله عنه إلى مناة وهو بالمشلل لِسِتْ بقين من رمضان سنة ثمان من فتح مكة .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان ، فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلى لهدمها فخرج فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن ، فقال السادن ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشى إليها ، وتخرج إليه امرأة سوداء عُرْيانة ، ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فقال السادن : مناة ، دونك بعض غضباتك ، ويضربها سعد بن زيد الأشهلى فقتلها ، ويُقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه ، ولم يجد فى خزانتها شيئاً وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ (٣) .

(١) سواع : سُمى على اسم سواع بن شيث بن آدم عليه السلام ، قال الجوهري : (وسواع اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام ، ثم صار لهذيل ، وكان برُهاط ، قرية جامعة على ثلاثة أميال من مكة ساحل البحر يحججون إليه ، وقال الأزرقي - نقلا عن الكلبي - أنه كان برُهاط من بطن نخلة أو رُهاط من ينبع ، ورجع الأولى لقبها من هذيل) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣٠٣/٦ ، وهى فى المغازى ٨٧٠/٢ ، وفى الطبقات لابن سعد ١٤٦/٢ .

(٣) وهى فى الطبقات الكبرى لابن سعد ١٤٦/٢ ، وفى المغازى للواقدي ٨٧٠/٢ .

٤ - هدم ذى الكفين :

قال محمد بن عمر : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بث السرايا ، فبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى ، وبعث إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة ، الطفيل بن عمرو الدوسى ، فجعل يحرقه بالنار ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حششت النار فى فؤادكا (١)

أ- وقد ورد ذكر سواع فى القرآن بين آلهة وأصنام قوم نوح فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٢) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (٢٤) [نوح] .

ب- ومع أن هذيل لم تخض معركة مباشرة مع الرسول ﷺ بكيانها القبلى . لكن فريقاً كبيراً من هذيل شارك فى حرب مكة مع صفوان وعكرمة ممن أطلقت عليهم مكة أوباش قريش أو المرتزقة من نزاع القبائل ، وخضت شوكتها ، فلم تتمكن من الوقوف أمام تكسير أعز مقدساتها ، سواع الذى تحج إليه وتقدس ، وترك السادن لسواع الدفاع عن نفسه كما فعل سدة العزى ، ولم يكن يشك أن عمراً سوف يصيبه العطب أو المس أو الجنون أو الشلل لو هدم سواع الآلهة ، وقال لعمر : لا تقدر على ذلك .

ج- وها هو السادن ينتظر غضبة الآلهة ومنعها لعمر من هدمها ، ثم يراها وقد غدت قاعاً صفصفاً بعد أن كانت تعبد من دون الله وينظر عمرو إلى السادن قائلاً : كيف رأيت ؟

فكان الجواب من أعماق قلبه : أسلمت لله .

د- أما مناة فهى ثلاثة الآلهة المدعاة :

﴿ أَلَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم] .

وكان أكبر عبادها ومقدسيها من غسان والأوس والخزرج ، ولهذا اختار رسول الله ﷺ أحد قادة الانصار الذين يدينون لهذه الآلهة سابقاً بالولاء والعبودية وهو سعد بن زيد الأشهلى من بنى عبد الأشهل رهط سعد بن معاذ الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم . وحتى تُنتزع من غسان والأوس والخزرج تلك الهالة للآلهة المزيفة ، وقد خرجت مناة

(١) المغازى للواقدي ٢ / ٨٧٠ ، وذو الكفين صنم من خشب كان لعمر بن حُمة الدوسى .

تلك الشيطانة الثائرة تدعو بالويل والثبور كما خرجت من قبلها العزى ونائلة تلطم وجهها
وصدرها فقد انتهى عهدا ، وأشرق نور الإسلام بالأرض ، وجاء الحق وزهق الباطل ،
وما بيدئ الباطل وما يعيد ، وقُتلت مائة كما قتلت العزى ، وبقيت اللات تتربص
بالطائف حتى تنهار ثقيف تحت ضربات الإسلام وجنوده .

هـ- أما ذو الكفين صنم عمرو بن حممة ، فقد كان حلماً للطفيل بن عمرو الدوسى
أن يقوم بإحراقه كما يحدثنا ابن إسحاق عنه :

ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم من قومي ورسول الله ﷺ بخير حتى
نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير فأسهم لنا
مع المسلمين ، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله مكة قلت : يا رسول
الله ، ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه .

قال ابن إسحاق ، فخرج إليه فجعل طفيل يوقد عليه النار ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبّادك ميلادنا أقدم من ميلادك

إنى حشوت النار فى فؤادك (١)

و- وحتى تتطهر النفوس كلها من أرجاس الوثنية كان النداء النبوى الخالد ، الذى
نقله لنا جبير بن مطعم رضي الله عنه :

(لما كان يوم الفتح نادى منادى رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله فلا يتركَنَّ
فى بيته صنماً إلا كسره أو حرّقه ، وثمنه حرام » .

قال جبير : وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يطاف بها مكة ، فيشتريها أهل البدو
فيخرجون بها إلى بيوتهم ، وما من رجل من قريش إلا وفى بيته صنم إذا دخل مسحه
وإذا خرج مسحه تبركاً به (٢) .

لقد كان أعظم انتقال فى تاريخ البشرية أن تتحول مكة معقل الوثنية عند العرب إلى
دار التوحيد فى الأرض كما كانت من عهد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وحين دعا
إبراهيم - عليه الصلاة والسلام :

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) » [إبراهيم] .

تحققت الآن دعوته على يد دعوته محمد ﷺ وبدأ تكسير الأصنام وحرقتها فى كل

(٢) المغارى للواقدي ٨٧١/٢ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٥/١ .

بيت خاصة وقد أعلن أن ثمنها حرام ، لقد كانت الوثنية والأصنام فى البيوت أهم من الطعام والشراب اليومى ، وأصبحت الحركة الثورية اليوم هى تحطيم هذه الآلهة كسراً وحرقاً ، ولا عجب أن يكون أشد الناس فى هذا الموضوع ابن أبى جهل عكرمة رضي الله عنه وبعد أن أسلم حيث نصب نفسه محتسباً للتوحيد .

(كان لا يسمع بصنم فى بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره) (١) ،
وبنت عتبة بن ربيعة هند (جعلت تضرب صنماً فى بيتها بالقدم فلذة فلذة وهى تقول :
كنا منك فى غرور) (٢) . ومضى الغرور وانبلج النور .

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٢٣ .

(٢) المغازى للواقدي ٢/ ٨٧١ .

ثالثاً : غزوة بنى جذيمة

١ - (باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ، أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال :

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صباناً صباناً ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منهم أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتلن رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على النبي ﷺ فرفع النبي ﷺ يده فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين (١) .

٢ - ورواية ابن إسحاق في السيرة ، قال ابن إسحاق : فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبي جعفر محمد بن علي قال :

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، ومعه قبائل من العرب ، سليم بن منصور ، ومدلج بن مرة فوطئوا بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكثفوا ، ثم عرضوا على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » (٢) .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال : « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ ، فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي معلقة الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي - رضوان الله عليه - حين فرغ منهم ، هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أعطيك هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ بما لا يعلم ، ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال : أصبت وأحسن ، قال : ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكيه يقول : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨ - ٤٣٠ .

(١) البخاري ٥/٢٠٣ .

٣- وعند ابن سعد (أنهم لما وضعوا السلاح قال لهم : استأسروا فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكثف بعضاً ، وفرّقهم بين أصحابه ، فلما كان السحر نادى خالد : من كان معه أسير فليدأقه ، والمدافّة : الإجهاز عليه بالسيف ، فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم) (١) .

٤- وعن أبي سعيد قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسهّ خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

* * *

١- رسول الله ﷺ وقد رأى قائده الحبيب خالد بعد النصر المظفر في مؤتة ، وبعد النصر المؤزر في فتح مكة يريد له أن يتحرك داعياً لا قائداً مقاتلاً ، فكفاءته في القيادة أصبحت حديث القاصي والداني ، ولقب سيف الله رفعه إلى الأوج أما خالد الداعية فلم يجرب حظه بعد، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة من الأحابيش حول مكة ، ولا بد أن يُغزوا بدعوة الإسلام .

قال ابن إسحاق : وقد بعث رسول الله ﷺ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ، لم يبعثه مقاتلاً (٣) .

وطبيعة خالد طبيعة محاربة ، فلذلك عندما دعا بنو جذيمة للإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا كما في رواية البخاري ، وجعلوا يقولون : صباناً صباناً ، وهذه الكلمة عند قريش تعنى الردة عن الدين .

ولا يبعد أن يكون عند خالد ﷺ غموض في مسؤوليته المهمة ؛ لأنه عندما دافع عن نفسه ، قال : (جاءني رسول الله ﷺ أن أغير عليهم) ، فهو سيف الله ومهمة سيف الله أن يجاهد المشركين ويقاثلهم .

ولذلك عند أدنى شبهة عرضت له أمرهم بوضع السلاح فوضعوه ثم أخذهم أسرى يأسر بعضهم بعضاً ، لا يزال مفهوم الجهاد عند خالد ﷺ هو قتل الكفار ، ويريد أن يكفر عن مواقف عمره السابقة بمواقف جديدة وملاحم يسطرها في الجهاد في سبيل الله ،

(٢) مسلم ١٩٦٧/٤ ح (٢٢٢) / ٢٥٤١ .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٤٨/٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٨/٣ .

وتتوق نفسه لأن يجندل الكفار كما كان يجندل المسلمين ، ولم يلق ﷺ من التربية خلال هذه الأشهر التي أسلم فيها ما يجعل معنى أن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ، وعندما قاتله أهل مكة وقاتلهم عذره رسول الله ﷺ ، فقبل عذره . وسمعة خالد العسكرية يحرص أن يحافظ عليها ، هذه السمعة التي غزت بنى جذيمة قبل وصول خالد لهم .

فعند ابن هشام فى السيرة : فحدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم من بنى جذيمة قال :

لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل منا يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ، إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسهار وما بعد الإسهار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً ، قال : فأخذه رجال من قومه ، فقالوا : يا جحدم ، تريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضع الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزلوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد .

والروايات التى هى أدنى صحة مما ذكرنا ، أو هى ضعيفة ، وهى عند الواقدى لا تدع شيئاً من الشبهات فى هذا المجال (فأنتهى إليهم بأسفل مكة ، فقبل لبنى جذيمة : هذا خالد بن الوليد معه المسلمون ، قالوا : ونحن قوم مسلمون ، وقد صلبنا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد وأذننا فيها ، فأنتهى إليهم خالد فقال : الإسلام ، قالوا : نحن مسلمون ؟ قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين القوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا منهم ، فأخذنا السلاح لأن ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام ، قال : فضعوا السلاح ، فوضع القوم السلاح) (١) .

ولعلها ليست السمعة العسكرية فقط التى دعت جحدم ، بل مقتل عمه الفاكه بن المغيرة ، وعوف بن أبى عوف غدرًا من بنى جذيمة ، وطبيعة العرب أن تقوم الثارات بينهم لمثل هذه الدماء .

(قالوا : إنا مسلمون ، والناس قد أسلموا ، وفتح محمد مكة ، فما نخاف من خالد ؟ فقالوا : أما والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة) .
ويبدأ الشك يتسرب للنفوس عندما أمر خالد بأسر القوم .

وأثار أسرهم لغطاً فى الجيش كله .

(١) المغازى للواقدى ٨٧٦/٣ .

(فلما كتبوا دفع إلى كل مسلم الرجل والرجلين ، وياتوا فى وثاق ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلمون المسلمين فيصلون ثم يربطون ، فلما كان فى السحر والمسلمون قد اختلفوا بينهم ، فقاتل يقول : ما نريد بأسرهم نذهب بهم إلى النبی ﷺ ، وقاتل يقول : ننظر هل يسمعون أو يطيعون ونبلوهم فتخيرهم ، والناس على هذين القولين) .

ومع ذلك فالأسر قد يوجد بعض العذر فيه من خلال وجهتى النظر المعروضتين .

(فلما كان فى السحر ، نادى خالد بن الوليد : من كان معه أسير فليذاقه . والمذاقة : الإجهاز عليه بالسيف) .

وكيف صدر هذا الأمر من خالد ؓ ، وكيف كانت الصورة فى ذهنه عنهم ، لا تسعفنا الروايات إلا بما رواه ابن إسحاق قائلًا :

(وقد قال بعض من يعذر خالدًا إنه قال : ما قاتلت حتى أمرنى عبد الله بن حذافة السهمى وقال : إن رسول الله ﷺ أمرك أن تقتلهم لا تمتنعهم عن الإسلام) (١) .

وإذا أخذنا برواية الحديث الصحيح فى البخارى والذى يرويه لنا عبد الله بن عمر ؓ وهو الذى كان من أشد المعارضين للقتل ، نجده يسوق الحجة أو الشبهة بالأحرى لخالد والتى دفعته لقتلهم ، وهى أنهم : (لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبانًا . صبانًا) .

أما رواية الواقدي عن عبد الملك بن عبد الرحمن بن الحارث فقال :

(أمر رسول الله خالد بن الوليد بغير على بنى كنانة ، إلا أن يسمع أذانًا أو يعلم إسلامًا ، فخرج حتى انتهى إلى بنى جذيمة فامتنعوا أشد الامتناع ، وقاتلوا وتلبسوا السلاح ، فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء لا يسمع أذانًا ، ثم حمل عليهم فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، فادَّعوا بعد الإسلام ، قال عبد الملك : وما عتب رسول الله ﷺ فى ذلك على خالد ، ولقد كان المقدم حتى مات ولقد خرج معه بعد ذلك إلى حين على مقدمته) (٢) .

وأجود عرض لهذه الحادثة وتحليلها نجده فى كتاب خالد بن الوليد لمحمد الصادق عرجون رحمه الله ، نعرضه هنا لنفاسته ، إذ يقول تعقيبًا على رواية البخارى :

(هذه هى الرواية التى نعتد عليها فى فهم هذه القصة لأنها :

أولاً : وردت فى كتاب أجمعت الأمة على اعتماده فى أخذ دينها وفروع شريعتها لما

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٣٠ .

(٢) المغازى للواقدي ٢/ ٨٨٣ .

تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة فى فحص أحوال الرواة، واختيار أفضلهم حفظاً وجودة أداء ، وحسن تلق ، وبعداً عن مزالق العصبية المذهبية أو الطائفية ، وأبلغهم فى تحرى الصدق والخشية لله تعالى .

ثانياً : رواية مستقيمة النسخ لا اضطراب فيها ، لم تدخل حادثة بحادثة ، ولا مزجت حديثاً بحديث ، فهى تحكى الواقعة منذ أن بدأت إلى حين انتهائها فى أسلوب موجز محكم ، يؤدى لباب الغرض فى منأى عن الخيال .

ثالثاً : رواية شاهد معاين اشتهر بالدقة والتحرى ، وكان زعيم المنكرين على أمير السرية صنيعة واحتفظ بأسيره فلم يقتله ، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صنيعة ، فأحرى به أن يحدث النبى ﷺ بما رآه عيناه ، ووعته أذناه .

هذه الرواية الصحيحة تروى أن خالداً رضي الله عنه دعا بنى جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله ﷺ ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، وهذا صريح فى أن خالداً لم يبدأ القوم بقتال ، ولا أظهر لهم نية فى القتال ، بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبى ﷺ ، وصريح فى أنهم لم يحسنوا الإخبار عن إسلامهم أى دخولهم فى الإسلام وإيمانهم بالله ورسوله ، ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعقيدتهم ، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد ، أو ما يؤدى إلى فهم معناها ، وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم فى حقن دمائهم قولهم : صباناً .

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك كان من القوم تقية ، واستبعد ألا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذى ارتضاه الله للناس وهو كلمة التوحيد التى أمر النبى ﷺ أن يقاتل الناس حتى يقولوها ، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم بها ، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به ابن عمر ، وخالد أمير الناس ، ولم يرض عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة ووجد منهم إصراراً ، قال بدر الدين العيني فى شرح البخارى : (وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صبا . فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام حقيقة ، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام) .

ويرشح عذر خالد رضي الله عنه فى عدم اكتفائه بقولهم (صباناً) أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعبير والسب ، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له : صبات ، أنف من قبولها ، وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلماً يأبى أن يقول له عكرمة بن أبى جهل (قد صبوت يا خالد) فيقول : (لم أصب ولكنى أسلمت) ، وذلك عمر بن الخطاب فى

قصة إسلامه يصرخ به جميل بن معمر الجمحي في أندية قريش (ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ) وعمر خلفه يقول : (كذبت ، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله) وهذا ثمامة بن أثال الحنفي وقد أخذته خيل رسول الله ﷺ وهو يريد العمرة فأسلم وبشّره النبي ﷺ وأمره بالعمرة ، فقال له قاتل بمكة : (صبوت يا ثمامة ؟ قال : لا ، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ) .

أفلا يعذر خالد بن الوليد إذا لم يرض من القوم في التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم (صبأنا) ، وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا يقبلون على إسلامهم أن يقال فيه : (صبوا ؟) بلى ، إن له لعذراً واضحاً ، وقد عذره النبي ﷺ ودافع عنه بقوله : « لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين » .

وليست براءة النبي ﷺ مما صنع خالد إلا بياناً لوجه الخطأ في التأويل ، وعدم درء الحدود بالشبهات ، ولا شك أن قولهم : (صبأنا) إن لم يكن إسلاماً صريحاً فإنه شبهة قوية تدرك حد القتل حتى يتبين الأمر ، فالخطأ الذي كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التلبث ، ولذلك لم يعاتبه النبي ﷺ مواجهة ، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود ، بل أقره على مكانه وفضله .

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداءً بالنبي ﷺ ، وأقاموا له صوى الحق في هذه الحادثة ، قال الخطابي : (يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الإنفة ، ولم يتقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولاً ، وإنما نقم رسول الله ﷺ على خالد موضع العجلة وترك الثبوت) وقال الداودي : (لم ير ﷺ القود في ذلك لأنه متأول) وقال ابن تيمية : (فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فقالوا : صبأنا ، فلم يقبل ذلك منهم ، وقال : إن هذا ليس بإسلام فقتلهم ، ولم يكن خالد معانداً للنبي ﷺ بل كان مطيعاً له ، ولكن لم يكن من الفقه بالدين بمنزلة غيره ، فخفى عليه حكم هذه القضية ، إلى أن قال ابن تيمية : فإن خالدًا لم يتعمد خيانة النبي ﷺ ولا مخالفة أمره ، ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد في الذي قتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذي قال أنا مسلم) .

(والتأمل في هذه القصص يرى أن وقعة النبي ﷺ مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تمنى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يومئذ ، ولم يكن له ﷺ موقف مع خالد في مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون على السبعين ، وقتيل أسامة رجل واحد ، وقد يكون في قبول عبد الله بن عمر وأصحابه أن

يأخذوا أسرى من بنى جذيمة - كما صرحت به رواية البخارى وجه وجهه من العذر لخالد، وأن فضلهم عليه كان فى التلبث بأسراهم وأنه هو يُعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل، وبعيد جداً أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى فى أيديهم (١) .

وبعد أن تجلت لنا الصورة الصحيحة ، نقف وراء الحادثة مع جوانب التربية النبوية العظيمة فيها :

١ - نفسية خالد رضي الله عنه وهو يقود سرايا الإسلام لحرب الطواغيت والكفار . نفسية القائد الذى يريد نصر الإسلام ، وتثبيت أركانه أمام الطغاة وأتباعهم المتحدّين لهذا الدين . والقوة هى السبيل الوحيد لهزيمة هؤلاء الأعداء ، فهو يريد أن يتقرّب إلى الله تعالى بقتل الكفار .

٢ - ومن جهة أخرى : هو حديث عهد بالإسلام ، فلم يتجاوز بعد ثمانية أشهر تاريخ دخوله الإسلام ، يريد رضي الله عنه أن يكون جاهداً فى حرب الكفر كجهده فى حرب الإسلام ، وقد أفنى عمره الماضى كله فى محاربة الله ورسوله ، فهو يريد أن يضيف صفحات جديدة من نصر هذا الدين والتمكين له وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم من قريب أو صديق أو عدو ، فكل أولئك فى جنب الله سواء ، لقد أقدم بكل ما يملك من طاقة على حرب أعز صديقين عليه وأقرب مقربين إليه فى فتح مكة ، وهما عكرمة وصفوان ، وهما اللذان اصطفاهما من بين قريش كلها ليعرض عليهما رفقته فى الإسلام إلى المدينة لكنهما أبيا عليه ، ومع هذا لم يجد حرجاً ولا لحظة واحدة فى حربهم حتى عاتبه رسول الله ﷺ فى هذا القتال قائلاً :

« لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ؛ ووضعوا فىنا السلاح ، وقد كفت يدي ما استطعت ، فقال : « قضاء الله خير » (٢) .

وكان الأولى بخالد لو كان عنده شىء من الحرج من قتال أعز الناس عليه أن يعاتب بالتلكؤ فى حربهم لا بالإسراع فى حربهم من رسول الله ﷺ . إنه قد تطهر من أدران الجاهلية وأوزارها ، ويريد أن يكون أشد ما يكون فى الإسلام بعد ما كان أشد ما يكون فى الجاهلية ، كما وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف أعظم الرجال أمثاله :

(١) خالد بن الوليد ، لمحمد الصادق عرجون ص ٨٩ - ٩٤ مقتطفات . ط . ثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية

١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧ م .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١١/٨ .

« تجدون الناس معادن فخيرهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ،
وتجدون من خير الناس فى هذا الأمر أكرهم له قبل أن يقع فيه » (١) .

٣- وانطلاقاً من هاتين النقطتين نستطيع أن نفقه خالداً رضي الله عنه فى توجيهه عملية قتل
المتلكين عن الإسلام ، ومع هذا فلم يكتف فى اجتهاده الشخصى ، إنما وجد من خيار
الصحابة من يفتى بقتلهم أمام هذه المواقف وهو عبد الله بن حذافة السهمى ، ووجد فى
هذه الفتوى ما هو أقرب لنفسه والصق بهمته وقلبه فأصدر أمره بقتل الأسرى الموجودين
فى أيدي المسلمين من بنى جذيمة ، مخلصاً لله سبحانه نفسه من كل مراعاة أو مهادة
للذين تلكؤوا أو تحايّلوا فى اختيار الإسلام ليتطهر المجتمع من أولئك المذبذبين بين
الإسلام وعدمه ، والذين يريدون أن ينجوا من القتل بهذه الأساليب .

٤- لكن الجيل الأول والذى تربى فى مدرسة النبوة منذ عشرين عاماً أو تزيد ،
تختلف القضية عنده عما عند خالد رضي الله عنه ، هذا الجيل الذى عاش آلام الدعوة ، وذاق لذة
الصبر على لأوائها ، وضحى من أجل تبليغ هذا الدين ، وبقي ثلاثة عشر عاماً يجاهد
بلا سلاح ولا سيف جهاد الكلمة الخالصة ، هذا الجيل يدرك أن الهدف الرئيسى من هذا
الجهاد كله هو هذه القلوب وهدايتها ، وليس هذه الأرواح وإزهاقها . وعندما استجاب
لأمر قائده بأخذ الأسرى من بنى جذيمة ، وأطاعه فى ذلك طمعاً فى تدريب هذا الأسير
على الإسلام وتفقيهه إياه ، والتمكن من عرض الإسلام عليه بعد أن ألقى السلاح
واستسلم فى المعركة ، لا يمكن لهذا الجيل أن يقدم على قتل من يريه على الإسلام ويجد
عنده هذه الرغبة الصادقة فيه ، ولم يترددوا لحظة واحدة فى إطلاق سراح هؤلاء الأسرى
عوضاً عن قتلهم .

(وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسرارهم) .

٥- ولم تكن عندهم شبهة معصية لأمير فى إطلاق السرى دون قتلهم ، فالمبدأ العام
الذى رضعوه فى حياتهم كلها أن كلمة الإسلام تعصم الدم ، والقتل العمد جزاؤه جهنم
وإن كان عندهم شبهة فى الأسر فأتاعوا لكن ليس عندهم شبهة فى القتل ، ومعصية
القتل العمد أكبر بكثير من الخطأ فى الأسر .

وفى رواية لأبى بشير المازنى يقول : كان معى أسير منهم ، قال : فلما نادى خالد :
(من كان معه أسير فليذاقه) أخرجت سيفى لأضرب عنقه ، فقال لى الأسير : يا أخا
الأنصار ، إن هذا لا يفوتك ، انظر إلى قومك ! قال : فنظرت فإذا الأنصار طراً قد

(١) مسلم ٤/١٩٥٨ ح (٢٥٢٦/١٩٩) .

أرسلوا أسارهم، قال : قلت : انطلق حيث شئت ، فقال : بارك الله عليكم ، ولكن من كان أقرب رحمًا منكم قد قتلونا ، بنو سليم .

لقد فقه هذا الجيل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار دينه ، وعاش كل معانيه ومرامييه ، فلم يتردد في إطلاق سراح الأسرى وعدم تنفيذ الأوامر الصادرة له من القيادة حين رأى القوم مسلمين .

٦ - ولم يكتف هذا الجيل بإطلاق الأسرى ، إنما راح يراجع قائد السرية خالد بن الوليد سيف الله في خطأ الأمر الذي أصدره ، ويشدد عليه في النكير أمام أمر كهذا في قوم مسلمين ، مما جعل خالد يعتذر عن أمره أكثر مما جعله يهدد ويتوعد من خالف أمره ، ويتحدث عن دوافع هذا الأمر أمامهم ، وكاد الجؤ أن يفسد بين الأمير العظيم وجنوده من المهاجرين والأنصار .

٧ - واختلف الأمر تمامًا في بنى سليم ، فبنو سليم حديثو عهد بالإسلام ، قد انضموا إلى الجيش الإسلامى وهو فى طريقه إلى فتح مكة ، ويحملوا الخلفية التى يحملها خالد رضي الله عنه فى الحرص على الانتقام والثأر من أعداء الله ، كما اختلطت القضية عندهم فى توافق القتل مع الأخذ بثارات الجاهلية بينهم وبين بنى جذيمة ، فوافق الأمر هواهم ، ولم يترددوا لحظة واحدة فى تنفيذ أمر القتل .
(وكانت بنو جذيمة قد أصابوهم ببرزة وهم متورون يريدون القود منهم) (١) .

(ثم إن بنى الشريد (من بنى سليم) حرموا على أنفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم من بنى كنانة ، فأغار عمرو بن خالد بن صخر على بنى فراس فقتل منهم نفرًا منهم عاصم بن المعلى وفضلة والمُعارك وعمرو بن مالك وحصن وشريح وسبى سبيًا فيهم ابنة مكدّم) (٢) .

هذا وإن كان الثأر بين بنى سليم وبنى فراس من كنانة فى شريعة الجاهلية قد غدا كل بنى كنانة عرضة للثأر ، وبنو جذيمة من كنانة ، وقد حانت فرصة فى هذه المعركة ليأخذوهم أسرى ، ولكنهم ملتزمون بالإسلام ، فلم يفعلوا شيئًا حتى جاءهم أمر خالد رضي الله عنه سيف الله بقتلهم فقتلوهم ، ولم يقدموا على هذا الأمر بثارات الجاهلية حين أخذوهم أسرى فلم يمسوهم بسوء ، حتى جاء أمر خالد .

وهذه صورة من صور توافق الهوى مع الأمر الشرعى ، الذى قد يفسد أحيانًا فقه

(١) المغازى للواقدي ٢/ ٨٧٨ .

(٢) أيام العرب . يوم بُرزة ص ٣٢٠ لمحمد أحمد جاد المولى بك .

هذا الأمر ، بينما لم تقع هذه الصورة من الجيل الأول المجاهد .

٨- ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ من الشهود والثقات ، ولم تعد القضية عنده قضية رجل ولا قضية قائد ، إنما الأمر قضية منهج لهذا الدين قد ثُلِمَ ، ولا يمكن السكوت عليه حتى لا تشوّه صورة هذا المنهج عند أوليائه وعند أعدائه ، هذا المنهج الذى يعطى الأمان لمن أسلم ويجعل له من الحقوق ما لغيره ولو كان أقدم منه عشرين عاماً فى هذا الدين ، هذا المنهج الذى يشعر أعداء الله فيه أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم بلا ثارات قديمة ، ولا نزعات جاهلية ، ولا حسابات عصبية ، فقد أعلن رسول الله ﷺ أن أمر الجاهلية تحت قدميه ، وأعلن أن كل مأثرة أو دم تحت قدميه إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، فكيف إذا برز من خلال التطبيق العملى أن سرية لمحمد ﷺ قتلت الناس بعد أن أمتهم ، وبعد إسلامهم ، إن هذا الخطر أكبر بكثير من مراعاة خاطر فرد ، أو مجاملة قائد ، أو مسايرة زعيم حرصاً على عدم غضبه ، فلذلك قام عليه الصلاة والسلام أمام المسلمين جميعاً ، ليبلغ الشاهد منهم الغائب ، وفيهم بعض الزعماء الذين ما زالوا على الكفر ، قام ليعلن للدنيا كلها براءته من هذا الصنيع الذى أقدم عليه أكبر قواده : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » كررها مرتين أو ثلاثاً شاهراً يديه حتى يظهر بياض إبطيه . لتعلم الدنيا أن هذا الصنيع لا يقره الإسلام ، ولا يتحمل وزره ولو كان صادراً عن سيف الله خالد بن الوليد ، ولو أن هذا الأمر قد يعتبره القائد تشهيراً فيه ، وإعلاناً لخطئه على الملأ وأمام الناس جميعاً ، فلا ضير ؛ لأن سلامة المنهج فوق سلامة الأشخاص ، والحرص على تطبيق المبادئ فوق الحرص على مراعاة خواطر الأشخاص ، فهذا الأمر دين والدين لله ، ليس لأحد مهما عظم وصاية عليه ، أو مراعاة له على حساب هذا الدين ، فكانت هذه البراءة الخالدة إعلاناً للدنيا كلها ، براءة من صنيع خالد ، وليست براءة من خالد .

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » قالها ثلاثاً .

٩- ومن المهم جداً أن نقف أمام عظمة التعبير النبوى ، فليست البراءة من خالد بن الوليد ، وإعلان سقوطه فى المجتمع ، وتحويله إلى مجرم حرب . إن البراءة من خطأ صدر من خالد بن الوليد من صنيعه وأمره بقتل الأسرى الذين ترجح إسلامهم بعد الأسر على الأقل ، هى براءة من العمل ، وليست براءة من البطل ، البطل يخطئ ، ويحاسب على الخطأ ، وقد يعلن خطؤه إذا اقتضى الأمر على الأمة كلها حين يمكن أن يمس المنهج لو لم تعلن هذه البراءة ، أما البطل ، أما النياشين والألقاب التى أخذها فلا تزال له ، ولا يزال سيف الله خالد بن الوليد ، ولا يزال : « نعم أخو القبيلة والعشيرة هو » ولا

يزال : « قد كتب الله النصر على يديه فى مؤتة » وهذا كله لا يتعارض مع البراءة من صنيعة فى بنى جذيمة ، وإعلان البراءة من هذا الصنيع على الأمة بحيث يصل حتى إلى أعدائها والتربيين بها ، بل إن وصول هذه البراءة إليهم هى هدف بحد ذاته ، كى يطمئن العدو أن لا عذر فى الإسلام ، ويطمئن العدو ، أنهم إذا قالوا لا إله إلا الله عصموا دماءهم وأموالهم بها ، وأنه إن وقعت حادثة تخالف هذا المنهج ، فقد أعلن رسول رب العالمين براءته من هذا الخطأ ، واستمرار المنهج وديمومته وخلوده .

١٠ - وفى خطوة عملية جادة لمحو آثار هذا الخطأ كان إرسال على رضي الله عنه فى مهمة شخصية من رسول رب العالمين ، ليتفادى نتائج هذا الخطأ ويبدى القتل ، ويرمم هذا التزيف القائم ، وما أروع هذه الرؤيا وتفسيرها حول هذا الحادث الجلل .

(قال ابن هشام ... قال رسول الله ﷺ : « رأيت كأنى لقيت لقمة من حيس فالتذت بها ، فاعترض فى حلقى شيء منها حين ابتلعته فأدخل على يده فنزعه » ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ، هذه سرية من سرايك تبعها فيأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون فى بعضها اعتراض فتبث علياً فيسهله (١) .

وكان تصديق الرؤيا فى التو ، فجاءه عليه الصلاة والسلام ما اعترض فى حلقه ، وكان غصة له فى الخلل فى هذا التطبيق القائم لشريعة الله ، فابتثت علياً لينزع هذا الخلل ، ويخرج هذا الشيء الذى ابتلع .

« يا على ، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى لهم مبلغه الكلب .

فلا بد من جبر هذه الخواطر الكسيرة ، وصحيح أن الدماء والأرواح لا تعود ، لكنه اعتراف لهم من رسول الله ﷺ بخطأ قائده ، والتعويض عن خسائرهم ، والديات لقتلاهم ، حتى ليدى لهم الإناء الذى يلغ به الكلب عندهم ، فليست القضية قضية سيطرة مخزوم ولا قريش ، وليست القضية قضية ذبح كل من يعارض والإجهاز عليه إن طالب بحقه ، وليست القضية قضية طغاة حكموا واستباحوا الدماء والأموال . إنهم احتكموا إلى شرع رب العالمين ، رب العالمين الذى لا يحابى أحداً من خلقه على أحد ، ويعلن الخطأ ، ويتحمل رسول رب العالمين نتائج هذا الخطأ ، ويرضى كل فرد فى بنى جذيمة ، حتى لو فقد الحجر الذى يلغ به الكلب فسوف يعطيه قيمته ، ويتحمل آثار هذا الخطأ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٩/٢ .

إنه دين يحكم ، دين الله وشرعية تسود ، شريعة الله ، لا يظلم فيها فرد ، ولا يهان فيها مخلوق ، ولا يهدر فيها دم ولا مال حتى ولو كان ميلغة الكلب .

وبيلغ تشبع على ﷺ بهذا الدين ومبادئه وأحكامه ، وسريانها في دماائه ما نراه من هذا التصرف الذى أقدم عليه باجتهاده الفردى :

(حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه ، بقيت بقية من المال ، فقال لهم على ﷺ حين فرغ منهم : هل بقى لكم مال لم يود إليكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيكم من هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون) . ففعل هذا ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال : أصبت وأحسن .

لم تشهد البشرية في تاريخها كله مثل هذا النهج ، ولا مثل هذه التربية ، فعلى ﷺ يدرك أن رسول الله ﷺ هو بحاجة إلى الدرهم الواحد ، فقد فتحت مكة ، ولم يصب أحد شيئاً من الغنائم ، واضطر عليه الصلاة والسلام لاستدانة المال من قيادات المشركين في قريش ، وكان الحرص على الميزانية يقتضى من على ﷺ أن يعود بهذا المال المتبقى لرسول الله ﷺ يسد بها حاجة الآلاف العشرة التى تدين له ، وليس عنده شيء يعطيها لهم ، كان الأولى بعلى ، وهو يعرف قيمة كل درهم ، ألا يفرط فيه ، فقد أدى الحقوق حتى ميلغة الكلب ، لكن حرص على ﷺ على نصاعة صورة العقيدة كان أكبر بكثير عنده من حرصه على سلامة الميزانية ، وحرص على ﷺ على جبران الخواطر الكسيرة المقهورة كان أكثر من حرصه على المحافظة على جبران الخزينة المقدمة على الإفلاس .

وأقر رسول الله ﷺ لآخيه فى الدنيا والآخرة ، لحبيبه على هذا الاجتهاد ، وقال له : « أصبت وأحسن » .

فقد يأتى مظلوم بعد مغادرة على فتبقى حرقه فى كبده أنه لم يود ولم يجبر ، فكان هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا يعلمون .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾ [الجاثية] .

١١ - ووصل خالد بن الوليد ﷺ إلى مكة وقد سبقته البراءة من صنيعه ، وقد تأثر أيما تأثر لهذه المخالفات والاعتراضات على أمره ، لكن البراءة النبوية تعنى أن اجتهاد إخوانه الكبار من المهاجرين والأنصار أصبح من اجتهاده ، وعند وصوله لم يسلم من النقد والتجريح فبعد إنكار عبد الله بن عمر ﷺ ، وسالم مولى أبى حذيفة فى ساحة المعركة ، يواجه بنقد عنيف لموقفه فى مكة المكرمة من عبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر .

أما عبد الرحمن بن عوف فيصل به الأمر إلى اتهامه بدوافعه إذ إنه ثار من بنى جذيمة

لقتلهم عمه الفاكه بن المغيرة ، فذكره خالد أن أبا عبد الرحمن بن عوف قد قتله كذلك بنو جذيمة ، فهم غادرون بقيادات قريش .

ويؤكد عبد الرحمن رضي الله عنه أنه قد ثار لقاتل أبيه وقتله منذ زمن ، لكن الآن واثارات الجاهلية قد أبطلت فكيف تؤخذ بالإسلام .

وكل ما تطالعنا به الرواية الصحيحة في مسلم (أنه كان بين عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد شيء فسهب خالد ...) .

ورسول الله ﷺ يشهد هذا الحوار أو يبلغه ، لكن عندما وصل إلى مرحلة أن يتجرأ خالد بن الوليد على سبّ عبد الرحمن بن عوف ، فهذا يعنى أنه لابد من معالجة هذه النفسية الجموحة ، بما يكبح جماحها بحيث تدرك حدودها ، وتعرف فضل الجيل الأول الذى تحدثت عنه التوراة والإنجيل ، فضل السابقين الأولين من المهاجرين ، ولابد أن تعود الذاكرة بخالد إلى أحد يوم قاد المذبحة للمسلمين حرباً على الله ورسوله ، بينما جرح عبد الرحمن بن عوف عشرين جرحاً ، من سيوف ورماح العدو ، وأبلى أعظم البلاء فى صد هجوم خالد بن الوليد ، فهل لخالد أن يتجاوز هذا الحد مع هذا الجيل ، ويستعلى بإمرته للجيش ، ويرى أنه أكبر من هؤلاء العظام ، لابد أن يتربى خالد ويتلقى الدرس القاسى الثانى من حبيبه المصطفى ﷺ قائلاً له : « يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فإنك لو أنفقت ملء أحد ذهباً ما بلغت مدّ أحدهم ولا نصيفه » ، واختار رسول الله ﷺ ذكر أحد بالذات حتى تتجسد لخالد الصورة تماماً يوم انقضى على المسلمين وأكبر هدفه قتل محمد وأصحابه ، ويوم كان عبد الرحمن بن عوف يقى رسول الله ﷺ بنفسه وجسده ويسقط بين رماح خالد وجيشه وسيوفهم فى عشرين جرحاً خطيراً تتابه من كل جانب .

لابد أن يدرك خالد بن الوليد ، ولو كان سيف الله الذى سلّه الله على المشركين ، ولو كان قاهر الروم ، ولو كان هادم العزى ، ولو كان فاتح مكة ، لو كان معه كل هذه الأمجاد ، فدرهم واحد من عبد الرحمن بن عوف فى العسرة وأيام الشدة ليعدل جبل الذهب الذى ينفقه خالد اليوم ، وليس هذا خاصاً بعبد الرحمن ، إنما بكل ذلك الجيل ، جيل بدر ، وجيل أحد ، وجيل الحديبية .

حتى عمار بن ياسر حليف قريش وليس أصيلاً فيها ، عندما هاجمه عمار لموقفه واستباً معاً تلقى الدرس الثالث من رسول الله ﷺ قائلاً له عن عمار :

« مه يا خالد ، لا تقع بأبى اليقظان ، فإنه من يعاده يعاده الله ، ومن يبغضه يبغضه

الله ، ومن يسفهه يسفهه الله « (١) .

فهذا الجليل قد خلّص من حظ نفسه منذ زمن بعيد ، وأصبح حزب الله حقاً بشهادة رب العالمين لا يغضب إلا لله ، ولا يرضى إلا لله ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) [المجادلة] ، وهؤلاء جيل بدر الذين نزل فيهم هذا النص بعد أن قتلوا آباءهم وأبنائهم وإخوانهم في سبيل الله وحده لا شريك له .

١٢ - وبالمستوى نفسه من التوازن ، وبهذا الانتصار النبوي لهذا الجليل لا يعنى إلغاء دور خالد ولا يعنى بهذه الفضيلة حق النيل منه ، فعندما بلغ رسول الله ﷺ أن هناك من يسب خالداً ، ولعله ثورة لرسول الله ﷺ يوم تبرأ من صنيع خالد ، أوقف رسول الله ﷺ هذا النيل وأعلمهم أن ما فاز به من شرف لم يحصلوا عليه منذ عشرين عاماً فقد فاز بلقب سيف الله ، ولا يزال بعد هذه الخطيئة هو هو نفسه سيف الله ، فأعلن للدنيا بعد أن أعلن براءته من صنيعه ، أعلن للدنيا أن خالداً لم يتزعزع من مواقفه ولا من مسؤولياته ولا من رتبة العسكرية قيد أنملة ، قال عليه الصلاة والسلام :

« لا تسبوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين » .

ولم تحمل الروايات الصحيحة أبداً أن رسول الله ﷺ عاتب خالداً على صنيعه ، فهو يعلم أنه أكبر من الشبهات في نيته ، وهو يعلم عليه الصلاة والسلام أنه إنما تحرك في كل ما تحرك به نصراً لله ولرسوله ، لا نصراً لنفسه ، ولا ثأراً لعمه ، ولا حباً في القتل ، ولكنه تأول فأخطأ ، فلا يجوز سبه ولا النيل منه .

أى تربية في الدنيا تعدل هذه التربية في وضع كل قواعد التعامل بين المتقدمين والمستجدين من جيل النبوة والفوارق الكبرى بين جيل بدر وجيل الفتح من دون أن ييخس لأحد حقه . (و) كلاً وعد الله الحسنى وللسابقين درجة) .

أما كان فيكم رجل رحيم

(قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس عن الزهري عن

(١) المغازي للواقدي ٣/ ٨٨١ ، ٨٨٢ .

ابن أبى حذرر الأسلمى قال : كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد فقال لى فتى من بنى جذيمة وهو فى سنى ، وقد جمعت يداه إلى عنقه فى رُمة^(١) ونسوة مجتمعات غير بعيد عنه : يا فتى ، فقلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت آخذ بهذه الرُمة فقايدى إلى هؤلاء النسوة حتى أقضى إليهن حاجة ثم تردنى بعد ، فتصنعوا لى ما بدا لكم ؟ قلت : والله ليسير^(٢) ما طلبت ، فاخذت برمته فقدته بها حتى وقف عليهن فقال : اسلمى حبش على نَفَد من العيش :

أرينك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلبة أو ألفيتكم بالخوانق^(٣)
 ألم يك أهلك أن ينول عاشق تكلف إدلاج^(٤) السرى والودائق^(٥)
 فلا ذنب لى قد قلت إذ أهلكنا معاً أثيبى بود قبل إحدى الصفائق^(٦)
 أثيبى بود قبل أن تشحط النوى وينأى الأمير بالحبيب المفارق

قالت : وأنت فحييت سبعة وعشراً وترا ، وثمانية تترى ، قال : ثم انصرفْتُ به فضربت عنقه ، قال ابن إسحاق : فحدثنى أبو فراس بن أبى سنبلة الأسلمى عن أشياخ منهم عن كان حضرها منهم ، قالوا : فقامت إليه حين ضربت عنقه ، فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده^(٧) .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : إنى لست منهم إنى عشقت امرأة فلحقته فدعونى أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم ، فإذا امرأة أدماء طويلة ، فقال لها : اسلمى حبش قبل نفاذ العيش ، وذكر البيتين الأولين بمعناهما ثم قالت : نعم فديتك ، قال : فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال رسول الله ﷺ : « أما كان فيكم رجل رحيم »^(٨) .

* * *

هؤلاء الضاربون فى البادية دينهم هواهم ما لم يعصمهم الله تعالى بالإسلام ، وهذا نموذج وقف حياته على محبته فى قبيلة اشتهرت بالحب العذرى فيها وهى بنو جذيمة فمنهم الشاعر العذرى المشهور قيس بن الملوح الذى ملأ الدنيا بأشعاره وغزله ، وهذا أحد

(١) الرُمة : الحبل البالى .

(٢) يسير : سهل .

(٣) حلبة والخوانق : موضعان .

(٤) الإدلاج : السير بالليل .

(٥) الودائق : شدة الحر فى الظهيرة .

(٦) الصفائق : المصائب الكبيرة .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٣٣ ، ٤٣٤ .

(٨) دلائل النبوة لليهقى ١١٨/٥ .

هذه النماذج الذى لم يكن له هم من الدنيا قبل أن تُضرب عنقه إلا أن يلقى محبوبته فيلقى عليها النظرة الأخيرة والوداع الأخير ، ثم يقدم فيرفض الإسلام وتضرب عنقه ، ثم تقدم محبوبته ، فتقبله حتى تموت بجواره من لظى الحب وسعيه الذى قضى عليها ، وما كنا لنقف عند هذه الحادثة إلا لأن المسلمين وقفوا عندها ، ونقلوها لرسول الله ﷺ فيما تحمل من عنف العاطفة بين العشاق والمحبين ، ولم يستنكر رسول الله ﷺ هذا اللون من العاطفة الحادة ولم يستغربه ، بل استنكر هذه المواقف العنيفة من هذين المحبين ، وعدم مراعاة هذه العواطف والتعامل مع هذا الواقع ، والمضى فى تنفيذ القتل أمام إنسان لا يعنيه الكفر والإسلام بشيء فقيم يُقتل وتُقتل معه محبوبته ، لقد كان فى تربية هذا الرجل وتذكيره بالإسلام ما يهيئه ليدخل فى دين الله ويرعى حق الله فى نفسه ومعشوقته . إن عدم مراعاة هذه الأوضاع هو الذى حدا ببنى جذيمة أن يواجهوا الجيش ، ولقد وجدنا حرصهم على نسايتهم بارزاً فى الدفاع والدود عنهن حتى يغادرن ساحة المعركة (١) .

إن هذا المعنى الخالد الذى دعا له رسول الله ﷺ فى مراعاة العواطف الإنسانية الحادة بين الرجل والمرأة ومعالجتها بحكمة ويسر (٢) . يجب أن يبقى راسخاً فى ذهننا ونحن نعالج الفتيان والفتيات الذين يعيشون خلال فترة مراهقتهم هذه العواطف العنيفة

(١) من ذلك ما رواه ابن إسحاق قال : وقال غلام من بنى جذيمة وهو يسوق بأمه واختين له وهو هارب بهن من جيش خالد :

رَخَيْنِ أَذْيَالِ المَرْوُطِ وَارْتَعَنَ
مَشَى صَبِيَّاتِ كَانَ لَمْ يَفْزَعَنَّ
إِنْ تُنَمَّعَ اليَوْمَ نِسَاءً تُنَمَّعَنَّ

وقال غلمة من بنى جذيمة يقال لهم بنو مساحق يرتجزون حين سمعوا بخالد فقال أحدهم :

قَدْ عَلِمْتَ صَفْرَاءَ بِيضَاءِ الإِطْلِ
يَحْوِزُهَا ذُو ثَلَّةٍ وَذُو إِسْلِ
لَاغْنَيْنِ اليَوْمَ مَا أَغْنَى رَجُلٌ

(٢) أصح الروايات فى هذه الحادثة هى ما رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير والنسائى عن عبد الله بن عباس (أن النبى ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال لهم : إني لست منهم عشقت امرأة فلحقها فدعوني أنظر إليها ثم اصنعوا بى ما بدا لكم فإذا امرأة طويلة أدماء فقال لها : اسلمى حييش قبل نفاذ العيش (ثم ذكر البيتين) . قالت : نعم فديتك ، قال : فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال : « أما كان فيكم رجل رحيم » مجمع الزوائد ٦/ ٢١٠ ، وقال فيه : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وإسناده حسن .

كما ساق الهيثمى رواية أخرى عن عصام المزنى وكانت له صحة فقال :

كان النبى ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية يقول لهم : « إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم أذاناً فلا تقتلوا أحداً » ، فبعثنا النبى ﷺ فى سرية وأمرنا بذلك ، فخرجنا نسير بأرض تهامة ، فأدركنا رجلاً يسوق طعائن فعرضنا عليه الإسلام ، فقلنا : أسلم أنت ؟ قال : وما الإسلام ؟ فأخبرناه ، فإذا هو لا يعرفه ، قال : إن لم أفعل فما أنتم صانعون ؟ قلنا : تقتلك . قال : هل أنتم منظرى حتى أدرك الطعائن . فقلنا : نعم ، ونحن مدركوه ، فخرج فإذا امرأة فى هودجها فقال : اسلمى حييش قبل انقطاع العيش ، فقالت : أسلم عشرين وتسعاً ترى ثم قال :

الحادة ، والتي تسيطر على التكوين الإنسانى فتعطله عن وظيفته ، وقد نفقد المراهقين من شبابنا وفتياتنا حين لا نحسن التعامل مع هذه الظاهرة .

= أتذكر إذ طالبتكم فوجدتكم بحلبة أو أدركتكم بالخوانق
فلم يكُ حقًا أن ينوّل عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لى إذ قلت أهلنا معًا أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن يشحط النوى وينأى الأمير بالحبيب المفارق

ثم أتنا فقال : شأنكم ، قدمناه فضرينا عنقه ، ونزلت الأخرى من هودجها فبجت عليه حتى ماتت .
قلت : روى أبو داود طرقًا من أوله - رواه الطبرانى والبرار وإسنادهما حسن ٢١١/٦ .

وفى تخريج حمدى السلفى للمعجم الكبير للطبرانى يقول فى الحديث : ورواه البيهقى فى دلائل النبوة من طريق النسائى أيضًا .

قلت : فى إسناده على بن الحسين بن واقد : وثقه النسائى وغيره ، وضعفه أبو حاتم ٢٩٢/١١ ، ٢٩٣ .

رابعاً : أحكام إسلامية وتربية عملية

لقد كان هم رسول الله ﷺ أن يرى هذه الأمة فى هذا الجمع الضخم الذى لم يلتق قبل اليوم . فكانت الخطبة فى اليوم الأول من الفتح ، ثم الخطبة فى اليوم الثانى ، وكان من أهم الأحكام التى أعلنها رسول الله ﷺ فى نصف الشهر هذا ما ذكره ابن أبى ذئب عن الزهرى قال :

(نهى رسول الله ﷺ يوم الفتح عن ثمن الخمر ، و ثمن الخنزير ، و ثمن الميتة ، و ثمن الأصنام ، و حلوان الكاهن) (١) وهذه المنهيات الخمس تكاد تكون فى المجتمع الجاهلى من أرباح التجارات وأكثرها رواجاً آنذاك فى مجتمع يقوم فى علمه على الكهانة ، وفى دينه على عبادة الأصنام ، وفى لذاته على الخمر ، وأراد الإسلام أن يجتث هذه المفسدات من جذورها ، ليصبح المجتمع نظيفاً مجتنباً لكل ما يمت لهذه الفواحش بصلة .

وعن الربيع بن سبرة عن أبيه قال : حرم رسول الله ﷺ متعة النساء يومئذ (٢) ، كان هذا فى الأمر النظرى ، وفى التطبيق العملى .

عن ابن عباس قال : أهدى صديق لرسول الله ﷺ من ثقيف راوية خمر ، فقال رسول الله ﷺ : « أما علمت أن الله تعالى حرمها » فسار الرجل غلامه : اذهب بها إلى الحزورة فبيعها ، فقال رسول الله ﷺ : « بم أمرته ؟ » قال : ببيعها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الذى حرم شربها ، حرم بيعها » ، فبلغنى أنها فرغت فى البطحاء (٣) .

وأحياناً يكون التحريم جواباً على أسئلة الأمة التى تريد أن تعرف كل شئ من أحكام دينها ، وقد لا تبلغ هذه الأحكام كل فرد من الأمة ، فيأتى السؤال ليؤكد ويقرر الحكم .

فعن جابر بن عبد الله قال : قيل لرسول الله ﷺ يوم الفتح : ما ترى فى شحوم الميتة يدهن بالسقاء ؟ فقال : « قاتل الله اليهود ، حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها » (٤) .

وجاء الجواب بصيغة غير مباشرة حتى ينفر السائل ومن وراءه من التحايل على النصوص كما فعل بنو إسرائيل ، وعن ابن المسيب قال : سئل رسول الله ﷺ يومئذ عن ثمن الخمر ؟ فقال : « قاتل الله اليهود ، حرم عليهم الشحم فباعوه وأكلوا ثمنه » (٥) .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٥ .

(٤ ، ٥) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٥ .

(١) مغازى الواقدي ٢/ ٨٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٦٤ .

ويبوح رسول الله ﷺ بحبه المتيم لمكة ، وفى الوقت الذى يعلن فيه قدسية مكة منذ الازل، وحب الله تعالى لها فيقول فيما رواه أبو عمرو بن عدى بن الحمراء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح وهو بالخزوة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىّ ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » (١) .

التعايش بين المسلمين :

ولعل أخطر قضية تمت خلال هذه الفترة هى التعايش بين المسلمين من قریش والذين دخلوا الإسلام من جديد وبين الانصار من أهل المدينة ، وبينهم ثارات يمكن أن تنفى كلا الفريقين لو تركت للعرب ليأخذوا فيها ، لقد عاش العرب عشرات القرون لا دين لهم إلا أن يقتل بعضهم بعضا ، وأفتتهم الثارات فيما بينهم فأصبحوا أسوأ ذات بين ، بين الأمم كلها ، فكانت هذه المرحلة ويأشرف النبى ﷺ يتعايش فيها المهاجرون مع مسلمة الفتح ، ينظر الرجل إلى قاتل أبيه وقاتل أخيه وقاتل ابنه فيسلم عليه ويتعامل معه ويتحدث معه ، وكان هذا الاختلاط تحت راية الإسلام أعظم ما شهدته البشرية من تربية وكان نقلة هائلة للعرب من الجاهلية إلى الإسلام ، لقد أشرف عليه الصلاة والسلام على نقل الأوس والخزرج الذين أفتتهم الحرب وخاصة فى بعثت إلى مجتمع خاضع لنظام ودولة وحكم وسلطة ، وانتهى سلطان القبيلة لسلطان الله وشرعه وحكمه ، واستغرق سنين حتى آتت هذه التربية أكلها ، أما هذه التجربة ، فهى تجربة سريعة أرادها الله تعالى كى تمسح كل آثار الجاهلية الماضية ويُغفى عليها ، ولم تشهد هذه الفترة ولا مخالفة واحدة من الثار والانتقام بعد حادثة قتل خزاعة لرجل بثارات الجاهلية وفى شبهة أحواله إلى قتل عمد، إن الحديث النظرى سهل عن هذا الأمر ، ولا يمكن أن يوفيه حقه إلا تلك المعاناة التى تجعل ضبط الأعصاب أشد هولا من القتل نفسه عند الموتورين والمفجوعين ، ولا نعرف قدره إلا عندما ندرك مدى تحكم هزلية العادة فى النفس البشرية الجاهلية ، ولا يكفى أن يتم التعايش بين هذين العدوين اللدودين اللذين استمر العداء والدم والثارات بينهم عشرين عاماً ، بل لابد من تطور عواطف البغض والحقد إلى عواطف التألف ثم المحبة والمودة ، وضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة يوم اعتبر كل تلك المرحلة بما فيها من حروب وضغائن ودماء وثارات ، مرحلة بين أخ كريم وابن أخ كريم ، وبين عائلة واحدة كما جرى بين يوسف وإخوته ﴿ لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف] ، فتعايش على وبنو أمية ، وتعايش الانصار ومسلمة الفتح حيث كانوا يصلون معاً ، ويستمعون معاً لرسول الله ﷺ ، وأدرك الناس أن عهداً جديداً للبشرية جاء ، أنهى عهد

(١) مغازى الواقدي ٢ / ٨٦٥ .

الظلمات السابقة كلها ، وبزغ النور الذى أضاء هذه البشرية تحت راية قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران] ، وتحت راية قوله تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال] ، وتحت راية قوله ﷺ : « إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم وادم من تراب ، ليس لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » (١) .

(١) من خطبته ﷺ يوم الفتح .

خامساً : محطات الإقلاع الثلاث

ونحن نودع فتح مكة يحسن بنا أن نتحدث عن محطات الإقلاع الثلاث التى تمت فى عهد رسول الله ﷺ وكانت كلها فى شهر رمضان أو فى نصفه الثانى بتعبير أدق .

المحطة الأولى :

نزول الوحي على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، وفى شهر رمضان والذى كان فاصلاً بين عهدين ، بين عهد كان فيه محمد بن عبد الله قد اعتزل البشرية فى تلة هذا الجبل يتحنن ويعد ربه الليالى ذوات العدد ، إلى عهد يغدو فيها أميناً على البشرية ، ورسولاً إلى البشرية كافة ، عليه أن يغادر دثاره ويتحرك للإنذار ابتداءً من عشيرته الأقربين وانتهاءً بالعالمين .

لقد كانت هذه محطة الإقلاع الاولى ، والتى كان من ثمرتها جهد ثلاثة عشر عاماً فى مكة وعامين فى المدينة حيث تكون أعظم أجيال البشرية جيل بدر ، وتكون جيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

المحطة الثانية :

محطة إقلاع جديدة كانت من بدر وفى السابع عشر من رمضان حيث كان من الممكن لو لم يكن نصر بدر أن تكون نهاية البشرية البائسة منذ ذلك اليوم .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة فإن شئت لا تعبد فى الأرض » .

ليجعل الله تعالى هذا النصر فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية ، ويقتل فيها أربعة وعشرون صنديداً من طواغيت مكة ، فكانت (فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية ، عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانى ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدولة ، بوصفه إعلاناً لتحرير الإنسان فى الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته . الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ؛ لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الامر ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة

مجردة فى نفوس أصحابه ، تتمثل فى شعائر تعبدية لله وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد والمنهج الجديد والدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى واقع الحياة ، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين أولاً ، ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً . . . وهى لهذا التطبيق الواقعى جاءت من عند الله (١) .

ومن بدر أقلع المسلمون فى أرض العرب ينشرون هذا الدين . وفى أقل من نصف المدة السابقة ، كان عشرة آلاف مقاتل يقرعون أبواب مكة ليفتحوها للإسلام وبالإسلام ، وهم خلاصة البشرية وصفوتها آنذاك .

المحطة الثالثة :

وكانت محطة الإقلاع الثالثة هى فتح مكة، التى تحدث عنها رب العزة - جل جلاله - وذكر أنها هى التى فتحت الباب على مصراعيه للناس - كل الناس - كى يدخلوا فى دين الله عز وجل ، وكان هذا فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر] .

هذا الفتح هو الذى كان المقدمة الطبيعية ليلتقى بعد سنتين وعلى ثرى مكة نفسها عشرة أضعاف جيل الفتح ، أو اثنا عشر ضعفاً فى الروايات الأخرى ، يلتقى فى عرفات مائة ألف ، أو مائة ألف وثلاثون صحابى يدينون لله تعالى بالوحدانية وللنبي ﷺ بالرسالة .

من الفرد الواحد الذى يتلقى من جبريل عليه الصلاة والسلام فى حراء قوله عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] .

إلى الفرد الواحد على ثرى عرفات بعد بضعة عشر كيلو متراً من حراء يقف هذا الفرد الواحد نفسه وتحت رايته مائة ألف وثلاثون يستمعون لقول الله عز وجل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

إن محطات الإقلاع الثلاث هذه قد تمت كلها فى رمضان وليس بعيداً أن تكون قد

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٠/ ١٥٢٢ .

تمت كلها فى السابع عشر من رمضان .

فبدر بلا خلاف فى السابع عشر من رمضان ولا عبرة بمن شذ عن ذلك .

وانزال القرآن على النبى ﷺ فى رمضان : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقد يكون فى السابع عشر منه كما روى ابن كثير (وقيل أنها) أى ليلة القدر (تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود ، وروى موقوفاً عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبى العاص وهو قوله عن محمد بن إدريس الشافعى ويحكى عن الحسن البصرى ، ووجهوه بأنها ليلة بدر وكانت ليلة جمعة هى السابعة عشرة من رمضان وفى صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾) (١) .

وأن يكون فتح مكة لثلاث عشر بقين من رمضان كما فى رواية .

وهكذا نعيش محطات الإقلاع الثلاث هذه ، والتى تتجدد ذكرها كل عام وفى هذا الموعد لتكون نبراساً للدعاة الحداة اليوم ، أن يحيوا محطات الإقلاع فى حياتهم لتغير دافعهم إلى التمكين والنصر والسيادة ، وما ذلك على الله بعزيز .

أما محطة الإقلاع الأولى : البعثة ، فقد كانت الأمم تنتظر هذه الانطلاقة الكبرى فى التاريخ التى تغير وجه العالم .

(فعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال : « أجل » ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأمينين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، يفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .

قال عطاء ، ثم لقيت كعب الاحبار رضى الله عنه فسأله فما أخطأ فى حرف (٢) .

وفى الإنجيل :

(جاء الله من طور سيناء وظهر بساعير ، وأعلن بفاران - وظهور نبوة محمد ﷺ كانت فى فاران وهى مكة ، وأنزل عليه القرآن بها - وفى التوراة أن إسماعيل أقام بقرية

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٥ .

وأما محطة الإقلاع الثانية : والتي حضر فيها جبريل المعركة مع رسول الله ﷺ ،
وانداح الإسلام في الأرض بعدها ، يحدثنا القرآن عنها بقوله :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ
وَأَيْدِيكُمْ يَبْصُرُهُ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال] .

ونبحث عن معالم هذه الانطلاقة الثانية في البشارات الأولى للأنبياء ، فنجدها عند
النعمان السبئي رحمه الله إذ يقول : (لما سمعت بذكر النبي ﷺ قدمت عليه وسألته عن أشياء ،
ثم قلت له : إن أبى كان يختم على سفر ، ويقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنى قد
خرج بيثرب ، فإذا سمعت به فافتحه ، قال النعمان : فلما سمعت بك فتحت السفر فإذا فيه
صفتك كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما تحمل وما تحرم ، وإذا فيه أنت خير الأنبياء ،
وأمتك خير الأمم ، واسمك أحمد ﷺ ، وأمتك الحمادون ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم في
صدورهم ، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم ، يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على
فراخه) (٢) .

وهذه الانطلاقة الثالثة في فتح مكة ، بهذه الآلاف المؤلفة يحدثنا الله تعالى عنها في
كتابه العزيز في سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحِلِّينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا ﴾ (٢٨) [الفتح] .

وأظهره على الدين كله ، ودكَّت الوثنية تحت سنانك خيل جيش النبوة .

كما تحدثنا التوراة عن هذا النبأ السعيد :

جاء في الترجمة العربية المطبوعة في لندن سنة ١٨٢٣ ، ١٨٤٤م هكذا :

(وجاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، ومعه
ألف الأطهار ، في يمينه سنة من نار) (٣) .

وستبقى ذكرى رمضان وفي النصف الثاني منه ذكر هذه المحطات الثلاث ، والتي مثلت
كل واحدة منها عهداً ، ومرحلة من مراحل انطلاق الإسلام وانسياحه في الأرض العربية .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٤٩ .

(١) السيرة الحلبية ١/٣٤٨ .

(٣) بشرية المسيح ونبوة محمد في نصوص كتب العهدين . لمحمد أحمد ملكاوي . هامش ص ٢٠٩ .

خطوط عريضة فى تربية القاعدة العريضة

فنحن هنا أمام عهد جديد لم يكن بإمكان إمام المربين عليه الصلاة والسلام أن يلتقى بكل صحبه كل يوم فى المسجد ، وهم موزعون فى أصقاع الحجاز وغيرها ، وهذا يعنى أن هذه الشجرة الباسقة قد امتدت فروعها بعد أن تجذرت فى الأرض ، وغطت مساحة واسعة منها ، فأصبحت كل قبيلة دخلت فى الإسلام بمثابة معهد جديد تابع للجامعة الكبرى فى المدينة المنورة ، وغدا أبناء القبائل من الرعيل الأول هم أساتذة هذه المعاهد والمربون فيها .

وسنعرض بصورة موجزة للخطوط العريضة للمنهج التربوى فى هذه المرحلة والذي امتد قرابة ثلاث سنوات من صلح الحديبية وفتح خيبر إلى فتح مكة المكرمة ، ومن الألف الواحدة والنصف إلى العشرة آلاف التى مضت مجاهدة لفتح مكة ، وفتحتها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

١ - التربية فى الصحراء ، من خلال البعوث والسرايا :

فالدورات التدريبية لا تنقطع للمسلمين الذين ينضمون للإسلام ، ويرافقهم دائماً عدد من الرعيل الأول ليشرف على تربيتهم ، وأحياناً يمضى معهم رسول الله ﷺ بنفسه . والملاحظ أن السرايا فى هذه المرحلة كانت قرابة عشرين سرية ، وهى فترة قصيرة نسبياً إلى غيرها ، وفترة هدنة مع قريش . لكن إقبال الناس على الإسلام ، كان لابد أن تخضعهم القيادة النبوية إلى دورات تدريبية سريعة ، يفقهون فيها الإسلام من الرعيل الذى سبقهم ، ويتدربون على الجهاد فى سبيل الله .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، فهو نفير علمى ، ونفير دعوى ، ونفير جهادى ، وخرج رسول الله ﷺ فى هذه الفترة فى أربع غزوات ، بعضها قريب ، وبعضها بعيد ، ليتمكن هذا الجيل بآلافه الجديدة أن يلتقى مع رسول الله ﷺ ويشهد عظمة نبوته ، وعظمة تربيته ، ومعجزاته صلوات الله عليه التى تزيد المؤمن يقيناً ، وإيماناً ، وكانت ذروة هذه الغزوات والسرايا : هى فتح مكة الأعظم الذى استغرقت دورته قرابة شهرين أو تزيد .

٢ - التربية الجماعية وصلاة الخوف :

وفى توحيد للمشاعر تجاه العدو ، وتربيته على تحمل المسؤولية ، كانت صلاة الخوف التى أداها رسول الله ﷺ فى ذات الرقاع ، ولتثبت فى حس المسلم أهمية الصلاة التى لا يمكن أن يدعها المسلم فى حضر ولا سفر حتى ولو كان فى مواجهة عدوه ، فلا بد من الصلاة ، ولا بد من اليقظة والحذر ، ونلاحظ أهمية التربية والمشفقة والمعاناة فى هذه الغزوة من خلال حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه إذ يقول :

(خرجنا مع النبى ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدمائى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا) (١) ، ولقد كرر رسول الله ﷺ صلاة الخوف وفى كفيات مختلفة ، نقلها الصحابة ، فى كل مرة صلواها معه عليه الصلاة والسلام ، ليتجنز حب الصلاة فى قلوبهم وتتجنز أهميتها كذلك .

٣ - المعجزات النبوية :

ورافق هذه الصلوات العديد من المعجزات التى وقعت معه عليه الصلاة والسلام حتى أن غزوة ذات الرقاع لتسمى بغزوة الأعاجيب ، وأشهر المعجزات فيها قصة ذلك الرجل الأعرابى الذى استل السيف ، وأراد رسول الله ﷺ أن يشهد المسلمين هذه المعجزة كما يقول جابر : (فمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس » ، ولم يعاقبه رسول الله ﷺ) (٢) ، والحادثة نفسها كانت مفتتحاً لفتح إسلامى فى قوم هذا الأعرابى .

يقول ابن حجر : (وكان الأعرابى لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه ، وعلم أنه لا يصل إليه فالقى السلاح وأمكن من نفسه ، ووقع فى رواية ابن إسحاق بعد قوله : الله ، فدفع جبريل فى صدره ، فوقع السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ وقال : « من يمنعك أنت منى ؟ » قال : لا أحد . قال : « قم فاذهب لشأنك » ، فمن عليه لشدة رغبة النبى ﷺ فى استلاف الكفار ليدخلوا فى الإسلام ، ولم يؤاخذ به بما صنع ، وقد ذكر الواقدى نحو هذه القصة أنه أسلم وأنه رجع إلى قومه ، فاهتدى به خلق كثير) (٣) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤١٧/٧ ح (٤١٢٨) .

(٢) المصدر نفسه ٤٢٦/٤ ح (٤١٣٥) ، (٣) المصدر نفسه ٤٢٧/٤ ، ٤٢٨ .

ومن المعجزات النبوية فى هذه الغزوة ، ما يبرز لنا رسول الله ﷺ ظاهرة كونية ، فالطير والحيوانات والاشجار والجمادات تشكو إليه ، وتسعد بتنفيذ أمره ، وتكون كلها أدوات لنشر هذا الدين ، وتعميق أبعاده فى نفوس المؤمنين .

وأما المعجزتان اللتان شهدهما الجيش كله فهما معجزة الطعام والشراب ، فيفور الماء من بين أصابعه ﷺ ويشرب الجيش كله ، ويرتوى بعد ظمأ ، وتفور الجفنة بالماء ، ويطلب رسول الله ﷺ المائدة من ربه ، فتأتى المائدة من البحر لجيشه الثمانمائة ، فتطعم الجيش كله (١) .

ومن المعجزة إلى الكرامة ، فها هى غزوة سيف البحر ، التى كان على رأسها أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وكيف أشرف الجيش على الهلاك من الجوع ، وساق الله تعالى له دابة من البحر أطعمت الجيش كله ، وتزودوا عائدين إلى المدينة ، وأطعموا رسول الله ﷺ من هذه المائدة .

وليست كرامة مؤنة بأقل من هذه الكرامات ، فإن ينتصر جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على جيش قوامه مائتى ألف ، فهذا فى عالم الاسباب غير معقول على الإطلاق . لكن هذا فى سنن الله تعالى التى تجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله أمراً ربانياً مبرماً لا راد له ، هو جزء من هذه العقيدة والذى يمكن أن يتكرر على مدار التاريخ الإسلامى كله ، ويمكن القول بثقة : إنه هو السنة الغالبة فى تاريخ الإسلام بين المؤمنين والكافرين ؛ ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض ، فألاف مؤنة تكاد تكون كلها روافد جديدة من حديثى الإسلام ، وقائدهم الذى كتب الله النصر على يديه ، مسلم بضعة أشهر فقط ، وهو خالد بن الوليد ، والذى نال كرامة ربه تعالى بأن نُسب إلى ربه كما سماه المصطفى عليه الصلاة والسلام : « سيف الله » .

٤ - دور القوة والإرهاب لمراجعة العدو لحساباته :

وفى عالم لا يؤمن إلا بالقوة والذى يجعل أساس مبادئه : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وأساس مبادئه فى الإغارة :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وفى تربية القاعدة العريضة ، نجد دائماً عنصر القوة مهماً جداً فى الحسابات ، فوفاء رسول الله ﷺ جعلت الجزيرة العربية تموج بالمرتدين ، بينما عمرة القضية وصلاح

(١) تعرض الحافظ الهيثمى فى كتابه العظيم مجمع الزوائد لهذه المعجزات جميعاً ، ودرسها من حيث سندها وصحتها ٩٢٨/٩ ، وقد سبق الحديث عنها فى بداية الكتاب .

الحديبية كان فتحاً للإسلام فى الأرض ، بعد أن كان الناس يخافون قريشاً لو أسلموا وحالفوا محمداً عليه الصلاة والسلام ، ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ لا يدع لحظة واحدة ليلتقط العدو أنفاسه إلا ويوجه الضربة الموجهة له ، خاصة غطفان بفروعها جميعاً ، والتي لم تدخل الهدنة مع قريش فكان رسول الله ﷺ يلاحقها ، ويتابع تحركاتها ، ويبعث السرية تلو السرية فى مهاجمتها فى عقر دارها ، وبدأت المناوشات مع هوازن التى كانت تنأهب لدخول الحرب ضد رسول الله ﷺ ، وترسل الشخصيات الكبرى على رأس هذه السرايا من الشمال للجنوب للشرق للغرب ، فقد وصل مؤتة فى تخوم الروم ، كما وصل خثعم فى تخوم اليمن ، ووصل ضربة شرقاً على حدود بنى حنيفة ، كما مضى غرباً إلى ساحل البحر ، وكانت هذه القوة الرادعة هى التى فتحت الآفاق أمام الاندفاع القوى نحو الإسلام حتى لنجد العدو الألد عيينة بن حصن ، وسيد بنى عامر علقمة بن علاثة ، وسيد تميم الزبرقان بن بدر ، ينضمون جميعاً إلى جيش الفتح فى مكة المكرمة بعد أن يشسروا من إمكانية المقاومة للزحف الإسلامى .

٥ - الإسلام هو الهدف الرئيسى للغزوات :

وليس الزحف الإسلامى الذى تم فى هذه المرحلة ينطلق من مبدأ فرض الإسلام بالقوة ، إنما ينطلق من مبدأ الحوار مع الخصم ، والخصم لا يعى للحوار ولا يسمع له ما لم يكن خصمه قوياً ، فما كان لمكة أن ترعوى وتوقع معاهدة الصلح ، وتفتح صدرها وعقلها للإسلام لو لم تجد القوة الإسلامية قد غزتها على مشارفها ، وما كان للقيادات الكبرى فى مكة أن تصبح للإسلام لو لم تجد عشرة آلاف مقاتل فى جوارها ، ولو لم ينهزم صفوان وعكرمة وسهيل ، لما أمكن لهم أن يقبلوا التفكير بالإسلام ثم يدخلوا فيه ، وما كان لعيينة بن حصن ، أن يرعوى لولا أن وجد القوة الإسلامية تلاحقه فى الصحراء فى أى مكان يضى إليه ، فطبيعة النفس البشرية لا تأبه بالضعيف ، وتتبع قائدها القوى ، لكن القوة هى التى تعيد الوعى ، وتعيد الحسابات عند الإنسان .

فخالد وعمرو هما أعظم القيادات العربية والبشرية ، كانت نقطة انطلاقهما فى التفكير فى الإسلام هى :

(فقلت : كم أوضع ، والله ليظهرن محمد على قريش) ، وقوله : (عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت) .

(وهذا خالد يقول : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمداً سيظهر) .

وهذا أبو سفيان القائد العام يقول : (ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ، ولا خبرنيه

مخبر ، سبحان الله ما لأحد بهذه طاقة ولا يدان ، ثم قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، قلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملك، ولكنها نبوة، قال: نعم). وقوله: (يا محمد ، استنصرت إلهي واستنصرت إلهك ، فلا والله ما لقيتك مرة إلا ظفرت على).

وذاك حوار الحارث بن عوف ، وعيينة بن حصن ، يقول الحارث : (إن محمداً قد وطئ البلاد ، وأنت موضع في غير شيء) ، وهذه رسالة رسول الله ﷺ إلى أمرائه حين مضوا إلى الأمم بجيوشهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا بسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكف عنهم ، ادعهم إلى الدخول في الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) .

ولا أدل على ذلك من أن هدف الفتوحات هو الإسلام ، وخلال هذين العامين ، نبحت عن عدد القتلى ، فلا نجددهم بالعشرات ، ونبحت عن الذين دخلوا في الإسلام ، فنجد العدد قد ارتفع من ألف وخمسمائة إلى عشرة آلاف ، وهو الفتح المبين الذي حدثنا الله تعالى عنه ، ودخول الناس أفواجاً في دين الله :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [النصر] .

٦ - خلق الإسلام هو الوسيلة الكبرى لانتشاره :

إن حسن المعاملة التي كان يتحلى بها حزب الله في حربه ضد الطواغيت ، هو الذي فتح الآفاق أمام انتشار الإسلام ، وأهم جانب خلقى في هذا المجال : هو العفو عند المقدرة ، والوفاء بالعهود والمواثيق ، وتقديم العقيدة على الذات . وهذه الأمور العملية التربوية هي الباب الذى تلج منه القاعدة العريضة ، فعندما يقاتل القائد المنتصر ، ويفرض وجوده بقوة السلاح ، ويذبح كل من عاداه ، سوف يملأ القلوب حقداً وضيغنة ، وستكون قضية الثأر هي محور الصراع بين المتخاصمين . أما عندما يكون العفو عند المقدرة والحلم والصفح عند القدرة على الثأر وتقديم العقيدة على القراية والأهل هو الدافع للمواقف جميعاً ، فسيسارع الناس للدخول في دين الله ، فكل قيادات مكة أعطيت الأمان قبل أن تسلم ، وترك لها الخيار في ذلك، وكان نداء الأمان العام لأهل مكة ليس هو: من أسلم فهو آمن، بل من دخل المسجد فهو آمن ،ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فالعفو عند المقدرة ، حصن دماء أهل مكة

الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأخرجوه :

(حين كان مصيرهم بين يديه ، قال : « ما تقولون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « ﴿ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٦) ﴾ [يوسف] اذهبوا فانتم الطلقاء ») .

وكانت هذه الكلمة كفيلاً أن تدخل ألفى مكى فى دين الله ، وتشكل قریش أكبر تجمع إسلامى بين القبائل بعد تجمع الأنصار ، بعد أن كانت العدو الألد فى حرب دين الله .

ورسول الله ﷺ حين دخل مكة فى عمرة القضية ، نفذ العهد بأمانة تامة ثلاثة أيام دون أن يمس أية مقدسات لقریش بشئ ، فلم يهدم صنماً ، ولم يعتد على عدو ، ولم يثأر لنفسه ، ولم يغلق حانة خمر ، ولم يهاجم ماخور زنى ، وحزب الله كله بين يديه ، وسلاحه كاملاً خارج الحرم ، ولم تشهد مكة فى أيامها الثلاثة ولو حادثة واحدة أخلت بشروط الحديبية .

كما أن المبدأ الخلقى الذى يجعل الأمان لمن أسلم ، حافظ عليه المسلمون طيلة هذه المرحلة ، وعندما جرى إخلال فى تطبيقه فى بنى جذيمة ، أعلن رسول الله ﷺ براءته مما صنع خالد بن الوليد ، وودى القتلى جميعاً ، وعوّض عن الخسائر كلها ، حتى ودى ميلغة الكلب .

وعندما أنحل أسامة بن زيد فى هذا المبدأ وقتل من شهد أن لا إله إلا الله عنفه رسول الله ﷺ حتى تمنى لو لم يكن أسلم من قبل ، وعندما تجرأ ابن جثامة على القتل لمسلم بثأر من ثارات الجاهلية قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا تغفر له » ، ولفظته الأرض لإخلاله بهذا العهد .

وحين دخل رسول الله ﷺ مكة ، حافظ على تنفيذ الأمان كاملاً ، وودى القتل الذى قتله خزاعة بعد المدة المعطاة لها ، ولم يقاتل إلا من قاتل ورفض الأمان . وساد العدل فى الحكم حتى أعلن فى بطحاء مكة : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وحين أعلن إلغاء الثارات ، كان أول ثأر أهدر دم ابن عم رسول الله ﷺ سيد العرب الأول : « وإن أول دم أضعه ، دم ربيعة بن الحارث » .

وحين أعلن إلغاء الربا ، كان أول ربا ألغى هو ربا عم محمد ﷺ : « وإن أول رباً أضعه ، ربا العباس بن عبد المطلب » .

العدل والرحمة ، والوفاء بالمعهود والمواثيق والحلم والصفح عند القدرة ، هى

مفاتيح القاعدة العريضة لدخولها للإسلام .

٧- التدريب على المشاق :

فلا إسلام بلا جهاد ، وكما مر معنا ، فعشرون سرية تم توجيهها خلال هذه الفترة القصيرة ، مع أربع غزوات غزاها رسول الله ﷺ بنفسه ، ولقد كانت الأهداف العسكرية قليلة ، إنما كانت الأهداف تربوية وسياسية في استعراض للقوة الحاضرة في أى لحظة ، وفي فتح آفاق التعامل السياسى من خلال وجود القوة المدخرة المتأهبة للتدخل في اللحظة المناسبة والحرص على التربية الخشنة في الصحراء اللاهبة ، والصبر على الجوع والعطش والتعب والنصب ، ليعد الإعداد المناسب للمستقبل ، فالجهاد ماض إلى يوم القيامة .

وحين يكون مؤهلاً من خلال هذه الدورات ، يمكن أن يساهم فيما بعد في أية مواجهة ، فكثيراً ما تمضى السرية عشرات الأميال ومئات الأميال ، وليس لها زاد إلا تمرات على الطريق، وكما وجدنا في سرية سيف البحر (بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في سرية فيها المهاجرون والأنصار وهم ثلاثمائة رجل إلى ساحل البحر إلى حى من جهينة ، فأصابهم جوع شديد ، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى كانوا ليقسمون التمرة ، فقبل لجابر : فما يغنى ثلث تمر ؟ قال : كنا نجد فقدها ، ولم تكن معهم حمولة ، إنما كانوا على أقدامهم ، وأباعر يحملون عليها زادهم فأكلوا الخبط حتى إن شفق أحدهم بمنزلة مشفر البعير ، فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم : لو لقينا عدونا غداً ما كان بنا حركة إليه لما بنا من الجهد) .

وفي غزوة ذات الرقاع كما سبق وتقدم معنا (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بغير نعقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت أقدامى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا) .

وفي عمرة القضية (فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد هتتهم حمى يثرب ، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) .

والبرد الذى لقيه المسلمون في غزوة ذات السلاسل كما يقول قائدهم فيها (والذى بعثك بالحق لو اغتسلت لمت ، لم أجد قط برداً مثله) ، وهو هو نفسه عمرو بن عبد الله رضي الله عنه رغم شدة البرد هذه يرفض أن يشعل المسلمون ناراً حتى لا يكشفهم عدوهم (فتزل قريباً منهم وهم شاتون فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا - وهى أرض باردة - فمنعهم فشق ذلك عليهم) . وفي سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة وكانوا (في مائة وثلاثين رجلاً خرج بهم يسار فظعن بهم في غير الطريق حتى فئت أزوادهم وجهدوا

واقسموا التمر عدداً) والمسلمون فى الفتح لا يملكون شيئاً إلا التموين الذاتى، فـ (استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش؛ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم، واستقرض من حويط بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانوا ثلاثين ومائة ألف قسمها رسول الله ﷺ على أصحابه من أهل الضعف).

ولعل من هذه المشاق الصبر فى الله على الجهاد حين تقع المعركة، فالفرار من الزحف من الكبائر، ومواجهة العدو والصبر على الطعن والضرب هو كله ذخر وأجر.

فهذا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يقول: (بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأمره علينا فبيتنا ناساً من هوازن، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات وكان شعارنا أمت أمت) وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: (قاتلت العرب والروم والفرس فلم أجد أشد من قتال الفرس، ولقد اندقت فى يدي فى مؤنة تسعة أسياف وما صبرت فى يدي إلا صحيفة يمانية) وهذا جعفر رضي الله عنه يتحدث عنه ابن عمر فيقول: (فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء فى دبره - يعنى فى ظهره)، وفى الرواية الثانية (فالتمسنا جعفر بن أبى طالب، فوجدناه فى القتلى ووجدنا ما فى جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية، وسمى ذو الجناحين لأنه أخذ الراية يمينه فقطعت، ثم أخذها بشماله فقطعت، ثم احتضنها بعضديه). وذاك بشير بن سعد أمير سرية رسول الله ﷺ إلى فذك (قاتل قتالاً شديداً حتى ضرب كعبه وقيل قد مات، وأمهل بشير بن سعد وهو فى القتلى، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فذك، فأقام عند يهودى بفذك أياماً حتى ارتفع من الجراح، ثم رجع إلى المدينة).

٨ - إسلام القبائل الجماعى - وقبول هجرتهم فى مواقعهم:

وهذه الظاهرة تمثل الإقبال الكبير على الإسلام الذى لم يعد إسلام فرد يهاجر، ويتجه إلى المدينة، فيقيم بين ظهرانى المسلمين، ويحضر الصلوات كلها مع المسلمين فى المسجد، ويتلقى التربية مباشرة من الرسول الأعظم ﷺ، إنما غدت الظاهرة أن تسلم القبيلة كلها رجالاً ونساءً وأطفالاً، ولا يمكن للمدينة أن تستوعب هذه الأفواج الضخمة فلجأ رسول الله ﷺ إلى قبول إسلامهم واعتبارهم مهاجرين فى مواقعهم، ولقد حدثنا السيرة عن ثلاث قبائل نالت هذا الشرف وهى فى مضاربها، هذه القبائل هى:

أ - مزينة:

يحدث عن هذه الوفادة الكبرى كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده قال:

(كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى رجب سنة خمس ، فجعل رسول الله ﷺ الهجرة فى دارهم ، فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم » ، فرجعوا إلى بلادهم) .

ب- خزاعة :

« أما بعد ، فإنى لم آثم بآلکم ، وإنى لم أضع فى جنبکم ، وإن أكرم تهامة على أنتم وأقربهم رحماً أنتم ومن تبعکم من المطيين ، فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ولو هاجر بأرضه ، غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً » .

ج- أسلم :

(وجاءته أسلم وهو بغدير الأشطاط ، جاء بهم بريدة بن الحصيب الأسلمى فقال : يا رسول الله هذه أسلم ، وهذه محالها ، وقد هاجر إليك من هاجر منها ، وبقي قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم مهاجرون حيث كنتم ») . ولكن هذه الأعداد الكبيرة التى قبلت هجرتها فى أرضها وديارها ، عندما كان النفي العام لفتح مكة ، وجاءت الرسل إلى مضارب كل قبيلة ، تدعوهم إلى الالتحاق بركب الجهاد ، توجهت هذه الأعداد بالآلاف لتشارك فى الفتح الأعظم لمكة المكرمة ، فقد كان الاستنفار عاماً ، وشاملاً لجميع المسلمين فى الساحة العربية .

٩ - انضمام هذه القبائل للجيش الإسلامى :

لقد كانت صيغة الاستنفار شاملة لكل فرد مسلم بعينه ، ولعل هذه الصيغة لم تكن قبل هذه المرة ، وبهذا العموم .

(فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو أرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة » ، وبعث رسولا فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وبعث إلى بنى سليم ، فأما بنو سليم فلقيته بقديد ، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة) .

وهذا هو الذى يفسر هذه الأعداد الضخمة التى شكلت جيش الفتح الأعظم ، والذى بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، إنه حين تكون الحرب الشاملة فالاستنفار يكون شاملاً كذلك ، ولو لم تكن التربية الفردية قد أخذت مداها الكامل فالحياة ضمن الجيش الإسلامى ، والمعيشة فى قلب المعسكر الإسلامى كقيلة أن تصهر الفرد بالروح الجماعية ، وتربية التربية العامة التى يفتقدها فى مثل هذه الأجواء ، والجبل الرائد المنبث بين صفوف

هذه الامواج الجديدة ، هو الذى يتابع هذه التربية ، ويصحح الأخطاء ، ويرفع المستوى ، ويهذى إلى الصراط المستقيم .

١٠ - الرفقة النبوية :

وحين يكون رسول الله ﷺ مع هذا الجيش يكون الجيش هو أسعد الخلق بهذه الرفقة ، إن مجرد رؤية رسول الله ﷺ هى ذخيرة حية للفرد ، ودفقات عظيمة فى التكوين والبناء ، فكيف إذا كان مع هذه الرؤية ، استماع حديث رسول الله ﷺ ، وتلقى أوامره وتوجيهاته ، والتعرف على سمته وهديه ﷺ فى كل شىء ، وكيف إذا رافق هذا الاستماع العام ، وهذه الرؤية العامة ، توجيهات مخصصة للقبيلة أو بعض أفرادها ، ماذا تفعل هذه التوجيهات بالنفوس وكم تزرع من الإيمان فى كل ذرة من ذرات هذا الكيان الإنسانى ، وحين يعاين المسلم المعجزات النبوية بعد ذلك ، ويشهدها رأى العين ، ويرى رسول الله ﷺ والماء يتفجر من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام ، ويتدفق مدراراً ثراً ينبع من الراحة النبوية ، أو يرى التميرات والحففات من البر والسويق، تغدو مثل الجبال فتطعم الجيش الإسلامى كله بآلافه العشرة ، فقد شهدنا فضالة بن عبيد أقدم ليقول رسول الله ﷺ (فلما دنا منه ، قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شىء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلىّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت لا	يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله	بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّنا	والشرك يغشى وجهه الإظلام

إن اللمسة النبوية ، والنظرة النبوية ، والالتفاتة النبوية لهى زاد لمن ينالها كل عمره ، وما أسعد هذا الجليل الذى صحب رسول الله ﷺ شهرين ونصف ، منذ تحرك من المدينة حتى عاد إليها فعاش مع سيد الخلق وحبيب رب العالمين .

١١ - فقه الأولويات :

فى حس المسلم رهبة عجيبة وتعظيم كبير لرمضان والصيام فيه ، ولا يمكن أن يتصور نفسه مضطرباً فى رمضان إلا مريضاً مرضاً مدنفاً يحول بينه وبين الصيام ، أو مسافراً سافراً

ذا مشقة هائلة وهو مضطر إليه فى الوقت نفسه ، وصدرت الأوامر النبوية : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » .

ولم يكن فى تصور ذلك الجيل السعيد أمام هذا النداء إلا حضور تلك الدورة العبادية الكبرى من الصيام فى المدينة ، حيث تشارك الأسرة الواحدة من المسلمين فى الأرض فى هذا الموسم العظيم .

لكن الأمر كان أكثر أبعاداً من ذلك .

فلم تمر أيام على احتفالات الصيام والقيام فى المدينة إلا وصدرت الأوامر للجيش الإسلامى بالتحرك خارج المدينة صوب الصحراء حيث لا تتوفر وسائل الراحة الكافية من الطعام والشراب فيها ، وهذا ينغص عملية الصيام وهيبته وقديسيته ، وعندما يكون الإفطار مباحاً فى السفر فهذا يعنى أن صيام رمضان لم يكن هو الهدف الرئيسى من الاستنفار للمدينة ، وإلا لما تمت مغادرتها حتى ينتهى هذا الشهر الكريم ، وهناك من يصوم ، وهناك من يفطر تجنباً للمشقة فى الجمع بين الصيام والسفر .

وبقى الهدف غائباً عن هذا الجيل السعيد ، فكل ما يعرفه أنه ماضٍ إلى معركة ، أما مع من ؟ فلا يدرى ، ولم تنجح محاولات معرفة اتجاه الجيش وأى عدو يقصد ، ثقيف أم مكة أم هوازن أم تميم أم عامر أم غطفان ، ومضى بهم قائدهم الحبيب وهو صائم ، فحافظ أكثر الجيش على صيامه ، فقدسية رمضان فى حسه أكبر من أن يفطر ولو كان مسافراً ، وفى مرحلة من مراحل الطريق ، كان النبى المصطفى ﷺ يبذل الخرقه بالماء ويضعها على وجهه من شدة العطش ، أما بعد أن تجاوز الجيش منتصف الطريق ، ورفعت الألوية والرايات وبرزت عدة الحرب وآلته ، ومضى القوم فى الحديد إلى عدوهم ، وفى رابعة النهار يتناول رسول الله ﷺ كأساً من اللبن ويشربها ويعطيها لمن بجواره ، وهذه أكبر بكثير من إصدار أمر بالإفطار للجيش كله ، فقد يتوقف الكثيرون عن الإفطار حتى يتأكدوا من إفطار قائدهم الحبيب ، أما ورسول الله ﷺ يتناول الكأس أمام الجيش كله ، فلم يعد موقف لأن ينتزع أحد ، والذي بقى صائماً بعد إفطار رسول الله ﷺ وصحبه ومعرفة الأمر بذلك قيل عنهم : « أولئك العصاة » .

لقد أصبح الصيام معصية ، وهو أحب الفروض إلى الله « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » ، ومع ذلك فهو معصية حين يتعارض مع فريضة الجهاد ، أو يعرقلها ، أو يحول دونها ، وكان بإمكان النبى ﷺ أن يؤجل الاستنفار شهراً واحداً فقط ، ويسعد الناس بالصيام والطاعة ، وليس هناك من خطر يهدد الوجود الإسلامى ، فمكة فى حالة من الضعف والتردد والخوف تخشى أن يغزوها محمد بجيشه ، فترسل

الوفد إثر الوفد لإيقاف هذا الهجوم .

لكن نصر المستضعفين من خزاعة ، وهم حلفاء محمد ﷺ ، له الأولوية الكبرى التى لا تتأجل يوماً واحداً ؛ للحفاظ على السمعة العسكرية والسياسية للجيش الإسلامى ، ومضت آيات عمرو بن سالم :

وزعموا أن لست أدعو أحدا فادعوا عباد الله يأتوا مددا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وتصحح الأمر فى حس المسلم الجديد ، والمسلم القديم ، وعرف فقه الأولويات فى دينه ، أن المعركة حين تتحتم مع العدو للحفاظ على السمعة العسكرية والسياسية ، ولنصر المستضعفين الحلفاء ، وللثأر من الناكثين المحاربين هى فوق أهبة الصيام وقديسيته ، ولو كان فى مدينة رسول الله ﷺ ، ولو كان مع سيد ولد آدم محمد ﷺ .

١٢ - الحرب المعنوية :

وفى خضم الحديث عن التربية الجماعية تربية القاعدة العريضة ، يطالعنا الأمر النبوى للمسلمين (واجتمع المسلمون بمر الظهران^(١) ولم يبلغ قريشاً حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم ، فلما نزل المسلمون مر الظهران عشاء ، أمر رسول الله أصحابه أن يوقدوا النيران ، فأوقدوا عشرة آلاف نار) . وكان من الممكن الاكتفاء بألف نار يتدفأ كل عشرة على واحدة أو يتجمعون عليها ، ولكنها الحرب المعنوية المقصود منها إرعاب مكة ، بحيث تلقى أيديها مستسلمة أمام هذه النيران الهائلة المهاجمة لها ، ولنشهد أثر هذه النيران على القائد العام لمكة أبى سفيان ورفاقه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام .

(فلما بلغوا الأراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران ، وسمعوا صهيل الخيل ، ورغاء الإبل فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا : هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب ، فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ، قالوا : فتنجعت هوازن على أرضنا ! والله ما نعرف هذا ! إن هذا العسكر مثل حاج الناس) .

وكانت هذه الخطة الحربية العظيمة كفيلة بأن تسقط فى أيدي مكة ، وتستسلم بدون عقد ولا عهد ، وهذا الذى تم ، فقد مضى أبو سفيان وبديل وحكيم أسرى إلى رسول الله ﷺ ، ووقعوا وثيقة الاستسلام دون أى عقد ولا عهد إلا الأمان للناس إذا ألقوا سلاحهم ودخلوا بيوتهم .

(١) على بعد عشرين كيلاً فقط من مكة .

فكل فرد فى مرحلة تربية القاعدة العريضة له دوره فى تكثير سواد الأمة ، وله دوره فى الخطة العامة لمواجهة العدو ، وله دوره فى عملية التهيئة للدعوة إلى الله ، ودخول الناس أفواجًا فى دين الله .

١٣ - الأنصار وخزاعة وثأرهم :

هناك تيار عام يغلى فى الجيش يريد أن ينتقم من هؤلاء الطغاة المحاريين لدين الله ، وعبر عنه سعد بن عبادة سيد الأنصار بقوله :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشًا .

وعبر عنه شاعر مكة الذى جاء ضارعًا لرسول الله ﷺ أن يحمى قريشًا من المجزرة الكبرى التى يعد لها سعد بن عبادة وأصحابه ، أعظم الجيش كفاءة وخبرة وعقيدة وفداء ، فهم طلائع الموت فى الجيش النبوى :

إن سعدًا يريد قاصمة الظهر	بأهل الحجون والبطحاء
فلئن أقحم اللواء ونادى	يا حماة الأدبار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخزرج	والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش	فقعة القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسد	لدى الغاب والغ فى الدماء

هذا التيار الذى يغلى فى مراحل قلوب الأنصار ، لا يناسبه أبدًا الاتجاه النبوى إلى السلامة والأمن لقريش : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمه ، اليوم أعز الله قريشًا » .

وكان أن انتزع رسول الله ﷺ فتيل الانفجار ، ابتداءً بأن أعطى الراية لقيس بن سعد ولد سعد بن عبادة ، فحافظ على رضا سيد الخزرج ﷺ .

ووجه هذه الطاقات الثائرة المتحرقة للثأر ، ضد المعاندين الذين رفضوا السلامة وقرروا المواجهة . وكان ذلك فى التوجيه التالى : (« يا أبا هريرة ، اهتف لى بالأنصار » فأطافوا به ، وويشت قريش أوباشًا لها وأتباعًا فقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لهم شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا فقال رسول الله ﷺ : « ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » ، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى ، ثم قال : « حتى توافونى بالصفاء » ، فانطلقنا : فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله ، وفى رواية : « يا معشر الأنصار ، أرايتم إلى أوباش قريش » ، قالوا : نعم ، قال : « فانظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم

حصداً ، وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله) . وبذلك تم تصريف هذه الطاقات
الناثرة فى مواجهة الثائرين الخارجين على الاستسلام ، وكم قيادات سقطت فى التاريخ
حين عجزت عن أن تصرف هذه الطاقات النائرة ، وكم من الانقلابات العسكرية قامت
ضد دعاة السلام من قبل دعاة الحرب .

كما وجّه عليه الصلاة والسلام هذه الطاقات حين أباح لخزاعة الموتورة النائرة أن
تأخذ ثأرها من بكر ساعة من نهار ، فإذا كانت هذه الحرب كلها نصراً لخزاعة الموتورة ،
فماذا استفادت منها كلها إذا بقى قتلها ، وجرحاها مهديرين مطلولة دماؤهم وبقي الذين
قتلوهم ركعاً وسجداً آمنين ، هل ينجون بغدرهم وتحديهم العهد والميثاق ، وقول قائدتهم
نوفل : لا إله لى اليوم حتى يستييح دم خزاعة .

هذه التساؤلات جميعاً ، أجاب عليها البيان النبوى المقتضب :

« يا معشر المسلمين كفوا السلاح ، إلا خزاعة عن بنى بكر من ضحوة نهار الفتح إلى
صلاة العصر منه » ، هذه السويحات فقط هى ساعات الثأر وأخذ الحق ، وانتصار المظلوم .
وبعدها ، فوقف إطلاق النار ، ووقف إراقة الدماء ، ووقف القتال والعودة إلى السلام
والامن .

إننا فى تربية القاعدة العريضة بحاجة إلى فهم نفسيات هذه القاعدة فهماً صحيحاً ،
وتصريف طاقاتها الشعورية والقتالية تصريفاً صحيحاً ، وإلا سنخسر هذه القاعدة ،
وتتحول إلى نقمة على القيادة .

١٤ - حكمة التعامل مع هذه الطاقات :

وفى الوقت الذى نشير فيه إلى تصريف هذه الطاقات ، وتلبية روح الثأر والثورة عند
المجاهدين لابد أن توجه هذه الطاقات دوماً إلى الهدف الأعلى من الحرب وأن هذه
الحرب هى لله وفى سبيل الله ، وليست لإقامة أمجاد شخصية أو قبلية ، ويعد أن
حدّدت نهاية معركة الثأر عصر يوم الفتح ، فكل تجاوز وخرق للهدنة يتم عليه الحساب ،
وهذا ما جرى عندما قتل خراش أحمر بأساً ، فقال عليه الصلاة والسلام فى خطبة
شديدة اللهجة :

« أيها الناس ، إن أعدى الناس على الله من قتل فى الحرم ، أو قتل غير قاتله ، أو
قتل بذحول الجاهلية ، يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن
نفع ، قتلتم قتيلاً لأدينه ، ومن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فديته
كاملة ، أو شاؤوا فقتله » .

وقال : « لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراشاً » ، وقال : « إن خراشاً لقتال » .

فلقد وجه تأنيبه ﷺ الفردى لخراش من جهة ، وأصدر إعلانه العام من جهة ثانية لإيقاف أى تجاوزات يمكن أن تقع فى هذا المجال ، وإنه لمجتمع خالد فى تاريخ البشرية ، أن تفتح مدينة كاملة ، ويقع تجاوز واحد فقط فى قتل غير مشروع ، وفى ظروف خاصة .

١٥ - القاعدة العريضة والغنائم :

هذه الآلاف العشرة ، انضمت تحت راية الإسلام ، ماضية مع قائدها لفتح مكة وهى تتوقع أن تكون مكة كلها بكل ما فيها من كنوز وخيرات غنائم بيدها ، وطبيعة العربى حين يعرض حياته للقتل طمعاً فى الغنيمة ، ولقد شهدنا دور الغنائم فى معركتين مع الجليل الرائد ، الجليل القيادى .

المعركة الاولى فى بدر ، يوم عاتب الله أبناء حزيه وخيرة أهل الأرض من أجل الغنائم التى فرقت ذات بينهم ومزقت صفهم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال] .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : نزلت فينا معشر أهل بدر حين ساءت فيها أخلاقنا .

والمعركة الثانية التى خسروها وهى أحد من أجل الغنائم ، وتلقوا عتاباً أكثر مرارة من ربههم ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَغَصِبْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ١٥٢ ﴾ [آل عمران] .

وذاك الجليل الذى تربى على عين الله ، فماذا نقول عن هذا الجليل الجديد الذى كانت أكثر لحمته من الأعراب من القبائل الممتدة بين مكة والمدينة وفى أراضى الحجاز ، ماذا يفعل معها ؟ وكم تصبر دون أن تنال شيئاً من هذه الحرب ؟

لقد أدرك رسول الله ﷺ هذا الواقع ، واضطر إلى أن يستدين مائة وخمسين ألف درهم من قيادات مكة وبعضها لا يزال على شركه ، ويوزع هذه الأموال على القيادات الكبرى ليضمن ولائها ومتابعة استمرارها معه ، وفى الوقت الذى كان يحرص فيه على أن لا تمس مكة بسوء ، وأن ينفذ مشروع أمانته الذى تبناه ، وأن يهيئ فى الوقت اللازم المصاريف الضرورية لجيشه ، ويلبى الرغبة الكبرى فى نفوسهم فى حب الغنيمة والمال .

١٦ - رعاية العقيدة والدعوة :

لقد كان عليه الصلاة والسلام على راحلته والألوف المتجمعة فى الكعبة تنظر إليه ،

وكان يشير إلى الأصنام فتهاوى صنماً عقب الآخر، وهو يتلو عليه الصلاة والسلام: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) [الإسراء] ، وكانت عيون الجيش مسمرة نحو هذه المناظر المذهلة : صنم مشدود بالرصاص يحتاج إلى الفؤوس والمعاول الحديدية لتكسيهه ، ينهار تحت مس عصا النبي ﷺ ، وبذلك يثبت الإيمان فى قلوبهم ثبات هذه الأصنام فى قواعد الرصاصية ، فتسعد هذه القاعدة الجامعية كلها برؤية تكسير الأصنام .

وفى الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

وقول فضالة بن عبيد رضي الله عنه :

لو ما رأيت محمداً وقبيله فى الفتح يوم تكسر الأصنام

أيقنت دين الله أضحى بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وشهدوا بأعينهم كذلك يوم أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة بيده الشريفة ، وكيف أعاده إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه قائلاً : « خذوها يا بنى طلحة ، خالدة تالدة إلى يوم القيامة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وشاركوا كذلك فى القضاء على الوثنية ، حيث قاموا بغسلون الكعبة من آثار الوثنية وصور الأنبياء والملائكة لتكون قلعة للتوحيد إلى يوم القيامة ، فلا بد أن يشارك كل فرد فى حرب هذه الوثنية وتحطيمها ، وكيف صدرت الأوامر بأن يقوم كل فرد يؤمن بالله واليوم الآخر بتكسير الأصنام فى بيته ، والأصنام ذخيرة كل بيت وكنزته وأعلى تراثه .

إنها تربية عملية على التوحيد ، ورعاية فردية شخصية لبناء العقيدة فى النفوس ، فى جو جماعى تسوده الأهازيج الخالدة .

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

لا إله إلا الله والله أكبر .

١٧ - إعلان المبادئ وتطبيقاتها :

وشهد هذا الجيل السعيد إعلان مبادئ الإسلام الكبرى ، وإعلان إنهاء دولة الوثنية التى جثمت على صدر مكة والجزيرة العربية ألف عام ، وإعلان العدل قاعدة التعامل الكبرى بين أفراد الأمة الجديدة ، وإنهاء دويلات القبائل المستقلة لتقوم دولة العقيدة الجديدة بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وإنهاء كل عناصر التمايز الطبقي والقبلى والشخصى ، ولأول مرة فى تاريخ البشرية تكون التقوى هى عنصر التمايز بين أفراد الأمة

الواحدة المشكلة من مشارب شتى ، وقبائل شتى ، وجنسيات شتى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات] .

ويحس الفرد فى هذه القاعدة العريضة أن له كينونة خاصة ، لم يعد رقماً فى قبيلة ، ولم يعد جندياً فى جيش ، إنه يمكن أن يسود القبيلة ، ويقود الجيش ، لايعيقه نسبه ، ولا تعيقه ظروفه ، ولا يحجبه ماضيه عن التقدم لسدة القيادة والزعامة والمسؤولية فى هذه الدولة ؛ لأن ميزان التسابق وشروطه هى التقوى ، والتقوى فقط ، ولا أدل على ذلك من صعود بلال بن رباح العبد الزنجى الاسود على ظهر أشرف بيوتات العرب ، على ظهر بيت الله ، يعلن من فوقه كلمة التوحيد ، فمن الذى يمنع هذا الجندى من أخذ موقعه المناسب بما يملك من طاقات ومؤهلات ، لقد انتهى دور الاستبداد الفردى ، والاستبداد القبلى ، والاستبداد الوثنى ، والاستبداد البشرى ، وجاء دور سيادة العقيدة ، جاء دور العبودية لله وحده ، والإخلاص لله وحده ، والطاعة لله ولرسوله ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله .

١٨ - تنفيذ المبادئ فور إعلانها :

فيبطل الثار ، ويبطل دم ربيعة بن الحارث ، ابن عم محمد عليه الصلاة والسلام ، ويبطل الربا ، ويبطل معه ربا العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله ﷺ .

وتبقى الرفادة والحجابه من مآثر الجاهلية ، فيأخذ بنو هاشم رهط محمد عليه الصلاة والسلام ما يمدون ويستضيفون به الحبيج . الرفادة ، وتسلم لبنى عبد الدار خصم رهط محمد ﷺ مفاتيح الكعبة ، وحقهم فيها إلى يوم القيامة .

وأما المآثر الأخرى كلها تسقط تحت أقدام نبي الهدى عليه الصلاة والسلام .

وحين تتم التجاوزات ، فهل تبدأ معها المحسوبيات ، هذه فتاة بنى مخزوم تسرق ، وتبدأ الوساطة لحمايتها من الحد ، مع طفل رسول الله ﷺ المدلل ، مع أسامة بن زيد ابن السابعة عشرة .

ويأتى الجواب : برفض الشفاعة ، وإلغاء الوساطة ، وإلغاء المحسوبية ، والإعلان

العام :

« والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وتقطع يد المرأة المخزومية ، ولأول مرة فى تاريخ مكة ، تقطع يد امرأة من بنى مخزوم ، وفى ظل دولة قرشى ، هو محمد بن عبد الله ، ولكنه الإسلام الذى سوى بين الناس .

« وإنما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق في الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

ولن تهلك هذه الأمة بإذن الله ، ما دام العدل هو السياج الذى يحكمها والسراج الذى يقودها ، وحين يشعر كل فرد فى القاعدة العريضة أنه متساوٍ فى الحقوق والواجبات مع رئيس الدولة ورؤساء أركانه العسكريين ، وقياداته السياسية ، ولو كان من سراق الحجيج من غفار، ولو كان من جبال أشجع، أو سهول جهينة ومزينة، ومن بادية العرب، فقد تساوى اليوم العربى والبدوى فى ظل دولة الإسلام ، ولا يفضل أحد أحداً إلا بالتقى والعافية ، إن هذا العدل هو الذى يربط كل فرد فى القاعدة العريضة بقيادته ، ويربطه بدولته ، ويحس أنه ذو شأن مهم وخطير ، ودور كبير فى هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف .

١٩ - البيعة على الإسلام :

وبالرغم من أن الأمور العامة فى تربية القاعدة العريضة إنما تقوم على التوجيهات العامة ، والمشاركات العامة كذلك ، لكن البيعة على الإسلام تبقى فردية شخصية ما أمكن ذلك ، فقد جلس عليه الصلاة والسلام بعد ظهر اليوم الثانى من الفتح ، وبعد انتهاء جو الحرب ، للناس يبايعهم فرداً فرداً على الإسلام وفات هذا الجيل الإسلامى الجديد البيعة على الهجرة ، فلا بد أن يشعر كل فرد بمسؤوليته المباشرة تجاه خالقه ، حيث كان من السعداء فى الأرض أن التقى مع رسول رب العالمين ، وأخذ منه البيعة على الإسلام ، فبعد سنتين أو ثلاثة ينتهى هذا الحظ العظيم للبشرية ، ويتوقف حظها على لقائها من لَقِيَ رسول رب العالمين ، وعلى خلفائه من بعده ، وإنه لمن الفخر العظيم الذى يطاول الثريا أن تمس يد هذا الفرد يد رسول الله ﷺ ويتقدم لبيعته على الإسلام والجهاد، ويدخل عضواً فى حزب الله ، بتوثيق ومبايعة رئيس الحزب مباشرة محمد رسول الله ﷺ ، ولا شك أن الدرس العظيم الذى يتلقاه العاملون للإسلام من هذه التربية الجماعية هو ضرورة الاهتمام بكل فرد لذاته ، ولو بأخذ البيعة منه فقط ، ليكون شعوره عالياً بالالتزام ، ومرتبطاً بهذا الميثاق الذى واثقه به .

فبيعة الرضوان مثلاً فى الحديبية التى تمت للجيل القائد الرائد ذكرها الله تعالى فى موضعين فى كتابه إذ قال فيها جل وعلا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠ ﴾ [الفتح] .

وقال فيها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ ﴾ [الفتح] .

أما هذه البيعة فلم يذكرها القرآن تفصيلاً ، إنما ذكرها إجمالاً بقوله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر] .

وبإيها من سعادة غامرة أن يكون من بين هذه الأفواج الغامرة فرد يصل إلى رسول الله ﷺ فيضع يده في يده ويبايعه على الإسلام ، ويكون إنما بايع الله بذلك ، وهذه كفيلا أن تربطه - كل حياته - آثار هذه البيعة بنفسه ، ولقد حرص النساء على ذلك وعلى رأسهن هند بنت عتبة أن يحظين بهذا الشرف ، وقبل رسول الله ﷺ بيعتهن ، وإسلامهن كل امرأة بشخصها ، وذاتها وقال : « إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة ، إنى لا أصافح النساء » ، وكانت هذه من سمة العفاف الخالصة لهذا الدين (١) .

٢٠ - متابعة التربية القيادية :

وفى خضم هذه التربية العامة للقاعدة العريضة ، فلا تهمل التربية القيادية أبداً ، وأصحاب الطاقات والإمكانات توجه لهم الأنظار ، وينالون اهتماماً خاصاً ، ليكونوا فى الموقع المناسب ، وينالوا تربية خاصة تتناسب ومؤهلاتهم وإمكاناتهم .

فرسول الله ﷺ يدخل مكة ، ويعلن قبل دخولها :

(« إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك ، وأرغب لهم فى الإسلام » ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ») .

وتوجيه الأنظار إلى هذه المعادن النفيسة يعنى الاهتمام بالنماذج القيادية فى غمرة تربية القاعدة العريضة ، وأسلم عتاب بن أسيد ، وكان والى رسول الله ﷺ على مكة ، فقد أخذ موقع نائب رئيس الدولة فى مكة المكرمة ، وأسلم الثلاثة الآخرون ، وأخذوا أدوارهم القيادية فيما بعد ، وقد أعطاهم رسول الله ﷺ موقعهم منذ اللحظات الأولى لإسلامهم ، فهذا حكيم ينضم مع أبى سفيان . (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن) .

وذاك أخو أبى جهل يتحدث عن لحظة لقائه الخالدة لأول مرة مع رسول الله ﷺ :

(١) هذا على الرواية الراجحة ، والمرجوحة أنه صافحهن وبايعهن .

(فآلقاه وهو داخل المسجد، فلقينى بالبشر، فوقف حتى جتته، فسلمت عليه وشهدت بشهادة الحق، فقال : « الحمد لله الذى هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام »، وكان يقول : فوالله ما رأيت مثل الإسلام جهل) .

وذاك ابن أبى جهل يعلن رسول الله ﷺ عنه : « يأتىكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحي ولا يبلغ الميت » .

وتلك هند بنت عتبة رأس الكفر والحد، تقول عندما تسلم : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى من أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزوا من أهل خبائك، قال : « وأيضًا والذى نفسى بيده » .

وأولاء بنو سليم قالوا : (يا رسول الله، اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت، فقال : « يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها فى الجاهلية، ما فعل فتى وكان قدم مع وفدكم على حسن الوجه، جيد اللسان ؟ » قالوا : توفى حديثًا) .

وهكذا تتواكب تربية القيادات بجوار تربية القاعدة العريضة، هذه القاعدة التى تمثل الجندي الخالصة، ويرر من صفوفها نماذج قيادية تتم رعايتها والاستفادة من طاقاتها، لتوظف هذه وتلك فى خدمة هذا الدين، ولتعلم الأجيال كلها كيف تمت تربية هذا الجيل الفريد على يد بانيه وصائغه وزارعه محمد عليه الصلاة والسلام .

والى الجزء القادم بإذن الله نتابع معالم تربية هذه القاعدة العريضة التى بلغت خلال أقل من عام ثلاثة أضعافها اليوم وتم توظيفها لخدمة دين الله .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٨٢) [آل عمران] .

مكة المكرمة

منير محمد الغضبان

غرة صفر الخير ١٤١٨هـ

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١١	تهيد
السنة السابعة	
١٥	أولاً : غزوة ذات الرقاع (غزوة الأعاجيب)
١٦	قصة غورث بن الحارث ، قصة الصبي الذي به جنون
١٦	قصة البيضات الثلاث
١٧	قصة الرجل الذي دعا عليه ﷺ بضرب رقبتة
١٧	قصة الجمل الذي شكاه إليه حاله
١٧	قصة الشجرتين وقصة تخفيف العذاب عن ميتين
١٨	قصة الطائر الذي سقط على فرخه لما صاده بعض الصحابة
١٩	دورة تدريبية
٢١	جعيل بن سراقه
٢٢	أحب إليهم من أولادهم
٢٣	ما كنت أصنع بأن أذكره
٢٣	المعجزة النبوية
٢٤	أ - غورث الفاتك
٢٥	ب - المرأة البدوية وصبيها
٢٦	ج - الجمل الذي يشكو صاحبه
٢٧	د - الشجر له حق مثل الجمل
٢٨	رحمة رسول الله ﷺ بالفراخ الصغار وبالجيش
٢٩	فى التربية الجماعية

- ثانيا : السرايا _____ ٣١
- ١ - سرية أبى بكر إلى نجد فى شعبان سنة سبع _____ ٣١
- ٢ - سرية عمر بن الخطاب إلى ثُربة فى شعبان سنة سبع _____ ٣١
- ٣ - سرية بشير بن سعد إلى قَدك فى شعبان سنة سبع _____ ٣١
- ٤ - سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة فى رمضان سنة سبع _____ ٣٢
- ٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى مصاب بشير بن سعد _____ ٣٣
- ٦ - سرية بشير بن سعد إلى الجناح سنة سبع _____ ٣٥
- أعظم شخصيتين على رأس سريتين _____ ٣٧
- بشير بن سعد وسريته إلى قَدك _____ ٣٩
- سرية غالب بن عبد الله الليثى _____ ٤٠
- عودة بشير بن سعد إلى الساحة _____ ٤٩
- عيننة بن حصن على وشك السقوط _____ ٥٢
- التربية الجماعية فى عمرة القضية _____ ٥٥
- ثلاث مواقف فى أبعاد حمل السلاح فى الساحة العربية _____ ٦٤
- الموقف الأول _____ ٦٤
- الموقف الثانى _____ ٦٥
- الموقف الثالث _____ ٦٦
- سرية الدعوة إلى بنى سليم _____ ٧٨

السنة الثامنة

- أفلاذ أكباد مكة مسلمون فى المدينة _____ ٨٣
- البدايات والجذور _____ ٨٧
- الموقف الحاسم _____ ٨٩
- الصاعق الكهربى عند عمرو _____ ٩٢
- الصاعق الكهربى عند خالد _____ ٩٣
- خالد الداعية _____ ٩٥
- رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها _____ ٩٦

٩٧	اللقاء السعيد
٩٨	درس إلى الدعاء
١٠١	صفحتان من حياة عمرو بن العاص
١٠٣	سرايا نصر ومحن مع بداية العام الثامن
١٠٣	سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد في صفر سنة ثمان
١٠٤	سرية شجاع بن وهب الأسدي <small>رضي الله عنه</small> إلى بني عامر بالسبي في ربيع الأول سنة ثمان
١٠٥	سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاق في شهر ربيع الأول سنة ثمان
١٠٩	شجاع بن وهب السفير القائد
١١٠	من غزو بني عامر إلى إسلام سيد بني عامر
١١٤	خزاعة على طريق التربية الجماعية
١١٦	احتكاك مع الإمبراطوريتين
١٢١	صاحب بصرى
١٢٤	وفد مزينة
١٢٦	أول طلائع المزنين
١٢٧	غزوة مؤتة جهاد وتربية
١٢٧	قبل المعركة
١٣٩	في المعركة
١٤١	تأثير خالد
١٤٣	ذكر بعض مغنم المسلمين في مؤتة
١٤٤	خبر السرية على لسان رسول الله <small>ﷺ</small>
١٤٧	عودة الجيش إلى المدينة
١٤٨	استشهاد القادة الثلاثة
١٥٥	جانب الإعجاز في المعركة
١٥٧	في أدب التعامل مع القائد
١٦١	استقبال الجيش في المدينة
١٦٤	جعفر الطيار

١٧١	شوق الحبيب إلى الحبيب
١٧٥	غزوة ذات السلاسل والقائد المظفر الثانى
١٨٠	المال الصالح للرجل الصالح
١٨١	إلى بلى وقضاعة ولحم وجذام
١٨٢	سراة المهاجرين والأنصار
١٨٣	مدد جديد بخيار أهل الأرض
١٨٤	الأزمة الأولى
١٨٦	الأزمة الثانية
١٨٨	الأزمة الثالثة
١٨٨	الأزمة الرابعة
١٨٩	المحاكمة الميدانية
١٩٠	أبو بكر <small>رضي الله عنه</small> ورافع
١٩٦	عوف بن مالك الأشجعى
١٩٩	أعظم درس فى التربية الجماعية
٢٠٠	أبو عبيدة وسرية سيف البحر
٢٠٩	شعبان : غزوة ابن أبى حنرد ومناوشات مع هوازن
٢١١	شعبان : سرية أبى قتادة وآخر مناوشات غطفان
٢١٩	رمضان سنة ثمان ، إلى بطن إضم فى شهر رمضان قبل فتح مكة
٢١٩	تهيئة الأجواء لفتح مكة
٢٣٥	نقض العهد
٢٣٧	قدوم عمرو بن سالم
٢٤٩	أبو سفيان والصف الإسلامى الموحد : المهمة الخاسرة
٢٦٣	السرية والكتمان فى غزوة مكة وقضية حاطب
٢٨٠	تكوين الجيش الإسلامى والرواد الأوائل
٢٨٣	قوام الجيش الإسلامى فى المدينة
٢٨٣	أولاً : قريش

٢٨٤	ثانياً : الأنصار
٢٨٥	فرعاً الأوس والخزرج
٢٨٥	أ - الأوس
٢٨٧	ب - الخزرج
٢٨٩	ثالثاً : مزينة
٢٩٢	الوفادة الكبرى
٢٩٤	رابعاً : جهينة
٢٩٦	خامساً : أسلم
٢٩٨	سادساً : غفار
٣٠٠	سابعاً : أشجع
٣٠٢	ثامناً : بنو كعب من خزاعة
٣٠٤	تاسعاً : كنانة
٣٠٦	عاشرأ : بنو سليم
٣٠٧	سرية ابن أبى العوجاء السلمى فى ذى الحجة سنة سبع
٣١٨	على طريق مكة : أحداث وتربية
٣٢٥	بداية التحرك
٣٢٦	انضمام عيينة بن حصين
٣٢٧	التحرك الثانى إلى قديد
٣٣٨	الهجرة الأولى ، السفارة
٣٣٨	مناقب العباس بن عبد المطلب <small>رضي الله عنه</small>
٣٤١	من الجحفة إلى مر الظهران
٣٤٦	القائد الأسير وتربيته
٣٨٩	مع الرسول <small>ﷺ</small> إلى مكة
٣٩٨	الأنصار والحب والثار
٤٠١	حرب القادة الرفاق
٤٠٥	رسول الله <small>ﷺ</small> فى قبته

- مع رسول الله ﷺ من قبله إلى الكعبة ٤٠٨
- تخطيط الوثنية ٤١٥
- ١ - فى قلب مكة ٤١٥
- ٢ - عند الكعبة المشرفة ٤١٧
- ٣ - أعظم انقلاب فى مكة ٤١٧
- ٤ - محاولة الاغتيال ٤٢١
- ٥ - الصلاة أمام مقام إبراهيم ٤٢١
- ٦ - ورى من ماء زمزم ٤٢٣
- ٧ - داخل البيت العتيق ٤٢٥
- أ - قبل الدخول ٤٢٥
- ب - مفتاح البيت وعثمان بن طلحة ٤٢٧
- إعلان المبادئ ٤٣١
- مبادئ عفوه ﷺ ٤٣٢
- ١ - إلغاء الثأر ٤٣٢
- ٢ - إلغاء الربا ٤٣٢
- ٣ - إلغاء مآثر الجاهلية ٤٣٢
- ٤ - سدانة البيت وسقاية الحاج ٤٣٣
- ٥ - إلغاء الدول الجاهلية وقيام الدولة الإسلامية ٤٣٣
- ٦ - المساواة فى الأصل والتمايز على أساس التقوى ٤٣٣
- ٧ - تحديد دية القتل شبه العمد ٤٣٣
- ٨ - حرمة مكة المكرمة ٤٣٣
- ٩ - إلغاء الوصية للوارث ٤٣٣
- ١٠ - تنظيم الانساب وتحريم الزنا ٤٣٤
- ١١ - ولاية الزوج ٤٣٤
- ١٢ - أخوة الإسلام والمسلمين ٤٣٤
- ١٣ - حرمة الدم البشرى إلا بحق ٤٣٤

- ٤٣٤ - اختلاف العقيدة يلغى التوارث
- ٤٣٤ - تنظيم جباية الزكاة
- ٤٣٤ - فى تنظيم حكم سفر المرأة
- ٤٣٤ - تحريم الجمع بين الزوجة وعمتها وخالتها
- ٤٣٤ - فى تنظيم أصول القضاء
- ٤٣٤ - النهى عن صيامين
- ٤٣٤ - النهى عن لبستين
- ٤٣٥ - إلغاء الحقوق المترتبة على الزنا
- ٤٣٥ - إيقاف القتال
- ٤٣٥ - تطبيق المبادئ والحدث العظيم
- ٤٣٧ - المأدبة العظمى لقائد الفتح
- ٤٣٨ - اليوم تعظيم الكعبة اليوم أعز الله قريشاً
- ٤٣٨ - الناس يدخلون فى دين الله أفواجا
- ٤٤٠ - المخالفات الكبرى
- ٤٥٠ - اكابر مجرميها
- ٤٥٠ - ١ - عبد العزى بن خطل
- ٤٥٢ - ٢ - المرتد الثانى : مقيس بن أبى صبابه
- ٤٥٣ - ٣ - المرتد الثالث : عبد الله بن سعد بن أبى سرح
- ٤٥٥ - ٤ - القتيلى الثالث : الحويرث بن نقيذ
- ٤٥٦ - ٥ - المستأمن الثانى : هبار بن الأسود
- ٤٥٨ - ٦ - المستأمنة الثالثة
- ٤٥٨ - ٧ - لا يقتل قرشى صبرا بعد اليوم
- ٤٦٠ - أئمة الكفر الأربعة والتربية النبوية للعدو
- ٤٦٠ - ١ - هند بنت عتبة تنمة الأربعة
- ٤٦٨ - ٢ - عكرمة بن أبى جهل تنمة الثمانية
- ٤٧٣ - ٣ - ثالث الأربعة الكبار : صفوان بن أمية

- ٤٨٠ - رابع الأربعة الكبار : سهيل بن عمرو
- ٤٨٣ - نصف شهر ونيف : تربية وبناء
- ٤٨٣ - ذكر قدر إقامته ﷺ بمكة
- ٤٨٥ - بقية القيادات وإسلامها
- ٤٨٥ - ١ - الحارث بن هشام
- ٤٨٦ - ٢ - ولدا أبي لهب
- ٤٨٧ - ٣ - حويطب بن عبد العزى
- ٤٨٨ - ٤ - فاران جديدان
- ٤٩١ - هدم الطواغيت
- ٤٩١ - ١ - هدم العزى
- ٤٩٥ - ٢ - هدم سواع
- ٤٩٥ - ٣ - هدم مناة
- ٤٩٦ - ٤ - هدم ذى الكفين
- ٤٩٩ - غزوة بنى جذيمة
- ٥١٢ - أما كان فيكم رجل رحيم
- ٥١٦ - أحكام إسلامية وتربية عملية
- ٥١٧ - التعايش بين المسلمين
- ٥١٩ - محطات الإقلاع الثلاث
- ٥١٩ - المحطة الأولى ، المحطة الثانية
- ٥٢٠ - المحطة الثالثة
- ٥٢٣ - خطوط عريضة فى تربية القاعدة العريضة
- ٥٢٣ - ١ - التربية فى الصحراء من خلال البعث والسرايا
- ٥٢٤ - ٢ - التربية الجماعية وصلاة الخوف
- ٥٢٤ - ٣ - المعجزات النبوية
- ٥٢٥ - ٤ - دور القوة والإرهاب لمراجعة العدو لحساباته
- ٥٢٦ - ٥ - الإسلام هو الهدف الرئيسى للغزوات

٥٢٧	٦ - خلق الإسلام هو الوسيلة الكبرى لانتشاره
٥٢٩	٧ - التدريب على المشاق
٥٣٠	٨ - إسلام القبائل الجماعى وقبول هجرتهم فى مواقعهم
٥٣٠	أ - مزينة
٥٣٠	ب - خزاعة
٥٣٠	ج - أسلم
٥٣١	٩ - انضمام هذه القبائل للجيش الإسلامى
٥٣٢	١٠ - الرفقة النبوية
٥٣٢	١١ - فقه الأولويات
٥٣٤	١٢ - الحرب المعنوية
٥٣٥	١٣ - الانتصار وخزاعة وثأرهم
٥٣٦	١٤ - حكمة التعامل مع هذه الطاقات
٥٣٧	١٥ - القاعدة العريضة والغنائم
٥٣٧	١٦ - رعاية العقيدة والدعوة
٥٣٨	١٧ - إعلان المبادئ وتطبيقاتها
٥٣٩	١٨ - تنفيذ المبادئ فور إعلانها
٥٤٠	١٩ - البيعة على الإسلام
٥٤١	٢٠ - متابعة التربية القيادية
٥٤٣	فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ١٠٥٦٤ / ٢٠٠١ م

I.S.B.N:977-15-0318-9

هذا الكتاب

★ بعد عشرين عاماً - تقريباً - من عمر الدعوة مضت في إعداد القيادات للأمة، جاءت المرحلة الثانية، مرحلة الاتساع الأفقى الذى انطلق تيارا هادرا فى الأرض العربية بعد صلح الحديبية، ثم تيارا جارفا بعد فتح مكة، فانتقلت الدعوة من الصفوة إلى الجماهير.

★ ومن طبيعة الدعوات والحركات عندما تنتقل إلى مرحلة الامتداد الأفقى، أن ينقل الوافدون الجدد أمراضهم إلى الصفوة الأولى، وسرعان ما تتأثر الصفوة بهذه الأعداد الضخمة وتنتقل إليها عدوى الطمع والشهرة والمصلحة والمنفعة.

★ هذه الأمراض وغيرها، كيف أمكن لسيد ولد آدم ﷺ أن يتحاشاها فى صفه، وارتفع بالبناء شاهقا قويا متراسا

هذا ما سوف يتناوله هذا الكتاب بجزئيه من خلال أحداث السيرة ليكون مثال يحتذى به داخل الصف الإسلامى فى المجتمع المسلم ولدى قيادات العمل الإسلامى.

ودار الوفاء

يسعدنا أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، سائلة الله عز وجل أن ينفع به. والله من وراء القصد،،

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - حي ب - ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب. ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠

E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM

